بسم الله الرحمن الرحيم

أما قبل

(١)

يصدر العدد العاشر من الجسرة الثقافية بعد أن قاربت على اكتمال عامها الثالث دون توقف وسط أحوال ومتغيرات سياسية واقتصادية وفكرية عاصفة، وآخرها ما يشهده العالم في الآونة الأخيرة من بوادر صراع شديد التعقيد بين الغرب الأميركي وبعض الشعوب الإسلامية، ويبدو أن العولمة العصرية عولمت حتى الحروب والصراعات، وأصبح الصراع يأخذ شكل أحلاف متناقضة حيناً ومتضادة في الحين الآخر ومتماثلة في الحين الثالث، وكأن العالم أخذ من العولمة شكلها القميء، إذ بعد عولمة الاقتصاد وجعله في يد حفنة من الدول الصناعية الغنية، يتم عولمة الجوانب السياسية والعسكرية لهذه الدول الصناعية الغنية، حتى يصبح العالم في قبضتها ورهن إشارتها وهذا ما تبلوره الأحداث الجارية في لب الصراع بين الغرب الأميركي والعالم الإسلامي. وهذا ما كان قد فطن إليه الدكتور جمال حمدان منذ أوائل السبعينيات لكن كعادة العالم الثالث لا سيما العالم العربي لا يفطن إلى آراء مفكريه إلا بعد فوات الأوان.

(٢)

نقول في ظل هذه المتغيرات والكوارث الفادحة يصدر هذا العدد من الجسرة. وعلى الرغم من أن إسهامات هذا العدد جاءت قبل هذه المتغيرات والأحداث بحوالي ستة أشهر تقريباً إلا أنها تجسد نبض الواقع بكل تحولاته، فقد تناولت المستشرقة بربارة ميخالاك بيكولسكا دور المستشرقين في جامعة ياجيلونسكي ببولندة في نشر الثقافة العربية بشتى أنواعها، واستمرار هذه الجهود حتى وقتنا الحالي، وأن مثل هذه الجهود البناءة هي التي تسهم في التشكيل الحضاري للإنسان على خلاف الصراع العسكري الذي تشهده الثقافة الصهيوأميركية في محاولتها قهر الآخر ومحاولة محوه من الوجود.

أما دراسة السيميائية في الدرس النقدي المعاصر للدكتور مراد عبدالرحمن مبروك فهي تحاول أن تربط المصطلح النقدي بأصوله الفلسفية والاجتماعية والفكرية والأدبية وتطوره من مجتمع لآخر ومن ثقافة لأخرى يخضع لأبنية فلسفية وفكرية لأن كل بنية لغوية واجتماعية لها مبناها

الدال على معناها ومن هنا تعولم المصطلحات وفق المتغيرات الحضارية لكنها لا تفقد خصوصيتها.

وتأتي دراسة الباحث علي بن حسين المفتاح لتناقش الأهمية الاستراتيجية والتجارية للخليج العربي في العصور الوسطى، وكيف أن الآخر قد أدرك أهميتها الممتدة من العصور الوسطى إلى العصر الحاضر. ونظراً لهذه الأهمية الاستراتيجية التي تحظى بها هذه المنطقة لذلك نجدها دوماً في مسرح الأحداث والصراعات التي يشهدها العالم خاصة في وقتنا الراهن.

(٣)

ويأتي ملف هذا العدد عن الشاعر الأسباني لوركا الذي جسد روح التلاقي بين الحضارتين الغربية والإسلامية من خلال أنماطه الشعرية المستنيرة دون أن يلجأ إلى الصدام الحضاري مثلما يفعل الآخرون وتستهويهم فكرة هذا الصدام.

وجاء المحوران الشعري والقصصي اللذان أسهم فيهما نخبة واعية من الشعراء والكتاب، ليجسد نبض الواقع المعيش سواء من خلال النصوص الإبداعية العربية أو المترجمة. وجاء حوار العدد مع رئيس تحرير الملحق الديني لصحيفة جازيتا الروسية، ليجسد روح الفكر الديني الإنساني بعيداً عن الصدام والفوقية التي تستهوي البعض. وجاء محور الفنون عن الحاسوب وانتهاء عصر هوليوود في السينما للدكتور نبيل سليم. أما محور الإضاءات الفكرية فقد أعده محمد عصفور عن محاضرة جادة للدكتور يوسف إدريس كان قد ألقاها في نادي الجسرة الثقافي بالدوحة في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي وعنيت بأزمة الثقافة العربية، وكأن هذه الأزمة ما تزال ماثلة حتى الآن.

أما محور المتابعات الذي اشترك فيه نخبة من النقاد والأكاديميين والكتاب فقد عبر عن واقع الحياة الأدبية والنقدية والفكرية والثقافية الراهنة التي يعيشها واقعنا العربي. وجاء محور الفن التشكيلي عن دور الفنان في ممارسة الكتابة النقدية وإلى أي مدى يحق له ممارسة ذلك. وقد ناقش هذا السؤال وحاول الإجابة عنه الفنان أسعد عرابي.

وهكذا تحاول الجسرة الثقافية جاهدة مواصلة رسالتها الثقافية من الدوحة إلى بعض العواصم العربية والأوروبية.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

«أسرة التحرير»

دراسات

السيميائية في الدرس النقدي المعاصر عند رولان بارت

د . مراد عبدالرحمن مبروك*

(١)

فاتحة الدراسة

«المفهوم»

١- مفتتح :

لسنا بصدد تتبع جذور السيميوطيقا في الآداب الأوروبية والعربية القديمة، «بداية من الرواقيين Stoics في القرن الثالث قبل الميلاد وحديثهم عن العلامة بجانبيها الدال signifiant والمدلول Signifie، مروراً بالمدرسة الشكلية تحت قيادة الفيلسوف أينيسيديموس Anesesid-emus في القرن الأول قبل الميلاد الذي استقى صيغه البحثية من تحليل العلامات، وورود تصنيف العلامات عند الناقد البلاغي شيشرون Cicero في القرن الأول قبل الميلاد، ومحاولات كل من الفيلسوف الطبيب سيكتوس أمبريكوس Sextus Empiricus في تصنيف العلامات المستترة، والطبيب جالينوس Golen في التمييز بين العلامات العامة والخاصة، في القرن الثاني الميلادي. وكذلك محاولات المفكر الجزائري القديس أوجستين (٣٥٤-٤٣٠) في تعريفه العلامة ضمن أبحاثه في التأويل، ونهاية بمحاولات جوتفرد لايبنتز Gottfried Leib-niz (١٦٤٦-١٧١٦) في كشف دور العلامات في المنهج العلمي» . (١)

ولكننا بصدد تناول مفهوم السيميائية في الدرس النقدي المعاصر عند بعض النقاد. فقد تعددت المفاهيم والتعبيرات حول المصطلح نفسه، فهناك بعض النقاد يطلقون عليه «السيميوطيقا» semiotica خاصة كتاب الإنجليزية الذين «يفضلون استخدام جون لوك لها (١٦٣٢-١٧٠٤) أول الأمر عن طريق استعارتها مباشرة من اليونانية Semiotike، كما أن دارسي الأدب الإنجليزي يألفون قوله في دراسته الشهيرة عن «طبيعة الفهم» أنها تعني مذهب العلامات Doct of Signs، الذي يعرفه بأنه النشاط الذي يختص بالبحث في طبيعة العلامات التي يستخدمها الذهن للوصول إلى فهم الأشياء أو في توصيل معارفه إلى الآخرين. (٢)

والبعض الآخر يطلقون عليه السيميولوجيا Semiology خاصة كتّاب الفرنسية، فإذا كان تشارلز ساندرز بيرس رائداً للسيميوطيقا الإنجليزية فإن سوسير يعد رائداً للسيميولوجيا الفرنسية؛ ومن هنا شاع المصطلحان في الدراسات النقدية، وحاول البعض أن يفرق بين

* أستاذ الأدب الحديث بجامعة قطر

دراسات

السيميائية في الدرس النقدي المعاصر عند رولان بارت

د . مراد عبدالرحمن مبروك*

(١)

فاتحة الدراسة

«المفهوم»

١- مفتتح :

لسنا بصدد تتبع جذور السيميوطيقا في الآداب الأوروبية والعربية القديمة، «بداية من الرواقيين Stoics في القرن الثالث قبل الميلاد وحديثهم عن العلامة بجانبيها الدال signifiant والمدلول Signifie، مروراً بالمدرسة الشكلية تحت قيادة الفيلسوف أينيسيديموس Anesesid-emus في القرن الأول قبل الميلاد الذي استقى صيغه البحثية من تحليل العلامات، وورود تصنيف العلامات عند الناقد البلاغي شيشرون Cicero في القرن الأول قبل الميلاد، ومحاولات كل من الفيلسوف الطبيب سيكتوس أمبريكوس Sextus Empiricus في تصنيف العلامات المستترة، والطبيب جالينوس Golen في التمييز بين العلامات العامة والخاصة، في القرن الثاني الميلادي. وكذلك محاولات المفكر الجزائري القديس أوجستين (٣٥٤-٤٣٠) في تعريفه العلامة ضمن أبحاثه في التأويل، ونهاية بمحاولات جوتفرد لايبنتز Gottfried Leib-niz (١٦٤٦-١٧١٦) في كشف دور العلامات في المنهج العلمي». (١)

ولكننا بصدد تناول مفهوم السيميائية في الدرس النقدي المعاصر عند بعض النقاد. فقد تعددت المفاهيم والتعبيرات حول المصطلح نفسه، فهناك بعض النقاد يطلقون عليه «السيميوطيقا» semiotica خاصة كتاب الإنجليزية الذين «يفضلون استخدام جون لوك لها (١٦٣٢-١٧٠٤) أول الأمر عن طريق استعارتها مباشرة من اليونانية Semiotike، كما أن دارسي الأدب الإنجليزي يألفون قوله في دراسته الشهيرة عن «طبيعة الفهم» أنها تعني مذهب العلامات Doct of Signs، الذي يعرفه بأنه النشاط الذي يختص بالبحث في طبيعة العلامات التي يستخدمها الذهن للوصول إلى فهم الأشياء أو في توصيل معارفه إلى الآخرين. (٢)

والبعض الآخر يطلقون عليه السيميولوجيا Semiology خاصة كتّاب الفرنسية، فإذا كان تشارلز ساندرز بيرس رائداً للسيميوطيقا الإنجليزية فإن سوسير يعد رائداً للسيميولوجيا الفرنسية؛ ومن هنا شاع المصطلحان في الدراسات النقدية، وحاول البعض أن يفرق بين

* أستاذ الأدب الحديث بجامعة قطر

المصطلحين، فهناك من يرى أن «السيميولوجيا تعنى بدراسة نظام محدد من أنظمة التوصيل، من خلال علاماته وإشاراته ودراسة الدلالات والمعاني أينما وجدت، وعلى الخصوص في النظام اللغوي، أما السيميوطيقا فتهتم بدراسة الاتصال والدلالة عبر أنظمة العلامات، في علوم مختلفة، وفي تطبيقاتها وممارساتها الخيالية، فهي تتخصص في الاتصال الآلي، والاتصال الحيواني، وتصل إلى أكثر أنظمة الاتصال الإنساني تعقيداً وتركيباً؛ لغة الأساطير، واللغة الشعرية مثلاً، مستعملة في هذه المجالات المختلفة علوم اللغويات، والأنثروبولوجيا، والمنطق والفلسفة والألسنية» [٣].

وهناك من يرى تطابقاً بين المصطلحين ويستخدمهما بمفهوم واحد استناداً إلى القرار الذي اتخذته الجمعية العالمية للسيميوطيقا Semiotica التي انعقدت في فبراير عام ١٩٦٩ بباريس وقررت تبني استخدام مصطلح السيميوطيقا، وتأسيس الرابطة الدولية للدراسات السيميوطيقية[٤].

* * *

وعلى الرغم من أن السيميائية انحصرت في أغلب الأحيان في مفهومين هما السيميوطيقا والسميولوجيا في الدراسات الإنجليزية والفرنسية، إلا أنها تشعبت وتعددت واختلفت تسمياتها في الدراسات النقدية العربية.

فهناك عدد كبير من الدارسين العرب [٥] يستخدمون مصطلح «سيمياء» ومنهم: الدكتور محمد مفتاح، وسامي سويدان والدكتور عبدالملك مرتاض، عبدالعالى بوطيب والدكتور رضوان ظاظا، والدكتور جوزيف ميشال شريم، وحسن بحراوي، وجمال شحيد، ومحمد حمود، وعبدالنبي اصطيف، ومحمد عزام والدكتور عادل فاخوري، حنون مبارك، والدكتور رئيف كرم، وأنطوان أبوزيد وغيرهم.

وفريق آخر [٦] يستخدم مصطلح «علم العلامات» أو «العلامية» أو «الدلائلية» ومنهم: مجدي وهبة، والدكتور زكريا إبراهيم والدكتور عز الدين إسماعيل، والدكتور عبدالسلام المسدي والدكتور عبدالكريم حسن، وشكري المبخوت، وسمير المرزوقي وغيرهم.

وفريق ثالث يستخدم مصطلح «السيميولوجيا» ومنهم [٧]: الدكتور صلاح فضل، والدكتور سعيد حسن بحيري، وحياة جاسم محمد، الدكتور حميد لحمداني، والدكتور أنطون طعمة، والدكتور لطيف زيتوني وغيرهم.

وفريق رابع يستخدم مصطلح «السيميوطيقا» ومنهم [٨]: الدكتور محمد عناني، والدكتور عبدالمنعم تليمة، والدكتورة أمينة رشيد، وكاطع الحلفى، والدكتور عبدالحميد إبراهيم شيحة، ومحمد الماكري؛ وفريق خامس يستخدم المصطلحات الثلاثة في آن واحد دون تفضيل مصطلح على آخر ومنهم [٩]: الدكتورة سيزا قاسم، والدكتور سامي حنا، والدكتورة فريال غزول، والدكتور نصر حامد أبوزيد؛ وفرق عديدة أخرى في ساحتنا النقدية العربية تستخدم تارة علم الدلالات، وأخرى علم الإشارة وثالثة علم الأدلة، وعلم الدلائل وغيرها.

وكل هذه التسميات لها ما يبررها من الناحيتين الفنية والموضوعية، واختيار مصطلح

المصطلحين، فهناك من يرى أن «السيميولوجيا تعنى بدراسة نظام محدد من أنظمة التوصيل، من خلال علاماته وإشاراته ودراسة الدلالات والمعاني أينما وجدت، وعلى الخصوص في النظام اللغوي، أما السيميوطيقا فتهتم بدراسة الاتصال والدلالة عبر أنظمة العلامات، في علوم مختلفة، وفي تطبيقاتها وممارساتها الخيالية، فهي تتخصص في الاتصال الآلي، والاتصال الحيوانى، وتصل إلى أكثر أنظمة الاتصال الإنسانى تعقيداً وتركيباً؛ لغة الأساطير، واللغة الشعرية مثلاً، مستعملة في هذه المجالات المختلفة علوم اللغويات، والأنثروبولوجيا، والمنطق والفلسفة والألسنية» (٣).

وهناك من يرى تطابقاً بين المصطلحين ويستخدمهما بمفهوم واحد استناداً إلى القرار الذي اتخذته الجمعية العالمية للسيميوطيقا Semiotica التي انعقدت في فبراير عام ١٩٦٩ بباريس وقررت تبني استخدام مصطلح السيميوطيقا، وتأسيس الرابطة الدولية للدراسات السيميوطيقية(٤).

* * *

وعلى الرغم من أن السيميائية انحصرت في أغلب الأحيان في مفهومين هما السيميوطيقا والسميولوجيا في الدراسات الإنجليزية والفرنسية، إلا أنها تشعبت وتعددت واختلفت تسمياتها في الدراسات النقدية العربية.

فهناك عدد كبير من الدارسين العرب (٥) يستخدمون مصطلح «سيمياء» ومنهم: الدكتور محمد مفتاح، وسامي سويدان والدكتور عبدالملك مرتاض، عبدالعالى بوطيب والدكتور رضوان ظاظا، والدكتور جوزيف ميشال شريم، وحسن بحراوي، وجمال شحيد، ومحمد حمود، وعبدالنبي اصطيف، ومحمد عزام والدكتور عادل فاخوري، حنون مبارك، والدكتور رئيف كرم، وأنطوان أبوزيد وغيرهم.

وفريق آخر (٦) يستخدم مصطلح «علم العلامات» أو «العلامية» أو «الدلائلية» ومنهم: مجدي وهبة، والدكتور زكريا إبراهيم والدكتور عز الدين إسماعيل، والدكتور عبدالسلام المسدي والدكتور عبدالكريم حسن، وشكري المبخوت، وسمير المرزوقي وغيرهم.

وفريق ثالث يستخدم مصطلح «السيميولوجيا» ومنهم (٧): الدكتور صلاح فضل، والدكتور سعيد حسن بحيري، وحياة جاسم محمد، الدكتور حميد لحمداني، والدكتور أنطون طعمة، والدكتور لطيف زيتوني وغيرهم.

وفريق رابع يستخدم مصطلح «السيميوطيقا» ومنهم (٨): الدكتور محمد عناني، والدكتور عبدالمنعم تليمة، والدكتورة أمينة رشيد، وكاطع الحلفى، والدكتور عبدالحميد إبراهيم شيحة، ومحمد الماكري؛ وفريق خامس يستخدم المصطلحات الثلاثة في آن واحد دون تفضيل مصطلح على آخر ومنهم (٩): الدكتورة سيزا قاسم، والدكتور سامي حنا، والدكتورة فريال غزول، والدكتور نصر حامد أبوزيد؛ وفرق عديدة أخرى في ساحتنا النقدية العربية تستخدم تارة علم الدلالات، وأخرى علم الإشارة وثالثة علم الأدلة، وعلم الدلائل وغيرها.

وكل هذه التسميات لها ما يبررها من الناحيتين الفنية والموضوعية، واختيار مصطلح

«سيميائية» لا يعني تفضيل مصطلح على آخر، ولكن نظراً لأن معظم الدراسات النقدية العربية المعاصرة استخدمت مصطلح «سيمياء» استناداً إلى كلمة «السيما» أي العلامة. وهي تعبير قريب من مفهومي السيميولوجيا أو السيميوطيقا فضلاً عن تطلعنا إلى توحيد المصطلح في نقدنا العربي، وإذا كان الدرس النقدي الإنجليزي يفضل مصطلح «السيميوطيقا»، والدرس النقدي الفرنسي يفضل مصطلح «السيميولوجيا» فمن الممكن في درسنا النقدي العربي استخدام مصطلح «السيميائية» وترسيخه لوجود عشرات الدراسات النقدية العربية التي استخدمت هذا المصطلح في درسنا النقدي العربي المعاصر.

وما يعنينا في هذا الموضع هو محاولة توحيد مصطلحاتنا ا لنقدية وتحديد معاييرها ومفاهيمها، حتى لا تتداخل أبعادها في وعى المتلقي للنص النقدي العربي، لا سيما أن هذا العلم أصبح راسخاً في الدرسين النقدي والثقافي، ففي الدرس الأوروبي صدرت دوريات متخصصة تحمل اسمه مثل دورية الجمعية الدولية للدراسات السيميوطيقية Semiotica، ودورية Semiosis الألمانية، وVersus الإيطالية، وDegres البلجيكية، فضلاً عن مئات الدراسات التي تنتشر في دوريات علم اللغة، واللسانيات، والأسلوبية، وعلم الجمال، والنقد الأدبي. وفي نقدنا العربي توجد عشرات الدراسات السيميائية التي صدرت عن دور النشر العربية، ومنها ما هو منشور في الدوريات النقدية المتخصصة، يضاف لذلك ظهور دورية نقدية تحمل اسم علامات في النقد تصدر عن النادي الأدبي بجدة، غير أننا لا ندري إذا كانت هذه التسمية تم اختيارها لترسيخ «علم السيمياء» أم أنها مجرد تسمية غير قصدية تحمل اسم دورية نقدية. على أن عناية هذه الدورية في معظمها بالدراسات السيميائية يجعلنا نرجح الرأي الأول القصدي.

ولعل تعدد الدراسات حول هذا الاتجاه النقدي يجعلنا أكثر حرصاً على توحيد مصطلحه وتحديد مفاهيمه في الخطاب النقدي المعاصر.

(٢)

وفي الدرس النقدي الأوروبي تعددت الدراسات السيميوطيقية والسيميولوجية منذ أوائل القرن العشرين، وقد تضمنت ببليوجرافيا علم الدلالة (١٩٦٥-١٩٧٨) [١٠] -(Semantics, 1965-1978) العديد من الدراسات السيميائية. وكذلك الأمر بالنسبة للدراسات العربية خاصة في العقود الثلاثة الأخيرة. وهذا الكم من الدراسات العديدة انعكس بدوره على مفهوم السيميائية ومن ثم لزم التخصيص والاقتصار على بعض النقاد الذين اهتموا بمفهوم السيميائية على سبيل المثال وليس الحصر. ومنهم، الفيلسوف الأميركى تشارلز ساندرز بيرس C.S.Peirs (١٨٣٩-١٩١٤) واللغوي السويسري فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure (١٨٥٧-١٩١٤)، والناقد الفرنسي رولان بارت R.Barthes (١٩١٥-١٩٨٠).

* * *

٢- أ تشارلز ساندرز بيرس C. S. Peirs:

دعا بيرس إلى نظرية عامة في العلاقات أكد فيها على الوظيفة المنطقية لها. وعرف «العلامة بأنها تمثيل Representation لشيء ما بحيث

«سيميائية» لا يعني تفضيل مصطلح على آخر، ولكن نظراً لأن معظم الدراسات النقدية العربية المعاصرة استخدمت مصطلح «سيمياء» استناداً إلى كلمة «السيما» أي العلامة. وهي تعبير قريب من مفهومي السيميولوجيا أو السيميوطيقا فضلاً عن تطلعنا إلى توحيد المصطلح في نقدنا العربي، وإذا كان الدرس النقدي الإنجليزي يفضل مصطلح «السيميوطيقا»، والدرس النقدي الفرنسي يفضل مصطلح «السيميولوجيا» فمن الممكن في درسنا النقدي العربي استخدام مصطلح «السيميائية» وترسيخه لوجود عشرات الدراسات النقدية العربية التي استخدمت هذا المصطلح في درسنا النقدي العربي المعاصر.

وما يعنينا في هذا الموضع هو محاولة توحيد مصطلحاتنا ا لنقدية وتحديد معاييرها ومفاهيمها، حتى لا تتداخل أبعادها في وعى المتلقي للنص النقدي العربي، لا سيما أن هذا العلم أصبح راسخاً في الدرسين النقدي والثقافي، ففي الدرس الأوروبي صدرت دوريات متخصصة تحمل اسمه مثل دورية الجمعية الدولية للدراسات السيميوطيقية Semiotica، ودورية Semiosis الألمانية، وVersus الإيطالية، وDegres البلجيكية، فضلاً عن مئات الدراسات التي تنتشر في دوريات علم اللغة، واللسانيات، والأسلوبية، وعلم الجمال، والنقد الأدبي. وفي نقدنا العربي توجد عشرات الدراسات السيميائية التي صدرت عن دور النشر العربية، ومنها ما هو منشور في الدوريات النقدية المتخصصة، يضاف لذلك ظهور دورية نقدية تحمل اسم علامات في النقد تصدر عن النادي الأدبي بجدة، غير أننا لا ندري إذا كانت هذه التسمية تم اختيارها لترسيخ «علم السيمياء» أم أنها مجرد تسمية غير قصدية تحمل اسم دورية نقدية. على أن عناية هذه الدورية في معظمها بالدراسات السيميائية يجعلنا نرجح الرأي الأول القصدي.

ولعل تعدد الدراسات حول هذا الاتجاه النقدي يجعلنا أكثر حرصاً على توحيد مصطلحه وتحديد مفاهيمه في الخطاب النقدي المعاصر.

(٢)

وفي الدرس النقدي الأوروبي تعددت الدراسات السيميوطيقية والسيميولوجية منذ أوائل القرن العشرين، وقد تضمنت ببليوجرافيا علم الدلالة (١٩٦٥-١٩٧٨) [١٠] -(Semantics, 1965-1978) العديد من الدراسات السيميائية. وكذلك الأمر بالنسبة للدراسات العربية خاصة في العقود الثلاثة الأخيرة. وهذا الكم من الدراسات العديدة انعكس بدوره على مفهوم السيميائية ومن ثم لزم التخصيص والاقتصار على بعض النقاد الذين اهتموا بمفهوم السيميائية على سبيل المثال وليس الحصر. ومنهم، الفيلسوف الأميركي تشارلز ساندرز بيرس C.S.Peirs (١٨٣٩-١٩١٤) واللغوي السويسري فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure (١٨٥٧-١٩١٤)، والناقد الفرنسي رولان بارت R.Barthes (١٩١٥-١٩٨٠).

* * *

٢- أ تشارلز ساندرز بيرس C. S. Peirs:

دعا بيرس إلى نظرية عامة في العلاقات أكد فيها على الوظيفة المنطقية لها. وعرف «العلامة بأنها تمثيل Representation لشيء ما بحيث

يكون قادراً على توصيل بعض جوانبه أو طاقاته إلى شخص ما» [١١].

وهنا يتضح أن تشارلز بيرس عني بالمستوى الأنطولوجي للسيميوطيقا (السيميائية) أي بتحديد ماهية العلامة ودرس مقوماتها وطبيعة علاقاتها بالموجودات الأخرى التي تشبهها. وعلى الرغم من موسوعية بيرس حيث كان رياضياً وفلكياً وكيميائياً، إلا أنه كان شديد الاهتمام باللغة والأدب لا سيما الدراسات السيميوطيقية، حيث قسم العلامة إلى أيقونة Icon ومؤشر Index، ورمز Symbol وذلك على النحو التالي:

I- الأيقونة Icon :

وهي عند بيرس «علامة تحيل إلى الشيء الذي تشير إليه بفضل صفات تمتلكها، خاصة بها وحدها. فقد يكون أي شيء أيقونة لأي شيء آخر سواء كان هذا الشيء صفة أو كائناً فرداً أو قانوناً بمجرد أن تشبه الأيقونة هذا الشيء وتستخدم علامة له» [١٢].

أي أن الأيقونة تشبه الشيء الذي تشير إليه وتشترك معه في صفة. أو يكون بينها وبين المشار إليها عامل مشترك يربط بينهما مثل الرابط بين أصل الشيء وصورته أو الإنسان وظله أو القرين وما يقترن به.

ويختلف أمبرتو إيكو مع تشارلز بيرس في مفهومه للعلامات الأيقونية على أن الرابط بينهما هو مجرد التشابه، لأن هذه النظرة نظرة مباشرة وعلاقة الأيقونة Icon بالشيء لا تقف عند حد التشابه فحسب بل تتجاوز ذلك إلى إدراكها بالحواس. ويعرض إيكو لمفهوم بيرس حول العلامة فيقول «عمد بيرس فى العام ١٨٩٧ (٢-٢٢٨) إلى التخصيص إيضاحاً (أي تخصيص مفهوم العلامة الأيقونية): «إن علامة أو ماثولاً هو شيء يحل بدلاً من امرىء أو شيء ضمن علاقة ما، أو تحت عنوان ما، وهو معد لكي يخاطب أحداً. أي يخلق في ذهن هذا الشخص علامة متعادلة أو علامة ربما كانت أكثر اتساعاً، وهذه العلامة هي التي ينشئها (لدى المتلقي) أدعوها تعبير العلامة الأولى. تلك العلاقة تحمل بديلا عن شيء، أي عن موضوعها الخاص، والحال أن هذه العلامة إنما تحل بديلاً عن هذا الموضوع دون أن تمثله في علائقه كلها، بل تؤثر الرجوع إلى فكرة دعوتها أحياناً [١٣].

إن امبرتو إيكو يتجاوز العلاقة المادية التي تربط بين الشيء وقرينه أو بين الأيقونة وما تقترن به إلى علاقة ذهنية تقوم على الفكر والثقافة، لأن التشابه لا يقوم على القرينة المادية بل تسبقها القرائن الثقافية والفكرية. أي أن التشابه بينهما يكون ناتجاً عن ممارسات وعلاقات ثقافية بينهما. ولذلك يقول إيكو: «لا شيء يحملنا على الاعتقاد بأن بيرس كان يعني- بالموضوع- شيئاً ملموساً معطي (وهذا ما يدعي في علم الدلالة المخصوص بأوغدن وريتشاردز) لا بسبب أن بيرس ظل يثبت أنه يستحيل- تحديد- أشياء ملموسة عبر اللغة بل؛ لأن ذلك يتم لعبارات بعينها.. ومن جهة أخرى فإن الفكرة هي شيء وإن لم تتخذ لها نمط إحدى الهذيات» [١٤].

وهكذا نجد أن ايكو يوسع دلالة الربط بين الأيقونة وما تقترن به ولا تقف عند الملموس

يكون قادراً على توصيل بعض جوانبه أو طاقاته إلى شخص ما» (١١).

وهنا يتضح أن تشارلز بيرس عني بالمستوى الأنطولوجي للسيميوطيقا (السيميائية) أي بتحديد ماهية العلامة ودرس مقوماتها وطبيعة علاقاتها بالموجودات الأخرى التي تشبهها. وعلى الرغم من موسوعية بيرس حيث كان رياضياً وفلكياً وكيميائياً، إلا أنه كان شديد الاهتمام باللغة والأدب لا سيما الدراسات السيميوطيقية، حيث قسم العلامة إلى أيقونة Icon ومؤشر Index، ورمز Symbol وذلك على النحو التالي:

I- الأيقونة Icon :

وهي عند بيرس «علامة تحيل إلى الشيء الذي تشير إليه بفضل صفات تمتلكها، خاصة بها وحدها. فقد يكون أي شيء أيقونة لأي شيء آخر سواء كان هذا الشيء صفة أو كائناً فرداً أو قانوناً بمجرد أن تشبه الأيقونة هذا الشيء وتستخدم علامة له» (١٢).

أي أن الأيقونة تشبه الشيء الذي تشير إليه وتشترك معه في صفة. أو يكون بينها وبين المشار إليها عامل مشترك يربط بينهما مثل الرابط بين أصل الشيء وصورته أو الإنسان وظله أو القرين وما يقترن به.

ويختلف أمبرتو إيكو مع تشارلز بيرس في مفهومه للعلامات الأيقونية على أن الرابط بينهما هو مجرد التشابه، لأن هذه النظرة نظرة مباشرة وعلاقة الأيقونة Icon بالشيء لا تقف عند حد التشابه فحسب بل تتجاوز ذلك إلى إدراكها بالحواس. ويعرض إيكو لمفهوم بيرس حول العلامة فيقول «عمد بيرس فى العام ١٨٩٧ (٢-٢٢٨) إلى التخصيص إيضاحاً (أي تخصيص مفهوم العلامة الأيقونية) : «إن علامة أو ماثولاً هو شيء يحل بدلاً من امرىء أو شيء ضمن علاقة ما، أو تحت عنوان ما، وهو معد لكي يخاطب أحداً. أي يخلق في ذهن هذا الشخص علامة متعادلة أو علامة ربما كانت أكثر اتساعاً، وهذه العلامة هي التي ينشئها (لدى المتلقي) أدعوها تعبير العلامة الأولى. تلك العلاقة تحمل بديلا عن شيء، أي عن موضوعها الخاص، والحال أن هذه العلامة إنما تحل بديلاً عن هذا الموضوع دون أن تمثله في علائقه كلها، بل تؤثر الرجوع إلى فكرة دعوتها أحياناً (١٣).

إن امبرتو إيكو يتجاوز العلاقة المادية التي تربط بين الشيء وقرينه أو بين الأيقونة وما تقترن به إلى علاقة ذهنية تقوم على الفكر والثقافة، لأن التشابه لا يقوم على القرينة المادية بل تسبقها القرائن الثقافية والفكرية. أي أن التشابه بينهما يكون ناتجاً عن ممارسات وعلاقات ثقافية بينهما. ولذلك يقول إيكو: «لا شيء يحملنا على الاعتقاد بأن بيرس كان يعني- بالموضوع- شيئاً ملموساً معطي (وهذا ما يدعي في علم الدلالة المخصوص بأوغدن وريتشاردز) لا بسبب أن بيرس ظل يثبت أنه يستحيل- تحديد- أشياء ملموسة عبر اللغة بل؛ لأن ذلك يتم لعبارات بعينها.. ومن جهة أخرى فإن الفكرة هي شيء وإن لم تتخذ لها نمط إحدى الهذيات» (١٤).

وهكذا نجد أن ايكو يوسع دلالة الربط بين الأيقونة وما تقترن به ولا تقف عند الملموس

فحسب بل تتجاوزه إلى الأفكار، لأن الفكرة غالباً ما تسبق المادة، ويميز بيرس بين ثلاثة أنواع من الأيقونات: الصورة والرسم البياني والاستعارة وكلها تنطوي على جوانب تشابه بينها وبين المشار إليه (١٥).

وعلى الرغم من فضل السبق لبيرس في الإشارة إلى أقسام العلامة، إلا أن بعض الدارسين السيميوطيقيين قد اختلفوا معه حول ماهيتها وجوانبها لا سيما السيميوطيقيين السوفيت ومنهم على سبيل المثال يوري لوتمان الذي رأى «أن العلامة الأيقونية لا تقف عند حد التشابه بل تمتد إلى أبعاد ثقافية أخرى فيرى أنه على طول التاريخ البشري، ومهما أوغلنا في الماضي لا نجد إلا نوعين من العلامات مستقلين ومتماثلين ثقافياً. هذان النوعان هما الكلمة والصورة، لكل منهما تاريخها ولكن يبدو أن وجود كل من النظامين أمر ضروري لتطور الثقافة» (١٦).

أي أن الأيقونة لا يمكن أن تتمثل في نظام واحد من كلا النظامين كما يرى بيرس بل لا بد للنظامين معاً حتى تتحقق العلامة الأيقونية بمفهومها الشمولي.

ونحن نرى مع ا لدارسين السيميوطيقيين ضرورة توسيع الأفق الدلالي للعلامة الأيقونية حتى تتناسب مع مستويات التأويل والتعدد الدلالي والتفجير اللغوي الذي طرأ على النصوص الإبداعية المعاصرة. وهذا لا يتعارض مع مفهوم العلامة بل يؤدي إلى تعدد أبعادها فالقضبان علامة مباشرة للقطار والعكس صحيح ومن الممكن أن يكون القطار علامة إيحائية على بعد دلالي آخر كاستمرارية الحياة وديمومتها وجريانها الأبدي.

II- المؤشر «Index»:

وهو على حد قول بيرس «علامة تحيل إلى الشيء الذي تشير إليه بفضل وقوع هذا الشيء عليها في الواقع» (١٧):

والمؤشرات بهذا المفهوم عند بيرس هي علامات طبيعية أيضاً مثل نزول قطرات المياه من السماء مؤشر لسقوط أمطار، وسكب الدموع من العينين مؤشر للحزن أو البكاء، والضحك مؤشر للسعادة أو الفرح أو البهجة، أو على حد رؤية بيرس (١٨) نفسه أن العلامة هي علاقة مجاورة بين الإشارة والشيء المشار إليه مثل ارتفاع الحرارة مؤشر للمرض، والغيوم مؤشر للمطر، والدخان مؤشر للنار.

على أن هذا المفهوم لا يكتمل إلا بتضافر العلامات الطبيعية والعرفية معاً، ولا نبالغ حين نقول: «إن العلامات العرفية تشكل ملمحاً بارزاً في المؤشر لأن بيرس قد أدرج بين المؤشرات بعض العلامات اللغوية- وهي أسماء الإشارة والظرف والضمائر- فكيف يمكن اعتبار مثل هذه العلامات- هى علامات عرفية محض- ضمن العلامات الطبيعية؟» (١٩).

ولذلك يقول: «إن أسماء الإشارة (هذا)، و(ذلك) مؤشرات؛ لأنها تتطلب من المستمع أن يركز انتباهه، وأن يستخدم قوة ملاحظته، وأن يؤسس علاقة حقيقية بينه وبين الشيء الذي تحيل إليه الأسماء، وتكمن فاعلية أسماء الإشارة في أنها تحفز المستمع إلى هذا السلوك وإن فشلت في هذا فلا يفهم معناها، وإن قامت أسماء

فحسب بل تتجاوزه إلى الأفكار، لأن الفكرة غالباً ما تسبق المادة، ويميز بيرس بين ثلاثة أنواع من الأيقونات: الصورة والرسم البياني والاستعارة وكلها تنطوي على جوانب تشابه بينها وبين المشار إليه (١٥).

وعلى الرغم من فضل السبق لبيرس في الإشارة إلى أقسام العلامة، إلا أن بعض الدارسين السيميوطيقيين قد اختلفوا معه حول ماهيتها وجوانبها لا سيما السيميوطيقيين السوفيت ومنهم على سبيل المثال يوري لوتمان الذي رأى «أن العلامة الأيقونية لا تقف عند حد التشابه بل تمتد إلى أبعاد ثقافية أخرى فيرى أنه على طول التاريخ البشري، ومهما أوغلنا في الماضي لا نجد إلا نوعين من العلامات مستقلين ومتماثلين ثقافياً. هذان النوعان هما الكلمة والصورة، لكل منهما تاريخها ولكن يبدو أن وجود كل من النظامين أمر ضروري لتطور الثقافة» (١٦).

أي أن الأيقونة لا يمكن أن تتمثل في نظام واحد من كلا النظامين كما يرى بيرس بل لا بد للنظامين معاً حتى تتحقق العلامة الأيقونية بمفهومها الشمولي.

ونحن نرى مع ا لدارسين السيميوطيقيين ضرورة توسيع الأفق الدلالي للعلامة الأيقونية حتى تتناسب مع مستويات التأويل والتعدد الدلالي والتفجير اللغوي الذي طرأ على النصوص الإبداعية المعاصرة. وهذا لا يتعارض مع مفهوم العلامة بل يؤدي إلى تعدد أبعادها فالقضبان علامة مباشرة للقطار والعكس صحيح ومن الممكن أن يكون القطار علامة إيحائية على بعد دلالي آخر كاستمرارية الحياة وديمومتها وجريانها الأبدي.

II- المؤشر «Index»:

وهو على حد قول بيرس «علامة تحيل إلى الشيء الذي تشير إليه بفضل وقوع هذا الشيء عليها في الواقع» (١٧):

والمؤشرات بهذا المفهوم عند بيرس هي علامات طبيعية أيضاً مثل نزول قطرات المياه من السماء مؤشر لسقوط أمطار، وسكب الدموع من العينين مؤشر للحزن أو البكاء، والضحك مؤشر للسعادة أو الفرح أو البهجة، أو على حد رؤية بيرس (١٨) نفسه أن العلامة هي علاقة مجاورة بين الإشارة والشيء المشار إليه مثل ارتفاع الحرارة مؤشر للمرض، والغيوم مؤشر للمطر، والدخان مؤشر للنار.

على أن هذا المفهوم لا يكتمل إلا بتضافر العلامات الطبيعية والعرفية معاً، ولا نبالغ حين نقول: «إن العلامات العرفية تشكل ملمحاً بارزاً في المؤشر لأن بيرس قد أدرج بين المؤشرات بعض العلامات اللغوية- وهي أسماء الإشارة والظرف والضمائر- فكيف يمكن اعتبار مثل هذه العلامات- هى علامات عرفية محض- ضمن العلامات الطبيعية؟» (١٩).

ولذلك يقول: «إن أسماء الإشارة (هذا)، و(ذلك) مؤشرات؛ لأنها تتطلب من المستمع أن يركز انتباهه، وأن يستخدم قوة ملاحظته، وأن يؤسس علاقة حقيقية بينه وبين الشيء الذي تحيل إليه الأسماء، وتكمن فاعلية أسماء الإشارة في أنها تحفز المستمع إلى هذا السلوك وإن فشلت في هذا فلا يفهم معناها، وإن قامت أسماء

الإشارة بهذه الوظيفة فإنها تصبح من جرّاء ذلك مؤشرات» [٢٠].

ومن ثم يتضح أن المؤشرات لا يمكن أن تقوم على العلامات الطبيعية فحسب بل تتضافر معها العلامات العرفية لأن أسماء الإشارة والأسماء الموصولة تعد علامات عرفية وليست طبيعية.

ومن ثم يتضح أن بيرس قد حاول أن يشمل جميع المؤشرات اللغوية والمادية في نظام سيميوطيقي واحد، وقد يرجع هذا إلى رؤيته الفلسفية الشمولية للإشارة؛ لأنه يعتقد أن مختلف جوانب النشاط الإنساني تخضع للدراسة السيميوطيقية.

وهذه الشمولية ربما هي التي أوجدت التعميم اللانهائي في دراسته للمؤشرات وعدم دراسته لها على أنها أنظمة وأنساق علمية ولغوية دقيقة. وحصرها في العلامات الطبيعية دون العرفية. حتى أنه حصر ستة وستين نمطاً فرعياً من العلامات «ويبدو أن بيرس كان حريصاً على التمييز بين المؤشرات الطبيعية التي أطلق عليها تسمية المؤشرات فقط Indexes، فبالرغم من أن النوعين يشتركان في الوظيفة، فإنهما يختلفان من حيث الماهية، فالنوع الأول ينتمي إلى فصيلة الموجودات الطبيعية (الدخان- السبابة- خطوة البحار) بينما تنتمي الثانية إلى فصيلة العلامات العرفية التي يبدعها الإنسان» [٢١]. على حين أن بيرس ربط ماهية المؤشر بالعلامات الطبيعية.

III - الرمز «symbol»:

والرمز عند بيرس هو «علامة تحيل إلى الشيء الذي تشير إليه بفضل قانون- غالبا ما- يعتمد على التداعي بين أفكاره عامة، ويحدد ترجمة الرمز بالرجوع إلى هذا الشيء [٢٢].

والعلامة في هذه الحالة تكون عرفية محضة، لأن الرمز يربط بين الدال والمدلول الإيحائي، والمدلول الإيحائي يكون علامة عرفية أكثر منها طبيعية. ومثال ذلك الميزان الذي يرمز للعدل.

* * *

٢- ب فرديناند دى سوسير Ferdinand de Saussure:

ثم جاءت محاولات عالم اللغة السويسري فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure (١٨٥٧-١٩١٤) ليعنى بالمستوى البرجماتي للسيميولوجيا Semlologg أي بفاعلية العلامة وتوظيفها في الحياة العملية وفي عمليات الاتصال ونقل المعلومات. وذلك من خلال دعوته إلى علم السيميولوجيا فيقول: «اللغة هي نظام من العلامات الذي يعبّر عن الأفكار، ولذلك فهي مشابهة لنظام الكتابة الأبجدية للصم، للطقوس والمذاهب الرمزية، لصيغ المجاملة، للإشارات العسكرية،.. إلخ، ولكنها أهم من كل هذه الأنظمة، لقد أصبح ممكنا تصور ذلك العلم الذى يدرس حياة العلامات داخل المجتمع ولا بد أن يكون جزءاً من علم النفس الاجتماعي وبالتالي من علم النفس العام، وسوف أسميه Semiology علم العلامات (في اليونانية Semeion «علامة»)، وعلم العلامات سوف يبين ما الذي يشكل العلامات، والقوانين التي تحكمها، ولأن العلم لم يظهر للوجود، فلا أحد يستطيع القول بماذا سيكون ولكن له حق الوجود.. وعلم اللغة هو جزء فقط من العلم العام لعلم العلامات،

الإشارة بهذه الوظيفة فإنها تصبح من جرّاء ذلك مؤشرات» (٢٠).

ومن ثم يتضح أن المؤشرات لا يمكن أن تقوم على العلامات الطبيعية فحسب بل تتضافر معها العلامات العرفية لأن أسماء الإشارة والأسماء الموصولة تعد علامات عرفية وليست طبيعية.

ومن ثم يتضح أن بيرس قد حاول أن يشمل جميع المؤشرات اللغوية والمادية في نظام سيميوطيقي واحد، وقد يرجع هذا إلى رؤيته الفلسفية الشمولية للإشارة؛ لأنه يعتقد أن مختلف جوانب النشاط الإنساني تخضع للدراسة السيميوطيقية.

وهذه الشمولية ربما هي التي أوجدت التعميم اللانهائي في دراسته للمؤشرات وعدم دراسته لها على أنها أنظمة وأنساق علمية ولغوية دقيقة. وحصرها في العلامات الطبيعية دون العرفية. حتى أنه حصر ستة وستين نمطاً فرعياً من العلامات «ويبدو أن بيرس كان حريصاً على التمييز بين المؤشرات الطبيعية التي أطلق عليها تسمية المؤشرات فقط Indexes، فبالرغم من أن النوعين يشتركان في الوظيفة، فإنهما يختلفان من حيث الماهية، فالنوع الأول ينتمي إلى فصيلة الموجودات الطبيعية (الدخان- السبابة- خطوة البحار) بينما تنتمي الثانية إلى فصيلة العلامات العرفية التي يبدعها الإنسان» (٢١). على حين أن بيرس ربط ماهية المؤشر بالعلامات الطبيعية.

III - الرمز «symbol»:

والرمز عند بيرس هو «علامة تحيل إلى الشيء الذي تشير إليه بفضل قانون- غالبا ما- يعتمد على التداعي بين أفكاره عامة، ويحدد ترجمة الرمز بالرجوع إلى هذا الشيء (٢٢).

والعلامة في هذه الحالة تكون عرفية محضة، لأن الرمز يربط بين الدال والمدلول الإيحائي، والمدلول الإيحائي يكون علامة عرفية أكثر منها طبيعية. ومثال ذلك الميزان الذي يرمز للعدل.

* * *

٢- ب فرديناند دى سوسير Ferdinand de Saussure:

ثم جاءت محاولات عالم اللغة السويسري فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure (١٨٥٧-١٩١٤) ليعنى بالمستوى البرجماتي للسيميولوجيا Semlologg أي بفاعلية العلامة وتوظيفها في الحياة العملية وفي عمليات الاتصال ونقل المعلومات. وذلك من خلال دعوته إلى علم السيميولوجيا فيقول: «اللغة هي نظام من العلامات الذي يعبّر عن الأفكار، ولذلك فهي مشابهة لنظام الكتابة الأبجدية للصم، للطقوس والمذاهب الرمزية، لصيغ المجاملة، للإشارات العسكرية،.. إلخ، ولكنها أهم من كل هذه الأنظمة، لقد أصبح ممكنا تصور ذلك العلم الذى يدرس حياة العلامات داخل المجتمع ولا بد أن يكون جزءاً من علم النفس الاجتماعي وبالتالي من علم النفس العام، وسوف أسميه Semiology علم العلامات (في اليونانية Semeion «علامة»)، وعلم العلامات سوف يبين ما الذي يشكل العلامات، والقوانين التي تحكمها، ولأن العلم لم يظهر للوجود، فلا أحد يستطيع القول بماذا سيكون ولكن له حق الوجود.. وعلم اللغة هو جزء فقط من العلم العام لعلم العلامات،

وإن القوانين المكتشفة بواسطة علم العلامات (السيميولوجيا) سوف تكون ملائمة لعلم اللغة»[٢٣].

ومن هنا يتضح أن سوسير يرى أن علم اللغة جزء من علم العلامات (السيميائية) وأنها تعنى بالتعبير عن الأفكار المختلفة واستطاع أن يطور هذا العلم بنقله من الدراسات الفلسفية إلى الدراسات اللغوية لا سيما علم اللغة. فإذا كان تشارلز ساندرز بيرس عني بماهية العلامة من حيث درس مقوماتها وطبيعتها وارتباطها بالموجودات الأخرى التي تشبهها فإن سوسير عني بالعلاقة بين العلامة وعلم اللغة، وبفاعلية العلامة وتوظيفها في الدراسات اللغوية ويرى أن «الخصائص التي تميز الأنظمة السيميولوجية عن جميع المؤسسات الأخرى تظهر بوضوح في اللغة.. وأن مشكلة اللغة سيميولوجية بشكل رئيسي، وأن كل التطورات استمدت أهميتها من تلك الحقيقة المهمة، وإذا كنا سنكتشف الطبيعة الحقيقية للغة فعلينا أن نعرف الجوانب المشتركة بينها وبين جميع الأنظمة السيميولوجية»[٢٤].

وتتمثل العلامة Sign عند سوسير في الدال Signifiant والمدلول Signified، وتقوم على أساسين: الأول: الطبيعة الاعتباطية Orbitrary بين الدال والمدلول أي أن العلامة اللغوية عنده اعتباطية، والثاني: الطبيعة الطولية للدال أو الطبيعة الخطية للدال، ذلك «أن الدال يمثل امتداداً زمنياً وهذا الامتداد محدد ببعد واحد هو الخط الزمني أي أن سوسير يقدم النموذج التزامني Synchronic الذي يرى اللغة في علاقاتها بالثقافة ونشاطاتها في لحظة زمنية واحدة بديلاً للنموذج التعاقبي Diachronic الذي فضله دارسو اللغة»[٢٥].

وقد «أصبح هذا التصور واضحاً عندما تمثلت بالكتابة، والخط الخاص للعلامات الكتابية حل محل التتابع في الزمن»[٢٦]. وبمعنى آخر يمكن القول إنه «إذا كانت الدوال (ج. دال) المرئية (مثل الإشارات النوتية وغيرها) لا تخلو من تعقيد لأنها تحدث على مستويات مختلفة، فإن الدوال السمعية- على العكس- لا تتوفر إلا في منحنى واحد هو الخط الزمني: فعناصرها توجد متتالية أي تكون سلسلة، وحتى تتضح لنا مباشرة الخاصية الخطية للدوال السمعية يكفي أن نمثل عناصرها كتابة أن نعوض التتابع الصوتي ضمن إطار الزمن بالخط المادي للعلامات الكتابية»[٢٧].

كما تتسم العلاقة عند دي سوسير أيضاً بأنها لا تبادلية حيناً وتبادلية في الحين الآخر. فمن حيث كونها لا تبادلية يتضح من خلال عدم المقدرة على تغيير العلامة أو الدال الذي اختارته اللغة، لأن اللغة ميراث جماعي- لو جاز لنا استخدام هذا التعبير- وهذه الجماعة لا يمكن أن تفرض سلطانها على أية كلمة مهما كانت لأن الجماعة مرتبطة باللغة كما هي عليه. والحقيقة أن كل المجتمعات الإنسانية لا تعرف ولم تعرف أبداً اللغة، بل لم تعرفها من قبل إلا بمثابة نتاج موروث عن الأجيال السابقة ينبغي أن يؤخذ على ما هو عليه»[٢٨].

ومن ثم تصبح العلامة لا تبادلية، لأن الذات الفردية أو حتى الجماعية لا تستطيع تغييرها أو استبدالها لأنها ميراث لمراحل سابقة، وأن اللغة

وإن القوانين المكتشفة بواسطة علم العلامات (السيميولوجيا) سوف تكون ملائمة لعلم اللغة»[٢٣].

ومن هنا يتضح أن سوسير يرى أن علم اللغة جزء من علم العلامات (السيميائية) وأنها تعنى بالتعبير عن الأفكار المختلفة واستطاع أن يطور هذا العلم بنقله من الدراسات الفلسفية إلى الدراسات اللغوية لا سيما علم اللغة. فإذا كان تشارلز ساندرز بيرس عني بماهية العلامة من حيث درس مقوماتها وطبيعتها وارتباطها بالموجودات الأخرى التي تشبهها فإن سوسير عني بالعلاقة بين العلامة وعلم اللغة، وبفاعلية العلامة وتوظيفها في الدراسات اللغوية ويرى أن «الخصائص التي تميز الأنظمة السيميولوجية عن جميع المؤسسات الأخرى تظهر بوضوح في اللغة.. وأن مشكلة اللغة سيميولوجية بشكل رئيسي، وأن كل التطورات استمدت أهميتها من تلك الحقيقة المهمة، وإذا كنا سنكشف الطبيعة الحقيقية للغة فعلينا أن نعرف الجوانب المشتركة بينها وبين جميع الأنظمة السيميولوجية»[٢٤].

وتتمثل العلامة Sign عند سوسير في الدال Signifiant والمدلول Signified، وتقوم على أساسين: الأول: الطبيعة الاعتباطية Orbitrary بين الدال والمدلول أي أن العلامة اللغوية عنده اعتباطية، والثاني: الطبيعة الطولية للدال أو الطبيعة الخطية للدال، ذلك «أن الدال يمثل امتداداً زمنياً وهذا الامتداد محدد ببعد واحد هو الخط الزمني أي أن سوسير يقدم النموذج التزامني Synchronic الذي يرى اللغة في علاقاتها بالثقافة ونشاطاتها في لحظة زمنية واحدة بديلاً للنموذج التعاقبي Diachronic الذي فضله دارسو اللغة»[٢٥].

وقد «أصبح هذا التصور واضحاً عندما تمثلت بالكتابة، والخط الخاص للعلامات الكتابية حل محل التتابع في الزمن»[٢٦]. وبمعنى آخر يمكن القول إنه «إذا كانت الدوال (ج. دال) المرئية (مثل الإشارات النوتية وغيرها) لا تخلو من تعقيد لأنها تحدث على مستويات مختلفة، فإن الدوال السمعية- على العكس- لا تتوفر إلا في منحنى واحد هو الخط الزمني: فعناصرها توجد متتالية أي تكون سلسلة، وحتى تتضح لنا مباشرة الخاصية الخطية للدوال السمعية يكفي أن نمثل عناصرها كتابة أن نعوض التتابع الصوتي ضمن إطار الزمن بالخط المادي للعلامات الكتابية»[٢٧].

كما تتسم العلاقة عند دي سوسير أيضاً بأنها لا تبادلية حيناً وتبادلية في الحين الآخر. فمن حيث كونها لا تبادلية يتضح من خلال عدم المقدرة على تغيير العلامة أو الدال الذي اختارته اللغة، لأن اللغة ميراث جماعي- لو جاز لنا استخدام هذا التعبير- وهذه الجماعة لا يمكن أن تفرض سلطانها على أية كلمة مهما كانت لأن الجماعة مرتبطة باللغة كما هي عليه. والحقيقة أن كل المجتمعات الإنسانية لا تعرف ولم تعرف أبداً اللغة، بل لم تعرفها من قبل إلا بمثابة نتاج موروث عن الأجيال السابقة ينبغي أن يؤخذ على ما هو عليه»[٢٨].

ومن ثم تصبح العلامة لا تبادلية، لأن الذات الفردية أو حتى الجماعية لا تستطيع تغييرها أو استبدالها لأنها ميراث لمراحل سابقة، وأن اللغة

الأم التي استقرت رموزها الكتابية وعلاماتها في وعي الأجيال المتتابعة لا يمكن استبدالها أو إدخال تغيير عليها. أما من حيث كون العلامة تبادلية فإنه يتضح في بعض التغيرات الصوتية التي تحدث في الدال أو المعنوية التي تحدث في المدلول.

وهكذا نستطيع القول إن فرديناند دي سوسير استطاع أن يطور مفهوم «السيميولوجيا» وينقله من الإطار الفلسفى عند بيرس إلى الإطار اللغوي. وبذلك أصبح المفهوم قريباً من الدرس النقدي عند السيميائيين؛ ويعد رولان بارت في طليعة هؤلاء النقاد السيميائيين. لذلك نعني بمحورين أساسيين:

الأول: سيميائية الخطاب النقدي عند رولان بارت.

الثاني: سيميائية الخطاب النقدي العربي.

(٢ - ج)

سيميائية الخطاب النقدى عند رولان بارت R-Barthes

جاءت محاولات رولان بارت R.Barthes (١٩١٥-١٩٨٠) لتواصل الجهود الفلسفية **للسيميائية التي بدأها تشارلز ساندرز بيرس والجهود اللغوية التي بدأها دي سوسير فقد** استطاع أن يطور مفهوم السيميائية من خلال تجاوزه البعدين الفلسفي واللغوي للسيميائية إلى البعد النقدي لها فيرى بارت أن «السيميولوجيا (السيميائية) هي علم الدلائل؛ استمدت مفاهيمها الإجرائية من اللسانيات، إلا أن اللسانيات ذاتها شأنها شأن الاقتصاد تقريباً في طريقها إلى الانفجار بفعل التمزق الذي ينخرها.. فاللسان هو المجتمعي ذاته على حد تعبير بينفنست Benve-niste وخلاصة القول فإن صرح اللسانيات أصبح يتفكك اليوم من شدة الشبع أو من شدة الجوع مداً أو جزراً، وهذا التقويض للسانيات هو ما أدعوه من جهتي «سيميولوجيا» (٢٩).

إن بارت ينظر إلى السيميائية على أنها جزء من اللسانيات لأن اللسان عنده يشمل كل الأبنية الاجتماعية ونتيجة التفكك الذي أصاب كل اللسانيات فقد نجم عنه ظهور علم السيميولوجيا (السيمياء). وهذا الرأي يخالف فيه دي سوسير لأن سوسير يرى أن اللغة جزء من السيميولوجيا وليس العكس. أي أن سوسير عمل على توسيع دائرة السيميائية بحيث تكون الأنظمة اللغوية جزء منها. بينما بارت لجأ إلى العكس حيث قسّم المجال للسانيات بحيث تشمل كل الأنظمة الاجتماعية وتأتي السيميائية جزء من هذا النظام الكلي.

والنقد السيميائي يعتبر الأدب نظاماً للعلامات يستند إلى أنظمة اللغة، لأن اللغة هي الوعاء الذي يحوي الرموز الأدبية والمعايير النقدية، ومن ثم يعد النقد السيميولوجي نظاماً من أنظمة العلامات وهذا ما حاول بارت أن يبرزه. فربط بين اللغة والخطاب ربطاً مباشراً فيقول «أعتقد أن اللغة من وجهة النظر التي ننظر من خلالها نحن الآن لا تنفصل عن الخطاب.. والشيء اللغوي لا يمكن أن يقوم عند حدود الجملة ولا أن ينحصر فيها، فليست الفونيمات والكلمات والعلاقات الصرفية هي التي تخضع وحدها لنظام حرية مضبوطة، ما دمنا لا نستطيع التركيب بينها كيفما اتفق، إن

الأم التي استقرت رموزها الكتابية وعلاماتها في وعي الأجيال المتتابعة لا يمكن استبدالها أو إدخال تغيير عليها. أما من حيث كون العلامة تبادلية فإنه يتضح في بعض التغيرات الصوتية التي تحدث في الدال أو المعنوية التي تحدث في المدلول.

وهكذا نستطيع القول إن فرديناند دي سوسير استطاع أن يطور مفهوم «السيميولوجيا» وينقله من الإطار الفلسفى عند بيرس إلى الإطار اللغوي. وبذلك أصبح المفهوم قريباً من الدرس النقدي عند السيميائيين؛ ويعد رولان بارت في طليعة هؤلاء النقاد السيميائيين. لذلك نعني بمحورين أساسيين:

الأول: سيميائية الخطاب النقدي عند رولان بارت.

الثاني: سيميائية الخطاب النقدي العربي.

(٢ - ج)

سيميائية الخطاب النقدى عند رولان بارت R-Barthes

جاءت محاولات رولان بارت R.Barthes (١٩١٥-١٩٨٠) لتواصل الجهود الفلسفية **للسيميائية التي بدأها تشارلز ساندرز بيرس والجهود اللغوية التي بدأها دي سوسير فقد** استطاع أن يطور مفهوم السيميائية من خلال تجاوزه البعدين الفلسفي واللغوي للسيميائية إلى البعد النقدي لها فيرى بارت أن «السيميولوجيا (السيميائية) هي علم الدلائل؛ استمدت مفاهيمها الإجرائية من اللسانيات، إلا أن اللسانيات ذاتها شأنها شأن الاقتصاد تقريباً في طريقها إلى الانفجار بفعل التمزق الذي ينخرها.. فاللسان هو المجتمعي ذاته على حد تعبير بينفنست Benve-niste وخلاصة القول فإن صرح اللسانيات أصبح يتفكك اليوم من شدة الشبع أو من شدة الجوع مداً أو جزراً، وهذا التقويض للسانيات هو ما أدعوه من جهتي «سيميولوجيا» (٢٩).

إن بارت ينظر إلى السيميائية على أنها جزء من اللسانيات لأن اللسان عنده يشمل كل الأبنية الاجتماعية ونتيجة التفكك الذي أصاب كل اللسانيات فقد نجم عنه ظهور علم السيميولوجيا (السيمياء). وهذا الرأي يخالف فيه دي سوسير لأن سوسير يرى أن اللغة جزء من السيميولوجيا وليس العكس. أي أن سوسير عمل على توسيع دائرة السيميائية بحيث تكون الأنظمة اللغوية جزء منها. بينما بارت لجأ إلى العكس حيث قسّم المجال للسانيات بحيث تشمل كل الأنظمة الاجتماعية وتأتي السيميائية جزء من هذا النظام الكلي.

والنقد السيميائي يعتبر الأدب نظاماً للعلامات يستند إلى أنظمة اللغة، لأن اللغة هي الوعاء الذي يحوي الرموز الأدبية والمعايير النقدية، ومن ثم يعد النقد السيميولوجي نظاماً من أنظمة العلامات وهذا ما حاول بارت أن يبرزه. فربط بين اللغة والخطاب ربطاً مباشراً فيقول «أعتقد أن اللغة من وجهة النظر التي ننظر من خلالها نحن الآن لا تنفصل عن الخطاب.. والشيء اللغوي لا يمكن أن يقوم عند حدود الجملة ولا أن ينحصر فيها، فليست الفونيمات والكلمات والعلاقات الصرفية هي التي تخضع وحدها لنظام حرية مضبوطة، ما دمنا لا نستطيع التركيب بينها كيفما اتفق، إن

الخطاب في مجموعه هو الذي يخضع بشبكة من القواعد والإكراهات والضغوط التي تكون كثيفة ضبابية على المستوى البلاغي، دقيقة حادة على المستوى النحوي، فبين اللسان والخطاب مد وجزر (٣٠).

وإذا كان بارت يربط بين اللسان والخطاب فإن الخطاب النقدي السيميائي يعد جزءاً من اللسانيات عنده. هذا الجزء يقوم بتطهير اللسانيات وتنقية الخطاب فيقول: «السيميولوجيا هي ذلك العمل الذي يصفي اللسان، ويطهر اللسانيات، وينقي الخطاب مما يعلق به، أي من الرغبات والمخاوف والإغراءات والعواطف والاحتجاجات والاعتذارات والاعتداءات والنغمات وكل ما تنطوي عليه اللغة الحية» (٣١).

ثم تطوّر مفهوم بارت للسيميائية منذ عام ١٩٥٤م تقريباً، عندما ربط علم السيمياء بالنقد الاجتماعي وجمع بين أعمال سارتر Sartre وبرخت Brecht وسوسير Saussure واقترنت بالموضوعات السياسية ولذلك يقول «وفيما بعد غيرت السيميولوجيا من موقعها واتخذت لوناً آخر- محتفظة بذات الموضوع السياسي، إذ ليس موضوع دونه، لقد تم هذا الانتقال بفعل ما لحق للوسط الثقافي من تغير على الأقل خلال القطيعة التي أحدثها مايو ٦٨ فمن ناحية أدت أعمال حديثة إلى تغيير الصورة النقدية للفاعل الاجتماعي والذات الناطقة ومن ناحية أخرى تبين أنه بتعدد منابر المعارضة فإن السلطة ذاتها كمقولة خطاب، كانت تتشتت وتنتشر كماء ينساب في كل مكان.. وانتاب الهيئات السياسية نوع من التهييج المعنوي، وحتى عندما كانت المطالبات ترتفع باسم المتعة فإنها كانت تتخذ لهجة تهديد» (٣٢). وانعكس هذا التحلل والتشتت والتوسع في المفهوم السيميائي على الخطاب النقدي.

وعلى الرغم من أن بارت توغل في دراسة أنماط السيميائية فعني بالدعاية والإعلان والاحتفالات والسينما والجرائم والإذاعة والمسرح والسيارات والأدب والتلفزة والأطعمة والمصارعة وغيرها، وعدها نماذج أسطورية وفك رموزها في كتابه أساطير Mythologies ١٩٥٧ نقول على الرغم من ذلك إلا أننا سوف نقصر دراستنا على الجوانب السيميائية المقترنة بالخطاب النقدي اقتراناً مباشراً ومنها:

١- الآلية الفلسفية والمفهوم النقدي.
٢- اللغة ومفهوم النص «السلطة اللغوية والنصية».
٣- لذة النص ومستويات التلقي والكتابة.

* * *

٢-١ الآلية الفلسفية والمفهوم النقدي:

٢-١أ- الرؤية الفلسفية:

لعلنا لا نبالغ حين نقول إن رولان بارت R.Barthes تأثر إلى حد كبير بالوجودية السارترية، وتركت في نفسه أثراً عميقاً حيث تؤمن الوجودية بحرية الفرد الإنساني في التغير المستمر والهرب من قبضة الماضي أو من أي تشديد نهائي يفرضه الآخرون، «فالوجود يسبق الجوهر حسب الصيغة السارترية المشهورة إذ ليس يتوقع منا أن نتحول إلى جوهر إلا عندما نموت فعلاً ولذا فإن بارت، شأنه شأن سارتر يضع

الخطاب في مجموعه هو الذي يخضع بشبكة من القواعد والإكراهات والضغوط التي تكون كثيفة ضبابية على المستوى البلاغي، دقيقة حادة على المستوى النحوي، فبين اللسان والخطاب مد وجزر [٣٠].

وإذا كان بارت يربط بين اللسان والخطاب فإن الخطاب النقدي السيميائى يعد جزءاً من اللسانيات عنده. هذا الجزء يقوم بتطهير اللسانيات وتنقية الخطاب فيقول: «السيميولوجيا هي ذلك العمل الذي يصفي اللسان، ويطهر اللسانيات، وينقي الخطاب مما يعلق به، أي من الرغبات والمخاوف والإغراءات والعواطف والاحتجاجات والاعتذارات والاعتداءات والنغمات وكل ما تنطوي عليه اللغة الحية» [٣١].

ثم تطوّر مفهوم بارت للسيميائية منذ عام ١٩٥٤م تقريباً، عندما ربط علم السيمياء بالنقد الاجتماعي وجمع بين أعمال سارتر Sartre وبرخت Brecht وسوسير Saussure واقترنت بالموضوعات السياسية ولذلك يقول «وفيما بعد غيرت السيميولوجيا من موقعها واتخذت لوناً آخر- محتفظة بذات الموضوع السياسي، إذ ليس موضوع دونه، لقد تم هذا الانتقال بفعل ما لحق للوسط الثقافي من تغير على الأقل خلال القطيعة التي أحدثها مايو ٦٨ فمن ناحية أدت أعمال حديثة إلى تغيير الصورة النقدية للفاعل الاجتماعي والذات الناطقة ومن ناحية أخرى تبين أنه بتعدد منابر المعارضة فإن السلطة ذاتها كمقولة خطاب، كانت تتشتت وتنتشر كماء ينساب في كل مكان.. وانتاب الهيئات السياسية نوع من التهييج المعنوي، وحتى عندما كانت المطالبات ترتفع باسم المتعة فإنها كانت تتخذ لهجة تهديد» [٣٢]. وانعكس هذا التحلل والتشتت والتوسع في المفهوم السيميائي على الخطاب النقدي.

وعلى الرغم من أن بارت توغل في دراسة أنماط السيميائية فعني بالدعاية والإعلان والاحتفالات والسينما والجرائم والإذاعة والمسرح والسيارات والأدب والتلفزة والأطعمة والمصارعة وغيرها، وعدها نماذج أسطورية وفك رموزها في كتابه أساطير Mythologies ١٩٥٧ نقول على الرغم من ذلك إلا أننا سوف نقصر دراستنا على الجوانب السيميائية المقترنة بالخطاب النقدي اقتراناً مباشراً ومنها:

١- الآلية الفلسفية والمفهوم النقدي.
٢- اللغة ومفهوم النص «السلطة اللغوية والنصية».
٣- لذة النص ومستويات التلقي والكتابة.

* * *

٢-١ الآلية الفلسفية والمفهوم النقدى:

٢-١أ- الرؤية الفلسفية:

لعلنا لا نبالغ حين نقول إن رولان بارت R.Barthes تأثر إلى حد كبير بالوجودية السارترية، وتركت في نفسه أثراً عميقاً حيث تؤمن الوجودية بحرية الفرد الإنساني في التغير المستمر والهرب من قبضة الماضي أو من أي تشديد نهائي يفرضه الآخرون، «فالوجود يسبق الجوهر حسب الصيغة السارترية المشهورة إذ ليس يتوقع منا أن نتحول إلى جوهر إلا عندما نموت فعلاً ولذا فإن بارت، شأنه شأن سارتر يضع

سيولة الوجود بل حتى فوضاه مقابل تصلب الموت الذي يرى أن الجوهرية تمثله، ذلك أنه يرى- كما يرى سارتر- أن الجوهرية هي الأيديولوجية التي تغذي البرجوازية ذلك العدو التقليدي الأكبر لكل المفكرين الفرنسيين. إن الجواهر والموازين تشبه علامات الأبراج في الكون البرجوازي، هذا ما كتبه في خاتمة أشد كتبه عداءً للبرجوازية وهو كتاب أساطير My-thologies (١٩٥٧)» (٣٣).

إن سارتر يحاول أن يربط بين الإنسان والواقع والتناهي فإذا كان الواقع إنسانياً فلا بد أن يكون متناهياً، ومن ثم فالمرء عنده يكون متناهياً أيضاً، إنها نزعة تجنح إلى تحليل الذات تحليلاً متناهياً يقول: «سيظل الواقع الإنساني متناهياً حتى وإن كان خالداً لأنه جعل نفسه متناهياً من خلال اختياره أن يكون إنسانياً، وأن يكون المرء متناهياً يعني في الحقيقة أن يكون ذاته وأن يحدث نفسه بما هو عليه وأن يوجد نفسه نحو ممكن في ظل استبعاد إمكانيات أخرى وهكذا فإن حدث التحرر ذاته هو افتراض وخلق للتناهي» (٣٤).

وهذه الآراء الفلسفية لسارتر حول الموت توضح نمط فلسفته تجاه الذات الإنسانية، من حيث اعتماده على التحليل المتناهي لها. وهذه الرؤية قد تأثر بها رولان بارت بل وأضاف إليها أبعاداً أخرى تؤدي إلى مزيد من تحلل الذات تحللاً لا نهائياً.

وقد تكون طبيعة الواقع الحياتي الذي عاشه كل منهما جعله يتوافق مع هذه الأفكار الوجودية فقد عاش سارتر في ظل الموت وقتاً يعتد به وخاصة كعضو في المقاومة الفرنسية للنازي، وهذا القرب من الموت هو على وجه الدقة ما ترك أثره على فكر سارتر» (٣٥).

فنظر إلى الذات نظرة وجودية تقوم على الفناء والتناهى ولذلك يقول: «في كل لحظة كنا نعيش المعنى الكامل لهذه العبارة الصغيرة العادية -الإنسان فان- وكان الخيار الذي قام به كل منا وجهاً لوجه مع الموت يمكن التعبير عنه دائماً بهذه الكلمات- الموت أفضل من ...- وعلى هذا النحو طرحت مسألة الحرية الأساسية وجلبنا إلى حافة أعمق معرفة يمكن أن يحصلها الإنسان عن نفسه، ذلك أن سر الإنسان ليس عقدة أوديب أوعقدة الدونية التي يعانيها: إنه حد حريته الخاصة» (٣٦).

أي أن هذه الحوادث التي عاشها في صفوف المقاومة الفرنسية وجعلته على حافة الموت في كل لحظة جعلته ينظر إلى الذات نظرة تحررية إنه يريد الحرية والخلاص من القيود التي كان يعيشها بما فيها قيود الموت التي تحاصره في كل حين.

والخلاص من هذه القيود يتمثل في توقه إلى حرية الذات، التي عبّر عنها من خلال التحليل النفسي الوجودي، ويتضح هذا في دراسته لبودلير وجان جينيه وفلوبير فقد «استخدم علم النفس التحليلي الوجودي في دراسة هذه الشخصيات، وأشار في كتابه الوجود والعدم إلى أنه يريد أن يتوسع بالنقد الأدبي حتى يستخدم التحليل النفسي الوجودي الذي يقرر فيه الشخص حريته» (٣٧).

وقد انعكست آراؤه الفلسفية حول الحرية على

سيولة الوجود بل حتى فوضاه مقابل تصلب الموت الذي يرى أن الجوهرية تمثله، ذلك أنه يرى- كما يرى سارتر- أن الجوهرية هي الأيديولوجية التي تغذي البرجوازية ذلك العدو التقليدي الأكبر لكل المفكرين الفرنسيين. إن الجواهر والموازين تشبه علامات الأبراج في الكون البرجوازي، هذا ما كتبه في خاتمة أشد كتبه عداءً للبرجوازية وهو كتاب أساطير My-thologies (١٩٥٧)» (٣٣).

إن سارتر يحاول أن يربط بين الإنسان والواقع والتناهي فإذا كان الواقع إنسانياً فلا بد أن يكون متناهياً، ومن ثم فالمرء عنده يكون متناهياً أيضاً، إنها نزعة تجنح إلى تحليل الذات تحليلاً متناهياً يقول: «سيظل الواقع الإنساني متناهياً حتى وإن كان خالداً لأنه جعل نفسه متناهياً من خلال اختياره أن يكون إنسانياً، وأن يكون المرء متناهياً يعني في الحقيقة أن يكون ذاته وأن يحدث نفسه بما هو عليه وأن يوجد نفسه نحو ممكن في ظل استبعاد إمكانيات أخرى وهكذا فإن حدث التحرر ذاته هو افتراض وخلق للتناهي» (٣٤).

وهذه الآراء الفلسفية لسارتر حول الموت توضح نمط فلسفته تجاه الذات الإنسانية، من حيث اعتماده على التحليل المتناهي لها. وهذه الرؤية قد تأثر بها رولان بارت بل وأضاف إليها أبعاداً أخرى تؤدي إلى مزيد من تحلل الذات تحللاً لا نهائياً.

وقد تكون طبيعة الواقع الحياتي الذي عاشه كل منهما جعله يتوافق مع هذه الأفكار الوجودية فقد عاش سارتر في ظل الموت وقتاً يعتد به وخاصة كعضو في المقاومة الفرنسية للنازي، وهذا القرب من الموت هو على وجه الدقة ما ترك أثره على فكر سارتر» (٣٥).

فنظر إلى الذات نظرة وجودية تقوم على الفناء والتناهي ولذلك يقول: «في كل لحظة كنا نعيش المعنى الكامل لهذه العبارة الصغيرة العادية -الإنسان فان- وكان الخيار الذي قام به كل منا وجهاً لوجه مع الموت يمكن التعبير عنه دائماً بهذه الكلمات- الموت أفضل من ...- وعلى هذا النحو طرحت مسألة الحرية الأساسية وجلبنا إلى حافة أعمق معرفة يمكن أن يحصلها الإنسان عن نفسه، ذلك أن سر الإنسان ليس عقدة أوديب أوعقدة الدونية التي يعانيها: إنه حد حريته الخاصة» (٣٦).

أي أن هذه الحوادث التي عاشها في صفوف المقاومة الفرنسية وجعلته على حافة الموت في كل لحظة جعلته ينظر إلى الذات نظرة تحررية إنه يريد الحرية والخلاص من القيود التي كان يعيشها بما فيها قيود الموت التي تحاصره في كل حين.

والخلاص من هذه القيود يتمثل في توقه إلى حرية الذات، التي عبّر عنها من خلال التحليل النفسي الوجودي، ويتضح هذا في دراسته لبودلير وجان جينيه وفلوبير فقد «استخدم علم النفس التحليلي الوجودي في دراسة هذه الشخصيات، وأشار في كتابه الوجود والعدم إلى أنه يريد أن يتوسع بالنقد الأدبي حتى يستخدم التحليل النفسي الوجودي الذي يقرر فيه الشخص حريته» (٣٧).

وقد انعكست آراؤه الفلسفية حول الحرية على

آرائه النقدية التي تعتمد على التحليل النفسي الوجودي وعلى حرية الذات في النص الأدبي وتحللها إلى ذوات لا متناهية، وهذا بدوره يتناسب مع الحرية اللامتناهية التي ينادي بها في فلسفته؛ لأنها تحاول أن تخرج الذات من حيرتها، ولكن يبدو أنها لم تستطع تحقيق ذلك لأن فكرة سارتر في الحرية غير المتناهية والمساوية لذاتها على الدوام لا تمكننا أن نخرج من الحيرة التي تضعنا فيها إلا بابتدائنا من بعض المعايير التي لا يبدو أن الفلسفة الوجودية ذاتها قد أعطتها» (٣٨).

ويبدو أن النزوع إلى الحرية والتلحيل النفسي الوجودي عند سارتر يرجع إلى رؤيته الفلسفية الوجودية التي تحاول التخلص من السلطة المركزية حتى لو كانت هذه السلطة ممثلة في المطلق، «فالإنسان عند سارتر مهجور ومنعزل؛ لأنه ليس هناك مطلق ويترتب على هذا شعور بالقلق والحصر النفسي، لذلك يقول: ينشأ القلق عندما يرى الوعي نفسه مقطوعاً عن ماهيته بواسطة العدم أو مفصولاً عن المستقبل بواسطة حريته نفسها» (٣٩).

وهذه الحيرة والقلق نجم عنهما الشعور بالعدمية والتطلع للحرية، لذلك نجد الذات في النص تتوق للحرية اللامتناهية وتحاول تحطيم كل الحواجز السلطوية المركزية؛ لأنها تمثل قيداً على حرية الذات لذلك يقرن القلق بالحرية، «فالقلق عنده هو كيفية وجود الحرية بالنسبة لذاتها» (٤٠). ولذلك تتوق الذات عنده للحرية والتمرد على كل مفاهيم تقليدية وتتجاوز كل سلطة تحول دون ذلك.

وقد عاش رولان بارت Roland Barthes واقعاً قريباً من الواقع الذي عايشه سارتر Sar-tre، فقد أصيب بمرض السل في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من عمره، وأصبح قريباً من حافة الموت مثلما كان سارتر قريباً من حافته أيضاً. وقد أدى هذا إلى كراهية بارت R.Barthes للفلسفة الجوهرية؛ لأنها فلسفة من الفلسفات الحتمية «التي تؤمن بأن في كل فرد إنسانيّ جوهراً نهائياً ما لا يتغير يفرض علينا التصرف أثناء مسيرتنا ا لحياتية ضمن حدود يمكن التنبؤ بها على نحو ما. وقد ترجع هذه الكراهية إلى حالته المرضية التي مرّ بها بين عامي (١٩٤٢-١٩٤٧) حيث أصيب بداء السل وقضى هذه الفترة في المصحات للعلاج وتركت أثراً في نفسه جعلته يذهب أكثر مما ذهب إليه سارتر في مقته للجوهرية «فسارتر يقر بوجود قدر من التكامل أو الوحدة في الشخص الإنساني، أما بارت فيؤمن بفلسفة التحلل التي تنحل فيها الوحدة المفترضة في أي فرد إلى تعددية بحيث يصبح كل منا كثرة لا وحدة. إن بارت لا يؤمن بالوحدة ولا حتى بالله الواحد الأحد بل يدعم كل ما هو متعدد أو منقطع، لذا فإن السيرة عنده نوع أدبي كريه؛ لأنها تمثل وحدة مزيفة لموضوعها» (٤١).

ونجد أثر هذه الفلسفة في تحليلاته لبعض النصوص الأدبية وفي آرائه النقدية، ونقف على سبيل التمثيل عند نص أدبي واحد لتوضيح أثر حالته المرضية على آرائه الفلسفية من ناحية ونصوصه الأدبية من ناحية ثانية وآرائه النقدية من ناحية ثالثة. يقول: «منذ أيام أعدت قراءة

آرائه النقدية التي تعتمد على التحليل النفسي الوجودي وعلى حرية الذات في النص الأدبي وتحللها إلى ذوات لا متناهية، وهذا بدوره يتناسب مع الحرية اللامتناهية التي ينادي بها في فلسفته؛ لأنها تحاول أن تخرج الذات من حيرتها، ولكن يبدو أنها لم تستطع تحقيق ذلك لأن فكرة سارتر في الحرية غير المتناهية والمساوية لذاتها على الدوام لا تمكننا أن نخرج من الحيرة التي تضعنا فيها إلا بابتدائنا من بعض المعايير التي لا يبدو أن الفلسفة الوجودية ذاتها قد أعطتها» (٣٨).

ويبدو أن النزوع إلى الحرية والتلحيل النفسي الوجودي عند سارتر يرجع إلى رؤيته الفلسفية الوجودية التي تحاول التخلص من السلطة المركزية حتى لو كانت هذه السلطة ممثلة في المطلق، «فالإنسان عند سارتر مهجور ومنعزل؛ لأنه ليس هناك مطلق ويترتب على هذا شعور بالقلق والحصر النفسي، لذلك يقول: ينشأ القلق عندما يرى الوعي نفسه مقطوعاً عن ماهيته بواسطة العدم أو مفصولاً عن المستقبل بواسطة حريته نفسها» (٣٩).

وهذه الحيرة والقلق نجم عنهما الشعور بالعدمية والتطلع للحرية، لذلك نجد الذات في النص تتوق للحرية اللامتناهية وتحاول تحطيم كل الحواجز السلطوية المركزية؛ لأنها تمثل قيداً على حرية الذات لذلك يقرن القلق بالحرية، «فالقلق عنده هو كيفية وجود الحرية بالنسبة لذاتها» (٤٠). ولذلك تتوق الذات عنده للحرية والتمرد على كل مفاهيم تقليدية وتتجاوز كل سلطة تحول دون ذلك.

وقد عاش رولان بارت Roland Barthes واقعاً قريباً من الواقع الذي عايشه سارتر Sar-tre، فقد أصيب بمرض السل في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من عمره، وأصبح قريباً من حافة الموت مثلما كان سارتر قريباً من حافته أيضاً. وقد أدى هذا إلى كراهية بارت R.Barthes للفلسفة الجوهرية؛ لأنها فلسفة من الفلسفات الحتمية «التي تؤمن بأن في كل فرد إنسانيّ جوهراً نهائياً ما لا يتغير يفرض علينا التصرف أثناء مسيرتنا ا لحياتية ضمن حدود يمكن التنبؤ بها على نحو ما. وقد ترجع هذه الكراهية إلى حالته المرضية التي مرّ بها بين عامي (١٩٤٢-١٩٤٧) حيث أصيب بداء السل وقضى هذه الفترة في المصحات للعلاج وتركت أثراً في نفسه جعلته يذهب أكثر مما ذهب إليه سارتر في مقته للجوهرية «فسارتر يقر بوجود قدر من التكامل أو الوحدة في الشخص الإنساني، أما بارت فيؤمن بفلسفة التحلل التي تنحل فيها الوحدة المفترضة في أي فرد إلى تعددية بحيث يصبح كل منا كثرة لا وحدة. إن بارت لا يؤمن بالوحدة ولا حتى بالله الواحد الأحد بل يدعم كل ما هو متعدد أو منقطع، لذا فإن السيرة عنده نوع أدبي كريه؛ لأنها تمثل وحدة مزيفة لموضوعها» (٤١).

ونجد أثر هذه الفلسفة في تحليلاته لبعض النصوص الأدبية وفي آرائه النقدية، ونقف على سبيل التمثيل عند نص أدبي واحد لتوضيح أثر حالته المرضية على آرائه الفلسفية من ناحية ونصوصه الأدبية من ناحية ثانية وآرائه النقدية من ناحية ثالثة. يقول: «منذ أيام أعدت قراءة

رواية توماس مان Thomas Mann «الجبل السحري»، يستعرض هذا الكتاب مرضاً عانيت منه مدة طويلة هو مرض السل. عن طريق هذه القراءة كنت أحفظ في وعيي ثلاث فترات عن هذا المرض. فترة الحادثة التي تدور قبل حرب ١٩١٤، وفترة مرضي أنا حوالي ١٩٤٢، ثم الفترة الحالية التي لم يعد فيها لهذا المرض أثر بعد أن قضت عليه الأدوية الكيماوية، تلك الصورة التي كان يحملها فيما مضى، والحال أن السل الذي عرفته لا يختلف إلا قليلاً عن السل الذي تتحدث عنه رواية الجبل السحري، كانت الفترتان تمتزجان وتبتعدان عن حالتي الراهنة نفس المسافة الزمنية تبينت لحظتها باندهاش (والبداهات وحدها هي القادرة على أن تبعث على الدهشة) إن جسمي يمتد في التاريخ.. إذا أردت أن أحيا عليّ إذن أن أنسى أن جسمي ينتمي إلى التاريخ وأغرق في الوهم» (٤٢).

وهنا يتضح أن الذات البارتية– لو جاز لنا استخدام هذا التعبير– تتحلل في التاريخ من ناحية وفي شخصية هانز كاستورب Hans Castorp بطل رواية الجبل السحري من ناحية ثانية أي أنها تميل إلى التعدد والتحلل والتناثر وعدم المركزية وهذا ما نجده أيضاً في مفاهيمه النقدية المتعددة حول النقد والنص الأدبي والكتابة واللغة والمنهج وغيرها من المفاهيم النقدية المختلفة.

٢-١-ب- المفهوم النقدي:

ولذلك ليس غريباً أن يعرف بارت النقد بقوله: «إن النقد الحق الذي تمارسه المؤسسات واللغات لا يحكم على الأعمال الأدبية بمقدار ما يعمد إلى تمييزها وفصلها وتشطيرها» (٤٣)، أي أنه ينظر إلى النقد على أساس التحلل والانشطار والتعدد بدلاً من ا لمركزية والمعيارية والوحدة لأن هذا في نظره مفهوم تقليدي وطبيعة بارت مناهضة لكل ما هو تقليدي، فقد «أخذ على عاتقه منذ البداية مهمة الإخلال بالآراء السائدة عن الأدب في فرنسا عندما كان شاباً إخلالاً يهزها من الأعماق، وكانت هذه الآراء هي تلك التي يتمسك بها مدرسو الأدب في الجامعات بقوة، وقامت الشهرة التي اكتسبها على ظهوره وكأنه اللعنة المسلطة على النقد الأكاديمي» (٤٤).

ومن ثم لا يرى النقد الأدبي تقويماً للعمل الأدبي بل قراءة ثانية له وإضافة معاني إليه فيقول «لا غرابة في أن يضاعف الناقد المعاني، فيضفي على سطح الكلام كلاماً ثانياً، أي ترابطاً منطقياً للعلامات» (٤٥).

أي أن النقد هو معنى ثان للعمل الأدبي يرتبط بالمعنى الأول عن طريق العلامات، أو بمعنى آخر المعنى الثاني يكون علامة على المعنى الأول أو العكس. خاصة أن بارت يرى أن العلاقة التي تحكم النقد بالعمل الأدبي هي بمثابة علاقة المعنى بالشكل، فالنقد عنده هو المعنى والعمل الأدبي هو الشكل ومن ثم يكون النقد معنى ثانياً للعمل الأدبي وعلامة له «فالناقد حين يضيف كلامه إلى كلام المؤلف لا «يشوه» الموضوع حتى يمكن له أن يعبّر به عن ذاته، ولا يسعى أن يجعله محمول شخصه بل يعيد صياغته مرة أخرى، معتبراً إياه علامة منفصلة ومتنوعة هي علامة الأعمال الأدبية ذاتها» (٤٦)م. أي أن النقد حتى لو كان ذاتياً فهو قراءة

رواية توماس مان Thomas Mann «الجبل السحري»، يستعرض هذا الكتاب مرضاً عانيت منه مدة طويلة هو مرض السل. عن طريق هذه القراءة كنت أحفظ في وعيي ثلاث فترات عن هذا المرض. فترة الحادثة التي تدور قبل حرب ١٩١٤، وفترة مرضي أنا حوالي ١٩٤٢، ثم الفترة الحالية التي لم يعد فيها لهذا المرض أثر بعد أن قضت عليه الأدوية الكيماوية، تلك الصورة التي كان يحملها فيما مضى، والحال أن السل الذي عرفته لا يختلف إلا قليلاً عن السل الذي تتحدث عنه رواية الجبل السحري، كانت الفترتان تمتزجان وتبتعدان عن حالتي الراهنة نفس المسافة الزمنية تبينت لحظتها باندهاش (والبداهات وحدها هي القادرة على أن تبعث على الدهشة) إن جسمي يمتد في التاريخ.. إذا أردت أن أحيا عليّ إذن أن أنسى أن جسمي ينتمي إلى التاريخ وأغرق في الوهم» (٤٢).

وهنا يتضح أن الذات البارتية- لو جاز لنا استخدام هذا التعبير- تتحلل في التاريخ من ناحية وفي شخصية هانز كاستورب Hans Castorp بطل رواية الجبل السحري من ناحية ثانية أي أنها تميل إلى التعدد والتحلل والتناثر وعدم المركزية وهذا ما نجده أيضاً في مفاهيمه النقدية المتعددة حول النقد والنص الأدبي والكتابة واللغة والمنهج وغيرها من المفاهيم النقدية المختلفة.

٢-١-ب- المفهوم النقدي:

ولذلك ليس غريباً أن يعرف بارت النقد بقوله: «إن النقد الحق الذي تمارسه المؤسسات واللغات لا يحكم على الأعمال الأدبية بمقدار ما يعمد إلى تمييزها وفصلها وتشطيرها» (٤٣)، أي أنه ينظر إلى النقد على أساس التحلل والانشطار والتعدد بدلاً من ا لمركزية والمعيارية والوحدة لأن هذا في نظره مفهوم تقليدي وطبيعة بارت مناهضة لكل ما هو تقليدي، فقد «أخذ على عاتقه منذ البداية مهمة الإخلال بالآراء السائدة عن الأدب في فرنسا عندما كان شاباً إخلالاً يهزها من الأعماق، وكانت هذه الآراء هي تلك التي يتمسك بها مدرسو الأدب في الجامعات بقوة، وقامت الشهرة التي اكتسبها على ظهوره وكأنه اللعنة المسلطة على النقد الأكاديمي» (٤٤).

ومن ثم لا يرى النقد الأدبي تقويماً للعمل الأدبي بل قراءة ثانية له وإضافة معاني إليه فيقول «لا غرابة في أن يضاعف الناقد المعاني، فيضفي على سطح الكلام كلاماً ثانياً، أي ترابطاً منطقياً للعلامات» (٤٥).

أي أن النقد هو معنى ثان للعمل الأدبي يرتبط بالمعنى الأول عن طريق العلامات، أو بمعنى آخر المعنى الثاني يكون علامة على المعنى الأول أو العكس. خاصة أن بارت يرى أن العلاقة التي تحكم النقد بالعمل الأدبي هي بمثابة علاقة المعنى بالشكل، فالنقد عنده هو المعنى والعمل الأدبي هو الشكل ومن ثم يكون النقد معنى ثانياً للعمل الأدبي وعلامة له «فالناقد حين يضيف كلامه إلى كلام المؤلف لا «يشوه» الموضوع حتى يمكن له أن يعبّر به عن ذاته، ولا يسعى أن يجعله محمول شخصه بل يعيد صياغته مرة أخرى، معتبراً إياه علامة منفصلة ومتنوعة هي علامة الأعمال الأدبية ذاتها» (٤٦)م. أي أن النقد حتى لو كان ذاتياً فهو قراءة

ثانية للعمل وإضافة له تعكس الموروث الثقافي للناقد وتتقصى الموضوع الأدبي خاصة إذا كانت الذاتية منظمة ومثقفة وتقوم على مزج الذاتي بالموضوعي مزجاً متقنا. وحينئذ تكون هذه الإضافة النقدية هي علامة العمل الأدبي ذاته. «فالنقد عنده ليس العلم وليس بمعارضة الموضوع بالذات بل بما له من صفات» (٤٧).

ولذلك يقول: «إن النقد هو قراءة عميقة جانبية إذ يكتشف في العمل الأدبي أمراً معقولاً، وهو بذلك يكشف عن تأويل ويسهم فيه غير أن ما يظهره هذا النقد لا يمكن أن يكون مدلولاً (إذ لا يزال يتراجع هذا المدلول حتى يصل إلى فراغ الذات) بل سلاسل من الرموز ومشابهات في العلاقات «فالمعنى» الذي يهبه النقد للعمل الأدبي ليس في النهاية إلا ازهاراً جديداً للرموز التي تصنع هذا العمل» (٤٨).

أي أن النقد في حالة تجدد دائم للمعنى الذي يطرحه النص الأدبي من ناحية وثقافة النقاد من ناحية ثانية، ولا يتقوقع هذا المعنى حول المدلول بالمفهوم السويسري، بل يظل فى حالة تجدد حتى يصل إلى تلاشي المعنى الذاتي ويتولد منه معاني أخرى متجددة تطرحها الرموز الأولية للعمل الأدبي ولذلك يقول: «المعنى لا يحدد حقيقة أخيرة للصورة بل صورة جديدة تكون معلقة، وليس النقد ترجمة بل ثورية، وهو لا يدعي تقصي عمق العمل الأدبي، لأن العمق هو الذات نفسها أي غياب وكل مجاز هو علاقة دونما عمق إنه بمثابة المدلول البعيد الذي تسعى الدعوى الرمزية إلى تعيينه خلال إسرافها ولا يسع النقد إلا أن يتابع مجازات العمل الأدبي دون أن يختصرها؛ ومن العقيم أن نرد العمل الأدبي إلى الواضح المحض، كما يبدو أقل عبثاً أن يفترض بعضهم في العمل الأدبي سرا كبيراً حالما يكتشفه الناقد لن يجد شيئاً يضيفه إليه، ومهما قيل عن العمل الأدبي يظل كما اللحظة الأولى نتاج الكلام والذات والغياب» (٤٩).

وهكذا يتضح أن بارت يميل في مفهومه للنقد إلى كونه معنى وهذا المعنى يظل في حالة تجدد، ومنه تتناسل الصور وتنسلخ من بعضها البعض، ولا يوجد معنى مركزي أو رمز جوهري يكتشف في العمل الأدبي فحسب، بل إن العمل الأدبي يظل نتاج العملية الإبداعية والذات المبدعة والناقدة في اللحظة الآنية والمستقبلية. ولذلك يتمرد على مفهوم البطولة الملحمية ويرى أن «البطل يعيش في عالم من العلامات، وهو معني بها، وهذه العلامات ليست ثابتة، فضلاً عن عدم تأكيد هذه العلامات، فهو يضيف إلى غموضها من خلال توظيف العلامة ذاتها حقائق مختلفة، وعندما يعطي البطل الثقة لدلالة ما، شيء ما يحدث هنا. ويلقي بالبطل في الاضطراب والإحباط، كذلك فإن العالم يبدو للبطل محاطاً بألوان من الحيل (٥٠). أى أن البطولة الثابتة عند مفهوم واحد ووظيفة واحدة تحدث نوعاً من الاضطراب ولكن لا بد للذات في النص من أن تتعدد أبعادها ودلالاتها ومن ثم علاماتها. لأن العلامة عند بارت في حالة تجدد وتغير وتحول مستمر وهذا ما يعطي البعد النقدي نوعاً من الحيوية الخلاقة. لأنه يتجاوز بذلك المعاني المركزية للبطل أو للنقد.

وهذا المفهوم يتوافق مع الفلسفة الوجودية.

ثانية للعمل وإضافة له تعكس الموروث الثقافي للناقد وتتقصى الموضوع الأدبي خاصة إذا كانت الذاتية منظمة ومثقفة وتقوم على مزج الذاتي بالموضوعي مزجاً متقنا. وحينئذ تكون هذه الإضافة النقدية هي علامة العمل الأدبي ذاته. «فالنقد عنده ليس العلم وليس بمعارضة الموضوع بالذات بل بما له من صفات» (٤٧).

ولذلك يقول: «إن النقد هو قراءة عميقة جانبية إذ يكتشف في العمل الأدبي أمراً معقولاً، وهو بذلك يكشف عن تأويل ويسهم فيه غير أن ما يظهره هذا النقد لا يمكن أن يكون مدلولاً (إذ لا يزال يتراجع هذا المدلول حتى يصل إلى فراغ الذات) بل سلاسل من الرموز ومشابهات في العلاقات «فالمعنى» الذي يهبه النقد للعمل الأدبي ليس في النهاية إلا ازهاراً جديداً للرموز التي تصنع هذا العمل» (٤٨).

أي أن النقد في حالة تجدد دائم للمعنى الذي يطرحه النص الأدبي من ناحية وثقافة النقاد من ناحية ثانية، ولا يتقوقع هذا المعنى حول المدلول بالمفهوم السويسري، بل يظل فى حالة تجدد حتى يصل إلى تلاشي المعنى الذاتي ويتولد منه معاني أخرى متجددة تطرحها الرموز الأولية للعمل الأدبي ولذلك يقول: «المعنى لا يحدد حقيقة أخيرة للصورة بل صورة جديدة تكون معلقة، وليس النقد ترجمة بل ثورية، وهو لا يدعي تقصي عمق العمل الأدبي، لأن العمق هو الذات نفسها أي غياب وكل مجاز هو علاقة دونما عمق إنه بمثابة المدلول البعيد الذي تسعى الدعوى الرمزية إلى تعيينه خلال إسرافها ولا يسع النقد إلا أن يتابع مجازات العمل الأدبي دون أن يختصرها؛ ومن العقيم أن نرد العمل الأدبي إلى الواضح المحض، كما يبدو أقل عبثاً أن يفترض بعضهم في العمل الأدبي سرا كبيراً حالما يكتشفه الناقد لن يجد شيئاً يضيفه إليه، ومهما قيل عن العمل الأدبي يظل كما اللحظة الأولى نتاج الكلام والذات والغياب» (٤٩).

وهكذا يتضح أن بارت يميل في مفهومه للنقد إلى كونه معنى وهذا المعنى يظل في حالة تجدد، ومنه تتناسل الصور وتنسلخ من بعضها البعض، ولا يوجد معنى مركزي أو رمز جوهري يكتشف في العمل الأدبي فحسب، بل إن العمل الأدبي يظل نتاج العملية الإبداعية والذات المبدعة والناقدة في اللحظة الآنية والمستقبلية. ولذلك يتمرد على مفهوم البطولة الملحمية ويرى أن «البطل يعيش في عالم من العلامات، وهو معني بها، وهذه العلامات ليست ثابتة، فضلاً عن عدم تأكيد هذه العلامات، فهو يضيف إلى غموضها من خلال توظيف العلامة ذاتها حقائق مختلفة، وعندما يعطي البطل الثقة لدلالة ما، شيء ما يحدث هنا. ويلقي بالبطل في الاضطراب والإحباط، كذلك فإن العالم يبدو للبطل محاطاً بألوان من الحيل (٥٠). أى أن البطولة الثابتة عند مفهوم واحد ووظيفة واحدة تحدث نوعاً من الاضطراب ولكن لا بد للذات في النص من أن تتعدد أبعادها ودلالاتها ومن ثم علاماتها. لأن العلامة عند بارت في حالة تجدد وتغير وتحول مستمر وهذا ما يعطي البعد النقدي نوعاً من الحيوية الخلاقة. لأنه يتجاوز بذلك المعاني المركزية للبطل أو للنقد.

وهذا المفهوم يتوافق مع الفلسفة الوجودية.

التي انطلق منها بارت من حيث ميلها إلى تحلل المعنى وعدم مركزيته وتناسله الدائم، ولذلك يلجأ إلى وحدات النص وتحليلها من خلال اقتران المجاز بالعلامة فكل مجاز في النص يشكل علامة والنقد يتتبع هذه المجازات المكونة للعلامات دون أن يختزلها بل يتركها في حالة تجدد و تناسخ وتكاثر مستمر.

* * *

وهذه الفلسفة الوجودية التي أفرزت هذا المفهوم النقدي لدى بارت لم تتوافق والنقد التقليدي الذي كان سائداً في فرنسا آنذاك. واتضح هذا في بعض آرائه النقدية ومنها:

- اعتراضه على الفلسفة الحتمية التي كان يؤمن بها بعض أنصار النقد الأكاديمي الذين وضعوا «في أذهانهم نموذجاً للشخصية الإنسانية جعلت مكتشفات التحليل النفسي نموذجاً بالياً، وقد كانت تلك السذاجة وتلك الحتمية ضارتين- فيما يقول بارت- عندما كان النقاد يلجأون إلى تفسير المعطيات النصية بالرجوع إلى حياة المؤلف، وهو أسلوب غير مقصور على النقاد الفرنسيين. ولم يختلف بعد من أي بلد من البلدان» (٥١).

وعلة اعتراض بارت على هذا التصور أن المبدأ الحتمي يجعل الناقد يضع مجموعة قوالب نقدية جاهزة مثل حياة المؤلف وسيرته، وهذه القوالب تؤدي إلى مركزية المعنى التي تذكره بدورها بالفلسفة الحتمية التي يرفضها بارت.

معارضته للنقاد الأكاديميين الذين «لا يرون إلا معنى واحداً في النصوص التي يتناولونها، وذلك المعنى هو عادة حرفي جداً. وهذا المعنى الحرفي يعتبرونه بعد ذلك هو معنى النص وأن أي بحث عن معان مكملة أو بديلة مضيعة للوقت، إنهم أناس ضيقو الأفق، متسلطو المزاج يتوهمون أنهم علميون بينما هم متعنتون في آرائهم بشكل لا يغتفر، فقد انغلقت أذهانهم أمام لطائف اللغة Ambiguities، وإلى إمكان تعايش معان مختلفة ضمن مجموعة الكلمات ذاتها»(٥٢).

إن المعنى الأحادي عند بارت مرفوض: لأنه معنى حتمي- لو جاز لنا استخدام هذا التعبير- أي أن الناقد التقليدي لا يرى في النص إلا معنى مفرداً لا يتغير ولا يفسح المجال لمعان أخرى قد يطرحها النص. وهذه الأحادية لا تتناسب وفلسفة التحلل التي يتحلل فيها النص إلى معان ووحدات متعددة والتى تتوافق وفلسفة بارت النقدية ولذلك يقول: «إن العمل الأدبي لا يحيطه أو يسميه أو يحميه أو يوجهه أي موقف، وليس فيه حياة عملية تقول لنا أي المعاني نعطيه، ومهما استرسل العمل وفصل فإن فيه شيئاً أشبه بإيجاز النبوءات الدلفية (نسبة إلى معبد دلفاي) وتنسجم كلماته مع نظام أولي للرموز (النبوءات لم تستطرد) ولكنه مع ذلك يتقبل تفسيرات متعددة؛ لأن تلك الكلمات قيلت خارج أي موقف باستثناء موقف الغموض نفسه» (٥٣).

فالنقد عنده لا بد أن يميل إلى تفسيرات ومعان متعددة ولا يجب أن ينحصر في مواقف أحادية مثل حياة المؤلف وغيرها. ولذلك «يرفض النقد المعياري Normative مهما كان شكله ويرى أنه كلما كثرت المعاني التي يضمها النص كان ذلك أفضل وأنه يجب ألا يعطي أي من هذه المعاني أفضلية على المعاني الأخرى، وإن المعنى الذي يتخلل النص ليس هو ذلك

التي انطلق منها بارت من حيث ميلها إلى تحلل المعنى وعدم مركزيته وتناسله الدائم، ولذلك يلجأ إلى وحدات النص وتحليلها من خلال اقتران المجاز بالعلامة فكل مجاز في النص يشكل علامة والنقد يتتبع هذه المجازات المكونة للعلامات دون أن يختزلها بل يتركها في حالة تجدد و تناسخ وتكاثر مستمر.

* * *

وهذه الفلسفة الوجودية التي أفرزت هذا المفهوم النقدي لدى بارت لم تتوافق والنقد التقليدي الذي كان سائداً في فرنسا آنذاك. واتضح هذا في بعض آرائه النقدية ومنها:

- اعتراضه على الفلسفة الحتمية التي كان يؤمن بها بعض أنصار النقد الأكاديمي الذين وضعوا «في أذهانهم نموذجاً للشخصية الإنسانية جعلت مكتشفات التحليل النفسي نموذجاً بالياً، وقد كانت تلك السذاجة وتلك الحتمية ضارتين- فيما يقول بارت- عندما كان النقاد يلجأون إلى تفسير المعطيات النصية بالرجوع إلى حياة المؤلف، وهو أسلوب غير مقصور على النقاد الفرنسيين. ولم يختلف بعد من أي بلد من البلدان» (٥١).

وعلة اعتراض بارت على هذا التصور أن المبدأ الحتمي يجعل الناقد يضع مجموعة قوالب نقدية جاهزة مثل حياة المؤلف وسيرته، وهذه القوالب تؤدي إلى مركزية المعنى التي تذكره بدورها بالفلسفة الحتمية التي يرفضها بارت.

معارضته للنقاد الأكاديميين الذين «لا يرون إلا معنى واحداً في النصوص التي يتناولونها، وذلك المعنى هو عادة حرفي جداً. وهذا المعنى الحرفي يعتبرونه بعد ذلك هو معنى النص وأن أي بحث عن معان مكملة أو بديلة مضيعة للوقت، إنهم أناس ضيقو الأفق، متسلطو المزاج يتوهمون أنهم علميون بينما هم متعنتون في آرائهم بشكل لا يغتفر، فقد انغلقت أذهانهم أمام لطائف اللغة Ambiguities، وإلى إمكان تعايش معان مختلفة ضمن مجموعة الكلمات ذاتها» (٥٢).

إن المعنى الأحادي عند بارت مرفوض: لأنه معنى حتمي- لو جاز لنا استخدام هذا التعبير- أي أن الناقد التقليدي لا يرى في النص إلا معنى مفرداً لا يتغير ولا يفسح المجال لمعان أخرى قد يطرحها النص. وهذه الأحادية لا تتناسب وفلسفة التحلل التي يتحلل فيها النص إلى معان ووحدات متعددة والتى تتوافق وفلسفة بارت النقدية ولذلك يقول: «إن العمل الأدبي لا يحيطه أو يسميه أو يحميه أو يوجهه أي موقف، وليس فيه حياة عملية تقول لنا أي المعاني نعطيه، ومهما استرسل العمل وفصل فإن فيه شيئاً أشبه بإيجاز النبوءات الدلفية (نسبة إلى معبد دلفاي) وتنسجم كلماته مع نظام أولي للرموز (النبوءات لم تستطرد) ولكنه مع ذلك يتقبل تفسيرات متعددة؛ لأن تلك الكلمات قيلت خارج أي موقف باستثناء موقف الغموض نفسه» (٥٣).

فالنقد عنده لا بد أن يميل إلى تفسيرات ومعان متعددة ولا يجب أن ينحصر في مواقف أحادية مثل حياة المؤلف وغيرها. ولذلك «يرفض النقد المعياري Normative مهما كان شكله ويرى أنه كلما كثرت المعاني التي يضمها النص كان ذلك أفضل وأنه يجب ألا يعطي أي من هذه المعاني أفضلية على المعاني الأخرى، وإن المعنى الذي يتخلل النص ليس هو ذلك

الكشف النهائي الذي لا نحصل عليه إلا إذا أنهينا قراءة ذلك النص» (٥٤).

أخذ بارت على النقاد التقليديين أيضاً عدم تصريحهم بأيديولوجيتهم النقدية «أي أنهم فشلوا بالمصطلح السارتري في تبني القيم التي طبقوها عندما أطلقوا أحكامهم على عمل أدبي ما، وقد كان أحد الأمور التي شددت عليها الوجودية أن على أتباعها أن يتحملوا مسؤولية قيمهم بأن يكونوا صريحين بشأنها. وأي تصرف مخالف ذلك هو من قبيل الخداع. غير أن أيديولوجية الفلسفة الوضعية التي سحبها بارت متفشية في الحياة الأكاديمية ظلت أيديولوجية غير مصرح بها مما مكن الوضعيين من إبهام الناس بأن قيمهم كلية شاملة، لا يأتيها الباطل من بين أيديها ولا من خلفها، وأنها ليست قيم طبقة من الطبقات في مجتمع من المجتمعات في وقت من أوقات التاريخ. لقد كان خداعهم كاملاً (٥٥).

وقد هاجم بارت هذه التعمية التي حاول النقاد التقليديون أن يضللوا المجتمع بها، من حيث كونهم يعيشون حالة من التناقض بين الرؤية والأداة أو بين أفكارهم ا لحقيقية غير الواضحة التي لا تلتزم موقفاً فكرياً معيناً أو أيديولوجية معروفة وبين كتاباتهم النقدية التى يزعمون فيها تبنيهم فلسفة شاملة، في حين أن بارت رأى أن المزية الفكرية التي يعتزون بها وهي فكرة الوضوح ويرون أنها تطبق على المجتمع الفرنسي إنما هي في حقيقة الأمر تنطبق على اللغة الفرنسية المستعملة في البلاط، أى أنها مميزة لجماعة أو لطبقة بعينها وليس كل الطبقات. يقول: «إن الوضوح مزية محلية وسياسية، إنها مجرد صفة بلاغية وليست صفة عامة من صفات اللغة، صفة ممكنة في كل الأزمنة والأمكنة، والوضوح باختصار فعال حيث كانت البلاغة فعالة يوماً ما: في المحاكم وربما في المحافل الانتخابية وهو صفة من صفات اللغة توجه نحو تشكيل الآراء، أي أنه بتعبير بارت الحاسم لغة طبقة» (٥٦).

إن هذه اللغة هي لغة الطبقة العليا الحاكمة في المجتمع ولذلك يقول: «الاصطلاح التعبيرى الذي أسميناه- الوضوح الفرنسي- هو لغة سياسية بشكل خاص، ولدت ساعة تمنت طبقات المجتمع العليا أن تحول قراءة كتابتها إلى كلام عالمي، وهي تسعى جاهدة إلى إقناع الكل بأن منطق اللغة الفرنسية هو المنطق الأمثل... غير أن تلك الأسطورة تخطاها العلم عبر الألسنية الحديثة، فاللغة الفرنسية ليست أقل ولا أكثر «منطقية» من أية لغة أخرى ونعرف جيداً ما أحدثته المؤسسات الكلاسيكية من تشويهات في لغتنا» (٥٧).

وهكذا استطاع بارت أن يكشف تناقض النقاد التقليديين بين أيديولوجيتهم وكتاباتهم النقدية وتعميتهم للواقع الاجتماعي في تبني رؤية تتوافق مع شريحة معيّنة في المجتمع الفرنسي هي شريحة البلاط الفرنسي ولا تتوافق مع بقية الشرائح الأخرى. وتبلورت هذه الرؤية في فكرة الوضوح La Clarte. فضلاً عن أن الوضوح يتوافق والمعنى الأحادي أو المركزي وهذا ما يمقته بارت؛ لأن هذه الأحادية تذكرّه بالفلسفة الحتمية التي يمقتها.

فضلاً عن رفضه لكل ما هو طبيعي؛ لأن «كل ما هو طبيعي يؤخذ على أنه مفروض من

الكشف النهائي الذي لا نحصل عليه إلا إذا أنهينا قراءة ذلك النص»[٥٤].

أخذ بارت على النقاد التقليديين أيضاً عدم تصريحهم بأيديولوجيتهم النقدية «أي أنهم فشلوا بالمصطلح السارتري في تبني القيم التي طبقوها عندما أطلقوا أحكامهم على عمل أدبي ما، وقد كان أحد الأمور التي شددت عليها الوجودية أن على أتباعها أن يتحملوا مسؤولية قيمهم بأن يكونوا صريحين بشأنها. وأي تصرف مخالف ذلك هو من قبيل الخداع. غير أن أيديولوجية الفلسفة الوضعية التي سحبها بارت متفشية في الحياة الأكاديمية ظلت أيديولوجية غير مصرح بها مما مكن الوضعيين من إبهام الناس بأن قيمهم كلية شاملة، لا يأتيها الباطل من بين أيديها ولا من خلفها، وأنها ليست قيم طبقة من الطبقات في مجتمع من المجتمعات في وقت من أوقات التاريخ. لقد كان خداعهم كاملاً[٥٥].

وقد هاجم بارت هذه التعمية التي حاول النقاد التقليديون أن يضللوا المجتمع بها، من حيث كونهم يعيشون حالة من التناقض بين الرؤية والأداة أو بين أفكارهم ا لحقيقية غير الواضحة التي لا تلتزم موقفاً فكرياً معيناً أو أيديولوجية معروفة وبين كتاباتهم النقدية التى يزعمون فيها تبنيهم فلسفة شاملة، في حين أن بارت رأى أن المزية الفكرية التي يعتزون بها وهي فكرة الوضوح ويرون أنها تطبق على المجتمع الفرنسي إنما هي في حقيقة الأمر تنطبق على اللغة الفرنسية المستعملة في البلاط، أى أنها مميزة لجماعة أو لطبقة بعينها وليس كل الطبقات. يقول: «إن الوضوح مزية محلية وسياسية، إنها مجرد صفة بلاغية وليست صفة عامة من صفات اللغة، صفة ممكنة في كل الأزمنة والأمكنة، والوضوح باختصار فعال حيث كانت البلاغة فعالة يوماً ما: في المحاكم وربما في المحافل الانتخابية وهو صفة من صفات اللغة توجه نحو تشكيل الآراء، أي أنه بتعبير بارت الحاسم لغة طبقة»[٥٦].

إن هذه اللغة هي لغة الطبقة العليا الحاكمة في المجتمع ولذلك يقول: «الاصطلاح التعبيرى الذي أسميناه- الوضوح الفرنسي- هو لغة سياسية بشكل خاص، ولدت ساعة تمنت طبقات المجتمع العليا أن تحول قراءة كتابتها إلى كلام عالمي، وهي تسعى جاهدة إلى إقناع الكل بأن منطق اللغة الفرنسية هو المنطق الأمثل... غير أن تلك الأسطورة تخطاها العلم عبر الألسنية الحديثة، فاللغة الفرنسية ليست أقل ولا أكثر «منطقية» من أية لغة أخرى ونعرف جيداً ما أحدثته المؤسسات الكلاسيكية من تشويهات في لغتنا»[٥٧].

وهكذا استطاع بارت أن يكشف تناقض النقاد التقليديين بين أيديولوجيتهم وكتاباتهم النقدية وتعميتهم للواقع الاجتماعي في تبني رؤية تتوافق مع شريحة معيّنة في المجتمع الفرنسي هي شريحة البلاط الفرنسي ولا تتوافق مع بقية الشرائح الأخرى. وتبلورت هذه الرؤية في فكرة الوضوح La Clarte. فضلاً عن أن الوضوح يتوافق والمعنى الأحادي أو المركزي وهذا ما يمقته بارت؛ لأن هذه الأحادية تذكرّه بالفلسفة الحتمية التي يمقتها.

فضلاً عن رفضه لكل ما هو طبيعي؛ لأن «كل ما هو طبيعي يؤخذ على أنه مفروض من

قبل قوة غير القوة الإنسانية والنفوذ النهائي يحدث عندما يخدع سكان بلد من البلدان من قبل الطبقة الحاكمة ليسلمّوا بأن التراتيب الاجتماعية التي يعيشون بموجبها ليست نتاجاً إنسانياً بل من عمل الله أو الطبيعة.. أي أن صوت الطبيعي صوت يحابي الوضع القائم، لذلك فإن فضح هذا الصوت قد يعتبر عملاً ثورياً أو عملاً تحريضياً على الأقل ضد شكل المجتمع القائم» (٥٨).

ومن ثم فإن خروجه على النقد التقليدي له ما يبرره فلسفياً واجتماعياً حيث لم تعد هذه المفاهيم النقدية التقليدية تساير متغيرات الواقع الحياتي في فرنسا؛ لأن التقليدية تساير الواقع الطبيعي الذي يميل إلى السكونية والرتابة، وهذه السكونيّة تتوافق وقداسة السلطة ورتابتها في الواقع؛ لأنها تريد أن يظل الواقع ساكناً كما هو دون أن يكدر صفو حياتها تغيير أو تبديل. ولذلك رفض بارت هذا الواقع النقدي التقليدي الذي يتوافق ورتابة الوضع الطبيعي السائد في الواقع المعيش للطبقة السلطوية، على أننا ندرك أن منطلق بارت ليست النزعة الثورية فهو لم يكن ثورياً بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة ولكن الرغبة في التجديد وشعوره بالمتعة فى فضح التعمية السائدة وكشف جوانبها وأبعادها، هو ما دفعه لذلك، فضلاً عن شعوره بالمتعة أيضاً عندما يكتشف جوانب التناقض السائدة بين الآراء المختلفة. أي أننا نستطيع القول إن الشعور بالمتعة كان دافعا قوياً وراء هذه المفاهيم النقدية لبارت، وكانت الفلسفة الوجودية ومقته للجوهرية دافعاً أيضاً لإفراز الشعور بالمتعة نتيجة إتاحتها الاختيارات المتعددة إلى هذا التناسخ والتناسل والتعدد اللانهائي للمعنى.

وكانت السيميائية هي الوعاء الذي صب فيه مفهومه النقدي. من حيث ربطه المعاني المتعددة بالعلامات التي يطرحها النص.

٢-٢- اللغة ومفهوم النص: «السلطة اللغوية والنصية»:

٢-٢-أ- السلطة اللغوية:

ينظر رولان بارت إلى اللغة على أنها خطاب السلطة «وأن السلطة جرثومة عالقة بجهاز يخترق المجتمع، ويرتبط بتاريخ البشرية فى مجموعه، وليس بالتاريخ السياسي وحده، هذا الشيء الذي ترتسم فيه السلطة ومنذ الأزل هو اللغة أو بتعبير أدق: اللسان، فاللغة سلطة تشريعية واللسان قانونها» (٥٩).

أي أن اللغة عند بارت علامة على السلطة المرتسمة في وعي البشرية منذ القدم، ولا تستطيع البشرية الفكاك من هذا الأسر اللغوي. بل ولا يمكن الخروج عن تراكيبها المألوفة من حيث سياق الجملة وتذكيرها وتأنيثها وإفرادها وجمعها وأنواع ضمائرها وغيرها من أنظمة اللغة ومثل هذه الأنظمة اللغوية يراها بارت نوعاً من القيود والقهر التي تسيطر على الإنسان وتجعله أسيراً لهذه السلطة ولذلك يقول: «إنّ اللغة بطبيعة بنيتها تنطوى على علاقة استلاب قاهرة. ليس النطق أو الخطاب بالأحرى تبليغاً كما يقال عادة إنه إخضاع؛ فاللغة توجيه وإخضاع معمّمان» (٦٠).

إن اللغة عنده نوع من الخضوع والقهر للذات الإنسانية وأنها لا تقف عند مجرد الخطاب البشري؛ بل تمارس سلطة أبدية للإنسان لا

قبل قوة غير القوة الإنسانية والنفوذ النهائي يحدث عندما يخدع سكان بلد من البلدان من قبل الطبقة الحاكمة ليسلمّوا بأن التراتيب الاجتماعية التي يعيشون بموجبها ليست نتاجاً إنسانياً بل من عمل الله أو الطبيعة.. أي أن صوت الطبيعي صوت يحابي الوضع القائم، لذلك فإن فضح هذا الصوت قد يعتبر عملاً ثورياً أو عملاً تحريضياً على الأقل ضد شكل المجتمع القائم» (٥٨).

ومن ثم فإن خروجه على النقد التقليدي له ما يبرره فلسفياً واجتماعياً حيث لم تعد هذه المفاهيم النقدية التقليدية تساير متغيرات الواقع الحياتي في فرنسا؛ لأن التقليدية تساير الواقع الطبيعي الذي يميل إلى السكونية والرتابة، وهذه السكونيّة تتوافق وقداسة السلطة ورتابتها في الواقع؛ لأنها تريد أن يظل الواقع ساكناً كما هو دون أن يكدر صفو حياتها تغيير أو تبديل. ولذلك رفض بارت هذا الواقع النقدي التقليدي الذي يتوافق ورتابة الوضع الطبيعي السائد في الواقع المعيش للطبقة السلطوية، على أننا ندرك أن منطلق بارت ليست النزعة الثورية فهو لم يكن ثورياً بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة ولكن الرغبة في التجديد وشعوره بالمتعة فى فضح التعمية السائدة وكشف جوانبها وأبعادها، هو ما دفعه لذلك، فضلاً عن شعوره بالمتعة أيضاً عندما يكتشف جوانب التناقض السائدة بين الآراء المختلفة. أي أننا نستطيع القول إن الشعور بالمتعة كان دافعا قوياً وراء هذه المفاهيم النقدية لبارت، وكانت الفلسفة الوجودية ومقته للجوهرية دافعاً أيضاً لإفراز الشعور بالمتعة نتيجة إتاحتها الاختيارات المتعددة إلى هذا التناسخ والتناسل والتعدد اللانهائي للمعنى.

وكانت السيميائية هي الوعاء الذي صب فيه مفهومه النقدي. من حيث ربطه المعاني المتعددة بالعلامات التي يطرحها النص.

٢-٢- اللغة ومفهوم النص: «السلطة اللغوية والنصية»:

٢-٢-أ- السلطة اللغوية:

ينظر رولان بارت إلى اللغة على أنها خطاب السلطة «وأن السلطة جرثومة عالقة بجهاز يخترق المجتمع، ويرتبط بتاريخ البشرية فى مجموعه، وليس بالتاريخ السياسي وحده، هذا الشيء الذي ترتسم فيه السلطة ومنذ الأزل هو اللغة أو بتعبير أدق: اللسان، فاللغة سلطة تشريعية واللسان قانونها» (٥٩).

أي أن اللغة عند بارت علامة على السلطة المرتسمة في وعي البشرية منذ القدم، ولا تستطيع البشرية الفكاك من هذا الأسر اللغوي. بل ولا يمكن الخروج عن تراكيبها المألوفة من حيث سياق الجملة وتذكيرها وتأنيثها وإفرادها وجمعها وأنواع ضمائرها وغيرها من أنظمة اللغة ومثل هذه الأنظمة اللغوية يراها بارت نوعاً من القيود والقهر التي تسيطر على الإنسان وتجعله أسيراً لهذه السلطة ولذلك يقول: «إنّ اللغة بطبيعة بنيتها تنطوى على علاقة استلاب قاهرة. ليس النطق أو الخطاب بالأحرى تبليغاً كما يقال عادة إنه إخضاع؛ فاللغة توجيه وإخضاع معمّمان» (٦٠).

إن اللغة عنده نوع من الخضوع والقهر للذات الإنسانية وأنها لا تقف عند مجرد الخطاب البشري؛ بل تمارس سلطة أبدية للإنسان لا

يستطيع التخلص منها وتوجهه إلى حيث تشير أنظمتها وسياقها. فيقول: «إن اللغة ما أن ينطق بها حتى وإن ظلت مجرد همهمة فهي تصبح في خدمة سلطة بعينها إذ لا بد أن ترتسم منها خانتان، نفوذ القول الجازم، وتبعية التكرار والاجترار، فمن ناحية اللغة جزم وتقرير، وما النفي والشك والمكان وتعليق الحكم إلا حالات تستلزم عوامل خاصة سرعان ما تدخل هي ذاتها في عمليّات التغليف اللغوي... وما أحاول بفضله استرحاماً التخفيف من سلطتها التقريرية القاهرة، ومن ناحية أخرى فإن الدلائل والعلامات التي تتكون منها اللغة لا توجد إلا بقدر ما يعترف بها، أي بقدر ما تتكرر وتتردّد، فالدليل تبعي مقلد، وفي كل دليل يرقد نموذج متحجر.. وما أن أصُغ عبارة ما عندي تلتقي عندي الخانتان المذكورتان وأكون في ذلك الوقت سيداً ومسوداً: إذ أنني لا أكتفي بأن ألوك ما قيل وأردده مرتكناً بارتياح إلى عبودية الدلائل، بل إنني أؤكد وأثبت وأفند ما أردده» (٦١).

وهكذا نجد بارت يجعل من اللغة سلطة تسيطر على الإنسان وتجعله خاضعاً للمعنى الدلالي الجازم من ناحية وتبعية التكرار من ناحية ثانية ويحاول التطلع لإمكانية التخفف من هذه القيود السلطوية للغة، التي تجعله أسيراً لمفهوم محدد للكلمة أو الجملة أو الصورة أو العلامة اللغوية عامة ولا يستطيع الخروج عن مفهوم هذه العلامة أو الدليل اللغوي، وعندما يحاول ذلك من خلال صياغته لجملة أو عبارة معينة فيصبح حينئذ قائداً ومقوداً في آن واحد، قائداً؛ لأنه يحاول صياغة ما يريد قوله ومقوداً؛ لأنه يخضع لأنظمة اللغة وسياقاتها ونسقها.

ونظن أن محاولات التمرد هذه على سلطة اللغة جاءت مواكبة للفلسفة الوجودية لبارت وتعبيراً عن رفضه للفلسفة الحتمية، إذ أن سلطة اللغة وقيودها وخضوعه لها تذكره بخضوعه للموت على أنه قدر حتمي لا يستطيع الفكاك منه خاصة أن حالاته المرضية التي مر بها جعلته يتطلع للتخلص من هذه القدرية. وكانت الفلسفة الوجودية أقرب الرؤى إلى نفسه لتجاوز هذه القيود، فحاول التمرد على كل ما يقيد حرية الإنسان لأن الإنسان خلق حرا وعليه أن يختار ويتحمل تبعية الاختيار. واللغة بالنسبة له قيد وخضوع لسلطتها، ولا بد له من البحث عن مخرج من هذا الأسر. يقول: «في اللغة إذن خضوع وسلطة يمتزجان بلا هوادة، فإذا لم تكن الحرية مجرد القدرة على الانفلات من قهر السلطة، فإنما على الخصوص عدم إخضاع أي كان. فلا مكان للحرية إلا خارج اللغة، بيد أن اللغة البشرية من سوء الحظ لا خارج لها. إنها انغلاق ولا محيد لنا عنها إلا عن طريق المستحيل.... ولكن لا يتبقى لنا إلا مراوغة اللغة وخيانتها هذه الخيانة الملائمة، وهذا التلافي والهروب، هذه الخديعة العجيبة التي تسمح بإدراك اللغة خارج سلطتها في عظمة ثورة دائمة للغة، هذا هو ما أطلق عليه أدباً» (٦٢).

ومن ثم نستطيع القول إن نظرة بارت للغة انطلقت من نظرته الفلسفية للواقع والوجود واللغة، إنه يتطلع للحرية الفكرية في شتى جوانب الحياة ولا يريد شيئاً يحد من انطلاقه حتى لو كان هذا الشيء هو اللغة التي يستخدمها في

يستطيع التخلص منها وتوجهه إلى حيث تشير أنظمتها وسياقها. فيقول: «إن اللغة ما أن ينطق بها حتى وإن ظلت مجرد همهمة فهي تصبح في خدمة سلطة بعينها إذ لا بد أن ترتسم منها خانتان، نفوذ القول الجازم، وتبعية التكرار والاجترار، فمن ناحية اللغة جزم وتقرير، وما النفي والشك والمكان وتعليق الحكم إلا حالات تستلزم عوامل خاصة سرعان ما تدخل هي ذاتها في عمليّات التغليف اللغوي... وما أحاول بفضله استرحاماً التخفيف من سلطتها التقريرية القاهرة، ومن ناحية أخرى فإن الدلائل والعلامات التي تتكون منها اللغة لا توجد إلا بقدر ما يعترف بها، أي بقدر ما تتكرر وتتردّد، فالدليل تبعي مقلد، وفي كل دليل يرقد نموذج متحجر.. وما أن أصُغ عبارة ما عندي تلتقي عندي الخانتان المذكورتان وأكون في ذلك الوقت سيداً ومسوداً: إذ أنني لا أكتفي بأن ألوك ما قيل وأردده مرتكناً بارتياح إلى عبودية الدلائل، بل إنني أؤكد وأثبت وأفند ما أردده» (٦١).

وهكذا نجد بارت يجعل من اللغة سلطة تسيطر على الإنسان وتجعله خاضعاً للمعنى الدلالي الجازم من ناحية وتبعية التكرار من ناحية ثانية ويحاول التطلع لإمكانية التخفف من هذه القيود السلطوية للغة، التي تجعله أسيراً لمفهوم محدد للكلمة أو الجملة أو الصورة أو العلامة اللغوية عامة ولا يستطيع الخروج عن مفهوم هذه العلامة أو الدليل اللغوي، وعندما يحاول ذلك من خلال صياغته لجملة أو عبارة معينة فيصبح حينئذ قائداً ومقوداً في آن واحد، قائداً؛ لأنه يحاول صياغة ما يريد قوله ومقوداً؛ لأنه يخضع لأنظمة اللغة وسياقاتها ونسقها.

ونظن أن محاولات التمرد هذه على سلطة اللغة جاءت مواكبة للفلسفة الوجودية لبارت وتعبيراً عن رفضه للفلسفة الحتمية، إذ أن سلطة اللغة وقيودها وخضوعه لها تذكره بخضوعه للموت على أنه قدر حتمي لا يستطيع الفكاك منه خاصة أن حالاته المرضية التي مر بها جعلته يتطلع للتخلص من هذه القدرية. وكانت الفلسفة الوجودية أقرب الرؤى إلى نفسه لتجاوز هذه القيود، فحاول التمرد على كل ما يقيد حرية الإنسان لأن الإنسان خلق حرا وعليه أن يختار ويتحمل تبعية الاختيار. واللغة بالنسبة له قيد وخضوع لسلطتها، ولا بد له من البحث عن مخرج من هذا الأسر. يقول: «في اللغة إذن خضوع وسلطة يمتزجان بلا هوادة، فإذا لم تكن الحرية مجرد القدرة على الانفلات من قهر السلطة، فإنما على الخصوص عدم إخضاع أي كان. فلا مكان للحرية إلا خارج اللغة، بيد أن اللغة البشرية من سوء الحظ لا خارج لها. إنها انغلاق ولا محيد لنا عنها إلا عن طريق المستحيل.... ولكن لا يتبقى لنا إلا مراوغة اللغة وخيانتها هذه الخيانة الملائمة، وهذا التلافي والهروب، هذه الخديعة العجيبة التي تسمح بإدراك اللغة خارج سلطتها في عظمة ثورة دائمة للغة، هذا هو ما أطلق عليه أدباً» (٦٢).

ومن ثم نستطيع القول إن نظرة بارت للغة انطلقت من نظرته الفلسفية للواقع والوجود واللغة، إنه يتطلع للحرية الفكرية في شتى جوانب الحياة ولا يريد شيئاً يحد من انطلاقه حتى لو كان هذا الشيء هو اللغة التي يستخدمها في

الخطاب.

ولذلك حاول أن يجد طريقه للخروج من سلطة اللغة إلا أنه لم يستطع اتباع طريقة الوحدة الصوفية التى أشار إليها «كيير كغارد Kierke-gaard وحددها بفداء إبراهيم كفعل لا مثيل له خال من أي كلام حتى لو كان كلاماً باطنياً يقوم ضد شمولية اللغة وتبعيتها. ولا اتباع طريقة الإنسان الأعلى عند نيتشه» (٦٣). ولكنه رأى أن الخروج على سلطة اللغة يتمثل في مراوغتها والهروب من أحاديتها وإدراك أبعادها ومعانيها التفجيرية وهذا لا يتحقق إلا من خلال الخروج على الأعمال التقليدية والتطلع للغة النص المراوغ– لو جاز لنا استخدام هذا التعبير– لأن النص يقوم على اللغة وحتى يتحقق له الخروج على سلطة اللغة الأحادية فلا بد له من الانفتاح على اللغة الانفجارية المراوغة وهذا لا يتحقق إلا من خلال النص الذي يحمل مفاهيم مستحدثة تغاير مفهوم العمل الأدبي من ناحية وقتل أبوة هذا النص من ناحية ثانية ثم الدخول به إلى مرحلة اللذة والمتعة. أي أن بارت خرج من سلطة اللغة ليقع في سلطة النص بأبعاده المتعددة ومفاهيمه المتباينة.

٣-٢-ب- مفهوم النص ومقوماته :

لقد كثرت الدراسات التي عنيت بمفهوم النص في البنيوية والسيميولوجية، وفي الخطاب النقدي المعاصر (٦٤)، غير أننا سوف نقتصر على مفهوم رولان بارت للنص من خلال دراساته ومقالاته النقدية المختلفة لا سيما المرحلة التي تطور فيها مفهومه للسيميولوجيا، وانفتحت على العديد من العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلمية، وتجاوز فكرة سلطة اللغة إلى سلطة النص، فرأى أن سلطة النص علامة على انعدام سلطة اللغة يقول: «إذا كانت السيميولوجيا التى أتحدث عنها قد عادت إلى النص؛ فلأن النصّ قد بدا لها خلال مجموع أشكال الهيمنة. هو العلامة على انعدام السلطة، فالنص يحمل في طياته قوة الانفلات اللانهائي من الكلام الاتباعي، حتى ولو أراد هذا الكلام أن يعيد بناء ذاته في حضنه، إن النص لا يفتأ يرمي بك بعيداً، إنه يلقي خارجاً نحو مكان لا موقع له، نحو اللامكان.. إن النص يخلع شيئاً فشيئاً وبكيفية مؤقتة دواء العمومية والأخلاقية واللاختلاف الذي يثقل كاهل خطابنا الجماعي، وهكذا تتضافر جهود الأدب والسيميولوجيا ليكمل أحدهما نقص الآخر» (٦٥).

ومن هنا يتضح أن مرحلة العناية بالنص جاءت بعد مرحلة العناية باللغة، أو بمعنى آخر يمكن القول إن المرحلة السيميولوجية الأولى عنى فيها بارت بسلطة اللغة، والمرحلة الثانية انتقل من سلطة اللغة إلى سلطة النص، خاصة بعد أن اتسع نطاق السيميولوجيا عنده وأصبحت تشمل الموضوعات السياسية والاجتماعية والإذاعية والدعائيّة والسينمائية وغيرها. وتأتي هذه المرحلة امتداداً للمرحلة الأولى من ناحية ورؤيته الفلسفية من ناحية ثانية لا سيما فلسفة سارتر الوجودية.

فالتحلل والتعدد الذى انعكس على مفهومه للنقد الأدبي نجده انعكس أيضاً على مفهومه للنص. فالنص وفق مفهوم بارت يحمل في طياته عوامل الخروج والانفلات من الكلمات والجمل والمعاني التقليدية، بل إنه لا يتقوقع حول مكان طبيعي. وموقع مألوف بل يمتد إلى اللاموقع واللامكان،

الخطاب.

ولذلك حاول أن يجد طريقه للخروج من سلطة اللغة إلا أنه لم يستطع اتباع طريقة الوحدة الصوفية التى أشار إليها «كيير كغارد Kierke-gaard وحددها بفداء إبراهيم كفعل لا مثيل له خال من أي كلام حتى لو كان كلاماً باطنياً يقوم ضد شمولية اللغة وتبعيتها. ولا اتباع طريقة الإنسان الأعلى عند نيتشه» (٦٣). ولكنه رأى أن الخروج على سلطة اللغة يتمثل في مراوغتها والهروب من أحاديتها وإدراك أبعادها ومعانيها التفجيرية وهذا لا يتحقق إلا من خلال الخروج على الأعمال التقليدية والتطلع للغة النص المراوغ- لو جاز لنا استخدام هذا التعبير- لأن النص يقوم على اللغة وحتى يتحقق له الخروج على سلطة اللغة الأحادية فلا بد له من الانفتاح على اللغة الانفجارية المراوغة وهذا لا يتحقق إلا من خلال النص الذي يحمل مفاهيم مستحدثة تغاير مفهوم العمل الأدبي من ناحية وقتل أبوة هذا النص من ناحية ثانية ثم الدخول به إلى مرحلة اللذة والمتعة. أي أن بارت خرج من سلطة اللغة ليقع في سلطة النص بأبعاده المتعددة ومفاهيمه المتباينة.

٣-٢-ب- مفهوم النص ومقوماته :

لقد كثرت الدراسات التي عنيت بمفهوم النص في البنيوية والسيميولوجية، وفي الخطاب النقدي المعاصر (٦٤)، غير أننا سوف نقتصر على مفهوم رولان بارت للنص من خلال دراساته ومقالاته النقدية المختلفة لا سيما المرحلة التي تطور فيها مفهومه للسيميولوجيا، وانفتحت على العديد من العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلمية، وتجاوز فكرة سلطة اللغة إلى سلطة النص، فرأى أن سلطة النص علامة على انعدام سلطة اللغة يقول: «إذا كانت السيميولوجيا التى أتحدث عنها قد عادت إلى النص؛ فلأن النصّ قد بدا لها خلال مجموع أشكال الهيمنة. هو العلامة على انعدام السلطة، فالنص يحمل في طياته قوة الانفلات اللانهائي من الكلام الاتباعي، حتى ولو أراد هذا الكلام أن يعيد بناء ذاته في حضنه، إن النص لا يفتأ يرمي بك بعيداً، إنه يلقي خارجاً نحو مكان لا موقع له، نحو اللامكان.. إن النص يخلع شيئاً فشيئاً وبكيفية مؤقتة دواء العمومية والأخلاقية واللااختلاف الذي يثقل كاهل خطابنا الجماعي، وهكذا تتضافر جهود الأدب والسيميولوجيا ليكمل أحدهما نقص الآخر» (٦٥).

ومن هنا يتضح أن مرحلة العناية بالنص جاءت بعد مرحلة العناية باللغة، أو بمعنى آخر يمكن القول إن المرحلة السيميولوجية الأولى عنى فيها بارت بسلطة اللغة، والمرحلة الثانية انتقل من سلطة اللغة إلى سلطة النص، خاصة بعد أن اتسع نطاق السيميولوجيا عنده وأصبحت تشمل الموضوعات السياسية والاجتماعية والإذاعية والدعائيّة والسينمائية وغيرها. وتأتي هذه المرحلة امتداداً للمرحلة الأولى من ناحية ورؤيته الفلسفية من ناحية ثانية لا سيما فلسفة سارتر الوجودية.

فالتحلل والتعدد الذى انعكس على مفهومه للنقد الأدبي نجده انعكس أيضاً على مفهومه للنص. فالنص وفق مفهوم بارت يحمل في طياته عوامل الخروج والانفلات من الكلمات والجمل والمعاني التقليدية، بل إنه لا يتقوقع حول مكان طبيعي. وموقع مألوف بل يمتد إلى اللاموقع واللامكان،

لأنه نص يميل إلى التعدد اللانهائي.

وفي مقال بارت من العمل إلى النص «حدد بعض المقاربات للعمل والنص، وعلى الرغم من الدراسات العربية العديدة التي أشارت إليها إلا أننا نقتصر فقط على توضيح بعض المقاربات النصية عنده؛ حتى تعيننا في توضيح مفهوم بارت للنص ومنها[٦٦]:

١- «إن النص حقل منهجي يبرهن عليه ويتحدث عنه وفق بعض القواعد أو ضد بعض القواعد ويتم تناوله من خلال اللغة ولا يوجد إلا داخل الخطاب ولا يتوقف بل هو في حركة دائبة.

٢- لا ينحصر النص في الأدب الجيد، ولا يؤخذ من خلال تقطيع بسيط للأجناس، بل يتشكل من خلال مقدرته على خلخلة التصنيفات القديمة، فالنص هو ما يوجد على حدود قواعد القول من معقولية وقابلية للقراءة، ويحاول أن يضع نفسه وراء حدود الرأي السائد فهو دوماً بدعة وخروج عن حدود الآراء السائدة.

٣- إن النص يكرس التراجع اللانهائي للمدلول، وبهذا يكون تمددياً ومجاله هو الدال، ولا ينبغي تصور الدال على أنه الجزء الأول من المعنى وحامله المادي، بل يجب أن يتصور بأنه هو الذي يأتي بعد حين، وأن لا نهائية الدال لا تحيل إلى ما يعجز اللسان عن التعبير عنه (أي إلى مدلول لا يمكن أن تجد التعبير عنه) وإنما إلى فكرة اللعب، فالتوليد الدائم للدال الذي مجاله النص لا يتم وفق النمو العضوي أو حسب طريق تأويلي وإنما وفق حركة تسلسلية للتداخل والتغير، فالمنطق الذي يتحكم في النص ليس إفهامياً (أي يحدد مقصد النص) لكنه كنائي، فالتداعي والتجاوز والإحالة هي نوع من الإفصاح عن الطاقة الرمزية.

٤- النص تعددي. لا يعني هذا فحسب إنه ينطوي على معان عدّة وإنما يحقق تعدد المعنى ذاته، إنه تعدد لا يؤول إلى أية وحدة، وإنما هو مجاز وانتقال بناء على ذلك فلا يمكن أن يخضع لتأويل- وحتى لو كان حراً- وإنما لتفجير وتشتيت، ذلك أن تعددية النص لا تعود لالتباس محتوياته وإنما لما يمكن أن نطلق عليه التعدد المتناغم للدلائل التي يتكون منها.

٥- النص يقرأ من غير أن يسند إلى أب، فقيام التناص يلغي التراث ويقضي عليه. ولا يعني هذا أن المؤلف لا يمكن أن يعود للظهور في نصه، لكنّه لو عاد فإنما في صورة «مدعوّ» فإن كان كاتب رواية فإنه يظهر فيها كشخصية من شخصياتها، بيد أن ظهوره لا يتمتع بأي امتياز، إنه يصبح كائناً من ورق إن صح التعبير.

٦- النص ينقذ العمل من الاستهلاك وينظر إليه كلعب وعمل وإنتاج وممارسة، وهذا يعني أن النص يتطلب منا محاولة قهر المسافة التي تفصل الكتابة عن القراءة، لا بالزيادة من إسقاط القارىء على العمل وإنما بضمهما معاً في الممارسة الدالة نفسها، فالقراءة بمعنى الاستهلاك تعني ألا يلعب القارىء لعبة النص- ويقصد بها محاولة القارىء استعادة النص لحسابه- ولكن لكي لا يرتد عمله إلى مجرد محاكاة سلبية منفعلة باطنية فإنه يمثل النص تمثيلاً مسرحياً، ولفظ اللعب له معنى الدلالة الموسيقية بالإضافة إلى معناه المسرحي.

لأنه نص يميل إلى التعدد اللانهائي.

وفي مقال بارت من العمل إلى النص «حدد بعض المقاربات للعمل والنص، وعلى الرغم من الدراسات العربية العديدة التي أشارت إليها إلا أننا نقتصر فقط على توضيح بعض المقاربات النصية عنده؛ حتى تعيننا في توضيح مفهوم بارت للنص ومنها (٦٦):

١- «إن النص حقل منهجي يبرهن عليه ويتحدث عنه وفق بعض القواعد أو ضد بعض القواعد ويتم تناوله من خلال اللغة ولا يوجد إلا داخل الخطاب ولا يتوقف بل هو في حركة دائبة.

٢- لا ينحصر النص في الأدب الجيد، ولا يؤخذ من خلال تقطيع بسيط للأجناس، بل يتشكل من خلال مقدرته على خلخلة التصنيفات القديمة، فالنص هو ما يوجد على حدود قواعد القول من معقولية وقابلية للقراءة، ويحاول أن يضع نفسه وراء حدود الرأي السائد فهو دوماً بدعة وخروج عن حدود الآراء السائدة.

٣- إن النص يكرس التراجع اللانهائي للمدلول، وبهذا يكون تمددياً ومجاله هو الدال، ولا ينبغي تصور الدال على أنه الجزء الأول من المعنى وحامله المادي، بل يجب أن يتصور بأنه هو الذي يأتي بعد حين، وأن لا نهائية الدال لا تحيل إلى ما يعجز اللسان عن التعبير عنه (أي إلى مدلول لا يمكن أن تجد التعبير عنه) وإنما إلى فكرة اللعب، فالتوليد الدائم للدال الذي مجاله النص لا يتم وفق النمو العضوي أو حسب طريق تأويلي وإنما وفق حركة تسلسلية للتداخل والتغير، فالمنطق الذي يتحكم في النص ليس إفهامياً (أي يحدد مقصد النص) لكنه كنائي، فالتداعي والتجاوز والإحالة هي نوع من الإفصاح عن الطاقة الرمزية.

٤- النص تعددي. لا يعني هذا فحسب إنه ينطوي على معان عدّة وإنما يحقق تعدد المعنى ذاته، إنه تعدد لا يؤول إلى أية وحدة، وإنما هو مجاز وانتقال بناء على ذلك فلا يمكن أن يخضع لتأويل- وحتى لو كان حراً- وإنما لتفجير وتشتيت، ذلك أن تعددية النص لا تعود لالتباس محتوياته وإنما لما يمكن أن نطلق عليه التعدد المتناغم للدلائل التي يتكون منها.

٥- النص يقرأ من غير أن يسند إلى أب، فقيام التناص يلغي التراث ويقضي عليه. ولا يعني هذا أن المؤلف لا يمكن أن يعود للظهور في نصه، لكنّه لو عاد فإنما في صورة «مدعوّ» فإن كان كاتب رواية فإنه يظهر فيها كشخصية من شخصياتها، بيد أن ظهوره لا يتمتع بأي امتياز، إنه يصبح كائناً من ورق إن صح التعبير.

٦- النص ينقذ العمل من الاستهلاك وينظر إليه كلعب وعمل وإنتاج وممارسة، وهذا يعني أن النص يتطلب منا محاولة قهر المسافة التي تفصل الكتابة عن القراءة، لا بالزيادة من إسقاط القارىء على العمل وإنما بضمهما معاً في الممارسة الدالة نفسها، فالقراءة بمعنى الاستهلاك تعني ألا يلعب القارىء لعبة النص- ويقصد بها محاولة القارىء استعادة النص لحسابه- ولكن لكي لا يرتد عمله إلى مجرد محاكاة سلبية منفعلة باطنية فإنه يمثل النص تمثيلاً مسرحياً، ولفظ اللعب له معنى الدلالة الموسيقية بالإضافة إلى معناه المسرحي.

وكما أن الموسيقى المعاصرة قد زعزعت اليوم دور العازف الذي يطلب منه أن يكون مشاركاً للمؤلف في مقطوعته التي يعمل على إكمالها أكثر مما يعمل على التعبير عنها، فإن النص يكاد يشبه مقطوعة من هذا النوع، إنه يتطلب من القارىء مساهمة فعالة وهذا تحول كبير.

٧- إن النص مشدود إلى المتعة «اللذة» التي لا تنفصم، وإن لم يكن يحقق شفافية العلاقات الاجتماعية فعلى الأقل يحقق شفافية العلاقات اللغوية، فهو الفضاء الذي لا تتغلب فيه لغة على أخرى وتروج فيه اللغات وتدور».

ومن خلال هذه الأسس التي وضعها بارت لمفهوم النص يتضح لنا أن النص عنده لا يخرج عن الرؤية الفلسفية الوجودية التي ارتضاها لنفسه فنجد أن الأسس السبعة التي وضعها بارت لتوضيح مفهوم النص ومدى مفارقته عن مفهوم العمل لا تخرج عن هذه الرؤية الفلسفية. فالنص عنده يتسم بالآتي:

- الحركية الدائبة التي تجعله يتوافق حيناً مع بعض القواعد الفنية أو التركيبية ويتعارض معها في الحين الآخر، وكأنّ حركية النص تتشكل من خلال المد والجزر بين المعاني ونقيضها أو القواعد التركيبية وضدها. ويتأتى هذا نتيجة تحلل النص إلى جزئيات وهذا التحلل يتوافق والرؤية الفلسفية التي نهجها.

وعلى الرغم من أن هذا التناقض يشكل لبنة أساسية في تشكيل النص عد بارت إلا أن هذا التناقض يبدو أنه انتقل إلى الأسس التي وضعها لنفسه حول النص، فعلى حين أنه يرى أن «النص حقل منهجي» (٦٧)، فيرى في موضع آخر أن المنهج وهم، فيقول كل منهج وهم» (٦٨).

ويبدو أن بارت مثلما يشعر بالمتعة من خلال تناقض النص يشعر بالمتعة أيضاً من خلال تناقض الرؤى النقدية؛ لأنه يحاول أن يحطم كل معايير نقدية كلاسيكية تقوم على أسس منهجية معينة، أي أنه ضد المنهجية التقليدية. غير أننا نرى أن اللامنهجية التي حاول بارت أن يكرسها في مفاهيمه النقدية هي في حد ذاتها منهج. خاصة إذا طبقها الناقد على كل مفاهيمه النقدية، وهذا ما حاول بارت أن يفعله في مفهومه للنقد أو للنص. فالنص عنده يتجاوز التراكيب المألوفة ولا يوجد إلا داخل الخطاب وهو في حركية لا نهائية. وإذا كانت هذه اللامنهجية تنطلق من رؤيته الفلسفية الوجودية فهي منهج.

لا يقف النص عند بارت عند حدود الأدب الجيد الذي يعتمد على الأجناس البسيطة المباشرة ولكنه يتجاوز ذلك إلى مستويات التمرد على الأشكال الكلاسيكية القديمة ويتجاوز المفاهيم السائدة. وهذا ما يجعل النص في حالة من التجدد المستمر، وحينئذ لا تقف علامات النص عند رؤية بعينها بل تتجاوز ذلك إلى رؤى عديدة.

إن هذا المفهوم يقترب من مفهوم روبرت شولز الذي يرى أن «النص في مقابل العمل شيء مفتوح وغير كامل، وغير مكتف، وليست هذه خاصية لصيغة بأية قطعة كتابية بل مجرد طريقة في التعامل مع هذه القطعة الكتابية أو أية مجموعة أخرى من الإشارات، ويمكن للكلمات نفسها أن تعد نصاً أو عملاً، وكنص ينبغي فهم

وكما أن الموسيقى المعاصرة قد زعزعت اليوم دور العازف الذي يطلب منه أن يكون مشاركاً للمؤلف في مقطوعته التي يعمل على إكمالها أكثر مما يعمل على التعبير عنها، فإن النص يكاد يشبه مقطوعة من هذا النوع، إنه يتطلب من القارىء مساهمة فعالة وهذا تحول كبير.

٧- إن النص مشدود إلى المتعة «اللذة» التي لا تنفصم، وإن لم يكن يحقق شفافية العلاقات الاجتماعية فعلى الأقل يحقق شفافية العلاقات اللغوية، فهو الفضاء الذي لا تتغلب فيه لغة على أخرى وتروج فيه اللغات وتدور».

ومن خلال هذه الأسس التي وضعها بارت لمفهوم النص يتضح لنا أن النص عنده لا يخرج عن الرؤية الفلسفية الوجودية التي ارتضاها لنفسه فنجد أن الأسس السبعة التي وضعها بارت لتوضيح مفهوم النص ومدى مفارقته عن مفهوم العمل لا تخرج عن هذه الرؤية الفلسفية. فالنص عنده يتسم بالآتي:

- الحركية الدائبة التي تجعله يتوافق حيناً مع بعض القواعد الفنية أو التركيبية ويتعارض معها في الحين الآخر، وكأنّ حركية النص تتشكل من خلال المد والجزر بين المعاني ونقيضها أو القواعد التركيبية وضدها. ويتأتى هذا نتيجة تحلل النص إلى جزئيات وهذا التحلل يتوافق والرؤية الفلسفية التي نهجها.

وعلى الرغم من أن هذا التناقض يشكل لبنة أساسية في تشكيل النص عد بارت إلا أن هذا التناقض يبدو أنه انتقل إلى الأسس التي وضعها لنفسه حول النص، فعلى حين أنه يرى أن «النص حقل منهجي» [٦٧]، فيرى في موضع آخر أن المنهج وهم، فيقول كل منهج وهم» [٦٨].

ويبدو أن بارت مثلما يشعر بالمتعة من خلال تناقض النص يشعر بالمتعة أيضاً من خلال تناقض الرؤى النقدية؛ لأنه يحاول أن يحطم كل معايير نقدية كلاسيكية تقوم على أسس منهجية معينة، أي أنه ضد المنهجية التقليدية. غير أننا نرى أن اللامنهجية التي حاول بارت أن يكرسها في مفاهيمه النقدية هي في حد ذاتها منهج. خاصة إذا طبقها الناقد على كل مفاهيمه النقدية، وهذا ما حاول بارت أن يفعله في مفهومه للنقد أو للنص. فالنص عنده يتجاوز التراكيب المألوفة ولا يوجد إلا داخل الخطاب وهو في حركية لا نهائية. وإذا كانت هذه اللامنهجية تنطلق من رؤيته الفلسفية الوجودية فهي منهج.

لا يقف النص عند بارت عند حدود الأدب الجيد الذي يعتمد على الأجناس البسيطة المباشرة ولكنه يتجاوز ذلك إلى مستويات التمرد على الأشكال الكلاسيكية القديمة ويتجاوز المفاهيم السائدة. وهذا ما يجعل النص في حالة من التجدد المستمر، وحينئذ لا تقف علامات النص عند رؤية بعينها بل تتجاوز ذلك إلى رؤى عديدة.

إن هذا المفهوم يقترب من مفهوم روبرت شولز الذي يرى أن «النص في مقابل العمل شيء مفتوح وغير كامل، وغير مكتف، وليست هذه خاصية لصيغة بأية قطعة كتابية بل مجرد طريقة في التعامل مع هذه القطعة الكتابية أو أية مجموعة أخرى من الإشارات، ويمكن للكلمات نفسها أن تعد نصاً أو عملاً، وكنص ينبغي فهم

القطعة الكتابية بوصفها نتاجاً لشخص أو أشخاص عند نقطة معينة من التاريخ الإنساني، وفي صورة معينة من الخطاب تستمد معانيها من الإيماءات التأويلية لأفراد القراء الذين يستعلمون الشفرات النحوية والدلالية والثقافية لهم. النص دائماً يردد صدى نصوص أخرى» (٦٩).

وهكذا نجد أن النص وفق مفهومي بارت وشولز في حالة من التجدد المستمر.

ارتباط النص عند بارت بالدال والمدلول، فالمدلول لا يقف عند معنى بعينه لكنه يمتد إلى ما لا نهاية فيصبح النص متمدداً ومتحللاً إلى جزئيات دقيقة، ويتشكل هذا التمدد اللانهائي- لو جاز استخدام هذا التعبير- من الدال، الذي لا يقف عند المعنى الأول بل يشكل معاني عديدة من خلال المد والجزر وفق الحركة المتداخلة وحالات التغير التي تسيطر على النص عن طريق التداعيات النفسية والشعورية والتداعي الحر للمعاني والتجاوز الدلالي والإحالة الصوتية والتركيبية والسياقية. وهذا بدوره يؤدي إلى تعدد العلامات النصية.

يضاف إلى ذلك أن بارت تأثر بسوسير في ثنائية الدال والمدلول وهما لب القضية في علم السيمياء، ويرى «أن العلامة وحدة ذات وجهين: دال، ومدلول، أو شكل ومادة فالشكل هو ما تحاول اللسانيات وصفه، بينما تعني المادة بالعالم اللالغوي» (٧٠). وحاول في ضوء هذه الثنائية أن يطرح مفهومه للنص معتمداً على فلسفته الوجودية من حيث التحلل والتجزيء اللانهائي للدال والمدلول من ناحية، وعلى تأثره بثنائية سوسير في العلامة من ناحية أخرى.

ولعل تحليله لقصة سارازين Sarrasine لبلزاك Balzac، يوضح إلى أي مدى اعتمد بارت على التجزيء الدقيق لجزئيات النص من خلال تحليله للجمل المتتابعة وربطها بالشفرات النصية التي تمثلت عنده في خمس شفرات هي شفرة الفراسة، والشفرة التأويلية والشفرة الثقافية والشفرة الإيحائية والشفرة الرمزية.

ويبدأ تطبيقه على بداية قصة سارازين التي تبدأ بقول الراوي: «كنت غارقاً في واحد من تلك الأحلام العميقة التي تستولي على الجميع حتى على من يحبون اللهو في أكثر الاحتفالات صخبا وضجيجاً وكانت ساعة الإليزيه بوربون قد أعلنت لتوها عن منتصف الليل» (٧١).

بعدها يبدأ بارت في تحليل فقرات القصة وجملها وتحويلها إلى وحدات قرائية صغرى وفقاً لأنماط الشفرات النصية التي توصل إليها. وهذا التحليل والتجزيء الدقيق لجزئيات النص عنده يتوافق ورؤيته الفلسفية و النقدية للنص الأدبي.

وفي قراءة أصيلة لأقصوصة Sarrasine Balzac يقترح Barthes منهجاً يحتمي بمفهوم «التعدد الدلالي ليخضع النص لنظرات نقدية متعددة» (٧٢).

ويتناسب النص المتعدد- لو جاز لنا استخدام هذا التعبير- مع التحلل والتجزيء الذي نهجه بارت، فالنص عنده لا يقف عند تعدد المعاني المتتابعة في النص، بل يتجاوزها إلى التعدد الناتج عن النص الكلي. أو بمعنى آخر لا يقف التعدد عند جزئيات النص بل يتعداها إلى كليات النص. وهذا يتضح من خلال التفجير الدلالي للنص، لأن هذا التفجير يؤدي إلى تفجير المعنى

القطعة الكتابية بوصفها نتاجاً لشخص أو أشخاص عند نقطة معينة من التاريخ الإنساني، وفي صورة معينة من الخطاب تستمد معانيها من الإيماءات التأويلية لأفراد القراء الذين يستعلمون الشفرات النحوية والدلالية والثقافية لهم. النص دائماً يردد صدى نصوص أخرى» (٦٩).

وهكذا نجد أن النص وفق مفهومي بارت وشولز في حالة من التجدد المستمر.

ارتباط النص عند بارت بالدال والمدلول، فالمدلول لا يقف عند معنى بعينه لكنه يمتد إلى ما لا نهاية فيصبح النص متمدداً ومتحللاً إلى جزئيات دقيقة، ويتشكل هذا التمدد اللانهائي- لو جاز استخدام هذا التعبير- من الدال، الذي لا يقف عند المعنى الأول بل يشكل معاني عديدة من خلال المد والجزر وفق الحركة المتداخلة وحالات التغير التي تسيطر على النص عن طريق التداعيات النفسية والشعورية والتداعي الحر للمعاني والتجاوز الدلالي والإحالة الصوتية والتركيبية والسياقية. وهذا بدوره يؤدي إلى تعدد العلامات النصية.

يضاف إلى ذلك أن بارت تأثر بسوسير في ثنائية الدال والمدلول وهما لب القضية في علم السيمياء، ويرى «أن العلامة وحدة ذات وجهين: دال، ومدلول، أو شكل ومادة فالشكل هو ما تحاول اللسانيات وصفه، بينما تعني المادة بالعالم اللالغوي» (٧٠). وحاول في ضوء هذه الثنائية أن يطرح مفهومه للنص معتمداً على فلسفته الوجودية من حيث التحلل والتجزيء اللانهائي للدال والمدلول من ناحية، وعلى تأثره بثنائية سوسير في العلامة من ناحية أخرى.

ولعل تحليله لقصة سارازين Sarrasine لبلزاك Balzac، يوضح إلى أي مدى اعتمد بارت على التجزيء الدقيق لجزئيات النص من خلال تحليله للجمل المتتابعة وربطها بالشفرات النصية التي تمثلت عنده في خمس شفرات هي شفرة الفراسة، والشفرة التأويلية والشفرة الثقافية والشفرة الإيحائية والشفرة الرمزية.

ويبدأ تطبيقه على بداية قصة سارازين التي تبدأ بقول الراوي: «كنت غارقاً في واحد من تلك الأحلام العميقة التي تستولي على الجميع حتى على من يحبون اللهو في أكثر الاحتفالات صخبا وضجيجاً وكانت ساعة الإليزيه بوربون قد أعلنت لتوها عن منتصف الليل» (٧١).

بعدها يبدأ بارت في تحليل فقرات القصة وجملها وتحويلها إلى وحدات قرائية صغرى وفقاً لأنماط الشفرات النصية التي توصل إليها. وهذا التحليل والتجزيء الدقيق لجزئيات النص عنده يتوافق ورؤيته الفلسفية و النقدية للنص الأدبي.

وفي قراءة أصيلة لأقصوصة Sarrasine Balzac يقترح Barthes منهجاً يحتمي بمفهوم «التعدد الدلالي ليخضع النص لنظرات نقدية متعددة» (٧٢).

ويتناسب النص المتعدد- لو جاز لنا استخدام هذا التعبير- مع التحلل والتجزيء الذي نهجه بارت، فالنص عنده لا يقف عند تعدد المعاني المتتابعة في النص، بل يتجاوزها إلى التعدد الناتج عن النص الكلي. أو بمعنى آخر لا يقف التعدد عند جزئيات النص بل يتعداها إلى كليات النص. وهذا يتضح من خلال التفجير الدلالي للنص، لأن هذا التفجير يؤدي إلى تفجير المعنى

وتناثره ومن ثم إلى تعدده. و حينئذ تتعدد العلامات في النص، وتتناسب هذه التعددية مع دلائل النص ومعانيه؛ ويبدو أن هذه الرؤية التحليلية عند بارت امتدت لتشمل منظوره البلاغي لأسلوب النص فيرى أن «الأسلوبية تعنى بدراسة أنماط التعبير التي لا تبارح مستوى الكلام Parole فيما تعنى البلاغة بدراسة الشفرات التي تعمل على مستوى اللغة Langue» (٧٣) فهذه الرؤية التحليلية والتجزيئية للنص انعكست على مستويات اللسانية والأسلوبية والبلاغية؛ بحيث أصبح نصاً يميل إلى التعدد.

٢-٢-ج- النص وغياب الأبوة :

يعتمد النص على غياب الأبوة خاصة في عملية التناص، حيث يحدث تفاعل بين نصوص عصرية وأخرى تراثية ونتيجة التوحد والاستخراج بينهما يفقد النص التراثي أبوته. وحينئذ تتعدد معاني النص وتتفجر دلالاته نتيجة تحلل النص إلى عناصر تراثية وواقعية ومن هذا التناقض أو التكامل بين الموروثين الماضي والحاضر يحدث التوليد المستمر للمعاني ومن ثم تتعدد العلامات في النص.

على أن غياب الأبوة لا يقف عند التناص فحسب، بل يمتد إلى المؤلف نفسه، وكان بارت يرى أن وجود المؤلف يحد من انطلاق النص وتمدده وتحلله اللانهائي، وحتى يتحقق للنص التعدد الدلالي لا بد أن يتخلص من أبوته الداخلية التناصية وأبوته الخارجية التأليفية». واللسانيات قد مكنت عملية تقويض المؤلف من أداة تحليلية ثمينة، وذلك عندما بينت أن عملية القول وإصدار العبارات عملية فارغة في مجموعها وأنها يمكن أن تؤدي دورها على أكمل وجه، دون أن تكون هناك ضرورة لإسنادها لأشخاص المتحدثين، فمن الناحية اللسانية ليس المؤلف إلا ذلك الذي يكتب، مثلما أن الأنا ليس إلا ذلك الذي يقول أنا؛ إن اللغة تعرف الفاعل، ولا شأن لها بالشخص» (٧٤).

وهكذا نجد أن بارت يستند إلى اللسانيات ليقوض دور المؤلف في النص؛ لأنه يرى أن وجود المؤلف يحول دون تحقيق لا نهائية المعنى ويجعل النص متحجّراً عند أفكار المؤلف وأبعاده الدلالية التي يريد طرحها وهو يريد أن يجعل النص ممتداً ومتعدداً ومتحللاً إلى حد التفجير ولا يقف عند المعنى اللاهوتي للمؤلف لذلك يقول: «نعلم الآن أن النص لا ينشأ عن رصيف كلمات تولد معنى وحيداً، معنى لاهوتياً إذا صح التعبير (هو- رسالة- المؤلف الاله) ؛ وإنما هو فضاء متعدد الأبعاد تتمازج فيه كتابات متعددة وتتعارض، من غير أن يكون فيها ما هو أكثر من غيره أصالة النص نسيج من الاقتباسات تنحدر من منابع ثقافة متعددة. إن الكاتب لا يمكنه إلا أن يقلد فعلاً هو دوماً متقدم عليه دون أن يكون ذلك الفعل أصيلا على الإطلاق» (٧٥).

إن المؤلف عند بارت ما هو إلا ناسخ لأفكار ومفردات وصور وكلمات يحدث بينها تمازجاً ولا يبتكر شيئاً أصيلاً؛ لأنه يستند إلى محاكاة هذه المفردات في الكتابة و نقلها من المعجم اللغوي إلى الكتابة. فالحياة عند بارت «لا تعمل إلا على محاكاة الكتاب، والكتاب ذاته ليس سوى نسيج من العلامات. إنها محاكاة ضائعة لا تنفك ترجع

وتناثره ومن ثم إلى تعدده. و حينئذ تتعدد العلامات في النص، وتتناسب هذه التعددية مع دلائل النص ومعانيه؛ ويبدو أن هذه الرؤية التحليلية عند بارت امتدت لتشمل منظوره البلاغي لأسلوب النص فيرى أن «الأسلوبية تعنى بدراسة أنماط التعبير التي لا تبارح مستوى الكلام Parole فيما تعنى البلاغة بدراسة الشفرات التي تعمل على مستوى اللغة Langue» (٧٣) فهذه الرؤية التحليلية والتجزيئية للنص انعكست على مستويات اللسانية والأسلوبية والبلاغية؛ بحيث أصبح نصاً يميل إلى التعدد.

٢-٢-ج- النص وغياب الأبوة :

يعتمد النص على غياب الأبوة خاصة في عملية التناص، حيث يحدث تفاعل بين نصوص عصرية وأخرى تراثية ونتيجة التوحد والاستخراج بينهما يفقد النص التراثي أبوته. وحينئذ تتعدد معاني النص وتتفجر دلالاته نتيجة تحلل النص إلى عناصر تراثية وواقعية ومن هذا التناقض أو التكامل بين الموروثين الماضي والحاضر يحدث التوليد المستمر للمعاني ومن ثم تتعدد العلامات في النص.

على أن غياب الأبوة لا يقف عند التناص فحسب، بل يمتد إلى المؤلف نفسه، وكان بارت يرى أن وجود المؤلف يحد من انطلاق النص وتمدده وتحلله اللانهائي، وحتى يتحقق للنص التعدد الدلالي لا بد أن يتخلص من أبوته الداخلية التناصية وأبوته الخارجية التأليفية». واللسانيات قد مكنت عملية تقويض المؤلف من أداة تحليلية ثمينة، وذلك عندما بينت أن عملية القول وإصدار العبارات عملية فارغة في مجموعها وأنها يمكن أن تؤدي دورها على أكمل وجه، دون أن تكون هناك ضرورة لإسنادها لأشخاص المتحدثين، فمن الناحية اللسانية ليس المؤلف إلا ذلك الذي يكتب، مثلما أن الأنا ليس إلا ذلك الذي يقول أنا؛ إن اللغة تعرف الفاعل، ولا شأن لها بالشخص» (٧٤).

وهكذا نجد أن بارت يستند إلى اللسانيات ليقوض دور المؤلف في النص؛ لأنه يرى أن وجود المؤلف يحول دون تحقيق لا نهائية المعنى ويجعل النص متحجّراً عند أفكار المؤلف وأبعاده الدلالية التي يريد طرحها وهو يريد أن يجعل النص ممتداً ومتعدداً ومتحللاً إلى حد التفجير ولا يقف عند المعنى اللاهوتي للمؤلف لذلك يقول: «نعلم الآن أن النص لا ينشأ عن رصيف كلمات تولد معنى وحيداً، معنى لاهوتياً إذا صح التعبير (هو- رسالة- المؤلف الاله)؛ وإنما هو فضاء متعدد الأبعاد تتمازج فيه كتابات متعددة وتتعارض، من غير أن يكون فيها ما هو أكثر من غيره أصالة النص نسيج من الاقتباسات تنحدر من منابع ثقافة متعددة. إن الكاتب لا يمكنه إلا أن يقلد فعلاً هو دوماً متقدم عليه دون أن يكون ذلك الفعل أصيلا على الإطلاق» (٧٥).

إن المؤلف عند بارت ما هو إلا ناسخ لأفكار ومفردات وصور وكلمات يحدث بينها تمازجاً ولا يبتكر شيئاً أصيلاً؛ لأنه يستند إلى محاكاة هذه المفردات في الكتابة و نقلها من المعجم اللغوي إلى الكتابة. فالحياة عند بارت «لا تعمل إلا على محاكاة الكتاب، والكتاب ذاته ليس سوى نسيج من العلامات. إنها محاكاة ضائعة لا تنفك ترجع

القهقرى وعندما يبتعد المؤلف ويحتجب فإن الزعم بالتنقيب عن أسرار النص يغدو أمراً غير ذي جدوى، وذلك أن نسبة النص إلى مؤلف، معناها إيقاف النص وحصره وإعطاؤه مدلولاً نهائياً، إنها إغلاق الكتابة» (٧٦).

وهنا يتضح لنا أن سبب تقويض دور المؤلف أو حجب أبوة النص عند بارت يرجع إلى عدة أمور منها: المعنى حول السر الدفين الذي يقصده المؤلف ومن ثم يتم إيقاف المعنى عند بعد أحادي معين.

غير أن الدافع لذلك يرجع إلى مقت بارت للمركزية النصية- لو جاز لنا استخدام هذا التعبير- لأن هذه المركزية تذكره بالأحادية الحتمية التي لا فكاك منها وهو يريد أن يحرر النص من ربقة المؤلف، حتى يصبح النص حراً طليقاً. خاصة أنه ربط بين مركزية المؤلف في النص ومركزية الإله وحتميته، فكلاهما عند بارت يؤدي إلى حتمية المعنى الأحادي، فالمعنى في النص يدور حول المؤلف ويقف عند مراده ويكون قريباً من أحادية المعنى اللاهوتي، وهو بدوره يرفض هذه الأحادية الحتمية وعندما يرفض بارت المؤلف يصبح أمامه متسع من التأويل والتحليل والتحلل النصي أي يتخلص من القيود التي تحاصره في النص حتى لو كانت قيود المؤلف ذاته.

يضاف إلى ذلك أن سيطرة المؤلف على النص تتوافق وسيطرة الناقد التقليدي الذي يحاول من خلال تحليل النص أن يجد ضالته الضائعة في النص، ومجرد حصوله على هذه الضالة يشعر بأنه وجد كلمة السر. وبذلك يتوقف معنى النص عند هذا السر المكتشف من قبل الناقد. وكأن النص حصر في معنى أحادي. ومثل هذه الأحادية يرفضها بارت؛ لأنه يريد للنص الانطلاق والتحرر و الخروج على قيود المؤلف والناقد وحتمية تفسيرهما يقول: «إن النقد يأخذ على عاتقه الكشف عن المؤلف (أو حوامله من مجتمع وتاريخ ونفس وحرية) من وراء العمل الأدبي. بالعثور على المؤلف يكون النص قد وجد تفسيره والناقد ضالته، فلا غرابة إذن أن تكون سيادة المؤلف من الناحية التاريخية هي سيادة الناقد، كما لا غرابة أن يصبح النقد اليوم موضع خلخلة مثل المؤلف، ذلك أن الكتابة المتعددة ليس فيها تنقيب عن الأسرار» (٧٧).

وهكذا نجد أن بارت يحاول التخلص من المؤلف بغية فض مغاليق النص وتعدد أبعاده وعدم الارتكاز على معنى أحادي، بل إنه يريد أن يكون النص حراً طليقاً لا تحده قيود المؤلف أو مقتضيات النقد المعياري، إنه لا يريد أي سلطة تستحوذ على النص سواء سلطة اللغة أو سلطة المؤلف أو سلطة الناقد، وهو بذلك خرج من سلطة اللغة ليقع في سلطة النص، ظناً منه أن النص المخادع والمموه والعجيب والمراوغ يتيح له حرية التخلص من السلطة المركزية الحتمية للنص. ومن ثم أخذ يجرد النص من كل معوقاته حتى تتكشف له لذة النص ومتعته. وكلما تعددت رؤى النص وأبعاده تعددت تبعاً لذلك علاماته. وعلى الرغم من دعوة بارت لموت المؤلف. إلا أن ذلك لم يتحقق حتى في كتابات بارت نفسه، لأن بارت المؤلف لم يستطع أن يخفي فلسفته الوجودية في معظم نصوصه النقدية التي

القهقرى وعندما يبتعد المؤلف ويحتجب فإن الزعم بالتنقيب عن أسرار النص يغدو أمراً غير ذي جدوى، وذلك أن نسبة النص إلى مؤلف، معناها إيقاف النص وحصره وإعطاؤه مدلولاً نهائياً، إنها إغلاق الكتابة» (٧٦).

وهنا يتضح لنا أن سبب تقويض دور المؤلف أو حجب أبوة النص عند بارت يرجع إلى عدة أمور منها: المعنى حول السر الدفين الذي يقصده المؤلف ومن ثم يتم إيقاف المعنى عند بعد أحادي معين.

غير أن الدافع لذلك يرجع إلى مقت بارت للمركزية النصية- لو جاز لنا استخدام هذا التعبير- لأن هذه المركزية تذكره بالأحادية الحتمية التي لا فكاك منها وهو يريد أن يحرر النص من ربقة المؤلف، حتى يصبح النص حراً طليقاً. خاصة أنه ربط بين مركزية المؤلف في النص ومركزية الإله وحتميته، فكلاهما عند بارت يؤدي إلى حتمية المعنى الأحادي، فالمعنى في النص يدور حول المؤلف ويقف عند مراده ويكون قريباً من أحادية المعنى اللاهوتي، وهو بدوره يرفض هذه الأحادية الحتمية وعندما يرفض بارت المؤلف يصبح أمامه متسع من التأويل والتحليل والتحلل النصي أي يتخلص من القيود التي تحاصره في النص حتى لو كانت قيود المؤلف ذاته.

يضاف إلى ذلك أن سيطرة المؤلف على النص تتوافق وسيطرة الناقد التقليدي الذي يحاول من خلال تحليل النص أن يجد ضالته الضائعة في النص، ومجرد حصوله على هذه الضالة يشعر بأنه وجد كلمة السر. وبذلك يتوقف معنى النص عند هذا السر المكتشف من قبل الناقد. وكأن النص حصر في معنى أحادي. ومثل هذه الأحادية يرفضها بارت؛ لأنه يريد للنص الانطلاق والتحرر و الخروج على قيود المؤلف والناقد وحتمية تفسيرهما يقول: «إن النقد يأخذ على عاتقه الكشف عن المؤلف (أو حوامله من مجتمع وتاريخ ونفس وحرية) من وراء العمل الأدبي. بالعثور على المؤلف يكون النص قد وجد تفسيره والناقد ضالته، فلا غرابة إذن أن تكون سيادة المؤلف من الناحية التاريخية هي سيادة الناقد، كما لا غرابة أن يصبح النقد اليوم موضع خلخلة مثل المؤلف، ذلك أن الكتابة المتعددة ليس فيها تنقيب عن الأسرار» (٧٧).

وهكذا نجد أن بارت يحاول التخلص من المؤلف بغية فض مغاليق النص وتعدد أبعاده وعدم الارتكاز على معنى أحادي، بل إنه يريد أن يكون النص حراً طليقاً لا تحده قيود المؤلف أو مقتضيات النقد المعياري، إنه لا يريد أي سلطة تستحوذ على النص سواء سلطة اللغة أو سلطة المؤلف أو سلطة الناقد، وهو بذلك خرج من سلطة اللغة ليقع في سلطة النص، ظناً منه أن النص المخادع والمموه والعجيب والمراوغ يتيح له حرية التخلص من السلطة المركزية الحتمية للنص. ومن ثم أخذ يجرد النص من كل معوقاته حتى تتكشف له لذة النص ومتعته. وكلما تعددت رؤى النص وأبعاده تعددت تبعاً لذلك علاماته. وعلى الرغم من دعوة بارت لموت المؤلف. إلا أن ذلك لم يتحقق حتى في كتابات بارت نفسه، لأن بارت المؤلف لم يستطع أن يخفي فلسفته الوجودية في معظم نصوصه النقدية التي

طرحها. وبدت هذه الرؤية الفلسفية ظاهرة للعيان في معظم معاييره النقدية، ومنها مفهومه للنقد واللغة والنص والمؤلف واللذة والمتعة والتلقي والكتابة وغيرها.■

هوامش

١- للمزيد حول التطور السيميائي في الآداب القديمة انظر: د. فريال جبوري غزول، بحث «علم العلامات مدخل استهلالي» ضمن كتاب «أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة مدخل إلى السيميوطيقا» ص ١٤-٣٦.

٢- انظر: د. محمد عناني؛ المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة ١٩٩٦م، ص ١٥٣-١٥٤.

٣- محمد عزام، النقد والدلالة، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق ١٩٩٦، ص ٩.

٤- انظر: د. جابر عصفور في ترجمته لكتاب «النظرية الأدبية المعاصرة» لرامان سلدن، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة ١٩٩٠.

٥- للمزيد انظر:

- د. محمد مفتاح؛ في سيمياء الشعر القديم، دراسة نظرية وتطبيقية، دار الثقافة- الدار البيضاء ١٩٨٢.

- سامي سويدان؛ مقاربة سيميائية قصصية، اللص والكلاب لنجيب محفوظ، الفكر العربي المعاصر، بيروت، ع١٨- ١٩، مارس ١٩٨٢، ص ٢١٦-٢٢٦.

- د. عبدالله مرتاض؛ التحليل السيميائي للخطاب الشعري، علامات، النادي الأدبي الثقافي بجدة، جزء (٥) مج (٢)، سبتمبر ١٩٩٢، ص ١٤٣.

- عبدالعالي بوطيب؛ جريماس والسيميائيات السردية، علامات، جزء (٢٢)، مجلد (٦)، ديسمبر ١٩٩٦، ص ٩١.

- د. رضوان ظاظا؛ في ترجمته لكتاب «مدخل إلى مناهج النقد الأدبي» لمجموعة من المؤلفين، عالم المعرفة، ع (٢٢١)، مايو ١٩٩٧، ص ٢١٩.

- د. جوزيف شريم؛ دليل الدراسات الأسلوبية، الموسسة الجامعية للنشر، ط (٢)، بيروت ١٩٨٧، ص ١٦١.

- حسن بحراوي بنية الشكل الروائي، الفضاء، الزمن، الشخصية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٠، ص ٢٥.

- جمال شحيد؛ الأدب العربي والسيميائية، المعرفة، ع (١٧٧)، دمشق ١٩٧٦، ص ٣٨-٤٤.

- محمد حمود؛ في ترجمته لبحث «السيميائية والتمدين لألان روب جرييه»، الفكر العربي، ع (٢٩) س (٤)، بيروت، نوفمبر ١٩٨٢.

- عبدالنبي اصطيف؛ لهجات جديدة البنيوية والسيميائيات، الموقف الأدبي، دمشق، ع(١٠٠)، أغسطس ١٩٧٩، ص ١٣٩.

- محمد عزام؛ النقد والدلالة، نحو تحليل سيميائي للأدب، وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٩٦.

- عادل فاخوري؛ حول إشكالية السيميولوجيا (السيمياء) عالم الفكر، الكويت، مج ٢٤ ع٣، مارس ١٩٩٦، ص ١٧٩.

- حنون مبارك، درس في السيميائيات، دار توبقال، ط (١)، الدار البيضاء ١٩٨٧.

- د. رئيف كرم؛ السيمياء والتجريب المسرحي، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، مج ٢٤ ع ٣، مارس ١٩٩٦، ص ٢٣٥.

- أنطوان أبوزيد؛ في ترجمته لكتاب «بيير جيرو عن السيمياء»، بيروت، عويدات، ١٩٨٤.

٦- للمزيد انظر:

- مجدي وهبة، كامل المهندس؛ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٤، ص ٤٢، ص ٢٥٧.

- د. زكريا إبراهيم؛ مشكلة البنية، مكتبة مصر، د. ت، ص ٤٩.

- د. عزالدين إسماعيل؛ في ترجمته لكتاب «نظرية التلقي» لربرت هولب، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ط (١)، ١٩٩٤، ص ٣٧٢.

- د. عبدالسلام المسدي؛ الأسلوبية والأسلوب، نحو بديل ألسني في نقد الأدب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٧٧.

- د. عبدالكريم حسن؛ عبدالقادر ربيعة والتشويه من الداخل في ضوء العلاماتية البنيوية، عالم الفكر، الكويت، مج ٢١، ع ٣، مارس ١٩٩٣، ص ٧٧.

- شكرى المبخوت، ورجاء سلامة؛ ترجمة الشعرية لتزفيطان طودوروف، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط (٢)، ١٩٩٠، ص ٩١.

- سمير المرزوقي، جميل شاكر؛ مدخل لنظرية القصة، الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦، ص ١٠٧-٢٣١.

٧- للمزيد انظر :

- د. صلاح فضل؛ نظرية البنائية في النقد الأدبي، مؤسسة مختار للنشر، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٤١٣، ٤٤٥.

- د. سعيد حسن بحيري؛ علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٦.

- حياة جاسم محمد؛ في ترجمتها لكتاب نظريات السرد الحديثة لوالاس مارتن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٦٠.

- د. حميد لحمداني؛ في ترجمته لكتاب مارسيلود اسكال «الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة»، دار أفريقيا الشرق، ١٩٨٩.

- د. أنطون طعمة؛ السيميولوجية والأدب، مقاربة سيميولوجية تطبيقية للقصة الحديثة المعاصرة، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، مج ٢٤، ع ٣، مارس ١٩٩٦، ص ٢٠٧.

طرحها. وبدت هذه الرؤية الفلسفية ظاهرة للعيان في معظم معاييره النقدية، ومنها مفهومه للنقد واللغة والنص والمؤلف واللذة والمتعة والتلقي والكتابة وغيرها.■

هوامش

١- للمزيد حول التطور السيميائي في الآداب القديمة انظر: د. فريال جبوري غزول، بحث «علم العلامات مدخل استهلالي» ضمن كتاب «أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة مدخل إلى السيميوطيقا»، ص ١٤-٣٦.

٢- انظر: د. محمد عناني؛ المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة ١٩٩٦م، ص ١٥٣-١٥٤.

٣- محمد عزام، النقد والدلالة، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق ١٩٩٦، ص ٩.

٤- انظر: د. جابر عصفور في ترجمته لكتاب «النظرية الأدبية المعاصرة» لرامان سلدن، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة ١٩٩٠.

٥- للمزيد انظر:

- د. محمد مفتاح؛ في سيمياء الشعر القديم، دراسة نظرية وتطبيقية، دار الثقافة- الدار البيضاء ١٩٨٢.
- سامى سويدان؛ مقاربة سيميائية قصصية، اللص والكلاب لنجيب محفوظ، الفكر العربي المعاصر، بيروت، ع١٨- ١٩، مارس ١٩٨٢، ص ٢١٦-٢٢٦.
- د. عبدالله مرتاض؛ التحليل السيميائي للخطاب الشعري، علامات، النادي الأدبي الثقافي بجدة، جزء (٥) مج (٢)، سبتمبر ١٩٩٢، ص ١٤٣.
- عبدالعالي بوطيب؛ جريماس والسيميائيات السردية، علامات، جزء (٢٢)، مجلد (٦)، ديسمبر ١٩٩٦، ص ٩١.
- د. رضوان ظاظا؛ في ترجمته لكتاب «مدخل إلى مناهج النقد الأدبي» لمجموعة من المؤلفين، عالم المعرفة، ع (٢٢١)، مايو ١٩٩٧، ص ٢١٩.
- د. جوزيف شريم؛ دليل الدراسات الأسلوبية، الموسسة الجامعية للنشر، ط (٢)، بيروت ١٩٨٧، ص ١٦١.
- حسن بحراوي بنية الشكل الروائي، الفضاء، الزمن، الشخصية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٠، ص ٢٥.
- جمال شحيد؛ الأدب العربي والسيميائية، المعرفة، ع (١٧٧)، دمشق ١٩٧٦، ص ٣٨-٤٤.
- محمد حمود؛ في ترجمته لبحث «السيميائية والتمدين لألان روب جرييه»، الفكر العربي، ع (٢٩) س (٤)، بيروت، نوفمبر ١٩٨٢.
- عبدالنبي اصطيف؛ لهجات جديدة البنيوية والسيميائيات، الموقف الأدبي، دمشق، ع(١٠٠)، أغسطس ١٩٧٩، ص ١٣٩.
- محمد عزام؛ النقد والدلالة، نحو تحليل سيميائي للأدب، وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٩٦.
- عادل فاخوري؛ حول إشكالية السيميولوجيا (السيمياء) عالم الفكر، الكويت، مج ٢٤ ع٣، مارس ١٩٩٦، ص ١٧٩.
- حنون مبارك، درس في السيميائيات، دار توبقال، ط (١)، الدار البيضاء ١٩٨٧.
- د. رئيف كرم؛ السيمياء والتجريب المسرحي، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، مج ٢٤ ع ٣، مارس ١٩٩٦، ص ٢٣٥.
- أنطوان أبوزيد؛ في ترجمته لكتاب «بيير جيرو عن السيمياء»، بيروت، عويدات، ١٩٨٤.

٦- للمزيد انظر:

- مجدي وهبة، كامل المهندس؛ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٤، ص ٤٢، ص ٢٥٧.
- د. زكريا إبراهيم؛ مشكلة البنية، مكتبة مصر، د. ت، ص ٤٩.
- د. عزالدين إسماعيل؛ في ترجمته لكتاب «نظرية التلقي» لربرت هولب، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ط (١)، ١٩٩٤، ص ٣٧٢.
- د. عبدالسلام المسدي؛ الأسلوبية والأسلوب، نحو بديل ألسني في نقد الأدب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٧٧.
- د. عبدالكريم حسن؛ عبدالقادر ربيعة والتشويه من الداخل في ضوء العلاماتية البنيوية، عالم الفكر، الكويت، مج ٢١، ع ٣، مارس ١٩٩٣، ص ٧٧.
- شكرى المبخوت، ورجاء سلامة؛ ترجمة الشعرية لتزفيطان طودوروف، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط (٢)، ١٩٩٠، ص ٩١.
- سمير المرزوقي، جميل شاكر؛ مدخل لنظرية القصة، الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦، ص ١٠٧-٢٣١.

٧- للمزيد انظر :

- د. صلاح فضل؛ نظرية البنائية في النقد الأدبي، مؤسسة مختار للنشر، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٤١٣، ٤٤٥.
- د. سعيد حسن بحيري؛ علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٦.
- حياة جاسم محمد؛ في ترجمتها لكتاب نظريات السرد الحديثة لوالاس مارتن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٦٠.
- د. حميد لحمداني؛ في ترجمته لكتاب مارسيلود اسكال «الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة»، دار أفريقيا الشرق، ١٩٨٩.
- د. أنطون طعمة؛ السيميولوجية والأدب، مقاربة سيميولوجية تطبيقية للقصة الحديثة المعاصرة، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، مج ٢٤، ع ٣، مارس ١٩٩٦، ص ٢٠٧.

- د. لطيف زيتوني؛ السيميولوجيا وأدب الرحلات، عالم الفكر، الكويت، مج ٢٤، ع ٣، مارس ١٩٩٦، ص ٢٥١.
٨- للمزيد انظر :
- د. محمد عناني؛ المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، القاهرة ١٩٩٦، ص ١٥٣.
- د عبدالمنعم تليمة؛ في ترجمته دراسة «حول الآلية السيميوطيقية للثقافة» ليوري لوتمان وبريس أوسبنسكي ضمن كتاب أنظمة العلامات، دار الياس العصرية، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٢٩٥.
- د. أمينة رشيد؛ السيميوطيقا في الوعي المعرفي المعاصر ضمن كتاب أنظمة العلامات، مرجع سابق، ص ٤٧.
- كاطع الحلفي؛ في ترجمته لدراسة «اللغة البشرية وأنظمة سيميوطيقية أخرى» لنعوم تشومسكي ضمن المرجع السابق، ص ١٩٥.
- د. عبدالحميد إبراهيم شيحة؛ الاتجاه السيميوطيقي في قراءة النص المسرحي، علامات، جزء ٣٤.
- محمد الماكري؛ الشكل والخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩١، ص ٥٣.
٩- للمزيد انظر :
- د. سيزا قاسم؛ السيميوطيقا حول بعض المفاهيم والأبعاد ضمن المرجع السابق، ص ١٧، وبحث القارىء والنص من السيميوطيقا إلي الهيرمينوطيقا، عالم الفكر، مج ٢٣، ع ٤-٤، يونيو ١٩٩٥، ص ٢٥١.
- د. سامي حنا، وكريم حسام الدين، د. نجيب جريس؛ معجم اللسانيات الحديثة، مكتبة لبنان، ١٩٩٧، ص ١٢٨.
- د. فريال غزول؛ علم العلامات «السيميوطيقا» مدخل استهلالي ضمن كتاب «أنظمة العلامات»، مرجع سابق، ص ٩، ترجمة بحث «سيميوطيقا الشعر، دلالة القصيدة لمايكل رفاتير»، نفسه، ص ٢١٣.
- د. نصر أبوزيد؛ العلامات في التراث، دراسة استكشافية، نفسه ص ٧٣، وترجمته لبحث «سيميوطيقا السينما ليوري لوتمان»، نفسه ص ٢٦٥.
١٠- أنظر: W.Terrence Gordon, Semantics, Ab-ibliograbhy (1965-1978) The3 Scarecrow Press, Inc. Metuchen, N.J., & London, 1980.
١١- د. محمد عناني؛ مصدر سابق، ص ١٥٥.
١٢- انظر: د. سيزا قاسم بحث السيميوطيقا: حول بعض المفاهيم والأبعاد ضمن كتاب مدخل إلى السيميوطيقا، دار ا لياس سنة ١٩٨٦، ص ٣١.
١٣- انظر: أمبرتو إيكو: القارىء في الحكاية؛ التعاضد التأويلي في ا لنصوص الحكائية. ترجمة أنطوان أبوزيد، المركز الثقافي، بيروت ١٩٩٦، ص ٣٢.
١٤- أنظر: نفسه، ص ٣٢-٣٣.
١٥- د. سيزا قاسم، بحث سابق، ص ٣٢.
١٦- يوري لوتمان، بحث «سيميوطيقا السينما، ترجمة د. نصر أبوزيد ضمن كتاب مدخل إلى السيميوطيقا، سابق، ص ٢٦٩.
١٧- أنظر: سيزا قاسم، بحث سابق، ص ٣٣.
١٨- أنظر: نفسه، ص ٣٣.
١٩- د. سيزا قاسم، نفسه، ص ٣٣.
٢٠- أنظر المرجع السابق، ص ٣٤.
٢١- د. سيزا قاسم، سابق، ص ٣٤.
٢٢- انظر: سيزا قاسم، بحث سابق، ص ٣٤.
٢٣- ف. دي. سوسير؛ فصول في علم اللغة العام. ترجمة د. أحمد نعيم الكراعين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥، ص ٤٠. وللمزيد حول علم العلامات عند دي سوسير؛ انظر: رامان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة د. جابر عصفور، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٩٢-٩٥.
٢٤- ف. دي. سوسير، نفسه، ص ٤٢.
٢٥- ديفيد بشبندر، نظرية الأدب المعاصر، ترجمة عبدالمقصود عبدالكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦، ص ٥٣.
٢٦-سوسير، مرجع سابق، ص ١٢٩.
٢٧- سوسير: فصول من دروس في علم اللغة العام، ترجمة د. عبدالرحمن أيوب، بحث ضم كتاب «مدخل إلى السيميوطيقا»، مرجع سابق، ص ١٥٦.
٢٨- سوسير، بحث سابق، ص ١٥٧.
٢٩- رولان بارت: درس السيميولوجيا، ترجمة عبدالسلام بن عبدالعالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط (٢)، ١٩٨٦، ص ٢٠-٢١.
٣١- نفسه، ص ٢٢.
٣٢- نفسه، ص ٢٣.
٣٣- انظر: جون ستروك؛ بحث «رولان بارت» ضمن كتاب البنيوية وما بعدها من ليفي شتروس إلى دريدا، المجلس الوطني للثقافة، الكويت فبراير، ١٩٩٦، ص ٧٦.
٣٤- جاك شورون؛ الموت في الفكر الغربي؛ ترجمة كامل يوسف حسين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، أبريل ١٩٨٤، ص ٢٦٣-٢٦٤.
٣٥- نفسه، ص ٢٥٦.
٣٦- نفسه، ص ٢٥٦.
٣٧- انظر؛ أمير اسكندر، بحث؛ النقد ونظرية الأدب السارترية ضمن كتاب سارتر مفكراً وإنساناً. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت، ص ٢٢١.
٣٨- أنظر: أمير اسكندر، بحث سابق، ص ٢٢٦.
٣٩- انظر، د. مراد وهبة، بحث «سارتر بين الوجوديين، ضمن كتاب سارتر مفكراً وإنساناً، مرجع سابق، ص ٤٩، ٥٠.

- د. لطيف زيتوني؛ السيميولوجيا وأدب الرحلات، عالم الفكر، الكويت، مج ٢٤، ع ٣، مارس ١٩٩٦، ص ٢٥١.
٨- للمزيد انظر :
- د. محمد عناني؛ المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، القاهرة ١٩٩٦، ص ١٥٣.
- د عبدالمنعم تليمة؛ في ترجمته دراسة «حول الآلية السيميوطيقية للثقافة» ليوري لوتمان وبريس أوسبنسكي ضمن كتاب أنظمة العلامات، دار الياس العصرية، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٢٩٥.
- د. أمينة رشيد؛ السيميوطيقا في الوعي المعرفي المعاصر ضمن كتاب أنظمة العلامات، مرجع سابق، ص ٤٧.
- كاطع الحلفي؛ في ترجمته لدراسة «اللغة البشرية وأنظمة سيميوطيقية أخرى» لنعوم تشومسكي ضمن المرجع السابق، ص ١٩٥.
- د. عبدالحميد إبراهيم شيحة؛ الاتجاه السيميوطيقي في قراءة النص المسرحي، علامات، جزء ٣٤.
- محمد الماكري؛ الشكل والخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩١، ص ٥٣.
٩- للمزيد انظر :
- د. سيزا قاسم؛ السيميوطيقا حول بعض المفاهيم والأبعاد ضمن المرجع السابق، ص ١٧، وبحث القارىء والنص من السيميوطيقا إلي الهيرمينوطيقا، عالم الفكر، مج ٢٣، ع ٤-٤، يونيو ١٩٩٥، ص ٢٥١.
- د. سامي حنا، وكريم حسام الدين، د. نجيب جريس؛ معجم اللسانيات الحديثة، مكتبة لبنان، ١٩٩٧، ص ١٢٨.
- د. فريال غزول؛ علم العلامات «السيميوطيقا» مدخل استهلالي ضمن كتاب «أنظمة العلامات»، مرجع سابق، ص ٩، ترجمة بحث «سيميوطيقا الشعر، دلالة القصيدة لمايكل رفاتير»، نفسه، ص ٢١٣.
- د. نصر أبوزيد؛ العلامات في التراث، دراسة استكشافية، نفسه ص ٧٣، وترجمته لبحث «سيميوطيقا السينما ليوري لوتمان»، نفسه ص ٢٦٥.
١٠- أنظر: W.Terrence Gordon, Semantics, A bibliograbhy (1965-1978) The3 Scarecrow Press, Inc. Metuchen, N.J., & London, 1980.
١١- د. محمد عناني؛ مصدر سابق، ص ١٥٥.
١٢- انظر: د. سيزا قاسم بحث السيميوطيقا: حول بعض المفاهيم والأبعاد ضمن كتاب مدخل إلى السيميوطيقا، دار ا لياس سنة ١٩٨٦، ص ٣١.
١٣- انظر: أمبرتو إيكو: القارىء في الحكاية؛ التعاضد التأويلي في ا لنصوص الحكائية. ترجمة أنطوان أبوزيد، المركز الثقافي، بيروت ١٩٩٦، ص ٣٢.
١٤- أنظر: نفسه، ص ٣٢-٣٣.
١٥- د. سيزا قاسم، بحث سابق، ص ٣٢.
١٦- يوري لوتمان، بحث «سيميوطيقا السينما»، ترجمة د. نصر أبوزيد ضمن كتاب مدخل إلى السيميوطيقا، سابق، ص ٢٦٩.
١٧- أنظر: سيزا قاسم، بحث سابق، ص ٣٣.
١٨- أنظر: نفسه، ص ٣٣.
١٩- د. سيزا قاسم، نفسه، ص ٣٣.
٢٠- أنظر المرجع السابق، ص ٣٤.
٢١- د. سيزا قاسم، سابق، ص ٣٤.
٢٢- انظر: سيزا قاسم، بحث سابق، ص ٣٤.
٢٣- ف. دي. سوسير؛ فصول في علم اللغة العام. ترجمة د. أحمد نعيم الكراعين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥، ص ٤٠. وللمزيد حول علم العلامات عند دي سوسير؛ انظر: رامان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة د. جابر عصفور، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٩٢-٩٥.
٢٤- ف. دي. سوسير، نفسه، ص ٤٢.
٢٥- ديفيد بشبندر، نظرية الأدب المعاصر، ترجمة عبدالمقصود عبدالكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦، ص ٥٣.
٢٦-سوسير، مرجع سابق، ص ١٢٩.
٢٧- سوسير: فصول من دروس في علم اللغة العام، ترجمة د. عبدالرحمن أيوب، بحث ضم كتاب «مدخل إلى السيميوطيقا»، مرجع سابق، ص ١٥٦.
٢٨- سوسير، بحث سابق، ص ١٥٧.
٢٩- رولان بارت: درس السيميولوجيا، ترجمة عبدالسلام بن عبدالعالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط (٢)، ١٩٨٦، ص ٢٠-٢١.
٣١- نفسه، ص ٢٢.
٣٢- نفسه، ص ٢٣.
٣٣- انظر: جون ستروك؛ بحث «رولان بارت» ضمن كتاب البنيوية وما بعدها من ليفي شتروس إلى دريدا، المجلس الوطني للثقافة، الكويت فبراير، ١٩٩٦، ص ٧٦.
٣٤- جاك شورون؛ الموت في الفكر الغربي؛ ترجمة كامل يوسف حسين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، أبريل ١٩٨٤، ص ٢٦٣-٢٦٤.
٣٥- نفسه، ص ٢٥٦.
٣٦- نفسه، ص ٢٥٦.
٣٧- انظر؛ أمير اسكندر، بحث؛ النقد ونظرية الأدب السارترية ضمن كتاب سارتر مفكراً وإنساناً. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت، ص ٢٢١.
٣٨- أنظر: أمير اسكندر، بحث سابق، ص ٢٢٦.
٣٩- انظر، د. مراد وهبة، بحث «سارتر بين الوجوديين، ضمن كتاب سارتر مفكراً وإنساناً»، مرجع سابق، ص ٤٩، ٥٠.

وانظر.
٤٠- نفسه، ص ٥١ .
٤١- جون ستروك؛ بحث سابق، ص ٧٧.
٤٢- رولان بارت: درس السيميولوجيا، مرجع سابق، ص ٢٨-٢٩.
٤٣- رولان بارت: النقد البنيوي للحكاية ترجمة أنطوان أبوزيد، منشورات عويدات، بيروت، ط (١)، ١٩٨٨، ص ٢٨.
٤٤- جون ستروك؛ بحث سابق، ص ٧٨.
٤٥- رولان بارت: النقد البنيوي للحكاية، ص ٧٤.
٤٦- نفسه، ص ٨٠.
٤٧- نفسه، ص ٧٩ .
٤٨- نفسه، ص ٨١.
٤٩- نفسه، ص ٨١.
٥٠- Roland Barthes, Sur Racine, Editions du Seuil, 1963, P. 57.
٥١- جون ستروك: بحث سابق، ص ٨٠.
٥٢- نفسه، ص ٨٢.
٥٣- انظر: ترجمة د. محمد عصفور لدراسة «النقد والحقيقة» Critique et Verite لبارت ضمن بحث جون ستروك عن رولان بارت في كتاب «البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا»، ص ٨٢.
٥٤- انظر: جون ستروك؛ بحث سابق، ص ٨٣.
٥٥- نفسه، ص ٨٣-٨٤.
٥٦- نفسه، ص ٨٥.
٥٧- رولان بارت: النقدالبنيوي للحكاية، ص ٤١ .
٥٨- جون ستروك، بحث سابق، ص ٨٧.
٥٩- رولان بارت: درس السسيميولوجيا، مرجع سابق، ص ١٢ .
٦٠- نفسه، ص ١٢ .
٦١- نفسه، ص ١٣ .
٦٢- نفسه، ص ١٤ .
٦٣- انظر: نفسه، ص ١٣، ١٤ .
٦٤- انظر على سبيل المثال وليس الحصر دراسات:
- دكتور صلاح فضل في «بلاغة الخطاب وعلم النص»، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، ١٩٩٢ .
- د. سعد مصلوح؛ في النص الأدبي، دراسة أسلوبية إحصائية، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ١٩٩١ .
- جيرار جينيت؛ مدخل إلى النص الجامع، ترجمة عبدالعزيز شبيل، المشروع القومي الترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٩م.
- دكتور محمد مفتاح؛ دينامية النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٧ .
- عبدالفتاح كليطو؛ تعريف النص الأدبي، مجلة كلية الآداب، الرباط ع٥-٦، ١٩٩ ص ١١٧-١٢٤ .
- د. عبدالملك مرتاض؛ حول دراسة النص الأدبي الأقلام، بغداد س ١٧ ع ٧-٨ يوليو ١٩٨٢، «في نظرية النص الأدبي»، الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق س ١٧، ع ٢٠١، كانون الثاني، ١٩٨٨، ص ٤٧، وغيرهم.
٦٥- رولان بارت: درس السيميولوجيا، مرجع سابق، ص ٢٣ .
٦٦- للمزيد حول معرفة «مقاربات العمل والنص»، انظر؛ رولان بارت، درس السيميولوجيا، مرجع سابق، ص ٦٠-٦٧، انظر؛ رولان بارت، مقال من «العمل إلى النص»، ضمن الأعمال الكاملة لبارت، ج (٥)، ترجمة د. منذر عياشي، ص ٨٧-٩٥، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ١٩٩٩م.
٦٧- رولان بارت: درس السيميولوجيا، مرجع سابق، ص ٦٠.
٦٨- نفسه، ص ٢٧ .
٦٩- روبرت شولز؛ السيمياء والتأويل: ترجمة سعيد الغانمي، المؤسسةالعربية للدراسات والنشر، بيروت، ط (١)، ١٩٩٤م، ص ٤٠-٤١.
٧٠- محمد عزام؛ مرجع سابق، ص ٤٧.
٧١- R. Barthes, S.z, Blackwell, Oxford UK & Combidge USA, 1974, P. 221.
٧٢- برنار فاليط: النص الروائي تقنيات ومناهج، ترجمة رشيد بنحرو، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٥٢ .
٧٣- رولان بارت: «بحث الأدب بلاغة»، ضمن كتاب اللغة والخطاب الأدبي لمجموعة من المؤلفين، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدارالبيضاء، ١٩٩٣م، ص ٥٦.
٧٤- رولان بارت: درس السيميولوجيا؛ مرجع سابق، ص ٨٤.
٧٥- نفسه، ص ٨٥.
٧٦- نفسه، ص ٨٦.
٧٧- نفسه، ص ٨٦

وانظر.
٤٠- نفسه، ص ٥١.
٤١- جون ستروك؛ بحث سابق، ص ٧٧.
٤٢- رولان بارت: درس السيميولوجيا، مرجع سابق، ص ٢٨-٢٩.
٤٣- رولان بارت: النقد البنيوي للحكاية ترجمة أنطوان أبوزيد، منشورات عويدات، بيروت، ط (١)، ١٩٨٨، ص ٢٨.
٤٤- جون ستروك؛ بحث سابق، ص ٧٨.
٤٥- رولان بارت: النقد البنيوي للحكاية، ص ٧٤.
٤٦- نفسه، ص ٨٠.
٤٧- نفسه، ص ٧٩.
٤٨- نفسه، ص ٨١.
٤٩- نفسه، ص ٨١.
٥٠- Roland Barthes, Sur Racine, Editions du Seuil, 1963, P. 57.
٥١- جون ستروك: بحث سابق، ص ٨٠.
٥٢- نفسه، ص ٨٢.
٥٣- انظر: ترجمة د. محمد عصفور لدراسة «النقد والحقيقة» Critique et Verite لبارت ضمن بحث جون ستروك عن رولان بارت في كتاب «البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا»، ص ٨٢.
٥٤- انظر: جون ستروك؛ بحث سابق، ص ٨٣.
٥٥- نفسه، ص ٨٣-٨٤.
٥٦- نفسه، ص ٨٥.
٥٧- رولان بارت: النقدالبنيوي للحكاية، ص ٤١.
٥٨- جون ستروك، بحث سابق، ص ٨٧.
٥٩- رولان بارت: درس السسيميولوجيا، مرجع سابق، ص ١٢.
٦٠- نفسه، ص ١٢.
٦١- نفسه، ص ١٣.
٦٢- نفسه، ص ١٤.
٦٣- انظر: نفسه، ص ١٣، ١٤.
٦٤- انظر على سبيل المثال وليس الحصر دراسات:
- دكتور صلاح فضل في «بلاغة الخطاب وعلم النص، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، ١٩٩٢.
- د. سعد مصلوح؛ في النص الأدبي، دراسة أسلوبية إحصائية، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ١٩٩١.
- جيرار جينيت؛ مدخل إلى النص الجامع، ترجمة عبدالعزيز شبيل، المشروع القومي الترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٩م.
- دكتور محمد مفتاح؛ دينامية النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٧.
- عبدالفتاح كليطو؛ تعريف النص الأدبي، مجلة كلية الآداب، الرباط ع٥-٦، ١٩٩ ص ١١٧-١٢٤.
- د. عبدالملك مرتاض؛ حول دراسة النص الأدبي الأقلام، بغداد س ١٧ ع ٧-٨ يوليو ١٩٨٢، «في نظرية النص الأدبي»، الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق س ١٧، ع ٢٠١، كانون الثاني، ١٩٨٨، ص ٤٧، وغيرهم.
٦٥- رولان بارت: درس السيميولوجيا، مرجع سابق، ص ٢٣.
٦٦- للمزيد حول معرفة «مقاربات العمل والنص»، انظر؛ رولان بارت، درس السيميولوجيا، مرجع سابق، ص ٦٠-٦٧، انظر؛ رولان بارت، مقال من «العمل إلى النص»، ضمن الأعمال الكاملة لبارت، ج (٥)، ترجمة د. منذر عياشي، ص ٨٧-٩٥، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ١٩٩٩م.
٦٧- رولان بارت: درس السيميولوجيا، مرجع سابق، ص ٦٠.
٦٨- نفسه، ص ٢٧.
٦٩- روبرت شولز؛ السيمياء والتأويل: ترجمة سعيد الغانمي، المؤسسةالعربية للدراسات والنشر، بيروت، ط (١)، ١٩٩٤م، ص ٤٠-٤١.
٧٠- محمد عزام؛ مرجع سابق، ص ٤٧.
٧١- R. Barthes, S.z, Blackwell, Oxford UK & Combidge USA, 1974, P. 221.
٧٢- برنار فاليط: النص الروائي تقنيات ومناهج، ترجمة رشيد بنحرو، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٥٢.
٧٣- رولان بارت: «بحث الأدب بلاغة»، ضمن كتاب اللغة والخطاب الأدبي لمجموعة من المؤلفين، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدارالبيضاء، ١٩٩٣م، ص ٥٦.
٧٤- رولان بارت: درس السيميولوجيا؛ مرجع سابق، ص ٨٤.
٧٥- نفسه، ص ٨٥.
٧٦- نفسه، ص ٨٦.
٧٧- نفسه، ص ٨٦

دراسات

الاستشراق في جامعة ياجيلونسكي في كراكوف

د . بربارا ميخالاك - بيكولسكا*

مدينة كراكوف هي واحدة من أكبر وأقدم المدن البولندية. في عام ١٠٣٨ جعل منها الملك البولندي Kazimierz Odnowiciel (كاجمييج أودنوفيتشيل) عاصمة للدولة البولندية. إن أقدم مقر لجامعة ياجيلونسكي هو مبنى Kollogium Maius (كوليجيوم مايوس)، الذي يعتبر من بين أروع الأبنية في الجزء القديم من كراكوف، إذ يعود تاريخ بنائه إلى القرن الخامس عشر. وفي عام ١٩٧٨ أعلنت منظمة اليونيسكو هذه المدينة مركزاً محمياً للتراث الثقافي العالمي وهي حالياً العاصمة الأوروبية للثقافة.

في عام ١٣٦٤ أسس الملك البولندي Kazimierz Wielki (كاجمييج فييلكي) في مدينة كراكوف، عاصمة المملكة البولندية آنذاك، جامعة كانت الأولى من نوعها في أوروبا الوسطى. ويرجح أن مقرها تلك كان قائماً في القصر الملكي «فافيل» على مرأى من عيني الملك نفسه. ولم يمض وقت طويل على تأسيس هذه الجامعة حتى شغلت مكاناً مرموقاً في الثقافة العالمية. كان Stanislaw ze Skarbimierza (ستانيسواف من سكاربيمييج) (المتوفى عام ١٤٣١) أول رئيس لها، ويعتبر اليوم أحد واضعي القانون الدولي العام. ازدهرت مع كراكوف في مجالي الرياضيات وعلم الفلك في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وقد درس فيها في الفترة ١٤٩١-١٤٩٥ عالم الفلك الشهير نيقولاوس كوبرنيكوس صاحب النظرية- الثورة «O obrotach cial niebieskich» (عن دوران الأجسام الزرقاء).

ومما يدل على مكانة الجامعة العالمية المميزة في ذلك الوقت ازدياد عدد الطلاب الأجانب في صفوفها حيث بلغت نسبتهم ٤٤٪ من مجمل عدد الطلاب الدارسين خلال الفترة الممتدة من ١٤٣٣-١٥١٠. وأصبحت كراكوف إلى جانب اشبيليا وتوليدو المركز الأكاديمي الأكثر شهرة، وأضحت جامعتها مركزاً هاماً لعلوم الجغرافيا أيضاً. وقد تم إدخال تعليم اللغة اليونانية إلى حقل التدريس في بداية القرن السادس عشر الأمر الذي شكل سابقة لا مثيل لها في أوروبا. وفي ذلك العصر نشأ فيها شعراء مشهورون بولنديون مثل Jan Kochanowski (يان كوخانوفسكي) وMikola Rcj (ميكواي ري) وAndrzej

* رئيسة قسم اللغة العربية وآدابها بمعهد اللغات الشرقية بجامعة ياجيلونسكي ببولندا

دراسات

الاستشراق في جامعة ياجيلونسكي في كراكوف

د . بربارا ميخالاك - بيكولسكا*

مدينة كراكوف هي واحدة من أكبر وأقدم المدن البولندية. في عام ١٠٣٨ جعل منها الملك البولندي Kazimierz Odnowiciel (كاجمييج أودنوفيتشيل) عاصمة للدولة البولندية. إن أقدم مقر لجامعة ياجيلونسكي هو مبنى Kollogium Maius (كوليجيوم مايوس)، الذي يعتبر من بين أروع الأبنية في الجزء القديم من كراكوف، إذ يعود تاريخ بنائه إلى القرن الخامس عشر. وفي عام ١٩٧٨ أعلنت منظمة اليونيسكو هذه المدينة مركزاً محمياً للتراث الثقافي العالمي وهي حالياً العاصمة الأوروبية للثقافة.

في عام ١٣٦٤ أسس الملك البولندي Kazimierz Wielki (كاجمييج فييلكي) في مدينة كراكوف، عاصمة المملكة البولندية آنذاك، جامعة كانت الأولى من نوعها في أوروبا الوسطى. ويرجح أن مقرها تلك كان قائماً في القصر الملكي «فافيل» على مرأى من عيني الملك نفسه. ولم يمض وقت طويل على تأسيس هذه الجامعة حتى شغلت مكاناً مرموقاً في الثقافة العالمية. كان Stanislaw ze Skarbimierza (ستانيسواف من سكاربيمييج) (المتوفى عام ١٤٣١) أول رئيس لها، ويعتبر اليوم أحد واضعي القانون الدولي العام. ازدهرت مع كراكوف في مجالي الرياضيات وعلم الفلك في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وقد درس فيها في الفترة ١٤٩١-١٤٩٥ عالم الفلك الشهير نيقولاوس كوبرنيكوس صاحب النظرية- الثورة «O obrotach cial niebieskich» (عن دوران الأجسام الزرقاء).

ومما يدل على مكانة الجامعة العالمية المميزة في ذلك الوقت ازدياد عدد الطلاب الأجانب في صفوفها حيث بلغت نسبتهم ٤٤٪ من مجمل عدد الطلاب الدارسين خلال الفترة الممتدة من ١٤٣٣-١٥١٠. وأصبحت كراكوف إلى جانب اشبيليا وتوليدو المركز الأكاديمي الأكثر شهرة، وأضحت جامعتها مركزاً هاماً لعلوم الجغرافيا أيضاً. وقد تم إدخال تعليم اللغة اليونانية إلى حقل التدريس في بداية القرن السادس عشر الأمر الذي شكل سابقة لا مثيل لها في أوروبا. وفي ذلك العصر نشأ فيها شعراء مشهورون بولنديون مثل Jan Kochanowski (يان كوخانوفسكي) وMikola Rcj (ميكواي ري) وAndrzej

* رئيسة قسم اللغة العربية وآدابها بمعهد اللغات الشرقية بجامعة ياجيلونسكي ببولندا

Frycz Modrzewski (أندجي فريتش مودجييفسكي). وفي نهاية القرن السابع عشر كان الملك البولندي Jan M Sobieski (يان سوبييسكي الثالث) أحد طلاب هذه الجامعة التي شهدت هذه الجامعة في القرن الثامن عشر تطورات إيجابية، حيث بدأ فيها التعليم المنظم للغات أجنبية مختلفة كالفرنسية و الألمانية، وأدخلت إلى مقرراتها محاضرات حول القانون البولندي والهندسة العسكرية. وقد أجرى رئيسها في تلك الفترة Hugon Kollataj (هوغون كوونتاي) إصلاحات جذرية فيها، فأحدثت بنية تنظيمية جديدة لها، وأنشىء مرصد فلكي، وحديقة للنباتات ومستوصفات سريرية بالإضافة إلى ذلك بني أول مخبر فيها. أخذت المحاضرات تلقى في أقسامها باللغة البولندية. ومنذ بداية عام ١٨١٧ أصبح اسم هذه الجامعة «جامعة ياجيلونسكي» وغدت إحدى أكثر الجامعات أهمية في عالم العلم. وكان لتوسيع البنية التحتية لهذه الجامعة الفضل الأكبر في الوصول إلى ذلك المستوى العلمي الرفيع. في العام الدراسي الذي سبق الحرب العالمية الأولى كان في هذه الجامعة ٩٧ قسماً وأكثر من ثلاثة آلاف طالب وطالبة، وقد بدأت الطالبات بالدراسة في هذه الجامعة منذ عام ١٨٩٧.

لقد كان وضع جامعة ياجيلونسكي تحت نير الاحتلال النازي أثناء الحرب العالمية الثانية مأساوياً. في السادس من شهر نوفمبر عام ١٩٣٩ قام الألمان بدعوة أساتذة الجامعة لمحاضرة كانت بحقيقتها خدعة. حيث قام رجال الأمن باعتقال ١٤٤ أستاذاً ومعيداً وعدداً من طلاب الجامعة وأرسلوهم جميعاً إلى معسكرات الاعتقال والتعذيب، وأغلقت الجامعة وتم فك وتخريب الكثير من تجهيزاتها ونقل الجزء الكبير منها إلى ألمانيا. لكن إرادة العلم عند كوادر هذه الجامعة وطلابها بقيت حية وبدأ التعليم ينشط من جديد سراً- فحتى نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ تلقّى العلم فيها سراً حوالي ٨٠٠ طالباً. وفي العام الدراسي الأول بعد الحرب بلغ عدد الطلاب المسجلين فيها أكثر من خمسة آلاف. ولسوء الحظ بدأت في عام ١٩٤٨ فترة سيئة في تاريخ هذه الجامعة، حيث شملتها سلبيات ما سمي بفترة الحكم الستاليني. ولكن عام ١٩٥٦ شكل نقطة انعطاف حيث بدأ الأساتذة المبدعون من قبل بالعودة إليها. وفي عام ١٩٦٤ احتفلت جامعة ياجيلونسكي بذكرى مرور ٦٠٠ سنة على تأسيسها.

تتألف هذه الجامعة حالياً من إحدى عشرة كلية هي: الحقوق والإدارة، الفلسفة، التاريخ، الآداب، الرياضيات والفيزياء، البيولوجيا وعلوم الأرض، الكيمياء، وكلية إدارة الأعمال والعلاقات الاجتماعية. وابتداء من ١٢ مايو عام ١٩٩٢ عاد كوليجيوم الطب ليصبح إحدى كلياتها. يتخذ رئيس الجامعة وعمداء كلياتها مقراً لهم في مبنى كوليجيوم نوفوم الذي تم بناؤه في عام ١٨٨٧. بالقرب منه يوجد مبنى كوليجيوم مايوس، الذي يعتبر أول كوليجيوم للأساتذة وقد كان في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مقراً لمكتبة ياجيلونسكي. أما متحف جامعة ياجيلونسكي، المتواجد حالياً في هذا المبنى والذي يضم مجموعة من التجهيزات القديمة المعدة للتعليم

Frycz Modrzewski (أندجي فريتش مودجييفسكي). وفي نهاية القرن السابع عشر كان الملك البولندي Jan M Sobieski (يان سوبييسكي الثالث) أحد طلاب هذه الجامعة التي شهدت هذه الجامعة في القرن الثامن عشر تطورات إيجابية، حيث بدأ فيها التعليم المنظم للغات أجنبية مختلفة كالفرنسية و الألمانية، وأدخلت إلى مقرراتها محاضرات حول القانون البولندي والهندسة العسكرية. وقد أجرى رئيسها في تلك الفترة Hugon Kollataj (هوغون كوونتاي) إصلاحات جذرية فيها، فأحدثت بنية تنظيمية جديدة لها، وأنشىء مرصد فلكي، وحديقة للنباتات ومستوصفات سريرية بالإضافة إلى ذلك بني أول مخبر فيها. أخذت المحاضرات تلقى في أقسامها باللغة البولندية. ومنذ بداية عام ١٨١٧ أصبح اسم هذه الجامعة «جامعة ياجيلونسكي» وغدت إحدى أكثر الجامعات أهمية في عالم العلم. وكان لتوسيع البنية التحتية لهذه الجامعة الفضل الأكبر في الوصول إلى ذلك المستوى العلمي الرفيع. في العام الدراسي الذي سبق الحرب العالمية الأولى كان في هذه الجامعة ٩٧ قسماً وأكثر من ثلاثة آلاف طالب وطالبة، وقد بدأت الطالبات بالدراسة في هذه الجامعة منذ عام ١٨٩٧.

لقد كان وضع جامعة ياجيلونسكي تحت نير الاحتلال النازي أثناء الحرب العالمية الثانية مأساوياً. في السادس من شهر نوفمبر عام ١٩٣٩ قام الألمان بدعوة أساتذة الجامعة لمحاضرة كانت بحقيقتها خدعة. حيث قام رجال الأمن باعتقال ١٤٤ أستاذاً ومعيداً وعدداً من طلاب الجامعة وأرسلوهم جميعاً إلى معسكرات الاعتقال والتعذيب، وأغلقت الجامعة وتم فك وتخريب الكثير من تجهيزاتها ونقل الجزء الكبير منها إلى ألمانيا. لكن إرادة العلم عند كوادر هذه الجامعة وطلابها بقيت حية وبدأ التعليم ينشط من جديد سراً– فحتى نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ تلقّى العلم فيها سراً حوالي ٨٠٠ طالباً. وفي العام الدراسي الأول بعد الحرب بلغ عدد الطلاب المسجلين فيها أكثر من خمسة آلاف. ولسوء الحظ بدأت في عام ١٩٤٨ فترة سيئة في تاريخ هذه الجامعة، حيث شملتها سلبيات ما سمي بفترة الحكم الستاليني. ولكن عام ١٩٥٦ شكل نقطة انعطاف حيث بدأ الأساتذة المبدعون من قبل بالعودة إليها. وفي عام ١٩٦٤ احتفلت جامعة ياجيلونسكي بذكرى مرور ٦٠٠ سنة على تأسيسها.

تتألف هذه الجامعة حالياً من إحدى عشرة كلية هي: الحقوق والإدارة، الفلسفة، التاريخ، الآداب، الرياضيات والفيزياء، البيولوجيا وعلوم الأرض، الكيمياء، وكلية إدارة الأعمال والعلاقات الاجتماعية. وابتداء من ١٢ مايو عام ١٩٩٢ عاد كوليجيوم الطب ليصبح إحدى كلياتها. يتخذ رئيس الجامعة وعمداء كلياتها مقراً لهم في مبنى كوليجيوم نوفوم الذي تم بناؤه في عام ١٨٨٧. بالقرب منه يوجد مبنى كوليجيوم مايوس، الذي يعتبر أول كوليجيوم للأساتذة وقد كان في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مقراً لمكتبة ياجيلونسكي. أما متحف جامعة ياجيلونسكي، المتواجد حالياً في هذا المبنى والذي يضم مجموعة من التجهيزات القديمة المعدة للتعليم

وتذكارات من مختلف فترات عمل الجامعة وصوراً عديدة لأساتذتها، هو دليل حي وقاطع يثبت أن جامعة ياجيلونسكي هى أقدم مؤسسة تعليمية في بولندا.

تعود بداية تاريخ قسم الاستشراق في كراكوف إلى عام ١٩١٩ عندما تم، بناء على اقتراح من الأستاذ Tadeusz Kowalski تاديوش كوفالسكي، تنظيم ندوة حول موضوع آداب الاستشراق.

درس تاديوش كوفالكسي في فيينا وكان مدرسه الأستاذ Rudolf Geyer وهو العالم الكبير فى مجال الأدب العربي الكلاسيكي. وقد بدأ العمل عام ١٩١١/١٩١٢ في جامعة ستراسبورغ، التي عمل فيها آنذاك محاضران قديران في مجالي الاستعراب والاستشراق هما Theodor Noldeke وEnno Littman. وفي عام ١٩١٤ حصل تاديوش كوفالسكي من جامعة ياجيلونسكي على درجة بروفيسور مساعد بعد تقديمه الطبعة النقدية لديوان الشاعر العربي القديم قيس ابن الحاتم وترجمته. وكانت هذه أول درجة علمية بهذا المستوى تم تحقيقها في مجال الاستعراب في تاريخ العلوم البولندية. ولم تقتصر اهتمامات تاديوش كوفالسكي العلمية على الشرق الأوسط العربي بل طالت أيضاً تركيا وفارس. وكمستعرب فقد انصب اهتمامه على الشعر العربي القديم، إذ أصدر، من بين ما أصدره، ديوان قيس ابن الحاتم (١٩١٤) وكعب ابن زهير (١٩٥٠) وذلك بالتعاون مع الأستاذ تاديوش ليفيتسكي. عدا ذلك اهتم بنظرية الأدب العربي وأثمر ذلك كتاباً نشره تحت عنوان «Proba charakterystyki tworczosci arabskiej» (محاولة وصف وتصوير الإنتاج الأدبي العربي) (١٩٣٢). وفي عام ١٩٣٥ أصدر في كراكوف كتاباً بعنوان «Na szlakach Isiamu» (على دروب الإسلام) وهو عبارة عن مقتطفات من تاريخ ثقافات الشعوب الإسلامية. أما في عام ١٩٤٦ فقد نشر مجموعة من تقارير لإبراهيم ابن يعقوب عن سفره إلى البلدان السلافية نقلها البكري. (١)

ولمع اسم أستاذ آخر في مجال الاستشراق هو Tadeusz Lewicki وكانت له شهرة عالمية. ولد ليفيتسكي في التاسع والعشرين من شهر يناير ١٩٠٦ في مدينة لفوف، وبدأ فيها، عام ١٩٢٥، دراسة الحقوق وذلك في جامعة يان كاجمييج. في عام ١٩٢٨ سافر إلى باريس حيث درس العلوم السياسية و اللغات الشرقية وكان راغباً في الوقت نفسه بالعمل في المجال الدبلوماسي وبالسفر إلى بلدان العالم الإسلامي. ومن هناك سافر، للمرة الأولى، إلى الجزائر حيث عاش في الوسط العربي عدة شهور، وقام برحلته الأولى في الصحراء في لباس رجال البدو ورافق رعاة الجمال. وقد كان لاتصالاته بالعالم العربي، في سن شبابه، تأثير كبير على مسيرة حياته كاملة. وبعد عودته إلى لفوف بدأ دراسة الاستشراق تحت إشراف الأستاذ ZYGMUNT SMO-GORZEWSKI (زيغمونت سموغوجيفسكي) الذي كان في دراساته مهتماً بالدرجة الأساسية بطائفة العبادية المسلمة. في عام ١٩٣١ نال درجة الدكتوراه بعد تقديمه بحثاً عن تاريخ أفريقيا الشمالية في فترة مبكرة من العصور

وتذكارات من مختلف فترات عمل الجامعة وصوراً عديدة لأساتذتها، هو دليل حي وقاطع يثبت أن جامعة ياجيلونسكي هي أقدم مؤسسة تعليمية في بولندا.

تعود بداية تاريخ قسم الاستشراق في كراكوف إلى عام ١٩١٩ عندما تم، بناء على اقتراح من الأستاذ Tadeusz Kowalski تاديوش كوفالسكي، تنظيم ندوة حول موضوع آداب الاستشراق.

درس تاديوش كوفالكسي في فيينا وكان مدرسه الأستاذ Rudolf Geyer وهو العالم الكبير في مجال الأدب العربي الكلاسيكي. وقد بدأ العمل عام ١٩١١/١٩١٢ في جامعة ستراسبورغ، التي عمل فيها آنذاك محاضران قديران في مجالي الاستعراب والاستشراق هما Theodor Noldeke وEnno Littman. وفي عام ١٩١٤ حصل تاديوش كوفالسكي من جامعة ياجيلونسكي على درجة بروفيسور مساعد بعد تقديمه الطبعة النقدية لديوان الشاعر العربي القديم قيس ابن الحاتم وترجمته. وكانت هذه أول درجة علمية بهذا المستوى تم تحقيقها في مجال الاستعراب في تاريخ العلوم البولندية. ولم تقتصر اهتمامات تاديوش كوفالسكي العلمية على الشرق الأوسط العربي بل طالت أيضاً تركيا وفارس. وكمستعرب فقد انصب اهتمامه على الشعر العربي القديم، إذ أصدر، من بين ما أصدره، ديوان قيس ابن الحاتم (١٩١٤) وكعب ابن زهير (١٩٥٠) وذلك بالتعاون مع الأستاذ تاديوش ليفيتسكي. عدا ذلك اهتم بنظرية الأدب العربي وأثمر ذلك كتاباً نشره تحت عنوان «Proba charakterystyki tworczosci arabskiej» (محاولة وصف وتصوير الإنتاج الأدبي العربي) (١٩٣٢). وفي عام ١٩٣٥ أصدر في كراكوف كتاباً بعنوان «Na szlakach Isiamu» (على دروب الإسلام) وهو عبارة عن مقتطفات من تاريخ ثقافات الشعوب الإسلامية. أما في عام ١٩٤٦ فقد نشر مجموعة من تقارير لإبراهيم ابن يعقوب عن سفره إلى البلدان السلافية نقلها البكري. [1]

ولمع اسم أستاذ آخر في مجال الاستشراق هو Tadeusz Lewicki وكانت له شهرة عالمية. ولد ليفيتسكي في التاسع والعشرين من شهر يناير ١٩٠٦ في مدينة لفوف، وبدأ فيها، عام ١٩٢٥، دراسة الحقوق وذلك في جامعة يان كاجمييج. في عام ١٩٢٨ سافر إلى باريس حيث درس العلوم السياسية و اللغات الشرقية وكان راغباً في الوقت نفسه بالعمل في المجال الدبلوماسي وبالسفر إلى بلدان العالم الإسلامي. ومن هناك سافر، للمرة الأولى، إلى الجزائر حيث عاش في الوسط العربي عدة شهور، وقام برحلته الأولى في الصحراء في لباس رجال البدو ورافق رعاة الجمال. وقد كان لاتصالاته بالعالم العربي، في سن شبابه، تأثير كبير على مسيرة حياته كاملة. وبعد عودته إلى لفوف بدأ دراسة الاستشراق تحت إشراف الأستاذ ZYGMUNT SMO-GORZEWSKI (زيغمونت سموغوجيفسكي) الذي كان في دراساته مهتماً بالدرجة الأساسية بطائفة العبادية المسلمة. في عام ١٩٣١ نال درجة الدكتوراه بعد تقديمه بحثاً عن تاريخ أفريقيا الشمالية في فترة مبكرة من العصور

الوسطى. وقد ضمه الأستاذ سموغوجيفسكي إلى دائرة المهتمين بطائفة العبادية وبشكل أساسي إلى اتباعها من مزاب في الصحراء الجزائرية الوسطى، ومن المغرب العربي ومن جزيرة جربة وعمان. وقد تابع الأستاذ اهتمامه بهذا المجال حتى نهاية حياته وأصبح أكثر الباحثين اعتباراً وشهرة في أوروبا في هذا الاختصاص. إن حصوله على منحة في جامعة السوربون في الفترة ١٩٣٢-١٩٣٤ مكنه من جمع الكثير من المواد العلمية عن تاريخ السلافيين واللغة العربية وآدابها حيث نشرها لاحقاً في عمله الذي يحمل عنوان «بولندا الاستشراق» التى بدأها بنفسه قبل ذلك الوقت بعدة سنوات عندما أصدر في عام ١٩٥٦ الجزء الأول بعنوان «ZRODEL ARABSKICH DO DZIEJOW SLOWIANSZCZYZNY» (المصادر العربية المتعلقة بتاريخ حياة الشعوب السلافية).

وكذلك كان الأستاذ ليفيتسكي أول من ترجم كتاب ألف ليلة وليلة إلى اللغة البولندية ترجمة كاملة، وقد نشرت في وارسو في عام ١٩٧٤. تتألف قائمة الأعمال والكتب التي أصدرها الأستاذ ليفيتسكي في الفترة ١٩٢٩- ١٩٩٣ من حوالي خمسمائة نقطة تشمل المقالات والأعمال النقدية والكتب التي تتناول، بالإضافة إلى طائفة العبادية المسلمة، تاريخ العصور الوسطى لكل من أوروبا وأفريقيا الوسطى وجنوب شرق آسيا. (٢)

وهناك اسم لامع آخر في هذا المجال هو الأستاذ Roman Stopa (رومان ستوبا) (١٨٨٥-١٩٩٥)، الذي بعد انتهائه من دراسة الأدب الكلاسيكي بجامعة ياجيلونسكي سافر إلى أفريقيا الجنوبية و تعلم هناك اللهجات المحلية. وكان المتخصص الوحيد، في مرحلة الأربعينيات، بعلم لغات ما سمي «بأفريقيا السوداء»، وقد حاضر وقتذاك في مجال اللغات السواحلية والهوسة والكوشي.

أما الأستاذ Andrzej Czapkiewicz (١٩٢٩-١٩٩٠) فكان شخصية بارزة في مجال اللغة العربية و لهجاتها وكذلك في مجال اللغات السامية. في الفترة ١٩٤٨-١٩٥٢ درس اللغة العربية وآدابها في جامعة ياجيلونسكي تحت إشراف الأستاذ تاديوش ليفيتسكي. بعد التخرج عين معيداً مساعداً للأستاذ ليفيتسكي، وفي عام ١٩٦٤ نال درجة الدكتوراه بعد تقديمه بحثاً عن «Antyczne egipskie I koptyjskie elementy wnazewnictwie wspolczesnego Egiptu» (العناصر المصرية والقبطية القديمة في أصول وأشكال التسميات في مصر الحديثة)، وقد نشر هذا البحث في كراكوف عام ١٩٧١. وفي عام ١٩٧٥ صدر له في مدينة فرونسواف البولندية كتاب بعنوان «الفعل في اللهجات العربية المعاصرة»، وقد عني هذا الكتاب بمشاكل علم اللغة في العالم العربي كما هو حال أعماله الأخرى مثل «Sprachproben aus Madaba» (نصوص تجريبية مادية) التي صدرت في فروتسواف في عام ١٩٦٠، و«المصطلحات العربية» التي صدرت في عام ١٩٨٣. وتشير عناوين إصدارات الأستاذ تشابكيفيتش إلى اتجاهين أساسيين في أبحاثه المنصبة على مجال علم اللغات أولهما: علم اللغات وتاريخ علم اللغة في العربية؛ وثانيهما:

الوسطى. وقد ضمه الأستاذ سموغوجيفسكي إلى دائرة المهتمين بطائفة العبادية وبشكل أساسي إلى اتباعها من مزاب في الصحراء الجزائرية الوسطى، ومن المغرب العربي ومن جزيرة جربة وعمان. وقد تابع الأستاذ اهتمامه بهذا المجال حتى نهاية حياته وأصبح أكثر الباحثين اعتباراً وشهرة في أوروبا في هذا الاختصاص. إن حصوله على منحة في جامعة السوربون في الفترة ١٩٣٢-١٩٣٤ مكنه من جمع الكثير من المواد العلمية عن تاريخ السلافيين واللغة العربية وآدابها حيث نشرها لاحقاً في عمله الذي يحمل عنوان «بولندا الاستشراق» التى بدأها بنفسه قبل ذلك الوقت بعدة سنوات عندما أصدر في عام ١٩٥٦ الجزء الأول بعنوان «ZRODEL ARABSKICH DO DZIEJOW SLOWIANSZCZYZNY» (المصادر العربية المتعلقة بتاريخ حياة الشعوب السلافية). وكذلك كان الأستاذ ليفيتسكي أول من ترجم كتاب ألف ليلة وليلة إلى اللغة البولندية ترجمة كاملة، وقد نشرت في وارسو في عام ١٩٧٤. تتألف قائمة الأعمال والكتب التي أصدرها الأستاذ ليفيتسكي في الفترة ١٩٢٩- ١٩٩٣ من حوالي خمسمائة نقطة تشمل المقالات والأعمال النقدية والكتب التي تتناول، بالإضافة إلى طائفة العبادية المسلمة، تاريخ العصور الوسطى لكل من أوروبا وأفريقيا الوسطى وجنوب شرق آسيا. (٢)

وهناك اسم لامع آخر في هذا المجال هو الأستاذ Roman Stopa (رومان ستوبا) (١٨٨٥-١٩٩٥)، الذي بعد انتهائه من دراسة الأدب الكلاسيكي بجامعة ياجيلونسكي سافر إلى أفريقيا الجنوبية و تعلم هناك اللهجات المحلية. وكان المتخصص الوحيد، في مرحلة الأربعينيات، بعلم لغات ما سمي «بأفريقيا السوداء»، وقد حاضر وقتذاك في مجال اللغات السواحلية والهوسة والكوشي.

أما الأستاذ Andrzej Czapkiewicz (١٩٢٩-١٩٩٠) فكان شخصية بارزة في مجال اللغة العربية و لهجاتها وكذلك في مجال اللغات السامية. في الفترة ١٩٤٨-١٩٥٢ درس اللغة العربية وآدابها في جامعة ياجيلونسكي تحت إشراف الأستاذ تاديوش ليفيتسكي. بعد التخرج عين معيداً مساعداً للأستاذ ليفيتسكي، وفي عام ١٩٦٤ نال درجة الدكتوراه بعد تقديمه بحثاً عن «Antyczne egipskie I koptyjskie ele-menty wnazewnictwie wspolczesne-go Egiptu» (العناصر المصرية والقبطية القديمة في أصول وأشكال التسميات في مصر الحديثة)، وقد نشر هذا البحث في كراكوف عام ١٩٧١. وفي عام ١٩٧٥ صدر له في مدينة فرونسواف البولندية كتاب بعنوان «الفعل في اللهجات العربية المعاصرة»، وقد عني هذا الكتاب بمشاكل علم اللغة في العالم العربي كما هو حال أعماله الأخرى مثل «Sprachproben aus Madaba» (نصوص تجريبية مادية) التي صدرت في فروتسواف في عام ١٩٦٠، و«المصطلحات العربية» التي صدرت في عام ١٩٨٣. وتشير عناوين إصدارات الأستاذ تشابكيفيتش إلى اتجاهين أساسيين في أبحاثه المنصبة على مجال علم اللغات أولهما: علم اللغات وتاريخ علم اللغة في العربية؛ وثانيهما:

دراسة أو جمع القطع النقدية والأوراق المالية العربية. وأصدر في هذا المجال بالاشتراك مع Maria Czapkiewicz وتاديوش ليفيتسكي دراسة علمية بعنوان «Skarb dirahmow z Czechowa» (خزينة الدراهم من تشيخوف) التي نشرت في فروتسواف عام ١٩٥٧. عدا ذلك قام الأستاذ تشابكيفيتش بكتابة عدة مؤلفات لتعليم اللغة العربية منها «نتعلم اللغة العربية» (في عام ١٩٧٧) و«مختارات من النصوص العربية الاختصاصية» (في عام ١٩٨٢). [٣]

وقد ترقى الأستاذ تشابكيفيتش، بعد أن تقاعد الأستاذ تاديوش ليفيتسكي، ليصبح في عام ١٩٧٦ مديراً لمعهد اللغات الشرقية وآدابها. وشغل في نفس الوقت منصب رئيس قسم اللغة العربية وآدابها ورئيس شعبة دراسات القطع النقدية والأوراق المالية والمصادر الشرقية.

أما الأستاذة Maria Kowalska فهي متخصصة قديرة في مجال تاريخ الأدب العربي المتعلق بالجغرافيا والترحال. ولدت في عام ١٩١٩ وإلى الآن تدير حلقات بحث للطلاب المتقدمين لشهادة الماجستير. وهي تلميذة للأستاذين تاديؤش كوفالسكي وتاديؤوش ليفيتسكي وتتابع أعمالهما ومسيرتهما. وقد نالت شهادة الدكتوراه في عام ١٩٦٥ في بحث تقدمت به عن الجغرافيا العربية بعنوان «مصادر القزويني عن آثار البلاد». وهي مؤلفة لكتب عديدة قيمة مثل كتاب «Sredniowieczna arabska literatura podroznicza» (أدب الترحال العربي في العصور الوسطى) الصادر عام ١٩٧٣، وكتاب «أكرانيا في منتصف القرن السابع عشر استناداً إلى تقارير الرحالة العربى بولص ابن المكري من حلب» الصادر فى وارسو عام ١٩٨٦. في الفترة ١٩٩٤-١٩٩٩ شغلت منصب رئيس قسم اللغة العربية وآدابها في معهد اللغات الشرقية وآدابها في جامعة ياجيلونسكي، ولا يزال لها دور فعال في تطوير علم الاستشراق في بولندا. من جانب آخر، ترأست الأستاذة كوفالسكا لسنوات طويلة فرع جمعية الاستشراق البولندية في كراكوف، وإلى اليوم هي عضو في مجلس إدارة مكتب أبحاث الاستشراق.

ويتناول الأستاذ Andrzej Zaborski باهتمام كبير المسائل المتعلقة بعلم اللغة العربية واللغات السامية. ويهتم بشكل رئيسي باللهجات وبالبنية التركيبية للغة العربية المعاصرة، ومنذ سنوات طويلة يحاضر خارج البلد في جامعات النمسا وإيطاليا وفرنسا وألمانيا. وهو متخصص في اللهجة المصرية، وقد أصدر كتابين حول اللهجة المصرية: الأول في عام ١٩٨٢ بعنوان «Dialekt egipski jezyka arabskiego» (اللهجة المصرية فى اللغة العربية) والثاني في عام ١٩٨٨ بعنوان «Rozmowki arabskie-dialekt egipski» (محادثات باللغة العربية- اللهجة المصرية). بالإضافة إلى ذلك قام بتأليف العديد من الكتب المخصصة للهجات العربية.

من بين الشخصيات اللامعة الأخرى الأستاذ Andrzej Kapiszewski الذي يحاضر في مادة ثقافة العرب منذ عام ١٩٩٩. وقد شغل من قبل منصب السفير البولندي في دولة الإمارات العربية المتحدة في الفترة ١٩٩٥-١٩٩٧. أصدر العديد من المؤلفات عن بلدان دول شبه الجزيرة

دراسة أو جمع القطع النقدية والأوراق المالية العربية. وأصدر في هذا المجال بالاشتراك مع Maria Czapkiewicz وتاديوش ليفيتسكي دراسة علمية بعنوان «Skarb dirahmow z Czechowa» (خزينة الدراهم من تشيخوف) التي نشرت في فروتسواف عام ١٩٥٧. عدا ذلك قام الأستاذ تشابكيفيتش بكتابة عدة مؤلفات لتعليم اللغة العربية منها «نتعلم اللغة العربية» (في عام ١٩٧٧) و«مختارات من النصوص العربية الاختصاصية» (في عام ١٩٨٢). (٣)

وقد ترقى الأستاذ تشابكيفيتش، بعد أن تقاعد الأستاذ تاديوش ليفيتسكي، ليصبح في عام ١٩٧٦ مديراً لمعهد اللغات الشرقية وآدابها. وشغل في نفس الوقت منصب رئيس قسم اللغة العربية وآدابها ورئيس شعبة دراسات القطع النقدية والأوراق المالية والمصادر الشرقية.

أما الأستاذة Maria Kowalska فهي متخصصة قديرة في مجال تاريخ الأدب العربي المتعلق بالجغرافيا والترحال. ولدت في عام ١٩١٩ وإلى الآن تدير حلقات بحث للطلاب المتقدمين لشهادة الماجستير. وهي تلميذة للأستاذين تاديؤش كوفالسكي وتاديؤوش ليفيتسكي وتتابع أعمالهما ومسيرتهما. وقد نالت شهادة الدكتوراه في عام ١٩٦٥ في بحث تقدمت به عن الجغرافيا العربية بعنوان «مصادر القزويني عن آثار البلاد». وهي مؤلفة لكتب عديدة قيمة مثل كتاب «Sredniowieczna arabska literatura podroznicza» (أدب الترحال العربي في العصور الوسطى) الصادر عام ١٩٧٣، وكتاب «أكرانيا في منتصف القرن السابع عشر استناداً إلى تقارير الرحالة العربي بولص ابن المكري من حلب» الصادر في وارسو عام ١٩٨٦. في الفترة ١٩٩٤-١٩٩٩ شغلت منصب رئيس قسم اللغة العربية وآدابها في معهد اللغات الشرقية وآدابها في جامعة ياجيلونسكي، ولا يزال لها دور فعال في تطوير علم الاستشراق في بولندا. من جانب آخر، ترأست الأستاذة كوفالسكا لسنوات طويلة فرع جمعية الاستشراق البولندية في كراكوف، وإلى اليوم هي عضو في مجلس إدارة مكتب أبحاث الاستشراق.

ويتناول الأستاذ Andrzej Zaborski باهتمام كبير المسائل المتعلقة بعلم اللغة العربية واللغات السامية. ويهتم بشكل رئيسي باللهجات وبالبنية التركيبية للغة العربية المعاصرة، ومنذ سنوات طويلة يحاضر خارج البلد في جامعات النمسا وإيطاليا وفرنسا وألمانيا. وهو متخصص في اللهجة المصرية، وقد أصدر كتابين حول اللهجة المصرية: الأول في عام ١٩٨٢ بعنوان «Dialekt egipski jezyka arabskiego» (اللهجة المصرية فى اللغة العربية) والثاني في عام ١٩٨٨ بعنوان «Rozmowki arabskie-dialekt egipski» (محادثات باللغة العربية- اللهجة المصرية). بالإضافة إلى ذلك قام بتأليف العديد من الكتب المخصصة للهجات العربية.

من بين الشخصيات اللامعة الأخرى الأستاذ Andrzej Kapiszewski الذي يحاضر في مادة ثقافة العرب منذ عام ١٩٩٩. وقد شغل من قبل منصب السفير البولندي في دولة الإمارات العربية المتحدة في الفترة ١٩٩٥-١٩٩٧. أصدر العديد من المؤلفات عن بلدان دول شبه الجزيرة

العربية، أهمها بعنوان «Native Arab Population and Foreign Workers in the Gulf States. Social, Economic and Security Issues» التي صدرت في كراكوف في ١٩٩٩، وكتاب «Nationals and Expatriates. Population and Labour Dilemmas for the Gulf Cooperation Council States» الذي صدر في لندن في عام ٢٠٠٠.

والشخصية الأصغر سناً بين كادر الأساتذة هذا هي الأستاذة بربارا ميخالاك بيكولسكا، التي تتناول في دراساتها الأدب العربي المعاصر وخصوصاً أدب بلدان شبه الجزيرة العربية. نالت شهادة الدكتوراه بعد تقديمها بحثاً عن الكاتبة الكويتية ليلى العثمان تم نشره في دمشق في عام ١٩٩٧ بعنوان «التراث المعاصر في إبداع ليلى العثمان». وفي الكويت صدر لها في عام ١٩٩٨ كتاب مخصص للفنانة والكاتبة والرسامة الكويتية القديرة ثريا البقصمي بعنوان «ثريا البقصمي بين الريشة والقلم». وفي العام نفسه صدرت لها في كراكوف دراسة مخصصة بالكامل لكتابة القصة في الكويت بعنوان «The Contemparary Kuwaiti Short-Story in Peace Time and War» ١٩٢٩–١٩٩٥. وآخر كتاب لها صدر في كراكوف في عام ٢٠٠٠ كان تحت عنوان «لمحة مختصرة عن كتابة القصة القصيرة المعاصرة في بلدان شبه الجزيرة العربية» وهو عبارة عن مختارات قصصية من مجمل بلدان شبه الجزيرة العربية. ويحوي هذا الكتاب، بالإضافة إلى المقدمة، لمحة عن سيرة حياة كتاب القصص من الكويت والسعودية والبحرين وقطر والإمارات العربية المتحدة وعمان واليمن.

بالإضافة إلى هذا كله كتبت بربارا ميخالاك بيكولسكا حوالي ثمانين مقالة ودراسة نقدية علمية. وهي عضوة لجمعيات استشراق ضمن بولندا وخارجها، منها: جمعية الاستشراق البولندية، Union Eurpeenne des Arabisants et Islamisants, European Meeting of Teachers of Arabic Literature, The Society for the Arabian Studies. وتشغل منذ عام ١٩٩٩ منصب رئيس قسم اللغة العربية وآدابها في معهد ا للغات الشرقية وآدابها التابع لجامعة ياجيلونسكي. ■

الهوامش

١- Marek. M. Dziekan، Polacy a swiat arabski، (البولنديون والعالم العربي)

٢- Tadcusz Lcwicki (١٩٠٦–١٩٩٢) Edward Szy manski, przeglad Orientalistyczny (مجلة الاستشراق) رقم ١–٢ Warszawa ١٩٩٣، ص ٩٦–١٠١

٣- (١٩٢٤–١٩٩٠) Elzbieta Gorska, Professor Andrzej Czapkiewicz, Folia Orientalna (فوليا لورينتالنا)، المجلد الثامن والعشرون، Krakow ١٩٩١، ص ٥–٦

العربية، أهمها بعنوان «Native Arab Population and Foreign Workers in the Gulf States. Social, Economic and Security Issues» التي صدرت في كراكوف في ١٩٩٩، وكتاب «Nationals and Expatriates. Population and Labour Dilemmas for the Gulf Cooperation Council States» الذي صدر في لندن في عام ٢٠٠٠.

والشخصية الأصغر سناً بين كادر الأساتذة هذا هي الأستاذة بربارا ميخالاك بيكولسكا، التي تتناول في دراساتها الأدب العربي المعاصر وخصوصاً أدب بلدان شبه الجزيرة العربية. نالت شهادة الدكتوراه بعد تقديمها بحثاً عن الكاتبة الكويتية ليلى العثمان تم نشره في دمشق في عام ١٩٩٧ بعنوان «التراث المعاصر في إبداع ليلى العثمان». وفي الكويت صدر لها في عام ١٩٩٨ كتاب مخصص للفنانة والكاتبة والرسامة الكويتية القديرة ثريا البقصمي بعنوان «ثريا البقصمي بين الريشة والقلم». وفي العام نفسه صدرت لها في كراكوف دراسة مخصصة بالكامل لكتابة القصة في الكويت بعنوان «The Contemparary Kuwaiti Short-Story in Peace Time and War» ١٩٢٩-١٩٩٥. وآخر كتاب لها صدر في كراكوف في عام ٢٠٠٠ كان تحت عنوان «لمحة مختصرة عن كتابة القصة القصيرة المعاصرة في بلدان شبه الجزيرة العربية» وهو عبارة عن مختارات قصصية من مجمل بلدان شبه الجزيرة العربية. ويحوي هذا الكتاب، بالإضافة إلى المقدمة، لمحة عن سيرة حياة كتاب القصص من الكويت والسعودية والبحرين وقطر والإمارات العربية المتحدة وعمان واليمن.

بالإضافة إلى هذا كله كتبت بربارا ميخالاك بيكولسكا حوالي ثمانين مقالة ودراسة نقدية علمية. وهي عضوة لجمعيات استشراق ضمن بولندا وخارجها، منها: جمعية الاستشراق البولندية، Union Eurpeenne des Arabisants et Islamisants, European Meeting of Teachers of Arabic Literature, The Society for the Arabian Studies. وتشغل منذ عام ١٩٩٩ منصب رئيس قسم اللغة العربية وآدابها في معهد ا للغات الشرقية وآدابها التابع لجامعة ياجيلونسكي .■

الهوامش

١- Polacy a swiat, Marek. M. Dziekan arabski، (البولنديون والعالم العربي)

٢- Edward Szy manski, Tadcusz Lcwicki (١٩٠٦-١٩٩٢) przeglad Orientalistyczny (مجلة الاستشراق) رقم ١-٢ Warszawa ١٩٩٣، ص ٩٦-١٠١

٣- (١٩٢٤-١٩٩٠) Folia Orientalna, Elzbieta Gorska, Professor Andrzej Czapkiewicz (فوليا لورينتالنا)، المجلد الثامن والعشرون، Krakow ١٩٩١، ص ٥-٦

دراسات

الأهمية الاستراتيجية والتجارية لمنطقة الخليج العربي (في العصور الوسطى)

علي بن حسين المفتاح*

أولاً - موقع الخليج العربي وأهميته :

نقصد بالخليج العربي ما اصطلح عليه باسم خليج البصرة منذ قامت هذه المدينة الشهيرة في عهد الخلفاء الراشدين. (١)

«والخليج العربي في عرف ربابنة البحار وقادة السياسة، والحرب هو تلك البحيرة الضيقة شبه المقفلة التي تمتد جنوب (الفاو) أقصى مدن العراق في الجنوب، والتي تختلط بالبحر العربي الممتد جنوبي الجزيرة العربية، والملاصقة للمحيط الهندي» (٢).

وبعبارة أخرى فإن الخليج العربي يمتد من مخرج شط العرب في الشمال الغربي عند خط عرض ٣٠ شمالاً وخط طول ٤٨ شرقاً، وإلى مضيق هرمز في الجنوب الشرقي عند خط عرض ٢٦ شمالاً وخط طول ٥٦ شرقاً. (٣)

والخليج العربي ذراع من الميحط الهندي متداخل في الشرق الأوسط وبسبب هذا التداخل قصر امتداد المعبر البري إلى الدول المحيطة به وإلى البحر المتوسط أو البحر الأسود.

تتمتع هذه المنطقة بموقع استراتيجي ممتاز بين القارات القديمة الثلاث (آسيا، وأوروبا وأفريقيا) ونقطة التقاء التجارات المتباينة مما جعلها ميداناً لصراع طويل الأمد لغرض الاستحواذ عليها والسيطرة على طرق التجارة فيه، وعلى كنوزه الطبيعية ولم يزل هذا الصراع محتدماً حتى الوقت الحاضر. (٤)

ويمتاز هذا الخليج بمياه دافئة وشطآن محمية تصلح أن تكون خير ملجأ للسفن التجارية والحربية، ونقطة التقاء تجارات وقوى مختلفة.

ويمثل الخليج العربي- كما يقول بيربي- قلب الشرق جغرافياً وبابه السحري، وصندوقه الذهبي الرائع الذي يسيل له اللعاب. فعن طريقه وعبر نهر الفرات يمكن الوصول إلى سوريا، والبحر المتوسط وإلى تركيا فالبحر الأسود عن طريق دجلة أو إلى إيران وبحر خزر فروسيا عن طريق المعابر الطبيعية بين الجبال والهضاب الجنوبية و الوسطى أو إلى أفغانستان، وهو يمثل باباً إلى الشرق الأوسط من جبهة الخليج والهند ومحطة أمامية للدفاع عنهما، وإن من يتحكم فيه يتحكم في مرور أى اتصالات قادمة نحوهما سلمية كانت أم غير سلمية- ولهذا ليس بمستغرب أن يصبح محور الصراع الدولي سياسياً و اقتصادياً، وتنازعت عليه منذ القديم القوى الدولية الطامعة

* باحث قطري

دراسات

الأهمية الاستراتيجية والتجارية لمنطقة الخليج العربي (في العصور الوسطى)

علي بن حسين المفتاح*

أولاً - موقع الخليج العربي وأهميته :

نقصد بالخليج العربي ما اصطلح عليه باسم خليج البصرة منذ قامت هذه المدينة الشهيرة في عهد الخلفاء الراشدين. (١)

«والخليج العربي في عرف ربابنة البحار وقادة السياسة، والحرب هو تلك البحيرة الضيقة شبه المقفلة التي تمتد جنوب (الفاو) أقصى مدن العراق في الجنوب، والتي تختلط بالبحر العربي الممتد جنوبي الجزيرة العربية، والملاصقة للمحيط الهندي» (٢).

وبعبارة أخرى فإن الخليج العربي يمتد من مخرج شط العرب في الشمال الغربي عند خط عرض ٣٠ شمالاً وخط طول ٤٨ شرقاً، وإلى مضيق هرمز في الجنوب الشرقي عند خط عرض ٢٦ شمالاً وخط طول ٥٦ شرقاً. (٣)

والخليج العربي ذراع من الميحط الهندي متداخل في الشرق الأوسط وبسبب هذا التداخل قصر امتداد المعبر البري إلى الدول المحيطة به وإلى البحر المتوسط أو البحر الأسود.

تتمتع هذه المنطقة بموقع استراتيجي ممتاز بين القارات القديمة الثلاث (آسيا، وأوروبا وأفريقيا) ونقطة التقاء التجارات المتباينة مما جعلها ميداناً لصراع طويل الأمد لغرض الاستحواذ عليها والسيطرة على طرق التجارة فيه، وعلى كنوزه الطبيعية ولم يزل هذا الصراع محتدماً حتى الوقت الحاضر. (٤)

ويمتاز هذا الخليج بمياه دافئة وشطآن محمية تصلح أن تكون خير ملجأ للسفن التجارية والحربية، ونقطة التقاء تجارات وقوى مختلفة.

ويمثل الخليج العربي- كما يقول بيربي- قلب الشرق جغرافياً وبابه السحري، وصندوقه الذهبي الرائع الذي يسيل له اللعاب. فعن طريقه وعبر نهر الفرات يمكن الوصول إلى سوريا، والبحر المتوسط وإلى تركيا فالبحر الأسود عن طريق دجلة أو إلى إيران وبحر خزر فروسيا عن طريق المعابر الطبيعية بين الجبال والهضاب الجنوبية و الوسطى أو إلى أفغانستان، وهو يمثل باباً إلى الشرق الأوسط من جبهة الخليج والهند ومحطة أمامية للدفاع عنهما، وإن من يتحكم فيه يتحكم في مرور أى اتصالات قادمة نحوهما سلمية كانت أم غير سلمية- ولهذا ليس بمستغرب أن يصبح محور الصراع الدولي سياسياً و اقتصادياً، وتنازعت عليه منذ القديم القوى الدولية الطامعة

* باحث قطري

في السيطرة العالمية.[٥].

وهذه المنطقة جزء حيوي هام من أجزاء شبه الجزيرة العربية، وهي تشمل أكثر من إقليم ولكننا اعتبرناها إقليماً واحداً لا حدود تفرق بين أجزائها وغايتها تجارة الشرق، وهذه المنطقة تمتد على طول ساحل الخليج شمالاً حتى تلتقي بالبصرة، وتمتد جنوباً حتى البحرين وهي بذلك تشمل البحرين، وعمان. فكانت الموانىء الشرقية للبحرين على الخليج، والموانىء العمانية المطلة على نفس الخليج والممتدة إلى المحيط الهندى تكونان مستودعاً عظيماً للمتاجر الشرقية، ومعبراً ميسوراً لتلك المتاجر إلى العالم العربي.[٦]

إن موقع المنطقة بهذا الشكل الذي تحدثنا عنه دفع العرب إلى ركوب البحر منذ فترة مبكرة من التاريخ البشري. فصنعوا القوارب الصغيرة طلباً لصيد الأسماك فيه أو غوصاً على لآلئه، ثم ما لبثوا أن عرفوا استعمال الساري والشراع، وأخذوا يبنون السفن الكبيرة يمخرون بها الخليج العربي، وبحر العرب والبحر الأحمر حتى وصلوا مياه الهند والصين.[٧]

لقد كان وضع الجزيرة العربية ملائماً لحركة الملاحة، ولازدهار التجارة البحرية، فقد كان البحر يحيط بها من جنباتها الثلاث، ويمتد فيها ساحل طويل جداً يبدأ بالسويس على البحر الأبيض المتوسط وينتهي بالبصرة على الخليج العربي.

ثانياً - الخليج العربى بحيرة إسلامية :

لقد أصبحت منطقة شرق شبه الجزيرة العربية بحيرة عربية في العهد الإسلامي فقد استطاع العرب بعد فترة وجيزة من ظهور الدين الإسلامي الحنيف، وانتشاره في الجزيرة العربية، وأطرافها أن يعيدوا احتلال سواحل الخليج العربي وأن ينتزعوا موانئه التى كانت بأيدى الفرس الواحد تلو الآخر ولا سيما في البحرين حيث كان للفرس حامية فيها.[٨]

ولم يلبث العنصر العربي الذي كانت الصحراء العربية الكبرى تقذفه بموجات متلاحقة ما لبث هذا العنصر العربي أن ا ستقر في تلك الشواطىء وان حذق الصيد، والإقلاع في البحر فإذا به يهيمن على شؤون الملاحة في الخليج العربي، ويحتكر وسائل التجارة فيه، وإذا به يمد نشاطه خارج تلك البحيرة الضيقة شبه المغلقة ليبلغ شواطىء أفريقيا الشرقية، والجنوبية معاً و ليصل سواحل الهند والصين، ويؤسس فيها نقاط المتاجرة والاتصال حتى إذا قامت الدعوة الإسلامية، وتوالت الفتوحات العربية أصبح الخليج العربي نقطة انطلاق جديدة للعرب وسبباً رئيسياً من أسباب سيطرتهم حتى على المحيط الهندي، واحتكار الملاحة فيه، وتحويل ذلك المحيط وما اتصل به من بحار وخلجان إلى منطقة عربية خالصة، ففي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبحر والي البحرين (عثمان الثقفي) من عمان في غارة بحرية جريئة على ساحل الهند فبلغ مدينة (تانة) على مقربة من بومبي ثم وجه أخا (المغيرة) في غارة أخرى إلى مدينة (خور الديبل) عند مصب نهر السند، بينما أنفذ أخاه الآخر (الحكم) إلى مدينة (بهروج) على ساحل (المالبار) في الهند[٩].

وحين تولى (العلاء الحضرمى) ولاية

في السيطرة العالمية. (٥).

وهذه المنطقة جزء حيوي هام من أجزاء شبه الجزيرة العربية، وهي تشمل أكثر من إقليم ولكننا اعتبرناها إقليماً واحداً لا حدود تفرق بين أجزائها وغايتها تجارة الشرق، وهذه المنطقة تمتد على طول ساحل الخليج شمالاً حتى تلتقي بالبصرة، وتمتد جنوباً حتى البحرين وهي بذلك تشمل البحرين، وعمان. فكانت الموانىء الشرقية للبحرين على الخليج، والموانىء العُمانية المطلة على نفس الخليج والممتدة إلى المحيط الهندى تكونان مستودعاً عظيماً للمتاجر الشرقية، ومعبراً ميسوراً لتلك المتاجر إلى العالم العربي. (٦)

إن موقع المنطقة بهذا الشكل الذي تحدثنا عنه دفع العرب إلى ركوب البحر منذ فترة مبكرة من التاريخ البشري. فصنعوا القوارب الصغيرة طلباً لصيد الأسماك فيه أو غوصاً على لآلئه، ثم ما لبثوا أن عرفوا استعمال الساري والشراع، وأخذوا يبنون السفن الكبيرة يمخرون بها الخليج العربي، وبحر العرب والبحر الأحمر حتى وصلوا مياه الهند والصين.(٧)

لقد كان وضع الجزيرة العربية ملائماً لحركة الملاحة، ولازدهار التجارة البحرية، فقد كان البحر يحيط بها من جنباتها الثلاث، ويمتد فيها ساحل طويل جداً يبدأ بالسويس على البحر الأبيض المتوسط وينتهي بالبصرة على الخليج العربي.

ثانياً - الخليج العربى بحيرة إسلامية :

لقد أصبحت منطقة شرق شبه الجزيرة العربية بحيرة عربية في العهد الإسلامي فقد استطاع العرب بعد فترة وجيزة من ظهور الدين الإسلامي الحنيف، وانتشاره في الجزيرة العربية، وأطرافها أن يعيدوا احتلال سواحل الخليج العربي وأن ينتزعوا موانئه التى كانت بأيدى الفرس الواحد تلو الآخر ولا سيما في البحرين حيث كان للفرس حامية فيها. (٨)

ولم يلبث العنصر العربي الذي كانت الصحراء العربية الكبرى تقذفه بموجات متلاحقة ما لبث هذا العنصر العربي أن ا ستقر في تلك الشواطىء وان حذق الصيد، والإقلاع في البحر فإذا به يهيمن على شؤون الملاحة في الخليج العربي، ويحتكر وسائل التجارة فيه، وإذا به يمد نشاطه خارج تلك البحيرة الضيقة شبه المغلقة ليبلغ شواطىء أفريقيا الشرقية، والجنوبية معاً و ليصل سواحل الهند والصين، ويؤسس فيها نقاط المتاجرة والاتصال حتى إذا قامت الدعوة الإسلامية، وتوالت الفتوحات العربية أصبح الخليج العربي نقطة انطلاق جديدة للعرب وسبباً رئيسياً من أسباب سيطرتهم حتى على المحيط الهندي، واحتكار الملاحة فيه، وتحويل ذلك المحيط وما اتصل به من بحار وخلجان إلى منطقة عربية خالصة، ففي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبحر والي البحرين (عثمان الثقفي) من عمان في غارة بحرية جريئة على ساحل الهند فبلغ مدينة (تانة) على مقربة من بومبي ثم وجه أخا (المغيرة) في غارة أخرى إلى مدينة (خور الديبل) عند مصب نهر السند، بينما أنفذ أخاه الآخر (الحكم) إلى مدينة (بهروج) على ساحل (المالبار) في الهند (٩).

وحين تولى (العلاء الحضرمى) ولاية

البحرين بعد عثمان الثقفي قام بحملة بحرية واسعة في الخليج العربي مطارداً بقايا الفرس حيث توغل من هناك عميقاً داخل فارس فوصل مدينة (بريسيبوليس) والتي يطلق عليها العرب اسم (اصطخر). (١٠)

هكذا تمت للمسلمين في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان (رضي الله عنهم) وفي فترة لا تزيد عن عشرين سنة السيادة التامة على الخليج العربي، وعلى البحار التي يتصل بها كالبحر الأحمر وبحر العرب، ومداخل المحيط الهندي. ثم توج العرب المسلمون انتصارهم البحرى الرائع في معركة (ذات الصواري) ٣٤هـ/٦٥٥م فتمت لهم بذلك السيادة على البحر الأبيض المتوسط أيضاً.

تطورت أهمية الخليج العربي بتطور الدولة الإسلامية في عهد (الأمويين) ففي عهد خلفاء بني أمية كان العالم الإسلامي متماسكاً في كل أجزائه من أسبانيا في أوروبا حتى السند في الشرق الأقصى. ولذلك بقيت التجارة والملاحة والسيادة في ا لخليج العربي بيد العرب وحدهم. فمن البصرة كانت السفن العربية تبدأ بالإبحار حتى مدينة (كانتون) في الصين، وكان هذا الطريق أطول طريق استعمله الإنسان في النقل والمتاجرة قبل أن تبدأ حركة الاستعمار الأوروبي في القرن السادس عشر الميلادي.

وكان من مظاهر هيمنة العرب على الخليج العربي في العصور الإسلامية الزاهرة أنهم ألموا إلماماً تاماً بكل نقطة من سواحله وجزره وخلجانه ورؤوسه، وأنهم أحكموا تقدير المسافات التي تقطعها سفنهم بين موانئه وموانىء الهند والصين والملايو وحددوا تلك المسافات بالفراسخ والأيام.

كما أنهم عينوا الأوقات الصالحة للملاحة في الخليج خلال السنة، وقد فصل «ابن خرداذبة» هذه الطرق والمسافات، والأوقات في كتابه (المسالك والممالك) فقال «إن المسافة بين البصرة وجزيرة خارك في الخليج العربي خمسون فرسخاً، ومن خارك إلى جزيرة هرمز ستة وأربعون فرسخا ومن هرمز إلى (ثارا) التي تفصل بين فارس والسند مسيرة سبعة أيام، وإن المسافة بين ثارا و الديبل ثمانية أيام. (١١).

وكانت أهم الموانىء التي تمر بها السفن العربية في الهند هي «تيز» في بلوجستان والديبل في السند، وتهانة وكهمبات وسوبارة وصيمور في ولاية كجرات، وكولم ملي في مدراس ورأس كمار (قمار) وماليبار في البنغال وقامرون (كامروب) في ولاية أسام.

كان الخليج في صدر الإسلام مركز تحشد وعبور بالإضافة إلى كونه طريقاً تجارياً فقد احتشدت القوات العربية والإسلامية التي فتحت إيران سواء على الساحل الغربي للخليج أو في البحرين حيث عبر (العلاء الحضرمي) بقواته وفتح جنوب فارس في العهد الإسلامي. (١٢).

وبمجرد استيلاء العرب على سواحل الخليج وإخضاعها لسيطرتهم صارت اقتصاديات عرب الخليج قوة تخدم الدولة الإسلامية الناشئة. ذلك أن اعتناقهم للإسلام فرض عليهم أداء الزكاة التي كانت تشكل قدراً عظيماً بسبب الثروات التي تدفقت عليهم من التجارة وإن كان قسم منها يذهب لمواجهة الصراع مع الفرس والروم. وذكر البلاذري أن أعظم دخل للدولة الإسلامية على

البحرين بعد عثمان الثقفي قام بحملة بحرية واسعة في الخليج العربي مطارداً بقايا الفرس حيث توغل من هناك عميقاً داخل فارس فوصل مدينة (بريسيبوليس) والتي يطلق عليها العرب اسم (اصطخر). [١٠]

هكذا تمت للمسلمين في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان (رضي الله عنهم) وفي فترة لا تزيد عن عشرين سنة السيادة التامة على الخليج العربي، وعلى البحار التي يتصل بها كالبحر الأحمر وبحر العرب، ومداخل المحيط الهندي. ثم توج العرب المسلمون انتصارهم البحرى الرائع في معركة (ذات الصواري) ٣٤هـ/٦٥٥م فتمت لهم بذلك السيادة على البحر الأبيض المتوسط أيضاً.

تطورت أهمية الخليج العربي بتطور الدولة الإسلامية في عهد (الأمويين) ففي عهد خلفاء بني أمية كان العالم الإسلامي متماسكاً في كل أجزائه من أسبانيا في أوروبا حتى السند في الشرق الأقصى. ولذلك بقيت التجارة والملاحة والسيادة في ا لخليج العربي بيد العرب وحدهم. فمن البصرة كانت السفن العربية تبدأ بالإبحار حتى مدينة (كانتون) في الصين، وكان هذا الطريق أطول طريق استعمله الإنسان في النقل والمتاجرة قبل أن تبدأ حركة الاستعمار الأوروبي في القرن السادس عشر الميلادي.

وكان من مظاهر هيمنة العرب على الخليج العربي في العصور الإسلامية الزاهرة أنهم ألموا إلماماً تاماً بكل نقطة من سواحله وجزره وخلجانه ورؤوسه، وأنهم أحكموا تقدير المسافات التي تقطعها سفنهم بين موانئه وموانىء الهند والصين والملايو وحددوا تلك المسافات بالفراسخ والأيام.

كما أنهم عينوا الأوقات الصالحة للملاحة في الخليج خلال السنة، وقد فصل «ابن خرداذبة» هذه الطرق والمسافات، والأوقات في كتابه (المسالك والممالك) فقال «إن المسافة بين البصرة وجزيرة خارك في الخليج العربي خمسون فرسخاً، ومن خارك إلى جزيرة هرمز ستة وأربعون فرسخا ومن هرمز إلى (ثارا) التي تفصل بين فارس والسند مسيرة سبعة أيام، وإن المسافة بين ثارا و الديبل ثمانية أيام. [١١].

وكانت أهم الموانىء التي تمر بها السفن العربية في الهند هي «تيز» في بلوجستان والديبل في السند، وتهانة وكهمبات وسوبارة وصيمور في ولاية كجرات، وكولم ملي في مدراس ورأس كمار (قمار) وماليبار في البنغال وقامرون (كاماروب) في ولاية أسام.

كان الخليج في صدر الإسلام مركز تحشد وعبور بالإضافة إلى كونه طريقاً تجارياً فقد احتشدت القوات العربية والإسلامية التي فتحت إيران سواء على الساحل الغربي للخليج أو في البحرين حيث عبر (العلاء الحضرمي) بقواته وفتح جنوب فارس في العهد الإسلامي. [١٢].

وبمجرد استيلاء العرب على سواحل الخليج وإخضاعها لسيطرتهم صارت اقتصاديات عرب الخليج قوة تخدم الدولة الإسلامية الناشئة. ذلك أن اعتناقهم للإسلام فرض عليهم أداء الزكاة التي كانت تشكل قدراً عظيماً بسبب الثروات التي تدفقت عليهم من التجارة وإن كان قسم منها يذهب لمواجهة الصراع مع الفرس والروم. وذكر البلاذري أن أعظم دخل للدولة الإسلامية على

عهد الرسول الكريم جاء من البحرين فقال «بعث العلاء بن الحضرمي» إلى رسول الله «» مالاً من البحرين يكون ثمانين ألفاً، ما أتاه أكثر من قبله ولا بعده. (١٣)

وقد تحول الخليج العربي إلى مركز عالمي للملاحة في العصر الأموي وازدهرت التجارة فيه بالرغم من بعض الحِركات الداخلية التي حدثت في منطقة الخليج وعمان، وهى حركة (الخوارج) التي تزعمها (نجدة بن عامر الحنفي) الذي قتله أتباعه سنة ٧٢ هـ ٦٦٩م، وجاء من بعده (أبوفديك عبدالله بن ثور) ثم (سعود العبدي) اللذان ظهرت بعدهما حركة (الزنج) في زمن العباسيين وتزعمها رجل فارسي ادعي أنه من أبناء (علي بن زين العابدين)، وكان طابع ثورته في الظاهر الدعوة لتحرير الزنوج الأرقاء.(١٤)

وقد حافظت الفتوح الإسلامية التي حدثت على عهد كل من الخلفاء الراشدين والأمويين على الأوضاع الاقتصادية والإدارية في البلاد التي امتدت إليها، حتى لا تضطرب أمورها ثم تنظيمها بعد ذلك بما يكفل لتلك البلاد النماء والازدهار في ظل العهد الإسلامي الجديد.

وطبق المسلمون هذه القاعدة في الخليج العربي، حيث كان للفرس تراث سابق في شؤون التجارة، والملاحة هناك، فترك المسلمون للفرس متابعة رحلاتهم الضئيلة إلى الهند والصين، حيث كانت بلاد الخليج تعاني من مساوىء الصراع بين الفرس والروم وتدهور أحوالها التجارية الخاصة. (١٥)

كانت الدولة الأموية قد هيأت بفتحها لبلاد السند الأسباب أمام الخليج العربي لاستعادة روابطه مع الهند والصين- مصادر التجارة الشرقية- وبدأت أعداد السفن الفارسية والعربية تزداد رحلاتها نحو الهند والصين. وأشار إلى ذلك نفر من أهالي الصين الذين تركوا لنا معلومات ضئيلة ولكنها تشير إلى طلائع الانتعاش في ملاحة وتجارة الخليج في العصر الأموي فذكر أحد الحجاج الصينيين أنه ركب في بلده (كانتون) سفينة فارسية أبحرت إلى سومطرة. (١٦)

ساعدت سياسة المسلمين على استقرار الأوضاع في منطقة الخليج العربي شيئاً فشيئاً وانتقاله تدريجياً إلى ميدان الازدهار الاقتصادي، وكان الخليفة عمر بن الخطاب حريصاً كل الحرص على مراقبة العمال المسلمين في بلاد الخليج، وتقوية أي بادرة قد تبدو منهم نحو استغلال نفوذهم من أجل الإثراء في هذه الجهات التجارية، ذلك لأن بلاد الخليج العربي كانت في صدر الإسلام برغم ما عانته من ركود تجاري، منطقة إغراء للعمال لزيادة ثرواتهم عن طريق التجارة والتحايل في جميع الأحوال من التجارة تحت ستار الضرائب. (١٧).

وتجلت طلائع هذه الظاهرة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب نفسه، حيث بعث إليه أهالي إقليم الأهواز بالساحل الشمالي للخليج شكوى من شطط العمال فبعث بها أحد الشعراء قائلاً:

فلا تدعن أهل الرساتيق والقرى
يسيغون مال الله في الأدم الوفر
نؤوب إذا آبوا ونغزو إذا غزوا
فأنى لهم وفر ولسنا أولي وفر
إذا التاجر الداري جاء بغارة

عهد الرسول الكريم جاء من البحرين فقال «بعث العلاء بن الحضرمي» إلى رسول الله «» مالاً من البحرين يكون ثمانين ألفاً، ما أتاه أكثر من قبله ولا بعده. (١٣)

وقد تحول الخليج العربي إلى مركز عالمي للملاحة في العصر الأموي وازدهرت التجارة فيه بالرغم من بعض الحِركات الداخلية التي حدثت في منطقة الخليج وعمان، وهى حركة (الخوارج) التي تزعمها (نجدة بن عامر الحنفي) الذي قتله أتباعه سنة ٧٢ هـ ٦٦٩م، وجاء من بعده (أبوفديك عبدالله بن ثور) ثم (سعود العبدي) اللذان ظهرت بعدهما حركة (الزنج) في زمن العباسيين وتزعمها رجل فارسي ادعي أنه من أبناء (علي بن زين العابدين)، وكان طابع ثورته في الظاهر الدعوة لتحرير الزنوج الأرقاء. (١٤)

وقد حافظت الفتوح الإسلامية التي حدثت على عهد كل من الخلفاء الراشدين والأمويين على الأوضاع الاقتصادية والإدارية في البلاد التي امتدت إليها، حتى لا تضطرب أمورها ثم تنظيمها بعد ذلك بما يكفل لتلك البلاد النماء والازدهار في ظل العهد الإسلامي الجديد.

وطبق المسلمون هذه القاعدة في الخليج العربي، حيث كان للفرس تراث سابق في شؤون التجارة، والملاحة هناك، فترك المسلمون للفرس متابعة رحلاتهم الضئيلة إلى الهند والصين، حيث كانت بلاد الخليج تعاني من مساوىء الصراع بين الفرس والروم وتدهور أحوالها التجارية الخاصة. (١٥)

كانت الدولة الأموية قد هيأت بفتحها لبلاد السند الأسباب أمام الخليج العربي لاستعادة روابطه مع الهند والصين- مصادر التجارة الشرقية- وبدأت أعداد السفن الفارسية والعربية تزداد رحلاتها نحو الهند والصين. وأشار إلى ذلك نفر من أهالي الصين الذين تركوا لنا معلومات ضئيلة ولكنها تشير إلى طلائع الانتعاش في ملاحة وتجارة الخليج في العصر الأموي فذكر أحد الحجاج الصينيين أنه ركب في بلده (كانتون) سفينة فارسية أبحرت إلى سومطرة. (١٦)

ساعدت سياسة المسلمين على استقرار الأوضاع في منطقة الخليج العربي شيئاً فشيئاً وانتقاله تدريجياً إلى ميدان الازدهار الاقتصادي، وكان الخليفة عمر بن الخطاب حريصاً كل الحرص على مراقبة العمال المسلمين في بلاد الخليج، وتقوية أي بادرة قد تبدو منهم نحو استغلال نفوذهم من أجل الإثراء في هذه الجهات التجارية، ذلك لأن بلاد الخليج العربي كانت في صدر الإسلام برغم ما عانته من ركود تجاري، منطقة إغراء للعمال لزيادة ثرواتهم عن طريق التجارة والتحايل في جميع الأحوال من التجارة تحت ستار الضرائب. (١٧).

وتجلت طلائع هذه الظاهرة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب نفسه، حيث بعث إليه أهالي إقليم الأهواز بالساحل الشمالي للخليج شكوى من شطط العمال فبعث بها أحد الشعراء قائلاً:

فلا تدعن أهل الرساتيق والقرى
يسيغون مال الله في الأدم الوفر
نؤوب إذا آبوا ونغزو إذا غزوا
فأنى لهم وفر ولسنا أولي وفر
إذا التاجر الداري جاء بغارة

من المسك راحت مغارقهم تجري[١٨]

كشفت هذه الشكوى، في نفس الوقت عن استمرار الروابط التجارية بين أرجاء الخليج، وبخاصة عن نشاط تجار دارين بالبحرين [١٩]، وكانت هذه الجهات من الساحل العربي للخليج تنعم بدورها بثراء عظيم، برغم أنها لم تكن قد تخلصت نهائياً من مساوىء الصراع القديم بين الفرس والروم، حول تجارة الخليج العربي والتحكم في منافذه التجارية.

كما كشفت لنا بعض المقادير التي استطاع بعض الولاة المسلمين من جمعها أمثال (أبي هريرة) في البحرين، والتي أدهشت الخليفة عمر بن الخطاب نفسه حين عرضها عليه وإليه على البحرين آنذاك (أبوهريرة) كشفت لنا هذه المبالغ من المال الذي دخل خزانة الدولة الإسلامية الفتية عن ثراء أهل البحرين، والذي اعتمد أساساً على التجارة، ونشاط أهل البلاد في التجارة الخارجية، هذا الأمر مكّن الخلافة من ضبط الأحوال في منطقة الخليج ومراقبة العمال بها، مهما كانت مراكزهم وأقدارهم. ودأب الخليفة عمر بن الخطاب على مقاسمة العمال أموالهم بعد انتهاء مدة ولايتهم وبخاصة في مناطق التجارة مثل إقليم البحرين.

روى أبو هريرة «استعملني عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) على البحرين، فاجتمعت لي اثنا عشر ألفاً، فلما قدمت على عمر قال لي- يا عدو الله وعدو المسلمين (أو قال وعدو كتابه) أسرقت مال الله؟ قلت: لست بعدو الله ولا المسلمين (أو قال لكتابه) ولكني عدو من عاداهما. ولكن خيلا تناجت وسهاماً اجتمعت. قال: فأخذ مني اثنا عشر ألفاً. [٢٠]

بهذه الصورة استطاع العرب في فترة تاريخية متقدمة من بسط نفوذهم على هذه المنطقة الحيوية بالنسبة لهم، سواء تعلق الأمر بموقعها الاستراتيجى بالنسبة لدولتهم التي شادوها حديثاً والتي تطلب الأمر على إثرها تصفية جميع القواعد التي كانت تهدد وجود هذه الدولة واستمرارها أم تعلق الأمر بحاجة هذه الدولة الفتية لما كانت تزخر به منطقة الخليج من موارد اقتصادية هائلة تمثلت في زراعتها الكثيفة وأراضيها الخصبة، إضافة إلى الدور التجاري الذي كان يلعبه أهل هذه المنطقة في التجارة الدولية، آنذاك ومهارتهم الفائقة في إدارة وتوجيه مثل هذا النشاط البشري الهام.

لذا فمن الطبيعي أن يحرص العرب على فرض سيطرتهم على هذه المنطقة وأن يبذلوا فيما بعد جهوداً مضنية للمحافظة على اقتصاديات هذه المنطقة وتنظيمها بالشكل الذي يخدم استراتيجية الدولة الإسلامية في تلك المرحلة. وهكذا فبمجرد (ظهور الإسلام في القرن السادس الميلادي أصبح الساحل الشرقي للجزيرة العربية الذي عرف لاحقاً باسم «البحرين» خاضعاً للحكم الإسلامي واستمر كذلك في عهد الخلافة ثم في مختلف العصور الإسلامية حتى أواخر العصر العباسي في نهاية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي).

ثالثاً - الأهمية الاستراتيجية والتجارية للخليج العربى:

يتمتع الخليج بأهمية كطريق تجاري ومركز اقتصادي منذ القديم فتؤكد

من المسك راحت مغارقهم تجري[١٨]

كشفت هذه الشكوى، في نفس الوقت عن استمرار الروابط التجارية بين أرجاء الخليج، وبخاصة عن نشاط تجار دارين بالبحرين [١٩]، وكانت هذه الجهات من الساحل العربي للخليج تنعم بدورها بثراء عظيم، برغم أنها لم تكن قد تخلصت نهائياً من مساوىء الصراع القديم بين الفرس والروم، حول تجارة الخليج العربي والتحكم في منافذه التجارية.

كما كشفت لنا بعض المقادير التي استطاع بعض الولاة المسلمين من جمعها أمثال (أبي هريرة) في البحرين، والتي أدهشت الخليفة عمر بن الخطاب نفسه حين عرضها عليه وإليه على البحرين آنذاك (أبوهريرة) كشفت لنا هذه المبالغ من المال الذي دخل خزانة الدولة الإسلامية الفتية عن ثراء أهل البحرين، والذي اعتمد أساساً على التجارة، ونشاط أهل البلاد في التجارة الخارجية، هذا الأمر مكّن الخلافة من ضبط الأحوال في منطقة الخليج ومراقبة العمال بها، مهما كانت مراكزهم وأقدارهم. ودأب الخليفة عمر بن الخطاب على مقاسمة العمال أموالهم بعد انتهاء مدة ولايتهم وبخاصة في مناطق التجارة مثل إقليم البحرين.

روى أبو هريرة «استعملني عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) على البحرين، فاجتمعت لي اثنا عشر ألفاً، فلما قدمت على عمر قال لي- يا عدو الله وعدو المسلمين (أو قال وعدو كتابه) أسرقت مال الله؟ قلت: لست بعدو الله ولا المسلمين (أو قال لكتابه) ولكني عدو من عاداهما. ولكن خيلا تناجت وسهاماً اجتمعت. قال: فأخذ مني اثنا عشر ألفاً. [٢٠]

بهذه الصورة استطاع العرب في فترة تاريخية متقدمة من بسط نفوذهم على هذه المنطقة الحيوية بالنسبة لهم، سواء تعلق الأمر بموقعها الاستراتيجى بالنسبة لدولتهم التي شادوها حديثاً والتي تطلب الأمر على إثرها تصفية جميع القواعد التي كانت تهدد وجود هذه الدولة واستمرارها أم تعلق الأمر بحاجة هذه الدولة الفتية لما كانت تزخر به منطقة الخليج من موارد اقتصادية هائلة تمثلت في زراعتها الكثيفة وأراضيها الخصبة، إضافة إلى الدور التجاري الذي كان يلعبه أهل هذه المنطقة في التجارة الدولية، آنذاك ومهارتهم الفائقة في إدارة وتوجيه مثل هذا النشاط البشري الهام.

لذا فمن الطبيعي أن يحرص العرب على فرض سيطرتهم على هذه المنطقة وأن يبذلوا فيما بعد جهوداً مضنية للمحافظة على اقتصاديات هذه المنطقة وتنظيمها بالشكل الذي يخدم استراتيجية الدولة الإسلامية في تلك المرحلة. وهكذا فبمجرد (ظهور الإسلام في القرن السادس الميلادي أصبح الساحل الشرقي للجزيرة العربية الذي عرف لاحقاً باسم «البحرين» خاضعاً للحكم الإسلامي واستمر كذلك في عهد الخلافة ثم في مختلف العصور الإسلامية حتى أواخر العصر العباسي في نهاية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي).

ثالثاً - الأهمية الاستراتيجية والتجارية للخليج العربى:

يتمتع الخليج بأهمية كطريق تجاري ومركز اقتصادي منذ القديم فتؤكد

(AGATHARCHIDES) بأن سكان (GARA) مدينة بابلية كانوا من أغنى سكان العالم وهم مدينون بهذه الثروة لوقوعهم على طريق التجارة لشبه جزيرة العرب والهند. وكانوا ينقلون البضائع التجارية غرباً بواسطة القوافل إلى بابل بالسفن. [٢١] مما يؤكد هذه الأهمية نجد أن نياركوس يلقي تقريراً أمام الإسكندر عن أهمية التجارة بين البحر المتوسط والهند عن طريق الفرات والخليج العربي [٢٢] حيث شاهد بنفسه النشاط التجاري في هذه المنطقة.

ولقد ترك عدد من الرحالة الأجانب أوصافاً شيقة عن الحياة في الخليج العربي في العصور الأخيرة التي تسبق التاريخ الميلادي. وكانت التجارة البحرية آنذاك تجارة التوابل والأطايب والبخور مزدهرة بين بابل وشبه جزيرة العرب والهند [٢٣] ويذكر «قوزمة الهندي» بأن سيلان كانت نقطة التقاء التجار العرب مع غيرهم من التجار. [٢٤]

والخليج في الحقيقة له مكان بارز في تاريخ البشرية المدون أقدم من أي بحر داخلي آخر فقد أعطاه موقعه المركزى على أحد الطرق الرئيسية بين الشرق والغرب منذ فجر المدنية أهمية خاصة حيث كان مسرحاً لأحداث عظيمة حددت اتجاه تطور الجنس البشري في الوقت الذي يرجح أن البحر المتوسط آنذاك لم تمخر عبابه سفينة [٢٥].

ولقد استخدم المسلمون الخليج العربي لأغراض شتى غير الأغراض التجارية المألوفة عنه:-

١- فقد كان الخليج أداة الاتصال المهمة بين الامبراطورية الإسلامية في غرب آسيا، والعراق وبلاد الشام وفلسطين، وبين شبه الجزيرة العربية، ومصر والشمال الأفريقي.

٢- لم يعد الخليج العربي لينافس البحر الأحمر في الوصول إلى روما والبندقية والقسطنطينية، كما كان شأنه ذلك قبلاً، وإنما غدا مكملاً للبحر الأحمر في الاتصال بالبحر الأبيض المتوسط وبلوغ شواطىء هذا البحر الأخير الآسيوية منها- والأوروبية.

٣- أصبح الخليج العربي مفتاح الفتوحات والاتصالات العربية الإسلامية مع الهند والصين وشرقي أفريقيا بشكل واسع لم يشهده تاريخه السابق خلال العصور البائدة. [٢٦]

لقد أسهمت العوامل الجغرافية في إعطاء الخليج أهمية خاصة كما دعمت مكانته باعتباره أحد المهاد الأولى للتجارة والملاحة في العالم.

وتتلخص تلك العوامل الجغرافية فيما يلي:-

١- ينعم الخليج العربي بموقع ممتاز في قلب العالم القديم، فهو بحر داخلي يقصر امتداده من المعبر البري المشهور باسم الهلال الخصيب الواقع بين نطاق جبال زاجروس- طوروس شرقاً وهضبة بلاد العرب غرباً، وخلق هذا الالتصاق بين الخليج العربي والهلال الخصيب جسراً رئيسياً ربط بين قارتى آسيا وأفريقيا من ناحية،وبين القارة الأوروبية من ناحية أخرى. ومنفذاً طبيعياً أتاح لحركة الانتقال بين تلك القارات الثلاث تجنب الحواجز الجبلية و الصحراوية [٢٧] وغدت هذه الظاهرة الجغرافية هي المحور الذي دار عليه تاريخ الخليج العربي، وما امتلأت به صفحات هذا التاريخ من أحداث

(AGATHARCHIDES) بأن سكان (GARA) مدينة بابلية كانوا من أغنى سكان العالم وهم مدينون بهذه الثروة لوقوعهم على طريق التجارة لشبه جزيرة العرب والهند. وكانوا ينقلون البضائع التجارية غرباً بواسطة القوافل إلى بابل بالسفن. (٢١) مما يؤكد هذه الأهمية نجد أن نياركوس يلقي تقريراً أمام الإسكندر عن أهمية التجارة بين البحر المتوسط والهند عن طريق الفرات والخليج العربي (٢٢) حيث شاهد بنفسه النشاط التجاري في هذه المنطقة.

ولقد ترك عدد من الرحالة الأجانب أوصافاً شيقة عن الحياة في الخليج العربي في العصور الأخيرة التي تسبق التاريخ الميلادي. وكانت التجارة البحرية آنذاك تجارة التوابل والأطايب والبخور مزدهرة بين بابل وشبه جزيرة العرب والهند (٢٣) ويذكر «قوزمة الهندي» بأن سيلان كانت نقطة التقاء التجار العرب مع غيرهم من التجار. (٢٤)

والخليج في الحقيقة له مكان بارز في تاريخ البشرية المدون أقدم من أي بحر داخلي آخر فقد أعطاه موقعه المركزى على أحد الطرق الرئيسية بين الشرق والغرب منذ فجر المدنية أهمية خاصة حيث كان مسرحاً لأحداث عظيمة حددت اتجاه تطور الجنس البشري في الوقت الذي يرجح أن البحر المتوسط آنذاك لم تمخر عبابه سفينة (٢٥).

ولقد استخدم المسلمون الخليج العربي لأغراض شتى غير الأغراض التجارية المألوفة عنه:-

١- فقد كان الخليج أداة الاتصال المهمة بين الامبراطورية الإسلامية في غرب آسيا، والعراق وبلاد الشام وفلسطين، وبين شبه الجزيرة العربية، ومصر والشمال الأفريقي.

٢- لم يعد الخليج العربي لينافس البحر الأحمر في الوصول إلى روما والبندقية والقسطنطينية، كما كان شأنه ذلك قبلاً، وإنما غدا مكملاً للبحر الأحمر في الاتصال بالبحر الأبيض المتوسط وبلوغ شواطىء هذا البحر الأخير الآسيوية منها- والأوروبية.

٣- أصبح الخليج العربي مفتاح الفتوحات والاتصالات العربية الإسلامية مع الهند والصين وشرقي أفريقيا بشكل واسع لم يشهده تاريخه السابق خلال العصور البائدة. (٢٦)

لقد أسهمت العوامل الجغرافية في إعطاء الخليج أهمية خاصة كما دعمت مكانته باعتباره أحد المهاد الأولى للتجارة والملاحة في العالم.

وتتلخص تلك العوامل الجغرافية فيما يلي:-

١- ينعم الخليج العربي بموقع ممتاز في قلب العالم القديم، فهو بحر داخلي يقصر امتداده من المعبر البري المشهور باسم الهلال الخصيب الواقع بين نطاق جبال زاجروس- طوروس شرقاً وهضبة بلاد العرب غرباً، وخلق هذا الالتصاق بين الخليج العربي والهلال الخصيب جسراً رئيسياً ربط بين قارتى آسيا وأفريقيا من ناحية،وبين القارة الأوروبية من ناحية أخرى. ومنفذاً طبيعياً أتاح لحركة الانتقال بين تلك القارات الثلاث تجنب الحواجز الجبلية و الصحراوية (٢٧) وغدت هذه الظاهرة الجغرافية هي المحور الذي دار عليه تاريخ الخليج العربي، وما امتلأت به صفحات هذا التاريخ من أحداث

جسام في ميداني السياسة و الاقتصاد على حد سواء.

٢- يكون الخليج العربي بفضل هذا الامتداد الجغرافي في قلب العالم القديم معبراً يصل بين إقليمين طبيعيين، منتجات كل منهما تعتبر المواد الأساسية الضرورية لبناء الحضارة الإنسانية وتحقيق الرفاهية البشرية.

ويعرف الإقليم الأول، الذي يقع جنوب الخليج العربي باسم الإقليم الموسمي ويشمل بلاد الهند والصين وبلاد شرق أفريقيا، وهي البلاد التي يجمعها في وحدة اقتصادية متكاملة عالم المحيط الهندي وجنوب شرقي آسيا. وتمثل منتجات هذه البلاد السلع التي اشتهرت في العصور القديمة والوسطى باسم «التجارة الشرقية» والتي كانت ركيزة الاقتصاد العالمي، بينما اشتهر «الإقليم الثاني» الواقع شمال الخليج العربي باسم «إقليم البحر المتوسط» والذي يضم البلاد الواقعة شرق هذا البحر الهام وغربه كذلك. (٢٨)

جعلت الخصائص الطبيعية والمناخية في بلاد هذا الإقليم منه المستهلك الرئيسى لمنتجات الإقليم الاستوائي، وصار التبادل بين سلع هذين الإقليمين ضرورة تحتمها الأوضاع الاقتصادية لكل منهما، وواقع تفرضه الحاجات البشرية للسكان فيهما.

٣- يشمل الخليج العربي- بحكم تكوينه الجغرافي- الطريق المباشر للتجارة الشرقية من حيث مصادرها وأسواقها الطبيعية، ومن ثم اشتهر في التاريخ باسم «باب الشرق السحري» (٢٩) الذي تطلعت إليه أفئدة التجار وصانعي الإمبراطوريات في كل من عالمي المحيط الهندي (الإقليم الاستوائي) وعالم البحر المتوسط، الذي يمثل الجانب الثاني من جوانب الاقتصاد العالمي. فالخليج العربي يمثل الذراع الأوسط من مجموعة أذرع المحيط الهندي، والتي تسيطر على مداخل التجارة الشرقية وخارجها وينعم بأكبر قدر في نقل منتجاتها وسلعها أيضاً. (٣٠)

يعتبر الخليج العربي المدرسة التي هيأت لأبنائه أن يكونوا أساتذة الملاحة وأصحاب الخبرة العالمية بعلوم البحار وأسرارها. ذلك أن العوامل الجغرافية التي جعلت من الخليج العربي أحد الطرق الرئيسية للتجارة العالمية هي نفسها العوامل التي استمد منها هذا الخليج مقوماته، التي جعلته أحد المهاد الأولى للملاحة في العالم.

وتتلخص تلك المقومات البحرية الأساسية للخليج فيما يلي:-

١- بيئة الخليج العربي شجعت على ركوب مياهه، واكتساب الخبرة الملاحية وأساليبها في طمأنينة وثقة. فالخليج ضيق نسبياً، كما أن المياه فيه ليست عميقة، وهي أمور هامة بالنسبة لطبيعة الملاحة في العصور القديمة والوسطى.

إذاً يبلغ طول الخليج في خط مستقيم من شط العرب بالبصرة إلى ساحل عمان نحو ثمانمائة كيلومتراً، أما عرضه فيتراوح بين مائتين وثمان وعشرين كيلومتراً في أقصى اتساعه شرق جزيرة قطر وبين ست وأربعين كيلومتراً في مضيق هرمز. (٣١)

ثم أن تكوين الخليج جعل قاعدته تأخذ في العمق تدريجياً وببطء شديد جداً. وهذه الأعماق في الجانب العربي (شبه جزيرة العرب) قليلة، وتتدرج في العمق من الساحل في الغرب نحو

جسام في ميداني السياسة و الاقتصاد على حد سواء.

٢- يكون الخليج العربي بفضل هذا الامتداد الجغرافي في قلب العالم القديم معبراً يصل بين إقليمين طبيعيين، منتجات كل منهما تعتبر المواد الأساسية الضرورية لبناء الحضارة الإنسانية وتحقيق الرفاهية البشرية.

ويعرف الإقليم الأول، الذي يقع جنوب الخليج العربي باسم الإقليم الموسمي ويشمل بلاد الهند والصين وبلاد شرق أفريقيا، وهي البلاد التي يجمعها في وحدة اقتصادية متكاملة عالم المحيط الهندي وجنوب شرقي آسيا. وتمثل منتجات هذه البلاد السلع التي اشتهرت في العصور القديمة والوسطى باسم «التجارة الشرقية» والتي كانت ركيزة الاقتصاد العالمي، بينما اشتهر «الإقليم الثاني» الواقع شمال الخليج العربي باسم «إقليم البحر المتوسط» والذي يضم البلاد الواقعة شرق هذا البحر الهام وغربه كذلك. (٢٨)

جعلت الخصائص الطبيعية والمناخية في بلاد هذا الإقليم منه المستهلك الرئيسى لمنتجات الإقليم الاستوائي، وصار التبادل بين سلع هذين الإقليمين ضرورة تحتمها الأوضاع الاقتصادية لكل منهما، وواقع تفرضه الحاجات البشرية للسكان فيهما.

٣- يشمل الخليج العربي- بحكم تكوينه الجغرافي- الطريق المباشر للتجارة الشرقية من حيث مصادرها وأسواقها الطبيعية، ومن ثم اشتهر في التاريخ باسم «باب الشرق السحري» (٢٩) الذي تطلعت إليه أفئدة التجار وصانعي الإمبراطوريات في كل من عالمي المحيط الهندي (الإقليم الاستوائي) وعالم البحر المتوسط، الذي يمثل الجانب الثاني من جوانب الاقتصاد العالمي. فالخليج العربي يمثل الذراع الأوسط من مجموعة أذرع المحيط الهندي، والتي تسيطر على مداخل التجارة الشرقية وخارجها وينعم بأكبر قدر في نقل منتجاتها وسلعها أيضاً. (٣٠)

يعتبر الخليج العربي المدرسة التي هيأت لأبنائه أن يكونوا أساتذة الملاحة وأصحاب الخبرة العالمية بعلوم البحار وأسرارها. ذلك أن العوامل الجغرافية التي جعلت من الخليج العربي أحد الطرق الرئيسية للتجارة العالمية هي نفسها العوامل التي استمد منها هذا الخليج مقوماته، التي جعلته أحد المهاد الأولى للملاحة في العالم.

وتتلخص تلك المقومات البحرية الأساسية للخليج فيما يلي:-

١- بيئة الخليج العربي شجعت على ركوب مياهه، واكتساب الخبرة الملاحية وأساليبها في طمأنينة وثقة. فالخليج ضيق نسبياً، كما أن المياه فيه ليست عميقة، وهي أمور هامة بالنسبة لطبيعة الملاحة في العصور القديمة والوسطى.

إذاً يبلغ طول الخليج في خط مستقيم من شط العرب بالبصرة إلى ساحل عمان نحو ثمانمائة كيلومتراً، أما عرضه فيتراوح بين مائتين وثمان وعشرين كيلومتراً في أقصى اتساعه شرق جزيرة قطر وبين ست وأربعين كيلومتراً في مضيق هرمز. (٣١)

ثم أن تكوين الخليج جعل قاعدته تأخذ في العمق تدريجياً وببطء شديد جداً. وهذه الأعماق في الجانب العربي (شبه جزيرة العرب) قليلة، وتتدرج في العمق من الساحل في الغرب نحو

الداخل في الشرق. أما على الجانب الآخر الملاصق لبلاد فارس فأعماقه كبيرة نسبياً وفجائية وساعد هذاالتدرج في قاع الخليج على أن يكون سكان سواحله العربية هم الملاحين الأوائل على مياهه منذ أزمان سحيقة في القدم، حيث استطاعوا أن يتوغلوا من شاطئهم إلى داخل المياه في أمن وطمأنينة، واكتساب الخبرات تدريجياً، وشجعت هذه الظاهرة الخاصة بالتدرج في عمق القاع على اتجاه الملاحين في الخليج صوب الجنوب، حيث بوغاز هرمز. إذ وجدوا هذا البوغاز خالياً من العتب أو البروز الذي يعترض الأعماق هناك، واستطاعوا الإفادة بالتالي من انسياب التيارات البحرية من الخليج العربي إلى خليج عمان وبالعكس في الاندفاع نحو المحيط الهندي بعد أن اكتسبوا الثقة والجرأة على الملاحة في مهدهم الأصلي.

٢- وساعد على صلاحية بيئة الخليج للملاحة ارتباط قلة العمل فيه ووجود عدد كبير من الجزر الصغيرة، التي ازدحمت بها مياه شواطئه وبخاصة عند رأس الخليج وعلى الانبعاج الساحلي الممتد جنوباً داخل شبه الجزيرة العربية، واشتهر من تلك الجزر مجموعة جزر البحرين، التي صار اسمها علماً في العصر العباسي على الساحل العربي للخليج من البصرة إلى شبه جزيرة مسندم [٣٢] (مضيق هرمز).

وترتب على وجود هذه الجزر هدوء مياه الخليج في كثير من أرجائه وبخاصة قرب السواحل وهي أمور تساعد الملاحين، وبخاصة في العصور الوسطى والقديمة على التنقل بين جزيرة وأخرى واكتشاف المياه والتدرج في كسب الجرأة على ركوبها ثم أن معظم هذه الجزر كان قاحلاً أو شبه قاحل ولكنها كانت مرافىء صالحة للسفن ومراكز لاستخراج ثروات الخليج المائية وبخاصة اللؤلؤ [٣٣] الذي كان يمثل بترول العصور الوسطى للخليج العربي.

٣- ارتبط مستوى الماء في الخليج العربي وصلاحيته للملاحة بحركات المد والجزر التي كانت من أهم المظاهر الجغرافية في الخليج خاصة والمحيط الهندي عامة. إذ اتسمت شواطىء الخليج فضلاً عن اقتراب الجزر الصغيرة منها بعدد هائل من الأخوار (أي الخلجان) التي تتوغل في الشواطىء وتتيح لأهلها الاتصال بالمياه وجاءت ظاهرة المد والجزر عنصراً حيوياً في تشجيع الملاحة على امتداد تلك الأخوار وتنظيم الانتقال فيما بينها بحراً، فكانت حركات المد والجزر تساعد على تطهير تلك الخلجان مما يتراكم فيها من الرواسب وإعدادها لاستقبال السفن وكانت تلك السفن بدورها تنتهز فرصة المد والجزر وارتفاع مستوى الماء قرب الشاطىء وفي الخلجان لتدخل الموانىء ثم تنتظر الجزر للخروج في الوقت المناسب إلى عرض البحر. [٣٤]

وبلغت ظاهرة المد والجزر أوجها في أقصى شمال الخليج وعند مخرجه في بوغاز هرمز وهو الأمر الذي ساعد على انتظام الملاحة الداخلية و الخارجية في هذا المهد الأول للملاحة وربطه بالمحيط الهندي وعالمه ومتاجره. واسترعت هذه الظاهرة أبناء الخليج وعرفوا أمثلْ السبل للإفادة منها، كما تحدث عنها ووصفها بإسهاب كبار ملاحي الخليج وغيرهم من الجغرافيين

الداخل في الشرق. أما على الجانب الآخر الملاصق لبلاد فارس فأعماقه كبيرة نسبياً وفجائية وساعد هذاالتدرج في قاع الخليج على أن يكون سكان سواحله العربية هم الملاحين الأوائل على مياهه منذ أزمان سحيقة في القدم، حيث استطاعوا أن يتوغلوا من شاطئهم إلى داخل المياه في أمن وطمأنينة، واكتساب الخبرات تدريجياً، وشجعت هذه الظاهرة الخاصة بالتدرج في عمق القاع على اتجاه الملاحين في الخليج صوب الجنوب، حيث بوغاز هرمز. إذ وجدوا هذا البوغاز خالياً من العتب أو البروز الذي يعترض الأعماق هناك، واستطاعوا الإفادة بالتالي من انسياب التيارات البحرية من الخليج العربي إلى خليج عمان وبالعكس في الاندفاع نحو المحيط الهندي بعد أن اكتسبوا الثقة والجرأة على الملاحة في مهدهم الأصلي.

٢- وساعد على صلاحية بيئة الخليج للملاحة ارتباط قلة العمل فيه ووجود عدد كبير من الجزر الصغيرة، التي ازدحمت بها مياه شواطئه وبخاصة عند رأس الخليج وعلى الانبعاج الساحلي الممتد جنوباً داخل شبه الجزيرة العربية، واشتهر من تلك الجزر مجموعة جزر البحرين، التي صار اسمها علماً في العصر العباسي على الساحل العربي للخليج من البصرة إلى شبه جزيرة مسندم [٣٢] (مضيق هرمز).

وترتب على وجود هذه الجزر هدوء مياه الخليج في كثير من أرجائه وبخاصة قرب السواحل وهي أمور تساعد الملاحين، وبخاصة في العصور الوسطى والقديمة على التنقل بين جزيرة وأخرى واكتشاف المياه والتدرج في كسب الجرأة على ركوبها ثم أن معظم هذه الجزر كان قاحلاً أو شبه قاحل ولكنها كانت مرافىء صالحة للسفن ومراكز لاستخراج ثروات الخليج المائية وبخاصة اللؤلؤ [٣٣] الذي كان يمثل بترول العصور الوسطى للخليج العربي.

٣- ارتبط مستوى الماء في الخليج العربي وصلاحيته للملاحة بحركات المد والجزر التي كانت من أهم المظاهر الجغرافية في الخليج خاصة والمحيط الهندي عامة. إذ اتسمت شواطىء الخليج فضلاً عن اقتراب الجزر الصغيرة منها بعدد هائل من الأخوار (أي الخلجان) التي تتوغل في الشواطىء وتتيح لأهلها الاتصال بالمياه وجاءت ظاهرة المد والجزر عنصراً حيوياً في تشجيع الملاحة على امتداد تلك الأخوار وتنظيم الانتقال فيما بينها بحراً، فكانت حركات المد والجزر تساعد على تطهير تلك الخلجان مما يتراكم فيها من الرواسب وإعدادها لاستقبال السفن وكانت تلك السفن بدورها تنتهز فرصة المد والجزر وارتفاع مستوى الماء قرب الشاطىء وفي الخلجان لتدخل الموانىء ثم تنتظر الجزر للخروج في الوقت المناسب إلى عرض البحر. [٣٤]

وبلغت ظاهرة المد والجزر أوجها في أقصى شمال الخليج وعند مخرجه في بوغاز هرمز وهو الأمر الذي ساعد على انتظام الملاحة الداخلية و الخارجية في هذا المهد الأول للملاحة وربطه بالمحيط الهندي وعالمه ومتاجره. واسترعت هذه الظاهرة أبناء الخليج وعرفوا أمثلْ السبل للإفادة منها، كما تحدث عنها ووصفها بإسهاب كبار ملاحي الخليج وغيرهم من الجغرافيين

الذين نقلوا عنهم في دراستهم لتلك الظاهرة، ويعتبر المسعودي نموذجاً للعلماء الباحثين الذين استفادوا فائدة كبرى من خبرة أبناء الخليج الملاحية بظاهرة المد والجزر وبيان أهميتها بالنسبة للملاحة في كل من الخليج العربي والمحيط الهندي.

وعرّف المسعودي هذه الظاهرة الهامة تعريفاً يتفق مع الدراسات العلمية الحديثة وعن أسبابها كذلك فقال: المد «مضي الماء في فيحته وسيحته وسنن جريته. والجزر: رجوع الماء على ضد سنن مضيه وانكشاف ما مضى عليه في هيجه»، وذلك كبحر الحبش الذي هو الصيني والهندي وبحر البصرة [٣٥] وفارس، وربط المسعودي هذه الظاهرة وأسبابها بالقمر، وهو ما أيدته فيه الدراسات الحديثة التي تذكر أن قوة جذب القمر للأرض هي السبب في المد والجزر، فقال: وإنما القمر علة لكثرة المد.. والمد والجزر في بحر فارس يكونان على مطالع الفجر في الأغلب من الأوقات.

ويشير المسعودي في تلك العبارة إلى ظاهرة جغرافية أخرى أيدته فيها ا لدراسات الحديثة وهي أن الفترة التي يظهر فيها المد هي ست ساعات تعقبها ست ساعات أخرى للجزر بحيث يحدث في كل جهة مدان وجزران في كل أربع وعشرين ساعة.

واشتدت ظاهرة المد والجزر في بعض فصول السنة التي تكون فيها ا لشمس والأرض والقمر في فضاء الكون في شكل زاوية قائمة رأسها الأرض. ونقل المسعودي عن ملاحي الخليج خبرتهم بهذه الظاهرة التي وصفوها من تجاربهم لافتقارهم إذ ذلك إلى أشباه الدراسات الحديثة فقال: وقد ذهب كثير من نواخذة هذا البحر وهم أرباب المراكب، من السيرافيين والعمانيين ممن يقطعون هذا البحر.. إلى أن المد والجزر لا يكون في معظم هذا البحر إلا مرتين في السنة.. فإن وافق القمر بعض الكواكب السيارة في أحد الميلين تزايد الفعلان وقوى الحمى.. فاشتد لذلك انقلاب ماء البحر. [٣٦]

واختتم المسعودي دراسته عن المد والجزر بالخليج العربي مبيناً شدته عند رأس الخليج قائلاً: «إن المد يرد بين البصرة والأهواز... ويسمى هنالك الذئب، له ضجيج ودوي وغليان عظيم يفزع منه أصحاب السفن». [٣٧] واكتسب أبناء الخليج خلال خبرتهم بهذه الظاهرة الجغرافية في مهدهم مهارة هيأت لهم التوغل في المحيط الهندي وإجادة الدخول والخروج في موانيه بسهولة ويسر، حيث كانت تحكمها نفس ظاهرة المد والجزر الموجودة في مياه الخليج.

٤- صقلت الرحلات التجارية مواهب سكان سواحل ا لخليج البحرية، وجعلت منهم ملاحين مهرة وأصحاب قدرات عالية في انتقاء المراكز والقواعد التي تحقق لهم السيادة في ميداني الملاحة والتجارة البحرية. [٣٨]

رابعاً - الصراع الدولى على المنطقة منذ أقدم العصور:

لا شك أن الأهمية التجارية للخليج العربي هي التي جعلت منه محور صراع دولي رهيب بين قوى مختلفة منذ أقدم العصور، وما الصراع الذي نشب بين البابليين من جانب والفرس من

الذين نقلوا عنهم في دراستهم لتلك الظاهرة، ويعتبر المسعودي نموذجاً للعلماء الباحثين الذين استفادوا فائدة كبرى من خبرة أبناء الخليج الملاحية بظاهرة المد والجزر وبيان أهميتها بالنسبة للملاحة في كل من الخليج العربي والمحيط الهندي.

وعرّف المسعودي هذه الظاهرة الهامة تعريفاً يتفق مع الدراسات العلمية الحديثة وعن أسبابها كذلك فقال: المد «مضي الماء في فيحته وسيحته وسنن جريته. والجزر: رجوع الماء على ضد سنن مضيه وانكشاف ما مضى عليه في هيجه»، وذلك كبحر الحبش الذي هو الصيني والهندي وبحر البصرة (٣٥) وفارس، وربط المسعودي هذه الظاهرة وأسبابها بالقمر، وهو ما أيدته فيه الدراسات الحديثة التي تذكر أن قوة جذب القمر للأرض هي السبب في المد والجزر، فقال: وإنما القمر علة لكثرة المد.. والمد والجزر في بحر فارس يكونان على مطالع الفجر في الأغلب من الأوقات.

ويشير المسعودي في تلك العبارة إلى ظاهرة جغرافية أخرى أيدته فيها ا لدراسات الحديثة وهي أن الفترة التي يظهر فيها المد هي ست ساعات تعقبها ست ساعات أخرى للجزر بحيث يحدث في كل جهة مدان وجزران في كل أربع وعشرين ساعة.

واشتدت ظاهرة المد والجزر في بعض فصول السنة التي تكون فيها ا لشمس والأرض والقمر في فضاء الكون في شكل زاوية قائمة رأسها الأرض. ونقل المسعودي عن ملاحي الخليج خبرتهم بهذه الظاهرة التي وصفوها من تجاربهم لافتقارهم إذ ذلك إلى أشباه الدراسات الحديثة فقال: وقد ذهب كثير من نواخذة هذا البحر وهم أرباب المراكب، من السيرافيين والعمانيين ممن يقطعون هذا البحر.. إلى أن المد والجزر لا يكون في معظم هذا البحر إلا مرتين في السنة.. فإن وافق القمر بعض الكواكب السيارة في أحد الميلين تزايد الفعلان وقوى الحمى.. فاشتد لذلك انقلاب ماء البحر. (٣٦)

واختتم المسعودي دراسته عن المد والجزر بالخليج العربي مبيناً شدته عند رأس الخليج قائلاً: «إن المد يرد بين البصرة والأهواز... ويسمى هنالك الذئب، له ضجيج ودوي وغليان عظيم يفزع منه أصحاب السفن». (٣٧) واكتسب أبناء الخليج خلال خبرتهم بهذه الظاهرة الجغرافية في مهدهم مهارة هيأت لهم التوغل في المحيط الهندي وإجادة الدخول والخروج في موانيه بسهولة ويسر، حيث كانت تحكمها نفس ظاهرة المد والجزر الموجودة في مياه الخليج.

٤- صقلت الرحلات التجارية مواهب سكان سواحل ا لخليج البحرية، وجعلت منهم ملاحين مهرة وأصحاب قدرات عالية في انتقاء المراكز والقواعد التي تحقق لهم السيادة في ميداني الملاحة والتجارة البحرية. (٣٨)

رابعاً - الصراع الدولى على المنطقة منذ أقدم العصور:

لا شك أن الأهمية التجارية للخليج العربي هي التي جعلت منه محور صراع دولي رهيب بين قوى مختلفة منذ أقدم العصور، وما الصراع الذي نشب بين البابليين من جانب والفرس من

جانب آخر والذي تحدثت عنه المؤلفات التاريخية إلا أسطع دليل على الأهمية الفريدة التي تمتعت بها هذه المنطقة منذ القديم، فقد تناوب كل من هاتين القوتين السيطرة على سواحل هذا الخليج، واستمرت الأمور تأخذ طابع كر وفر بينهما، ولم يقتصر الصراع على هذه المنطقة الهامة بين الفرس والبابليين فقط، وإنما دخلت إلى حلبة الصراع أطراف أخرى، استطاعت من خلال اتساع نفوذها أن تصل إلى هذه البقعة، وتدخل في تنافس شديد مع القوتين الآنفتي الذكر، وهاتان القوتان هما: اليونانيون، في الفترة التى استطاع خلالها الإسكندر المقدوني أن ينشىء امبراطوريته المشهورة في التاريخ، فبعد أن تمكن هذا القائد من تحطيم القوة الفارسية بقيادة الملك (دارا) في معركة أربيل الشهيرة انفتحت أمامه أبواب العراق وفارس، وعليه فقد بنى الاسكندر عدداً من السفن في بابل، كما نقل عدداً آخر إليها من أماكن أخرى.

ولقد بعث الاسكندر بثلاث سفن في الخليج العربي بقصد الاستشكاف وكان قادة تلك السفن من الفينيقيين، وقد بلغت إحدى تلك السفن الثلاث رأس مسندم في جزر البحرين.(٣٩)

وإلى جانب اليونان، فقد دخل فيما بعد إلى ساحة الصراع في هذه المنطقة (الرومان) فقد حاول أحد أباطرة الرومان (أوغسطس) أن يحمي خط مواصلاته التجارية مع الشرق أو إنقاذها مما كانت تتعرض له على أيدي العرب والوصول إلى الخليج العربي.

وهكذا فإن منطقة الخليج كانت هدف كل الفاتحين في العصور التاريخية المختلفة. فقد تكالبت على العرب في الخليج جميع القوى البحرية الكبيرة، وقضت عليهم، وتروي لنا القصص مواقف البطولة التي وقفها سكان المنطقة في محاولتهم لإعادة مركزهم والسيطرة ثانية على تجارة المحيط الهندى.(٤٠)

فالعرب في هذه المنطقة لم يقفوا موقف المتفرج من هذه الأحداث، والتطورات وهم يرون الأجانب يتكالبون على بلادهم. بل بدرت منهم مقاومات عديدة فقد تصدوا لمحاولات الفرس واشتبكوا في حرب مع الملك الفارسي (داريوش) وكان هذا هو أول صراع بين العرب والفرس.(٤١)

ومن المحاولات التى بذلها العرب لوقف هذا الغزو ما قام به عرب النبط في مقاومة الغزو الروماني، حيث حطموا معظم سفن الحملة، وفرقت بكل ما كانت تحمله من رجال وعتاد نتيجة المقاومة التي أبداها النبط ضدها.

إلا أنه نتيجة لضعف القوة العربية آنذاك فقد تمكنت بعض القوى من الفرس واليونان والرومان من فرض سيطرتها على منطقة الخليج، ولكن بالرغم من كل ذلك فإن السيادة الفعلية على الخليج العربي لم تكن في أيدي هؤلاء فقد ظلت في أيدي العرب أنفسهم حيث تركزت التجارة والملاحة على الخليج، وانحصرت بين مدنه وموانئه، وكانت هذه المدن مراكز للتجارة مع الهند وإيران والعراق، والجزيرة العربية ومملكة تدمر في سوريا كما سنشير في فصل قادم.

وفي هذه الفترة ظهرت السفن العربية المعروفة «بالمدرعات»، لأول مرة في الخليج العربي وكانت هذه السفن تصنع من ألواح تربط

جانب آخر والذي تحدثت عنه المؤلفات التاريخية إلا أسطع دليل على الأهمية الفريدة التي تمتعت بها هذه المنطقة منذ القديم، فقد تناوب كل من هاتين القوتين السيطرة على سواحل هذا الخليج، واستمرت الأمور تأخذ طابع كر وفر بينهما، ولم يقتصر الصراع على هذه المنطقة الهامة بين الفرس والبابليين فقط، وإنما دخلت إلى حلبة الصراع أطراف أخرى، استطاعت من خلال اتساع نفوذها أن تصل إلى هذه البقعة، وتدخل في تنافس شديد مع القوتين الآنفتي الذكر، وهاتان القوتان هما: اليونانيون، في الفترة التى استطاع خلالها الإسكندر المقدوني أن ينشىء امبراطوريته المشهورة في التاريخ، فبعد أن تمكن هذا القائد من تحطيم القوة الفارسية بقيادة الملك (دارا) في معركة أربيل الشهيرة انفتحت أمامه أبواب العراق وفارس، وعليه فقد بنى الاسكندر عدداً من السفن في بابل، كما نقل عدداً آخر إليها من أماكن أخرى.

ولقد بعث الاسكندر بثلاث سفن في الخليج العربي بقصد الاستشكاف وكان قادة تلك السفن من الفينيقيين، وقد بلغت إحدى تلك السفن الثلاث رأس مسندم في جزر البحرين.(٣٩)

وإلى جانب اليونان، فقد دخل فيما بعد إلى ساحة الصراع في هذه المنطقة (الرومان) فقد حاول أحد أباطرة الرومان (أوغسطس) أن يحمي خط مواصلاته التجارية مع الشرق أو إنقاذها مما كانت تتعرض له على أيدي العرب والوصول إلى الخليج العربي.

وهكذا فإن منطقة الخليج كانت هدف كل الفاتحين في العصور التاريخية المختلفة. فقد تكالبت على العرب في الخليج جميع القوى البحرية الكبيرة، وقضت عليهم، وتروي لنا القصص مواقف البطولة التي وقفها سكان المنطقة في محاولتهم لإعادة مركزهم والسيطرة ثانية على تجارة المحيط الهندى.(٤٠)

فالعرب في هذه المنطقة لم يقفوا موقف المتفرج من هذه الأحداث، والتطورات وهم يرون الأجانب يتكالبون على بلادهم. بل بدرت منهم مقاومات عديدة فقد تصدوا لمحاولات الفرس واشتبكوا في حرب مع الملك الفارسي (داريوش) وكان هذا هو أول صراع بين العرب والفرس.(٤١)

ومن المحاولات التى بذلها العرب لوقف هذا الغزو ما قام به عرب النبط في مقاومة الغزو الروماني، حيث حطموا معظم سفن الحملة، وفرقت بكل ما كانت تحمله من رجال وعتاد نتيجة المقاومة التي أبداها النبط ضدها.

إلا أنه نتيجة لضعف القوة العربية آنذاك فقد تمكنت بعض القوى من الفرس واليونان والرومان من فرض سيطرتها على منطقة الخليج، ولكن بالرغم من كل ذلك فإن السيادة الفعلية على الخليج العربي لم تكن في أيدي هؤلاء فقد ظلت في أيدي العرب أنفسهم حيث تركزت التجارة والملاحة على الخليج، وانحصرت بين مدنه وموانئه، وكانت هذه المدن مراكز للتجارة مع الهند وإيران والعراق، والجزيرة العربية ومملكة تدمر في سوريا كما سنشير في فصل قادم.

وفي هذه الفترة ظهرت السفن العربية المعروفة «بالمدرعات» لأول مرة في الخليج العربي وكانت هذه السفن تصنع من ألواح تربط

إلى الألياف وهي التي اختص عرب شبه الجزيرة في بنائها وتصديرها وبفضل هذه السفن لعب العرب دوراً بارزاً في انتظام التجارة داخل الخليج العربي. (٤٢)

وهكذا فقد ظل الخليج العربي بيد العرب وظلت طرقه مفتوحة لهم إلى الهند والصين ذهاباً وإياباً إلى أن ظهر الإسلام فإذا بالعرب المسلمين يبدأون بتطهير الخليج العربي من بقايا المقاومة المعادية لهم في اللحظة التي ثبتوا فيها أقدامهم في العراق وبذلك عاد الخليج بحيرة عربية كما كان عهده في مختلف عصور التاريخ.

كان الخليج يمر بعصره الذهبي في العصور الإسلامية، ويعج بالسفن التجارية في مختلف أنحاء العالم، وكانت التجارة الكبرى آنذاك هي تجارة الحرير والعنبر والعاج والذهب والدارسين والزنجبيل والفلفل والزعفران. وكانت هذه التجارة تنطلق من الشرق الأقصى إلى الدولة الإسلامية عن طريق الخليج فساحل البحر المتوسط حيث ينقلها التجار إلى جنوة والبندقية ومناطق أخرى من إيطاليا.

خامساً - المراكز التجارية الأساسية للنشاط التجارى فى الخليج العربى :

إن ما ميز هذه المنطقة بأهمية خاصة هو أن موانئها وثغورها الساحلية تكاد أن تكون قد احتكرت النشاط التجاري في هذه البقعة من العالم، فقد لعبت كثير من المدن الواقعة على شواطىء الخليج ابتداءً من البصرة على رأس الخليج حيث تولت تصريف منتجات العراق وسد مطالبه الاقتصادية المتزايدة في نفس الوقت، ثم البحرين والقطيف، وصحار حيث شاركت جميعها في المجال الاقتصادي لشرق الجزيرة العربية وأخيراً سيراف وهرمز حيث أسهمت هذه المدن في توزيع منتجات المقاطعات الغربية لبلاد فارس وهي الأهواز وفارس وكرمان.

وهكذا اقتسمت سواحل الخليج العربي فيما بينها مراكز التجارة واتصالها بميادين الإنتاج قسمة طبيعية، بحيث صارت التجارة تجد على امتداد هذا الطريق الرئيسي أسباب الرواج من حيث سلع التصدير و الاستيراد.

البصرة

كانت البصرة تمثل المنفذ الرئيسى لإقليم العراق الحافل بالمنتجات الزراعية والصناعية ومركز إبحار واستقبال السفن المحملة بكافة السلع الخاصة بالتجارة الشرقية في ا لخليج العربي وتقع البصرة على الطريق الشمالي من الخليج عند نقطة يمكن عبور شط العرب منها. كما يلتقي عندها أيضاً الطرق الممتدة من وسط إيران إلى الخليج، وكذلك من بادية بلاد العرب إلى هذا الخليج أيضاً. (٤٣)

وقد هيأ لها هذا الموقع الجغرافي أن تكون مركزاً هاماً من مراكز الحياة الاقتصادية في الدولة الإسلامية على أساس نشاطها التجاري المبكر في صدر الإسلام.

وقد ساعد على رواج مركز البصرة التجاري وفرة إنتاج محاصيل العراق الزراعية من الحنطة والشعير والأرز والتمر والسمسم والقطن فضلاً عن الخضراوات والفاكهة وشتى أنواع الزهور. (٤٤)

إلى الألياف وهي التي اختص عرب شبه الجزيرة في بنائها وتصديرها وبفضل هذه السفن لعب العرب دوراً بارزاً في انتظام التجارة داخل الخليج العربي. (٤٢)

وهكذا فقد ظل الخليج العربي بيد العرب وظلت طرقه مفتوحة لهم إلى الهند والصين ذهاباً وإياباً إلى أن ظهر الإسلام فإذا بالعرب المسلمين يبدأون بتطهير الخليج العربي من بقايا المقاومة المعادية لهم في اللحظة التي ثبتوا فيها أقدامهم في العراق وبذلك عاد الخليج بحيرة عربية كما كان عهده في مختلف عصور التاريخ.

كان الخليج يمر بعصره الذهبي في العصور الإسلامية، ويعج بالسفن التجارية في مختلف أنحاء العالم، وكانت التجارة الكبرى آنذاك هي تجارة الحرير والعنبر والعاج والذهب والدارسين والزنجبيل والفلفل والزعفران. وكانت هذه التجارة تنطلق من الشرق الأقصى إلى الدولة الإسلامية عن طريق الخليج فساحل البحر المتوسط حيث ينقلها التجار إلى جنوة والبندقية ومناطق أخرى من إيطاليا.

خامساً - المراكز التجارية الأساسية للنشاط التجارى فى الخليج العربى:

إن ما ميز هذه المنطقة بأهمية خاصة هو أن موانئها وثغورها الساحلية تكاد أن تكون قد احتكرت النشاط التجاري في هذه البقعة من العالم، فقد لعبت كثير من المدن الواقعة على شواطىء الخليج ابتداءً من البصرة على رأس الخليج حيث تولت تصريف منتجات العراق وسد مطالبه الاقتصادية المتزايدة في نفس الوقت، ثم البحرين والقطيف، وصحار حيث شاركت جميعها في المجال الاقتصادي لشرق الجزيرة العربية وأخيراً سيراف وهرمز حيث أسهمت هذه المدن في توزيع منتجات المقاطعات الغربية لبلاد فارس وهي الأهواز وفارس وكرمان.

وهكذا اقتسمت سواحل الخليج العربي فيما بينها مراكز التجارة واتصالها بميادين الإنتاج قسمة طبيعية، بحيث صارت التجارة تجد على امتداد هذا الطريق الرئيسي أسباب الرواج من حيث سلع التصدير و الاستيراد.

البصرة

كانت البصرة تمثل المنفذ الرئيسى لإقليم العراق الحافل بالمنتجات الزراعية والصناعية ومركز إبحار واستقبال السفن المحملة بكافة السلع الخاصة بالتجارة الشرقية في ا لخليج العربي وتقع البصرة على الطريق الشمالي من الخليج عند نقطة يمكن عبور شط العرب منها. كما يلتقي عندها أيضاً الطرق الممتدة من وسط إيران إلى الخليج، وكذلك من بادية بلاد العرب إلى هذا الخليج أيضاً. (٤٣)

وقد هيأ لها هذا الموقع الجغرافي أن تكون مركزاً هاماً من مراكز الحياة الاقتصادية في الدولة الإسلامية على أساس نشاطها التجاري المبكر في صدر الإسلام.

وقد ساعد على رواج مركز البصرة التجاري وفرة إنتاج محاصيل العراق الزراعية من الحنطة والشعير والأرز والتمر والسمسم والقطن فضلاً عن الخضراوات والفاكهة وشتى أنواع الزهور. (٤٤)

وهكذا فقد أصبحت هذه المدينة مركزاً من أهم مراكز تجارة المواد الغذائية في الخليج العربي، فحملت السفن من البصرة حاصلات العراق إلى شواطىء شبه الجزيرة العربية المطلة على الخليج لافتقارها إلى المواد الغذائية بصفة خاصة. (٤٥)

كما نعمت البصرة فضلاً عن ذلك بأسباب الاستقرار لتوفير المواد الغذائية بها، وهو أمر يهتم به المسافرون بحراً، لحرصهم على التزود بالمؤونة اللازمة لرحلاتهم.

كما استقبلت البصرة السفن التجارية لحمل سلع العراق، ثم العودة إليها في نهاية المطاف بسلع التجارة الشرقية.

وترك الجاحظ صورة عن المركز التجاري للبصرة عندما أشاد بها باعتبارها مسقط رأسه وفاخر بنشاطها التجاري فقال: «ومن أتى وادي القصر بالبصرة رأى أرضاً كالكافور، ورأى ضباباً تحترش وغزلاناً، ومسكاً وصياداً، وسمع غناء ملاح في سفينته، وحداء جمال خلف بعيره». (٤٦)

وأكد أصحاب الرحلات قول الجاحظ حين قال «أبوبكر الهمذاني» وأبعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميري،ومن دخل فرغانة القصوي والسوس الأقصى فلا بد أن يرى فيهما بصرياً أو حميرياً. (٤٧)

أخذ نشاط الخليج التجاري يتركز في البصرة ويتحول عن بعض المراكز الأخرى القديمة التي لم تستطع الصمود أمام تطور هذا المركز الهام.

ومن أمثلة ذلك انتقال نشاط (دارين) بالبحرين إلى البصرة، وكانت (دارين) في صدر الإسلام مركزا هاماً للتجارة وبخاصة في السلع الشرقية، وكذلك ورثت البصرة نشاط (الأبلة) التجاري، وهذ المدينة التي اشتهرت نتيجة اشتغالها بالتجارة الشرقية اسم أرض الهند أو فرج الهند. (٤٨)

وقد كتب «المقدسي» موضحاً ومبيناً أهمية البصرة في ميدان التجارة الشرقية منذ نشأتها على عهد الخليفة عمر بن الخطاب فقال «البصرة قصبة سرية أحدثها المسلمون أيام عمر- كتب إلى صاحبه: ابن للمسلين مدينة بين فارس وديار العرب وحدود العراق على بحر الصين فاتفقوا على موضع البصرة. (٤٩)

وذكر ابن حوقل أن مؤلفات عديدة وضعت في وصف البصرة، وأنها كانت إلى عهده «موجودة في جميع الأماكن» (٥٠) دلالة على رغبة الناس في معرفة أحوال هذا المركز التجاري الهام. وأشاد ابن حوقل بهذا النشاط التجاري للبصرة واتساع مجاله على عهده قائلاً- وأما ارتفاعها بوقتها هذا فمن وجوه أموالها كلها وجباياتها في أعشارها وجماجمها ومصالحها وضمان البحر بلوازم المراكز فإنه زاد وكثر وغلا وعزرا. (٥١)

«فالبصرة والأبلة وسيراف كانت منتهى السفن القادمة من الصين، وأفريقيا الشرقية ورغم أهمية البصرة كميناء في ذلك الوقت فإن السفن الكبيرة لا تستطيع بلوغها رأساً كما هو شأنها اليوم حيث تنتهي السفن الكبيرة عند الفاو، ثم تنقل حمولتها في سفن صغيرة إلى البصرة ولذلك كانت السفن الكبيرة في تلك الفترة ترسو في «الأبلة» التي تقع عند مصب القناة على نهر

وهكذا فقد أصبحت هذه المدينة مركزاً من أهم مراكز تجارة المواد الغذائية في الخليج العربي، فحملت السفن من البصرة حاصلات العراق إلى شواطىء شبه الجزيرة العربية المطلة على الخليج لافتقارها إلى المواد الغذائية بصفة خاصة. (٤٥)

كما نعمت البصرة فضلاً عن ذلك بأسباب الاستقرار لتوفير المواد الغذائية بها، وهو أمر يهتم به المسافرون بحراً، لحرصهم على التزود بالمؤونة اللازمة لرحلاتهم.

كما استقبلت البصرة السفن التجارية لحمل سلع العراق، ثم العودة إليها في نهاية المطاف بسلع التجارة الشرقية.

وترك الجاحظ صورة عن المركز التجاري للبصرة عندما أشاد بها باعتبارها مسقط رأسه وفاخر بنشاطها التجاري فقال: «ومن أتى وادي القصر بالبصرة رأى أرضاً كالكافور، ورأى ضباباً تحترش وغزلاناً، ومسكاً وصياداً، وسمع غناء ملاح في سفينته، وحداء جمال خلف بعيره». (٤٦)

وأكد أصحاب الرحلات قول الجاحظ حين قال «أبوبكر الهمذاني» وأبعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميري،ومن دخل فرغانة القصوي والسوس الأقصى فلا بد أن يرى فيهما بصرياً أو حميرياً. (٤٧)

أخذ نشاط الخليج التجاري يتركز في البصرة ويتحول عن بعض المراكز الأخرى القديمة التي لم تستطع الصمود أمام تطور هذا المركز الهام.

ومن أمثلة ذلك انتقال نشاط (دارين) بالبحرين إلى البصرة، وكانت (دارين) في صدر الإسلام مركزا هاماً للتجارة وبخاصة في السلع الشرقية، وكذلك ورثت البصرة نشاط (الأبلة) التجاري، وهذ المدينة التي اشتهرت نتيجة اشتغالها بالتجارة الشرقية اسم أرض الهند أو فرج الهند. (٤٨)

وقد كتب «المقدسي» موضحاً ومبيناً أهمية البصرة في ميدان التجارة الشرقية منذ نشأتها على عهد الخليفة عمر بن الخطاب فقال «البصرة قصبة سرية أحدثها المسلمون أيام عمر- كتب إلى صاحبه: ابن للمسلين مدينة بين فارس وديار العرب وحدود العراق على بحر الصين فاتفقوا على موضع البصرة. (٤٩)

وذكر ابن حوقل أن مؤلفات عديدة وضعت في وصف البصرة، وأنها كانت إلى عهده «موجودة في جميع الأماكن» (٥٠) دلالة على رغبة الناس في معرفة أحوال هذا المركز التجاري الهام. وأشاد ابن حوقل بهذا النشاط التجاري للبصرة واتساع مجاله على عهده قائلاً- وأما ارتفاعها بوقتها هذا فمن وجوه أموالها كلها وجباياتها في أعشارها وجماجمها ومصالحها وضمان البحر بلوازم المراكز فإنه زاد وكثر وغلا وعزرا. (٥١)

«فالبصرة والأبلة وسيراف كانت منتهى السفن القادمة من الصين، وأفريقيا الشرقية ورغم أهمية البصرة كميناء في ذلك الوقت فإن السفن الكبيرة لا تستطيع بلوغها رأساً كما هو شأنها اليوم حيث تنتهي السفن الكبيرة عند الفاو، ثم تنقل حمولتها في سفن صغيرة إلى البصرة ولذلك كانت السفن الكبيرة في تلك الفترة ترسو في «الأبلة» التي تقع عند مصب القناة على نهر

دجلة والتي كانت توجد فيها أحواض واسعة للسفن». [٥٢]

(الأبلة)

تقع في طرف الخليج العلوي، وهي ميناء للبصرة أي- ترسي عليها المراكب الكبيرة التي لا تستطيع الصعود إلى البصرة، وكانت زمن الفتح الإسلامي مرفأ السفن من الصين، والهند، وعمان، والبحرين. [٥٣]

ويحدد ياقوت موقعها بقوله «وعلى أربعة فراسخ من البصرة مدينة الأبلة عبر دجلة العوراء». [٥٤]

لقد كان لموقع الأبلة في رأس الخليج، أثراً جعل منها ميناء عظيماً يسيطر على الطرق التجارية العالمية القديمة- الشرقية والغربية- فقد كانت السفن التجارية الآتية من الهند، والصين تفرغ حمولتها في ميناء الأبلة ثم تنقل بسفن خاصة عن طريق الفرات إلى سوريا فالبحر الأبيض أو إلى فلسطين، ومصر [٥٥] أو تنقل هذه البضائع من الأبلة عن طريق البر مجتازة العراق إلى الشام مارة بمدينة تدمر ومنها إلى موانىء البحر المتوسط. [٥٦]

كذلك كانت البواخر التي تأتي إليها محملة عبر البحر الأحمر من الجزيرة العربية، والسواحل الأفريقية تفرغ حمولتها في الأبلة حيث كان قسم منها ينقل إلى العراق، والقسم الآخر ينقل إلى الهند، وفارس، ثم أصابها ركود تجاري في العهد الفرثي (القرن الثانى للميلاد) [٥٧]

وهكذا كانت الأبلة مركزاً تجارياً ذا أهمية خلال عدة عهود، وخاصة خلال العهد الساساني لأنها كما ألمحنا أصبحت مرفأ للسفن من الهند، والصين والذاهبة إليها. [٥٨]

كما احتلت الأبلة أيضاً أهمية عسكرية في العهد الساساني حيث عني الفرس الساسانيين بتحصينها، وإقامة المسالح فيها، وذلك لأنها كانت تقوم بخدمات مزدوجة تجارية، وعسكرية في آن واحد. [٥٩]

البحرين

كان يطلق على المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية الممتدة على الخليج العربي إلى عمان أسماء كثيرة أشهرها البحرين، وهجر، والخط. [٦٠]

وكان السبب في تعدد هذه التسمية، هو ظهور مراكز تجارية هامة على الساحل العربي للخليج علا شأنها، حيث صار اسمها يطلق إبان أوج مجدها ونشاطها على أرجاء الساحل كله. ومن ثم تداخلت هذه الأسماء مع بعضها البعض بمرور الزمن حتى اشتهر منها اسم البحرين التي وصفها ياقوت بأنها «اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان» [٦١]

وذكر ابن حوقل مدن البحرين وهي «هجر، والاحساء، والقطيف والعقير، وبيشة، وأوال» [٦٢]

ولم تكن المدن التي عددها ابن حوقل سوى مراكز تجارية علا نجمها في بعض الأحيان، ثم لم يلبث أن خبا.

كانت مجموعة الجزر التي نعرفها اليوم باسم البحرين هي القاعدة الأساسية للتجارة للساحل الشرقي للجزيرة العربية.

وبلاد البحرين عظيمة الاتساع يتصل شمالها

دجلة والتي كانت توجد فيها أحواض واسعة للسفن». [٥٢]

(الأبلة)

تقع في طرف الخليج العلوي، وهي ميناء للبصرة أي- ترسي عليها المراكب الكبيرة التي لا تستطيع الصعود إلى البصرة، وكانت زمن الفتح الإسلامي مرفأ السفن من الصين، والهند،وعمان، والبحرين. [٥٣]

ويحدد ياقوت موقعها بقوله «وعلى أربعة فراسخ من البصرة مدينة الأبلة عبر دجلة العوراء». [٥٤]

لقد كان لموقع الأبلة في رأس الخليج، أثراً جعل منها ميناء عظيماً يسيطر على الطرق التجارية العالمية القديمة- الشرقية والغربية- فقد كانت السفن التجارية الآتية من الهند، والصين تفرغ حمولتها في ميناء الأبلة ثم تنقل بسفن خاصة عن طريق الفرات إلى سوريا فالبحر الأبيض أو إلى فلسطين، ومصر [٥٥] أو تنقل هذه البضائع من الأبلة عن طريق البر مجتازة العراق إلى الشام مارة بمدينة تدمر ومنها إلى موانىء البحر المتوسط. [٥٦]

كذلك كانت البواخر التي تأتي إليها محملة عبر البحر الأحمر من الجزيرة العربية، والسواحل الأفريقية تفرغ حمولتها في الأبلة حيث كان قسم منها ينقل إلى العراق، والقسم الآخر ينقل إلى الهند، وفارس، ثم أصابها ركود تجاري في العهد الفرثي (القرن الثاني للميلاد) [٥٧]

وهكذا كانت الأبلة مركزاً تجارياً ذا أهمية خلال عدة عهود، وخاصة خلال العهد الساساني لأنها كما ألمحنا أصبحت مرفأ للسفن من الهند، والصين والذاهبة إليها. [٥٨]

كما احتلت الأبلة أيضاً أهمية عسكرية في العهد الساساني حيث عني الفرس الساسانيين بتحصينها، وإقامة المسالح فيها، وذلك لأنها كانت تقوم بخدمات مزدوجة تجارية، وعسكرية في آن واحد. [٥٩]

البحرين

كان يطلق على المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية الممتدة على الخليج العربي إلى عمان أسماء كثيرة أشهرها البحرين، وهجر، والخط. [٦٠]

وكان السبب في تعدد هذه التسمية، هو ظهور مراكز تجارية هامة على الساحل العربي للخليج علا شأنها، حيث صار اسمها يطلق إبان أوج مجدها ونشاطها على أرجاء الساحل كله. ومن ثم تداخلت هذه الأسماء مع بعضها البعض بمرور الزمن حتى اشتهر منها اسم البحرين التي وصفها ياقوت بأنها «اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان» [٦١]

وذكر ابن حوقل مدن البحرين وهي «هجر، والاحساء، والقطيف والعقير، وبيشة، وأوال» [٦٢]

ولم تكن المدن التي عددها ابن حوقل سوى مراكز تجارية علا نجمها في بعض الأحيان، ثم لم يلبث أن خبا.

كانت مجموعة الجزر التي نعرفها اليوم باسم البحرين هي القاعدة الأساسية للتجارة للساحل الشرقي للجزيرة العربية.

وبلاد البحرين عظيمة الاتساع يتصل شمالها

بالبصرة، وجنوبها بعُمان، وكانت لعهد قيس في الجاهلية، وبكر بن وائل ثم ملكها الفرس. (٦٣)

وكان يسكنها القرامطة، وقراها عديدة (٦٤) عدها ابن ماجد ثلاث وستون قرية وهي بلاد شديدة الحرارة يزاحم رمل صحرائها منازل السكان. (٦٥)

يقول ابن خرداذبة الذي كتب سنة ٨٤٦ أن القرصنة كانت في أيامه منتشرة على ساحل البحرين ويقول «إن سكان البحرين قراصنة فليس لديهم حقول مزروعة ولكنهم يمتلكون أشجار نخيل وجمال». (٦٦)

ويذكر من ضمن مدن البحرين ومنازلها هجر، والقطيف والجواثة ودارين، وهذه الثلاثة الأخيرة قد ذكرها قدامة الذي كتب بعد بضع سنوات يذكر قدامة «أن المنتوج العائد للخليفة من كل هذه المقاطعة مع ما يعود من اليمامة بناء على قائمة الضرائب التي وضعت سنة ٢٣٧هـ يبلغ حوالى (٥١٢ر٠٠٠) دينار. (٦٧)

والجزيرة الرئيسية في البحرين هي «أوال»(٦٨) ستة أميال في الطول والعرض والعاصمة البحرين مدينة آهلة بالسكان، وأراضيها المحيطة بها تنتج الأعشاب والنخيل بكميات كبيرة. (٦٩)

وقد نعمت هذه الجزيرة بمقدار كبير من المياه الجوفية ساعد على قيام الزراعة فيها لسد مطالب السكان، يقول ابن بطوطة في وصفه لهذه الجزيرة «إنها مدينة فاخرة وكبيرة بها بساتين وأشجار وجداول، والماء يشترى بثمن يسير ويكفي أن تحفر الأرض بيديك لتجد الماء، وفي هذا المكان حظائر النخيل، كما يزرع الليمون والرمان والقطن، ودرجةالحرارة عالية، وهناك رمل كثير غالباً ما يدفن المساكن». (٧٠)

وقد ظلت البحرين تستمد ثراءها من المصدر الاقتصادي المجاور لها وهو اللؤلؤ، وهكذا فقد استمرت جزيرة البحرين منذ أقدم العصور مركزاً هاماً من مراكز صيد اللؤلؤ، وقاعدة كبرى تقصدها السفن لنقل هذه السلعة الغالية.

ولقد زاد الإقبال على لؤلؤ البحرين لجودته، حتى حملته السفن إلى أقاصي الهند والصين، وأصبح مصدراً هاماً من مصادر الربح والثروة لهذا المركز التجاري الكبير.

وسنتحدث بشيء من التفصيل عن مدن البحرين (بمعناها الواسع) والتي لعبت دوراً عظيماً في تجارة الخليج العربي بحكم ما تمتعت به من موقع فريد على سواحل هذا الخليج، الأمر الذي سهل لها هذه المهمة وأصبحت وما تزال بوجودها على هذه البحيرة التي تتمتع بأهمية استراتيجية بالنسبة للتجارة الدولية منذ أقدم العصور تمارس نفس الدور الذي قدر لها يوماً ما أن تلعبه بالنسبة لهذا النوع من النشاط البشري.

الإحساء:

وتعتبر هذه أهم مدن البحرين، وموقعها غرب مدينة القطيف، وكانت تسمى إحساء بني سعد وهي مدينة يكثر بها النخيل (بقدر غوطة دمشق). (٧١) وقيل أن «أبا طاهر القرمطي» شيد تلك المدينة في القرن الثالث الهجري. (٧٢) وتبعد الإحساء عن البحر مسيرة سبعة فراسخ وهي بصحراء البحرين، بينها وبين البصرة مائة وخمسون فرسخاً. (٧٣)

بالبصرة، وجنوبها بعُمان، وكانت لعهد قيس في الجاهلية، وبكر بن وائل ثم ملكها الفرس. (٦٣)

وكان يسكنها القرامطة، وقراها عديدة (٦٤) عدها ابن ماجد ثلاث وستون قرية وهي بلاد شديدة الحرارة يزاحم رمل صحرائها منازل السكان. (٦٥)

يقول ابن خرداذبة الذي كتب سنة ٨٤٦ أن القرصنة كانت في أيامه منتشرة على ساحل البحرين ويقول «إن سكان البحرين قراصنة فليس لديهم حقول مزروعة ولكنهم يمتلكون أشجار نخيل وجمال». (٦٦)

ويذكر من ضمن مدن البحرين ومنازلها هجر، والقطيف والجواثة ودارين، وهذه الثلاثة الأخيرة قد ذكرها قدامة الذي كتب بعد بضع سنوات يذكر قدامة «أن المنتوج العائد للخليفة من كل هذه المقاطعة مع ما يعود من اليمامة بناء على قائمة الضرائب التي وضعت سنة ٢٣٧هـ يبلغ حوالى (٥١٢ر٠٠٠) دينار. (٦٧)

والجزيرة الرئيسية في البحرين هي «أوال»(٦٨) ستة أميال في الطول والعرض والعاصمة البحرين مدينة آهلة بالسكان، وأراضيها المحيطة بها تنتج الأعشاب والنخيل بكميات كبيرة. (٦٩)

وقد نعمت هذه الجزيرة بمقدار كبير من المياه الجوفية ساعد على قيام الزراعة فيها لسد مطالب السكان، يقول ابن بطوطة في وصفه لهذه الجزيرة «إنها مدينة فاخرة وكبيرة بها بساتين وأشجار وجداول، والماء يشترى بثمن يسير ويكفي أن تحفر الأرض بيديك لتجد الماء، وفي هذا المكان حظائر النخيل، كما يزرع الليمون والرمان والقطن، ودرجةالحرارة عالية، وهناك رمل كثير غالباً ما يدفن المساكن». (٧٠)

وقد ظلت البحرين تستمد ثراءها من المصدر الاقتصادي المجاور لها وهو اللؤلؤ، وهكذا فقد استمرت جزيرة البحرين منذ أقدم العصور مركزاً هاماً من مراكز صيد اللؤلؤ، وقاعدة كبرى تقصدها السفن لنقل هذه السلعة الغالية.

ولقد زاد الإقبال على لؤلؤ البحرين لجودته، حتى حملته السفن إلى أقاصي الهند والصين، وأصبح مصدراً هاماً من مصادر الربح والثروة لهذا المركز التجاري الكبير.

وسنتحدث بشيء من التفصيل عن مدن البحرين (بمعناها الواسع) والتي لعبت دوراً عظيماً في تجارة الخليج العربي بحكم ما تمتعت به من موقع فريد على سواحل هذا الخليج، الأمر الذي سهل لها هذه المهمة وأصبحت وما تزال بوجودها على هذه البحيرة التي تتمتع بأهمية استراتيجية بالنسبة للتجارة الدولية منذ أقدم العصور تمارس نفس الدور الذي قدر لها يوماً ما أن تلعبه بالنسبة لهذا النوع من النشاط البشري.

الإحساء:

وتعتبر هذه أهم مدن البحرين، وموقعها غرب مدينة القطيف، وكانت تسمى إحساء بني سعد وهي مدينة يكثر بها النخيل (بقدر غوطة دمشق). (٧١) وقيل أن «أبا طاهر القرمطي» شيد تلك المدينة في القرن الثالث الهجري. (٧٢) وتبعد الإحساء عن البحر مسيرة سبعة فراسخ وهي بصحراء البحرين، بينها وبين البصرة مائة وخمسون فرسخاً. (٧٣)

القطيف:

وهي من مدن البحرين [٧٤] أيضاً، وتقع على الخليج العربي في الوسط منه وبها مغاص اللؤلؤ ونخيلها قليل ليس كما في الإحساء. وهي على مسافة مرحلتين منها من الشرق. وبالقطيف مرسى للسفن الكبيرة وبينها وبين البصرة مسيرة ستة أيام وبين عمان مسيرة شهر [٧٥]، أهلها من العرب. [٧٦]

وهي مركز تجاري آخر على الساحل البحري للخليج، وغدت القطيف تكمل نشاط البحرين وقاعدة هامة تزود السفن العابرة للخليج بمصادر هامة من تجارة شبه الجزيرة العربية وسلعها. وقد ساعد هدوء مياه الخليج القطيف على دخول السفن إلى مينائها ونقل المتاجر منه بسهولة.

وكانت القطيف [٧٧] تنعم أيضاً بقدر طيب من المياه الجوفية ساعد على ازدهار الزراعة بها، واشتهرت القطيف بتنسيق زراعة النخيل وإمدادها بالمياه اللازمة حتى صارت مصدراً هاماً من مصادر التمور، حتى صار يضرب بها المثل القائل (كناقل التمر إلى هجر).

دارين والخط:

وهما أيضاً من مدن البحرين وقد شهر عن دارين الطيب [٧٨] ولها سوق وميناء، وكانت مدينة تجارية في صدر الإسلام، ثم ما لبث هذا النشاط التجاري أن انتقل منها إلى البصرة، أما الخط فقد شهر عنها أنها كانت تبيع العرب الرماح الهندية التي تجلبها من الهند. [٧٩]

وأكثر سير أهل البحرين ليلاً أو صباحاً لشدة الحرارة نهاراً، وبلادهم عامرة بالتجارة وكان للبحرين قديماً طريق لتجارة القوافل يصلها بعمان إلا أن (جبال الرمال) [٨٠] أغلقت هذا الطريق دون القوافل التجارية حتى صار أفضل طريق إلى عمان من البحرين هو الخليج العربي. [٨١]

كانت السلع القادمة من الهند إلى الخليج العربي تجتاز ذلك الخليج إلى الفرات حتى تصل بابل [٨٢]، ولا يغيب عن البال أنه لم يكن لهذه السلع من مفر إلا المرور على ثغور البحرين، التي كانت مركزاً تجارياً، واتخذت منتجاتها سبيلاً إلى بلاد ما بين النهرين قبل عام ٢٠٠٠ ق.م في الوقت الذي ربطت البحرين بالعراق صلات تجارية في تلك الحقبة يضاف إلى ذلك أن شعب البحرين كان يمارس التجارة منذ عصور مبكرة مع الهند [٨٣] فاستورد منها القطن إلى جانب المنتجات الهندية الأخرى، وكان يصل إلى البحرين ألف مركب [٨٤] وكانت السفن بينها وبين الهند في نشاط دائب. [٨٥]

ويبدو أن التجارة بالنسبة لشعب البحرين كانت دائماً أهم حرفة، بالإضافة إلى ما اشتهرت به البحرين من استخراج أجود أنواع اللؤلؤ فضلاً عن صيد الأسماك، ولهذه الأغراض جميعاً امتلكت أسطولاً بحرياً عظيماً، وهذا الأسطول اعتمد عليه شعب البحرين في الدفاع عن بلاده [٨٦]. وكذلك استخدمه المسلمون- فيما بعد- في فتح فارس. [٨٧]

وتحدث القزويني عن اللؤلؤ المستخرج من البحرين فقال «ودرره أحسن الأنواع» هذا وقد سكن البحرين أعظم غواصي اللؤلؤ في التاريخ، وكان يقصدها التجار من الأمم المختلفة بأموال

القطيف :

وهي من مدن البحرين (٧٤) أيضاً، وتقع على الخليج العربي في الوسط منه وبها مغاص اللؤلؤ ونخيلها قليل ليس كما في الإحساء. وهي على مسافة مرحلتين منها من الشرق. وبالقطيف مرسى للسفن الكبيرة وبينها وبين البصرة مسيرة ستة أيام وبين عمان مسيرة شهر (٧٥)، أهلها من العرب. (٧٦)

وهي مركز تجاري آخر على الساحل البحري للخليج، وغدت القطيف تكمل نشاط البحرين وقاعدة هامة تزود السفن العابرة للخليج بمصادر هامة من تجارة شبه الجزيرة العربية وسلعها. وقد ساعد هدوء مياه الخليج القطيف على دخول السفن إلى مينائها ونقل المتاجر منه بسهولة.

وكانت القطيف (٧٧) تنعم أيضاً بقدر طيب من المياه الجوفية ساعد على ازدهار الزراعة بها، واشتهرت القطيف بتنسيق زراعة النخيل وإمدادها بالمياه اللازمة حتى صارت مصدراً هاماً من مصادر التمور، حتى صار يضرب بها المثل القائل (كناقل التمر إلى هجر).

دارين والخط :

وهما أيضاً من مدن البحرين وقد شهر عن دارين الطيب (٧٨) ولها سوق وميناء، وكانت مدينة تجارية في صدر الإسلام، ثم ما لبث هذا النشاط التجاري أن انتقل منها إلى البصرة، أما الخط فقد شهر عنها أنها كانت تبيع العرب الرماح الهندية التي تجلبها من الهند. (٧٩)

وأكثر سير أهل البحرين ليلاً أو صباحاً لشدة الحرارة نهاراً، وبلادهم عامرة بالتجارة وكان للبحرين قديماً طريق لتجارة القوافل يصلها بعمان إلا أن (جبال الرمال) (٨٠) أغلقت هذا الطريق دون القوافل التجارية حتى صار أفضل طريق إلى عمان من البحرين هو الخليج العربي. (٨١)

كانت السلع القادمة من الهند إلى الخليج العربي تجتاز ذلك الخليج إلى الفرات حتى تصل بابل (٨٢)، ولا يغيب عن البال أنه لم يكن لهذه السلع من مفر إلا المرور على ثغور البحرين، التي كانت مركزاً تجارياً، واتخذت منتجاتها سبيلاً إلى بلاد ما بين النهرين قبل عام ٢٠٠٠ ق.م في الوقت الذي ربطت البحرين بالعراق صلات تجارية في تلك الحقبة يضاف إلى ذلك أن شعب البحرين كان يمارس التجارة منذ عصور مبكرة مع الهند (٨٣) فاستورد منها القطن إلى جانب المنتجات الهندية الأخرى، وكان يصل إلى البحرين ألف مركب (٨٤) وكانت السفن بينها وبين الهند في نشاط دائب. (٨٥)

ويبدو أن التجارة بالنسبة لشعب البحرين كانت دائماً أهم حرفة، بالإضافة إلى ما اشتهرت به البحرين من استخراج أجود أنواع اللؤلؤ فضلاً عن صيد الأسماك، ولهذه الأغراض جميعاً امتلكت أسطولاً بحرياً عظيماً، وهذا الأسطول اعتمد عليه شعب البحرين في الدفاع عن بلاده (٨٦). وكذلك استخدمه المسلمون- فيما بعد- فى فتح فارس. (٨٧)

وتحدث القزويني عن اللؤلؤ المستخرج من البحرين فقال «ودرره أحسن الأنواع» هذا وقد سكن البحرين أعظم غواصي اللؤلؤ في التاريخ، وكان يقصدها التجار من الأمم المختلفة بأموال

كثيرة، يستمر مقامهم بها إلى وقت الغوص(٨٨). كما كانت تقام بالقطيف الأسواق العظيمة لبيع اللؤلؤ. (٨٩)

ولا ريب في أن البحرين منذ القدم قد كان لها نشاط تجاري يفوق بقية أنواع النشاطات التي عرفت بها فجلبت إلى موانئها البضائع الهندية وغيرها من منتجات الشرق الأقصى فضلاً عن بضائع الحبشة وغيرها، وتعددت علاقاتها مع الأمم المختلفة المجاورة لها والبعيدة عنها حتى بلاد ما وراء النهرين والعراق و الشام والهند. وهكذا فقد خطت على صفحات التاريخ سطور مشرقة عن نشاطها التجاري عبر القرون.

عُمان

تتمتع عُمان بموقع متميز على ساحل بحر اليمن، طولها أربعة وثلاثون درجة، وثلاثون دقيقة، وعرضها تسع عشر درجة وخمسة وأربعون دقيقة (٩٠). وهي من ممالك شبه الجزيرة العربية، وموقعها من شبه الجزيرة في جهة الجنوب الغربي وهي غربي الخليج بذلك متصلة بالبحر ومتصلة بالصحراء، وعليه فقد أصبح سِكانها من الحضر والبدو (٩١) وقد أطلق عليها عمان نسبة إلى (عمان بن قحطان) الذي أول من نزلها. ملكها الأعاجم قديماً، وملكها في الإسلام «بنو الجلندي» وكان يكثر بها الخوارج الذين كثرت حروبهم مع ولاة «بني بويه» حتى قدمها «محمد بن القاسم» الذي بعثه إليها المعتضد فطرد الخوارج إلى نزوى وظل ملكه قائماً في أولاده حتى عمتهم الفتنة في سنة ٣٠٥هـ فتمكن منهم «أبوطاهر القرمطي» وأخذها من أيديهم في سنة ٣١٧هـ إلى سنة ٣٧٥هـ إلى حين تجمع الخوارج على القرامطة فأخذوها منهم حتى استعادها «بنومكرم» (٩٢) الذين ا ستعانوا عليها ببنى بويه في بغداد، فلما استحِالت دولة بن بويه إلى الضعف ملك بنو مكرم عمان وتوارثوِها.(٩٣)

يقول «زويمر» (Zwemer) ظلت عمان من النواحى التاريخية والسياسية والجغرافية دائماً أكثر جزءاً منعزلاً من شبه جزيرة العرب، وفيما يتعلق بالمواصلات الخارجية مع العرب الآخرين فقد كانت لعدة قرون خلت جزيرة يحيط بها البحر من جانب والصحراء من الجانب الآخر. والسكان أكثر بدائية على العموم من العرب. وليس هناك غير مسقط عيونها مفتوحة على العالم الواسع أي أنها الميناء الوحيد في كل عمان الذي تزوره السفن التجارية.(٩٤)

وعمان خمسة أقسام وتعد ظفار التي تقع بشرق حضرموت من تلك الأقسام، وتمتاز عمان بشدة الحرارة، إلا أنها تنعم بوفرة المتاجر وعظم الربح، عرف عنها كثرة الثمار، والنخيل، وسكانها جميعهم عرب مسلِمون قحطانيون أو عدنانيون (٩٥)، كما تزخر عمان بالمدن (٩٦)، وأهمها صحار ومسقط ورأس الجمحة ودما وغيرها.

صحار:

تقع صحار علِى ساحل المحيط الهندي، وهي من أجمل مدن عمان وأوفرها مالاً تغشاها المتاجر و تقصدها السفن (٩٧)، وهي عاصمة عمان، ومن أقدم مدنها، بينها وبين مسقط أربعمائة وخمسين ميلاً وكانت المراكب التجارية

كثيرة، يستمر مقامهم بها إلى وقت الغوص[٨٨]. كما كانت تقام بالقطيف الأسواق العظيمة لبيع اللؤلؤ.[٨٩]

ولا ريب في أن البحرين منذ القدم قد كان لها نشاط تجاري يفوق بقية أنواع النشاطات التي عرفت بها فجلبت إلى موانئها البضائع الهندية وغيرها من منتجات الشرق الأقصى فضلاً عن بضائع الحبشة وغيرها، وتعددت علاقاتها مع الأمم المختلفة المجاورة لها والبعيدة عنها حتى بلاد ما وراء النهرين والعراق و الشام والهند. وهكذا فقد خطت على صفحات التاريخ سطور مشرقة عن نشاطها التجاري عبر القرون.

عُمان

تتمتع عُمان بموقع متميز على ساحل بحر اليمن، طولها أربعة وثلاثون درجة، وثلاثون دقيقة، وعرضها تسع عشر درجة وخمسة وأربعون دقيقة [٩٠]. وهي من ممالك شبه الجزيرة العربية، وموقعها من شبه الجزيرة فى جهة الجنوب الغربي وهي غربي الخليج بذلك متصلة بالبحر ومتصلة بالصحراء، وعليه فقد أصبح سِكانها من الحضر والبدو [٩١] وقد أطلق عليها عمان نسبة إلى (عمان بن قحطان) الذي أول من نزلها. ملكها الأعاجم قديماً، وملكها في الإسلام «بنو الجلندي» وكان يكثر بها الخوارج الذين كثرت حروبهم مع ولاة «بني بويه» حتى قدمها «محمد بن القاسم» الذي بعثه إليها المعتضد فطرد الخوارج إلى نزوى وظل ملكه قائماً في أولاده حتى عمتهم الفتنة في سنة ٣٠٥هـ فتمكن منهم «أبوطاهر القرمطي» وأخذها من أيديهم في سنة ٣١٧هـ إلى سنة ٣٧٥هـ إلى حين تجمع الخوارج على القرامطة فأخذوها منهم حتى استعادها «بنومكرم» [٩٢] الذين ا ستعانوا عليها ببنى بويه في بغداد، فلما استحِالت دولة بن بويه إلى الضعف ملك بنو مكرم عمان وتوارثِوها.[٩٣]

يقول «زويمر» (Zwemer) ظلت عمان من النواحى التاريخية والسياسية والجغرافية دائماً أكثر جزءاً منعزلاً من شبه جزيرة العرب، وفيما يتعلق بالمواصلات الخارجية مع العرب الآخرين فقد كانت لعدة قرون خلت جزيرة يحيط بها البحر من جانب والصحراء من الجانب الآخر. والسكان أكثر بدائية على العموم من العرب. وليس هناك غير مسقط عيونها مفتوحة علىٍ العالم الواسع أي أنها الميناء الوحيد في كل عمان الذي تزِوره السفن التجارية.[٩٤]

وعمان خمسة أقسام وتعد ظفار التي تقعٍ بشرق حضرموت من تلك الأقسام، وتمتاز عمان بشدة الحرارة، إلا أنها تنعم بوفرة المتاجر وعظم الربح، عرف عنها كثرة الثمار، والنخيل، وسكانها جميعهم عرب مسلمِون قحطانيون أو عدنانيون [٩٥]، كما تزخر عمان بالمدن [٩٦]، وأهمها صحار ومسقط ورأس الجمحة ودما وغيرها.

صحار:

تقع صحار علِى ساحل المحيط الهندي، وهي من أجمل مدن عمان وأوفرها مالاً تغشاها المِتاجر و تقصدها السفن [٩٧]، وهي عاصمة عمان، ومن أقدم مدنها، بينها وبين مسقط أربعمائة وخمسين ميلاً وكانت المراكب التجارية

تخرج منها قديماً إلى الصين (٩٨)، ذكرها المقدسي في عبارة لطيفة فقال «إنها دهليز الصين وخزانة الشرق». (٩٩)

اشتهرت صحار كمركز تجاري لأنها صارت ملتقى السفن التجارية المحملة بسلع الخليج العربي ونقطة الانطلاق بتلك المتاجر إلى الشرق الأقصى حيث الهند والصين أو إلى شرق أفريقيا(١٠٠)، وتجمعت كذلك بها تلك السفن التجارية عند عودتها من رحلاتها قبل انعطافها إلى الخليج حيث تفرغ جزءاً من حمولتها في هذا المركز التجاري الكبير. (١٠١)

وشابهت صحار مراكز الخليج في أنها كانت ملتقى طرق القوافل المارة بجنوب شبه الجزيرة العربية وفضلاً عن ذلك قام إلى الخلف منها سهل ساحلي صالح لزراعة بضع الحبوب والفواكه وجدت السفن التجارية في صحار مصدراً هاماً لتموينها بالمياه والمواد الغذائية قبل انطلاقها في رحلاتها الطويلة. (١٠٢)

وقد وصف ابن حوقل إرتباط صحار بنشاط عُمان الاقتصادي قائلاً وعمان ناحية ذات أقاليم مستقلة بأهلها، فسحة، كثيرة النخل والفواكه من الموز الرمان والنبق ونحو ذلك، وقصبتها صحار وهي على البحر وبها من التجار والتجارة ما لا يحصى كثره، وهي أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالاً، ولا يكاد يعرف على شط بحر فارس (الخليج العربي) بجميع بلاد الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالاً من صحار. (١٠٣)

أما المقدسي فقد وصفها قائلاً «صحار هي قصبة عمان، ليس على بحر الصين اليوم بلد أجمل منه، عامر، آهل، حسن، طيب، نزه، ذو يسار، وتجار وفواكه، وخيرات.. أسواق عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر، دورهم من الآجر والساج، شاهقة نفيسة.. وهي في سعة من كل شيء، دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن». (١٠٤)

مسقط:

أما مسقط فكانت بموقعها الممتاز المطل على الخليج العربي واسطة عمان إلى العالم الخارجى تستقبل السفن (١٠٥) من الهند والسند والزنج (١٠٦) وقد تمكن تجار مسقط قبل نهاية القرن التاسع الميلادي من خلق علاقات تجارية بينهم وبين كانتون، وسيام بفضل زحهفم المتواصل إلى تلك الأصقاع الشرقية البعيدة. بل كان المنتجات الصينية من الأقمشة الحريرية والصوفية والأوانى الخزفية يتوالى ورودها على مسقط (١٠٧) وهكذا يمكن القول بأن سفن صحار ومسقط التجارية كانت تتخذ طريقها إلى الهند والصين فى حركة دائبة. (١٠٨)

ظفار:

تقع ظفار أيضاً على ساحل المحيط الهندي(١٠٩)، شرقي حضرموت، وهي من المدن الكبيرة من عمان، تتبعها عدة مدن وقرى وكان بها ثغر يستقبل السفن، ويأتي إليها التجار بالبضائع (١١٠)، المتعددة من أرجاء شبه الجزيرة العربية لا سيما الجياد الأصيلة التي كانت تشحن من ظفار بالسفن إلى بلاد الهند. (١١١)

وظفار التي عدت قسماً أو إقليماً من البلاد العُمانية كان لها بدن شك نشاط تجاري على البحر. وسكان ظفار من المسلمين، يشتغل أكثرهم

تخرج منها قديماً إلى الصين [٩٨]، ذكرها المقدسي في عبارة لطيفة فقال «إنها دهليز الصين وخزانة الشرق». [٩٩]

اشتهرت صحار كمركز تجاري لأنها صارت ملتقى السفن التجارية المحملة بسلع الخليج العربي ونقطة الانطلاق بتلك المتاجر إلى الشرق الأقصى حيث الهند والصين أو إلى شرق أفريقيا[١٠٠]، وتجمعت كذلك بها تلك السفن التجارية عند عودتها من رحلاتها قبل انعطافها إلى الخليج حيث تفرغ جزءاً من حمولتها في هذا المركز التجاري الكبير. [١٠١]

وشابهت صحار مراكز الخليج في أنها كانت ملتقى طرق القوافل المارة بجنوب شبه الجزيرة العربية وفضلاً عن ذلك قام إلى الخلف منها سهل ساحلي صالح لزراعة بضع الحبوب والفواكه وجدت السفن التجارية في صحار مصدراً هاماً لتموينها بالمياه والمواد الغذائية قبل انطلاقها في رحلاتها الطويلة. [١٠٢]

وقد وصف ابن حوقل إرتباط صحار بنشاط عمان الاقتصادي قائلاً وعمان ناحية ذات أقاليم مستقلة بأهلها، فسحة، كثيرة النخل والفواكه من الموز الرمان والنبق ونحو ذلك، وقصبتها صحار وهي على البحر وبها من التجار والتجارة ما لا يحصى كثره، وهي أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالاً، ولا يكاد يعرف على شط بحر فارس (الخليج العربي) بجميع بلاد الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالاً من صحار. [١٠٣]

أما المقدسي فقد وصفها قائلاً «صحار هي قصبة عمان، ليس على بحر الصين اليوم بلد أجمل منه، عامر، آهل، حسن، طيب، نزه، ذو يسار، وتجار وفواكه، وخيرات.. أسواق عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر، دورهم من الآجر والساج، شاهقة نفيسة.. وهي في سعة من كل شيء، دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن». [١٠٤]

مسقط:

أما مسقط فكانت بموقعها الممتاز المطل على الخليج العربي واسطة عمان إلى العالم الخارجى تستقبل السفن [١٠٥] من الهند والسند والزنج [١٠٦] وقد تمكن تجار مسقط قبل نهاية القرن التاسع الميلادي من خلق علاقات تجارية بينهم وبين كانتون، وسيام بفضل زحهفم المتواصل إلى تلك الأصقاع الشرقية البعيدة. بل كان المنتجات الصينية من الأقمشة الحريرية والصوفية والأوانى الخزفية يتوالى ورودها على مسقط [١٠٧] وهكذا يمكن القول بأن سفن صحار ومسقط التجارية كانت تتخذ طريقها إلى الهند والصين فى حركة دائبة. [١٠٨]

ظفار:

تقع ظفار أيضاً على ساحل المحيط الهندي[١٠٩]، شرقي حضرموت، وهي من المدن الكبيرة من عمان، تتبعها عدة مدن وقرى وكان بها ثغر يستقبل السفن، ويأتي إليها التجار بالبضائع [١١٠]، المتعددة من أرجاء شبه الجزيرة العربية لا سيما الجياد الأصيلة التي كانت تشحن من ظفار بالسفن إلى بلاد الهند. [١١١]

وظفار التي عدت قسماً أو إقليماً من البلاد العمانية كان لها بدن شك نشاط تجاري على البحر. وسكان ظفار من المسلمين، يشتغل أكثرهم

بالتجارة وكانوا يجلبون الملابس القطنية والأرز من الهند [١١٢]، وأهم منتجات ظفار اللبان ففي جبالها أشجار ما أن تجرح حتي يسيل منها اللبان. [١١٣]

وهكذا نرى بأن ظفار قد أفادت من موقعها على المحيط الهندي، وكان لها أهمية تجارية نتيجة ذلك الموقع إذ جلبت المتاجر من الهند وصدرت إليها.

اشتهرت عمان أيضاً بمغاصات اللؤلؤ، فنجدها في دماً وهي قرية عمانية على الساحل[١١٤] وقد أدت كثرة مغاصات اللؤلؤ بعمان وندرة أنواعه [١١٥]، إلى أن تفرض «كيش» على تجار اللؤلؤ (شيء معلوم) مقابل ابتياعهم الدر من الغواصين، على أن حاكم تلك الجزيرة كان يستأثر بالجواهر النادرة لنفسه.[١١٦]

ومن خلال هذا العرض يتضح لنا بأنّ شعب عمان مارس تجارة عريضة عبر البرِ والبحر منذ نعومة أظافره، حيث كانت السفن العمانية تجوب شواطىء المحيط الهندي غير عابئة بالمسافة والمخاطر التي كانت تهدد الرحلة.

فمن مسقط وصحار اتخذت السفن العُمانية طريقها إلى الصين والهند، حتى إذا استجمعت المتاجر الشرقية الثمِينة من تلك البلاد وغيرها، تعود أدراجها إلى عمان فتقام الأسواق العظيمة[١١٧]، ثم تمتد الرحلة عبر الخليج العربي إلى الفرات حيث تتعدد وجهة تلك المتاجر الشرقية إلى عدة جهات، فمن البصرة تتخذ طريقاً إلى بغداد أو إلى الشام حيث تصدر إلى أورووبا أو تهبط من دِمشق إلى مصر.

وهكذا فقد ظلت عمان تزهو بما تحت يدها من تجارة الهند والصين منذ أكثر من ٥٠٠٠ سنة ق.م [١١٨]، إلى أن تحولت التجارة الشرقية إلى عدن عند القرن الحادي عشر الميلادي بسبب الغارات التي كانت تشنها جزيرة (كيش) على السفن التجارية والمسافرين إلى عمان والخليج العربي، ومهما يكن من أمر فإن أهل عمان كانوا أوائل وأهم من نقل التجارة عبر البحر في العالم الشرقي [١١٩]، اتخذت سفنهم التجارية طريقها إلى الهند، والصين، والحبشة، ومدغشقر، وأفريقيا[١٢٠]، حتى وصلوا إلى بلاد الروس[١٢١]، ولا يقلل من الدور العظيم الذي لعبوه في التجارة، وأثرهم على النشاط بين الشرق والغرب تلك الصعِاب التي قابلتهم في كيش وهرمز، ففضل عمان على العالمين الشرقي والغربي سبق ذلك بقرون عديدة.

وهكذا فإن السمات المشتركة التي جمعت بين جميع المراكز التجارية التي تحدثنا عنها فيما مضى جعلت منها حلقات مترابطة تحيط بطريق الخليج العربي التجاري، وتقدم له كافة أسباب الازدهار والرواج، وكان أهم تلك السمات المشتركة هو ارتباطها بخلفية واسعة من مناطق الإنتاج الزراعي والصناعي والثروة الثمينة التي كان قاع البحر يزخر بها والتي تمثلت في أجود أنواع اللآلىء، وازدياد الثراء والعمران في أرجائها، وأخيراً اتساع خبرة أهلها بشؤون المال واستثماره، إذ جعلت هذه السمات من تلك المراكز أسواقاً وقواعد رئيسية ليست للتجارة المحلية فحسب، ولكن للتجارة الشرقية كذلك، وحلقات ربط الخليج بمصادر هذه التجارة الخارجية في الهند والصين وشرق أفريقيا.

سادساً - أهمية الدور العُمانى فى تجارة الخليج:

بالتجارة وكانوا يجلبون الملابس القطنية والأرز من الهند (١١٢)، وأهم منتجات ظفار اللبان ففي جبالها أشجار ما أن تجرح حتي يسيل منها اللبان. (١١٣)

وهكذا نرى بأن ظفار قد أفادت من موقعها على المحيط الهندي، وكان لها أهمية تجارية نتيجة ذلك الموقع إذ جلبت المتاجر من الهند وصدرت إليها.

اشتهرت عمان أيضاً بمغاصات اللؤلؤ، فنجدها في دماً وهي قرية عمانية على الساحل(١١٤) وقد أدت كثرة مغاصات اللؤلؤ بعمان وندرة أنواعه (١١٥)، إلى أن تفرض «كيش» على تجار اللؤلؤ (شيء معلوم) مقابل ابتياعهم الدر من الغواصين، على أن حاكم تلك الجزيرة كان يستأثر بالجواهر النادرة لنفسه.(١١٦)

ومن خلال هذا العرض يتضح لنا بأنّ شعب عمان مارس تجارة عريضة عبر البرِ والبحر منذ نعومة أظافره، حيث كانت السفن العمانية تجوب شواطىء المحيط الهندي غير عابئة بالمسافة والمخاطر التي كانت تهدد الرحلة.

فمن مسقط وصحار اتخذت السفن العُمانية طريقها إلى الصين والهند، حتى إذا استجمعت المتاجر الشرقية الثمِينة من تلك البلاد وغيرها، تعود أدراجها إلى عمان فتقام الأسواق العظيمة(١١٧)، ثم تمتد الرحلة عبر الخليج العربي إلى الفرات حيث تتعدد وجهة تلك المتاجر الشرقية إلى عدة جهات، فمن البصرة تتخذ طريقاً إلى بغداد أو إلى الشام حيث تصدر إلى أورووبا أو تهبط من دِمشق إلى مصر.

وهكذا فقد ظلت عمان تزهو بما تحت يدها من تجارة الهند والصين منذ أكثر من ٥٠٠٠ سنة ق.م (١١٨)، إلى أن تحولت التجارة الشرقية إلى عدن عند القرن الحادي عشر الميلادي بسبب الغارات التي كانت تشنها جزيرة (كيش) على السفن التجارية والمسافرين إلى عمان والخليج العربي، ومهما يكن من أمر فإن أهل عمان كانوا أوائل وأهم من نقل التجارة عبر البحر في العالم الشرقي (١١٩)، اتخذت سفنهم التجارية طريقها إلى الهند، والصين، والحبشة، ومدغشقر، وأفريقيا(١٢٠)، حتى وصلوا إلى بلاد الروس(١٢١)، ولا يقلل من الدور العظيم الذي لعبوه في التجارة، وأثرهم على النشاط بين الشرق والغرب تلك الصعاب التي قابلتهم في كيث وهرمز، ففضل عمان على العالمين الشرقي والغربي سبق ذلك بقرون عديدة.

وهكذا فإن السمات المشتركة التي جمعت بين جميع المراكز التجارية التي تحدثنا عنها فيما مضى جعلت منها حلقات مترابطة تحيط بطريق الخليج العربي التجاري، وتقدم له كافة أسباب الازدهار والرواج، وكان أهم تلك السمات المشتركة هو ارتباطها بخلفية واسعة من مناطق الإنتاج الزراعي والصناعي والثروة الثمينة التي كان قاع البحر يزخر بها والتي تمثلت في أجود أنواع اللآلىء، وازدياد الثراء والعمران في أرجائها، وأخيراً اتساع خبرة أهلها بشؤون المال واستثماره، إذ جعلت هذه السمات من تلك المراكز أسواقاً وقواعد رئيسية ليست للتجارة المحلية فحسب، ولكن للتجارة الشرقية كذلك، وحلقات ربط الخليج بمصادر هذه التجارة الخارجية في الهند والصين وشرق أفريقيا.

سادساً - أهمية الدور العُمانى فى تجارة الخليج :

إن الحقيقة التي لا يتسلل إليها أدنى شك هي أن الشعب العماني قد لعب دوراً تميز بحيوية بالغة، هو بهذا الدور يكون قد تفوق على الشعوب الأخرى في هذه المنطقة التي يعيش معها على رقعة وحدة هي «الخليج العربي».

إن مرد ذلك إلى عدة عوامل هي:

١- موقع جغرافي فريد من نوعه (حيث تطل عمان على الخليج والمحيط الهندي في آن واحد)

٢- مساحة كبيرة نسبياً.

٣- كثافة سكانية بالمقارنة مع الأجزاء الأخرى بالمنطقة.

٤- موارد اقتصادية هائلة تمثلت في (زراعة كثيفة، مغاصات غنية باللولؤ، ونشاط تجاري كبير).

٥- حيوية، ونشاط امتاز بها شعب هذه البلاد منذ القدم.

كل هذه العوامل ساعدت هذا الشعب على أن يبدع، ويتفنن في خلق دول كبيرة وقوية استطاعت أن تخلق حضارة ليس في منطقتها فقط، وإنما خرجت بها إلى أصقاع أخرى امتدت فيما بعد إلى شرق أفريقيا.

وعلى سبيل المثال فإن دولةكدولة اليعاربة التي أنشأها العمانيون، قد احتلت في بعض الأوقات المكانة العليا في ملاحة الخليج، والمحيط الهندي، فقد وصل نشاطها التجاري، والملاحي إلى سواحل الهند، وإلى شرق أفريقيا. (١٢٢)

كما ساهمت في نشر الإسلام واللغة العربية في شرق أفريقيا، ولا ينكر تأثيرها الذي لا يزال في المجتمع السواحلي في شرق أفريقيا. (١٢٣) بل أصبحت من القوة أن قارعت كثير من الأساطيل الغازية والطامعة التي هددت هذه المنطقة.

في الحقيقة إن هذه الظاهرة، التي رافقت شعب هذه المنطقة منذ القدم والتي تحدثنا عنها قبل قليل، وقد جعلت أعداء هذا الشعب يحسبون له ألف حساب في مخططاتهم التي عكفوا على وضعها للمنطقة فيما بعد. ذلك لأن عمان كانت أقوى قوة محلية في الخليج العربي، وكان أسطولها أقوى أسطول محلي خلال القرن السابع عشر، إلى درجة أن كثيراً ما هاجم العمانيون السواحل الإيرانية فلم يستطع الإيرانيون رد الأذى عن أنفسهم. (١٢٤).

سابعاً - أهم الطرق التى سلكتها قوافل التجارة من وإلي منطقة الخليج:

قام العرب بنشاط تجاري واسع النطاق في العصور الوسطى، وهذا النشاط تجاوز حدود دولتهم المترامية الأطراف، الممتدة من المحيط إلى الخليج، وقد قامت منطقة الخليج العربي والثغور الواقعة على سواحلها بدور ملحوظ امتد إلى آسيا، وشمالاً إلى بلاد العراق والشام وأوروبا، وغرباً إلى مصر وجنوباً إلى بلاد الحبشة وسائر بلاد ساحل أفريقيا الشرقي حتى تم الربط بفضل هذا النشاط بين الشرق والغرب والشمال والجنوب.

وتلك التجارة العربية العظيمة، اتخذت عدة طرق برية وبحرية سلكها العرب منذ القدم للتجارة في بلادهم وخارجها.

ثامناً - الطرق البرية:

أما الطرق البرية التي كانت تنقل خلالها السلع المنوعة إلى أرجاء شبه الجزيرة العربية

إن الحقيقة التي لا يتسلل إليها أدنى شك هي أن الشعب العماني قد لعب دوراً تميز بحيوية بالغة، هو بهذا الدور يكون قد تفوق على الشعوب الأخرى في هذه المنطقة التي يعيش معها على رقعة وحدة هي «الخليج العربي».

إن مرد ذلك إلى عدة عوامل هي:

١- موقع جغرافي فريد من نوعه (حيث تطل عمان على الخليج والمحيط الهندي في آن واحد)

٢- مساحة كبيرة نسبياً.

٣- كثافة سكانية بالمقارنة مع الأجزاء الأخرى بالمنطقة.

٤- موارد اقتصادية هائلة تمثلت في (زراعة كثيفة، مغاصات غنية باللولؤ، ونشاط تجاري كبير).

٥- حيوية، ونشاط امتاز بها شعب هذه البلاد منذ القدم.

كل هذه العوامل ساعدت هذا الشعب على أن يبدع، ويتفنن في خلق دول كبيرة وقوية استطاعت أن تخلق حضارة ليس في منطقتها فقط، وإنما خرجت بها إلى أصقاع أخرى امتدت فيما بعد إلى شرق أفريقيا.

وعلى سبيل المثال فإن دولةكدولة اليعاربة التي أنشأها العمانيون، قد احتلت في بعض الأوقات المكانة العليا في ملاحة الخليج، والمحيط الهندي، فقد وصل نشاطها التجاري، والملاحي إلى سواحل الهند، وإلى شرق أفريقيا. [١٢٢]

كما ساهمت في نشر الإسلام واللغة العربية في شرق أفريقيا، ولا ينكر تأثيرها الذي لا يزال في المجتمع السواحلي في شرق أفريقيا. [١٢٣] بل أصبحت من القوة أن قارعت كثير من الأساطيل الغازية والطامعة التي هددت هذه المنطقة.

في الحقيقة إن هذه الظاهرة، التي رافقت شعب هذه المنطقة منذ القدم والتي تحدثنا عنها قبل قليل، وقد جعلت أعداء هذا الشعب يحسبون له ألف حساب في مخططاتهم التي عكفوا على وضعها للمنطقة فيما بعد. ذلك لأن عمان كانت أقوى قوة محلية في الخليج العربي، وكان أسطولها أقوى أسطول محلي خلال القرن السابع عشر، إلى درجة أن كثيراً ما هاجم العمانيون السواحل الإيرانية فلم يستطع الإيرانيون رد الأذى عن أنفسهم. [١٢٤].

سابعاً - أهم الطرق التى سلكتها قوافل التجارة من وإلي منطقة الخليج :

قام العرب بنشاط تجاري واسع النطاق في العصور الوسطى، وهذا النشاط تجاوز حدود دولتهم المترامية الأطراف، الممتدة من المحيط إلى الخليج، وقد قامت منطقة الخليج العربي والثغور الواقعة على سواحلها بدور ملحوظ امتد إلى آسيا، وشمالاً إلى بلاد العراق والشام وأوروبا، وغرباً إلى مصر وجنوباً إلى بلاد الحبشة وسائر بلاد ساحل أفريقيا الشرقي حتى تم الربط بفضل هذا النشاط بين الشرق والغرب والشمال والجنوب.

وتلك التجارة العربية العظيمة، اتخذت عدة طرق برية وبحرية سلكها العرب منذ القدم للتجارة في بلادهم وخارجها.

ثامناً - الطرق البرية :

أما الطرق البرية التي كانت تنقل خلالها السلع المنوعة إلى أرجاء شبه الجزيرة العربية

وإلى البلاد الأخرى البعيدة عنها بواسطة قوافل الجمال، التي كان ملاكها من التجار العرب كثيرة ومتعددة. وكان على رأس تلك الطرق البرية:-

١- طريق يصل عُمان ببلاد العراق، وهو طريق شرقي حيث أن هناك طريق آخر غربي يربط اليمن بالشام، ففي هذا الطريق الشرقي من عمان كانت تنقل السلع المجلوبة من اليمن والهند وفارس بالقوافل التجارية إلى العراق وحتى بلاد الشام، وفي هذا الطريق يمر التجار على الأسواق المختلفة فيبيعون ويشترون.

وهذا الطريق الشرقي لقوافل التجارة الذي كان يصل عمان ببلاد العاق، وكان يسير بمحاذاة ساحل الخليج العربي، ويمتد من البصرة إلى عبادان.

كما لعبت البحرين دوراً نشطاً في عملية الاتصال بين تجارة الشرق والغرب ذلك أن السلع الآتية عن طريق المحيط الهندي كانت تصب في الثغور الشرقية لشبه الجزيرة العربية التي كانت تسلك الطريق البرّي الذي يصل البحرين بالعراق، وهو الطريق الذي يعد ا متداداً للطريق البري الشرقي الذي كان يصل جنوب شبه الجزيرة بغرب العراق حتى أسواق الشام ناقلاً منتجات الهند وفارس. و لما كانت الرمال قد قطعت ذلك الطريق في جزئه الجنوبي الذي يربط البحرين بعمان، لذلك فقد اضطرت القوافل أن تسلك هذا الطريق من القطيف وتتجه شمالاً إلى بابل، بل إن ذلك الطريق يعتبر من أقدم الطرق البرية التي كانت تسلكها القوافل التجارية بالبحرين.

وكان للبحرين قديماً طريق لتجارة القوافل يصلها بعمان إلا أن (جبال الرمال) أغلقت هذا الطريق دون القوافل التجارية حتى أصبح ذلك الطريق المشار إليه أعلاه أفضل طريق إلى عمان والبحرين.

يحدثنا مايلز ((Miles عن ذلك الطريق فيشر إلى أن خطورة هذا الطريق جعلت عمان تعتمد في تجارتها على البحر أكثر من البر لأن الرمال العظيمة خلفها كانت (حصن لا يقهر في سبيل الاتصال البري) وعليه فإن قوافل عمان كانت عبر الجزيرة العربية قليلة مع أنها تمكنت من الاستحواذ على قدر عظيم من المتاجر الشرقية عبر البحار.(١٢٥)

٢- أما الطريق الغربي من اليمن إلى الحجاز والشام، فكانت تقطعه القوافل محملة بالسلع اليمنية والحبشية والهندية، وتعود بالمنتجات الشامية والحجازية إلى اليمن ومنها تصدر إلى بلاد الهند والحبشة بطريق البحر.(١٢٦)

وعن الطريق البرية في حقبة من أحقابها يتفق بعض الذين جابوا المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية أو كتبوا عنها في أن طريق قوافل التجارة الذي كان يصل البصرة شمالاً بعمان محاذياً لساحل الخليج العربي ماراً بالبحرين، وذلك الطريق في امتداده من البحرين إلى عمان كانت تقطعه كثبان الرمل الواقعة بينهما، وأن أفضل طريق من البحرين إلى عمان كان عبر الخليج العربي. يؤكد (مايلز) نفسه هذه الحقيقة فيذكر بأن الاتصال الذي بين عمان وغرب شبه الجزيرة العربية لم يكن ميسوراً بسبب تلك الرمال المترامية خلفها، ولذلك كان نشاط عمان

وإلى البلاد الأخرى البعيدة عنها بواسطة قوافل الجمال، التي كان ملاكها من التجار العرب كثيرة ومتعددة. وكان على رأس تلك الطرق البرية:-

١- طريق يصل عُمان ببلاد العراق، وهو طريق شرقي حيث أن هناك طريق آخر غربي يربط اليمن بالشام، ففي هذا الطريق الشرقي من عمان كانت تنقل السلع المجلوبة من اليمن والهند وفارس بالقوافل التجارية إلى العراق وحتى بلاد الشام، وفي هذا الطريق يمر التجار على الأسواق المختلفة فيبيعون ويشترون.

وهذا الطريق الشرقي لقوافل التجارة الذي كان يصل عمان ببلاد العاق، وكان يسير بمحاذاة ساحل الخليج العربي، ويمتد من البصرة إلى عبادان.

كما لعبت البحرين دوراً نشطاً في عملية الاتصال بين تجارة الشرق والغرب ذلك أن السلع الآتية عن طريق المحيط الهندي كانت تصب في الثغور الشرقية لشبه الجزيرة العربية التي كانت تسلك الطريق البرّي الذي يصل البحرين بالعراق، وهو الطريق الذي يعد ا متداداً للطريق البري الشرقي الذي كان يصل جنوب شبه الجزيرة بغرب العراق حتى أسواق الشام ناقلاً منتجات الهند وفارس. و لما كانت الرمال قد قطعت ذلك الطريق في جزئه الجنوبي الذي يربط البحرين بعمان، لذلك فقد اضطرت القوافل أن تسلك هذا الطريق من القطيف وتتجه شمالاً إلى بابل، بل إن ذلك الطريق يعتبر من أقدم الطرق البرية التي كانت تسلكها القوافل التجارية بالبحرين.

وكان للبحرين قديماً طريق لتجارة القوافل يصلها بعمان إلا أن (جبال الرمال) أغلقت هذا الطريق دون القوافل التجارية حتى أصبح ذلك الطريق المشار إليه أعلاه أفضل طريق إلى عمان والبحرين.

يحدثنا مايلز ((Miles عن ذلك الطريق فيشر إلى أن خطورة هذا الطريق جعلت عمان تعتمد في تجارتها على البحر أكثر من البر لأن الرمال العظيمة خلفها كانت (حصن لا يقهر في سبيل الاتصال البري) وعليه فإن قوافل عمان كانت عبر الجزيرة العربية قليلة مع أنها تمكنت من الاستحواذ على قدر عظيم من المتاجر الشرقية عبر البحار. (١٢٥)

٢- أما الطريق الغربي من اليمن إلى الحجاز والشام، فكانت تقطعه القوافل محملة بالسلع اليمنية والحبشية والهندية، وتعود بالمنتجات الشامية والحجازية إلى اليمن ومنها تصدر إلى بلاد الهند والحبشة بطريق البحر. (١٢٦)

وعن الطريق البرية في حقبة من أحقابها يتفق بعض الذين جابوا المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية أو كتبوا عنها في أن طريق قوافل التجارة الذي كان يصل البصرة شمالاً بعمان محاذياً لساحل الخليج العربي ماراً بالبحرين، وذلك الطريق في امتداده من البحرين إلى عمان كانت تقطعه كثبان الرمل الواقعة بينهما، وأن أفضل طريق من البحرين إلى عمان كان عبر الخليج العربي. يؤكد (مايلز) نفسه هذه الحقيقة فيذكر بأن الاتصال الذي بين عمان وغرب شبه الجزيرة العربية لم يكن ميسوراً بسبب تلك الرمال المترامية خلفها، ولذلك كان نشاط عمان

التجاري عبر الآفاق البحرية أوسع من نشاطها البري. (١٢٧)

هذان هما أهم الطرق البرية التي سلكتها قوافل التجارة داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها إلى العراق والشام.

غير أن ذلك لا يعني أنه لم يكن للعرب طرقاً تجارية أخرى سلكوها ولكنها اندثرت بسبب ما تراكم عليها من كثبان الرمال بفضل الرياح فأضاعت معالمها ولم تستطع المصادر التي بين أيدينا أن تعطينا صورة عنها.

تاسعاً - الطرق البحرية :

ومثلما عبر العرب الصحاري، والبوادي، حيث انتظمت رحلات قوافلهم التجارية منذ أقدم العصور، متنقلة بين أطرافها موصلة أرجائها بعضها ببعض، ناقلة المتاجر والسلع المتعددة أو جالبة لها. فإنهم أيضاً مارسوا التجارة من خلال البحر فركبوا البحار المحيطة بهم كالخليج العربي والمحيط الهندي والبحر الأحمر.

والأمر الذي لا ريب فيه هو أن العلاقات التجارية البحرية بين منطقة الخليج العربي ومنطقة شبه الجزيرة العربية وبين بلاد الشرق الأقصى لا سيما الهند موغلة في القدم وربما ترجع إلى سنة (٢٠٠٠) ق.م. إذ عثر على كتابات قديمة العهد تعود إلى ذلك التاريخ تدل على أن أهل عمان بجنوب شبه الجزيرة العربية كانوا يجلبون الأخشاب من ساحل الهند الغربي ويتاجرون فيها مع جيرانهم. (١٢٨)

كما استطاع الكلدانيون الانتقال إلى ساحل الإحساء ومارسوا من مدينتهم (جرها Gerrha) التجارة البحرية مع الهند بعد أن تحررت الثغور البابلية (١٢٩) على أيدي الفرس، وكذلك جذب اليمنيون جزءاً كبيراً من تجارة الهند وأفريقيا إلى ثغورهم منذ القدم (١٣٠) كانت السفن العربية منذ القدم تسلك في إبحارها إلى الشرق والغرب طريقين رئيسيين.

- أولهما الطريق البحرى من الصين إلى الخليج العربي حيث كانت البضائع والثروات تنقل من الشرق الأقصى، الهند فتمخر بحر الصين فالمحيط الهندي ثم البحر العربي فالخليج العربي حتى رأسه الشمالي جنوبي العراق، ومن هناك تنقل تلك الحمولات براً عبر العراق إلى حلب فموانىء البحر الأبيض المتوسط ليتم نقلها إلى البندقية وبقية أنحاء أوروبا. (١٣١)

- أما الطريق الثاني- فكان يبدأ من الشرق الأقصى والهند أيضاً فيمر ببحر الصين والمحيط الهندي، والبحر العربي ثم يدخل البحر الأحمر فترعة السويس ليبلغ سواحل البحر الأبيض المتوسط على الساحلين الآسيوي والأفريقي. وكانت تتفرع من هذا الطريق طرق ثانوية يسير بعضها إلى أفريقيا الشرقية وسواحلها وتتحدث الآثار السومرية والآكدية التي عثر عليها في بطن المدن التي اكتشفت حتى الآن في العراق عن الصلات البحرّية بين العراق والجزيرة العربية و سواحل الخليج العربي وجزره. (١٣٢)

وتوضح هذه الآثار أن التجارة قد توطدت في سنة (٢٥٠٠) ق.م. بين (دلمون) البحرين وعاصمة الدولة السومرية (لكش). وأن البحرين كانت تصدر إلى سومر في ذلك الوقت التمور والنحاس وكانت تحصل على التمور من اليمن أما النحاس فكان يجلب من مناجم «ماغن» أي

التجاري عبر الآفاق البحرية أوسع من نشاطها البري. (١٢٧)

هذان هما أهم الطرق البرية التي سلكتها قوافل التجارة داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها إلى العراق والشام.

غير أن ذلك لا يعني أنه لم يكن للعرب طرقاً تجارية أخرى سلكوها ولكنها اندثرت بسبب ما تراكم عليها من كثبان الرمال بفضل الرياح فأضاعت معالمها ولم تستطع المصادر التي بين أيدينا أن تعطينا صورة عنها.

تاسعاً - الطرق البحرية:

ومثلما عبر العرب الصحاري، والبوادي، حيث انتظمت رحلات قوافلهم التجارية منذ أقدم العصور، متنقلة بين أطرافها موصلة أرجائها بعضها ببعض، ناقلة المتاجر والسلع المتعددة أو جالبة لها. فإنهم أيضاً مارسوا التجارة من خلال البحر فركبوا البحار المحيطة بهم كالخليج العربي والمحيط الهندي والبحر الأحمر.

والأمر الذي لا ريب فيه هو أن العلاقات التجارية البحرية بين منطقة الخليج العربي ومنطقة شبه الجزيرة العربية وبين بلاد الشرق الأقصى لا سيما الهند موغلة في القدم وربما ترجع إلى سنة (٢٠٠٠) ق.م. إذ عثر على كتابات قديمة العهد تعود إلى ذلك التاريخ تدل على أن أهل عمان بجنوب شبه الجزيرة العربية كانوا يجلبون الأخشاب من ساحل الهند الغربي ويتاجرون فيها مع جيرانهم. (١٢٨)

كما استطاع الكلدانيون الانتقال إلى ساحل الإحساء ومارسوا من مدينتهم (جرها Gerrha) التجارة البحرية مع الهند بعد أن تحررت الثغور البابلية (١٢٩) على أيدي الفرس، وكذلك جذب اليمنيون جزءاً كبيراً من تجارة الهند وأفريقيا إلى ثغورهم منذ القدم (١٣٠) كانت السفن العربية منذ القدم تسلك في إبحارها إلى الشرق والغرب طريقين رئيسيين.

- أولهما الطريق البحرى من الصين إلى الخليج العربي حيث كانت البضائع والثروات تنقل من الشرق الأقصى، الهند فتمخر بحر الصين فالمحيط الهندي ثم البحر العربي فالخليج العربي حتى رأسه الشمالي جنوبي العراق، ومن هناك تنقل تلك الحمولات براً عبر العراق إلى حلب فموانىء البحر الأبيض المتوسط ليتم نقلها إلى البندقية وبقية أنحاء أوروبا. (١٣١)

- أما الطريق الثاني- فكان يبدأ من الشرق الأقصى والهند أيضاً فيمر ببحر الصين والمحيط الهندي، والبحر العربي ثم يدخل البحر الأحمر فترعة السويس ليبلغ سواحل البحر الأبيض المتوسط على الساحلين الآسيوي والأفريقي. وكانت تتفرع من هذا الطريق طرق ثانوية يسير بعضها إلى أفريقيا الشرقية وسواحلها وتتحدث الآثار السومرية والآكدية التي عثر عليها في بطن المدن التي اكتشفت حتى الآن في العراق عن الصلات البحرّية بين العراق والجزيرة العربية و سواحل الخليج العربي وجزره. (١٣٢)

وتوضح هذه الآثار أن التجارة قد توطدت في سنة (٢٥٠٠) ق.م. بين (دلمون) البحرين وعاصمة الدولة السومرية (لكش). وأن البحرين كانت تصدر إلى سومر في ذلك الوقت التمور والنحاس وكانت تحصل على التمور من اليمن أما النحاس فكان يجلب من مناجم «ماغن» أي

عُمان.

وهكذا فقد استمر تدفق السفن الشرقية على ثغور شرقي شبه الجزيرة العربية الواقعة على ساحل الخليج العربي وموانيها كذلك كانت رحلات التجار العرب عبر المحيط الهندي لا تنقطع، واستقرت جاليات منهم في جزر الهند الشرقية والصين واتخذوا لأنفسهم في تلك البلاد مراكز تجارية وأسواق وأحياء لسكناهم واستقرت جاليات أخرى في الهند وكوريا (١٣٣)، ومما لا شك فيه بأن وصول العرب إلى تلك الأصقاع البعيدة قد أكسبهم خبرة فائقة في الإلمام بالطرق البحرية، وأصول الملاحة وهذا تعكسه كثرة رحلاتهم التجارية عبر البحار الشرقية.■

الهوامش

١- سليم التكريتي- الصراع على الخليج العربي، بغداد سنة ١٩٦٦م ص ٣ ،باحث قطرى،
٢- سليم التكريتي- مرجع سابق ص ٣
٣- د. محمد رشيد الفيل- الأهمية الاستراتيجية للخليج العربي، الكويت ص ٢٥
٤- د. محمد الفيل- نفس المرجع، ص ١٥
٥- بيربي جان جاك- الخليج العربي، بيروت، تعريب نجدة هاجر وسعيد العز، وانظر د. الفيل مرجع سابق ص ١٩-٢٠
٦- علي حسن السليمان-النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية في العصور الوسطى سنة ١٩٧٤ ص ٥٣-٥٤
٧- سليم التكريتي- الصراع على الخليج العربي ص ٩
٨- سليم التكريتي- الصراع على الخليج العربي ص ١٦
٩- سليم التكريتي- الصراع على الخليج العربي ص ١٧
١٠- سليم التكريتي- مرجع سابق ص ١٧
١١- ابن خرداذبة (أبوالقاسم عبدالله بن عبدالله ت ٣٠٠هـ) المسالك والممالك، ليدن سنة ١٩٦٧ ص ٥٣.
١٢- د. محمد الفيل- الأهمية الاستراتيجية للخليج العربي ص ١٢٢
١٣- البلاذري (الإمام أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي ت ٢٧٩هـ) فتوح البلدان القاهرة سنة ١٩٠١ ص ٩٨
١٤- د. خالد العزي، الخليج العربي بين ماضيه وحاضره بغداد سنة ١٩٧٢م مطبعة الجاحظ ص ٢٧
١٥- سليم التكريتي- الصراع علي الخليج العربي ص ١١
١٦- سليمان إبراهيم العسكري- التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي- القاهرة سنة ١٩٧٢م ص ٥٩-٦٠
١٧- سليمان العسكرى- نفس المرجع ص ٥٧
١٨- البلاذري- فتوح البلدان ص ٤٧٣-٤٧٤
١٩- د. صالح العلي- التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري- بيروت سنة ١٩٦٩ ص ٢٥٨
٢٠- البلاذري- مرجع سابق ص ٥٥٤
٢١- WILSON:THE (PERSIAN) GULF LONDON 1959 P. 34
٢٢- د. رشيد الفيل- الأهمية الاستراتيجية للخليج العربي ص ٢١ وانظر بيربي الخليج العربي ص ٢٠٨
٢٣- بيربي- الخليج العربي ص ٢٠٩
٢٤- WILSON: O. P. CIT. P. 57
٢٥- السير ارنولدت، ويلسون- الخليج العربي مجمل تاريخى من أقدم الأزمنة حتى أوائل القرن العشرين نقله للعربية د. عبدالقادر يوسف، الكويت ص ٣١
٢٦- سليم التكريتي- الصراع على الخليج العربي ص ١٦-١٧
٢٧- ARNOLD WILSON: THE (PERSIAN) GULF P. 3,4 وانظر محمد متولي- حوض الخليج العربي (القاهرة ١٩٧١) ص ٦٤، ٦٣
٢٨- محمود طه أبوالعلا- جغرافية العالم الإسلامي، القاهرة سنة ١٩٦٨ ص ١٦
٢٩- جان جاك بيربي- الخليج العربي، ص ٢١
٣٠- سليمان العسكري- التجارة وأعلامه في الخليج العربي ص ٧
٣١- إبراهيم شريف- الموقع الجغرافي وأثره العام حتى الفتح الإسلامي- الطبعة الأولى بغداد ج١ ص ٢٢٥، ٢٢٦
٣٢- ياقوت الحموي- معجم البلدان (طبعة فستنفلد ليبزج) ج١ ص ٥٠٦
٣٣- إبراهيم شريف- نفس المرجع ج١ ص ٢٢٩
٣٤- د. محمد متولي- حوض الخليج العربي ص ٥٥
٣٥- المسعودي- مروج الذهب ومعادن الجوهر- ج١ ص ١١٣
٣٦- المسعودي- مرجع سابق ج١ ص ١١٥-١١٦
٣٧- المسعودي- مرجع سابق ج١ ص ١١٧
٣٨- سليمان العسكري- التجارة والملاحة في الخليج العربي ص ١٩١
٣٩- سليم التكريتي- الصراع على الخليج العربي ص ١٢
٤٠- د. رشيد الفيل- الأهمية الاستراتيجية للخليج العربي ص ١٨
٤١- انظر سليم التكريتي- مرجع سابق ص ١٢
٤٢- د. رشيد الفيل- الأهمية الاستراتيجية للخليج العربي ص ١٨
٤٣- د. محمد متولي- حوض الخليج العربي ص ٢٣٩
٤٤- فيليب حتى- تاريخ العرب العام، (بيروت ١٩٦٥ ط٢) ص ٣٢٨
٤٥- سليمان العسكري- التجارة والملاحة في الخليج العربي ص ٩٥
٤٦- الجاحظ- التبصر في التجارة ص ٦

عُمان.

وهكذا فقد استمر تدفق السفن الشرقية على ثغور شرقي شبه الجزيرة العربية الواقعة على ساحل الخليج العربي وموانيها كذلك كانت رحلات التجار العرب عبر المحيط الهندي لا تنقطع، واستقرت جاليات منهم في جزر الهند الشرقية والصين واتخذوا لأنفسهم في تلك البلاد مراكز تجارية وأسواق وأحياء لسكناهم واستقرت جاليات أخرى في الهند وكوريا (١٣٣)، ومما لا شك فيه بأن وصول العرب إلى تلك الأصقاع البعيدة قد أكسبهم خبرة فائقة في الإلمام بالطرق البحرية، وأصول الملاحة وهذا تعكسه كثرة رحلاتهم التجارية عبر البحار الشرقية.■

الهوامش

١- سليم التكريتي- الصراع على الخليج العربي، بغداد سنة ١٩٦٦م ص ٣ ،باحث قطرى،

٢- سليم التكريتي- مرجع سابق ص ٣

٣- د. محمد رشيد الفيل- الأهمية الاستراتيجية للخليج العربي، الكويت ص ٢٥

٤- د. محمد الفيل- نفس المرجع، ص ١٥

٥- بيربي جان جاك- الخليج العربي، بيروت، تعريب نجدة هاجر وسعيد العز، وانظر د. الفيل مرجع سابق ص ١٩-٢٠

٦- علي حسن السليمان-النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية في العصور الوسطى سنة ١٩٧٤ ص ٥٣-٥٤

٧- سليم التكريتي- الصراع على الخليج العربي ص ٩

٨- سليم التكريتي- الصراع على الخليج العربي ص ١٦

٩- سليم التكريتي- الصراع على الخليج العربي ص ١٧

١٠- سليم التكريتي- مرجع سابق ص ١٧

١١- ابن خرداذبة (أبوالقاسم عبدالله بن عبدالله ت ٣٠٠هـ) المسالك والممالك، ليدن سنة ١٩٦٧ ص ٥٣.

١٢- د. محمد الفيل- الأهمية الاستراتيجية للخليج العربي ص ١٢٢

١٣- البلاذري (الإمام أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي ت ٢٧٩هـ) فتوح البلدان القاهرة سنة ١٩٠١ ص ٩٨

١٤- د. خالد العزي، الخليج العربي بين ماضيه وحاضره بغداد سنة ١٩٧٢م مطبعة الجاحظ ص ٢٧

١٥- سليم التكريتي- الصراع علي الخليج العربي ص ١١

١٦- سليمان إبراهيم العسكري- التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي- القاهرة سنة ١٩٧٢م ص ٥٩-٦٠

١٧- سليمان العسكرى- نفس المرجع ص ٥٧

١٨- البلاذري- فتوح البلدان ص ٤٧٣-٤٧٤

١٩- د. صالح العلي- التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري- بيروت سنة ١٩٦٩ ص ٢٥٨

٢٠- البلاذري- مرجع سابق ص ٥٥٤

٢١- WILSON:THE (PERSIAN) GULF LONDON 1959 P. 34

٢٢- د. رشيد الفيل- الأهمية الاستراتيجية للخليج العربي ص ٢١ وانظر بيربي الخليج العربي ص ٢٠٨

٢٣- بيربي- الخليج العربي ص ٢٠٩

٢٤- WILSON: O. P. CIT. P. 57

٢٥- السير ارنولدت، ويلسون- الخليج العربي مجمل تاريخى من أقدم الأزمنة حتى أوائل القرن العشرين نقله للعربية د. عبدالقادر يوسف، الكويت ص ٣١

٢٦- سليم التكريتي- الصراع على الخليج العربي ص ١٦-١٧

٢٧- ARNOLD WILSON: THE (PERSIAN) GULF P. 3,4 وانظر محمد متولي- حوض الخليج العربي (القاهرة ١٩٧١) ص ٦٤، ٦٣

٢٨- محمود طه أبوالعلا- جغرافية العالم الإسلامي، القاهرة سنة ١٩٦٨ ص ١٦

٢٩- جان جاك بيربي- الخليج العربي، ص ٢١

٣٠- سليمان العسكري- التجارة وأعلامه في الخليج العربي ص ٧

٣١- إبراهيم شريف- الموقع الجغرافي وأثره العام حتى الفتح الإسلامي- الطبعة الأولى بغداد ج١ ص ٢٢٥، ٢٢٦

٣٢- ياقوت الحموي- معجم البلدان (طبعة فستنفلد ليبزج) ج١ ص ٥٠٦

٣٣- إبراهيم شريف- نفس المرجع ج١ ص ٢٢٩

٣٤- د. محمد متولي- حوض الخليج العربي ص ٥٥

٣٥- المسعودي- مروج الذهب ومعادن الجوهر- ج١ ص ١١٣

٣٦- المسعودي- مرجع سابق ج١ ص ١١٥-١١٦

٣٧- المسعودي- مرجع سابق ج١ ص ١١٧

٣٨- سليمان العسكري- التجارة والملاحة في الخليج العربي ص ١٩١

٣٩- سليم التكريتي- الصراع على الخليج العربي ص ١٢

٤٠- د. رشيد الفيل- الأهمية الاستراتيجية للخليج العربي ص ١٨

٤١- انظر سليم التكريتي- مرجع سابق ص ١٢

٤٢- د. رشيد الفيل- الأهمية الاستراتيجية للخليج العربي ص ١٨

٤٣- د. محمد متولي- حوض الخليج العربي ص ٢٣٩

٤٤- فيليب حتى- تاريخ العرب العام، (بيروت ١٩٦٥ ط٢) ص ٣٢٨

٤٥- سليمان العسكري- التجارة والملاحة في الخليج العربي ص ٩٥

٤٦- الجاحظ- التبصر في التجارة ص ٦

٤٧- ابن الفقيه- مختصر كتاب البلدان- (بغداد، مكتبة المثنى سنة ١٣٠٢هـ) ص ٥١
٤٨- د. صالح العلي- التنظيمات الإدارية والاقتصادية ص ٣٣
٤٩- المقدسي- أحسن التقاسيم بمعرفة الأقاليم (بغداد، مكتبة المثنى) ص ١١٧
٥٠- ابن حوقل- صورة الأرض، (منشورات مكتبة الحياة، بيروت) ص ٢١٤
٥١- ابن حوقل- مرجع سابق ص ٢١٤
٥٢ سليم التكريتي- الصراع على الخليج العربي ص ١١٩
٥٣- د. أنور عبدالعليم- الملاحة، وعلوم بحار العرب ص ٧٧-٧٨
٥٤- ياقوت- معجم ج١ ص ٧٧
٥٥- غنيمة- تجارة العراق ص ٢٩
٥٦- العلي- محاضرات في تاريخ العرب ص ٢٦-٢٧
٥٧- الخيرو- تجارة الخليج العربي، وآثارها في الحياة الاقتصادية في منطقة الخليج والعراق
٥٨- الطبري- ١/ص ٣٣٨٤، ابن الأثير- الكامل ج٢ ص ٢٨٧
٥٩- البلاذري- فتوح ص ٤٧٥ (القاهرة، المكتبة التجارية، ١٩٥٩). ياقوت- معجم (بيروت، دار صادر) ج١ ص ٩٧
٦٠- سليمان العسكري- التجارة والملاحة في الخليج العربي ص ١٠١
٦١- ياقوت الحموي- معجم البلدان ج١ ص ٥٠٦
٦٢- ابن حوقل- صورة الأرض ص ٣٣
٦٣- ياقوت الحموي- مرجع سابق ج٧ ص ٧٢، ٧٣
٦٤- الاصطخري- المسالك والممالك (بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٦٦م) ص ١٩
٦٥- ابن ماجد- الفرايد ص ٦٩
٦٦- ابن خلدون- كتاب العبر (بيروت، مكتبة المدرسة، ١٩٥٦-١٩٦١م) ج٤ ص ٩٢
٦٧- ابن خرداذبة- المسالك والممالك (بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٦٨م) ص ٥٧
٦٨- أوال عبارة عن أرخبيل يضم خمس جزر هي اليوم ١- أوال وفيها المنامة العاصمة ٢- المحرق ٣- سترة ٤- جدى ٥- نعسان
٦٩- الإدريسي- نزهة المشتاق (لبدن، برايل، ١٩٧٠-١٩٧٧) ص ٥٤
٧٠- ابن بطوطة- الرحلة ج٢ ص ٢١٦
٧١- القلقشندي- صبح الأعشى (القاهرة، المؤسسة المصرية العامة) ج٣ ص ٥٥
٧٢- ابن خلدون- العبر ج٤ ص ٩٢
٧٣- ناصر خسرو- سفرنامة ص ٤٢، ٩٤
٧٤- الإدريسي- نزهة المشتاق ص ٥٠
٧٥- القلقشندي- مرجع سابق ج٥ ص ٥٩
٧٦- Arnold Wilson: The (Persian) Gulf P. 91
٧٧- ذكر ياقوت أن القطيف مشتقة من القطف وهو القطع للعنب، انظر معجم البلدان ج٤ ص ١١٣
٧٨- ابن خلدون- العبر ج٤ ص ٩٢
٧٩- القلقشندي- مرجع سابق ج٢ ص ١٤
٨٠- تعرف هذه الرمال في المنطقة باسم (النجيان) وتشتهر بها المنطقة الواقعة اليوم بين السعودية وقطر، وبين الإمارات وقطر، وهي ما زالت تشكل عقبة أمام إقامة طرق للاتصالات البرية بين هذه البلدان، إلا أن قطر والسعودية قد فتحتا منذ سنوات طريقاً برياً بينهما وهناك رعاية مستمرة لإزالة الرمال التي ما تلبث أن تغطي هذا الطريق كما قامت قطر وأبوظبي بإنشاء طريق بري مشابه بينهما سهل من حركة ا لاتصال والتواصل بينهما.
٨١- ابن بطوطة- الرحلة ج١ ص ١٧٧
٨٢- ابن بطوطة- الرحلة ج١ ص ١٧٧
٨٣- Miles: The Countries and Tribes of the (Persian) Gulf P. 365
٨٤- أحمد صبحي- البحرين ودعوى إيران ص ١٩٩-٢٠٠
٨٥- ابن ماجد- الفرايد ص ٦٩
٨٦- القلقشندي- صبح الأعشى ج٧ ص ٣٧٠
٨٧- خالد العربي- الخليج العربي ص ٢٠
٨٨- أحمد صبحي- مرجع سابق ص ١٩٩-٢٠٠
٨٩- القزويني- آثار البلاد وأخبار العباد (بيروت، دار صادر، ١٩٦٠)
٩٠- الإدريسي- نزهة المشتاق ص ٥١-٥٢
٩١- ياقوت- معجم البلدان ٦/٢١٥
٩٢- جمال زكريا- الخليج الفارسي ص ٥٦
٩٣- ابن خلدون- مرجع سابق ص ٩٣
٩٤- ابن خلدون- مرجع سابق
٩٥- انظر أرنولت ويلسون- الخليج العربي ص ١٤٩
٩٦- Arnold Wilson: The (Persian) Gulf P. 77
٩٧- ياقوت- معجم البلدان ٦/٢١٥
٩٨- الاصطخري- المسالك والممالك ص ٢٧
٩٩- الإدريسي- نزهة المشتاق ص ٤٠-٤١
١٠٠- المقدسي- أحسن التقاسيم ص ٩٢
١٠١- جورج حوراني- العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ص ٢٠٨
١٠٢- محمد متولي- حوض الخليج العربي ص ٣٠٩
١٠٣- أبوزيد السيرافي- رحلة السيرافي إلى الهند والصين، بغداد سنة ١٩٣١ ص ٣٥
١٠٤- ابن حوقل- صورة الأرض (بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٤م) ص ٤٤
١٠٥- المقدسي- مرجع سابق ص ٩٢
١٠٦- Wilson: The (persian) Gulf P. 77
١٠٧- القلقشندي- صبح الأعشى ج٥ ص ٥٥
١٠٨- Miles: The Countries and Trips P. 365
١٠٩- Heyd W.: Histoire du comerco du hevante

٤٧- ابن الفقيه- مختصر كتاب البلدان- (بغداد، مكتبة المثنى سنة ١٣٠٢هـ) ص ٥١
٤٨- د. صالح العلي- التنظيمات الإدارية والاقتصادية ص ٣٣
٤٩- المقدسي- أحسن التقاسيم بمعرفة الأقاليم (بغداد، مكتبة المثنى) ص ١١٧
٥٠- ابن حوقل- صورة الأرض، (منشورات مكتبة الحياة، بيروت) ص ٢١٤
٥١- ابن حوقل- مرجع سابق ص ٢١٤
٥٢ سليم التكريتي- الصراع على الخليج العربي ص ١١٩
٥٣- د. أنور عبدالعليم- الملاحة، وعلوم بحار العرب ص ٧٧-٧٨
٥٤- ياقوت- معجم ج١ ص ٧٧
٥٥- غنيمة- تجارة العراق ص ٢٩
٥٦- العلي- محاضرات في تاريخ العرب ص ٢٦-٢٧
٥٧- الخيرو- تجارة الخليج العربي، وآثارها في الحياة الاقتصادية في منطقة الخليج والعراق
٥٨- الطبري- ١/ص ٣٣٨٤، ابن الأثير- الكامل ج٢ ص ٢٨٧
٥٩- البلاذري- فتوح ص ٤٧٥ (القاهرة، المكتبة التجارية، ١٩٥٩). ياقوت- معجم (بيروت، دار صادر) ج١ ص ٩٧
٦٠- سليمان العسكري- التجارة والملاحة في الخليج العربي ص ١٠١
٦١- ياقوت الحموي- معجم البلدان ج١ ص ٥٠٦
٦٢- ابن حوقل- صورة الأرض ص ٣٣
٦٣- ياقوت الحموي- مرجع سابق ج٧ ص ٧٢، ٧٣
٦٤- الاصطخري- المسالك والممالك (بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٦٦م) ص ١٩
٦٥- ابن ماجد- الفرايد ص ٦٩
٦٦- ابن خلدون- كتاب العبر (بيروت، مكتبة المدرسة، ١٩٥٦-١٩٦١م) ج٤ ص ٩٢
٦٧- ابن خرداذبة- المسالك والممالك (بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٦٨م) ص ٥٧
٦٨- أوال عبارة عن أرخبيل يضم خمس جزر هي اليوم ١- أوال وفيها المنامة العاصمة ٢- المحرق ٣- سترة ٤- جدى ٥- نعسان
٦٩- الإدريسي- نزهة المشتاق (لبدن، برايل، ١٩٧٠-١٩٧٧) ص ٥٤
٧٠- ابن بطوطة- الرحلة ج٢ ص ٢١٦
٧١- القلقشندي- صبح الأعشى (القاهرة، المؤسسة المصرية العامة) ج٣ ص ٥٥
٧٢- ابن خلدون- العبر ج٤ ص ٩٢
٧٣- ناصر خسرو- سفرنامة ص ٤٢، ٩٤
٧٤- الإدريسي- نزهة المشتاق ص ٥٠
٧٥- القلقشندي- مرجع سابق ج٥ ص ٥٩
٧٦- Arnold Wilson: The (Persian) Gulf P. 91
٧٧- ذكر ياقوت أن القطيف مشتقة من القطف وهو القطع للعنب، انظر معجم البلدان ج٤ ص ١١٣
٧٨- ابن خلدون- العبر ج٤ ص ٩٢
٧٩- القلقشندي- مرجع سابق ج٢ ص ١٤
٨٠- تعرف هذه الرمال في المنطقة باسم (النجيان) وتشتهر بها المنطقة الواقعة اليوم بين السعودية وقطر، وبين الإمارات وقطر، وهي ما زالت تشكل عقبة أمام إقامة طرق للاتصالات البرية بين هذه البلدان، إلا أن قطر والسعودية قد فتحتا منذ سنوات طريقاً برياً بينهما وهناك رعاية مستمرة لإزالة الرمال التي ما تلبث أن تغطي هذا الطريق كما قامت قطر وأبوظبي بإنشاء طريق بري مشابه بينهما سهل من حركة ا لاتصال والتواصل بينهما.
٨١- ابن بطوطة- الرحلة ج١ ص ١٧٧
٨٢- ابن بطوطة- الرحلة ج١ ص ١٧٧
٨٣- Miles: The Countries and Tribes of the (Persian) Gulf P. 365
٨٤- أحمد صبحي- البحرين ودعوى إيران ص ١٩٩-٢٠٠
٨٥- ابن ماجد- الفرايد ص ٦٩
٨٦- القلقشندي- صبح الأعشى ج٧ ص ٣٧٠
٨٧- خالد العربي- الخليج العربي ص ٢٠
٨٨- أحمد صبحي- مرجع سابق ص ١٩٩-٢٠٠
٨٩- القزويني- آثار البلاد وأخبار العباد (بيروت، دار صادر، ١٩٦٠)
٩٠- الإدريسي- نزهة المشتاق ص ٥١-٥٢
٩١- ياقوت- معجم البلدان ٦/٢١٥
٩٢- جمال زكريا- الخليج الفارسي ص ٥٦
٩٣- ابن خلدون- مرجع سابق ص ٩٣
٩٤- ابن خلدون- مرجع سابق
٩٥- انظر أرنولت ويلسون- الخليج العربي ص ١٤٩
٩٦- Arnold Wilson: The (Persian) Gulf P. 77
٩٧- ياقوت- معجم البلدان ٦/٢١٥
٩٨- الاصطخري- المسالك والممالك ص ٢٧
٩٩- الإدريسي- نزهة المشتاق ص ٤٠-٤١
١٠٠- المقدسي- أحسن التقاسيم ص ٩٢
١٠١- جورج حوراني- العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ص ٢٠٨
١٠٢- محمد متولي- حوض الخليج العربي ص ٣٠٩
١٠٣- أبوزيد السيرافي- رحلة السيرافي إلى الهند والصين، بغداد سنة ١٩٣١ ص ٣٥
١٠٤- ابن حوقل- صورة الأرض (بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٤م) ص ٤٤
١٠٥- المقدسي- مرجع سابق ص ٩٢
١٠٦- Wilson: The (persian) Gulf P. 77
١٠٧- القلقشندي- صبح الأعشى ج٥ ص ٥٥
١٠٨- Miles: The Countries and Trips P. 365
١٠٩- Heyd W.: Histoire du comerco du hevante

Au Moyen Ago

١١٠- ابن بطوطة- الرحلة ج١ ص ١٦٤

١١١- ابن بطوطة- مرجع سابق ص ١٦٤

١١٢- ابن بطوطة- مرجع سابق ص ١٦٤

١١٣- ابن بطوطة- مرجع سابق ص ١٦٤

١١٤- القزويني- آثار البلاد ص ٥٥

١١٥- الإدريسي- نزهة المشتاق ص ٤٠

١١٦- ابن خلدون- العبر ٩٣/٤

١١٧- الإدريسي- مرجع سابق ص ٥٤

١١٨- ابن خلدون- مرجع سابق ص ٥٤

١١٩- Miles: The Countries and the Tribes P. 356

١٢٠- Miles: I BID P. 355

١٢١- المسعودي- موج الذهب ج١ ص ٦٠-٦٤

١٢٢- جورجي زيدان- التمدن الإسلامي ج٥ ص ٤٧

١٢٣- عائشة السيار- دولة اليعاربة، عُمان وشرق أفريقيا في الفترة من ١٦٢٤-١٧٤١ ص ٦

١٢٤- عائشة السيار- مرجع سابق- ص ١٣

١٢٥- د. عبدالأمير محمد أمين- القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ص ١٥

١٢٦- Miles: The Countries and The Tribes P. 356

١٢٧- الأفغاني- أسواق العرب ص ١٥-١٦

١٢٨- Miles: I bid P. 356

١٢٩- السيد محمد يوسف- علاقات العرب التجارية بالهند ص ٥

١٣٠- Day Clive History of Commerce P. 10

١٣١- السيد محمد يوسف- مرجع سابق ص ١٠-١١

١٣٢- سليم التكريتي- الصراع على الخليج العربي ص ١٠

١٣٣- سليم التكريتي- مرجع سابق ص ١٠

١٣٤ آدم متز- الحضارة الإسلامية ج٢ ص ٣٦٨

Au Moyen Ago

١١٠- ابن بطوطة- الرحلة ج١ ص ١٦٤

١١١- ابن بطوطة- مرجع سابق ص ١٦٤

١١٢- ابن بطوطة- مرجع سابق ص ١٦٤

١١٣- ابن بطوطة- مرجع سابق ص ١٦٤

١١٤- القزويني- آثار البلاد ص ٥٥

١١٥- الإدريسي- نزهة المشتاق ص ٤٠

١١٦- ابن خلدون- العبر ٩٣/٤

١١٧- الإدريسي- مرجع سابق ص ٥٤

١١٨- ابن خلدون- مرجع سابق ص ٥٤

١١٩- Miles: The Countries and the Tribes P. 356

١٢٠- Miles: I BID P. 355

١٢١- المسعودي- موج الذهب ج١ ص ٦٠-٦٤

١٢٢- جورجي زيدان- التمدن الإسلامي ج٥ ص ٤٧

١٢٣- عائشة السيار- دولة اليعاربة، عُمان وشرق أفريقيا في الفترة من ١٦٢٤-١٧٤١ ص ٦

١٢٤- عائشة السيار- مرجع سابق- ص ١٣

١٢٥- د. عبدالأمير محمد أمين- القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ص ١٥

١٢٦- Miles: The Countries and The Tribes P. 356

١٢٧- الأفغاني- أسواق العرب ص ١٥-١٦

١٢٨- Miles: I bid P. 356

١٢٩- السيد محمد يوسف- علاقات العرب التجارية بالهند ص ٥

١٣٠- Day Clive History of Commerce P. 10

١٣١- السيد محمد يوسف- مرجع سابق ص ١٠-١١

١٣٢- سليم التكريتي- الصراع على الخليج العربي ص ١٠

١٣٣- سليم التكريتي- مرجع سابق ص ١٠

١٣٤ آدم متز- الحضارة الإسلامية ج٢ ص ٣٦٨

تأملات نقدية لظاهرة العولمة

د . بركات محمد مراد*

العولمة مصطلح شاع بسرعة تفوق شروط تشكل المعنى وتأسيس المرجعية التي يحيل إليها في الواقع. فهو لفظ مشحون بعديد المعاني، لأنه ما زال يبحث عن مدلول مادي واضح فو يعنى الآن كل شيء ولا يعنى شيئاً بعينه. والعولمة فى معناها المحسوس ما زالت في مراحل تشكلها الأولى وما زالت تبحث لنفسها عن معايير ومقومات تحول شروط الليبرالية الاقتصادية الجديدة التي تقوم عليها إلى قيم إنسانية شاملة ترسخا كأيديولوجية جديدة.

لا شك فى انطواء العولمة، من حيث المبدأ، على إمكانات خصبة وتطبيقات ثرة للحوار الحضاري وتمازج الثقافات وانفتاحها على بعضها البعض، وبهذا المعنى فقط يمكننا أن نقبل قول ديفيد روتكوبف Daved Rothkopf إن العولمة تشجع التكامل وتزيل ليس فقط الحواجز الثقافية، وإنما أيضاً العديد من الأبعاد السلبية للثقافة» (١).

لكن واقع الأمر وحقيقته أن الذي يدور في الكواليس مختلف كل الاختلاف؛ فالحقيقة غير الخافية والتي ينبغي ألا تخفى على أحد أن العولمة ما هي إلا امتداد لسياسات وتخطيطات غائرة المدى، على الرغم من كونها مفرزاً تلقائياً للتطور التقنى على مختلف الأصعدة والأطر، فاستغلت لتعزيز هذه السياسات وتكريس نتائج التخطيطات، استناداً إلي الفكرة البريئة القائلة بتلاقح الثقافات والحضارات وحوارها، هذا الأمر المحبب والمنشود، ولكن شريطة وجود البدائل والأنداد بما يتيح إمكان الحوار والتلاقح؛ ولكن الأمر الآن غير متوازن أبداً، لأن الولايات المتحدة، على حد ما يزعمون تهيمن على حركة المرور الكونية فى مجال المعلومات والأفكار، فالموسيقى الأمريكية والأفلام الأميركية والبرامج التليفزيونية الأميركية، وبرامج الحاسوب الأميركية، أصبحت شديدة الهيمنة، ورائجة جداً ومشاهدة جداً حتى إنها توجد اليوم فى كل مكان على الأرض بالمعنى الحرفي للكلمة. وهي تؤثر فعلياً في أذواق كل الأمم وحياتها وتطلعاتها..(٢).

فالعولمة كمفهوم فى أحد تعريفاته يهدف إلى إقامة نظام (ثقافي- اجتماعي- اقتصادي- سياسي... إلخ) تتوحد فيه جميع الهويات الأخرى، أي إقامة سياسة كونية بديلة تقوم على نظام واحد. فالعولمة هدفها تكريس الهيمنة الأميركية ومحو الهويات القومية.

والعولمة ظاهرة قادمة من الغرب من مجتمعات متقدمة حضارية إلى مجتمعات نامية ومتخلفة، والتعامل معها بنجاح يتطلب بناء

* أستاذ الفلسفة الإسلامية كلية التربية جامعة عين شمس

دراسات

تأملات نقدية لظاهرة العولمة

د . بركات محمد مراد*

العولمة مصطلح شاع بسرعة تفوق شروط تشكل المعنى وتأسيس المرجعية التي يحيل إليها في الواقع. فهو لفظ مشحون بعديد المعاني، لأنه ما زال يبحث عن مدلول مادي واضح فو يعنى الآن كل شيء ولا يعنى شيئاً بعينه. والعولمة فى معناها المحسوس ما زالت في مراحل تشكلها الأولى وما زالت تبحث لنفسها عن معايير ومقومات تحول شروط الليبرالية الاقتصادية الجديدة التي تقوم عليها إلى قيم إنسانية شاملة ترسخا كأيديولوجية جديدة.

لا شك فى انطواء العولمة، من حيث المبدأ، على إمكانات خصبة وتطبيقات ثرة للحوار الحضاري وتمازج الثقافات وانفتاحها على بعضها البعض، وبهذا المعنى فقط يمكننا أن نقبل قول ديفيد روتكوبف Daved Rothkopf إن العولمة تشجع التكامل وتزيل ليس فقط الحواجز الثقافية، وإنما أيضاً العديد من الأبعاد السلبية للثقافة» (١).

لكن واقع الأمر وحقيقته أن الذي يدور في الكواليس مختلف كل الاختلاف؛ فالحقيقة غير الخافية والتي ينبغي ألا تخفى على أحد أن العولمة ما هي إلا امتداد لسياسات وتخطيطات غائرة المدى، على الرغم من كونها مفرزاً تلقائياً للتطور التقنى على مختلف الأصعدة والأطر، فاستغلت لتعزيز هذه السياسات وتكريس نتائج التخطيطات، استناداً إلي الفكرة البريئة القائلة بتلاقح الثقافات والحضارات وحوارها، هذا الأمر المحبب والمنشود، ولكن شريطة وجود البدائل والأنداد بما يتيح إمكان الحوار والتلاقح؛ ولكن الأمر الآن غير متوازن أبداً، لأن الولايات المتحدة، على حد ما يزعمون تهيمن على حركة المرور الكونية فى مجال المعلومات والأفكار، فالموسيقى الأمريكية والأفلام الأميركية والبرامج التليفزيونية الأميركية، وبرامج الحاسوب الأميركية، أصبحت شديدة الهيمنة، ورائجة جداً ومشاهدة جداً حتى إنها توجد اليوم فى كل مكان على الأرض بالمعنى الحرفي للكلمة. وهي تؤثر فعلياً في أذواق كل الأمم وحياتها وتطلعاتها..(٢).

فالعولمة كمفهوم فى أحد تعريفاته يهدف إلى إقامة نظام (ثقافي- اجتماعي- اقتصادي- سياسي... إلخ) تتوحد فيه جميع الهويات الأخرى، أي إقامة سياسة كونية بديلة تقوم على نظام واحد. فالعولمة هدفها تكريس الهيمنة الأميركية ومحو الهويات القومية.

والعولمة ظاهرة قادمة من الغرب من مجتمعات متقدمة حضارية إلى مجتمعات نامية ومتخلفة، والتعامل معها بنجاح يتطلب بناء

* أستاذ الفلسفة الإسلامية كلية التربية جامعة عين شمس

الذات، والارتقاء بها في المجالات المختلفة حتى يكون التعامل مع تلك الظاهرة إيجابياً.

وتتمثل العولمة– في نظر بعض باحثيها [٣]– في مجموعة التوجيهات ذات البعد المستقبلي، وتدور حول قضايا مثل الديمقراطية والليبرالية الغربية واقتصاد السوق الحر.. إلخ، ويرى بعض منظروها ومؤيدوها بأنها تجربة إيجابية في العموم، بيد أن آخرين يرون فيها مخاطر أساسية عديدة حيث تثير المسألة عدداً من الأسئلة الصعبة التى تنتظر الإجابة مثل: هل ستؤدي العولمة إلى تحطيم الحدود بين الأقطار وإذابة الهوية القومية؟ وهل سيسود الغرب المتقدم الاقتصاد والوضع السياسى في العالم لحسابه، لعدم قدرة الدول النامية على مواكبة تطور العالم الأول، والتعامل معه نديا على كل المستويات؟ وهل في إمكان العرب– كجزء من العالم النامي– تطوير أوضاعها في المستقبل المنظور للتعايش السلمي والإيجابي مع ظاهرة العولمة؟ هل العولمة جرعة من المصطلحات والمفاهيم التي تظهر في قاموس السياسة والاقتصاد والثقافة بين الحين والآخر، أم هي واقع حتمي معاش وقادم؟

ومن هنا لا يكون غريباً أن نجد بعض الباحثين [٤] يذكر أن كلمة العولمة كظاهرة ونظرية ومفهوم هي الأكثر تداولاً واستخداماً حتى بين غير المتخصصين في قضايا الفكر والثقافة. وقد شغلت العولمة الناس كثيراً في الفترة الأخيرة، وغدت بمثابة موجة فكرية أو خدمة إعلامية، وفى كل الأحوال فقد فرضت نفسها على أجندة الفكر والواقع العربيين، وأنها ستظل كذلك فترة طويلة.

فالآن نعيش زمن الاهتمام بالعولمة لأنها أكثر حدة وإثارة، وهي تحتل مكانة متقدمة وطاغية في مجال الفكر العربي، وأصبح لموضوع العولمة– باختلاف زواياه ومنطلقاته و نتائجه– حضور فكري دائم وصل إلي درجة الازدحام والتضخم، بالذات حين يحدث التكرار وعدم الابتكار. وقد يكون عدم الاتفاق وتعددية المعاني نفسها هي انعكاسات لتأثير العولمة على التفكير والإدراك.

انطلاقاً من ذلك، أريد من العولمة وخطط لها بحيث «تتغلب فيها نوازع الاستئثار والهيمنة، لتكون نتيجتها تدمير الثقافة والثقافات، ما دام الهدف إلغاء الآخر بفرض التجانس عليه؛ فمنتجات الثقافة وإنتاجاتها تحول إلى سلعة تتحكم فيها قوانين السوق التي لا تروج ولا تبتغي غير الجوانب المادية التي تضمن لها الربح، وتنتهي العولمة، من جهة أخرى، إلى ممارسة ما يشبه العدوان الممنهج على ثقافات الشعوب وقيمها، وخصوصياتها، وإبداعات تراثاتها. فيكون على البلدان جميعها أن ترتدى الثوب أو اللون الواحد، وأن تأكل الصحن الواحد، وأن تقرأ الكتاب الواحد، وأن تصاغ لها طموحات واحدة، وأذواق واحدة، وأفكار واحدة، ونمط حياة واحِد، وتغسل الأدمغة، فتتماثل وتتجانس، بما يفصل لها، بعدما أفقدت كل عناصر المناعة والفكر النقدي من خلال تدمير المعرفة والذاكرة.. [٥].

من أجل تحقيق هذه الأغراض وتكريسها، إلى جانب أسباب أخرى قد لا تخلو من الجوانب الإيجابية، يقوم موجّهو عملية العولمة المتسارعة اليوم بتحسين وسائل وأنظمة النقل الدولية، ويبتكرون تقانات وخدمات ثورية جديدة في مجال المعلومات، ويهيمنون على السوق الدولي للأفكار والخدمات. وهو ما يؤثر في أسلوب الحياة،

الذات، والارتقاء بها في المجالات المختلفة حتى يكون التعامل مع تلك الظاهرة إيجابياً.

وتتمثل العولمة- في نظر بعض باحثيها (٣)- في مجموعة التوجيهات ذات البعد المستقبلي، وتدور حول قضايا مثل الديمقراطية والليبرالية الغربية واقتصاد السوق الحر.. إلخ، ويرى بعض منظروها ومؤيدوها بأنها تجربة إيجابية في العموم، بيد أن آخرين يرون فيها مخاطر أساسية عديدة حيث تثير المسألة عدداً من الأسئلة الصعبة التى تنتظر الإجابة مثل: هل ستؤدي العولمة إلى تحطيم الحدود بين الأقطار وإذابة الهوية القومية؟ وهل سيسود الغرب المتقدم الاقتصاد والوضع السياسى في العالم لحسابه، لعدم قدرة الدول النامية على مواكبة تطور العالم الأول، والتعامل معه ندياً على كل المستويات؟ وهل في إمكان العرب- كجزء من العالم النامي- تطوير أوضاعها في المستقبل المنظور للتعايش السلمي والإيجابي مع ظاهرة العولمة؟ هل العولمة جرعة من المصطلحات والمفاهيم التي تظهر في قاموس السياسة والاقتصاد والثقافة بين الحين والآخر، أم هي واقع حتمي معاش وقادم؟

ومن هنا لا يكون غريباً أن نجد بعض الباحثين (٤) يذكر أن كلمة العولمة كظاهرة ونظرية ومفهوم هي الأكثر تداولاً واستخداماً حتى بين غير المتخصصين في قضايا الفكر والثقافة. وقد شغلت العولمة الناس كثيراً في الفترة الأخيرة، وغدت بمثابة موجة فكرية أو خدمة إعلامية، وفى كل الأحوال فقد فرضت نفسها على أجندة الفكر والواقع العربيين، وأنها ستظل كذلك فترة طويلة.

فالآن نعيش زمن الاهتمام بالعولمة لأنها أكثر حدة وإثارة، وهي تحتل مكانة متقدمة وطاغية في مجال الفكر العربي، وأصبح لموضوع العولمة- باختلاف زواياه ومنطلقاته و نتائجه- حضور فكري دائم وصل إلي درجة الازدحام والتضخم، بالذات حين يحدث التكرار وعدم الابتكار. وقد يكون عدم الاتفاق وتعددية المعاني نفسها هي انعكاسات لتأثير العولمة على التفكير والإدراك.

انطلاقاً من ذلك، أريد من العولمة وخطط لها بحيث «تتغلب فيها نوازع الاستئثار والهيمنة، لتكون نتيجتها تدمير الثقافة والثقافات، ما دام الهدف إلغاء الآخر بفرض التجانس عليه؛ فمنتجات الثقافة وإنتاجاتها تحول إلى سلعة تتحكم فيها قوانين السوق التي لا تروج ولا تبتغي غير الجوانب المادية التي تضمن لها الربح، وتنتهي العولمة، من جهة أخرى، إلى ممارسة ما يشبه العدوان الممنهج على ثقافات الشعوب وقيمها، وخصوصياتها، وإبداعات تراثاتها. فيكون على البلدان جميعها أن ترتدى الثوب أو اللون الواحد، وأن تأكل الصحن الواحد، وأن تقرأ الكتاب الواحد، وأن تصاغ لها طموحات واحدة، وأذواق واحدة، وأفكار واحدة، ونمط حياة واحِد، وتغسل الأدمغة، فتتماثل وتتجانس، بما يفصل لها، بعدما أفقدت كل عناصر المناعة والفكر النقدي من خلال تدمير المعرفة والذاكرة.. (٥).

من أجل تحقيق هذه الأغراض وتكريسها، إلى جانب أسباب أخرى قد لا تخلو من الجوانب الإيجابية، يقوم موجّهو عملية العولمة المتسارعة اليوم بتحسين وسائل وأنظمة النقل الدولية، ويبتكرون تقانات وخدمات ثورية جديدة في مجال المعلومات، ويهيمنون على السوق الدولي للأفكار والخدمات. وهو ما يؤثر في أسلوب الحياة،

والمعتقدات، واللغة، وكل مكونات الثقافة الأخرى [٦].

وإذا كانت بعض البحوث التي تناولت ظاهرة العولمة قد أشارت إلى جملة التناقضات التى تنطوي عليها العولمة الحالية، كالهيمنة على المؤسسات الاقتصادية الدولية، والتحكم في عمل المؤسسات الشرعية والقانون الدوليين، وأوضحت الآثار الخطرة لسيطرة الشركات المتعددة الجنسيات على الاقتصاد العالمي، إلى جانب تدويل ونشر القيم الثقافية والعادات الاستهلاكية وأنماط السلوك على الطريقة الأمريكية، إذا كانت هذه الملامح والتناقضات هي ما يحكم وضع العولمة الراهنة، فإن الأمل في بناء عولمة بديلة ذات طابع إنساني في توجهها وذات نزوع ديمقراطي في التعامل مع ثقافات وشعوب الأمم الأخرى، يصبح أملاً مشروعا يستحق من الجميع التفكير والعمل من أجل خلق الشروط لبناء العولمة المستقبلة البديلة [٧].

إشكالية المصطلح وتحدياته:

أضحى مصطلح العولمة Globalisation شعاراً أو موضة، ملأ الدنيا وشغل الناس، يتردد في لسان العام والخاص، وقد تناولت ا لمصطلح بعض الكتابات أحياناً بالمدح، وتارة بالقدح، بين من يرى فى العولمة شرا ابتليت به دول الجنوب من خلال تدمير الاقتصاد والثقافة. وبين من يرى في الظاهرة شيئاً إيجابياً لا بد من التعايش معه بأسلوب حضاري.

ولا يمكن رفض العولمة بعد أن أصبحت بيوتنا بيتاً عالمياً في نفس اللحظة مع الآخرين منتوجاً إعلامياً وثقافياً واحداً. الأمر الذي يستدعي روح المنافسة لإقامة قنوات متخصصة وتشجيع روح المبادرة والرأي الآخر والإبداع من خلال التخلص من عقدة الخوف من الغزو الثقافي. أضف إلى ذلك تكتيل القوى لرفع التحدي والتوجه نحو الوحدة، كما هو الشأن بالنسبة للاتحاد الأوروبي الذي أحدث «الأورو» للوقوف في وجه الدولار الأمريكي، فى وقت يتراجع فيه التعامل بين الدول العربية والمغرب العربي، وفى زمن العولمة الذى لا يرحم الأقوياء فيه الضعفاء العاجزين.

تعني «العولمة» الانتشار والتعميم للوصول إلى دائرة العالم، حقيقة أن الكلمة الفرنسية Mondi-alisation ومرادفتها تركز على البعد الفضائي المادي [٨]. في حين نجد في اللغة الإنجليزية Globalisation تعني التنظيم من أجل الوصول إلى تكوين تصور توجيهي للعالم ككل [٩]، ويتضح من هذا أن «العولمة» في الإنجليزية أوضح وأشمل من اللغة الفرنسية، ومن الواضح أن المصطلح الأنجلوساكسوني كان وراء ظهور مصطلح «العولمة» بشكل تدريجي منذ بداية الثمانينيات في ظل تطور البعد الاقتصادي العالمي، وتعبيراً عن القفزة الهائلة والحاصلة في تطور المجتمع الرأسمالي، ويتم في أغلب الأحيان تناول العولمة كظاهرة اقتصادية تحدد خصائصها في بروز الأسواق العالمية، بدلاً من الأسواق المحلية، بالشكل نفسه بدأ من الأفراد في النظر إلى أنفسهم على أنهم مدرجون في شبكة عالمية أكثر منها قومية ومحلية [١٠].

وإذاما تحدثنا من منظور عالمي، فإن هناك خمسة خطابات تتعلق بموضوعات رئيسية تتصل بالعولمة. ويتضمن كل منها جدلاً علمياً، بمثل ما يتضمن جدلاً أيديولوجياً أو صحفياً: أحدها- وقد يكون أكثرها انتشاراً وتوقعاً- هو اقتصاد المنافسة،

والمعتقدات، واللغة، وكل مكونات الثقافة الأخرى (٦).

وإذا كانت بعض البحوث التي تناولت ظاهرة العولمة قد أشارت إلى جملة التناقضات التى تنطوي عليها العولمة الحالية، كالهيمنة على المؤسسات الاقتصادية الدولية، والتحكم في عمل المؤسسات الشرعية والقانون الدوليين، وأوضحت الآثار الخطرة لسيطرة الشركات المتعددة الجنسيات على الاقتصاد العالمي، إلى جانب تدويل ونشر القيم الثقافية والعادات الاستهلاكية وأنماط السلوك على الطريقة الأمريكية، إذا كانت هذه الملامح والتناقضات هي ما يحكم وضع العولمة الراهنة، فإن الأمل في بناء عولمة بديلة ذات طابع إنساني في توجهها وذات نزوع ديمقراطي في التعامل مع ثقافات وشعوب الأمم الأخرى، يصبح أملاً مشروعا يستحق من الجميع التفكير والعمل من أجل خلق الشروط لبناء العولمة المستقبلة البديلة (٧).

إشكالية المصطلح وتحدياته:

أضحى مصطلح العولمة Globalisation شعاراً أو موضة، ملأ الدنيا وشغل الناس، يتردد في لسان العام والخاص، وقد تناولت ا لمصطلح بعض الكتابات أحياناً بالمدح، وتارة بالقدح، بين من يرى فى العولمة شرا ابتليت به دول الجنوب من خلال تدمير الاقتصاد والثقافة. وبين من يرى في الظاهرة شيئاً إيجابياً لا بد من التعايش معه بأسلوب حضاري.

ولا يمكن رفض العولمة بعد أن أصبحت بيوتنا بيتاً عالمياً في نفس اللحظة مع الآخرين منتوجاً إعلامياً وثقافياً واحداً. الأمر الذي يستدعي روح المنافسة لإقامة قنوات متخصصة وتشجيع روح المبادرة والرأي الآخر والإبداع من خلال التخلص من عقدة الخوف من الغزو الثقافي. أضف إلى ذلك تكتيل القوى لرفع التحدي والتوجه نحو الوحدة، كما هو الشأن بالنسبة للاتحاد الأوروبي الذي أحدث «الأورو» للوقوف في وجه الدولار الأمريكي، فى وقت يتراجع فيه التعامل بين الدول العربية والمغرب العربي، وفى زمن العولمة الذى لا يرحم الأقوياء فيه الضعفاء العاجزين.

تعني «العولمة» الانتشار والتعميم للوصول إلى دائرة العالم، حقيقة أن الكلمة الفرنسية Mondi-alisation ومرادفتها تركز على البعد الفضائي المادي (٨). في حين نجد في اللغة الإنجليزية Globalisation تعني التنظيم من أجل الوصول إلى تكوين تصور توجيهي للعالم ككل (٩)، ويتضح من هذا أن «العولمة» في الإنجليزية أوضح وأشمل من اللغة الفرنسية، ومن الواضح أن المصطلح الأنجلوساكسوني كان وراء ظهور مصطلح «العولمة» بشكل تدريجي منذ بداية الثمانينيات في ظل تطور البعد الاقتصادي العالمي، وتعبيراً عن القفزة الهائلة والحاصلة في تطور المجتمع الرأسمالي، ويتم في أغلب الأحيان تناول العولمة كظاهرة اقتصادية تحدد خصائصها في بروز الأسواق العالمية، بدلاً من الأسواق المحلية، بالشكل نفسه بدأ من الأفراد في النظر إلى أنفسهم على أنهم مدرجون في شبكة عالمية أكثر منها قومية ومحلية (١٠).

وإذاما تحدثنا من منظور عالمي، فإن هناك خمسة خطابات تتعلق بموضوعات رئيسية تتصل بالعولمة. ويتضمن كل منها جدلاً علمياً، بمثل ما يتضمن جدلاً أيديولوجياً أو صحفياً: أحدها- وقد يكون أكثرها انتشاراً وتوقعاً- هو اقتصاد المنافسة،

والذي يركز على المنافسة الحادة على مستوى العالم وآثارها على المؤسسات والعمال والدول. ويرى الباحث «جوران توربون» [١١] أن الرسالة الأساسية يعبر عنها بإيجاز شديد المطرب «بوب ديلان» في عبارة من سطر واحد: «من الأفضل أن تشرع في العوم، وإلا غطست مثل الحجر»؛ وإن كانت رسالة العولمة تشمل كذلك نصوصاً أقل رؤيوية حول نهاية المصير تركز- بدلاً من ذلك- على الآثار التي يمكن أن تكون حميدة لزيادة التبادل والحركة الاقتصادية على مستوى العالم، بشرط أن تتفهم كل البلاد وتقبل بتحديات التحولات البنيوية المطلوبة (منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية عام ١٩٩٧ على سبيل المثال).

ويلفت «جوران توربون» [١٢] نظرنا إلى أنه «يجب الملاحظة أن نقطة البدء والدافع الحافز لهذا الخطاب بشأن العولمة ليس العالم الثالث ويسار المركز فقط، فالنصوص يمكن أن نجدها أيضاً عند يمين العالم الأول، وبالذات في الولايات المتحدة».

ويتمتع الموضوع الثالث بقوة أيديولوجية دافعة ومركزية أكثر من الموضوعين الأول والثاني، وهو أكثر تركيزاً على الوجهة الأكاديمية، التي رغم وجودها لا تقلل من سخونة الجدل. والموضوع هو عجز الدولة، أو مدى ما ستفقده من قدرة على التحكم والسيطرة. وبالنسبة لبعض الكتاب فإننا نعيش نهاية الدولة- القومية» بينما نحن، بالنسبة للآخرين، محاطون بـ«أسطورة العولمة» حيث التطورات القومية المختلفة ما زالت العامل المقرر لاقتصاد العالم، وفيما بين طرفي الجدال، كما يقول أوهماي Ohemae وفايس Weiss هناك العديد من الدراسات والمناظرات المهمة حول سيادة ومقدرة الدول في العالم المعاصر.

وفي حين تحوم الموضوعات الثلاثة الرئيسية للعولمة حول الاقتصاد العالمي وتحولاته، ديناميكياته ودروسه، وعواقبه الاجتماعية أو السياسية، نجد العنصرين الآخرين يتناولان العولمة من زاوية مختلفة تماماً. أولهما، والرابع في ترتيبنا، ثقافي، والتركيز هنا على التدفقات الثقافية العالمية، أو على الأقل، الانتمائية، والاتصالات والتبادلات وأثرها على الأشكال الرمزية، والصور الاجتماعية، والممارسات الثقافية، وأنماط الحياة ونقضها للطابع الإقليمي للثقافة deterrtoralization culture.

ومن أهم قضايا العولمة الثقافية هي تحري ما إذا كانت ستؤدي إلى التوحيد أم إلى ظهور أشكال جديدة من التنوع. وعلى الرغم من وجود تقارير تؤكد خطورة التوحيد في شكل الأمركة، والمكدلة والكوكلة والاستعمار الثقافي، وغيرها فإن الاتجاه الرئيسي للخطابات الأنثربولوجية وغيرها، المتصلة بالموضوع، يؤكد على التنوع، على الاختلاط اللغوي والثقافي، والتهجين، «وإنتاج معولم من الاختلاف».

وأخيراً هناك خطاب مهم يركز بوضوح على الحالة المتعولمة للكون Globality، إنه خطاب البيئة الكونية، الذي يدرس ويناقش النوع الإنساني والمجتمع الكوني كجزء من نظام بيئي كوني. وفي خطاب كهذا يظهر الوعي بالكون ككل في أبلغ تجلياته. ويركز هذا الخطاب ويتمحور جدل حول التدمير، الفعلي أو المحتمل لذات الإنسان بفعل الإنسان على الأرض، وحول متطلبات التنمية المستديمة.

والذي يركز على المنافسة الحادة على مستوى العالم وآثارها على المؤسسات والعمال والدول. ويرى الباحث «جوران توربون» [١١] أن الرسالة الأساسية يعبر عنها بإيجاز شديد المطرب «بوب ديلان» في عبارة من سطر واحد: «من الأفضل أن تشرع في العوم، وإلا غطست مثل الحجر»؛ وإن كانت رسالة العولمة تشمل كذلك نصوصاً أقل رؤيوية حول نهاية المصير تركز- بدلاً من ذلك- على الآثار التي يمكن أن تكون حميدة لزيادة التبادل والحركة الاقتصادية على مستوى العالم، بشرط أن تتفهم كل البلاد وتقبل بتحديات التحولات البنيوية المطلوبة (منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية عام ١٩٩٧ على سبيل المثال).

ويلفت «جوران توربون» [١٢] نظرنا إلى أنه «يجب الملاحظة أن نقطة البدء والدافع الحافز لهذا الخطاب بشأن العولمة ليس العالم الثالث ويسار المركز فقط، فالنصوص يمكن أن نجدها أيضاً عند يمين العالم الأول، وبالذات في الولايات المتحدة».

ويتمتع الموضوع الثالث بقوة أيديولوجية دافعة ومركزية أكثر من الموضوعين الأول والثاني، وهو أكثر تركيزاً على الوجهة الأكاديمية، التي رغم وجودها لا تقلل من سخونة الجدل. والموضوع هو عجز الدولة، أو مدى ما ستفقده من قدرة على التحكم والسيطرة. وبالنسبة لبعض الكتاب فإننا نعيش نهاية الدولة- القومية» بينما نحن، بالنسبة للآخرين، محاطون بـ«أسطورة العولمة» حيث التطورات القومية المختلفة ما زالت العامل المقرر لاقتصاد العالم، وفيما بين طرفي الجدال، كما يقول أوهماي Ohemae وفايس Weiss هناك العديد من الدراسات والمناظرات المهمة حول سيادة ومقدرة الدول في العالم المعاصر.

وفي حين تحوم الموضوعات الثلاثة الرئيسية للعولمة حول الاقتصاد العالمي وتحولاته، ديناميكياته ودروسه، وعواقبه الاجتماعية أو السياسية، نجد العنصرين الآخرين يتناولان العولمة من زاوية مختلفة تماماً. أولهما، والرابع في ترتيبنا، ثقافي، والتركيز هنا على التدفقات الثقافية العالمية، أو على الأقل، الانتمائية، والاتصالات والتبادلات وأثرها على الأشكال الرمزية، والصور الاجتماعية، والممارسات الثقافية، وأنماط الحياة ونقضها للطابع الإقليمي للثقافة deterrtoralization culture.

ومن أهم قضايا العولمة الثقافية هي تحري ما إذا كانت ستؤدي إلى التوحيد أم إلى ظهور أشكال جديدة من التنوع. وعلى الرغم من وجود تقارير تؤكد خطورة التوحيد في شكل الأمركة، والمكدلة والكوكلة والاستعمار الثقافي، وغيرها فإن الاتجاه الرئيسي للخطابات الأنثربولوجية وغيرها، المتصلة بالموضوع، يؤكد على التنوع، على الاختلاط اللغوي والثقافي، والتهجين، «وإنتاج معولم من الاختلاف».

وأخيراً هناك خطاب مهم يركز بوضوح على الحالة المتعولمة للكون Globality، إنه خطاب البيئة الكونية، الذي يدرس ويناقش النوع الإنساني والمجتمع الكوني كجزء من نظام بيئي كوني. وفي خطاب كهذا يظهر الوعي بالكون ككل في أبلغ تجلياته. ويركز هذا الخطاب ويتمحور جدل حول التدمير، الفعلي أو المحتمل لذات الإنسان بفعل الإنسان على الأرض، وحول متطلبات التنمية المستديمة.

وتنشأ إشكالية العولمة الأساسية من كون هذه الخطابات، نادراً ما تعبر عن درايتها بغيرها من الخطابات، على الرغم من أن الكتابات تحوي الآن إسهامات واسعة المدى وطرح على درجة عالية من الرصانة الفكرية والاستقصاء العلمي.

ويرى باحث غربي معاصر (١٣) أن العولمة تواجه- ونحن على أعتاب القرن الحادي و العشرين وبداية ألفية ثالثة- ثلاثة أنواع من التحديات: أولها معرفي، يهدف إلى توضيح المفاهيم، والتحليل، والتسفير والشرح، يتوجه أولها وقبل أي شيء إلى دراسة الإنسانيات والعلوم الاجتماعية. وثانيها، يمكن أن نطلق عليه مدنياً، يهتم بسكان الكون ككل، سواء كانوا مواطنين أم لا. كيف نجعل للعولمة معنى علمياً؟ كيف نتصرف ونحن ضمن أطرها أو في علاقتنا بها، بما في ذلك كيف نقاوم عندما نشعر بالضرورة إلى ذلك؟ ويرى ثالثها أن العولمة، بتجاوزها، تشكل تحدياً للحكم، وللنظام العالمي الجديد. وكل واحد من هذه التحديات يتضمن مجموعة من المسائل ذات الأهمية الملموسة، حول كيفية فهم العمليات المحددة، وكيفية التصرف حيالها، وأخيراً، كيفية التحكم بها أو تنظيمها.

أبعاد تاريخية وحداثية للعولمة:

تفصح القراءة المتأنية لصيغ اشتغال العولمة Globalization وأشكال تداولها في الفضاء الثقافي في العالم عن مدى الاهتمام الذي حازته بوصفها ظاهرة نوعية وسيرورة لها قانونيتها وآليات اشتغالها، بما تفرزه من تأثيرات مرغوبة أو مستهجنة، ثم لكونها حدثاً نوعياً ينبيء عن تغير بنيوي عميق أخذ يطال علاقة الشمال بالجنوب شعوباً ودولاً وأفراداً.

وعلى الرغم من انقسام الآراء وتنافس المواقف إزاء العولمة، إلا أنها استقطبت اهتمام شرائح فكرية وفئات اجتماعية متعددة المشارب والتخصصات من اقتصاديين وساسة وعلماء اجتماع ومثقفين لا يربط بينهم سوى الاهتمام بجملة التغيرات النوعية المتلاحقة التي يشهدها العالم، في مستويات الاقتصاد والاجتماع والثقافة، والتي تعدت نطاق القوميات وتجاوزت حدود الدول والأقاليم وأخذت تؤثر في حياة الناس بنسب ودرجات متفاوتة بغض النظر عن الجغرافية أو العرق أو اللغة.

وبسبب ترابط التغيرات التي تجري في إطار العولمة، وما قد تتركه الإجراءات الاقتصادية من آثار على المجتمعات والدول، وكذلك ما يمكن أن تحمله الثورة التقنية من إمكانية الانتقال إلى مجتمع المعلومات وما يترتب على تحول كهذا من آثار تشمل العمل وتنظيم الحياة والزمن، فإن الاكتفاء بتحليل العولمة من منظور اقتصادي أو اجتماعي أو تقني صرف، يبقى قاصراً عن الإحاطة بشموليتها، رغم أنه ضرورة لإضاءة أحد جوانبها وتوفير المعطيات اللازمة لفهم سيرورتها والعوامل الأساسية التي تسهم في تشكلها، ومن هنا يرى كثير من الباحثين، وعلى رأسهم الدكتور كريم أبوحلاوة (١٤)، واعتماداً على منهج التحليل السوسيولوجي، ضرورة السعي إلى رصد وتحليل العولمة وفق مجريات تطورها الفعلية، وما ينتج عنها من تأثيرات، وبما تمثله من تحديات تطرح علينا تجاوز منطق قبولها أو رفضها، لأن مجموع التفاعلات العالمية المصاحبة لها قد أصبحت وقائع فعلية، توجب علينا البحث الجاد في كيفية التعامل معها و

وتنشأ إشكالية العولمة الأساسية من كون هذه الخطابات، نادراً ما تعبر عن درايتها بغيرها من الخطابات، على الرغم من أن الكتابات تحوي الآن إسهامات واسعة المدى وطرح على درجة عالية من الرصانة الفكرية والاستقصاء العلمي.

ويرى باحث غربي معاصر (١٣) أن العولمة تواجه- ونحن على أعتاب القرن الحادي و العشرين وبداية ألفية ثالثة- ثلاثة أنواع من التحديات: أولها معرفي، يهدف إلى توضيح المفاهيم، والتحليل، والتسفير والشرح، يتوجه أولها وقبل أي شيء إلى دراسة الإنسانيات والعلوم الاجتماعية. وثانيها، يمكن أن نطلق عليه مدنياً، يهتم بسكان الكون ككل، سواء كانوا مواطنين أم لا. كيف نجعل للعولمة معنى علمياً؟ كيف نتصرف ونحن ضمن أطرها أو في علاقتنا بها، بما في ذلك كيف نقاوم عندما نشعر بالضرورة إلى ذلك؟ ويرى ثالثها أن العولمة، بتجاوزها، تشكل تحدياً للحكم، وللنظام العالمي الجديد. وكل واحد من هذه التحديات يتضمن مجموعة من المسائل ذات الأهمية الملموسة، حول كيفية فهم العمليات المحددة، وكيفية التصرف حيالها، وأخيراً، كيفية التحكم بها أو تنظيمها.

أبعاد تاريخية وحداثية للعولمة:

تفصح القراءة المتأنية لصيغ اشتغال العولمة Globalization وأشكال تداولها في الفضاء الثقافي في العالم عن مدى الاهتمام الذي حازته بوصفها ظاهرة نوعية وسيرورة لها قانونيتها وآليات اشتغالها، بما تفرزه من تأثيرات مرغوبة أو مستهجنة، ثم لكونها حدثاً نوعياً ينبيء عن تغير بنيوي عميق أخذ يطال علاقة الشمال بالجنوب شعوباً ودولاً وأفراداً.

وعلى الرغم من انقسام الآراء وتنافس المواقف إزاء العولمة، إلا أنها استقطبت اهتمام شرائح فكرية وفئات اجتماعية متعددة المشارب والتخصصات من اقتصاديين وساسة وعلماء اجتماع ومثقفين لا يربط بينهم سوى الاهتمام بجملة التغيرات النوعية المتلاحقة التي يشهدها العالم، في مستويات الاقتصاد والاجتماع والثقافة، والتي تعدت نطاق القوميات وتجاوزت حدود الدول والأقاليم وأخذت تؤثر في حياة الناس بنسب ودرجات متفاوتة بغض النظر عن الجغرافية أو العرق أو اللغة.

وبسبب ترابط التغيرات التي تجري في إطار العولمة، وما قد تتركه الإجراءات الاقتصادية من آثار على المجتمعات والدول، وكذلك ما يمكن أن تحمله الثورة التقنية من إمكانية الانتقال إلى مجتمع المعلومات وما يترتب على تحول كهذا من آثار تشمل العمل وتنظيم الحياة والزمن، فإن الاكتفاء بتحليل العولمة من منظور اقتصادي أو اجتماعي أو تقني صرف، يبقى قاصراً عن الإحاطة بشموليتها، رغم أنه ضرورة لإضاءة أحد جوانبها وتوفير المعطيات اللازمة لفهم سيرورتها والعوامل الأساسية التي تسهم في تشكلها، ومن هنا يرى كثير من الباحثين، وعلى رأسهم الدكتور كريم أبوحلاوة (١٤)، واعتماداً على منهج التحليل السوسيولوجي، ضرورة السعي إلى رصد وتحليل العولمة وفق مجريات تطورها الفعلية، وما ينتج عنها من تأثيرات، وبما تمثله من تحديات تطرح علينا تجاوز منطق قبولها أو رفضها، لأن مجموع التفاعلات العالمية المصاحبة لها قد أصبحت وقائع فعلية، توجب علينا البحث الجاد في كيفية التعامل معها و

التفكير النقدي في الاستراتيجيات والخطط التي تمتلكها، والتي ستحدد موقفنا من مجريات الحدث على ضوء أهدافنا وإمكانياتنا، وسبل الاستفادة منها.

أي أن تأثيرات العولمة على الرغم من طابعها الكوني وما تملكه من طاقات، ليست قدراً محتوماً يحدد مصيرنا فيما يجري سلفاً، بل إن هذا المصير مرتبط إلى حد كبير بما سنعمل وكيف سنواجهه ولا يفيدنا في شيء تجاهل ما يجري أو رفضه انفعالياً، فلا موقفنا كعرب ولا أهدافنا المستقبلية تتيح لنا تجنب التفاعل مع ما يحدث على الساحة العالمية.

ولقد أعلن الرئيس جورج بوش في ١٧ يناير عام ١٩٩١م تدشين ما أسماه بالنظام العالمي الجديد New world Order مستخدماً لفظة Or-der وفيها من القسر والتوجيه والأمر ما ليس في كلمة System أو Institution أو غيرها، وكأنما أراد الرئيس الأمريكي أن يوحي بأن النظام المدعى وبلاده على رأسه، قد أسقط كل قوة معارضة للتوجهات الرئيسية لبلاده، وهي الليبرالية، والرأسمالية، والديمقراطية، وتبع هذا تعميق الكتاب لاستخدام مصطلح النظام العالمي الجديد ومصطلح العولمة لتجسيد معنى التفوق الأميركي آنف الذكر.

ومن أبرز المؤرخين الذين خدموا هذا الوضع المؤرخ الأميركي، الياباني الأصل، «فوكوياما» وكتابه «نهاية التاريخ»، والذي ظن التاريخ متجمداً عند منعطف تاريخي معين لا يبرحه، هذا بينما جاءت الأيام بتغيرات في الأداء الرأسمالي الأوروبي نفسه تتناقض مع الفكرة الرئيسية لهذا الكتاب، فإذا الأحزاب الاشتراكية تقفز على كراسي الحكم في غرب أوروبا، وإذا سياسيو الرأسمالية يطرحون لها ما سمي «الطريق الثالث». وفي لحظة التفوق الأميركي هذه كتب المؤرخ «صمويل هنتجتون» كتابه «صدام الحضارات» من منطلق تفكيك العالم إلى شظايا حضارية متصادمة، وإدخاله في دوامة صراعية لا تنتهي. ربما على أمل أن يكون صدام تلك الشظايا مدعاة لبقاء الولايات الأميركية محوراً للأداء العالمي، ومجمعاً لوحدة القرار الدولي،وبهذا ظن المؤرخان أن المركزية الأميركية هي نفسها النظام العالمي الجديد وهي نفسها العولمة.

لقد رأى فوكوياما المستشار الاستراتيجى والمخطط للسياسة الأمريكية الخارجية أن انهيار الاتحاد السوفييتي، وتفكيك المنظومة الشيوعية لم يضع حداً نهائياً للصراع التقليدي فحسب، وإنما وضع نهاية للتاريخ أيضاً، باعتباره إلى أنه تاريخ صراعات مريرة مدمرة، وبتلك النهاية يميل التاريخ إلى الاستقرار عند الرأسمالية العالمية، كنظام اقتصادي واحد، كما يميل إلى الاطمئنان للديمقراطيات الليبرالية الغربية كنظام اجتماعي سياسي عالمي أمثل (١٥).

ولقد حاول صمويل هانتغتون المحاضر في جامعة هارفارد بأميركا «تجاوز فلسفة» «النهايات» التي اكتملت عند «فوكو» بحتمية الليبرالية كمصير للشعوب إلى حتمية «صدام الحضارات» التي هي آخر طور، أي الحلقة النهائية في سلسلة تطور الصراع، ويرى أن التاريخ لن ينهض وأن الصراع الحقيقي لن يختفي، وإنما سيكتفي كل منهما بتغيير مصادره، واتجاهاته، وتبديل أشكاله وآلياته بالتحول من صراع دول ومجتمعات

التفكير النقدي في الاستراتيجيات والخطط التي تمتلكها، والتي ستحدد موقفنا من مجريات الحدث على ضوء أهدافنا وإمكانياتنا، وسبل الاستفادة منها.

أي أن تأثيرات العولمة على الرغم من طابعها الكوني وما تملكه من طاقات، ليست قدراً محتوماً يحدد مصيرنا فيما يجري سلفاً، بل إن هذا المصير مرتبط إلى حد كبير بما سنعمل وكيف سنواجهه ولا يفيدنا في شيء تجاهل ما يجري أو رفضه انفعالياً، فلا موقفنا كعرب ولا أهدافنا المستقبلية تتيح لنا تجنب التفاعل مع ما يحدث على الساحة العالمية.

ولقد أعلن الرئيس جورج بوش فى ١٧ يناير عام ١٩٩١م تدشين ما أسماه بالنظام العالمي الجديد New world Order مستخدماً لفظة Order وفيها من القسر والتوجيه والأمر ما ليس في كلمة System أو Institution أو غيرها، وكأنما أراد الرئيس الأمريكي أن يوحي بأن النظام المدعى وبلاده على رأسه، قد أسقط كل قوة معارضة للتوجهات الرئيسية لبلاده، وهي الليبرالية، والرأسمالية، والديمقراطية، وتبع هذا تعميق الكتاب لاستخدام مصطلح النظام العالمي الجديد ومصطلح العولمة لتجسيد معنى التفوق الأميركي آنف الذكر.

ومن أبرز المؤرخين الذين خدموا هذا الوضع المؤرخ الأميركي، الياباني الأصل، «فوكوياما» وكتابه «نهاية التاريخ»، والذي ظن التاريخ متجمداً عند منعطف تاريخي معين لا يبرحه، هذا بينما جاءت الأيام بتغيرات في الأداء الرأسمالي الأوروبي نفسه تتناقض مع الفكرة الرئيسية لهذا الكتاب، فإذا الأحزاب الاشتراكية تقفز على كراسي الحكم في غرب أوروبا، وإذا سياسيو الرأسمالية يطرحون لها ما سمي «الطريق الثالث». وفي لحظة التفوق الأميركي هذه كتب المؤرخ «صمويل هنتجتون» كتابه «صدام الحضارات» من منطلق تفكيك العالم إلى شظايا حضارية متصادمة، وإدخاله في دوامة صراعية لا تنتهي. ربما على أمل أن يكون صدام تلك الشظايا مدعاة لبقاء الولايات الأميركية محوراً للأداء العالمي، ومجمعاً لوحدة القرار الدولي،وبهذا ظن المؤرخان أن المركزية الأميركية هي نفسها النظام العالمي الجديد وهى نفسها العولمة.

لقد رأى فوكوياما المستشار الاستراتيجى والمخطط للسياسة الأمريكية الخارجية أن انهيار الاتحاد السوفييتي، وتفكيك المنظومة الشيوعية لم يضع حداً نهائياً للصراع التقليدي فحسب، وإنما وضع نهاية للتاريخ أيضاً، باعتباره إلى أنه تاريخ صراعات مريرة مدمرة، وبتلك النهاية يميل التاريخ إلى الاستقرار عند الرأسمالية العالمية، كنظام اقتصادي واحد، كما يميل إلى الاطمئنان للديمقراطيات الليبرالية الغربية كنظام اجتماعي سياسي عالمي أمثل (١٥).

ولقد حاول صمويل هانتغتون المحاضر في جامعة هارفارد بأميركا «تجاوز فلسفة» «النهايات» التي اكتملت عند «فوكو» بحتمية الليبرالية كمصير للشعوب إلى حتمية «صدام الحضارات» التي هي آخر طور، أي الحلقة النهائية في سلسلة تطور الصراع، ويرى أن التاريخ لن ينهض وأن الصراع الحقيقي لن يختفي، وإنما سيكتفي كل منهما بتغيير مصادره، واتجاهاته، وتبديل أشكاله وآلياته بالتحول من صراع دول ومجتمعات

وطبقات إلى صراع ثقافات وحضارات. ويرى الباحث أن التصادم وكذا حركات الصحوة الدينية التي جاءت لتملأ الفراغ الناتج عن ضعف الانتماء القومي، ومن هنا نشأت الحركة الأصولية في أغلب الديانات المسيحية الغربية، وفي اليهودية، وفي البوذية والهندوسية وفي الإسلام.

والرجوع إلى الأصل لدى أغلب الشعوب كرد فعل ضد الهيمنة الغربية، ومن هنا جاءت صيحة الرجوع إلى الآسيوية في اليابان، والهندوسية في الهند، والإسلام في الشرق الأوسط. وحتى في روسيا يتم حالياً مناقشة مسألة إلحاق روسيا بالغرب «تغريبها» وظهور تكتلات اقتصادية جديدة، إلا أن هذه التكتلات تحتاج إلى مواسم حضارية مشتركة كشرط أساسي لنجاحها وما كتاب «صدام الحضارات» إلا النهايات المفتوحة على الممكنات [١٦].

وبعبارة أخرى لقد أعطت مقولة «هانتغتون»- صدام الحضارات- مفعولها الإيجابي في جميع البلدان الخائفة على ثقافتها وتراثها من التحديات ا لمستقبلية التي لم تستطع حتى الآن أن تجد لها مشروعاً تحديثياً قابلاً للحياة، رغم مرور أكثر من قرنين من الزمن على بداية التحدي الحضاري.

إن مقارنة ما أحدثته مقولة- صدام الحضارات- في العالم الإسلامي من جهة، وفي جنوب شرق آسيا من جهة أخرى تؤكد بالملموس- كما يقول الباحث د. حفناوي بعلي[١٧] - أن اليابان والصين والكوبيين قد عرفوا كيف يردون على الأيديولوجية بالعلم، أي بالإيغال في عملية التحديث الذاتي وليس بالتغريب. وذلك على قاعدة اللحاق بالغرب وتجاوزه، وعلى عكس الكلام الأيديولوجي الذي لا تسانده قوى عالمية ذات مصداقية على أرض الواقع كما هو الحال في الدول العربية والإسلامية[١٨].

وقد دفع هذا بعض الكتاب والمفكرين إلى احتكار النظام العالمي الجديد والعولمة للولايات المتحدة الأميركية، بينما اندفع بعض آخر ينكرون عليها ممارستها. إلى حد إنكار أن العالم يشهد ظاهرة العولمة أصلاً، حتى ظهر في كتابات البعض منهم «فخا» كما ذكرها «هانس بيتر مارتن» و«هارلد شومان»، أو كما ظهرت «صناعة الجوع» في رأي البعض الثالث، وهكذا فهي ليست إلا هيمنة قيم وقوى الغرب الأوروبي والأميركي.

أما المؤرخ الأميركي الرصين سبول كنيدي» في عمله الإبداعي «الإعداد للقرن الحادي والعشرين» Preparing for the 21 th century باعتبارها ظاهرة إنسانية تطورية وتقدمية، خرجت من رحم جسم إنساني وحدوي راق، وتولدت من رحم الثورات الصناعية المتعاقبة ولا سيما الثورة الإلكترونية وثورة علوم الليزر وثورة المعلومات والاتصالات والهندسة الوراثية وثورة المواصلات، وهي الثورات التى اختزلت المسافات وضيقت الفجوة بين الخلافات الحضارية والأيديولوجية، ويسرت فرصة السفر والسياحة، وجعلت الحدود السياسية وسيلة تنظيمية وليست عقبة عسكرية، ويسرت انتقال رؤوس الأموال والأفكار، ووحدت الأداء البيئي فى عالم واحد مؤكدة أن هذه الصيانة تعنى نضج البشرية فى التعامل مع الموارد الطبيعية من ماء وهواء وتربة ومعادن وأشجار ونباتات في إطار من التناغم البيئي باعتبار أن الإضرار بغابات الأمازون أو الكونغو لا يعني فقط الإضرار

وطبقات إلى صراع ثقافات وحضارات. ويرى الباحث أن التصادم وكذا حركات الصحوة الدينية التي جاءت لتملأ الفراغ الناتج عن ضعف الانتماء القومي، ومن هنا نشأت الحركة الأصولية في أغلب الديانات المسيحية الغربية، وفي اليهودية، وفي البوذية والهندوسية وفي الإسلام.

والرجوع إلى الأصل لدى أغلب الشعوب كرد فعل ضد الهيمنة الغربية، ومن هنا جاءت صيحة الرجوع إلى الآسيوية في اليابان، والهندوسية في الهند، والإسلام في الشرق الأوسط. وحتى في روسيا يتم حالياً مناقشة مسألة إلحاق روسيا بالغرب «تغريبها» وظهور تكتلات اقتصادية جديدة، إلا أن هذه التكتلات تحتاج إلى مواسم حضارية مشتركة كشرط أساسي لنجاحها وما كتاب «صدام الحضارات» إلا النهايات المفتوحة على الممكنات [١٦].

وبعبارة أخرى لقد أعطت مقولة «هانتغتون»- صدام الحضارات- مفعولها الإيجابي في جميع البلدان الخائفة على ثقافتها وتراثها من التحديات ا لمستقبلية التي لم تستطع حتى الآن أن تجد لها مشروعاً تحديثياً قابلاً للحياة، رغم مرور أكثر من قرنين من الزمن على بداية التحدي الحضاري.

إن مقارنة ما أحدثته مقولة- صدام الحضارات- في العالم الإسلامي من جهة، وفي جنوب شرق آسيا من جهة أخرى تؤكد بالملموس- كما يقول الباحث د. حفناوي بعلي[١٧] - أن اليابان والصين والكوبيين قد عرفوا كيف يردون على الأيديولوجية بالعلم، أي بالإيغال في عملية التحديث الذاتي وليس بالتغريب. وذلك على قاعدة اللحاق بالغرب وتجاوزه، وعلى عكس الكلام الأيديولوجي الذي لا تسانده قوى عالمية ذات مصداقية على أرض الواقع كما هو الحال في الدول العربية والإسلامية[١٨].

وقد دفع هذا بعض الكتاب والمفكرين إلى احتكار النظام العالمي الجديد والعولمة للولايات المتحدة الأميركية، بينما اندفع بعض آخر ينكرون عليها ممارستها. إلى حد إنكار أن العالم يشهد ظاهرة العولمة أصلاً، حتى ظهر في كتابات البعض منهم «فخا» كما ذكرها «هانس بيتر مارتن» و«هارلد شومان»، أو كما ظهرت «صناعة الجوع» في رأي البعض الثالث، وهكذا فهي ليست إلا هيمنة قيم وقوى الغرب الأوروبي والأميركي.

أما المؤرخ الأميركي الرصين سبول كنيدي» في عمله الإبداعي «الإعداد للقرن الحادي والعشرين» Preparing for the 21 th century باعتبارها ظاهرة إنسانية تطورية وتقدمية، خرجت من رحم جسم إنساني وحدوي راق، وتولدت من رحم الثورات الصناعية المتعاقبة ولا سيما الثورة الإلكترونية وثورة علوم الليزر وثورة المعلومات والاتصالات والهندسة الوراثية وثورة المواصلات، وهي الثورات التى اختزلت المسافات وضيقت الفجوة بين الخلافات الحضارية والأيديولوجية، ويسرت فرصة السفر والسياحة، وجعلت الحدود السياسية وسيلة تنظيمية وليست عقبة عسكرية، ويسرت انتقال رؤوس الأموال والأفكار، ووحدت الأداء البيئي فى عالم واحد مؤكدة أن هذه الصيانة تعنى نضج البشرية فى التعامل مع الموارد الطبيعية من ماء وهواء وتربة ومعادن وأشجار ونباتات في إطار من التناغم البيئي باعتبار أن الإضرار بغابات الأمازون أو الكونغو لا يعني فقط الإضرار

بأبناء أميركا أو أفريقيا، بل أيضاً بأبناء أوروبا وآسيا.

وهكذا يصير الإحساس بوحدة العالم مقدمة لإدراك قيم بشرية واحدة. وهو ما يمكن تسميته «العولمة» كظاهرة بشرية ومعرفية وموضوعية تعيشها دول العالم، كل بقدر نصيبها من المؤثرات آنفة الذكر.

وبذا فقد نظر المؤرخ «بول كنيدي» للعولمة في مضمونها «الموضوعي» باعتبارها حالة تاريخية ناتجة عن تطور عام للبشرية ككل، أسهمت فيها جميع حضاراتها وشعوبها، ومن ثم فالعولمة الموضوعية ليست قرينة للعولمة الأميركية، التي هي نمط من الهيمنة سوف يتعاظم رفض العالم له، بل- وكما يقول الدكتور السيد فليفل [١٩] - إن بول كنيدي يعتبر الولايات المتحدة أعجز من الاستجابة للعولمة الموضوعية بكامل مفرداتها في الوقت الراهن، فلا هي قادرة على إنهاء مشروعاتها الملوثة للبيئة طبقا لمقررات قمة ريودي جانيرو عام ١٩٩٢، ولا هي قادرة على فتح أسواقها أمام سلع اليابان والصين وأوروبا، بدليل ما تتخذ من إجراءات حمائية.

وفي مجال السياسة ثمة ظاهرة تشكل «العولمة» وهي تكوين حركات سياسية تعمل على مستوى عالمي. ولم يعد حتى سور الصين العظيم يمنع من الامتداد حتى نهاية العالم. فقد تكونت أمية اشتراكية، وربما كانت في الأصل مكونات أساسية امبريالية. والآن تعمل الحركات الإسلامية وكثير من الكنائس المسيحية على مستوى العالم؛ كله جنباً إلى جنب مع حركات سياسية، ومنظمات أعمال منظمات إنسانية عالمية، كل هذا له صلة بنهاية التاريخ، أو الصراع بين الشعوب وبمفهوم «المجتمع المدني العالمي»، والعولمة السياسية.

ومن الناحية الفلسفية والفكرية [٢٠] فالمجتمع المدني العالمي، ذلك هو المجتمع من الناس الذين يفكرون بشكل عالمي، ويؤمنون بوحدة الجنس الإنساني وترابط مصيره. وينشدون الضغط على صانعي السياسة لإنتاج سياسات مواكبة للسلام والتحرر الاجتماعي، والتنمية الاقتصادية والثقافية المتوازنة لكل الشعوب من احترام التعددية الثقافية والحضارية في الوقت نفسه، وفي القلب من هذا المجتمع العالمي نجد منظمات وطنية و إقليمية وعالمية تعمل في مجال الدفاع عن حقوق الإنسان، وتقديم مساعدات لإغاثة الإنسانية، والنضال ضد تخريب البيئة العالمي، والتسليح الذري و التجارب النووية، ومناهضة جرائم إبادة الأجناس، وجرائم الحرب والدفع نحو السلام بكل الوسائل المتاحة، والعمل على توسيع نطاق المبادلات، والتدفقات العلمية للإبداع وخاصة في مجال الفنون والآداب.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يقول المفكر وعالم الاجتماع السويسري «جون زيغلر» أن «منظمة التجارة العالمية» تجسد الليبرالية الجديدة في صورتها المتطرفة، وهي تعني- ضمن ما تعني- موتاً محققاً للعالم الثالث، وتذكر الإحصاءات أن عدد سكان العالم يصل إلى ستة مليارات نسمة يعيش أكثر من ثلثهم في دول الجنوب والغالبية العظمى لا تعيش عيشة إنسانية، والدليل على ذلك أن ١٣ بالمائة فقط من سكان العالم ينفقون ٦٨ بالمائة من الإنتاج العالمي، ويضيف «زيغلر» إنها عدم مساواة صارخة ورهيبة فضلاً عن صنوف الاستغلال والاضطهاد التي يتعرض له الآدميون في العالم الثالث [٢١].

بأبناء أميركا أو أفريقيا، بل أيضاً بأبناء أوروبا وآسيا.

وهكذا يصير الإحساس بوحدة العالم مقدمة لإدراك قيم بشرية واحدة. وهو ما يمكن تسميته «العولمة» كظاهرة بشرية ومعرفية وموضوعية تعيشها دول العالم، كل بقدر نصيبها من المؤثرات آنفة الذكر.

وبذا فقد نظر المؤرخ «بول كنيدي» للعولمة في مضمونها «الموضوعي» باعتبارها حالة تاريخية ناتجة عن تطور عام للبشرية ككل، أسهمت فيها جميع حضاراتها وشعوبها، ومن ثم فالعولمة الموضوعية ليست قرينة للعولمة الأميركية، التي هي نمط من الهيمنة سوف يتعاظم رفض العالم له، بل- وكما يقول الدكتور السيد فليفل [١٩] - إن بول كنيدي يعتبر الولايات المتحدة أعجز من الاستجابة للعولمة الموضوعية بكامل مفرداتها في الوقت الراهن، فلا هي قادرة على إنهاء مشروعاتها الملوثة للبيئة طبقا لمقررات قمة ريودي جانيرو عام ١٩٩٢، ولا هي قادرة على فتح أسواقها أمام سلع اليابان والصين وأوروبا، بدليل ما تتخذ من إجراءات حمائية.

وفي مجال السياسة ثمة ظاهرة تشكل «العولمة»، وهي تكوين حركات سياسية تعمل على مستوى عالمي. ولم يعد حتى سور الصين العظيم يمنع من الامتداد حتى نهاية العالم. فقد تكونت أمية اشتراكية، وربما كانت في الأصل مكونات أساسية امبريالية. والآن تعمل الحركات الإسلامية وكثير من الكنائس المسيحية على مستوى العالم؛ كله جنباً إلى جنب مع حركات سياسية، ومنظمات أعمال منظمات إنسانية عالمية، كل هذا له صلة بنهاية التاريخ، أو الصراع بين الشعوب وبمفهوم «المجتمع المدني العالمي»، والعولمة السياسية.

ومن الناحية الفلسفية والفكرية [٢٠] فالمجتمع المدني العالمي، ذلك هو المجتمع من الناس الذين يفكرون بشكل عالمي، ويؤمنون بوحدة الجنس الإنساني وترابط مصيره. وينشدون الضغط على صانعى السياسة لإنتاج سياسات مواكبة للسلام والتحرر الاجتماعي، والتنمية الاقتصادية والثقافية المتوازنة لكل الشعوب من احترام التعددية الثقافية والحضارية فى الوقت نفسه، وفي القلب من هذا المجتمع العالمي نجد منظمات وطنية و إقليمية وعالمية تعمل في مجال الدفاع عن حقوق الإنسان، وتقديم مساعدات لإغاثة الإنسانية، والنضال ضد تخريب البيئة العالمي، والتسليح الذري و التجارب النووية، ومناهضة جرائم إبادة الأجناس، وجرائم الحرب والدفع نحو السلام بكل الوسائل المتاحة، والعمل على توسيع نطاق المبادلات، والتدفقات العلمية للإبداع وخاصة في مجال الفنون والآداب.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يقول المفكر وعالم الاجتماع السويسري «جون زيغلر» أن «منظمة التجارة العالمية» تجسد الليبرالية الجديدة في صورتها المتطرفة، وهي تعني- ضمن ما تعني- موتاً محققاً للعالم الثالث، وتذكر الإحصاءات أن عدد سكان العالم يصل إلى ستة مليارات نسمة يعيش أكثر من ثلثهم في دول الجنوب والغالبية العظمى لا تعيش عيشة إنسانية، والدليل على ذلك أن ١٣ بالمائة فقط من سكان العالم ينفقون ٦٨ بالمائة من الإنتاج العالمي، ويضيف «زيغلر» إنها عدم مساواة صارخة ورهيبة فضلاً عن صنوف الاستغلال والاضطهاد التي يتعرض له الآدميون في العالم الثالث [٢١].

وفي تفسير هذا الوضع يقال إن «منظمة التجارة العالمية» هي الانتصار الساحق لدكتاتورية رأس المال في أبشع صورها، وأن السبب هو عالم السوق الرأسمالية الموحدة الذي نحياه لأنه أفرز «رأسمالية الغابة» التي تعني نهاية الدولة الوطنية والسيادة الشعبية ونهاية التنوير والقيم المصاحبة له مثل التضامن والعدالة الاجتماعية، وتعني أيضاً ضياع مائتى سنة من الثورة الديمقراطية.

وهكذا يجد العالم نفسه يعيش ليلاً رهيباً تجسده «منظمة التجارة العالمية»، وفي مدينة سياتل الأميركية حيث عقد المؤتمر الوزاري الثالث لمنظمة التجارة العالمية، فقد كان المشهد العام يبدو وكأن هناك «ثورة عالمية» ضد انفراد أميركا بزعامة العالم، حيث أصرت الدول النامية ودول الاتحاد الأوروبي واليابان وكوريا الجنوبية على رفض الخضوع لقاعدة «الرضا الأميركي» باعتبارها القاعدة الحاكمة لصدور القرارات في نطاق «منظمة التجارة العالمية».

إن البيان القصير المقتضب الذي صدر عن اجتماعات سياتل أدان المواقف والسلوكيات الأميركية في النطاق الدولي، وطلب بفتح النوافذ وإعادة التقييم للنظام التجاري الدولي حتى ولو أدى الأمر للخروج على المظلة الأميركية في الوقت نفسه تضمن مشهد سياتل الرغبة الأكيدة في مراجعة جدول أعمال اجتماعات المنظمة من الألف إلى الياء ومحاولة ضمان أقصى قدر ممكن من الشفافية والكفاءة للاجتماعات في إشارة إلى رفض المحاولات الأميركية لتحرير القرارات التى تتفق مع مصالحها دون اعتبار لمصالح الآخرين.

هذا كله دفع باحثة في العولمة (٢٢) إلى التساؤل بقولها: هل يعني ذلك أن العولمة بدأت في السقوط؟ وبعبارة أخرى هل تعني أحداث سياتل، وما أعقبها من أحداث بداية تغير عصر الزعامة الأميركية وتربعها على عرش العالم؟ هل توجد في العالم «قوى أخرى بازغة» ومؤثرة أصبحت تمتلك القدرة على تحويل المشيئة الأميركية؟ إن هذه التساؤلات هي في حقيقتها عناوين لموضوعات أساسية فرضت نفسها بقوة على العلماء والمفكرين وأصبحت في حاجة إلى إجابات شافية علها تضيء المساحات المعتمة ونقاط الضعف التي لا تزال تقيد حركة الشعوب بعد الدخول في ألفية جديدة من عمر الزمن.

ومن هنا يدخل الإنسان المعاصر القرن الحادي والعشرين، وهو يخوض جدالاً أكثر حدة واتساعاً شمالاً وجنوباً، حول إحدى النتائج الحتمية لجنون المضاربات المالية وتراكمات الرساميل، العولمة! وبينما يعم الشعور شرائح واسعة بأن الأمم سائرة على طريق العالمية الحتمي، ينطلق الجدل اليوم، حذار من العولمة!

الواقع أن هناك مضموناً محبوكاً في كواليس منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية وعلى منوال الـ(MAL) يسعى حثيثاً لاحتواء العالمية لصالح الشركات الاحتكارية والأمركة الهوليودية، هادفاً بذلك إلى الحؤول دون أي تشكل ممكن لعالمية متحاورة بأطراف متعددة، أو ما يمكننا نعته بـ«عولمة متثاقفة متقابسة» عالمية حقيقية تكون الشعوب والدول والشركات الصغرى والمتوسطة أشخاصها الرئيسية. وهكذا بدا وكأن شيوع الوهم، اقتادنا إلى أن نميز بين «العولمة» و«العالمية» إذ أصبح للعولمة معنى آخر- ومضموناً مختلفاً-

وفي تفسير هذا الوضع يقال إن «منظمة التجارة العالمية» هي الانتصار الساحق لدكتاتورية رأس المال في أبشع صورها، وأن السبب هو عالم السوق الرأسمالية الموحدة الذي نحياه لأنه أفرز «رأسمالية الغابة» التي تعني نهاية الدولة الوطنية والسيادة الشعبية ونهاية التنوير والقيم المصاحبة له مثل التضامن والعدالة الاجتماعية، وتعني أيضاً ضياع مائتى سنة من الثورة الديمقراطية.

وهكذا يجد العالم نفسه يعيش ليلاً رهيباً تجسده «منظمة التجارة العالمية»، وفي مدينة سياتل الأميركية حيث عقد المؤتمر الوزاري الثالث لمنظمة التجارة العالمية، فقد كان المشهد العام يبدو وكأن هناك «ثورة عالمية» ضد انفراد أميركا بزعامة العالم، حيث أصرت الدول النامية ودول الاتحاد الأوروبي واليابان وكوريا الجنوبية على رفض الخضوع لقاعدة «الرضا الأميركي» باعتبارها القاعدة الحاكمة لصدور القرارات في نطاق «منظمة التجارة العالمية».

إن البيان القصير المقتضب الذي صدر عن اجتماعات سياتل أدان المواقف والسلوكيات الأميركية في النطاق الدولي، وطلب بفتح النوافذ وإعادة التقييم للنظام التجاري الدولي حتى ولو أدى الأمر للخروج على المظلة الأميركية في الوقت نفسه تضمن مشهد سياتل الرغبة الأكيدة في مراجعة جدول أعمال اجتماعات المنظمة من الألف إلى الياء ومحاولة ضمان أقصى قدر ممكن من الشفافية والكفاءة للاجتماعات في إشارة إلى رفض المحاولات الأميركية لتحرير القرارات التى تتفق مع مصالحها دون اعتبار لمصالح الآخرين.

هذا كله دفع باحثة في العولمة (٢٢) إلى التساؤل بقولها: هل يعني ذلك أن العولمة بدأت في السقوط؟ وبعبارة أخرى هل تعني أحداث سياتل، وما أعقبها من أحداث بداية تغير عصر الزعامة الأميركية وتربعها على عرش العالم؟ هل توجد في العالم «قوى أخرى بازغة» ومؤثرة أصبحت تمتلك القدرة على تحويل المشيئة الأميركية؟ إن هذه التساؤلات هي في حقيقتها عناوين لموضوعات أساسية فرضت نفسها بقوة على العلماء والمفكرين وأصبحت في حاجة إلى إجابات شافية علها تضيء المساحات المعتمة ونقاط الضعف التي لا تزال تقيد حركة الشعوب بعد الدخول في ألفية جديدة من عمر الزمن.

ومن هنا يدخل الإنسان المعاصر القرن الحادي والعشرين، وهو يخوض جدالاً أكثر حدة واتساعاً شمالاً وجنوباً، حول إحدى النتائج الحتمية لجنون المضاربات المالية وتراكمات الرساميل، العولمة! وبينما يعم الشعور شرائح واسعة بأن الأمم سائرة على طريق العالمية الحتمي، ينطلق الجدل اليوم، حذار من العولمة!

الواقع أن هناك مضموناً محبوكاً في كواليس منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية وعلى منوال الـ(MAL) يسعى حثيثاً لاحتواء العالمية لصالح الشركات الاحتكارية والأمركة الهوليودية، هادفاً بذلك إلى الحؤول دون أي تشكل ممكن لعالمية متحاورة بأطراف متعددة، أو ما يمكننا نعته بـ«عولمة متثاقفة متقابسة» عالمية حقيقية تكون الشعوب والدول والشركات الصغرى والمتوسطة أشخاصها الرئيسية. وهكذا بدا وكأن شيوع الوهم، اقتادنا إلى أن نميز بين «العولمة» و«العالمية» إذ أصبح للعولمة معنى آخر- ومضموناً مختلفاً-

عما تقدمه القواميس اللغوية العامة، أو ذاك الذي تبشر به الأدبيات والأفكار الطيبة (٢٣).

هل ثمة اتجاه لنشوء توازن عالمي جديد.. وما طبيعة هذا التوازن، وما آليات عمله في ظل مرجعية دولية مصابة بإنهاك مزمن.. وإلى أي مدى، تالياً، سيتمكن العالم من بلوغ توازن للقوى يكون العامل الذري فيه عاملاً فاعلاً، بل ومؤسساً لأي نظام عالمي جديد؟

هذه أسئلة تقلق الخبراء والمشتغلين في الاستراتيجيات الدولية، بقدر ما تثير التوتر في الخريطة الدولية غير المستقرة ومراكز القرار فيها. ثمة من يذهب إلى أن الدلائل الإجمالية للتطور العالمي بعد الحرب الباردة، تشير إلى عالم متوقع لا أحادي ولا ثنائي وإنما متعدد الأقطاب، إلا أن هنالك من شكك في قيام مثل هذا العالم المتوقع، ويرجح دوام أحادية القوة الأميركية في حكم العالم مع تكتل دولي عريض ملتحق بها، أو مستتبع لها خصوصاً من جانب الدول الغربية أوبعد توسع حلف الناتو باتجاه شرق أوروبا. لكن أيا كان الاتجاه الذي ستجري عليه حركة الاستقطاب في العالم، فإن سؤال التوازن الذي يمنع الحروب التقليدية الكبرى والصغرى وبالتالي الاحتمال النووي يبقى سؤالاً لازماً لأي نقاش في الاستراتيجيات الدولية المقبلة (٢٤).

شرك الأوهام:

في بداية الأمر صدق العديدون الوعود بأن العولمة سوف تفضي إلى زيادة معدلات دخول الأفراد في مختلف دول العالم، وأن الشركات ستجني أرباحاً هائلة من جراء توسيع نطاق السوق، وأن الدول الفقيرة ستنمو بصورة أسرع من الدول الغنية، وفي هذا التطور الذي سيكون فيه الكل فائزاً تضاءلت أهمية الدولة في الوقت الذي أخذت فيه القرية العالمية؛ في النمو واتجهت الأسواق للاندماج.

غير أن الدلائل كما يشير «بروس سكوت» أستاذ إدارة الأعمال في جامعة هارفارد في مقال له بمجلة فورين افيرز الأميركية المرموقة ترسم صورة مختلفة أبعد ما تكون عن الصورة الوردية التى حاول مروجو العولمة طبعها في الأذهان، إذ أنه على الرغم من أن متوسطات الدخل قد اتجهت بالفعل للنمو والزيادة، فإن الفجوة في الدخل بين الدول الغنية والأخرى الفقيرة قد ازدادت أيضاً. وهناك في عالمنا الآن مليار نسمة يقل دخل الواحد منهم عن دولارين يومياً (٢٥).

ومع أن هذين الاتجاهين ظلا واضحين لأكثرمن مائتي عام فإن التقدم الهائل الذي طرأ على وسائل الاتصال قد زاد من الوعي بين الفقراء، تجاه التفاوت في الدخول، كما زاد من التدافع على الهجرة للدول الأغنى، الأمر الذي حدا بالدول الغنية إلى وضع عراقيل أكبر على الهجرة، وهو ما جعل الاقتصاد العالمي يبدو مثل مجتمع تكثر به البوابات بدلاً من أن يكون قرية عالمية.

وعلى الرغم من أن الأسواق العالمية للسلع ورأس المال قد انفتحت على مصراعيها منذ الحرب العالمية الثانية وتولت المنظمات الدولية مهمة وضع القواعد ومراقبة الاقتصاد العالمي، فإن التعاون الاقتصادي بين الدول ما زال في ازدياد.

ويقول «سكوت» هنا أن هناك سببين أديا إلى الاختلاف بين النظرية الاقتصادية والواقع أولهما إصرار الدول الغنية على وضع حواجز أمام الهجرة والواردات الزراعية، وثانيهما أن معظم الدول الفقيرة غير قادرة على جذب رؤوس

عما تقدمه القواميس اللغوية العامة، أو ذاك الذي تبشر به الأدبيات والأفكار الطيبة (٢٣).

هل ثمة اتجاه لنشوء توازن عالمي جديد.. وما طبيعة هذا التوازن، وما آليات عمله في ظل مرجعية دولية مصابة بإنهاك مزمن.. وإلى أي مدى، تالياً، سيتمكن العالم من بلوغ توازن للقوى يكون العامل الذري فيه عاملاً فاعلاً، بل ومؤسساً لأي نظام عالمي جديد؟

هذه أسئلة تقلق الخبراء والمشتغلين في الاستراتيجيات الدولية، بقدر ما تثير التوتر في الخريطة الدولية غير المستقرة ومراكز القرار فيها. ثمة من يذهب إلى أن الدلائل الإجمالية للتطور العالمي بعد الحرب الباردة، تشير إلى عالم متوقع لا أحادي ولا ثنائي وإنما متعدد الأقطاب، إلا أن هنالك من شكك في قيام مثل هذا العالم المتوقع، ويرجح دوام أحادية القوة الأميركية في حكم العالم مع تكتل دولي عريض ملتحق بها، أو مستتبع لها خصوصاً من جانب الدول الغربية أوبعد توسع حلف الناتو باتجاه شرق أوروبا. لكن أيا كان الاتجاه الذي ستجري عليه حركة الاستقطاب في العالم، فإن سؤال التوازن الذي يمنع الحروب التقليدية الكبرى والصغرى وبالتالي الاحتمال النووي يبقى سؤالاً لازماً لأي نقاش في الاستراتيجيات الدولية المقبلة (٢٤).

شرك الأوهام :

في بداية الأمر صدق العديدون الوعود بأن العولمة سوف تفضي إلى زيادة معدلات دخول الأفراد في مختلف دول العالم، وأن الشركات ستجني أرباحاً هائلة من جراء توسيع نطاق السوق، وأن الدول الفقيرة ستنمو بصورة أسرع من الدول الغنية، وفي هذا التطور الذي سيكون فيه الكل فائزاً تضاءلت أهمية الدولة في الوقت الذي أخذت فيه القرية العالمية؛ في النمو واتجهت الأسواق للاندماج.

غير أن الدلائل كما يشير «بروس سكوت» أستاذ إدارة الأعمال في جامعة هارفارد في مقال له بمجلة فورين افيرز الأميركية المرموقة ترسم صورة مختلفة أبعد ما تكون عن الصورة الوردية التى حاول مروجو العولمة طبعها في الأذهان، إذ أنه على الرغم من أن متوسطات الدخل قد اتجهت بالفعل للنمو والزيادة، فإن الفجوة في الدخل بين الدول الغنية والأخرى الفقيرة قد ازدادت أيضاً. وهناك في عالمنا الآن مليار نسمة يقل دخل الواحد منهم عن دولارين يومياً (٢٥).

ومع أن هذين الاتجاهين ظلا واضحين لأكثرمن مائتي عام فإن التقدم الهائل الذي طرأ على وسائل الاتصال قد زاد من الوعي بين الفقراء، تجاه التفاوت في الدخول، كما زاد من التدافع على الهجرة للدول الأغنى، الأمر الذي حدا بالدول الغنية إلى وضع عراقيل أكبر على الهجرة، وهو ما جعل الاقتصاد العالمي يبدو مثل مجتمع تكثر به البوابات بدلاً من أن يكون قرية عالمية.

وعلى الرغم من أن الأسواق العالمية للسلع ورأس المال قد انفتحت على مصراعيها منذ الحرب العالمية الثانية وتولت المنظمات الدولية مهمة وضع القواعد ومراقبة الاقتصاد العالمي، فإن التعاون الاقتصادي بين الدول ما زال في ازدياد.

ويقول «سكوت» هنا أن هناك سببين أديا إلى الاختلاف بين النظرية الاقتصادية والواقع أولهما إصرار الدول الغنية على وضع حواجز أمام الهجرة والواردات الزراعية، وثانيهما أن معظم الدول الفقيرة غير قادرة على جذب رؤوس

الأموال الأجنبية نظراً لإخفاق حكوماتها، وهما سببان مرتبطان ببعضهما البعض إذ أن حواجز الهجرة بإجبار الشعوب الفقيرة على أن تظل في دولها التي تدار بواسطة حكومات سيئة تحرم أولئك الذين هم في أشد الحاجة من فرصة تحسين مستويات معيشتهم من خلال الانعتاق والخروج من بلادهم، وفي المقابل فإن هذا الثبات والجمود يقضي على مصدر محتمل للضغوط على الحكومات غير الفعالة التي لا تتسم بالكفاءة،وهو ما يعزز من فرص بقائها، ونظراً لأنه من غير المرجح أن تحد الد ول الغنية بشكل جوهري من قيودها على الهجرة والحواجز التي تضعها أمام الواردات الزراعية، فإنه يتعين عليها أن تعترف هنا بأن السياسة هى سبب رئيسي للتفاوت الاقتصادي.

وفي الواقع ينطلق دعاة العولمة من افتراض أنها تتيح فرصاً كثيرة لملايين من البشر في شتى أنحاء العالم، على أساس أن العولمة تسمح بتزايد معدلات التجارة وزيادة تبادل التكنولوجيا الجديدة وتدفق الاستثمارات الأجنبية، وتوثق بين الشعوب عبر الإعلام والإنترنت، وكل ذلك من شأنه أن يدفع بالنمو الاقتصادي إلى الأمام، وبالتقدم البشري إلى وضع أفضل في القرن الحادي والعشرين، فالعالم اليوم، مهما تكن السلبيات التي لا ينكرها أحد يستطيع أن يزيد من الثورة المتاحة والانتفاع بها، وكذلك فإن التكنولوجيا الحديثة تمكن الفرد من أن يعيش حياته بصورة أكثر راحة، وأكثر توفيراً للمتعة بعيداً عن المشقة والمعاناة.

وعلى هذا الأساس فإن دعاة العولمة يعرفونها، بوجود أسواق عالمية، وتكنولوجيا عالمية، وتضامن عالمي، ويركزون على فكر التضامن العالمي، على افتراض أنه يضفي الطابع الإنساني على العولمة، حتى يكون هناك التزام مبدئي وأخلاقى بأن تكون عوائد التنمية العالمية متاحة للجميع في كل أنحاء العالم، وهذا الالتزام الأخلاقي يعد رابطة إنسانية مشتركة تصنع قدراً من التوحد والانسجام بين القيم الإنسانية في كل الدول وكل الشعوب. وتتركز القيم الإنسانية في عدة مجالات رئيسية مثل: قضايا حقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعية، وإنصاف المرأة، والتركيز على التنمية الاجتماعية بقصد تحسين أحوال الطبقات المهمشة، ومكافحة الفقر.

ولكن ينكشف الواقع عن سراب أمثال هذه الأوهام، حيث لا نرى من العولمة إلا وجوهها التنافسية الضارية، التي لا يقدر عليها إلا الأقوياء والأثرياء، ولا يصمد في حلبتها إلا النهم إلى الربح والتوسع وغزو الأسواق وتراكم الأموال، وتركيز الثروات في أيدي البعض دون الآخرين، فيملكون كل شيء ويتاجرون في كل شيء، ولا يبالون- في سبيل ذلك- بأي شيء.

ومن الجدير بالانتباه أن الولايات المتحدة، ورغم دعواها بأنها كانت في القرن الماضي القريب تعيش في حالة انعزالية عن العالم، خاصة حين كانت القوى الأوروبية تبحث عن مصالحها الاقتصادية والسياسية في المستعمرات، فإن الولايات المتحدة الأميركية الآن لم تعد انعزالية، وليست مستعدة لأن تصبح كذلك، إنها على العكس القوة الوحيدة التي ما برحت تعلن منذ عام ١٩٤٥ أن لديها مصالح في العالم أجمع. والوعي الجديد للبعد البيني الشامل لبعض

الأموال الأجنبية نظراً لإخفاق حكوماتها، وهما سببان مرتبطان ببعضهما البعض إذ أن حواجز الهجرة بإجبار الشعوب الفقيرة على أن تظل في دولها التي تدار بواسطة حكومات سيئة تحرم أولئك الذين هم في أشد الحاجة من فرصة تحسين مستويات معيشتهم من خلال الانعتاق والخروج من بلادهم، وفي المقابل فإن هذا الثبات والجمود يقضي على مصدر محتمل للضغوط على الحكومات غير الفعالة التي لا تتسم بالكفاءة،وهو ما يعزز من فرص بقائها، ونظراً لأنه من غير المرجح أن تحد الد ول الغنية بشكل جوهري من قيودها على الهجرة والحواجز التي تضعها أمام الواردات الزراعية، فإنه يتعين عليها أن تعترف هنا بأن السياسة هى سبب رئيسي للتفاوت الاقتصادي.

وفي الواقع ينطلق دعاة العولمة من افتراض أنها تتيح فرصاً كثيرة لملايين من البشر في شتى أنحاء العالم، على أساس أن العولمة تسمح بتزايد معدلات التجارة وزيادة تبادل التكنولوجيا الجديدة وتدفق الاستثمارات الأجنبية، وتوثق بين الشعوب عبر الإعلام والإنترنت، وكل ذلك من شأنه أن يدفع بالنمو الاقتصادي إلى الأمام، وبالتقدم البشري إلى وضع أفضل في القرن الحادي والعشرين، فالعالم اليوم، مهما تكن السلبيات التي لا ينكرها أحد يستطيع أن يزيد من الثورة المتاحة والانتفاع بها، وكذلك فإن التكنولوجيا الحديثة تمكن الفرد من أن يعيش حياته بصورة أكثر راحة، وأكثر توفيراً للمتعة بعيداً عن المشقة والمعاناة.

وعلى هذا الأساس فإن دعاة العولمة يعرفونها، بوجود أسواق عالمية، وتكنولوجيا عالمية، وتضامن عالمي، ويركزون على فكر التضامن العالمي، على افتراض أنه يضفي الطابع الإنساني على العولمة، حتى يكون هناك التزام مبدئي وأخلاقى بأن تكون عوائد التنمية العالمية متاحة للجميع في كل أنحاء العالم، وهذا الالتزام الأخلاقي يعد رابطة إنسانية مشتركة تصنع قدراً من التوحد والانسجام بين القيم الإنسانية في كل الدول وكل الشعوب. وتتركز القيم الإنسانية في عدة مجالات رئيسية مثل: قضايا حقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعية، وإنصاف المرأة، والتركيز على التنمية الاجتماعية بقصد تحسين أحوال الطبقات المهمشة، ومكافحة الفقر.

ولكن ينكشف الواقع عن سراب أمثال هذه الأوهام، حيث لا نرى من العولمة إلا وجوهها التنافسية الضارية، التي لا يقدر عليها إلا الأقوياء والأثرياء، ولا يصمد في حلبتها إلا النهم إلى الربح والتوسع وغزو الأسواق وتراكم الأموال، وتركيز الثروات في أيدي البعض دون الآخرين، فيملكون كل شيء ويتاجرون في كل شيء، ولا يبالون- في سبيل ذلك- بأي شيء.

ومن الجدير بالانتباه أن الولايات المتحدة، ورغم دعواها بأنها كانت في القرن الماضي القريب تعيش في حالة انعزالية عن العالم، خاصة حين كانت القوى الأوروبية تبحث عن مصالحها الاقتصادية والسياسية في المستعمرات، فإن الولايات المتحدة الأميركية الآن لم تعد انعزالية، وليست مستعدة لأن تصبح كذلك، إنها على العكس القوة الوحيدة التي ما برحت تعلن منذ عام ١٩٤٥ أن لديها مصالح في العالم أجمع. والوعي الجديد للبعد البيني الشامل لبعض

المشاكل يستخدم من قبلها كتبرير إضافي لتأكيد رسالتها ا لقاضية بأن تلعب دوراً بمستوى طاقاتها التكنولوجية والعسكرية (وهي فعلاً ذات مدى عالمي) من هذا المنطلق لا تجد النخبة الأميركية القائدة في تطور «الوعى الأخضر» عاملا معرقلاً في المدى الاستراتيجي.

بالطبع يطرح لديها السؤال حول اعتبار الاستقطاب العالمي، أي البؤس المادي الذي تفرضه الرأسمالية بالضرورة على ثلاثة أرباع الإنسانية مصدر المشكلة الرئيسية في عصرنا. ولايتصور كذلك بأن ثلاثة أرباع الإنسانية هؤلاء مسموح لهم أن يستهلكوا ما يستهلكه الربع المتفوق المكون من الغربيين. هذا ولكون معظم الدول النامية لا تستقبل إلا قدراً ضئيلاً من الاستثمارات الأجنبية، فإنه يجب أيضاً على الدول الغنية أن تعترف بخطأ «إجماع واشنطن» الذي يفترض بأن الأسواق الحرة تعمل على تحقيق التجمع الاقتصادي، وإذا هي اعترفت على الأقل بتلك الحقائق فإنها سوف تتخلى عن فكرة أن استراتيجيتها الخاصة هي الأفضل بالنسبة لجميع الدول.

وكما يقول الباحث «شاكر عبدالفتاح»[٢٦] على أن أميركا أن تسمح للدول الأكثر فقرا بقدر معقول من الحرية، بأن تتبع استراتيجيات تنموية تتفق مع ظروفها الخاصة. وفي هذه النظرة الأكثر براجماتية عملية فإن دور الدولة يصبح محورياً.

ويتساءل «بروس سكوت» في مقال له عن العولمة، عن أسباب عدم إدراك الاقتصاديين والساسة لهذه الحقائق في وقت مبكر، وهو ما يرجعه إلى أن الحواجز التى أقامتها الدول الغنية تم النظر إليها على أنها جوهرية لاستقرارها السياسي. ومن ثم فإن زعماء هذه الدول وجدوا من الملائم التغاضي عنها والتركيز بدلاً من ذلك على جانب الاقتصاد العالمي الذى يجب تحريره، ويرى أيضا أن القوة السياسية للدول الغنية في المنظمات الدولية تجعل من الصعب على الدول النامية تحدي وجهة النظر تلك التي تتخفى تحت راية العالمية.

ويؤكد لنا ذلك الباحثين الألمانيين «هنس-بيتر مارتين» و«هارالد شومان» في كتابهما «العولمة فخ يعتدي على الديمقراطية ورفاهية الشعوب»[٢٧] في الفصل الرابع بعنوان «شريعة الذئاب» عندما تتحول الدعوة للانفتاح على السوق النقدي والمالي العالمي، إلى أيديولوجية صارمة يجب أن يخضع لها الجميع، وإلا فقانون الغاب سيتكفل بالعقاب، وكل دول العالم أخذت- تحت تأثير الضغوط التي تمارسه عليها المنظمات الدولية- في تطبيق سياسات الانفتاح المعولم.

وقد أشار المؤلفان في هذا السياق إلى نقطة مهمة لا يلتفت إليها عادة غالبية الكتاب، وهي أنه حينما يبدأ البلد في الانصياع لتلك السياسات، والخضوع لمنطق أسواق النقد والمال العالمية، ينضم الأثرياء وأصحاب رؤوس الأموال في أي مكان إلى قائمة المقيمين للسياسات الاقتصادية في بلدهم، لأن في وسعهم استثمار أموالهم في أي مكان في العالم. فليس من المستغرب أن يدفع ملايين الضحايا قرباناً لسوق العالمي وآلية عملها، ويمكن أن يسحب البساط من تحت أرجل العمال والموظفين الغربيين لصالح الهنود، خاصة في مجال الكومبيوتر وبرمجته والمؤهلين منهم بصفة أخص.

فتحرير السوق، والليبرالية، والخصخصة. هذا

المشاكل يستخدم من قبلها كتبرير إضافي لتأكيد رسالتها ا لقاضية بأن تلعب دوراً بمستوى طاقاتها التكنولوجية والعسكرية (وهي فعلاً ذات مدى عالمي) من هذا المنطلق لا تجد النخبة الأميركية القائدة في تطور «الوعي الأخضر» عاملا معرقلاً في المدى الاستراتيجي.

بالطبع يطرح لديها السؤال حول اعتبار الاستقطاب العالمي، أي البؤس المادي الذي تفرضه الرأسمالية بالضرورة على ثلاثة أرباع الإنسانية مصدر المشكلة الرئيسية في عصرنا. ولايتصور كذلك بأن ثلاثة أرباع الإنسانية هؤلاء مسموح لهم أن يستهلكوا ما يستهلكه الربع المتفوق المكون من الغربيين. هذا ولكون معظم الدول النامية لا تستقبل إلا قدراً ضئيلاً من الاستثمارات الأجنبية، فإنه يجب أيضاً على الدول الغنية أن تعترف بخطأ «إجماع واشنطن» الذي يفترض بأن الأسواق الحرة تعمل على تحقيق التجمع الاقتصادي، وإذا هي اعترفت على الأقل بتلك الحقائق فإنها سوف تتخلى عن فكرة أن استراتيجيتها الخاصة هي الأفضل بالنسبة لجميع الدول.

وكما يقول الباحث «شاكر عبدالفتاح» [٢٦] على أن أميركا أن تسمح للدول الأكثر فقرا بقدر معقول من الحرية، بأن تتبع استراتيجيات تنموية تتفق مع ظروفها الخاصة. وفي هذه النظرة الأكثر براجماتية عملية فإن دور الدولة يصبح محورياً.

ويتساءل «بروس سكوت» في مقال له عن العولمة، عن أسباب عدم إدراك الاقتصاديين والساسة لهذه الحقائق في وقت مبكر، وهو ما يرجعه إلى أن الحواجز التى أقامتها الدول الغنية تم النظر إليها على أنها جوهرية لاستقرارها السياسي. ومن ثم فإن زعماء هذه الدول وجدوا من الملائم التغاضي عنها والتركيز بدلاً من ذلك على جانب الاقتصاد العالمي الذى يجب تحريره، ويرى أيضا أن القوة السياسية للدول الغنية في المنظمات الدولية تجعل من الصعب على الدول النامية تحدي وجهة النظر تلك التي تتخفى تحت راية العالمية.

ويؤكد لنا ذلك الباحثين الألمانيين «هنس- بيتر مارتين» و«هارالد شومان» في كتابهما «العولمة فخ يعتدي على الديمقراطية ورفاهية الشعوب» [٢٧] في الفصل الرابع بعنوان «شريعة الذئاب» عندما تتحول الدعوة للانفتاح على السوق النقدي والمالي العالمي، إلى أيديولوجية صارمة يجب أن يخضع لها الجميع، وإلا فقانون الغاب سيتكفل بالعقاب، وكل دول العالم أخذت- تحت تأثير الضغوط التي تمارسه عليها المنظمات الدولية- في تطبيق سياسات الانفتاح المعولم.

وقد أشار المؤلفان في هذا السياق إلى نقطة مهمة لا يلتفت إليها عادة غالبية الكتاب، وهي أنه حينما يبدأ البلد في الانصياع لتلك السياسات، والخضوع لمنطق أسواق النقد والمال العالمية، ينضم الأثرياء وأصحاب رؤوس الأموال في أي مكان إلى قائمة المقيمين للسياسات الاقتصادية في بلدهم، لأن في وسعهم استثمار أموالهم في أي مكان في العالم. فليس من المستغرب أن يدفع ملايين الضحايا قرباناً لسوق العالمي وآلية عملها، ويمكن أن يسحب البساط من تحت أرجل العمال والموظفين الغربيين لصالح الهنود، خاصة في مجال الكومبيوتر وبرمجته والمؤهلين منهم بصفة أخص.

فتحرير السوق، والليبرالية، والخصخصة. هذا

الثلاثي غدا هدف الوسائل الاستراتيجية في السياسة الاقتصادية الأوروبية والأميركية، والاعتماد على الإيمان المتطرف بقانون العرض والطلب إلى رخص الأيدي العاملة وخفض الأجور، والتسريح التعسفي، وغياب الرفاهية.. إن رأس المال، عبارة عن كتلة أنانية تتحرك في كل الجهات باحثة عن الربح والزيادة والتكديس، فهي لا تهتم بالحدود والبلدان والشعوب، إلا بالقدر الذي ينفعها.

فالانفتاح الاقتصادي، وإلغاء التعريفة الجمركية، وتحرير التجارة، وإقامة التكتلات الكبرى، من الشركات العابرة القومية، إن البحث عن الأسواق في أي بقعة من العالم، كل هذا يسرّع في تنمية وإنضاج مسيرة العولمة، ويندرج في هذا الإطار السوق الأوروبية المشتركة والوحدة النقدية الأوروبية اللاحقة، وردت الولايات المتحدة وكندا والمسكيك بأن قامت بدورها بتأسيس منطقة التجارة الحرة لدول أميركا الشمالية المسماة بالنافتا (Nafta).

كل هذا يدعم مصالح العالم الغربي في ظل العولمة، ويزيد من هيمنة أميركا على العالم الثالث خاصة العالمين العربي والإسلامي، وبالنسبة للولايات المتحدة، العالم الثالث هو فعلاً «منطقة عواصف» وهي بالطبع ليست عواصف دائمة، وإنما انفجارات متلازمة من الزمن، لكنها تهدد بصورة دائمة هذا النظام الرأسمالي الذي تعتبر الولايات المتحدة نفسها ضامنته وحاميته الأعلى.

كما أن أوروبا واليابان هما بالتأكيد حليفان أساسيان يتشاطران الهاجس نفسه في حماية النظام الرأسمالي. وتناقضهما مع الولايات المتحدة يظل محصوراً في الحدود الضيقة للمنافسة التجارية. على العكس من ذلك تأخذ- كما يقول الدكتور سمير أمين (٢٨)- أزمات الشمال- الجنوب دائماً بعداً سياسياً، عاصفاً في أغلب الأحيان، لذلك من الصعب إحصاء تدخلات واشنطن في العالم الثالث.

لا يوجد منطقة واحدة أو حتى بلد واحد في أميركا وأفريقيا وآسيا لم تتدخل فيه الولايات المتحدة بالزعزعة والانقلاب والضغوط الاقتصادية والمالية (التي تمارس عبر المؤسسات الدولية التي تقودها مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي)، والتدخل العسكري المباشر وغير المباشر. ولم تتجرأ حتى الآن أوروبا واليابان أن تأخذا موقفاً واحدا واضحاً ضد هذه التدخلات، بل كانتا، دائماً تقريباً، في موقعي الشريك ولم يستخدما أصواتهما في البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ولا مرة واحدة للاعتراض على إرادة واشنطن، أكثر من ذلك فقد ألحقتا سياسة السوق الأوروبية المشتركة في أفريقيا بسياسة هذه المؤسسات.

أما في المجال الثقافي، فإن العولمة الثقافية تتضمن بلوغ البشرية مرحلة الحرية لانتقال الأفكار والمعلومات والبيانات والاتجاهات والقيم والأذواق على الصعيد العالمي. وبأقل قدر من القيود والعراقيل والضوابط. لقد فقدت الدول في ظل العولمة الثقافية القدرة على التحكم في تدفق الأفكار والقيم والقناعات فيما بين المجتمعات والأجيال. وفقدت الدول السيطرة على التداول الحر للأخبار والمعلومات والذي يتم عبر وسائل ووسائط وتقنيات جديدة لم تبرزإلا في التسعينات.

لقد أصبح ملايين البشر موحدين تليفزيونياً وتليفونياً ومن خلال البريد الإلكتروني وشبكات الإنترنت. وعلى صعيد آخر فإن العولمة الثقافية

الثلاثي غدا هدف الوسائل الاستراتيجية في السياسة الاقتصادية الأوروبية والأميركية، والاعتماد على الإيمان المتطرف بقانون العرض والطلب إلى رخص الأيدي العاملة وخفض الأجور، والتسريح التعسفي، وغياب الرفاهية.. إن رأس المال، عبارة عن كتلة أنانية تتحرك في كل الجهات باحثة عن الربح والزيادة والتكديس، فهي لا تهتم بالحدود والبلدان والشعوب، إلا بالقدر الذي ينفعها.

فالانفتاح الاقتصادي، وإلغاء التعريفة الجمركية، وتحرير التجارة، وإقامة التكتلات الكبرى، من الشركات العابرة القومية، إن البحث عن الأسواق في أي بقعة من العالم، كل هذا يسرّع في تنمية وإنضاج مسيرة العولمة، ويندرج في هذا الإطار السوق الأوروبية المشتركة والوحدة النقدية الأوروبية اللاحقة، وردت الولايات المتحدة وكندا والمسكيك بأن قامت بدورها بتأسيس منطقة التجارة الحرة لدول أميركا الشمالية المسماة بالنافتا (Nafta).

كل هذا يدعم مصالح العالم الغربي في ظل العولمة، ويزيد من هيمنة أميركا على العالم الثالث خاصة العالمين العربي والإسلامي، وبالنسبة للولايات المتحدة، العالم الثالث هو فعلاً «منطقة عواصف» وهي بالطبع ليست عواصف دائمة، وإنما انفجارات متلازمة من الزمن، لكنها تهدد بصورة دائمة هذا النظام الرأسمالي الذي تعتبر الولايات المتحدة نفسها ضامنته وحاميته الأعلى.

كما أن أوروبا واليابان هما بالتأكيد حليفان أساسيان يتشاطران الهاجس نفسه في حماية النظام الرأسمالي. وتناقضهما مع الولايات المتحدة يظل محصوراً في الحدود الضيقة للمنافسة التجارية. على العكس من ذلك تأخذ- كما يقول الدكتور سمير أمين [٢٨]- أزمات الشمال- الجنوب دائماً بعداً سياسياً، عاصفاً في أغلب الأحيان، لذلك من الصعب إحصاء تدخلات واشنطن في العالم الثالث.

لا يوجد منطقة واحدة أو حتى بلد واحد في أميركا وأفريقيا وآسيا لم تتدخل فيه الولايات المتحدة بالزعزعة والانقلاب والضغوط الاقتصادية والمالية (التي تمارس عبر المؤسسات الدولية التي تقودها مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي)، والتدخل العسكري المباشر وغير المباشر. ولم تتجرأ حتى الآن أوروبا واليابان أن تأخذا موقفاً واحدا واضحاً ضد هذه التدخلات، بل كانتا، دائماً تقريباً، في موقعي الشريك ولم يستخدما أصواتهما في البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ولا مرة واحدة للاعتراض على إرادة واشنطن، أكثر من ذلك فقد ألحقتا سياسة السوق الأوروبية المشتركة في أفريقيا بسياسة هذه المؤسسات.

أما في المجال الثقافي، فإن العولمة الثقافية تتضمن بلوغ البشرية مرحلة الحرية لانتقال الأفكار والمعلومات والبيانات والاتجاهات والقيم والأذواق على الصعيد العالمي. وبأقل قدر من القيود والعراقيل والضوابط. لقد فقدت الدول في ظل العولمة الثقافية القدرة على التحكم في تدفق الأفكار والقيم والقناعات فيما بين المجتمعات والأجيال. وفقدت الدول السيطرة على التداول الحر للأخبار والمعلومات والذي يتم عبر وسائل ووسائط وتقنيات جديدة لم تبرز إلا في التسعينات.

لقد أصبح ملايين البشر موحدين تليفزيونياً وتليفونياً ومن خلال البريد الإلكتروني وشبكات الإنترنت. وعلى صعيد آخر فإن العولمة الثقافية

تعني انتقال تركيز هتمام ووعي الإنسان من المجال المحلي إلى المجال العالمي، ومن المحيط الداخلي إلى المحيط الخارجي. ففى ظل العولمة الثقافية يزداد الوعي بعالمية العالم وبوحدة البشرية، وستبرز بوضوح الهوية والمواطنة العالمية التي ربما ستحل تدريجيا- وربما على المدى البعيد- محل الولاءات والانتماءات الوطنية.

ففي ظل العولمة الثقافية يكتشف الإنسان بعده العالمي الساعي من أجل تقارب الحضارات وربط الثقافات وتعزيز الهوية العالمية، وربما أيضاً خلق عالم بلا حدود ثقافية، وهو مجرد وجه واحد من الوجوه العديدة للعولمة الثقافية. ذلك أنه بقدر ما أن التوجه العام هو نحو تقارب الثقافات والحضارات، فإن العولمة الثقافية يمكن لها أن تتجه نحو صراع الحضارات، ونحو الهيمنة الثقافية لثقافة واحدة على سائر الثقافات، ونحو نشر الثقافة الاستهلاكية وجعلها الثقافة الأكثر رواجاً على الصعيد العالمي. فالعولمة الثقافية التي تمهد الطريق حالياً لترابط المناطق الثقافية بإمكانها أيضاً أن ترسخ انقسام العالم إلى مناطق حضارية مغلقة، وتزداد انغلاقاً، وتسعى لمواجهة بعضها بعضاً. فالثقافة لا غنى لها ولا مبرر لوجودها بدون الإنسان كياناً وفكراً وممارسة (٢٩).

مخاوف:

ومن هنا يعتبر أخطر النتائج المترتبة على العولمة- باعتراف معظم الباحثين- تلك المتصلة بمخاطر الاقتلاع الثقافي والخوف من فقدان الهوية لدى العديد من الشعوب والأمم والفئات الاجتماعية التى تزداد هامشيتها وضياعها وتخضع لمخاطر الحروب الأهلية الكامنة والمتفجرة في أي مكان من العالم. صحيح أن ما يحدث اليوم يشكل تغيراً هائلاً تدخل معه البشرية في عصر المجال السمعي البصري، والتواصل الفوري المباشر، أي أن النمط التلفزيوني هو المسيطر، كما لو أننا إزاء عالم افتراضي أثيري يتألف من الصور والإشارات والنصوص المرئية والمقروءة على الشاشات الإلكترونية الدائمة البث، بما بات يشكل تهديداً لمنظومات القيم والرموز وتغييراً في المرجعيات الوجودية وأنماط الحياة، حيث وجدت الثقافات الخاصة والأمم والشعوب الأخرى نفسها عارية أمام تدفق الرسائل والعلامات التي تجوب العالم على مدار الساعة حاملة معها أبطالاً ورموزاً جديدة، أخذت تملأ مخيلة المشاهد بدءاً بعارضات الأزياء ونجوم الكرة، وصولاً إلى رموز الفن والسينما والأعمال والألبسة والأطعمة وأنماط السلوك والمفردات اللغوية المتكررة

وصحيح أيضاً أن ما يحدث لا يمكن تجاهله ولا يجدي معه الموقف الانفعالي ومحاولات القفز فوقه، لكن من غير الصحيح اعتبار أن ما يجري يعني تجاوز تعدد العوالم نحو عالم واحد ذي نمط موحد، كما يعتقد القائلون بأنصار نموذج كوني وحيد، فالزمن الإلكتروني الذي يوحد الناس مكانياً في عصر العولمة، يتواجد جنباً إلى جنب مع الأزمنة التراثية والخبرات الحياتية التي لا تنتج سوى التباين والتفاوت، مما يعني وجود ثقافات تتفاعل وتتنافس وتتغير بفعل الاحتكاك والتبادل مع الثقافات الأخرى أو بفعل التطور الذاتي الناجم عن الديناميات الداخلية لكل ثقافة على حدة (٣٠).

ومع أن قدرات العولمة الثقافية المدعومة

تعني انتقال تركيز هتمام ووعي الإنسان من المجال المحلي إلى المجال العالمي، ومن المحيط الداخلي إلى المحيط الخارجي. ففى ظل العولمة الثقافية يزداد الوعي بعالمية العالم وبوحدة البشرية، وستبرز بوضوح الهوية والمواطنة العالمية التي ربما ستحل تدريجيا- وربما على المدى البعيد- محل الولاءات والانتماءات الوطنية.

ففي ظل العولمة الثقافية يكتشف الإنسان بعده العالمي الساعي من أجل تقارب الحضارات وربط الثقافات وتعزيز الهوية العالمية، وربما أيضاً خلق عالم بلا حدود ثقافية، وهو مجرد وجه واحد من الوجوه العديدة للعولمة الثقافية. ذلك أنه بقدر ما أن التوجه العام هو نحو تقارب الثقافات والحضارات، فإن العولمة الثقافية يمكن لها أن تتجه نحو صراع الحضارات، ونحو الهيمنة الثقافية لثقافة واحدة على سائر الثقافات، ونحو نشر الثقافة الاستهلاكية وجعلها الثقافة الأكثر رواجاً على الصعيد العالمي. فالعولمة الثقافية التي تمهد الطريق حالياً لترابط المناطق الثقافية بإمكانها أيضاً أن ترسخ انقسام العالم إلى مناطق حضارية مغلقة، وتزداد انغلاقاً، وتسعى لمواجهة بعضها بعضاً. فالثقافة لا غنى لها ولا مبرر لوجودها بدون الإنسان كياناً وفكراً وممارسة (٢٩).

مخاوف:

ومن هنا يعتبر أخطر النتائج المترتبة على العولمة- باعتراف معظم الباحثين- تلك المتصلة بمخاطر الاقتلاع الثقافي والخوف من فقدان الهوية لدى العديد من الشعوب والأمم والفئات الاجتماعية التى تزداد هامشيتها وضياعها وتخضع لمخاطر الحروب الأهلية الكامنة والمتفجرة في أي مكان من العالم. صحيح أن ما يحدث اليوم يشكل تغيراً هائلاً تدخل معه البشرية في عصر المجال السمعي البصري، والتواصل الفوري المباشر، أي أن النمط التلفزيوني هو المسيطر، كما لو أننا إزاء عالم افتراضي أثيري يتألف من الصور والإشارات والنصوص المرئية والمقروءة على الشاشات الإلكترونية الدائمة البث، بما بات يشكل تهديداً لمنظومات القيم والرموز وتغييراً في المرجعيات الوجودية وأنماط الحياة، حيث وجدت الثقافات الخاصة والأمم والشعوب الأخرى نفسها عارية أمام تدفق الرسائل والعلامات التي تجوب العالم على مدار الساعة حاملة معها أبطالاً ورموزاً جديدة، أخذت تملأ مخيلة المشاهد بدءاً بعارضات الأزياء ونجوم الكرة، وصولاً إلى رموز الفن والسينما والأعمال والألبسة والأطعمة وأنماط السلوك والمفردات اللغوية المتكررة

وصحيح أيضاً أن ما يحدث لا يمكن تجاهله ولا يجدي معه الموقف الانفعالي ومحاولات القفز فوقه، لكن من غير الصحيح اعتبار أن ما يجري يعني تجاوز تعدد العوالم نحو عالم واحد ذي نمط موحد، كما يعتقد القائلون بأنصار نموذج كوني وحيد، فالزمن الإلكتروني الذي يوحد الناس مكانياً في عصر العولمة، يتواجد جنباً إلى جنب مع الأزمنة التراثية والخبرات الحياتية التي لا تنتج سوى التباين والتفاوت، مما يعني وجود ثقافات تتفاعل وتتنافس وتتغير بفعل الاحتكاك والتبادل مع الثقافات الأخرى أو بفعل التطور الذاتي الناجم عن الديناميات الداخلية لكل ثقافة على حدة (٣٠).

ومع أن قدرات العولمة الثقافية المدعومة

بوسائل الاتصال الحديثة قد تمكنت من اختراق الحدود الثقافية انطلاقاً من مراكز صناعة وترويج الثقافة السائدة ذات الطابع الغربي المؤمرك، وألغت إمكانيات التثاقف كخيار يعني الانصياع الطوعي على المنظومات الثقافية عبر آليات التأثر والتأثير المتبادل، لصالح اكتساح واستباحة الفضاء الثقافي الذي يعزز قيم الغالب الثقافية ومثله ونظرياته على حب قيم المغلوب ورؤيته للعالم، والمهدد دوماً بالانزواء والاحتماء بحدود التراث أو التاريخ القومي، أو الذوبان في خضم الثقافة السائدة والضياع في تيارها الجارف.

أما الخيارات الواقعة خارج حدود الانعزال أو الذوبان فقد أصبحت أكثر صعوبة في ظل التهديد الذي تفرضه العولمة الثقافية المجحفة المزودة بتكنولوجيا الإخضاع الجديدة ممثلة بالتحالف بين الثقافة والتقنية، لفرض الغالب الحضاري وتسويغه، وكسر الممانعة الثقافية للشعوب الأخرى، واختزال غنى ثقافتها وعمقها الحضاري، إلى بعد فولكلوري يشهد على غربتها وأسطوريتها وانتسابها إلى متحف التاريخ (٣١).

ومن هنا فالعولمة بمفهوم الطرح الغربي والأميركي بالخصوص، هي محاولة فرض نموذج معين للثقافة، ويمكن القول بأن العولمة الثقافية نتيجة حتمية وملازمة للعولمة الاقتصادية، لكن الثقافة المقصود بها في شعار العولمة هي «الاستهلاكية» الموجهة بمختلف أشكالها. غير أن الهيمنة الغربية التكنلووجية الآن تحاول أن تختصر القرون والقارات والحضارات، وتحولها إلى جسد حضارى واحد، وذلك بفضل الصورة أو تكنولوجيا الإعلام التى تحدث تغييراً فى التكوين الأخلاقي والثقافي، وتختصر الزمان والمكان، وبرزت إشكالية المجرى الأحادي الأميركي الذى غزا العالم بما فيه أوروبا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وسقوط المعسكر الاشتراكي وزوال القطبية الثنائية.

انتقال مفهوم العولمة من الفضاء الاقتصادي والسياسي إلى الفضاء الثقافي والإعلامي والأدبي، أو ما يعرف بـ«عالمية الأدب» وما يعرف بالثقافة الشاملة أو القرية الصغيرة، أو المجتمع الكوني- الكوزموبوليتي- كان وراء انتشار الثقافات والتداخل الحضاري بين الشعوب، والتصور العالمي للثقافة طرح جملة من القضايا والإشكالات في الثقافة والأدب، كإشكالية الهويات والخصوصيات الثقافية والحضارية، مما سيودي إلى صراع حاد بين مختلف الثقافات الإنسانية.

والطرح الذي تسعى إليه كل ثقافة صاعدة نازعة نحو العولمة، هو أن لا تظهر إلا كثقافة إنسانية وكدِين للإنسانية يتجاوز المجتمعات التي أنجبته والحقب التي ظهر بها، وهذا من خصائص العولمة ذاتها، إذ هي تطمح بالتعريف إلى أن تكون عالمية وشاملة ومتى نجحت الثقافة في إظهار نفسها كثقافة إنسانية ألغت كل ما عداها من الثقافات، والصراع على الظهور بهذا المظهر الكوني هو الرهان الأساسي لعولمة الثقافة، لأنه يؤكد صلاحيتها في نظر الجماعة التي تحملها والجماعات الأخرى (٣٢).

رهانات خاسرة:

كان «فيكتور هيغو» يقول: «سيأتي ذلك اليوم الذي يكون فيه ميدان التنافس الوحيد هو السوق الحرة المفتوحة أمام التجارة والعقل المتفتح للأفكار الجديدة. سيأتي ذلك اليوم الذي يتبدل فيه الرصاص والقنابل بالتصويت العام وبالتحكيم

بوسائل الاتصال الحديثة قد تمكنت من اختراق الحدود الثقافية انطلاقاً من مراكز صناعة وترويج الثقافة السائدة ذات الطابع الغربي المؤمرك، وألغت إمكانيات التثاقف كخيار يعني الانصياع الطوعي على المنظومات الثقافية عبر آليات التأثر والتأثير المتبادل، لصالح اكتساح واستباحة الفضاء الثقافي الذي يعزز قيم الغالب الثقافية ومثله ونظرياته على حب قيم المغلوب ورؤيته للعالم، والمهدد دوماً بالانزواء والاحتماء بحدود التراث أو التاريخ القومي، أو الذوبان في خضم الثقافة السائدة والضياع في تيارها الجارف.

أما الخيارات الواقعة خارج حدود الانعزال أو الذوبان فقد أصبحت أكثر صعوبة في ظل التهديد الذي تفرضه العولمة الثقافية المجحفة المزودة بتكنولوجيا الإخضاع الجديدة ممثلة بالتحالف بين الثقافة والتقنية، لفرض الغالب الحضاري وتسويغه، وكسر الممانعة الثقافية للشعوب الأخرى، واختزال غنى ثقافتها وعمقها الحضاري، إلى بعد فولكلوري يشهد على غربتها وأسطوريتها وانتسابها إلى متحف التاريخ (٣١).

ومن هنا فالعولمة بمفهوم الطرح الغربي والأميركي بالخصوص، هي محاولة فرض نموذج معين للثقافة، ويمكن القول بأن العولمة الثقافية نتيجة حتمية وملازمة للعولمة الاقتصادية، لكن الثقافة المقصود بها في شعار العولمة هي «الاستهلاكية» الموجهة بمختلف أشكالها. غير أن الهيمنة الغربية التكنولوجية الآن تحاول أن تختصر القرون والقارات والحضارات، وتحولها إلى جسد حضارى واحد، وذلك بفضل الصورة أو تكنولوجيا الإعلام التى تحدث تغييراً فى التكوين الأخلاقي والثقافي، وتختصر الزمان والمكان، وبرزت إشكالية المجرى الأحادي الأميركي الذى غزا العالم بما فيه أوروبا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وسقوط المعسكر الاشتراكي وزوال القطبية الثنائية.

انتقال مفهوم العولمة من الفضاء الاقتصادي والسياسي إلى الفضاء الثقافي والإعلامي والأدبي، أو ما يعرف بـ«عالمية الأدب» وما يعرف بالثقافة الشاملة أو القرية الصغيرة، أو المجتمع الكوني- الكوزموبوليتي- كان وراء انتشار الثقافات والتداخل الحضاري بين الشعوب، والتصور العالمي للثقافة طرح جملة من القضايا والإشكالات في الثقافة والأدب، كإشكالية الهويات والخصوصيات الثقافية والحضارية، مما سيودي إلى صراع حاد بين مختلف الثقافات الإنسانية.

والطرح الذي تسعى إليه كل ثقافة صاعدة نازعة نحو العولمة، هو أن لا تظهر إلا كثقافة إنسانية وكدِين للإنسانية يتجاوز المجتمعات التي أنجبته والحقب التي ظهر بها، وهذا من خصائص العولمة ذاتها، إذ هي تطمح بالتعريف إلى أن تكون عالمية وشاملة ومتى نجحت الثقافة في إظهار نفسها كثقافة إنسانية ألغت كل ما عداها من الثقافات، والصراع على الظهور بهذا المظهر الكوني هو الرهان الأساسي لعولمة الثقافة، لأنه يؤكد صلاحيتها في نظر الجماعة التي تحملها والجماعات الأخرى (٣٢).

رهانات خاسرة:

كان «فيكتور هيغو» يقول: «سيأتي ذلك اليوم الذي يكون فيه ميدان التنافس الوحيد هو السوق الحرة المفتوحة أمام التجارة والعقل المتفتح للأفكار الجديدة. سيأتي ذلك اليوم الذي يتبدل فيه الرصاص والقنابل بالتصويت العام وبالتحكيم

اللامقيد للمجلس العظيم ذي السيادة الذي سيكون لأوروبا كالبرلمان بالنسبة لإنجلترا، والدييت بالنسبة لألمانيا، والجمعية الوطنية بالنسبة لفرنسا. وسيأتي اليوم الذي يعرض فيه المدفع في المتاحف العامة تماماً كما تعرض اليوم وسائل التعذيب البالية، وسيذهل الناس كيف كانت مثل هذه الأداة الهدامة تستخدم».

سيكون علينا الآن، وبعد زمن مديد على صدور هذا التنبؤ الشاعري، أن نسجل للروائي الكبير أحلامه الخالدة، إلا أننا ونحن قد عبرنا من بوابة الألف الثالث الميلادي لا نزال نرى إلى هذه الأحلام بشغف يشبه المستحيل. «فالمجلس العظيم ذو السيادة» على نفسه وعلى العالم لم ير بعد، ذلك اليوم الذي تكون فيه سعادة البشرية تحت ظله، بل ثمة ما يشبه الإجماع اليوم على أن الأمم المتحدة ومجلس الأمن والمؤسسات التابعة لهما على كل صعيد لمنطق التحولات الدولية موازين القوى والمحكومة بمجملها، بمنطق القسر والقهر والعنف.

وغالب الاعتقاد أن لا شيء على ما يبدو سيعصم الأمم المتحدة ومجلسها ومواثيقها وقواعد عملها من التحويل والتأويل خلافاً لمقاصدها الأولى. وبعد الحرب الباردة وبالذات بدا كما لو أن مشهد التحولات يتجه نحو المزيد من الرمادية الموحشة. فالولايات المتحدة الأميركية باتت صاحبة الحل والربط في العالم بلا منازع. وإن كان هنالك من منافسين في أوروبا وآسيا في الميادين الاقتصادية والمالية أو حالات ممانعة في أفريقيا والشرق الأوسط وبعض مواقع حركات التحرر القومي، فإن هذه المنافسة وتلك الممانعة لا تزال غير فعالة في وقف التدهور الحاصل في المشهد العالمي أو في تحويل مساراته على أحسن تقدير.

إن الأمم المتحدة- وكما يؤكد على ذلك الباحث محمود حيدر (٣٣)- في ظل هذا التشكيل المعقد والانتقالي للنظام الدولي، صارت أكثر قابلية للتأثر بلعبة القوة الأميركية، وفي هذا المعنى لم يعد الكلام على مواثيقها مواد عملها القانونية يحمل صفة الفاعلية المجردة، وإنما أصبحت هي نفسها خاضعة لحركة اتجاه القوة والاستقطاب السياسي والأمني الذي تفرضه.

قد تكون العلاقة المميزة لمرحلة دولية هي الطريقة التي تمارس فيها الأمم المتحدة ومجلس الأمن «حماية السلم والأمن الدوليين» الأمر الذي يفتح السبيل على مناقشة ميدانية لهذا الموضوع العالي الدقة والخطورة. أستاذ الفلسفة والمفكر النمساوي والخبير في القانون الدولي وحقوق الإنسان «هانس كشلر» يتناول الموضوع في عقدته الراهنة في إطار دراسة بعنوان «سياسة الأمم المتحدة في فرض العقوبات الدولية» (٣٤). يرى أن العقدة التي تشكل إحدى أبرز الموضوعات الإشكالية في القانون الدولي فهي مسألة العقوبات. في هذا الصدد يلاحظ كشلر أنه «منذ انتهاء الحرب الباردة تمارس تلك السياسة أيضاً. في ما يتعلق بتدابير الأمن الجماعي بحسب الفصل السابع لميثاق الأمم المتحدة، وهو ما أدى إلى نتائج وهمية في ما يتعلق بمسألة الشرعية الدولية والمصداقية الأخلاقية لمنظمة الأمم المتحدة.

ومن المعروف أن الفصل السابع من الميثاق ولا سيما في مادتيه (٣٩ و٥١) ينصان على الأحوال التي يجري فيها تطبيق العقوبات

اللامقيد للمجلس العظيم ذي السيادة الذي سيكون لأوروبا كالبرلمان بالنسبة لإنجلترا، والدييت بالنسبة لألمانيا، والجمعية الوطنية بالنسبة لفرنسا. وسيأتي اليوم الذي يعرض فيه المدفع في المتاحف العامة تماماً كما تعرض اليوم وسائل التعذيب البالية، وسيذهل الناس كيف كانت مثل هذه الأداة الهدامة تستخدم».

سيكون علينا الآن، وبعد زمن مديد على صدور هذا التنبؤ الشاعري، أن نسجل للروائي الكبير أحلامه الخالدة، إلا أننا ونحن قد عبرنا من بوابة الألف الثالث الميلادي لا نزال نرى إلى هذه الأحلام بشغف يشبه المستحيل. «فالمجلس العظيم ذو السيادة» على نفسه وعلى العالم لم ير بعد، ذلك اليوم الذي تكون فيه سعادة البشرية تحت ظله، بل ثمة ما يشبه الإجماع اليوم على أن الأمم المتحدة ومجلس الأمن والمؤسسات التابعة لهما على كل صعيد لمنطق التحولات الدولية موازين القوى والمحكومة بمجملها، بمنطق القسر والقهر والعنف.

وغالب الاعتقاد أن لا شيء على ما يبدو سيعصم الأمم المتحدة ومجلسها ومواثيقها وقواعد عملها من التحويل والتأويل خلافاً لمقاصدها الأولى. وبعد الحرب الباردة وبالذات بدا كما لو أن مشهد التحولات يتجه نحو المزيد من الرمادية الموحشة. فالولايات المتحدة الأميركية باتت صاحبة الحل والربط في العالم بلا منازع. وإن كان هنالك من منافسين في أوروبا وآسيا في الميادين الاقتصادية والمالية أو حالات ممانعة في أفريقيا والشرق الأوسط وبعض مواقع حركات التحرر القومي، فإن هذه المنافسة وتلك الممانعة لا تزال غير فعالة في وقف التدهور الحاصل في المشهد العالمي أو في تحويل مساراته على أحسن تقدير.

إن الأمم المتحدة- وكما يؤكد على ذلك الباحث محمود حيدر [٣٣]- في ظل هذا التشكيل المعقد والانتقالي للنظام الدولي، صارت أكثر قابلية للتأثر بلعبة القوة الأميركية، وفي هذا المعنى لم يعد الكلام على مواثيقها مواد عملها القانونية يحمل صفة الفاعلية المجردة، وإنما أصبحت هي نفسها خاضعة لحركة اتجاه القوة والاستقطاب السياسي والأمني الذي تفرضه.

قد تكون العلاقة المميزة لمرحلة دولية هي الطريقة التي تمارس فيها الأمم المتحدة ومجلس الأمن «حماية السلم والأمن الدوليين» الأمر الذي يفتح السبيل على مناقشة ميدانية لهذا الموضوع العالي الدقة والخطورة. أستاذ الفلسفة والمفكر النمساوي والخبير في القانون الدولي وحقوق الإنسان «هانس كشلر» يتناول الموضوع في عقدته الراهنة في إطار دراسة بعنوان «سياسة الأمم المتحدة في فرض العقوبات الدولية» [٣٤]. يرى أن العقدة التي تشكل إحدى أبرز الموضوعات الإشكالية في القانون الدولي فهي مسألة العقوبات. في هذا الصدد يلاحظ كشلر أنه «منذ انتهاء الحرب الباردة تمارس تلك السياسة أيضاً. في ما يتعلق بتدابير الأمن الجماعي بحسب الفصل السابع لميثاق الأمم المتحدة، وهو ما أدى إلى نتائج وهمية في ما يتعلق بمسألة الشرعية الدولية والمصداقية الأخلاقية لمنظمة الأمم المتحدة.

ومن المعروف أن الفصل السابع من الميثاق ولا سيما في مادتيه (٣٩ و٥١) ينصان على الأحوال التي يجري فيها تطبيق العقوبات

القسرية. غير أن خضوع المنظمة الدولية يجعل من آليات التطبيق واحدة من أبرز العوامل التي تؤكد الهيمنة الأميركية وتخل بميثاق الأمم المتحدة.

ومن هنا نجد الباحث محمود حيدر [٣٥] يؤكد على أن (الأطروحة التي يجعلها هانس كشلر محوراً لدراسته حول سياسة الأمم المتحدة في فرض العقوبات والقانون الدولي تكاد تختصره الفقرة الأخيرة من الدراسة والتي تؤكد حقيقة أن «فيلسوف القانون- وإن بقي وحده في الميدان- يجب أن يمتنع عن الانضمام إلى مؤامرة الصمت التي حبكها بشكل واضح المستفيدون من النظام العالمي الجديد»).

وعامة فالمنظمات الدولية، بصورتها الحالية، تعجز عن أن تلعب دور «الحكم» بينما تصر الولايات المتحدة على أن تظل الأمم المتحدة «تابعة»، وتبذل جهودها لتكريس قوتها كدولة عظمى وحيدة في عالم اليوم وتسلك جميع السبل لتجميد كل قوة مناوئة، وتحجيم أي مساحة سياسية مستقلة حتى لا تفلتِ من رقابتها (يقال أن الأمم المتحدة ليست إلا حجيرة تعلن فيها القرارات التي تم اتخاذها سلفاً في أميركا). وربما لهذا السبب تفضل الولايات المتحدة كثيراً منظمةحلف الناتو عن منظمة الأمم المتحدة، وشروط المساعدات الثنائية عن شروط المساعدات متعددة الأطراف، بمعنى أنها تفضل المواقع والظروف التي تضمن لها السيادة والسطوة بامتياز، وبحسب النموذج الأوروبي لا ينبغي على الدول (والقوى) الأخرى الرضوخ للإدارة الأميركية، وإنما عليها أن تتجاوز سياسات التضييق والتجميد التي ترغبها وتفرضها القوة الأولى في العالم لكي تحفظ تفوقها.

ومن البدائل المطروحة- التي يوردها كتاب «العولمة المتوحشة» لمؤلفه السويسري «بليز ليمبون» [٣٦] أن تدعو أوروبا إلى «عولمة متحضرة» تنادي في مقابل استقرار أسواق المال، واتساع دوائر اللامساواة، والتهميش، وضعف الآليات السياسية، بتأسيس سياسات متفاوتة، قادرة على أن تحفظ الأرض خصوصيتها ككوكب مأهول بالسكان، وعامرة بالأنشطة الإنسانية.

وضمن هذه الرؤية على المنظمات الدولية أن تخرج من أخدود البيروقراطية (التي دفنت فيها) وبحار التهميش (التي غرقت فيها) لتتحول إلى مكان للرقابة الديمقراطية، والنقاش السياسي الحقيقي، وألا تكون مقطوعة عن الجماهير ومفتوحة في الوقت نفسه على الجميع دون أدنى تمييز بهذا وحده. وبحسب الرؤية الأوروبية، تصبح المنظمة الدولية وسيلة فاعلة «لدمقرطة العولمة»، وأخيراً، ولأن أوروبا- القارة العجوز- وليس «أميركا» هي أرض القيم الإنسانية الضاربة بجذورها في عمق التاريخ، والهويات الثقافية العريقة، فعليها أن تسعى إلى ترويج (أو عولمة) قيمها في أنحاء العالم باستثمار أجواء العولمة الأميركية الراهنة، وليس بمكافحتها عن طريق «دون كيشوت» مع طواحينه الهوائية، والإيمان بأن العولمة ليست أداة شيطانية في يد أميركا، وإنما هي واقع اقتصادي وتكنولوجي، ومن ثم على أوروبا أن تستغل هذه العولمة لكي تصبح سلاحاً في يدها.

ولم تكن دول عدم انحياز أقل تخوفا من مفاعيل العولمة وآثارها، فقد ورد في البيان الختامي لمنظمة دول عدم الانحياز «أن العولمة تشكل تهديداً خطيراً للحريات التي اكتسبت حديثاً ما لم تتم حماية مصالح دول الجنوب بصورة

القسرية. غير أن خضوع المنظمة الدولية يجعل من آليات التطبيق واحدة من أبرز العوامل التي تؤكد الهيمنة الأميركية وتخل بميثاق الأمم المتحدة.

ومن هنا نجد الباحث محمود حيدر [٣٥] يؤكد على أن (الأطروحة التي يجعلها هانس كشلر محوراً لدراسته حول سياسة الأمم المتحدة في فرض العقوبات والقانون الدولي تكاد تختصره الفقرة الأخيرة من الدراسة والتي تؤكد حقيقة أن «فيلسوف القانون- وإن بقي وحده في الميدان- يجب أن يمتنع عن الانضمام إلى مؤامرة الصمت التي حبكها بشكل واضح المستفيدون من النظام العالمي الجديد»).

وعامة فالمنظمات الدولية، بصورتها الحالية، تعجز عن أن تلعب دور «الحكم» بينما تصر الولايات المتحدة على أن تظل الأمم المتحدة «تابعة» وتبذل جهودها لتكريس قوتها كدولة عظمى وحيدة في عالم اليوم وتسلك جميع السبل لتجميد كل قوة مناوئة، وتحجيم أي مساحة سياسية مستقلة حتى لا تفلتِ من رقابتها (يقال أن الأمم المتحدة ليست إلا حجيرة تعلن فيها القرارات التي تم اتخاذها سلفاً في أميركا). وربما لهذا السبب تفضل الولايات المتحدة كثيراً منظمةحلف الناتو عن منظمة الأمم المتحدة، وشروط المساعدات الثنائية عن شروط المساعدات متعددة الأطراف، بمعنى أنها تفضل المواقع والظروف التي تضمن لها السيادة والسطوة بامتياز، وبحسب النموذج الأوروبي لا ينبغي على الدول (والقوى) الأخرى الرضوخ للإدارة الأميركية، وإنما عليها أن تتجاوز سياسات التضييق والتجميد التي ترغبها وتفرضها القوة الأولى في العالم لكي تحفظ تفوقها.

ومن البدائل المطروحة- التي يوردها كتاب «العولمة المتوحشة» لمؤلفه السويسري «بليز ليمبون» [٣٦] أن تدعو أوروبا إلى «عولمة متحضرة» تنادي في مقابل استقرار أسواق المال، واتساع دوائر اللامساواة، والتهميش، وضعف الآليات السياسية، بتأسيس سياسات متفاوتة، قادرة على أن تحفظ الأرض خصوصيتها ككوكب مأهول بالسكان، وعامرة بالأنشطة الإنسانية.

وضمن هذه الرؤية على المنظمات الدولية أن تخرج من أخدود البيروقراطية (التي دفنت فيها) وبحار التهميش (التي غرقت فيها) لتتحول إلى مكان للرقابة الديمقراطية، والنقاش السياسي الحقيقي، وألا تكون مقطوعة عن الجماهير ومفتوحة في الوقت نفسه على الجميع دون أدنى تمييز بهذا وحده. وبحسب الرؤية الأوروبية، تصبح المنظمة الدولية وسيلة فاعلة «لدمقرطة العولمة»، وأخيراً، ولأن أوروبا- القارة العجوز- وليس «أميركا» هي أرض القيم الإنسانية الضاربة بجذورها في عمق التاريخ، والهويات الثقافية العريقة، فعليها أن تسعى إلى ترويج (أو عولمة) قيمها في أنحاء العالم باستثمار أجواء العولمة الأميركية الراهنة، وليس بمكافحتها عن طريق «دون كيشوت» مع طواحينه الهوائية، والإيمان بأن العولمة ليست أداة شيطانية في يد أميركا، وإنما هي واقع اقتصادي وتكنولوجي، ومن ثم على أوروبا أن تستغل هذه العولمة لكي تصبح سلاحاً في يدها.

ولم تكن دول عدم انحياز أقل تخوفا من مفاعيل العولمة وآثارها، فقد ورد في البيان الختامي لمنظمة دول عدم الانحياز «أن العولمة تشكل تهديداً خطيراً للحريات التي اكتسبت حديثاً ما لم تتم حماية مصالح دول الجنوب بصورة

فعالة.. إن العولمة يجب ألا تجتاح الجميع أمامها، ويجب ألا تتسم بالشمولية، بل ينبغي أن تتم بشكل تدريجي، وبأسلوب يمكن معه للغالبية التي تمثل البشرية رأي فيه ألا يقتصر الأمر على قبول الغالبية لما تراه الدول القوية فقط» [٣٧].

وبسبب اتساع وشمولية تيار العولمة الحالي، وبسبب تعدد المتضررين أفراداً وشعوباً وانتمائهم إلى مختلف الأمم والأصقاع، كان لا بد للمواجهة أن تكون في مستوى الحدث واتساعه، فكانت حماية البيئة وسلامة الكوكب، وحركات حقوق المرأة والطفل، ومنظمات حقوق الإنسان والسلام الدولي، ومكافحة الفقر واحترام التنوع الثقافي، التي يزداد انتشارها ويتم الاعتراف بها على مستوى العالم أجمع.

يكون هذا الاتجاه نواة للمجتمع المدني العالمي، الذي يستطيع بعد تخلصه على مستوى العالم أجمع، أن يشكل فضاءاً ديمقراطياً لفعالية البشر ويوجه نضالاتهم ويؤطر قدراتهم المرشحة للنمو الهندسي المتعدد المراكز، والذي يعد بولادة عولمة ذات ميول تحررية تتمكن الشراكة الإنسانية من خلالها، من الحفاظ على تنوعها الثقافي الذي شكل عامل إغناء للحضارة الإنسانية وأحد أسباب تطورها. من هنا كان تفريق محمد عابد الجابري بين العولمة والعالمية معبراً، فالعولمة عنده «إرادة الهيمنة»، وبالتالي قمع وإقصاء الخصوصية، أما العالمية Univer-salism فهي طموح إلى الارتفاع بالخصوصية إلى مستوى عالمي: العولمة احتواء للعالم، والعالمية تفتح على ما هو عالمي كوني [٣٨].

الخروج من النفق:

إن أرضية بناء الحضارة الوارثة والعنصر الفاعل فيها هو الإنسان، هو مقصدها في الآن ذاته، لذا كانت أولوية عملية التنوير وتحريك الفاعلية الثقافية داخل مجتمعاتنا ركيزة أساسية لفضح سرابية المنتوج الحضاري الغربي، وعلى أن هذا الأخير يستبطن قيماً وحشية موروثة عن الحضارات البائدة اليونانية، والرومانية، والكسروية.. ومن هنا فلسنا ملزمين بوضع الغرب مقياساً ومؤشراً لحركة التقدم كما هو حاصل الآن، بل إن خيارنا ينبغي أن يتركز في «صناعة العالم المبتكر» أي بناء نموذجنا العالمي الخاص بنا، والذي لا بد أن ينطلق من نظم معلومات فاعلة وحيوية. نظم تستطيع السيطرة على أداء المجتمع المعاصر بتعقيداته وظواهره المختلفة، مستندة إلى نظام متكامل من القيم التي يعيش المجتمع في وارف ظلها، أي إعادة النظر في طبيعة علاقتنا مع العلم، وتجديد نظرتنا إلى منظومة القيم الحاكمة. إن هذا التلازم بين العلم والقيم هو الذي سيعيد الهيبة لحركة العلم والتطور المعرفي، بما يسمح بتفجير الطاقات العلمية الخلاقة.

لقد عانينا طويلاً على مر تاريخنا الحديث من تأثيرات الغرب السياسية والثقافية والاقتصادية، وقد أصبنا بدوار حاد وموجع من سلسلة التناقضات التي عايشناها ردحاً من الزمن، فلا يزال الغرب يكثف حملاته من أجل إعادة تشكيلنا بما يسمح ونزعته التسلطية والعدوانية. ونحن بدورنا لم نتمكن حتى الآن سوى بالتفكير في حدود خيارات الانغلاق أو الذوبان في الآخر.

الغرب اليوم- وكما يقول الباحث أحمد شهاب[٣٩]- يحتاج إلى تغيير نظرته إلى ذاته وإلى الآخرين، حتى يتمكن من كسر حاجز

فعالة.. إن العولمة يجب ألا تجتاح الجميع أمامها، ويجب ألا تتسم بالشمولية، بل ينبغي أن تتم بشكل تدريجي، وبأسلوب يمكن معه للغالبية التي تمثل البشرية رأي فيه ألا يقتصر الأمر على قبول الغالبية لما تراه الدول القوية فقط» (٣٧).

وبسبب اتساع وشمولية تيار العولمة الحالي، وبسبب تعدد المتضررين أفراداً وشعوباً وانتمائهم إلى مختلف الأمم والأصقاع، كان لا بد للمواجهة أن تكون في مستوى الحدث واتساعه، فكانت حماية البيئة وسلامة الكوكب، وحركات حقوق المرأة والطفل، ومنظمات حقوق الإنسان والسلام الدولي، ومكافحة الفقر واحترام التنوع الثقافي، التي يزداد انتشارها ويتم الاعتراف بها على مستوى العالم أجمع.

يكون هذا الاتجاه نواة للمجتمع المدني العالمي، الذي يستطيع بعد تخلصه على مستوى العالم أجمع، أن يشكل فضاءاً ديمقراطياً لفعالية البشر ويوجه نضالاتهم ويؤطر قدراتهم المرشحة للنمو الهندسي المتعدد المراكز، والذي يعد بولادة عولمة ذات ميول تحررية تتمكن الشراكة الإنسانية من خلالها، من الحفاظ على تنوعها الثقافي الذي شكل عامل إغناء للحضارة الإنسانية وأحد أسباب تطورها. من هنا كان تفريق محمد عابد الجابري بين العولمة والعالمية معبراً، فالعولمة عنده «إرادة الهيمنة»، وبالتالي قمع وإقصاء الخصوصية، أما العالمية Univer-salism فهي طموح إلى الارتفاع بالخصوصية إلى مستوى عالمي: العولمة احتواء للعالم، والعالمية تفتح على ما هو عالمي كوني (٣٨).

الخروج من النفق:

إن أرضية بناء الحضارة الوارثة والعنصر الفاعل فيها هو الإنسان، هو مقصدها في الآن ذاته، لذا كانت أولوية عملية التنوير وتحريك الفاعلية الثقافية داخل مجتمعاتنا ركيزة أساسية لفضح سرابية المنتوج الحضاري الغربي، وعلى أن هذا الأخير يستبطن قيماً وحشية موروثة عن الحضارات البائدة اليونانية، والرومانية، والكسروية.. ومن هنا فلسنا ملزمين بوضع الغرب مقياساً ومؤشراً لحركة التقدم كما هو حاصل الآن، بل إن خيارنا ينبغي أن يتركز في «صناعة العالم المبتكر» أي بناء نموذجنا العالمي الخاص بنا، والذي لا بد أن ينطلق من نظم معلومات فاعلة وحيوية. نظم تستطيع السيطرة على أداء المجتمع المعاصر بتعقيداته وظواهره المختلفة، مستندة إلى نظام متكامل من القيم التي يعيش المجتمع في وارف ظلها، أي إعادة النظر في طبيعة علاقتنا مع العلم، وتجديد نظرتنا إلى منظومة القيم الحاكمة. إن هذا التلازم بين العلم والقيم هو الذي سيعيد الهيبة لحركة العلم والتطور المعرفي، بما يسمح بتفجير الطاقات العلمية الخلاقة.

لقد عانينا طويلاً على مر تاريخنا الحديث من تأثيرات الغرب السياسية والثقافية والاقتصادية، وقد أصبنا بدوار حاد وموجع من سلسلة التناقضات التي عايشناها ردحاً من الزمن، فلا يزال الغرب يكثف حملاته من أجل إعادة تشكيلنا بما يسمح ونزعته التسلطية والعدوانية. ونحن بدورنا لم نتمكن حتى الآن سوى بالتفكير في حدود خيارات الانغلاق أو الذوبان في الآخر.

الغرب اليوم- وكما يقول الباحث أحمد شهاب(٣٩)- يحتاج إلى تغيير نظرته إلى ذاته وإلى الآخرين، حتى يتمكن من كسر حاجز

العداء بينه وبين بقية الأمم والحضارات. إن تلك الرؤية لن تتغير إلا بإعادة النظر في الخلفية الثقافية، والرؤية الفلسفية التي تشكل المعرفةالغربية. ألم يحن الوقت للتعمق بدرس الغرب، من أجل فهمه وكشف أساليبه، والمساهمة في تطوير رؤيته لذاته؟

فإن كانت العولمة تعني التفاعل والتشابك والتداخل بين أصناف الخلق، والتأثير المتبادل بين العوالم، فلماذا لا نتحلى بإيجابيات الحركة الحضارية بدافع العالمية، واستناداً إلى النظرة التوحيدية لعالم يخضع لرب واحد، وتحكمه قيم تتصف بالإنسانية والعالمية؟!

يبدو واضحاً أن ما نسعى لبلوغه هنا هو التأكيد على ضرورة الخيارات، وعدم قسرها على نموذج أحادي الوجهة. وتنويع الخيارات تتيح فرصاً واسعة للمساهمة في خلق عالم أكثر إنسانية وأقرب إلى مفهوم العدالة. عالم تسوده أنساق فكرية مفتوحة ومتعددة، فمن خلال هذا التعدد يمكن أن نعيد للثقافات الأخرى مكانتها الطبيعية، ونتغلب على الخلل الصارخ في الحضارات.

أما بخصوص صراع الحضارات وصدام الثقافات، ذلك الذي صادفناه في مؤلفات الغرب الحديث، فهذا وجه من وجوه ثراء المعرفة الإنسانية وتراكمها، وهو دليل صحة حضارية وثقافيةمعاً، فلا يمكن إلغاء التضاد- بل التصارع- من طبيعة الوجود المتنوع للمجتمعات البشرية وثقافاتها بما «الكل» وحدة مغتنية وتزداد غنى بهذا التنوع المتفاعل المتطور، إذ لو أمكن أن يتم الإلغاء لصار الوجود مسطحاً.. أي أنه يتم إهدار (الشخصية) الإنسانية المرتكزة على الغنى التركيبي الاجتماعي للمحصلات الثقافية التاريخية التي تنتمي إليها- كما يقول باحث معاصر [٤٠]- لكن بالمقابل، يمكن للفعل البشري الواعي أن يلجم الشطط في ذلك التصارع فيرتقي به إلى مستوى من الحوار الحر المتوازن المتكافىء الذي يصون نجوع البقاء الحضاري العام ويحفظه من الخلل والانهيار.

وهناك من يرى أن الحضارات لا تلتقي ولا تتعايش وإنما تتصارع وتتصادم، ومنها ما ينهار بسبب الغزوات الخارجية مثل حضارات «قرطاج» و«الأنكا و«الأزتك»، ومنها ما يتحلل بفعل الهرم أو الشيخوخة مثل الحضارة الفرعونية، ومنها ما يتحول إلى ثقافة عبر حضارة أخرى، مثل وضع الحضارة اليونانية التي ذابت في قلب الحضارة الرومانية، والتي لعبت دور «الآخر» المحفز للعقل مقابل تراث النقل داخل الحضارة الإسلامية، وهذا هو عين ما تقوم به الحضارة الغربية عبر عمليات تحديث العالم عن طريق التكنولوجيا المتقدمة، وتقليص المسافات والأزمنة من خلال الطفرات المتلاحقة في مجال آليات الاتصال عن بعد.

أما الثقافات فلكونها تشكل الرؤى الذاتية للشعوب، ونظرتها الخاصة للحياة والوجود التي توارثتها عبر تاريخها الطويل والتي اعتبرتها من ثم دعامة هويتها وركيزة أصالتها، فهي في الأساس قضية وعي لا وجود لها خارج هذا الوعي إلا أن هذا الوعي قد يكون سلبياً فيخضع لقانون المثاقفة acculturation الذي تفرضه هيمنة الحضارة السائدة [٤١].

وحينما نتحدث عن الحضارة السائدة لا نعني هيمنة دولة بعينها- على الرغم من أن هذا واقع لا يغير قبوله أو رفضه شيئاً- أو مجموعة دول

العداء بينه وبين بقية الأمم والحضارات. إن تلك الرؤية لن تتغير إلا بإعادة النظر في الخلفية الثقافية، والرؤية الفلسفية التي تشكل المعرفةالغربية. ألم يحن الوقت للتعمق بدرس الغرب، من أجل فهمه وكشف أساليبه، والمساهمة في تطوير رؤيته لذاته؟

فإن كانت العولمة تعني التفاعل والتشابك والتداخل بين أصناف الخلق، والتأثير المتبادل بين العوالم، فلماذا لا نتحلى بإيجابيات الحركة الحضارية بدافع العالمية، واستناداً إلى النظرة التوحيدية لعالم يخضع لرب واحد، وتحكمه قيم تتصف بالإنسانية والعالمية؟!

يبدو واضحاً أن ما نسعى لبلوغه هنا هو التأكيد على ضرورة الخيارات، وعدم قسرها على نموذج أحادي الوجهة. وتنويع الخيارات تتيح فرصاً واسعة للمساهمة في خلق عالم أكثر إنسانية وأقرب إلى مفهوم العدالة. عالم تسوده أنساق فكرية مفتوحة ومتعددة، فمن خلال هذا التعدد يمكن أن نعيد للثقافات الأخرى مكانتها الطبيعية، ونتغلب على الخلل الصارخ في الحضارات.

أما بخصوص صراع الحضارات وصدام الثقافات، ذلك الذي صادفناه في مؤلفات الغرب الحديث، فهذا وجه من وجوه ثراء المعرفة الإنسانية وتراكمها، وهو دليل صحة حضارية وثقافيةمعاً، فلا يمكن إلغاء التضاد- بل التصارع- من طبيعة الوجود المتنوع للمجتمعات البشرية وثقافاتها بما «الكل» وحدة مغتنية وتزداد غنى بهذا التنوع المتفاعل المتطور، إذ لو أمكن أن يتم الإلغاء لصار الوجود مسطحاً.. أي أنه يتم إهدار (الشخصية) الإنسانية المرتكزة على الغنى التركيبي الاجتماعي للمحصلات الثقافية التاريخية التي تنتمي إليها- كما يقول باحث معاصر [٤٠]- لكن بالمقابل، يمكن للفعل البشري الواعي أن يلجم الشطط في ذلك التصارع فيرتقي به إلى مستوى من الحوار الحر المتوازن المتكافىء الذي يصون نجوع البقاء الحضاري العام ويحفظه من الخلل والانهيار.

وهناك من يرى أن الحضارات لا تلتقي ولا تتعايش وإنما تتصارع وتتصادم، ومنها ما ينهار بسبب الغزوات الخارجية مثل حضارات «قرطاج» و«الأنكا و«الأزتك»، ومنها ما يتحلل بفعل الهرم أو الشيخوخة مثل الحضارة الفرعونية، ومنها ما يتحول إلى ثقافة عبر حضارة أخرى، مثل وضع الحضارة اليونانية التي ذابت في قلب الحضارة الرومانية، والتي لعبت دور «الآخر» المحفز للعقل مقابل تراث النقل داخل الحضارة الإسلامية، وهذا هو عين ما تقوم به الحضارة الغربية عبر عمليات تحديث العالم عن طريق التكنولوجيا المتقدمة، وتقليص المسافات والأزمنة من خلال الطفرات المتلاحقة في مجال آليات الاتصال عن بعد.

أما الثقافات فلكونها تشكل الرؤى الذاتية للشعوب، ونظرتها الخاصة للحياة والوجود التي توارثتها عبر تاريخها الطويل والتي اعتبرتها من ثم دعامة هويتها وركيزة أصالتها، فهي في الأساس قضية وعي لا وجود لها خارج هذا الوعي إلا أن هذا الوعي قد يكون سلبياً فيخضع لقانون المثاقفة acculturation الذي تفرضه هيمنة الحضارة السائدة [٤١].

وحينما نتحدث عن الحضارة السائدة لا نعني هيمنة دولة بعينها- على الرغم من أن هذا واقع لا يغير قبوله أو رفضه شيئاً- أو مجموعة دول

وإنما نقصد الحضارة التي تفرض نفسها عن طريق فعالية النظم والمؤسسات والمكتسبات العلمية والتكنولوجية التي ستنتهي حتماً بالانتشار في العالم كله، وقد تسمى حالياً أميركية أو غربية، ولكنها أيضاً يابانية وعن قريب صينية، إلا أنها في النهاية الحضارة التكنولوجية الأرقى التي تنبأ «هربرت مركيوز» بأنها ستحول الإنسان إلى كائن ذي بعد واحد ستفرض نفسها بصورة حتمية، وهي قد بدأت منذ زمن بعيد بالانتشار عبر أنحاء العالم ولكن على درجات متفاوتة، وذلك منذ بدأت عمليات التحديث والحداثة، إلا أن الانتشار الحتمي وما سوف يؤدي إليه من توحيد العالم وإيجاد الإنسان الكوكبي لا يعني التسليم بوجود حلول جاهزة أو قوالب وصيغ معدة للتطبيق، ولا يعني إمكان أو سهولة الوصول إلى مكتسبات هذه الحضارة، وهنا يأتي دور الثقافة في تحفيز الوعي وكسر كل ضرب الجمود والتخلف التي تعوق عمليات الإبداع الفردي والوطني.

وفي المسألة الثقافية، فلا بد من الاعتراف في الوقت الراهن أن الثقافة العربية تعيش مأزقاً حاداً يكمن في عجزها عن مواكبة التحولات العالمية، وذلك بفعل تصاعد أهمية التكنولوجيا وبخاصة التكنولوجيا الاتصالية وثورة المعلومات الهائلة في العالم، باعتبار أن هذه التكنولوجيا أصبحت وسيلة هامة وأساسية في نقل وتوزيع وانتشار الثقافة ومصادرها (العولمة). ويمكن القول بأنه على الرغم من الاعتراف بالشوط المهم الذي قطعته الثقافة العربية حتى الآن في تعرف ذاتها وتحديد هويتها، وإثبات وجودها في عالم تنافس صعب، وصمودها في وجه محاولات تجزئتها وطمسها، وبعثرة ثوابتها وسلخها عن لغتها العربية، فلا بد من الاعتراف بأن الثقافة العربية ما زالت غارقة في معركة بناء نفسها من الداخل، وأن لديها من العوائق الذاتية الراسخة في عقلية المثقفين وطرق تفكيرهم ومصادر مرجعيتهم واختلاف ولاءاتهم وتمزق صفوفهم وبعد الشقة بينهم وبين الجمهور وغير ذلك من الظواهر السلبية ما يمكن أن يدمر أية ثقافة ناشئة أو ضعيفة، ولكن الثقافة العربية بفضل عوامل دينية وتاريخية وقومية وشعبية مازالت تقف على قدميها وتصارع عوامل تآكل ثقافية داخلية وعوامل تفتيت إطارية سياسية واجتماعية من حولها.

وهذا يلقي علينا بمزيد من المسؤولية تجاه ثقافتنا العربية والإسلامية، فصورة ا لمستقبل- الجديدة بثقافتنا العربية- لن ترتسم معالمها في أفق حياتنا المعاصرة دون المواجهة الصريحة والفاعلة لقضايا محورية ماثلة، مثل تعميم ديمقراطية الثقافة، وتوفير الحرية الكاملة للإبداع والمبدعين، وضرورة الربط العضوي بين التنمية الثقافية والتنمية الاجتماعية والاقتصادية، إضافة إلى تيسير التدفق الثقافي العربي، ودعم كل أسباب التعاون والتواصل بين المبدعين في الأقطار العربية والإسلامية وبين المؤسسات الثقافية القطرية. ولا ننسى قضية تحرير نظرتنا إلى تراثنا الثقافي بربطه بحاضرنا وتوظيفه كقوة تعزز هويتنا الثقافية في مواجهتها لتحديات عدم التكافؤ مع الثقافة (الكونية) المعاصرة.

مما يستدعي انفتاحاً ثقافياً واعياً على العالم، مرتكزا على الخصائص الفكرية والوجدانية لهذه الأمة، وعلى أصالتها الثقافية. وهذا يتطلب بناء السياسة الثقافية على تخطيط سليم للتبادل

وإنما نقصد الحضارة التي تفرض نفسها عن طريق فعالية النظم والمؤسسات والمكتسبات العلمية والتكنولوجية التي ستنتهي حتماً بالانتشار في العالم كله، وقد تسمى حالياً أميركية أو غربية، ولكنها أيضاً يابانية وعن قريب صينية، إلا أنها في النهاية الحضارة التكنولوجية الأرقى التي تنبأ «هربرت مركيوز» بأنها ستحول الإنسان إلى كائن ذي بعد واحد ستفرض نفسها بصورة حتمية، وهي قد بدأت منذ زمن بعيد بالانتشار عبر أنحاء العالم ولكن على درجات متفاوتة، وذلك منذ بدأت عمليات التحديث والحداثة، إلا أن الانتشار الحتمي وما سوف يؤدي إليه من توحيد العالم وإيجاد الإنسان الكوكبي لا يعني التسليم بوجود حلول جاهزة أو قوالب وصيغ معدة للتطبيق، ولا يعني إمكان أو سهولة الوصول إلى مكتسبات هذه الحضارة، وهنا يأتي دور الثقافة في تحفيز الوعي وكسر كل ضرب الجمود والتخلف التي تعوق عمليات الإبداع الفردي والوطني.

وفي المسألة الثقافية، فلا بد من الاعتراف في الوقت الراهن أن الثقافة العربية تعيش مأزقاً حاداً يكمن في عجزها عن مواكبة التحولات العالمية، وذلك بفعل تصاعد أهمية التكنولوجيا وبخاصة التكنولوجيا الاتصالية وثورة المعلومات الهائلة في العالم، باعتبار أن هذه التكنولوجيا أصبحت وسيلة هامة وأساسية في نقل وتوزيع وانتشار الثقافة ومصادرها (العولمة). ويمكن القول بأنه على الرغم من الاعتراف بالشوط المهم الذي قطعته الثقافة العربية حتى الآن في تعرف ذاتها وتحديد هويتها، وإثبات وجودها في عالم تنافس صعب، وصمودها في وجه محاولات تجزئتها وطمسها، وبعثرة ثوابتها وسلخها عن لغتها العربية، فلا بد من الاعتراف بأن الثقافة العربية ما زالت غارقة في معركة بناء نفسها من الداخل، وأن لديها من العوائق الذاتية الراسخة في عقلية المثقفين وطرق تفكيرهم ومصادر مرجعيتهم واختلاف ولاءاتهم وتمزق صفوفهم وبعد الشقة بينهم وبين الجمهور وغير ذلك من الظواهر السلبية ما يمكن أن يدمر أية ثقافة ناشئة أو ضعيفة، ولكن الثقافة العربية بفضل عوامل دينية وتاريخية وقومية وشعبية مازالت تقف على قدميها وتصارع عوامل تآكل ثقافية داخلية وعوامل تفتيت إطارية سياسية واجتماعية من حولها.

وهذا يلقي علينا بمزيد من المسؤولية تجاه ثقافتنا العربية والإسلامية، فصورة ا لمستقبل- الجديدة بثقافتنا العربية- لن ترتسم معالمها في أفق حياتنا المعاصرة دون المواجهة الصريحة والفاعلة لقضايا محورية ماثلة، مثل تعميم ديمقراطية الثقافة، وتوفير الحرية الكاملة للإبداع والمبدعين، وضرورة الربط العضوي بين التنمية الثقافية والتنمية الاجتماعية والاقتصادية، إضافة إلى تيسير التدفق الثقافي العربي، ودعم كل أسباب التعاون والتواصل بين المبدعين في الأقطار العربية والإسلامية وبين المؤسسات الثقافية القطرية. ولا ننسى قضية تحرير نظرتنا إلى تراثنا الثقافي بربطه بحاضرنا وتوظيفه كقوة تعزز هويتنا الثقافية في مواجهتها لتحديات عدم التكافؤ مع الثقافة (الكونية) المعاصرة.

مما يستدعي انفتاحاً ثقافياً واعياً على العالم، مرتكزا على الخصائص الفكرية والوجدانية لهذه الأمة، وعلى أصالتها الثقافية. وهذا يتطلب بناء السياسة الثقافية على تخطيط سليم للتبادل

الحضاري مع العالم، يقوم على الأخذ والعطاء وينتبه لمحاولات الغزو الثقافي لطمس معالم الذاتية القومية. لذلك لا نبالغ إذا قلنا إن الاستكانة والتسليم أمر غير مقبول قطعيا، ولا يجوز أن يسوّغ أبداً، فمن واجب الأمة؛ أي أمة أن تحمي ذاتها و تدرأ عنها الأخطار التي تهددها أيا كانت، ولا يجوز أن يكون ذلك بالانغلاق والتقوقع، كما لا يكون بالانفتاح غير المشروط ولا المدروس، بل لنقل بالتفريط. لأن النتائج الناجمة عن ذلك، وإن لم تهدد وجود الأمة، فإها جد خطيرة على البنية الفكرية والثقافية والاجتماعية، وقد تترك من الآثار السلبية ما يحتاج إلى عقود مديدة لمحوها، أو تجاوزها.

وعلى قاعدة من هذا القلق الجدي، شهدنا منذ خمس سنوات نوعاً من حرب حقيقية، كانت الثقافة فيها مع منتجاتها، هي موضوع المعركة وحلبتها، ولم يكن التعبير الأوحد عن هذه الحرب خلال المناقشات والسجالات المرافقة لمفاوضات (الجات) الأخيرة وإقرار الاتفاقات بشأنها، تمسك بعض البلدان كفرنسا وكندا مثلاً بما سمي بـ(الاستثناء الثقافي Exception Culturelle)[٤٢] وكذلك الأمر، كما يحاول «روثكوبف» أن يصوره بتهكم، فقد أصدرت كل من فرنسا وكندا قوانين تحظر نشر ونقل مواد أجنبية- أي أميركية طبعاً- مأخوذة من الآثار الصناعية عبر حدودها إلى بيوت مواطنيها. وليس من الغريب أن تقوم الحكومات المركزية؛ إيران الإسلامية، والصين الشيوعية، وسنغافورة ذات تجربة التخطيط الناجحة؛ بالسعي بقوة لتقييد وصول برامج (الحاسوب) إلى مواطنيها، وهدفها الصريح هو إبعاد ما يبثه الأميركيون من وجهات نظر سياسية، وعادات، وتلوث إخباري، كما يقال في أنباء عدة من الشرق الأوسط[٤٣].

إن هذا السلوك القهري- كما يذكر الباحث عزت السيد أحمد[٤٤]- على عدم صوابيته المطلقة، فإنه قد يكون ضرورياً ومهماً، ولكنه ينبغي أن يكون واعياً عندما يمارس؛ ذلك أن إغلاق الأبواب والمنافذ أشد خطرا من فتحها، وما يحدث في المنظومة الاشتراكية عبرة لمن يعتبر، إن أهم ما نطلبه هنا هو الوعي، الوعي الحقيقي لا الوعي الزائف، فالوعي هو الذي يحقق تحقيق الانتماء.

ونحن إذ نربط الثقافة بالوعي لا يخفى علينا ما يمكن أن تلعبه الحضارة السائدة بما تقوم عليه من أنماط الإنتاج وأساليب الاستهلاك من تأثير أو ضغوط عليه، ولكن الوعي بما هو وعي أي قدرة على تجاوز كل ضروب الحتميات الخارجية والداخلية الموروثة عن الماضي لا يمكن أن يكون فعالية نقدية، فعالية قادرة دوماً على الانسلاخ من هيمنة الفكر السائد الذي يتماهى مع مختلف ضروب السلطة السياسية والاقتصادية والثقافية وعلى الانفكاك من كل أشكال التموضع السلبية التي تخدعنا بما نتلبس به من أردية الهوية والخصوصية، إذ أن الوعي الصادق هو الذي ينتج هويته ولا يتلقاها جاهزة في صورة حتميات مفروضة عليه سواء من الخارج أو من الموروث، وهو الذي يستطيع أن يمارس التفكير في قلب الفكر كما يذهب «هيدجر» ما دام أن كل فكر متشكل فكراً قد تموضع بالفعل وتحول من مرحلة الحركة والممارسة الإبداعية إلى حالة الثبات والسكون.

ولذلك يجب أن ننتبه إلى أن العولمة تتيح في الواقع للأسطورة الأميركية أن تمارس مختلف ضروب الإغراء على الصفوة، خاصة في بلدان

الحضاري مع العالم، يقوم على الأخذ والعطاء وينتبه لمحاولات الغزو الثقافي لطمس معالم الذاتية القومية. لذلك لا نبالغ إذا قلنا إن الاستكانة والتسليم أمر غير مقبول قطعيا، ولا يجوز أن يسوّغ أبداً، فمن واجب الأمة؛ أي أمة أن تحمى ذاتها و تدرأ عنها الأخطار التي تهددها أيا كانت، ولا يجوز أن يكون ذلك بالانغلاق والتقوقع، كما لا يكون بالانفتاح غير المشروط ولا المدروس، بل لنقل بالتفريط. لأن النتائج الناجمة عن ذلك، وإن لم تهدد وجود الأمة، فإها جد خطيرة على البنية الفكرية والثقافية والاجتماعية، وقد تترك من الآثار السلبية ما يحتاج إلى عقود مديدة لمحوها، أو تجاوزها.

وعلى قاعدة من هذا القلق الجدي، شهدنا منذ خمس سنوات نوعاً من حرب حقيقية، كانت الثقافة فيها مع منتجاتها، هي موضوع المعركة وحلبتها، ولم يكن التعبير الأوحد عن هذه الحرب خلال المناقشات والسجالات المرافقة لمفاوضات (الجات) الأخيرة وإقرار الاتفاقات بشأنها، تمسك بعض البلدان كفرنسا وكندا مثلاً بما سمي بـ(الاستثناء الثقافي Exception Culturelle) [٤٢] وكذلك الأمر، كما يحاول «روثكوبف» أن يصوره بتهكم، فقد أصدرت كل من فرنسا وكندا قوانين تحظر نشر ونقل مواد أجنبية- أي أميركية طبعاً- مأخوذة من الآثار الصناعية عبر حدودها إلى بيوت مواطنيها. وليس من الغريب أن تقوم الحكومات المركزية؛ إيران الإسلامية، والصين الشيوعية، وسنغافورة ذات تجربة التخطيط الناجحة؛ بالسعي بقوة لتقييد وصول برامج (الحاسوب) إلى مواطنيها، وهدفها الصريح هو إبعاد ما يبثه الأميركيون من وجهات نظر سياسية، وعادات، وتلوث إخباري، كما يقال في أنباء عدة من الشرق الأوسط [٤٣].

إن هذا السلوك القهري- كما يذكر الباحث عزت السيد أحمد [٤٤]- على عدم صوابيته المطلقة، فإنه قد يكون ضرورياً ومهماً، ولكنه ينبغي أن يكون واعياً عندما يمارس؛ ذلك أن إغلاق الأبواب والمنافذ أشد خطرا من فتحها، وما يحدث في المنظومة الاشتراكية عبرة لمن يعتبر، إن أهم ما نطلبه هنا هو الوعي، الوعي الحقيقي لا الوعي الزائف، فالوعي هو الذي يحقق تحقيق الانتماء.

ونحن إذ نربط الثقافة بالوعي لا يخفى علينا ما يمكن أن تلعبه الحضارة السائدة بما تقوم عليه من أنماط الإنتاج وأساليب الاستهلاك من تأثير أو ضغوط عليه، ولكن الوعي بما هو وعي أي قدرة على تجاوز كل ضروب الحتميات الخارجية والداخلية الموروثة عن الماضي لا يمكن أن يكون فعالية نقدية، فعالية قادرة دوماً على الانسلاخ من هيمنة الفكر السائد الذي يتماهى مع مختلف ضروب السلطة السياسية والاقتصادية والثقافية وعلى الانفكاك من كل أشكال التموضع السلبية التي تخدعنا بما نتلبس به من أردية الهوية والخصوصية، إذ أن الوعي الصادق هو الذي ينتج هويته ولا يتلقاها جاهزة في صورة حتميات مفروضة عليه سواء من الخارج أو من الموروث، وهو الذي يستطيع أن يمارس التفكير في قلب الفكر كما يذهب «هيدجر» ما دام أن كل فكر متشكل فكراً قد تموضع بالفعل وتحول من مرحلة الحركة والممارسة الإبداعية إلى حالة الثبات والسكون.

ولذلك يجب أن ننتبه إلى أن العولمة تتيح في الواقع للأسطورة الأميركية أن تمارس مختلف ضروب الإغراء على الصفوة، خاصة في بلدان

العالم النامي، فهي تهيىء لها هوية أخرى يمكن أن تعزلها في الوقت نفسه عن مجتمعها الأصلي، كما أن العولمة- كما يذهب إلى ذلك باحث غربي (٤٥)- تؤدي أيضاً إلى تحويل الولايات المتحدة نفسها. فالنفوذ الأميركي الذي يواجه ردود الأفعال الناجمة عن نجاحه العالمي، لا يقدم صورة أكثر تماسكا بالمقارنة مع المجتمعات التي تقوض بنفسها بنياتها التقليدية، فانتشارهذا النفوذ على نطاق العالم، يغير من طبيعة النموذج الذي تطرحه.

وإذا كانت العولمة- العالمية- حتمية لا راد لها، فإننا لسنا في موقع من يختار الدخول فيها أو الامتناع عنها. لكننا نملك بفضل تضامن أممي للشعوب العربية والإسلامية، أن نحرر هذه العولمة من سلبياتها، ونستثمر كثيراً من إيجابياتها، ولكن قبل ذلك لا بد من ا لتخلص من كثير من السمات المرضية التي أصابت الشخصية العربية والإسلامية، فالاغتراب والفردية والمادية والاستهلاك الترفي، هي سمات سائدة في مجتمعاتنا العربية حيث تحولت الثقافة العربية إلى ثقافة من نوع جديد ربما يقترب من المفهوم الذي قدمه «كارل بولاني» (٤٦) في كتابه «التحول الكبير» بحضارة السوق حيث يصبح كل شيء خاضع لشروط ولنظام السوق، «حتى روح الإنسان نفسه». غير أن ذلك كله مرهون بمدى قدرة الإنسان العربي، على مواجه التحدي والمواجهة.■

المصادر والمراجع

١- أحمد شهاب : نحو تناول علمي لمفهوم العولمة، مجلة الكلمة العدد ٢٥، بيروت ١٩٩٩م.
٢- أحمد يوسف داؤد : في قضية التراث الثقافي والإبداع، المجلة العربية للثقافة، العدد ٣٩ تونس ٢٠٠٠م.
٣- إدريس هاني : الدرجة صفر للعولمة، مجلة الكلمة، العدد ٢٧، بيروت، ربيع عام ٢٠٠٠م.
٤- برهان غليون : اغتيال العقل، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر عام ١٩٩٠م.
٥- ثناء فؤاد عبدالله : قضايا العولمة بين القبول والرفض، مجلة المستقبل العربي العدد ٢٥٦ يونية ٢٠٠٠م.
٦- د. جلال أمين : ماذا حدث للمصريين، دار الهلال، مصر عام ١٩٩٨م.
٧- جوران توربون : العولمات : الأبعاد، والموجات التاريخية، والمؤثرات الإقليمية، ترجمة بدر الرفاعي، مجلة الثقافة العالمية، العدد ١٠٦، الكويت عام ٢٠٠١م.
٨- حاتم عثمان : العولمة والثقافة، عرض إيناس حتى، مجلة العصور الجديدة، العدد ٤ ديسمبر ١٩٩٩م.
٩- د. حفناوي بعلي : الأدب المقارن والتوجه للعولمة، مجلة الجسرة، العدد ٥ قطر، ربيع عام ٢٠٠٠م.
١٠- دافيد رونكوبف : في مديح الإمبرالية الثقافية، ترجمة أحمد خضر، مجلة الثقافة العربية العدد ٨٥ الكويت عام ١٩٩٧م.
١١- د. سعيد اللاوندي : بدائل العولمة : أوروبا نموذجاً، الأهرام في ٢١/٤/٢٠٠٠م.
١٢- سمير أمين : أميركا .. مائة سنة قادمة من الحرب، مجلة العصور الجديدة، العدد ٣ نوفمبر عام ١٩٩٩م.
١٣- د. السيد فليفل : نعم للعولمة الموضوعية . لا للهيمنة، الأهرام في ٢١/٥/١٩٩٥م.
١٤- شاكر عبدالفتاح : العولمة اتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء، مجلة الهلال، مارس عام ٢٠٠١م.
١٥- صموئيل هانتغتون : صدام الحضارات، ترجمة طلعت الشايب، القاهرة عام ١٩٩٨م.
١٦- عزت السيد أحمد : العولمة والغزو الثقافي، الفكر العربي العدد ٩٦، بيروت عام ١٩٩٩م.
١٧- د. علي حرب : الثقافة والعولمة، الشاهد العدد ١٥٩ تشرين عام ١٩٩٨م.
١٨- فرنسيس فوكوياما : نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة د. حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة عام ١٩٩٢م.
١٩- كريم أبوحلاوة : الآثار الثقافية للعولمة، عالم الفكر ج٢٩ العدد ٣ الكويت عام ٢٠٠١م.
٢٠- محمود حيدر : الأمم المتحدة من الحرب الباردة إلى العولمة المفتوحة، مجلة الطريق العدد ١ بيروت ٢٠٠١م.
٢١- مسعود ضاهر : صدام الحضارات ارتباك الخائفين وصلابة القادرين، مجلة العربي، العدد ٤٥٢.
٢٢- ميشيل إده : مستقبلنا العربي وتحديات العولمة، مجلة المعرفة العدد ٤١٠، دمشق نوفمبر ١٩٩٧م.
٢٣- هانس كشلر : سياسة الأمم المتحدة في فرض العقوبات،

العالم النامي، فهى تهيىء لها هوية أخرى يمكن أن تعزلها في الوقت نفسه عن مجتمعها الأصلي، كما أن العولمة– كما يذهب إلى ذلك باحث غربي (٤٥)– تؤدي أيضاً إلى تحويل الولايات المتحدة نفسها. فالنفوذ الأميركى الذي يواجه ردود الأفعال الناجمة عن نجاحه العالمي، لا يقدم صورة أكثر تماسكا بالمقارنة مع المجتمعات التي تقوض بنفسها بنياتها التقليدية، فانتشارهذا النفوذ على نطاق العالم، يغير من طبيعة النموذج الذي تطرحه.

وإذا كانت العولمة– العالمية– حتمية لا راد لها، فإننا لسنا في موقع من يختار الدخول فيها أو الامتناع عنها. لكننا نملك بفضل تضامن أممي للشعوب العربية والإسلامية، أن نحرر هذه العولمة من سلبياتها، ونستثمر كثيراً من إيجابياتها، ولكن قبل ذلك لا بد من ا لتخلص من كثير من السمات المرضية التي أصابت الشخصية العربية والإسلامية، فالاغتراب والفردية والمادية والاستهلاك الترفي، هي سمات سائدة في مجتمعاتنا العربية حيث تحولت الثقافة العربية إلى ثقافة من نوع جديد ربما يقترب من المفهوم الذي قدمه «كارل بولاني» (٤٦) في كتابه «التحول الكبير» بحضارة السوق حيث يصبح كل شيء خاضع لشروط ولنظام السوق، «حتى روح الإنسان نفسه». غير أن ذلك كله مرهون بمدى قدرة الإنسان العربي، على مواجه التحدي والمواجهة.■

المصادر والمراجع

١– أحمد شهاب : نحو تناول علمي لمفهوم العولمة، مجلة الكلمة العدد ٢٥، بيروت ١٩٩٩م.

٢– أحمد يوسف داؤد : في قضية التراث الثقافي والإبداع، المجلة العربية للثقافة، العدد ٣٩ تونس ٢٠٠٠م.

٣– إدريس هاني : الدرجة صفر للعولمة، مجلة الكلمة، العدد ٢٧، بيروت، ربيع عام ٢٠٠٠م.

٤– برهان غليون : اغتيال العقل، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر عام ١٩٩٠م.

٥– ثناء فؤاد عبدالله : قضايا العولمة بين القبول والرفض، مجلة المستقبل العربي العدد ٢٥٦ يونية ٢٠٠٠م.

٦– د. جلال أمين : ماذا حدث للمصريين، دار الهلال، مصر عام ١٩٩٨م.

٧– جوران توربون : العولمات : الأبعاد، والموجات التاريخية، والمؤثرات الإقليمية، ترجمة بدر الرفاعي، مجلة الثقافة العالمية، العدد ١٠٦، الكويت عام ٢٠٠١م.

٨– حاتم عثمان : العولمة والثقافة، عرض إيناس حتى، مجلة العصور الجديدة، العدد ٤ ديسمبر ١٩٩٩م.

٩– د. حفناوي بعلي : الأدب المقارن والتوجه للعولمة، مجلة الجسرة، العدد ٥ قطر، ربيع عام ٢٠٠٠م.

١٠– دافيد رونكوبف : في مديح الإمبرالية الثقافية، ترجمة أحمد خضر، مجلة الثقافة العربية العدد ٨٥ الكويت عام ١٩٩٧م.

١١– د. سعيد اللاوندي : بدائل العولمة : أوروبا نموذجاً، الأهرام في ٢١/٤/٢٠٠٠م.

١٢– سمير أمين : أميركا .. مائة سنة قادمة من الحرب، مجلة العصور الجديدة، العدد ٣ نوفمبر عام ١٩٩٩م.

١٣– د. السيد فليفل : نعم للعولمة الموضوعية . لا للهيمنة، الأهرام في ٢١/٥/١٩٩٥م.

١٤– شاكر عبدالفتاح : العولمة اتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء، مجلة الهلال، مارس عام ٢٠٠١م.

١٥– صموئيل هانتغتون : صدام الحضارات، ترجمة طلعت الشايب، القاهرة عام ١٩٩٨م.

١٦– عزت السيد أحمد : العولمة والغزو الثقافي، الفكر العربي العدد ٩٦، بيروت عام ١٩٩٩م.

١٧– د. علي حرب : الثقافة والعولمة، الشاهد العدد ١٥٩ تشرين عام ١٩٩٨م.

١٨– فرنسيس فوكوياما : نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة د. حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة عام ١٩٩٢م.

١٩– كريم أبوحلاوة : الآثار الثقافية للعولمة، عالم الفكر ج٢٩ العدد ٣ الكويت عام ٢٠٠١م.

٢٠– محمود حيدر : الأمم المتحدة من الحرب الباردة إلى العولمة المفتوحة، مجلة الطريق العدد ١ بيروت ٢٠٠١م.

٢١– مسعود ضاهر : صدام الحضارات ارتباك الخائفين وصلابة القادرين، مجلة العربي، العدد ٤٥٢.

٢٢– ميشيل إده : مستقبلنا العربي وتحديات العولمة، مجلة المعرفة العدد ٤١٠، دمشق نوفمبر ١٩٩٧م.

٢٣– هانس كشلر : سياسة الأمم المتحدة في فرض العقوبات،

النمسا- فيينا- إصدار جمعية الجماهير للثقافة والفلسفة.
٢٤- Dictionnaire Larousse, libraire Larousse. Press. 1983.
٢٥- Oxford dictionary. Ozford university press. 1984.

الهوامش

١- دافيد روثكويف : استاذ العلاقات الدولية في جامعة كولومبيا ، الذي شغل منصبا مهما في وزارة الخارجية الأمريكية إبان الفترة الأولى في إدارة كلينتون . انظر له «في مديح الإمبريالية الثقافية» ترجمة أحمد خضر مجلة الثقافة العالمية ، العدد ٨٥ ص ٢٨ الكويت عام ١٩٩٧م.

٢ - المرجع السابق ص ٣٠ وانظر عزت السيد أحمد : العولمة والغزو الثقافى . الفكر العربي العدد ٩٦ ص ١٦٣، ١٦٤ ، بيروت ربيع عام ١٩٩٩م.

٣ - إيناس حتى : العولمة والثقافة ، مجلة العصور الجديدة ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ العدد ٤ ديسمبر ١٩٩٩م

٤ - السابق ص ٢٢٧

٥ - ميشيل إده : مستقبلنا العربي وتحديات العولمة ، مجلة المعرفة ، العدد ٤١٠ ص ١٤ ، ١٥ دمشق نوفمبر عام ١٩٩٧م.

٦ - دافيد رونكويف : في مديح الأمبريالية الثقافية ، ص ٢٩.

٧ - د. كريم أبو حلاوة : الآثار الثقافية للعولمة ، مجلة عالم الفكر ج ٢٩ العدد ٣ ص ١٧٢ ، الكويت يناير عام ٢٠٠١.

٨ - - Dictionnaire Larousse, Iibraire Larousse Press. 1983. P. 649

٩ - - Oxford dictionary. Oxford university Press. 1984. P.360

١٠ د. حفناوى بعلى : الأدب المقارن والتوجه للعولمة مجلة الجسرة العدد ٥ ص ٢٨ ، ٢٩ قطر ربيع عام ٢٠٠٠م.

١١ - جوران توربون : العولمات : الأبعاد، والموجات التاريخية ، والمؤثرات الإقليمية ، ترجمة بدر الرفاعى ، مجلة الثقافة العالمية العدد ١٠٦ ص ٦ ، ٧ الكويت مايو ٢٠٠١م.

١٢ - السابق ص ٧.

١٣ - جوران توربون : العولمات ص ٨ ، ٩

١٤ - د. كريم أبو حلاوة : الآثار الثقافية لعولمة ص ١٧١ - ١٧٢ مجلة عالم الفكر ج ٢٩ العدد ٣ الكويت يناير عام ٢٠٠١م.

١٥ - فرنسيس فوكوياما نهاية التاريخ وخاتم البشر ، ترجمة د. حسين أحمد أمين ص ٦٢ ، مركز الأهرام للترجمة والنشر عام ١٩٩٢م.

١٦ - صموئيل هانتغتون : صدام الحضارات ، ترجمة طلعت الشايب ، كتاب سطور عام ١٩٩٨م.

١٧ - انظر د. حفناوى بعلى : الأدب المقارن والتوجه نحو العولمة ، ص ٣٩ ، ٤٠ السابق

١٨ - انظر مسعود ضاهر : صدام الحضارات ارتباك الخائفين وصلابة القادرين ، مجلة العربى العدد ٤٥٢ ص ٢٩ ، ٣٠.

١٩ - انظر د. السيد فليفل : نعم للعولمة الموضوعية .. لا للهيمنة . الأهرام فى ١٩٩٥/٥/٢١.

٢٠ - السابق ص ٣١،٣٠

٢١ - نقلا عن ثناء فؤاد عبدالله: قضايا العولمة بين القبول والرفض ص ٩٠ مجلة المستقبل العربي العدد ٢٥٦ يونيه عام ٢٠٠٠م.

٢٢ - ثناء فؤاد عبدالله: قضايا العولمة بين القبول والرفض ص ٩٠

٢٣ - إدريس هانى : الدرجة صفر للعولمة ، مجلة الكلمة ، العدد ٢٧ بيروت ، ربيع عام ٢٠٠٠م.

٢٤ - محمود حيدر : الأمم المتحدة من الحرب الباردة إلى «العولمة» المفتوحة ، مجلة الطريق العدد ١ بيروت عام ٢٠٠١م.

٢٥ - شاكر عبدالفتاح : العولمة واتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء ، مجلة الهلال ص ٥٤ ، ٥٥ مارس عام ٢٠٠١م.

٢٦ - شاكر عبدالفتاح : العولمة واتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء ، ص ٥٥ ، ٥٦

٢٧ - صدر الكتاب ضمن سلسلة عالم المعرفة عام ١٩٩٨م.

٢٨ - سمير أمين : أمريكا .. مائة سنة قادمة من الحرب ! مجلة العصور الجديدة العدد ٣ نوفمبر ١٩٩٩.

٢٩ - حاتم عثمان : العولمة والثقافة ، عرض إيناس حسني ، مجلة العصور الجديدة العدد ٤ ديسمبر عام ١٩٩٩م.

٣٠ - على حرب : الثقافة والعولمة ص ٨٧ ، ٨٨ ، الشاهد العدد ١٥٩ تشرين عام ١٩٩٨م.

٣١ - د. كريم أبو حلاوة : الاثار الثقافية للعولمة ، عالم الفكر ج ٢٩ العدد ٣ ص ١٨٠

٣٢ - برهان غليون : اغتيال العقل ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ص ١٣٤ الجزائر ١٩٩٠م.

٣٣ - محمود حيدر : الأمم المتحدة من الحرب الباردة على العولمة المفتوحة ، مجلة الطريق ص ٣٧ ، ٣٨ العدد ١ عام ٢٠٠١م

٣٤ - هانس كشلر : سياسة الأمم المتحدة فى فرض العقوبات ، إصدار جمعية الجماهير للثقافة والفلسفة النمسا - فينا ص ٣٨ - ٣٩.

٣٥ - الدراسة السابقة ص ٣٩

٣٦ - نقلا عن د. سعيد اللاوندى : بدائل العولمة : أوروبا نموذجا ، الأهرام فى ٢١ أبريل ٢٠٠٠م.

٣٧ - جريدة السفير العدد ٨٠٨٨ ص ١٦ الخميس ١٩٩٨/٩/٣م.

٣٨ - د. محمد عابد الجابرى : المستقبل العربى عدد ٣ عام ١٩٩٨م.

النمسا- فيينا- إصدار جمعية الجماهير للثقافة والفلسفة.
٢٤- Dictionnaire Larousse, libraire Larousse. Press. 1983.
٢٥- Oxford dictionary. Ozford university press. 1984.

الهوامش

١- دافيد روثكويف : استاذ العلاقات الدولية في جامعة كولومبيا ، الذي شغل منصبا مهما في وزارة الخارجية الأمريكية إبان الفترة الأولى في إدارة كلينتون . انظر له «في مديح الإمبريالية الثقافية» ترجمة أحمد خضر مجلة الثقافة العالمية ، العدد ٨٥ ص ٢٨ الكويت عام ١٩٩٧م.

٢ – المرجع السابق ص ٣٠ وانظر عزت السيد أحمد : العولمة والغزو الثقافى . الفكر العربي العدد ٩٦ ص ١٦٣ ، ١٦٤ ، بيروت ربيع عام ١٩٩٩م.

٣ – إيناس حتى : العولمة والثقافة ، مجلة العصور الجديدة ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ العدد ٤ ديسمبر ١٩٩٩م

٤ – السابق ص ٢٢٧

٥ – ميشيل إده : مستقبلنا العربي وتحديات العولمة ، مجلة المعرفة ، العدد ٤١٠ ص ١٤ ، ١٥ دمشق نوفمبر عام ١٩٩٧م.

٦ – دافيد رونكويف : في مديح الأمبريالية الثقافية ، ص ٢٩.

٧ – د. كريم أبو حلاوة : الآثار الثقافية للعولمة ، مجلة عالم الفكر ج ٢٩ العدد ٣ ص ١٧٢ ، الكويت يناير عام ٢٠٠١.

٨ – - Dictionnaire Larousse, Iibraire Larousse Press. 1983. P. 649

٩ – - Oxford dictionary. Oxford university Press. 1984. P.360

١٠ د. حفناوى بعلى : الأدب المقارن والتوجه للعولمة مجلة الجسرة العدد ٥ ص ٢٨ ، ٢٩ قطر ربيع عام ٢٠٠٠م.

١١ – جوران توربون : العولمات : الأبعاد، والموجات التاريخية ، والمؤثرات الإقليمية ، ترجمة بدر الرفاعى ، مجلة الثقافة العالمية العدد ١٠٦ ص ٦ ، ٧ الكويت مايو ٢٠٠١م.

١٢ – السابق ص ٧.

١٣ – جوران توربون : العولمات ص ٨ ، ٩

١٤ – د. كريم أبو حلاوة : الآثار الثقافية لعولمة ص ١٧١ – ١٧٢ مجلة عالم الفكر ج ٢٩ العدد ٣ الكويت يناير عام ٢٠٠١م.

١٥ – فرنسيس فوكوياما نهاية التاريخ وخاتم البشر ، ترجمة د. حسين أحمد أمين ص ٦٢ ، مركز الأهرام للترجمة والنشر عام ١٩٩٢م.

١٦ – صموئيل هانتغتون : صدام الحضارات ، ترجمة طلعت الشايب ، كتاب سطور عام ١٩٩٨م.

١٧ – انظر د. حفناوى بعلى : الأدب المقارن والتوجه نحو العولمة ، ص ٣٩ ، ٤٠ السابق

١٨ – انظر مسعود ضاهر : صدام الحضارات ارتباك الخائفين وصلابة القادرين ، مجلة العربى العدد ٤٥٢ ص ٢٩ ، ٣٠.

١٩ – انظر د. السيد فليفل : نعم للعولمة الموضوعية .. لا للهيمنة . الأهرام فى ١٩٩٥/٥/٢١.

٢٠ – السابق ص ٣١،٣٠

٢١ – نقلا عن ثناء فؤاد عبدالله: قضايا العولمة بين القبول والرفض ص ٩٠ مجلة المستقبل العربي العدد ٢٥٦ يونيه عام ٢٠٠٠م.

٢٢ – ثناء فؤاد عبدالله: قضايا العولمة بين القبول والرفض ص ٩٠

٢٣ – إدريس هانى : الدرجة صفر للعولمة ، مجلة الكلمة ، العدد ٢٧ بيروت ، ربيع عام ٢٠٠٠م.

٢٤ – محمود حيدر : الأمم المتحدة من الحرب الباردة إلى «العولمة» المفتوحة ، مجلة الطريق العدد ١ بيروت عام ٢٠٠١م.

٢٥ – شاكر عبدالفتاح : العولمة واتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء ، مجلة الهلال ص ٥٤ ، ٥٥ مارس عام ٢٠٠١م.

٢٦ – شاكر عبدالفتاح : العولمة واتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء ، ص ٥٥ ، ٥٦

٢٧ – صدر الكتاب ضمن سلسلة عالم المعرفة عام ١٩٩٨م.

٢٨ – سمير أمين : أمريكا .. مائة سنة قادمة من الحرب ! مجلة العصور الجديدة العدد ٣ نوفمبر ١٩٩٩.

٢٩ – حاتم عثمان : العولمة والثقافة ، عرض إيناس حسني ، مجلة العصور الجديدة العدد ٤ ديسمبر عام ١٩٩٩م.

٣٠ – على حرب : الثقافة والعولمة ص ٨٧ ، ٨٨ ، الشاهد العدد ١٥٩ تشرين عام ١٩٩٨م.

٣١ – د. كريم أبو حلاوة : الاثار الثقافية للعولمة ، عالم الفكر ج ٢٩ العدد ٣ ص ١٨٠

٣٢ – برهان غليون : اغتيال العقل ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ص ١٣٤ الجزائر ١٩٩٠م.

٣٣ – محمود حيدر : الأمم المتحدة من الحرب الباردة على العولمة المفتوحة ، مجلة الطريق ص ٣٧ ، ٣٨ العدد ١ عام ٢٠٠١م

٣٤ – هانس كشلر : سياسة الأمم المتحدة فى فرض العقوبات ، إصدار جمعية الجماهير للثقافة والفلسفة النمسا – فينا ص ٣٨ – ٣٩.

٣٥ – الدراسة السابقة ص ٣٩

٣٦ – نقلا عن د. سعيد اللاوندى : بدائل العولمة : أوروبا نموذجا ، الأهرام فى ٢١ أبريل ٢٠٠٠م.

٣٧ – جريدة السفير العدد ٨٠٨٨ ص ١٦ الخميس ١٩٩٨/٩/٣م.

٣٨ – د. محمد عابد الجابرى : المستقبل العربى عدد ٣ عام ١٩٩٨م.

٣٩ – أحمد شهاب : نحو تناول علمى لمفهوم العولمة ص ٦٩ ، ٧٠ مجلة الكلمة العدد ٢٥ بيروت خريف ١٩٩٩م.
٤٠ – أحمد يوسف داود : فى قضية التراث الثقافى والإبداع ، المجلة العربية العدد ٣٩ ص ٨٠ تونس سبتمبر عام ٢٠٠٠م.
٤١ – د. محمد علي الكردي : الثقافة والعولمة الاهرام ١٥/٧/٢٠٠٠م.
٤٢ – ميشيل إده : مستقبلنا العربي وتحديات العولمة مجلة المعرفة العدد ٤١٠ ص ١٦ ، دمشق عام ١٩٩٧ .
٤٣ – دافيد روثكويف : في مديح الإمبريالية الثقافية مصدر سابق ص ٣١.
٤٤ – عزت السيد : العولمة والغزو الثقافى ، مجلة الفكر العربى العدد ٩٦ ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، ربيع عام ١٩٩٩م.
٤٥ – جان ، مارى جيهينو : أمركة العالم أو عولمة أمريكا، ترجمة حليم طوسون ، ص ١٥ الثقافة العالمية العدد ١٠٠ الكويت في مايو عام ٢٠٠٠م.
٤٦ – راجع جلال أمين : ماذا حدث للمصريين ؟ تطور المجتمع المصري فى نصف قرن ١٩٤٥ – ١٩٩٥ دار الهلال ، ص ٢٨١ – ٢٩١ عام ١٩٩٨م.

٣٩ – أحمد شهاب : نحو تناول علمى لمفهوم العولمة ص ٦٩ ، ٧٠ مجلة الكلمة العدد ٢٥ بيروت خريف ١٩٩٩م.
٤٠ – أحمد يوسف داود : فى قضية التراث الثقافى والإبداع ، المجلة العربية العدد ٣٩ ص ٨٠ تونس سبتمبر عام ٢٠٠٠م.
٤١ – د. محمد علي الكردي : الثقافة والعولمة الاهرام ٢٠٠٠/٧/١٥م.
٤٢ – ميشيل إده : مستقبلنا العربي وتحديات العولمة مجلة المعرفة العدد ٤١٠ ص ١٦ ، دمشق عام ١٩٩٧ .
٤٣ – دافيد روثكويف : في مديح الإمبريالية الثقافية مصدر سابق ص ٣١.
٤٤ – عزت السيد : العولمة والغزو الثقافى ، مجلة الفكر العربى العدد ٩٦ ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، ربيع عام ١٩٩٩م.
٤٥ – جان ، مارى جيهينو : أمركة العالم أو عولمة أمريكا، ترجمة حليم طوسون ، ص ١٥ الثقافة العالمية العدد ١٠٠ الكويت في مايو عام ٢٠٠٠م.
٤٦ – راجع جلال أمين : ماذا حدث للمصريين ؟ تطور المجتمع المصري فى نصف قرن ١٩٤٥ – ١٩٩٥ دار الهلال ، ص ٢٨١ – ٢٩١ عام ١٩٩٨م.

فيديريكو جارثيا لوركا . . ابن الهزيمة . .!

د . طلعت شاهين*

الهزائم الكبرى التى تحيق بالأمم فى لحظات ضعفها تعتبر فرصة كبرى لهدم البناء القديم المتداعى وبناء المستقبل على أسس صحيحة، وإزالة الركام الذى تخلفه هذه الهزائم بكل معانيها المختلفة، من أفكار وأشخاص ومؤسسات كانت قائمة وقت وقوع الكارثة، لأن هذه لحظة بعث جديد، وليست وقتا للبكاء على الأطلال، لحظة الهزائم الكبري مناسبة تماماً ليعبر جيل جديد على جسد الجيل القديم حتى يبدأ البناء صحيحاً لا علل فيه، أو كما قال المفكر الأسبانى «خوسيه ماريا خوفر» بعد كارثة هزيمة أسبانيا فى الحرب الكوبية، وخروجها النهائى من امبراطوريتها فى بلاد العالم الجديد: «هزيمة ١٨٩٨ كانت لحظة مناسبة تماماً لإعادة إحلال الأجيال، وتجديد دماء الأمة»... «لقد جاءت بعد هذه الكارثة- البرجوازية المتوسطة التى أصبحت على خلاف مع النظام القائم، ولها رؤيتها الخاصة فى مسألة تصحيح الأوضاع السياسية والأيدلوجية السائدة».

رغم أن هذه الطبقة البرجوازية الصاعدة في أسبانيا وقت كارثة كوبا التى حلت بها قبل عامين فقط من بداية القرن العشرين لم تكن تخلو من عيوب تشوب تكوينها بحكم التراث الذى اعتنقته وتربت عليه، إلا أنها كانت الطبقة المرشحّة تاريخياً لعبور الأزمة نظراً لاقترابها من الواقع الاجتماعى للوطن، وإمساكها بزمام الأمور فى تلك اللحظة الحالكة، لذلك قدمت هذه الطبقة للوطن دفعة جديدة من المثالية.

من هنا بدأت أسبانيا المعاصرة تدخل الأزمة الخاصّة بها نتيجة للكارثة الوطنية التاريخية التى حلت بها، وحوّلتها من «الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس» إلى بلد محطم لا يملك حاضراً، ومستقبله تغممه سحابات المجد الغاربة، حيث بدأ مفكرو الأمة على اختلاف اتجاهاتهم فى العمل بحثاً عن مخرج حقيقى من هذه الأزمة، مع استبعاد كامل لأيّ مسكنات يمكن أن تهيل التراب على جراح مفتوحة، فتصيب جسد الأمة بقروح لا تشفي.

ولأن التغيير التاريخي في حياة أية أمة كبرى لا يتم بين يوم وليلة، أو يجري مصادفة دون أن يبذل أحد الجهد من أجل دفع التحول التاريخى، فإن الحتمية كتبت لأسبانيا مولد ثلاثة من كبار كتابها المؤثرين فى العام نفسه الذى

* كاتب مصري مقيم في إسبانيا

فيديريكو جارثيا لوركا . . ابن الهزيمة . .!

د . طلعت شاهين*

الهزائم الكبرى التى تحيق بالأمم فى لحظات ضعفها تعتبر فرصة كبرى لهدم البناء القديم المتداعى وبناء المستقبل على أسس صحيحة، وإزالة الركام الذى تخلفه هذه الهزائم بكل معانيها المختلفة، من أفكار وأشخاص ومؤسسات كانت قائمة وقت وقوع الكارثة، لأن هذه لحظة بعث جديد، وليست وقتا للبكاء على الأطلال، لحظة الهزائم الكبري مناسبة تماماً ليعبر جيل جديد على جسد الجيل القديم حتى يبدأ البناء صحيحاً لا علل فيه، أو كما قال المفكر الأسبانى «خوسيه ماريا خوفر» بعد كارثة هزيمة أسبانيا فى الحرب الكوبية، وخروجها النهائى من امبراطوريتها فى بلاد العالم الجديد: «هزيمة ١٨٩٨ كانت لحظة مناسبة تماماً لإعادة إحلال الأجيال، وتجديد دماء الأمة»... «لقد جاءت بعد هذه الكارثة- البرجوازية المتوسطة التى أصبحت على خلاف مع النظام القائم، ولها رؤيتها الخاصة فى مسألة تصحيح الأوضاع السياسية والأيدلوجية السائدة».

رغم أن هذه الطبقة البرجوازية الصاعدة في أسبانيا وقت كارثة كوبا التى حلت بها قبل عامين فقط من بداية القرن العشرين لم تكن تخلو من عيوب تشوب تكوينها بحكم التراث الذى اعتنقته وتربت عليه، إلا أنها كانت الطبقة المرشحّة تاريخياً لعبور الأزمة نظراً لاقترابها من الواقع الاجتماعى للوطن، وإمساكها بزمام الأمور فى تلك اللحظة الحالكة، لذلك قدمت هذه الطبقة للوطن دفعة جديدة من المثالية.

من هنا بدأت أسبانيا المعاصرة تدخل الأزمة الخاصّة بها نتيجة للكارثة الوطنية التاريخية التى حلت بها، وحوّلتها من «الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس» إلى بلد محطم لا يملك حاضراً، ومستقبله تغممه سحابات المجد الغاربة، حيث بدأ مفكرو الأمة على اختلاف اتجاهاتهم فى العمل بحثاً عن مخرج حقيقى من هذه الأزمة، مع استبعاد كامل لأيّ مسكنات يمكن أن تهيل التراب على جراح مفتوحة، فتصيب جسد الأمة بقروح لا تشفي.

ولأن التغيير التاريخي في حياة أية أمة كبرى لا يتم بين يوم وليلة، أو يجري مصادفة دون أن يبذل أحد الجهد من أجل دفع التحول التاريخى، فإن الحتمية كتبت لأسبانيا مولد ثلاثة من كبار كتابها المؤثرين فى العام نفسه الذى

* كاتب مصري مقيم في إسبانيا

حلت فيه الكارثة، ليكونوا شهوداً علي الجهود المبذولة للخروج من المأزق، ثم مشاركين فى صناعة الخطوات الأولى نحو العافية.

فى عام ١٨٩٨ ولد «فيثنتى اليكساندره» و«داماسو ألونسو»و«فيديريكو جارثيا لوركا»، ليحفظ التاريخ لهم معاً دوراً مهماً فى تشكيل عقل تلك الأمة المنهارة، فكونوا مع عدد آخر من أبرز المفكرين والكتاب البذرة الأولى لما أطلق عليه المؤرخون ونقاد الأدب اسم: «جيل ٢٧»، أعد التاريخ كلاً منهم لدور خاص به، رغم مسيرتهم المشتركة منذ البدايات الأولي لهم.

«فيثنتى أليكساندرى» شارك فى وضع اللبنات الأولى لذلك الجيل شاعراً ومفكرا، وتوج التاريخ مسيرته بجائزة «نوبل للآداب عام ١٩٧٧»، بعد أن ترك بصماته شاعراً علي الأجيال التالية التى حرمها المنفى والاغتيال من التعرف على غيره من شعراء أسبانيا الجمهورية.

«داماسو ألونسو» كان دوره مهماً في تغيير التفكير النقدى في أسبانيا، منطلقاً من إعادة تحليل شعر العصر الذهبي، وبشكل خاص شعر «جونجورا»، فكان تحليله بمثابة تشكيل روحى جديد للجيل انطلاقاً من عظمة لحظة تاريخية ماضية، ورغم أنه كتب شعراً لا يقل أهمية عن شعر غيره من أبناء هذا الجيل، فكان كتابه الشعرى «أبناء الغضب» من أكثر الكتب تأثيراً على الجيل الحالى، وعمله أستاذاً فى الجامعة كان نوعاً من التعليم المباشر لأجيال عديدة، إلا أن التاريخ يحتفظ له بمكان بارز كمفكر ناقد.

أما الدور الأكثر مأساوية احتفظ به التاريخ للشاعر الخالد «فيدريكو جارثيا لوركا»،الذى لم تنجح الأجيال التالية في تخطّي إنجازاته، سواء فى الشعر أو المسرح أو الموسيقى، والفنون التشكيلية، والدراسات الشعبية أيضاً.

رغم أن «فيثنتى أليكساندرى» و«داماسو ألونسو» ظلا على قيد الحياة لتتعرف عليهما الأجيال التالية، ومارسا دوراً مهماً فى الحياة العامة رغم وطأة الدكتاتورية، إلا أنّ «فيديركو جارثيا لوركا» الذى اغتالته الفاشية حيث «قتل» فى الثامنة والثلاثين من عمره كانت علاقته بالأجيال الجديدة هي الأقوى، والأكثر حميمية، والأكثر بقاء، وكما يقول أحد الكتاب المعاصرين: «تحدثت مع أليكساندرى، وكاتبت داماسو ألونسو، إلا أن لوركا كان الأقرب إلى من الجميع، لأننى وجدته بين يدي في هيئة كلام مكتوب، واحتفظت به في مكتبتى في ركن بارز فكان كمن يسكن معي، ولم يكن مطلوباً أن أبذل جهدا للبحث عنه والحديث معه».

لذلك فإن الحديث عن قيام الأمة الأسبانية من بين حطام الكارثة، واستردادها للعافية رغم العثرات المتتالية منذ هزيمة ١٨٩٨ في معركة كوبا، إلى قيام دكتاتورية «بريمو دي ريبيرا» إلى قيام الجمهورية الثانية، ثم الحرب الأهلية الطاحنة التي أتت على ما تبقى من حطام تلك الأمة (١٩٣٦-١٩٣٩)، وما تلاها من دكتاتورية الجنرال فرانكو طوال ما يقرب من أربعين عاماً والتى لم تنته إلا بموته فى العشرين من نوفمبر عام ١٩٧٥، لا بد وأن يذكر المؤرخون «فيديريكو جارثيا لوركا» كرمز لهذه الصحوة المعاصرة، رغم كل محاولات اليمين من أجل قتله مرات ومرات بعد إعدامه الأول عام ١٩٣٦.

حلت فيه الكارثة، ليكونوا شهوداً علي الجهود المبذولة للخروج من المأزق، ثم مشاركين فى صناعة الخطوات الأولى نحو العافية.

فى عام ١٨٩٨ ولد «فيثنتى اليكساندره» و«داماسو ألونسو»و«فيديريكو جارثيا لوركا»، ليحفظ التاريخ لهم معاً دوراً مهماً فى تشكيل عقل تلك الأمة المنهارة، فكونوا مع عدد آخر من أبرز المفكرين والكتاب البذرة الأولى لما أطلق عليه المؤرخون ونقاد الأدب اسم: «جيل ٢٧»، أعد التاريخ كلاً منهم لدور خاص به، رغم مسيرتهم المشتركة منذ البدايات الأولي لهم.

«فيثنتى أليكساندرى» شارك فى وضع اللبنات الأولى لذلك الجيل شاعراً ومفكرا، وتوج التاريخ مسيرته بجائزة «نوبل للآداب عام ١٩٧٧»، بعد أن ترك بصماته شاعراً علي الأجيال التالية التى حرمها المنفى والاغتيال من التعرف على غيره من شعراء أسبانيا الجمهورية.

«داماسو ألونسو» كان دوره مهماً في تغيير التفكير النقدى في أسبانيا، منطلقاً من إعادة تحليل شعر العصر الذهبي، وبشكل خاص شعر «جونجورا»، فكان تحليله بمثابة تشكيل روحى جديد للجيل انطلاقاً من عظمة لحظة تاريخية ماضية، ورغم أنه كتب شعراً لا يقل أهمية عن شعر غيره من أبناء هذا الجيل، فكان كتابه الشعرى «أبناء الغضب» من أكثر الكتب تأثيراً على الجيل الحالى، وعمله أستاذاً فى الجامعة كان نوعاً من التعليم المباشر لأجيال عديدة، إلا أن التاريخ يحتفظ له بمكان بارز كمفكر ناقد.

أما الدور الأكثر مأساوية احتفظ به التاريخ للشاعر الخالد «فيدريكو جارثيا لوركا»،الذى لم تنجح الأجيال التالية في تخطّي إنجازاته، سواء فى الشعر أو المسرح أو الموسيقى، والفنون التشكيلية، والدراسات الشعبية أيضاً.

رغم أن «فيثنتى أليكساندرى» و«داماسو ألونسو» ظلا على قيد الحياة لتتعرف عليهما الأجيال التالية، ومارسا دوراً مهماً فى الحياة العامة رغم وطأة الدكتاتورية، إلا أنّ «فيديركو جارثيا لوركا» الذى اغتالته الفاشية حيث «قتل» فى الثامنة والثلاثين من عمره كانت علاقته بالأجيال الجديدة هي الأقوى، والأكثر حميمية، والأكثر بقاء، وكما يقول أحد الكتاب المعاصرين: «تحدثت مع أليكساندرى، وكاتبت داماسو ألونسو، إلا أن لوركا كان الأقرب إلى من الجميع، لأننى وجدته بين يدي في هيئة كلام مكتوب، واحتفظت به في مكتبتى في ركن بارز فكان كمن يسكن معي، ولم يكن مطلوباً أن أبذل جهدا للبحث عنه والحديث معه».

لذلك فإن الحديث عن قيام الأمة الأسبانية من بين حطام الكارثة، واستردادها للعافية رغم العثرات المتتالية منذ هزيمة ١٨٩٨ في معركة كوبا، إلى قيام دكتاتورية «بريمو دي ريبيرا» إلى قيام الجمهورية الثانية، ثم الحرب الأهلية الطاحنة التي أتت على ما تبقى من حطام تلك الأمة (١٩٣٦-١٩٣٩)، وما تلاها من دكتاتورية الجنرال فرانكو طوال ما يقرب من أربعين عاماً والتى لم تنته إلا بموته فى العشرين من نوفمبر عام ١٩٧٥، لا بد وأن يذكر المؤرخون «فيديريكو جارثيا لوركا» كرمز لهذه الصحوة المعاصرة، رغم كل محاولات اليمين من أجل قتله مرات ومرات بعد إعدامه الأول عام ١٩٣٦.

حياة الشاعر «فيديريكو جارثيا لوركا» كانت مزيجاً من الإبداع والعنف والصمت، ولكن الشهرة فى النهاية كانت مرتبطة باسمه، فى إبداعه كان كل كتاب جديد يصدر له حدثاً شهيرا، كتابه الشعرى «أغاني غجرية» تم طبعه إبان حياته القصيرة- تم إعدامه وهو لم يتجاوز الثامنة والثلاثين- أكثر من سبع طبعات مختلفة، ومسرحيته «يرما» كانت عام ١٩٣٥ أشهر مسرحية إسبانية على الإطلاق.

كان لوركا مثيراً طوال مراحل متعددة، عندما كان على قيد الحياة كان نشاطه الفنّي فى أحيان كثيرة سبباً فى الشهرة إعجاباً التى تطارده رغم أنفه، أو تأتيه دون أن يدعوها. بدأ موسيقياً يحفظ تراثاً عالمياً من الموسيقى الكلاسيكية يعجز من كان في سنّه عن فهمه، إلي جوار ذاكرة ضخمة من الموسيقي والأغاني الشعبية الأندلسية، التي كانت فى رأيه التعبير الخالد عن قلب أسبانيا النابض الحقيقي، فكان معروفا بين طلاب جامعة غرناطة ومنتديات المدينة باسم «الموسيقي»، وحتى بعد صدور كتابه الشعري الأول في غرناطة وهو لم يتجاوز العشرين عمره، كان يشير إليه الجميع باسم «الموسيقي الذي يحب الشعر».

عندما وجه طاقته الإبداعية لكتابة الشعر كان مدعاة للإعجاب والتقدير، وفي المسرح كانت الصدفة تضع بين ممثليه وممثلاته شخصيات شهيرة معجبة بكتاباته، وتتقدم لأداء الأدوار التى كتبها ولو مجاناً وبلا مقابل سوى المشاركة فى عمل من إبداع لوركا، فتجذب المزيد من المعجبين لذلك المبدع الذي لا يسعى للشهرة، بل تسعى الشهرة إليه كما كانت تسعى إليه المشاكل، كما حدث في مسرحية «يرما» التى قامت ببطولتها الفنانة «مارجريتا شيرجو»، التى كانت على علاقة حميمة مع رئيس الجمهورية الأسبانية آنذاك «مانويل أثانيا»، ذلك المفكر الأديب الذى خدعته السياسة، فقد كان دورها وعلاقتها برئيس الجمهورية سبباً فى أن يكون لوركا وأعماله الفنيّة هدفاً لهجوم اليمين المتطرف، كما كانت علاقته بزوج شقيقته «عمدة غرناطة» فى العهد الجمهورى سبباً فى اغتياله، كما يقولون رغم أن حقيقة اغتياله وأسبابها لا تزال أسرارها غامضة حتى الآن، رغم أنه لم يكن عضواً نشطاً فى أى من الأحزاب التى كانت تعج بها الحياة السياسية فى الفترة السابقة على الحرب الأهلية.

في عام ١٩٣٦ كان فيديريكو جارثيا لوركا الشاعر الأسبانى الأكثر شهرة، تمت ترجمة مختارات من أشعاره إلى اللغة الفرنسية، وكتابه «أغاني غجرية» صدر بترجمة إنجليزية، وتم عرض مسرحياته فى عدد كبير من المسارح الأوروبية والأميركية، وكانت مسرحيته «أعراس الدم» تعرض في نيويورك عام ١٩٣٥.

علي الرغم من كل هذه الشهرة فإن نقاد الأدب الإسبان يرون في لوركا شاعراً كبيراً و«معلما رديئاً»، في رأيهم أعماله الإبداعية قمّة خاصة لا تصلح قاعدة لصنع أعمال مقلّدة، بعد أن ثبت فشل الكثير من الأعمال التى حاول أصحابها إبداعها على منوال إبداعات لوركا الشعرية، ويعزو النقاد فشل المقلدين إلى أنّ أعمال لوركا الشعرية لا تصلح للتقليد، ولكنها تصلح فقط

حياة الشاعر «فيديريكو جارثيا لوركا» كانت مزيجاً من الإبداع والعنف والصمت، ولكن الشهرة فى النهاية كانت مرتبطة باسمه، فى إبداعه كان كل كتاب جديد يصدر له حدثاً شهيرا، كتابه الشعرى «أغاني غجرية» تم طبعه إبان حياته القصيرة– تم إعدامه وهو لم يتجاوز الثامنة والثلاثين– أكثر من سبع طبعات مختلفة، ومسرحيته «يرما» كانت عام ١٩٣٥ أشهر مسرحية إسبانية على الإطلاق.

كان لوركا مثيراً طوال مراحل متعددة، عندما كان على قيد الحياة كان نشاطه الفنّي فى أحيان كثيرة سبباً فى الشهرة إعجاباً التى تطارده رغم أنفه، أو تأتيه دون أن يدعوها. بدأ موسيقياً يحفظ تراثاً عالمياً من الموسيقى الكلاسيكية يعجز من كان في سنّه عن فهمه، إلي جوار ذاكرة ضخمة من الموسيقي والأغاني الشعبية الأندلسية، التي كانت فى رأيه التعبير الخالد عن قلب أسبانيا النابض الحقيقي، فكان معروفا بين طلاب جامعة غرناطة ومنتديات المدينة باسم «الموسيقي»، وحتى بعد صدور كتابه الشعري الأول في غرناطة وهو لم يتجاوز العشرين عمره، كان يشير إليه الجميع باسم «الموسيقي الذي يحب الشعر».

عندما وجه طاقته الإبداعية لكتابة الشعر كان مدعاة للإعجاب والتقدير، وفي المسرح كانت الصدفة تضع بين ممثليه وممثلاته شخصيات شهيرة معجبة بكتاباته، وتتقدم لأداء الأدوار التى كتبها ولو مجاناً وبلا مقابل سوى المشاركة فى عمل من إبداع لوركا، فتجذب المزيد من المعجبين لذلك المبدع الذي لا يسعى للشهرة، بل تسعى الشهرة إليه كما كانت تسعى إليه المشاكل، كما حدث في مسرحية «يرما» التى قامت ببطولتها الفنانة «مارجريتا شيرجو»، التى كانت على علاقة حميمة مع رئيس الجمهورية الأسبانية آنذاك «مانويل أثانيا»، ذلك المفكر الأديب الذى خدعته السياسة، فقد كان دورها وعلاقتها برئيس الجمهورية سبباً فى أن يكون لوركا وأعماله الفنيّة هدفاً لهجوم اليمين المتطرف، كما كانت علاقته بزوج شقيقته «عمدة غرناطة» فى العهد الجمهورى سبباً فى اغتياله، كما يقولون رغم أن حقيقة اغتياله وأسبابها لا تزال أسرارها غامضة حتى الآن، رغم أنه لم يكن عضواً نشطاً فى أى من الأحزاب التى كانت تعج بها الحياة السياسية فى الفترة السابقة على الحرب الأهلية.

في عام ١٩٣٦ كان فيديريكو جارثيا لوركا الشاعر الأسبانى الأكثر شهرة، تمت ترجمة مختارات من أشعاره إلى اللغة الفرنسية، وكتابه «أغاني غجرية» صدر بترجمة إنجليزية، وتم عرض مسرحياته فى عدد كبير من المسارح الأوروبية والأميركية، وكانت مسرحيته «أعراس الدم» تعرض في نيويورك عام ١٩٣٥.

علي الرغم من كل هذه الشهرة فإن نقاد الأدب الإسبان يرون في لوركا شاعراً كبيراً و«معلما رديئاً»، في رأيهم أعماله الإبداعية قمّة خاصة لا تصلح قاعدة لصنع أعمال مقلّدة، بعد أن ثبت فشل الكثير من الأعمال التى حاول أصحابها إبداعها على منوال إبداعات لوركا الشعرية، ويعزو النقاد فشل المقلدين إلى أنّ أعمال لوركا الشعرية لا تصلح للتقليد، ولكنها تصلح فقط

لتثقيف شعراء يملكون موهبة خاصة، لأنّ صوره الشعرية عميقة، وتشكيلها الخارجيّ له جذوره التي تتعدى الكلمات والحروف التي تكوّنها، إنها صور تخفي خلفها من المعانى ما يستعصى على التقليد، ورموزها لا بد من فهمها عبر الأذن إضافة إلى قراءة العين، والشحنة العاطفية مضفرة فى تركيب القصيدة الهندسى، تماماً كاللحم المحيط بالعظام.

ديوانه الشهير «أغانى غجرية» أوضح مثال على فشل التقليد الذى حاوله بعض الكتاب الأسبان للسير علي طريق لوركا الشعرى، رغم أن بعضهم كانت موهبته كبيرة، ويعزو النقاد هذا الفشل إلى أن «ظاهر أشعار أغانى غجرية فلكلورية، ومن تعاملوا معها كمثال لم ينتبهوا إلى ما تخفيه تلك الأغانى من أساطير خاصة تصلح للاستمتاع والفهم فقط، ولا تصلح للتقليد».

إذا كانت الحرب الأهلية مأساة شعب أسبانيا كلّه، فإنها كانت مأساة خاصة للشاعر الكبير «فدريكو جارثيا لوركا» الذى كان أبرز ضحاياها، وأسرار اغتياله يحوطها الكثير من الغموض، وهناك مئات الكتب تناولت هذه المأساة الخاصة بشاعر غرناطة، لكنها لم تتفق على كشف الغموض الذى أحاط بهذا الحادث المفجع، بل أن الغموض الذى أحاط بمصرع لوركا كان له وقع الغموض فى الشعر العظيم الذى تركه إرثاً للعالم، زاد هذا الحدث من قيمة هذا الشعر، فيما كان لإبداعه الشعرى أيضاً تأثيره على من حاولوا كشف غموض موته، ومنح كل منهما للآخر مزيداً من الجاذبية الفنية.

بعد الحرب الأهلية تحول فيديريكو جارثيا لوركا إلى لعنة تطارد نظام الجنرال فرانكو، ولا ينجو من تلك اللعنة من شارك فى اغتياله أو لم يشارك، لذلك كانت أشعاره ممنوعة، وتتداول بين شباب القراء بشكل سرى، وكان على الناشرين أن يتحايلوا على الرقابة لإصدار بعض أعماله، ولا يكاد يذكر تاريخ النشر الأسبانى سوى طبعة واحدة من «ديوان تاماريت» صدرت عام ١٩٤٨، أمّا طبعة أعماله الكاملة كانت تتداول بشكل سرى، وتتطلب تواطأ خاصاً بين القارىء العاشق لها وباعة الكتب المتخصصين.

لكل هذه الأسباب كان لصدور أعماله الكاملة عام ١٩٥٤ نجاح منقطع النظير، لكن الملفت للنظر أن الأجزاء التى تتناول الجانب الاجتماعى من أشعاره كانت الأقل نجاحاً، رغم أن تلك الفترة كانت حافلة بالنضال السياسى والاجتماعى الذى كان الشعر أحد أسلحته الرئيسية، لكن قصائده الأكثر غموضاً، أو التى يصنفها النقاد بأنها «سوريالية» كانت الأكثر نجاحاً، والقراء أقبلوا عليها بشكل كبير، وتركت أثراً فى عدد كبير من الشعراء المعاصرين، منهم علي سبيل المثال: خوسيه أنخيل فالنتى، وكلاوديو رودريجيث، وخوسيه ييرو، وهم أبرز شعراء الجيل الذى يطلق عليه النقاد «جيل ما بعد الحرب».

وكانت «يرما» مسرحيته الأكثر شهرة فى إسبانيا وذلك على خلاف الاعتقاد السائد الذى يضع «أعراس الدم» و«بيت برناردا ألبا» فى مقدمة أعماله المسرحية، خاصة العرض الذى قدمه المخرج «فيكتور جارثيا» لمسرحية «يرما» عام ١٩٦٠، وعندما تم اكتشاف مسرحيته

لتثقيف شعراء يملكون موهبة خاصة، لأنّ صوره الشعرية عميقة، وتشكيلها الخارجيّ له جذوره التي تتعدى الكلمات والحروف التي تكوّنها، إنها صور تخفي خلفها من المعانى ما يستعصى على التقليد، ورموزها لا بد من فهمها عبر الأذن إضافة إلى قراءة العين، والشحنة العاطفية مضفرة فى تركيب القصيدة الهندسى، تماماً كاللحم المحيط بالعظام.

ديوانه الشهير «أغانى غجرية» أوضح مثال على فشل التقليد الذى حاوله بعض الكتاب الأسبان للسير علي طريق لوركا الشعرى، رغم أن بعضهم كانت موهبته كبيرة، ويعزو النقاد هذا الفشل إلى أن «ظاهر أشعار أغانى غجرية فلكلورية، ومن تعاملوا معها كمثال لم ينتبهوا إلى ما تخفيه تلك الأغانى من أساطير خاصة تصلح للاستمتاع والفهم فقط، ولا تصلح للتقليد».

إذا كانت الحرب الأهلية مأساة شعب أسبانيا كلّه، فإنها كانت مأساة خاصة للشاعر الكبير «فدريكو جارثيا لوركا» الذى كان أبرز ضحاياها، وأسرار اغتياله يحوطها الكثير من الغموض، وهناك مئات الكتب تناولت هذه المأساة الخاصة بشاعر غرناطة، لكنها لم تتفق على كشف الغموض الذى أحاط بهذا الحادث المفجع، بل أن الغموض الذى أحاط بمصرع لوركا كان له وقع الغموض فى الشعر العظيم الذى تركه إرثاً للعالم، زاد هذا الحدث من قيمة هذا الشعر، فيما كان لإبداعه الشعرى أيضاً تأثيره على من حاولوا كشف غموض موته، ومنح كل منهما للآخر مزيداً من الجاذبية الفنية.

بعد الحرب الأهلية تحول فيديريكو جارثيا لوركا إلى لعنة تطارد نظام الجنرال فرانكو، ولا ينجو من تلك اللعنة من شارك فى اغتياله أو لم يشارك، لذلك كانت أشعاره ممنوعة، وتتداول بين شباب القراء بشكل سرى، وكان على الناشرين أن يتحايلوا على الرقابة لإصدار بعض أعماله، ولا يكاد يذكر تاريخ النشر الأسبانى سوى طبعة واحدة من «ديوان تاماريت» صدرت عام ١٩٤٨، أمّا طبعة أعماله الكاملة كانت تتداول بشكل سرى، وتتطلب تواطأ خاصاً بين القارىء العاشق لها وباعة الكتب المتخصصين.

لكل هذه الأسباب كان لصدور أعماله الكاملة عام ١٩٥٤ نجاح منقطع النظير، لكن الملفت للنظر أن الأجزاء التى تتناول الجانب الاجتماعى من أشعاره كانت الأقل نجاحاً، رغم أن تلك الفترة كانت حافلة بالنضال السياسى والاجتماعى الذى كان الشعر أحد أسلحته الرئيسية، لكن قصائده الأكثر غموضاً، أو التى يصنفها النقاد بأنها «سوريالية» كانت الأكثر نجاحاً، والقراء أقبلوا عليها بشكل كبير، وتركت أثراً فى عدد كبير من الشعراء المعاصرين، منهم علي سبيل المثال: خوسيه أنخيل فالنتى، وكلاوديو رودريجيث، وخوسيه ييرو، وهم أبرز شعراء الجيل الذى يطلق عليه النقاد «جيل ما بعد الحرب».

وكانت «يرما» مسرحيته الأكثر شهرة فى إسبانيا وذلك على خلاف الاعتقاد السائد الذى يضع «أعراس الدم» و«بيت برناردا ألبا» فى مقدمة أعماله المسرحية، خاصة العرض الذى قدمه المخرج «فيكتور جارثيا» لمسرحية «يرما» عام ١٩٦٠، وعندما تم اكتشاف مسرحيته

الأخيرة «الجمهور» التى كانت مجهولة حتي وقت قريب، وتم عرضها أولاً فى إيطاليا، ثم بعد ذلك على المسرح الوطنى فى مدريد عام ١٩٨٨ من إخراج «لويس باسكوال»، كانت حدثاً كبيراً فى دنيا المسرح فى أوروبا، واعتبر معظم النقاد عرضها دلالة على حيوية الديمقراطية التى استعادتها أسبانيا بعد رحيل الجنرال فرانكو بسنوات قليلة، لأن الثقافة الديمقراطية لا تكتمل فى أسبانيا إلا باستعادة تراث لوركا الفنى، لذلك لم يختلف أحد على تشكيل اللجنة التى كونتها الحكومة «اليمينية»، التى تولت الإشراف على الاحتفال بمئويّة مولد الشاعر التي أطلقوا عليها «عام لوركا المقدس»، والتى كان يرأسها شرفياً الملك خوان كارلوس شخصياً، وضمت وزير الخارجية ووزيرة الثقافة آنذاك، وأبديا حماساً كبيراً لإنجاح هذه الاحتفالات التى امتدت بطوال عام ١٩٩٨، رغم انتمائها إلى الحكومة اليمينية التي تعتبر الوريث الشرعي لتراث «الجنرال فرانكو» الدكتاتور الذي حكم أسبانيا طوال أربعين عاماً، وكان طريقه إلى الحكم مخضباً بدماء الشاعر العظيم.

الملفت للنظر أن أسبانيا وضعت الاحتفال باسم لوركا شعاراً، لكنها فى الحقيقة كانت تحتفل بأكبر هزيمة فى تاريخها المعاصر، وكأنها تحاول من خلال الاحتفال بهذه الهزيمة أن تستكشف المناطق الخبيئة لتلك الهزيمة، التى لم يتم استغلالها بعد لبناء حاضر مزدهر، ومستقبل أفضل، لأنّ مفكّري أسبانيا المعاصرين يؤمنون أن بناء المستقبل لا يتم بإزالة آثار الكارثة، بقدر ما يتم بمعرفة الأسباب ا لحقيقية التى أدت إلى هذه الكارثة، لأن «إزالة آثار الكارثة» شعار كاذب، ولا يمكن أن يؤدّي إلى استشراف مستقبل حقيقى ما لم يتم التعرف على الأسباب التى أدت إلى تلك الكارثة، والمحاسبة التاريخية للمسؤولين عنها.

لذلك فإنّ الاحتفال بمئوية ميلاد لوركا كان احتفالاً مزدوجاً، الاحتفال بمولد عبقرى، والاحتفال بالخطوات الأولى نحو إعادة الروح فى حياة الأمة الأسبانية نحو بناء حقيقي لتاريخها المعاصر، من هنا يمكننا أن نقول أن «لوركا هو ابن الهزيمة»، ونتاجها المعبر عن شعب كان يتطلع نحو الخروج من تلك الهزيمة إلى مستقبل أرحب على جميع المستويات، وكان لوركا صوتها المعبر خلال البحث عن ذلك المستقبل.■

الأخيرة «الجمهور» التى كانت مجهولة حتي وقت قريب، وتم عرضها أولاً فى إيطاليا، ثم بعد ذلك على المسرح الوطنى فى مدريد عام ١٩٨٨ من إخراج «لويس باسكوال»، كانت حدثاً كبيراً فى دنيا المسرح فى أوروبا، واعتبر معظم النقاد عرضها دلالة على حيوية الديمقراطية التى استعادتها أسبانيا بعد رحيل الجنرال فرانكو بسنوات قليلة، لأن الثقافة الديمقراطية لا تكتمل فى أسبانيا إلا باستعادة تراث لوركا الفنى، لذلك لم يختلف أحد على تشكيل اللجنة التى كونتها الحكومة «اليمينية»، التى تولت الإشراف على الاحتفال بمئويّة مولد الشاعر التي أطلقوا عليها «عام لوركا المقدس»، والتى كان يرأسها شرفياً الملك خوان كارلوس شخصياً، وضمت وزير الخارجية ووزيرة الثقافة آنذاك، وأبديا حماساً كبيراً لإنجاح هذه الاحتفالات التى امتدت بطوال عام ١٩٩٨، رغم انتمائها إلى الحكومة اليمينية التي تعتبر الوريث الشرعي لتراث «الجنرال فرانكو» الدكتاتور الذي حكم أسبانيا طوال أربعين عاماً، وكان طريقه إلى الحكم مخضباً بدماء الشاعر العظيم.

الملفت للنظر أن أسبانيا وضعت الاحتفال باسم لوركا شعاراً، لكنها فى الحقيقة كانت تحتفل بأكبر هزيمة فى تاريخها المعاصر، وكأنها تحاول من خلال الاحتفال بهذه الهزيمة أن تستكشف المناطق الخبيئة لتلك الهزيمة، التى لم يتم استغلالها بعد لبناء حاضر مزدهر، ومستقبل أفضل، لأنّ مفكّري أسبانيا المعاصرين يؤمنون أن بناء المستقبل لا يتم بإزالة آثار الكارثة، بقدر ما يتم بمعرفة الأسباب ا لحقيقية التى أدت إلى هذه الكارثة، لأن «إزالة آثار الكارثة» شعار كاذب، ولا يمكن أن يؤدّي إلى استشراف مستقبل حقيقى ما لم يتم التعرف على الأسباب التى أدت إلى تلك الكارثة، والمحاسبة التاريخية للمسؤولين عنها.

لذلك فإنّ الاحتفال بمئوية ميلاد لوركا كان احتفالاً مزدوجاً، الاحتفال بمولد عبقرى، والاحتفال بالخطوات الأولى نحو إعادة الروح فى حياة الأمة الأسبانية نحو بناء حقيقي لتاريخها المعاصر، من هنا يمكننا أن نقول أن «لوركا هو ابن الهزيمة»، ونتاجها المعبر عن شعب كان يتطلع نحو الخروج من تلك الهزيمة إلى مستقبل أرحب على جميع المستويات، وكان لوركا صوتها المعبر خلال البحث عن ذلك المستقبل.■

مختار من الأشعار التي تم اكتشافها للشاعر «فيديريكو جارثيا لوركا» خلال السنوات العشر الأخيرة

الألبوم الأبيض

١- الكرز المزهر

فى شهرِ مارس
تذهبين إِلى القمر
وتتركينَ ظلك هنا

***

تصيرُ المروجُ
وهميةً،
تمطر
طيوراً ملونةً

***

أضيعُ فى غاباتك
صارخاً : «افتح يا سمسم».
أتحوّل طفلاً، يصرخ:
«افتح يا سمسم».

٢- قصيدة

علي جناحيكِ
ينامُ القمرُ المكتمل.

***

بلا غابةٍ
بلا قيثارة.

***

فى رِيشكِ
ينزلقُ الليلُ.

***

بلا لحم أشقر
بلا قبلات.

***

تسحبينَ النهرَ
أمام
قارب الموتى.

٣- ابتكارات

نجومِ مِنَ الثلج

هناكَ جبالَ
تريدُ أن تكونَ
ماءً،
تبتكر نجوماً
علي سطحها.

سحِاب

هناكَ جبالٌ
تريدُ أن يكونَ لها
أجنحةِ،
تبتكرِ سحاباً
أبيض.

مختار من الأشعار التي تم اكتشافها للشاعر «فيديريكو جارثيا لوركا» خلال السنوات العشر الأخيرة

الألبوم الأبيض

١- الكرز المزهر

فى شهرِ مارس
تذهبين إِلى القمر
وتتركين ظلك هنا

***

تصيرُ المروجُ
وهميةً،
تمطر
طيوراً ملونةً

***

أضيعُ فى غاباتك
صارخاً : «افتح يا سمسم».
أتحوّل طفلاً، يصرخ:
«افتح يا سمسم».

٢- قصيدة

علي جناحيكِ
ينام القمرُ المكتمل.

***

بلا غابةٍ
بلا قيثارة.

***

فى ريشكِ
ينزلق الليلَ.

***

بلا لحم أشقر
بلا قبلات.

***

تسحبين النهرَ
أمام
قارب الموتى.

٣- ابتكارات

نجوِم مِن الثلج

هناكِ جبال
تريدُ أن تكونَ
ماءً،
تبتكر نجوماً
علي سطحها.

سحاب

هناكِ جبالٌ
تريدُ أن يكونَ لها
أجنحة،
تبتكرِ سحاباً
أبيض.

جليدِ

تتعريٍ
إِلنجوِم
تسقطِ على الحقلِ
قمصَاناً من النجوم،
مؤكدٍ سيكون هناك غرباء،
صراخ
يبحث عن المكان الميت،
الذى انداح فيه الماء.

إشراقة الصباح

تظهِر
غرة النهار.
!!!
غرةٌ بيضاء
لديكِ من ذهب.
***
غرةٌ من ذهب
لديكِ شارد.■

جليدِ

تتعريِ
النجومِ
تسقط على الحقلِ
قمصاناً من النجوم،
مؤكد سيكون هناك غرباء،
صراخ
يبحث عن المكان الميت،
الذى انداح فيه الماء.

إشراقة الصباح

تظهر
غرة النهار.
!!!
غرةٌ بيضاء
لديكِ من ذهب.
***
غرةٌ من ذهب
لديكِ شارد.■

قصيدة لـ«ألويسا الميتة»

(كلمات تلميذ)

«**كنت** مِيتة،
كما يحدث في نهاية
كل الروايات.
لم أكن أحبك، يا ألويسا،
كنتِ صغيرةً جداً.
مع موسيقى الربيع
الخضراء،
كنتِ تحلمينَ بي
جميلاً،
بشعرٍ مسترسل.
كنت أُقبلك أنا
دون أن أنتَبه،
بأنك لا تقولين:
«يا لها من شفاه من كرز».
أنت رومانتيكية،
تشربينَ الخلَ خفية
دون أن تدرى الجدة.
تحوّلتِ زهرةً بريةً
في الربيع،
أنا كنت عاشقاً
لأخرى.

أليس ذلك محزن؟
عاشقاً لأخرى، كنتُ أكتبُ
اسمها على الرمال.

***

عندما وصلتُ إلى بيتكِ
كنتِ مِيتةً،
ترقدين بين الشموع
وزهور الحبق،
تماماً كما فِي الروايات.
أحاطَ أطفالَ المدرسة
بقاربك،
أنت شربتِ زجاجةَ
الخلَ كلها.

***

تيلين تالان
تبكيك
الأجراسُ الطيبة
تبكيك.
تالانِ تيلين
شعرتُ في المساء
بألمٍ في الرأس.
ربما كنتِ تحلمينَ في نومك،

قصيدة لـ«ألويسا الميتة»

(كلمات تلميذ)

«**كنت** مِيتة،
كما يحدث فى نهاية
كل الروايات.
لم أكن أحبك، يا ألويسا،
كنتِ صغيرةً جداً.
مع موسيقى الربيع
الخضراء،
كنتِ تحلمينَ بى
جميلاً،
بشعرٍ مسترسل.
كنت أُقبلك أنا
دون أن أنتبه،
بأنك لا تقولين:
«يا لها من شفاه من كرز».
أنت رومانتيكية،
تشربينَ الخلَ خفية
دون أن تدرى الجدة.
تحولتِ زهرةً بريةً
فى الربيع،
أنا كنت عاشقاً
لأخرى.

أليس ذلك محزن؟
عاشقاً لأخرى، كنتُ أكتبُ
اسمها على الرمال.
***
عندما وصلتُ إلى بيتكِ
كنتِ مِيتةً،
ترقدين بين الشموع
وزهور الحبق،
تماماً كما فِي الروايات.
أحاطَ أطفالُ المدرسة
بقاريك،
أنت شربتِ زجاجةَ
الخلَ كلها.
***
تيلين تالان
تبكيك
الأجراسُ الطيبة
تبكيك.
تالان تيلين
شعرتُ فى المساء
بألمٍ فى الرأس.
ربما كنتِ تحلمينَ فى نومك،

بأنكِ «أوفيليا»
علىَ سطح بحيرةٍ زرقاء
من مياهٍ محمومة.
***
تيلين تالان
تبكيكِ
الأجراسُ الصغيرة.
تالان تيلين
تشعرين فى المساء
بألمٍ فى الرأس.

٨ أغسطس ١٩٢١

كان لدى ألويسا ألبوماً غير مكتوب، ماتت المسكينة، وأنا أكتب لها بحبر أبيض، أرجو من القراء أن يصلوا من أجل روحها، فقد قرر راعى كنيسة القسطنطينية مائة يوم من صلوات الغفران، آه، لو أنكم عرفتموها...■

بأنكِ «أوفيليا»
علىَ سطح بحيرةٍ زرقاء
من مياهٍ محمومة.

***

تيلين تالان
تبكيكِ
الأجراسُ الصغيرة.
تالان تيلين
تشعرين في المساء
بألمٍ في الرأس.

٨ أغسطس ١٩٢١

كان لدى ألويسا ألبوماً غير مكتوب، ماتت المسكينة، وأنا أكتب لها بحبر أبيض، أرجو من القراء أن يصلوا من أجل روحها، فقد قرر راعي كنيسة القسطنطينية مائة يوم من صلوات الغفران، آه، لو أنكم عرفتموها...■

قصائد إلى رفائيل ألبيرتي

أيها اللص
أُحبكَ على طريقتى
أنتَ سارقِ البحر
أنا غجرى الجبل
عاشقٌ كفَ مصرّ
بين القواقعِ والرايات
(أنتَ أشقرِ منظمة الشقر
دمك ليمون ورمل)
البيرتى
أيها الطائر الرقيق
يا ليمونة الليمونِ
فيديريكو زهرة كل الأشجار
فى ثمرة العليق السوداء
أيها اللص
أُحبكَ على طريقتى

إلى رفائيل عندما يعود طفلاً مرة أخرى

رفائيل
أغلقْ عينيكَ الآن
جاء العجوز
يا لها من لحية كثيفة
(أنظر، أنظر، أنظر، أنظر،
فكرْ فى شيءٍ آخر)
لاَ يأتى محترِساً،
سوف أطلبُ منه أن يأكل
ابنة الجارة،
يصبح بعدها قائداً
كبيراً للبحارة
أيها العجوز يمكنك أن تذهب
لا تخف، أنظر، أنظر،
«أدولفيتو سالازار»
كا يحيى جدته
هازاً ستارة النافذة
الحريرية المطرزة
لكن هيا بنا،
هل أنتَ مصابٌ بالأرق؟
غداً سوف أعطيك
أفيونةً صفراء،
هل تريد الآن قاربك الصغير
اغلق عينيك يا رفائيل،
الآن،
تعال أيها العجوز.■

قصائد إلى رفائيل ألبيرتي

أيها اللص
أُحبكَ على طريقتى
أنتَ سارقِ البحر
أنا غجرى الجبل
عاشق كفَ مصرّ
بين القواقعِ والرايات
(أنتَ أشقرٍ منظمة الشقر
دمك ليمون ورمل)
البيرتى
أيها الطائر الرقيق
يا ليمونة الليمونِ
فيديريكو زهرة كل الأشجار
فى ثمرة العليق السوداء
أيها اللص
أُحبكَ على طريقتى

إلى رفائيل عندما يعود طفلاً مرة أخرى

رفائيل
أغلقْ عينيكَ الآن
جاء العجوز
يا لها من لحية كثيفة
(أنظر، أنظر، أنظر، أنظر،
فكرَ فى شيءٍ آخر)
لاَ يأتى محترِساً،
سوف أطلبُ منه أن يأكل
ابنة الجارة،
يصبح بعدها قائداً
كبيراً للبحارة
أيها العجوز يمكنك أن تذهب
لا تخف، أنظر، أنظر،
«أدولفيتو سالازار»
كا يحيى جدته
هازاً ستارة النافذة
الحريرية المطرزة
لكن هيا بنا،
هل أنتَ مصابٌ بالأرق؟
غداً سوف أعطيك
أفيونةً صفراء،
هل تريد الآن قاربك الصغير
اغلق عينيك يا رفائيل،
الآن،
تعال أيها العجوز.■

شعر

أرممُ الرُّوحَ بطيفكِ

أشرف أبواليزيد *

أكنسُ عن أشلائي غُبارَ الموْتِ
بهواءِ نافذةٍ تفتح كلَّ صباح
في جِدار المسافة بيننا.
أصل بين النقاط التي ترَكَها المطرُ
على مرآة حياتي
لأكتبَ اسْمكِ؛ أحبكِ،
أو أرسمَ فمَكِ
طبقٍ فاكهةٍ نورانيّة.
أرمم الرِوح بطيْفكِ
وأطفىء في الجسد
شهوة الفناءِ.

● مطرٌ

في المطرِ المنهمر
لا يشعرُ أحدٌ
بقطرٍ وحيدة.

● خطوات

أعودُ إلى البيتِ الخاوي...
أدقُّ جرسَ البابِ
كي أتذكر
صدى خطواتكِ.

● قصاصات

أعودُ لأبحث
عن القصاصاتِ التي كتبنا فيها
اسْمينا
واقتسمناها سويًا،
والوردة التي جففها الغيابُ
في كرّاسةِ الحبِّ.■

* شاعر مصري

شعر

أرممُ الرُّوحَ بطيفكِ

أشرف أبواليزيد *

أكنسُ عن أشلائي غُبارَ الموْتِ
بهواءِ نافذةٍ تفتح كلَّ صباح
في جِدار المسافة بيننا.
أصل بين النقاط التي تركَها المطرُ
على مِرآة حياتي
لأكتبَ اسْمكِ؛ أحبكِ،
أو أرسمَ فمَكِ
طبقَ فاكهةٍ نورانيّة.
أرمم الرُوح بطيْفكِ
وأطفىء في الجسد
شهوة الفناءِ.

● مطرٌ

في المطرِ المنهمر
لا يشعرُ أحدٌ
بقطرٍ وحيدة.

● خطوات

أعودُ إلى البيتِ الخاوي...
أدقُّ جرسَ البابِ
كي أتذكر
صدى خطواتكِ.

● قصاصات

أعودُ لأبحث
عن القصاصاتِ التي كتبنا فيها
اسْمينا
واقتسمناها سويًا،
والوردة التي جففها الغيابُ
في كرّاسةِ الحبِّ.■

* شاعر مصري

كأنا لم نكن

نضال برقان*

كبرنا.. ربما
أو ربما هو عمر من مرّوا
ونحن نشمس الأحلام
كانوا يحملون الأرض فوق رؤوسهم
كانوا ثمانية
وكان الرمل يزهر تحت أرجلهم
وكان الصمت ينسى بينهم
- كي لا يملّون المسير-
حديثه الأطولْ.

عبرنا.. ربما
أو ربما عبرت تماثيل الرخام عيوننا
وتناسلت فينا الجمادات التي
حلمت طوال سباتها
بعبورها الأولْ.

عشقنا .. ربما
أو ربما خلطت فراشات الطفولة حلم مصباحين
كان الليل حارس نأيهم
والريح حولهما
تعبىء بالنعاس عيون وقتهما

ولمّا كان يبحث عنهما النسيان
هزّهما الندى.. فتساقطت رغباتهم
وتغلغلا ظلاهما
والفجر في منفاه قدّ قميصه الأجملْ.

نسينا.. ربما
أو ربما خانت مرايانا تفاصيل الحكاية
قد تآكلت الحروف
ولم تعد أسماؤنا أسماؤنا
اغتالت شوارعنا الجديدة خطونا
نامت خرائطنا الهجينة ملء أعيننا
ولبّانا الفراغ بوجهه الأعزلْ.

كأنا لم نكن
أو ربما كنا على العتبات
لم ندخل حدود البال
أو ننسى
صعدنا حين نادتنا الشموس
وحين نادى الجدب
لم يك غيرنا يهطلْ.■

* شاعر أردني

كأنا لم نكن

نضال برقان*

كبرنا.. ربما
أو ربما هو عمر من مرّوا
ونحن نشمس الأحلام
كانوا يحملون الأرض فوق رؤوسهم
كانوا ثمانية
وكان الرمل يزهر تحت أرجلهم
وكان الصمت ينسى بينهم
- كي لا يملّون المسير-
حديثه الأطولْ.

عبرنا.. ربما
أو ربما عبرت تماثيل الرخام عيوننا
وتناسلت فينا الجمادات التي
حلمت طوال سباتها
بعبورها الأولْ.

عشقنا .. ربما
أو ربما خلطت فراشات الطفولة حلم مصباحين
كان الليل حارس نأيهم
والريح حولهما
تعبىء بالنعاس عيون وقتهما
ولمّا كان يبحث عنهما النسيان
هزّهما الندى.. فتساقطت رغباتهم
وتغلغلا ظلاهما
والفجر في منفاه قدّ قميصه الأجملْ.

نسينا.. ربما
أو ربما خانت مرايانا تفاصيل الحكاية
قد تآكلت الحروف
ولم تعد أسماؤنا أسماؤنا
اغتالت شوارعنا الجديدة خطونا
نامت خرائطنا الهجينة ملء أعيننا
ولبّانا الفراغ بوجهه الأعزلْ.

كأنا لم نكن
أو ربما كنا على العتبات
لم ندخل حدود البال
أو ننسى
صعدنا حين نادتنا الشموس
وحين نادى الجدب
لم يك غيرنا يهطلْ.■

* شاعر أردني

شعر

طقوس الروح

فيصل القصيري*

لروحي طقوس فريدة
ونخل بهيج
يعدي أساي
وضوء وظل وناي
وغصن أليف
تفرد في دوحة الانتباه
تكاثر من ألف عام
وأطلق في حضرة البحر
كلّ مداه
فيا بحر هذي فصول التوحد
في موجة لا تخون
ويا غصن هاك يدي

فإني عبرت إليك
وكان الملاك دليلي
وكان الشروق سريري
وكان النخيل معي في العبور
فأي صباح يجيء
ولا يشتهي
في دمائي الاقامة؟
وأي صديق يفيء
إلى الذكريات
ولا يستعير فضائي
وأي الصبابات تأتي
ولا تنتمي لجهاتي؟■

* شاعر عراقي

شعر

طقوس الروح

فيصل القصيري*

لروحي طقوس فريدة
ونخل بهيج
يعدي أساي
وضوء وظل وناي
وغصن أليف
تفرد في دوحة الانتباه
تكاثر من ألف عام
وأطلق في حضرة البحرِ
كلّ مداه
فيا بحر هذي فصول التوحدِ
في موجة لا تخون
ويا غصن هاك يدي
فإني عبرت إليك
وكان الملاك دليلي
وكان الشروق سريري
وكان النخيل معي في العبورِ
فأي صباح يجيء
ولا يشتهي
في دمائي الاقامة؟
وأي صديق يفيء
إلى الذكريات
ولا يستعير فضائي
وأي الصبابات تأتي
ولا تنتمي لجهاتي؟■

* شاعر عراقي

شعر

تداعيات في هيكل إنسان

عمر حماد هلال*

قد اينع الجرح حتى اثمر الألم
وقد توقد حتى مله الورم
ما ماد في القلب صبر وهو من وله
يرنو إليها جراحاً هدها السقم
وفجر الصمت هم صرت أحمله
ينوء فيه على الأثقال معتصم
لما سرت رعشة والنار تذرفها
من العيون دموعا ليس تنتظم
تتيه في البحر لا ترسو مراكبها
عند الشواطىء أو تحظى بها القمم
تواكب الزحف في فكري وفلسفتي
وتلتظي في شفاهي وهي تبتسم
كأنها القدر المكنون في جسدي
بين الضلوع يواري دمعه الندم
ويستفيق على الآهات مرتعداً
لا يستريح وقد غاصت به الظلم
فيه امتداد مجرات بأجمعها
وجذره في جذور الأرض ملتحم
قد حمل الهم فآلتاعت حشاشته
وصدره من لظى النيران يضطرم
أحسه فيك شلالاً سيغمرني
عمق المدى في ضباب الكون ينخذم
يا قلب صبراً على صبر ستحمله
عنك الدماء إذا زلّت بك القدم

* * *

يا ألف ليل بذاك الليل ينسجم
يا ألف صبح لذاك الصبح يقتحم
يا أيها الألق المدفون في لغتي
هل مسك الجرح؟ أم قد ضمك الحلم؟
أم أنت فيّ سراب صرت أعرفه
فيه الليالي إلى فجر ستحتكم
إني أمزق حتى الجلد من بدني
في ثورة من جراحي سوف أنتقمُ
إني رأيتك حد الموت تعصرني
وقد رأيت كياني فيك ينهدم
والروح كالطير تهفو من تولهها
فترتقي زفرة قد شفها سأم
يحار فيها إذا تاهت مواكبه
حتى يضيع لديه الرأي والكلم
يعانق النجم ليلاً في متاهته
ما عاش فجراً به الأحلام ترتسم
قبر كبحرِ من الأفكار ما انبلجت
عنه المفاوز بل غابت به السدم

* * *

* شاعر عراقي

شعر

تداعيات في هيكل إنسان

عمر حماد هلال*

قد اينع الجرح حتى اثمر الألم
وقد توقد حتى مله الورم
ما ماد في القلب صبر وهو من وله
يرنو إليها جراحاً هدها السقم
وفجر الصمت هم صرت أحمله
ينوء فيه على الأثقال معتصم
لما سرت رعشة والنار تذرفها
من العيون دموعا ليس تنتظم
تتيه في البحر لا ترسو مراكبها
عند الشواطىء أو تحظى بها القمم
تواكب الزحف في فكري وفلسفتي
وتلتظي في شفاهي وهي تبتسم
كأنها القدر المكنون في جسدي
بين الضلوع يواري دمعه الندم
ويستفيق على الآهات مرتعداً
لا يستريح وقد غاصت به الظلم
فيه امتداد مجرات بأجمعها
وجذره في جذور الأرض ملتحم
قد حمل الهم فآلتاعت حشاشته
وصدره من لظى النيران يضطرم
أحسه فيك شلالاً سيغمرني
عمق المدى في ضباب الكون ينخذم
يا قلب صبراً على صبر ستحمله
عنك الدماء إذا زلّت بك القدم

* * *

يا ألف ليل بذاك الليل ينسجم
يا ألف صبح لذاك الصبح يقتحم
يا أيها الألق المدفون في لغتي
هل مسك الجرح؟ أم قد ضمك الحلم؟
أم أنت فيّ سراب صرت أعرفه
فيه الليالي إلى فجر ستحتكم
إني أمزق حتى الجلد من بدني
في ثورة من جراحي سوف أنتقمُ
إني رأيتك حد الموت تعصرني
وقد رأيت كياني فيك ينهدم
والروح كالطير تهفو من تولهها
فترتقي زفرة قد شفها سأم
يحار فيها إذا تاهت مواكبه
حتى يضيع لديه الرأي والكلم
يعانق النجم ليلاً في متاهته
ما عاش فجراً به الأحلام ترتسم
قبر كبحرِ من الأفكار ما انبلجت
عنه المفاوز بل غابت به السدم

* * *

* شاعر عراقي

يا ضيعة النفس في دنيا تضرّجنا
بالمغريات وفيها الموت يقتسم
لا. لن تضيع بك الآمال ما عصفت
فيك الرياح وما أسرت بها الديم
ففي شروق رؤاك اليوم مبتدأ
وفي غروب سماك اليوم مختتم
وفيك فيك من اللذات مرتشف
وفيك كل سراب الأرض يحتدم
فأنت أنت مدى الأيام تحملها
وأنت أنت بها التاريخ والقلم
منك الجراح براكيناً ستنثرها
وفيك كل شظايا الكون تزدحم
بموطىء فوقٍ هاماتِ الذين هم
نصف ونصف الذي قد مات نصفهم
فيك ائتلاق كعين الصقر تحسبه
برقاً من الموت تهوي تحته الرخم
لن أرتضيها حياة لا حياة بها
فما الحياة إذا عاشت بها الرمم
قد عدت للزمن المغبر أرمقه
يسري بنا لا كما سارت بي الهممُ
وعشتُ ذكرى خلود في مخيلتي
أراقب الكون والإنسان يحترمُ ■

يا ضيعة النفس في دنيا تضرّجنا
بالمغريات وفيها الموت يقتسم
لا. لن تضيع بك الآمال ما عصفت
فيك الرياح وما أسرت بها الديم
ففي شروق رؤاك اليوم مبتدأ
وفي غروب سماك اليوم مختتم
وفيك فيك من اللذات مرتشف
وفيك كل سراب الأرض يحتدم
فأنت أنت مدى الأيام تحملها
وأنت أنت بها التاريخ والقلم
منك الجراح براكيناً ستنثرها
وفيك كل شظايا الكون تزدحم
بموطىء فوقٍ هامات الذين هم
نصف ونصف الذي قد مات نصفهم
فيك ائتلاق كعين الصقر تحسبه
برقاً من الموت تهوي تحته الرخم
لن أرتضيها حياة لا حياة بها
فما الحياة إذا عاشت بها الرمم
قد عدت للزمن المغبر أرمقه
يسري بنا لا كما سارت بي الهممُ
وعشتُ ذكرى خلود في مخيلتي
أراقب الكون والإنسان يحترمُ ■

في الشاعر والشارع

عيسى الشيخ حسن*

ينطفىء الشّارع في الشارع
فتدوس قصائده آلامي
وتفوح على أرصفة المعنى
ما بال السابلةِ اللّيلة
لا يمضون إلى مقهى اللّغةِ
ألأنّي أحرس بوّابتها
خوفاً من أولاد الرّؤيا
أم أنّ السابلةَ اختصموا
حول المرفوعِ الميّتِ
في الوقتِ المسفوحْ
هذا دأبي
حين يطلّ الشّارعِ من عينِ الشّاعرِ
لا تغني التّفعيلات
ولا الجرس الموسيقيُّ
وحين تنادينا اللغة
إلى مائدة الشّعر المتخومِ
بأوراقِ العطّارين
نتناول كأس الماء
ونحمدكَ شبعاً
ثمّ نعودُ إلى أكواخ الرّؤيا
المنصوبةِ في بيداءِ الرّوحْ

وحينَ أرى الشّاعرَ
يذوي في الشارعِ
يحملُ دفتره
يصبح رقماً مسفوكاً
أبكي
لولا أنّ نداءَ الباعةِ يخذلُني
أنزفه من عين القلب
وأمرّ على جسرٍ يفصلُ
بين شتاءاتِ الواقعِ
وربيعِ الحلمِ
على جسرٍ يحملني
أحياناً لأطيرِ
هذا الشّارع وشوشةُ الطّيفِ
إذا سافرَ في آناءِ الفتنةْ
هذا الشّاعر يلبسُ أجنحةً
ويغيّرُ لونهْ!!.
وحين أعود إلى ضفّته الأخرى
أتراجع لأحسرِ
رقماً مسفوكا
هذا الشارعُ أسمالٌ تتدافعُ
خوفاً من لعنة
هذا الشاعر يتخلّى عن أجنحة الطير

* شاعر سوري

شعر

في الشاعر والشارع

عيسى الشيخ حسن*

ينطفىء الشّارع في الشارع
فتدوس قصائده آلامي
وتفوح على أرصفة المعنى
ما بال السابلة اللّيلة
لا يمضون إلى مقهى اللّغة
ألأنّي أحرس بوّابتها
خوفاً من أولاد الرّؤيا
أم أنّ السابلة اختصموا
حول المرفوعِ الميّتِ
في الوقتِ المسفوحْ
هذا دأبي
حين يطلّ الشّارعِ من عينِ الشّاعرِ
لا تغني التّفعيلات
ولا الجرس الموسيقيُّ
وحين تنادينا اللغة
إلى مائدة الشّعر المتخومِ
بأوراقِ العطّارين
نتناول كأس الماء
ونحمدك شبعاً
ثمّ نعودُ إلى أكواخ الرّؤيا
المنصوبةِ في بيداءِ الرّوحْ

وحين أرى الشّاعرَ
يذوي في الشارعِ
يحمل دفتره
يصبح رقماً مسفوكاً
أبكي
لولا أنّ نداءَ الباعةِ يخذلُني
أنزفه من عين القلب
وأمرّ على جسرٍ يفصلُ
بين شتاءاتِ الواقعِ
وربيعِ الحلمِ
على جسرٍ يحملني
أحياناً لأطير
هذا الشّارع وشوشةُ الطّيفِ
إذا سافر في آناءِ الفتنةْ
هذا الشّاعر يلبس أجنحةً
ويغيّرُ لونهُ!!.
وحين أعود إلى ضفّته الأخرى
أتراجع لأحسرِ
رقماً مسفوكا
هذا الشارعُ أسمالٌ تتدافعُ
خوفاً من لعنة
هذا الشاعر يتخلّى عن أجنحة الطير

* شاعر سوري

ويبايعُ حزنَهْ
ما بال الأقدامِ تراودُ هذا الشّارعَ
عن شاعِرِه؟
فتطارِدُه حَتّى الحُلْم
ما بال الأيامِ تراود هذا الشاعر
عن شاعرِه؟

كي تنزِفَهُ حتّى العَظْم
الشّارعِ همهمة ونداء ودموعُ شتاءْ
والشّاعر
تنزفُهُ الأحرفُ
حتى يصبح
بقعةَ ماءْ ■

ويبايعُ حزنَهْ
ما بال الأقدامِ تراودُ هذا الشّارعَ
عن شاعرِه ؟
فتطارِدُه حَتّى الحلْم
ما بال الأيامِ تراود هذا الشاعر
عن شاعرِه ؟
كي تنزِفَهُ حتّي العَظْم
الشّارعِ همهمة ونداء ودموعُ شتاءْ
والشّاعر
تنزفُهُ الأحرفُ
حتيِ يصبح
بقعةَ ماءْ ■

شعر

تواقيع نارية

عصام ترشحاني*

صورة احتماليّة

ضغط الربيع على دمي
فأصابني،
مسٌّ من الإلهامْ
هذي الوريفة بالسَّنا..
لا فرْق إنْ،
كانت يداها
فوق رعشة خافقي
أو.. فوق شريان الغمامْ
هي إنْ تجلّتْ..
واختفتْ
أسرى الكلامُ،
وفوقه انسكب المُدامْ..

صورة علويّة

الليل يرعف من أناملها
والليل..
في جسدي
من قال إنّ البحر أظلمَ،
لم ير الياقوت،
وهو يشعّ بالمجهولِ
بين رغائبي.. ويدي..

صورة فوق احتماليّة

وأراه يستوحي الجبالْ
في البرزخ الهيمانِ،
يركض نحوها..
ويدور في جوف السؤالْ
قال الذي
لا والدٌ..
يفضي إليه،
ولا.. ولدْ..
حزني على،
من ضاع في حمّى الزبدْ..
ما كان يدركِ أنها
ذرفتْ روائحها
على شعري
وزالت.. في الأبدْ..

فضاء

مُذْ كان في ماء الهيامِ،
رأى إلى
حرب السماءِ
ورأى عوالم روحهِ..
بعد الفناء..
هو مُذْ تشكّلَ،

* شاعر سوري

تواقيع نارية

عصام ترشحاني*

صورة احتماليّة

ضغط الربيع على دمي
فأصابني،
مسٌّ من الإلهامْ
هذي الوريفة بالسَّنا..
لا فرْق إنْ،
كانت يداها
فوق رعشة خافقي
أو.. فوق شريان الغمامْ
هي إنْ تجلّتْ..
واختفتْ
أسرى الكلامُ،
وفوقه انسكب المُدامْ..

صورة علويّة

الليل يرعف من أناملها
والليل..
في جسدي
من قال إنّ البحر أظلم،
لم ير الياقوت،
وهو يشعّ بالمجهولِ
بين رغائبي.. ويدي..

صورة فوق احتماليّة

وأراه يستوحي الجبالْ
في البرزخ الهيمانِ،
يركض نحوها..
ويدور في جوف السؤالْ
قال الذي
لا والد..
يفضي إليه،
ولا.. ولدْ..
حزني على،
من ضاع في حُمّى الزبدْ..
ما كان يدركِ أنها
ذرفتْ روائحها
على شعري
وزالت.. في الأبدْ..

فضاء

مُذْ كان في ماء الهيامِ،
رأى إلى
حرب السماءُ
ورأى عوالم روحهِ..
بعد الفناء..
هو مُذْ تشكّل،

* شاعر سوري

قال للأشياء.. كوني
ثم كان لها الـْ
فضاءْ

مأدبة الذهول

ما للسوادِ،
وقابَ وجهَيْنا ينامْ
هل أطلقوا ناراً
على لغة اليمامْ؟
- هي متعة لَمَعتْ كألماسِ السُّمومْ-
شكراً..
لمن صعدتْ
من الألم الجميلِ،
ومزّقْت ثوبَ الغيومْ
شكراً لوردتنا التي
مسحتْ كآبتنَا
بمنديل الفصولْ..
شكراً لها..
حين استوتْ ما بيننا
ودعتْ قصائدنا
لمأدُبة الذهولْ... ■

قال للأشياء.. كوني
ثم كان لها الـْ
فضاءْ

مأدبة الذهول

ما للسواد،
وقابَ وجهَيْنا ينامْ
هل أطلقوا ناراً
على لغة اليمامْ؟
- هي متعة لَمَعتْ كألماسِ السُّمومْ-
شكراً..
لمن صعدتْ
من الألم الجميلِ،
ومزّقْت ثوبَ الغيومْ
شكراً لوردتنا التي
مسحتْ كآبتنَا
بمنديل الفصولْ..
شكراً لها..
حين استوتْ ما بيننا
ودعتْ قصائدنا
لمأدُبة الذهولْ... ■

جمال الحياة فى الريف
للشاعر الفرنسي راكان

ترجمة د . أحمد فؤاد *

– مضت أيام عمر معظمه فات
لنفكر الآن في حياة الخلوات
قبل أن يقودنا الزمن إلى موت آت
كفانا ما رأيناه في خضمّ العالم
وحانت المتعة بجمال المرفأ الناعم

– ما تحققه الثروات من غنى مصيره زوال
ومن يركن إليها يبني منزلاً فوق رمال
وكلما ارتفع البناء تزيد الخطورة
فأشجار الصنوبر المرتفعة بالريح مقهورة
وتكسر العواصف العاتية رؤوس الأشجار العارية
تضرب قصور الملوك وتسقط خيام الرعاة الواهية

– والسعيد هو من تقدر ذاكرته
على محو سراب المجد من خاطرته
فطول الأمل يغشانا حتى في السرور.
ليعتزل المرء إذن المزعج من البشر المغرور
وليلزم بيته راضياً مرضياً بالقدر
آخذاً رغبات نفسه قدر قدره بالحذر

– ليحرث المرء حقله كما فعل أبوه
ولا ينشغل أو يهتم بمشكلات تتوه
وكمجتمع تحلّ عقدها المجالس والحلقات.
لا يكترث أحد بعاصفة تثير بحر الموجات
ولا يهتم بريح تحدث سوء العاقبات
إلا بقدر ما ينقذ قمحه والحبّات

– لو تحكم المرء في الرغبات لحقق مراده
ولصادت مزرعته الخصبة كل بلاده
ولأصبح كوخه فونتين بلو أو لوڤرا
وحقوله وبساتينه في الأقاليم مرتعا
ولمضى حقده على أبهة الأمراء والثروات
وقنع مصورهم يشاهدها عنده في لوحات

– أيتها الصحراء الناعمة، يا موطن البراءة
منك تبدأ سعادتي وتنتهي كل إساءة
فيك أنسى غرور الدنيا والشهوات
أيتها الأودية والأنهار والصخور والخلوات
كنتم– قبْلاً– تشهدون ما أعاني من انشغال
فكونوا الآن شهوداً على ما عمّني من راحة بال ■

* وكيل كلية اللغات – جامعة الأزهر

شعر

جمال الحياة فى الريف

للشاعر الفرنسي راكان

ترجمة د . أحمد فؤاد *

– مضت أيام عمر معظمه فات
لنفكر الآن في حياة الخلوات
قبل أن يقودنا الزمن إلى موت آت
كفانا ما رأيناه في خضمّ العالم
وحانت المتعة بجمال المرفأ الناعم

– ما تحققه الثروات من غنى مصيره زوال
ومن يركن إليها يبني منزلاً فوق رمال
وكلما ارتفع البناء تزيد الخطورة
فأشجار الصنوبر المرتفعة بالريح مقهورة
وتكسر العواصف العاتية رؤوس الأشجار العارية
تضرب قصور الملوك وتسقط خيام الرعاة الواهية

– والسعيد هو من تقدر ذاكرته
على محو سراب المجد من خاطرته
فطول الأمل يغشانا حتى في السرور.
ليعتزل المرء إذن المزعج من البشر المغرور
وليلزم بيته راضياً مرضياً بالقدر
آخذاً رغبات نفسه قدر قدره بالحذر

– ليحرث المرء حقله كما فعل أبوه
ولا ينشغل أو يهتم بمشكلات تتوه
وكمجتمع تحلّ عقدها المجالس والحلقات.
لا يكترث أحد بعاصفة تثير بحر الموجات
ولا يهتم بريح تحدث سوء العاقبات
إلا بقدر ما ينقذ قمحه والحبّات

– لو تحكم المرء في الرغبات لحقق مراده
ولصادت مزرعته الخصبة كل بلاده
ولأصبح كوخه فونتين بلو أو لوفْرا
وحقوله وبساتينه في الأقاليم مرتعا
ولمضى حقده على أبهة الأمراء والثروات
وقنع مصورهم يشاهدها عنده في لوحات

– أيتها الصحراء الناعمة، يا موطن البراءة
منك تبدأ سعادتي وتنتهي كل إساءة
فيك أنسى غرور الدنيا والشهوات
أيتها الأودية والأنهار والصخور والخلوات
كنتم– قبْلاً– تشهدون ما أعاني من انشغال
فكونوا الآن شهوداً على ما عمّني من راحة
بال■

* وكيل كلية اللغات – جامعة الأزهر

شعر

تَأْجِيل

عبدالرحيم الماسخ*

بعد هذا الشّتاء
سنَرْفَعُ أعمدةَ الضوءِ قَصْراً يُشجّرُ أحداقَهُ الغيْمُ
يَسْبحُ في فضّة العطرِ فوق مسامِ الهواءِ
كفى يا شقوق الأفاعي فحيحا
إذا أقْبَلَ الصيْفُ، واتّسعَ الشّرْخُ في حائط الكبْرِياءِ
كفى .. فالسّماء تفرّق صرتها الآن
وهي ترانا بعينِ محبتّها : جدْولاً حين هم انتهى
والورود تسامرُ أحزانها في المساءِ
تُطلُّ على غسقٍ بين عينيْه صلُّ
عرفْناه حتّى نسيْناهُ في أفُقٍ لا يطوّحهُ الظّلُّ بين
أكُفّ النّداءِ

وعدْنا إلى خيْمة الذكْريات نَهُبُّ بلا شجرٍ
وبلا بحرِ انفْلَتَ الغيْمُ منّا وعاد بنبع البكاءِ
على رحلةٍ أنْفقتْ دمنا
كي تمرّر طاولةَ العمرِ ناجيةً من بُطونِ الخواءِ
شتاءٌ بِبِرْعمِه الثّلْج
ترشحه مهج خلعتْ صوتها صداً صداً في إناءِ
نهبُّ .. فقد تستجيبُ لأحلامنا الشُّهب
الصمْتُ ينسج أنفاسنا خيمةً خيمةً
لا تصبُّ بأحضانِ ألْفتها فرْحةَ الخيلاءِ
سنرْفعُ أعمدةَ الضوءِ
نرفع ....
والصيْفُ جاء !.■

---

* شاعر مصري

شعر

تَأْجِيل

عبدالرحيم الماسخ*

بعد هذا الشّتاء
سنَرْفَعُ أعمدةَ الضوءِ قَصْراً يُشَجِّرُ أحداقَهُ الغيْمُ
يَسْبح في فضّة العطرِ فوق مسامِ الهواءِ
كفى يا شقوقَ الأفاعي فحيحا
إذا أَقْبَلَ الصيْفُ، واتّسعَ الشَرْخُ في حائط الكِبْرياءِ
كفى .. فالسّماء تفرّق صرتها الآن
وهي ترانا بعينِ محبّتها : جدْولاً حين هم انتهى
والورود تسامرُ أحزانَها في المساء
تطلُّ على غسقٍ بين عينيْه صلٌّ
عرَفْناه حتّى نسيْناه في أفقٍ لا يطوّحه الظلُّ بين
أكُفّ النّداءِ
وعدْنا إلى خيْمةِ الذِّكْرياتِ نَهَبُ بلا شجرٍ
وبلا بحرٍ انفلتَ الغيْمِ منّا وعاد بنبع البكاءِ
على رحلةٍ أنْفقتْ دمنا
كي تمرّر طاولةَ العمرِ ناجيةً من بطونِ الخواءِ
شتاءٌ بِبُرْعمه الثّلْج
ترْشحه مهج خلعتْ صوْتَها صداً صداً في إناءٍ
نهبٌ .. فقد تسْتجيبُ لأحلامنا الشُّهب
الصّمتُ ينسج أنفاسنا خيمةً خيمةً
لا تصبُّ بأحضانِ أُلْفتها فرْحةَ الخُيلاءِ
سنرْفع أعمدةَ الضوءِ
نرفع ....
والصّيْفُ جاء !.■

---

* شاعر مصري

أسئلة الماء

إبراهيم اليوسف *

اتركي ما أردت هنا
كل طائفة الماء
ما بللت دارة للكلام
هل ترى عندك الآن يا امرأتي
غير قنديل- آه- يضيء وهاد اللهاث
ويفرد توقك فوق رسيس الخطا
ذارفاً كهرمان الخرافة
مكتنزاً في مداراتها
رهوة لا تكون
اتركي ما أردت هنا
لم يعد قربك
سيدة الماء
إلاّ: أنا
ما أزال أكرّر في شهوات الدواة
بريقاً يزوغ
وأنشودة زأبقت ذاتها
في ديار الحواة
تعالي إذاً يا رفيقة
نرفع أنخاب لحظتنا
: انهل البرهة شدو اللحاظ
وحكمتك الذاوية

كي تطلي على ضحكة
أضمرتها السنون
هل ترين سوانا هنا
يحتسي حلمه الأزلي
هائماً
هائماً
اتركي ما أردت هنا
أي أمثولة من قتاد سأسردها الآن
للهب الواقف
أعتقنا من إسار الرماد
لا تبالي إذاً
نحن نسرج صوت الرؤى
لنعيد الولادات
في تاسع الدم والجمرات
فلا تهلك الحلم محرقة
وهي تقطف رأرأة للسراب
اتركي ما أردت هنا
ما أزال أكرر أكثر
أكثر
مثل النبوءة
مثل التقاويم
يكسرها سادن الانشداه

* شاعر سوري

أسئلة الماء

إبراهيم اليوسف *

اتركي ما أردت هنا
كل طائفة الماء
ما بللت دارة للكلام
هل ترى عندك الآن يا امرأتي
غير قنديل- آه- يضيء وهاد اللهاث
ويفرد توقك فوق رسيس الخطا
ذارفاً كهرمان الخرافة
مكتنزاً في مداراتها
رهوة لا تكون
اتركي ما أردت هنا
لم يعد قربك
سيدة الماء
إلاّ: أنا
ما أزال أكرّر في شهوات الدواة
بريقاً يزوغ
وأنشودة زأبقت ذاتها
في ديار الحواة
تعالي إذاً يا رفيقة
نرفع أنخاب لحظتنا
: انهل البرهة شدو اللحاظ
وحكمتك الذاوية
كي تطلي على ضحكة
أضمرتها السنون
هل ترين سوانا هنا
يحتسي حلمه الأزلي
هائماً
هائماً
اتركي ما أردت هنا
أي أمثولة من قتاد سأسردها الآن
للهب الواقف
أعتقنا من إسار الرماد
لا تبالي إذاً
نحن نسرج صوت الرؤى
لنعيد الولادات
في تاسع الدم والجمرات
فلا تهلك الحلم محرقة
وهي تقطف رأرأة للسراب
اتركي ما أردت هنا
ما أزال أكرر أكثر
أكثر
مثل النبوءة
مثل التقاويم
يكسرها سادن الانشداه

* شاعر سوري

مثل نهر يداري المسار
يداري المسار
ويلوي على شجر
في ربا الانتظار
لينفخ أسماءه المصطفاة
ويوقد فاكهةً في خريطتها
- بل يواقيت مطفأة-

يا لها من أطايب
يرسم الماء زينتها
تعتريها الملذات في عادة باذخة
يا لخطو الرذاذ العصي
يداني تراب الحكاية
أبهج.. أبهج
يذكر أى الرواء
ويهفو التراب■

مثل نهر يداري المسار
يداري المسار
ويلوي على شجر
في ربا الانتظار
لينفخ أسماءه المصطفاة
ويوقد فاكهةً في خريطتها
- بل يواقيت مطفأة-

يا لها من أطايب
يرسم الماء زينتها
تعتريها الملذات في عادة باذخة
يا لخطو الرذاذ العصي
يداني تراب الحكاية
أبهج.. أبهج
يذكر أي الرواء
ويهفو التراب■

تصفية نهائية

سعاد الكواري*

مثقلة مثلك بوحشتي و برأسي
رأسي فقط الذي يتأرجح
كأنه كرة تلهو بها أقدام مجنونة
تركله من كل جبهة
يا هذه الضجة التي لا أسمعها
ترفقي بي
فأنا لا زلت مبتدئة في عالمكِ
ترفقي بي
فأنا فقدت السمع منذ الطفولة

* * *

مثقلة مثلك بوحشتي وبرأسي
رأسي فقط
بهذه الأسقف المفتوحة على اللاشيء
بهذه اللغة الأعجمية التي يقودها
قراصنة عميان
بهذه الإشارات التي لا يعي
مدلولاتها أحد
ترفقي بي فأنا لا أسمع

* * *

للضجة قدمتُ آخر تقارير
مفصلة عن حالتي
شرحت ما لا يشرح
لكنها أبت أن تفهمني
فرميت آخر التأويل
في الطوفان
ورحت أجرب من جديد
كيف أوغل في ضجيجهم
دون أن تسقط السماعة
أو تنفجر

* * *

مثقلة مثلك بوحشتي ورأسي
رأسي فقط
فالتقطني..
قبل أن أسقط في أحشاء الصاعقة
قبل أن أتحول إلى صرخة أو طلقة
التقطني..
فأنا لا أسمع إلا ضجيج الريح
ودقات الساعة الهاربة من قبضتي
التقطني..
فربما أستكين■

* شاعرة قطرية

تصفية نهائية

سعاد الكواري*

مثقلة مثلك بوحشتي و برأسي
رأسي فقط الذي يتأرجح
كأنه كرة تلهو بها أقدام مجنونة
تركله من كل جبهة
يا هذه الضجة التي لا أسمعها
ترفقي بي
فأنا لا زلت مبتدئة في عالمكِ
ترفقي بي
فأنا فقدت السمع منذ الطفولة

* * *

مثقلة مثلك بوحشتي وبرأسي
رأسي فقط
بهذه الأسقف المفتوحة على اللاشيء
بهذه اللغة الأعجمية التي يقودها
قراصنة عميان
بهذه الإشارات التي لا يعي
مدلولاتها أحد
ترفقي بي فأنا لا أسمع

* * *

للضجة قدمتُ آخر تقارير
مفصلة عن حالتي
شرحت ما لا يشرح
لكنها أبت أن تفهمني
فرميت آخر التأويل
في الطوفان
ورحت أجرب من جديد
كيف أوغل في ضجيجهم
دون أن تسقط السماعة
أو تنفجر

* * *

مثقلة مثلك بوحشتي ورأسي
رأسي فقط
فالتقطني..
قبل أن أسقط في أحشاء الصاعقة
قبل أن أتحول إلى صرخة أو طلقة
التقطني..
فأنا لا أسمع إلا ضجيج الريح
ودقات الساعة الهاربة من قبضتي
التقطني..
فربما أستكين■

---

* شاعرة قطرية

قصة قصيرة

كل شيء بحسابه

د . نعيم عطية*

المحاضر من أساطين الاقتصاد، ومن مؤسسي عديد من جمعيات رجال الأعمال. اكتسب شهرة طيبة من محاضراته الشيقة التي لا تخلو من توجيه المداعبات بشأن الأوضاع الاجتماعية المتردية، وتحميل المسؤولية عن تدهور الأحوال للمحتاجين ورقيقي الحال، ولا يحضر هؤلاء بالطبع مثل هذه المحاضرات، ومن أحاديثه السهلة الطلية عما يسميه «الرخاء الأمثل»، وأخيراً- وليس آخراً- مما يقدمه من استشارات للحكومة والأفراد عن أنجح السبل لغسل الأموال وتدوير رؤوس الأموال.

وكانت القاعة في تلك الأمسية عامرة بالحاضرين. وكثيرون منهم من كبار المشتغلين بالبنوك وشركاء الصرافة والبورصات، ممن يحسبون كل شيء ليس بالقرش والمليم، بل بالين والدولار والسنت والفلورين، ويعملون لتقلبات أسعار الصرف ألف حساب.

لمحته. لمحت صديقي القديم. يفصل بيني وبينه صفان من المقاعد، وبضع سنوات من البعاد، لانشغال كل منا بأمور ما كانت تهم الآخر. وكانت قد انقطعت عني أخباره إلى أن طالعتنا الصحف عنه مؤخراً بما يحسد عليه من أخبار.

كنا في سالف الأوان صديقين، ولا أستطيع أن أقول حميمين، فقد كان فصل بيننا فرق السن، كما لم يكن ذا جلد على التحصيل، ولا وصل في دراسة أجراها في معهدنا إلى نتائج مؤكدة. وفي الحق لم يكن بصفة عامة سوى متوسط الكفاية، إن لم يكن أقل من ذلك بكثير. هذا رأيي فيه، وإن لم يكن على أي حال رأيي أنا وحدي، بل أيضاً رأي آخرين، ولم أكن أعير الأمر التفاتاً.

كان يخاطبني- ربما لفارق السن- «بأستاذي»، وأحياناً «بأستاذنا الكبير» وكان هذا الذي يخاطبني به يملأني برضاء خي أحياناً وبقلق دفين وارتباك أحياناً أخرى.

ولم أكن رغم ثقتي في كفاءتي أعترض على اختيار غيري ممن هم أدنى مني شأناً للإعارات والمناصب العليا، وإن كنت لا أفهم لذلك الاختيار في أغلب الأحيان سبباً. وما قلت يوماً انني أحق من هذا أو ذاك. كان يكفيني أن أُتْرَكَ وشأني، فإني بفضل انقطاعي لعلمي وتعمقي في بحوثي أزداد يوماً بعد يوم تفوقاً واقتداراً، وقد عودت نفسي أن أضع في فمي قطعة لبان أمضغها

---

* ناقد تشكيلي وقاص مصري

قصة قصيرة

كل شيء بحسابه

د. نعيم عطية*

المحاضر من أساطين الاقتصاد، ومن مؤسسي عديد من جمعيات رجال الأعمال. اكتسب شهرة طيبة من محاضراته الشيقة التي لا تخلو من توجيه المداعبات بشأن الأوضاع الاجتماعية المتردية، وتحميل المسؤولية عن تدهور الأحوال للمحتاجين ورقيقي الحال، ولا يحضر هؤلاء بالطبع مثل هذه المحاضرات، ومن أحاديثه السهلة الطلية عما يسميه «الرخاء الأمثل»، وأخيراً- وليس آخراً- مما يقدمه من استشارات للحكومة والأفراد عن أنجح السبل لغسل الأموال وتدوير رؤوس الأموال.

وكانت القاعة في تلك الأمسية عامرة بالحاضرين. وكثيرون منهم من كبار المشتغلين بالبنوك وشركاء الصرافة والبورصات، ممن يحسبون كل شيء ليس بالقرش والمليم، بل بالين والدولار والسنت والفلورين، ويعملون لتقلبات أسعار الصرف ألف حساب.

لمحته. لمحت صديقي القديم. يفصل بيني وبينه صفان من المقاعد، وبضع سنوات من البعاد، لانشغال كل منا بأمور ما كانت تهم الآخر. وكانت قد انقطعت عني أخباره إلى أن طالعتنا الصحف عنه مؤخراً بما يحسد عليه من أخبار.

كنا في سالف الأوان صديقين، ولا أستطيع أن أقول حميمين، فقد كان فصل بيننا فرق السن، كما لم يكن ذا جلد على التحصيل، ولا وصل في دراسة أجراها في معهدنا إلى نتائج مؤكدة. وفي الحق لم يكن بصفة عامة سوى متوسط الكفاية، إن لم يكن أقل من ذلك بكثير. هذا رأيي فيه، وإن لم يكن على أي حال رأيي أنا وحدي، بل أيضاً رأي آخرين، ولم أكن أعير الأمر التفاتاً.

كان يخاطبني- ربما لفارق السن- «بأستاذي»، وأحياناً «بأستاذنا الكبير» وكان هذا الذي يخاطبني به يملأني برضاء خي أحياناً وبقلق دفين وارتباك أحياناً أخرى.

ولم أكن رغم ثقتي في كفاءتي أعترض على اختيار غيري ممن هم أدنى مني شأناً للإعارات والمناصب العليا، وإن كنت لا أفهم لذلك الاختيار في أغلب الأحيان سبباً. وما قلت يوماً انني أحق من هذا أو ذاك. كان يكفيني أن أُتْرَكَ وشأني، فإني بفضل انقطاعي لعلمي وتعمقي في بحوثي أزداد يوماً بعد يوم تفوقاً واقتداراً، وقد عودت نفسي أن أضع في فمي قطعة لبان أمضغها

---

* ناقد تشكيلي وقاص مصري

باطراد، فعصمتني من زلات اللسان مراراً.

كان صاحبي منهمكاً في الحديث بصوت هامس مع مدير لإحدى هيئات الاقتراض الدولي، ويشاركهما بالإنصات نائب من نواب البنك المركزي، ومسؤول أمني كبير، وآخر من صندوق النقد كان من وقت لآخر يتثاءب ويسرح ببصره إلى بعيد.

ومضيت أتابع عن بعد حركات شفتي صديقي القديم، وشغلني ذلك بعض الشيء عن المحاضرة، وكانت عن النقود، وما تفعله بعض العملات بالبعض الآخر. ولم يلق المحاضر عناء كي يثبت للمستمعين أنّ العملة الرديئة تطرد من السوق، كل عملة جيدة، وتسود.

صفق الحاضرون طويلاً. والتفت كل منهم لجاره ونظراته تقول في صمت مبين «سأطردك» فترد نظرات الآخر معك قرش تساوي قرش، فما بالك وأنا في الدولار أتعامل؟».

وعندما فتح المحاضر باب المناقشة مرحباً باستفسارات الحاضرين قام البعض وناقشه في القشور. ولم يصعب على المحاضر المتمرس بهذه الأمور، أن يدلي بإجابات انتزعت بدورها تصفيق الحاضرين.

وهممت أن أسأل- ولم أكن قد أحضرت قطعة اللبان معي- ما الذى يجعل قوانين الاقتصاد تخفق في نجاحات تحققها ممارسات أخرى غير هذه القوانين، لكنني كعادتي خجلت وتواريت، فأنا أحجم عن توجيه مثل هذه الأسئلة مما أكسبني في نظر الآخرين صفة أعتزُّ بها وهي أنني مستمع مثالي. أفكر كثيراً ولا أتكلم إلا في القليل.

نهضنا من مقاعدنا، وتأهبنا للانصراف. وسنحت لي الفرصة فملت بجذعي إلى الأمام بسرعة، ومددت إلى صاحبي القديم عبر الصفين يدي بالتحية.

تردد أن يصافحني وعندما قلت له «أنا الدكتور مجدية» خيمت على عينيه غشاوة، ولم يبد أنه يتذكر مجدية، فلما كررت عليه الاسم، التفت إلى من حوله مستنجداً بمن يذكره بي. هنأته على الدور القيادي الذي يتولاه في الرياسة، فغمغم بالشكر، ثم ترك يدي، واستدار مع رفاقه يسير في طابور الخروج البطيء.

وعند باب القاعة الكبيرة، تقاربنا، فالتفت إليّ، وكانت نظرته حائرة زائغة، ويبدو أنّ ذاكرته قد ضعفت من فرط الطابور الطويل ممن شاهد وقابل بحكم منصبه في الرياسة.

وعندما التفت إليّ مستديراً، قبل أن يغيب في زحام الخارجين إلى صحن المبنى المزدان ببعض التماثيل الرخامية التي من فرط تجريديتها أضحت غير مفهومة المعنى، وتتوسطه نافورة مضيئة تبعث دفقات مياهها إلى القلب بعض الأمان المفتقد، لمحت ابتسامته وكانت تقول- أكانت تقول ذلك حقاً؟ «لعلك تذكر ما قالته المحاضرة عن العملات والنقود. ولعلك الآن، يا أستاذي، فهمت، بل فهمت وتأكدت، يا أستاذنا.. الكبير» .■

باطراد، فعصمتني من زلات اللسان مراراً.

كان صاحبي منهمكاً في الحديث بصوت هامس مع مدير لإحدى هيئات الاقتراض الدولي، ويشاركهما بالإنصات نائب من نواب البنك المركزي، ومسؤول أمني كبير، وآخر من صندوق النقد كان من وقت لآخر يتثاءب ويسرح ببصره إلى بعيد.

ومضيت أتابع عن بعد حركات شفتي صديقي القديم، وشغلني ذلك بعض الشيء عن المحاضرة، وكانت عن النقود، وما تفعله بعض العملات بالبعض الآخر. ولم يلق المحاضر عناء كي يثبت للمستمعين أنّ العملة الرديئة تطرد من السوق، كل عملة جيدة، وتسود.

صفق الحاضرون طويلاً. والتفت كل منهم لجاره ونظراته تقول في صمت مبين «سأطردك» فترد نظرات الآخر معك قرش تساوي قرش، فما بالك وأنا في الدولار أتعامل؟».

وعندما فتح المحاضر باب المناقشة مرحباً باستفسارات الحاضرين قام البعض وناقشه في القشور. ولم يصعب على المحاضر المتمرس بهذه الأمور، أن يدلي بإجابات انتزعت بدورها تصفيق الحاضرين.

وهممت أن أسأل- ولم أكن قد أحضرت قطعة اللبان معي- ما الذى يجعل قوانين الاقتصاد تخفق في نجاحات تحققها ممارسات أخرى غير هذه القوانين، لكنني كعادتي خجلت وتواريت، فأنا أحجم عن توجيه مثل هذه الأسئلة مما أكسبني في نظر الآخرين صفة أعتزُّ بها وهي أنني مستمع مثالي. أفكر كثيراً ولا أتكلم إلا في القليل.

نهضنا من مقاعدنا، وتأهبنا للانصراف. وسنحت لي الفرصة فملت بجذعي إلى الأمام بسرعة، ومددت إلى صاحبي القديم عبر الصفين يدي بالتحية.

تردد أن يصافحني وعندما قلت له «أنا الدكتور مجدية» خيمت على عينيه غشاوة، ولم يبد أنه يتذكر مجدية، فلما كررت عليه الاسم، التفت إلى من حوله مستنجداً بمن يذكره بي. هنأته على الدور القيادي الذي يتولاه في الرياسة، فغمغم بالشكر، ثم ترك يدي، واستدار مع رفاقه يسير في طابور الخروج البطيء.

وعند باب القاعة الكبيرة، تقاربنا، فالتفت إليّ، وكانت نظرته حائرة زائغة، ويبدو أنّ ذاكرته قد ضعفت من فرط الطابور الطويل ممن شاهد وقابل بحكم منصبه في الرياسة.

وعندما التفت إليّ مستديراً، قبل أن يغيب في زحام الخارجين إلى صحن المبنى المزدان ببعض التماثيل الرخامية التي من فرط تجريديتها أضحت غير مفهومة المعنى، وتتوسطه نافورة مضيئة تبعث دفقات مياهها إلى القلب بعض الأمان المفتقد، لمحت ابتسامته وكانت تقول- أكانت تقول ذلك حقاً؟ «لعلك تذكر ما قالته المحاضرة عن العملات والنقود. ولعلك الآن، يا أستاذي، فهمت، بل فهمت وتأكدت، يا أستاذنا.. الكبير» .■

قصة قصيرة

العالم .. بحجم فراشة

يعرب السالم*

«إنني أحتضر .. فاحذروا محبتي..»

... عاد.. وما أن فتح النافذة.. حتى انسكب الضوء مفترشاً على أرضية الغرفة مبدداً وحشة المكان.. مستبيحاً الظلام ورحيق الذكريات المنسية مثل نصل حاد.. محيلاً المنحوتات الرخامية وقطع الأثاث القديمة والفراشات المجففة إلى قطع متناثرة براقة من الذهب.

اخترق الضوء دون استئذان، الغرفة الخالية إلا من.. صورة مترية على الحائط.. فراشات رخامية صغيرة صنعت بدقة متناهية.. دفتر مذكرات مهترىء الحوافي.. بعض القطع القديمة من الأثاث المصنوع من السعف الأصفر وأغصان التوت اليابسة.. طاولة خشبية صقيلة تحوّل وجهها الأملس إلى مرآة لامعة مستديرة.. وضع عليها تقرير طبي قديم ممزق من نهايته، يؤكد جنون صاحب المكان.!. عكاز حائل اللون من خشب الساج البورمي مكسور من وسطه اتكأ على الجدار المحاذي للنافذة الخشبية المفتوحة.. غلاف ممزق لكتاب عتيق اعتلته صورة فراشة كبيرة ذهبية، كُتب تحتها مباشرة وبخط كوفي جميل– أصل الفراشات–.

لم تحتمل مساماته الشرقية البقاء في بلاد الصقيع، ولم يثلج صدره وقوفه الطويل أمام برج (بيزا)* المائل، لأن منارة (الحدباء)* لم تفارق أحلامه أبداً، مثلما لم ينس لعبه في الدرابين الضيقة لمحلة (السرجخانة)* وبيعه للجرائد على الأرصفة، أيام الصيف القائظ، وجلوسه الملائكي مع ثلة من أروع أصدقائه في (المقهى الذهبي)* وهم يرتشفون الشاي الساخن على معدة خاوية لم تعتد الشبع يوماً، كما لم ينس أن يدلل جوعه المزمن وهو يأكل (السباغيتي) بالملعقة عمداً..! و يثير ضحك الكارسونات العرب في بلادهم! لم تطفىء رغباته الشيطانية نساء روما، لأنه يشتاق دائماً إلى امرأة ترتدي الخمار الأسود، هذا الحنين المخضب بنزق المحاولة الأولى مع بنت الجيران والفاشلة دوماً.. لم ينس الأقدام السمراء النحيلة والمصبوغة بالطين وقد أدمنت الجري المحموم وراء التوابيت التي لا يعلمون من أين تجيء.. ولم تفارقه صورة ذلك المجنون الذي اقترب منه بهدوء مضطرد في يوم سفره الأخير وأهداه فراشة ملونة.. وقال له بصوت باكي وحزين.. «.. مهما تغربت.. فإنك ستعود يا بني.. ستعود.. لأن الأرض لا تنسى أبناءها.» ما زال يتذكر كل

---
* قاص عراقي

العالم .. بحجم فراشة

يعرب السالم*

«إنني أحتضر .. فاحذروا محبتي..»

... عاد.. وما أن فتح النافذة.. حتى انسكب الضوء مفنرشاً على أرضية الغرفة مبدداً وحشة المكان.. مستبيحاً الظلام ورحيق الذكريات المنسية مثل نصل حاد.. محيلاً المنحوتات الرخامية وقطع الأثاث القديمة والفراشات المجففة إلى قطع متناثرة براقة من الذهب.

اخترق الضوء دون استئذان، الغرفة الخالية إلا من.. صورة مترية على الحائط.. فراشات رخامية صغيرة صنعت بدقة متناهية.. دفتر مذكرات مهترىء الحوافي.. بعض القطع القديمة من الأثاث المصنوع من السعف الأصفر وأغصان التوت اليابسة.. طاولة خشبية صقيلة تحوّل وجهها الأملس إلى مرآة لامعة مستديرة.. وضع عليها تقرير طبي قديم ممزق من نهايته، يؤكد جنون صاحب المكان.!. عكاز حائل اللون من خشب الساج البورمي مكسور من وسطه اتكأ على الجدار المحاذي للنافذة الخشبية المفتوحة.. غلاف ممزق لكتاب عتيق اعتلته صورة فراشة كبيرة ذهبية، كتب تحتها مباشرة وبخط كوفي جميل– أصل الفراشات–.

لم تحتمل مساماته الشرقية البقاء في بلاد الصقيع، ولم يثلج صدره وقوفه الطويل أمام برج (بيزا)* المائل، لأن منارة (الحدباء)* لم تفارق أحلامه أبداً، مثلما لم ينس لعبه في الدرابين الضيقة لمحلة (السرجخانة)* وبيعه للجرائد على الأرصفة، أيام الصيف القائظ، وجلوسه الملائكي مع ثلة من أروع أصدقائه في (المقهى الذهبي)* وهم يرتشفون الشاي الساخن على معدة خاوية لم تعتد الشبع يوماً، كما لم ينس أن يدلل جوعه المزمن وهو يأكل (السباغيتي) بالملعقة عمداً..! و يثير ضحك الكارسونات العرب في بلادهم! لم تطفىء رغباته الشيطانية نساء روما، لأنه يشتاق دائماً إلى امرأة ترتدي الخمار الأسود، هذا الحنين المخضب بنزق المحاولة الأولى مع بنت الجيران والفاشلة دوماً.. لم ينس الأقدام السمراء النحيلة والمصبوغة بالطين وقد أدمنت الجري المحموم وراء التوابيت التي لا يعلمون من أين تجيء.. ولم تفارقه صورة ذلك المجنون الذي اقترب منه بهدوء مضطرد في يوم سفره الأخير وأهداه فراشة ملونة.. وقال له بصوت باكي وحزين.. «.. مهما تغربت.. فإنك ستعود يا بني.. ستعود.. لأن الأرض لا تنسى أبناءها.» ما زال يتذكر كل

---

* قاص عراقي

شيء لذا.. عاد.

* * *

تقدم ببطء مسهب، نحو الأريكة الحزينة لفقد صاحبها الوحيد.. جلس دون أن يمسح عنها تكلسات التراب، وأحسها من تحته.. تتأوه.. تفحص المكان المهجور ملياً.. نظر بشرود إلى الصور المتربة، الجالسة قبالته على حائط الجص، لا شيء يحميها من عبث المتطفلين سوى مخاط العناكب المتناسل في زواياها.. تسارعت دقات قلبه.. لا شيء يدل على الحياة سوى حركة الغبار المتطاير الذي احتضن أحشاء الغرفة بتآلف لدود. أمسك بدفتر المذكرات القديم ونفخ عنه التراب.. اهتزت الستارة الحائلة، مشاكسة وحشة السكون القاتل، ومنذرة بحدوث أمر مريب.. وما أن فتح الصفحة الأولى، حتى تناهت إلى سمعه أصوات غريبة تشبه الوشوشات أو الهمس أو رفيف أجنحة، كان الصوت يأتيه من مكان عتيق ومهجور.. التفت حوله وأحس بأن هناك شيئاً ما يراقبه..! لم يهتم.. واستمر في تقليبه المرتجف للأوراق الصفراء المتيبسة، علّه يجد ما يدله على ذلك المجنون الجميل صائد الفراشات. ارتعشت أنامله وهي تلمس ورقة ملونة ظهرت- فجأة- بين الأوراق المتهرئة، لم تكن ورقة عادية، بل كانت فراشة وردية مجففة بحجم الورقة.. ما أن لمسها حتى سقطت بهدوء على الأرض.. انتفض من جلسته، حينها دبّت هزة خفيفة مصاحبة لصوت عذب وغريب غمر المكان.. شعر برهبة ذكرته أساطير المعابد الغابرة.. التقط الفراشة المذهلة وهو يرتعش، لم تصدق عيناه وجود فراشة بهذا الحجم والشكل واللون، كان كل شيء يدل على أن الزمن توقّف إلا نبضات قلبه.

هبت نسمة هواء صيفية، أيقظت حواسه من سباتها الأزلي، وسبغت الغرفة برائحة كان قد ألفها من قبل، لكنه لا يتذكرها الآن، كان قلبه يضج بفراغ مشروخ وخالٍ، إلا من حب موبوء بموسيقى المزامير التي أحبها دائماً.. ارتعش بقلق مستفز.. وهو يرمق الفراشات المؤطرة والمجففة من حوله وهي تستعيد ألونها الحقيقية..! كأنّه مسّ أصاب الأشياء من حوله فبثّ فيها الروح.. تعالى صوت المزامير، وشعر أنه وسط أوركسترا عظيمة، تعزف لحن الأرض، فترقص الحياة بألم.. تحركت الطاولة.. ثم الأريكة.. وندّ من الفراشات الرخامية الصغيرة، ضياء لامع لم يتوقعه.. ودون شعور منه وقف بجانب النافذة الخشبية العتيقة والتي اصطبغت بألوان قوس قزح، حاملاً الفراشة الوردية، وهو يتلمس حرارتها تدب بين يديه، طافت الموسيقى في هواء المكان مثل شلال هادر.. حركت جناحيها وطارت في الفضاء مخلفة وراءها، دهشة في عينيه ودموعا مضيئة.. ضجّ المكان بألوان براقة زاهية، وأخذت الفراشات تنسل من بين زجاج الصور التي أسرته منذ زمن طويل، تاركة على الزجاج وميضاً حاداً، يقطر كحبّات اللؤلؤ في عينيه.. فراشات لم يشاهد مثلها في حياته.. حتى الفراشات الرخامية المضيئة، تحولت إلى فراشات حقيقية مشعة وجميلة، وطارت تحف ببريق المكان.. وهو ينظر بدهشة آسرة إلى عالم مريب سحري ومموسق، لا يصدق ما يحدث جامداً في مكانه.. تحرك عكاز الساج المكسور،

شيء لذا.. عاد.

* * *

تقدم ببطء مسهب، نحو الأريكة الحزينة لفقد صاحبها الوحيد.. جلس دون أن يمسح عنها تكلسات التراب، وأحسها من تحته.. تتأوه.. تفحص المكان المهجور ملياً.. نظر بشرود إلى الصور المتربة، الجالسة قبالته على حائط الجص، لا شيء يحميها من عبث المتطفلين سوى مخاط العناكب المتناسل في زواياها.. تسارعت دقات قلبه.. لا شيء يدل على الحياة سوى حركة الغبار المتطاير الذي احتضن أحشاء الغرفة بتآلف لدود. أمسك بدفتر المذكرات القديم ونفخ عنه التراب.. اهتزت الستارة الحائلة، مشاكسة وحشة السكون القاتل، ومنذرة بحدوث أمر مريب.. وما أن فتح الصفحة الأولى، حتى تناهت إلى سمعه أصوات غريبة تشبه الوشوشات أو الهمس أو رفيف أجنحة، كان الصوت يأتيه من مكان عتيق ومهجور.. التفت حوله وأحس بأن هناك شيئاً ما يراقبه..! لم يهتم.. واستمر في تقليبه المرتجف للأوراق الصفراء المتيبسة، علّه يجد ما يدله على ذلك المجنون الجميل صائد الفراشات. ارتعشت أنامله وهى تلمس ورقة ملونة ظهرت- فجأة- بين الأوراق المتهرئة، لم تكن ورقة عادية، بل كانت فراشة وردية مجففة بحجم الورقة.. ما أن لمسها حتى سقطت بهدوء على الأرض.. انتفض من جلسته، حينها دبّت هزة خفيفة مصاحبة لصوت عذب وغريب غمر المكان.. شعر برهبة ذكرته أساطير المعابد الغابرة.. التقط الفراشة المذهلة وهو يرتعش، لم تصدق عيناه وجود فراشة بهذا الحجم والشكل واللون، كان كل شيء يدل على أن الزمن توقّف إلا نبضات قلبه.

هبت نسمة هواء صيفية، أيقظت حواسه من سباتها الأزلي، وسبغت الغرفة برائحة كان قد ألفها من قبل، لكنه لا يتذكرها الآن، كان قلبه يضج بفراغ مشروخ وخالٍ، إلا من حب موبوء بِموسيقى المزامير التي أحبها دائماً.. ارتعش بقلق مستفز.. وهو يرمق الفراشات المؤطرة والمجففة من حوله وهي تستعيد ألونها الحقيقية..! كأنّه مسّ أصاب الأشياء من حوله فبثّ فيها الروح.. تعالى صوت المزامير، وشعر أنه وسط أوركسترا عظيمة، تعزف لحن الأرض، فترقص الحياة بألم.. تحركت الطاولة.. ثم الأريكة.. وندّ من الفراشات الرخامية الصغيرة، ضياء لامع لم يتوقعه.. ودون شعور منه وقف بجانب النافذة الخشبية العتيقة والتي اصطبغت بألوان قوس قزح، حاملاً الفراشة الوردية، وهو يتلمس حرارتها تدب بين يديه، طافت الموسيقى في هواء المكان مثل شلال هادر.. حركت جناحيها وطارت في الفضاء مخلفة وراءها، دهشة في عينيه ودموعا مضيئة.. ضجّ المكان بألوان براقة زاهية، وأخذت الفراشات تنسل من بين زجاج الصور التي أسرته منذ زمن طويل، تاركة على الزجاج وميضاً حاداً، يقطر كحبّات اللؤلؤ في عينيه.. فراشات لم يشاهد مثلها في حياته.. حتى الفراشات الرخامية المضيئة، تحولت إلى فراشات حقيقية مشعة وجميلة، وطارت تحف ببِريق المكان.. وهو ينظر بدهشة آسرة إلى عالم مريب سحري ومموسق، لا يصدق ما يحدث جامداً في مكانه.. تحرك عكاز الساج المكسور،

وتحول إلى غصن توت أخضر.. بدأت الصورِ تتراءى أمامه مثل شريط سينمائي قديم عافته دور العرض، وهو ينظر إلى سربٍ من الفراشات الراقصة حوله بشكل دائري والمحلقة باتجاه النافذة لتذوب في البريق، وهي تتبع الفراشة الوردية نحو قرص الشمس الهارب إلى حضن المساء.. تذكر كل شيء.. المجنون الوحيد الذي بارك له نجاحه في الغربة، ببطاقة بريدية مرسوماً عليها شجرة توت كبيرة وخضراء.. وفي أسفل الزاوية اليسرى توقيع مرتجف بلون أخضر تبرز من خلاله عبارة (المجنون صائد الفراشات) كيف عرف عنوانه هناك..!؟.. تذكر الشجرة والساقيةِ التي تحتضنها.. تذكر.. تذكر كل شيء وعينه بعين الشمس لا تمرق ولا تحيد.. غصّ حلقه بطعم ذاك المساء البعيد، قرب ساقيهِ شجرة التوت، والحجارة الملساء الكبيرة وهي تطّل بقامتها القاسية على أبناء القرية مثل أب عجوز لم يخدش الزمن كبرياءه، وهم يلعبون حفاة حولها.. كانت غصة مسكونة بالشوق والدم، كحب كبير يشتاق إلى ضمه ويفنى في جذوره وجذوته، قال في سريرته «لن يذبل هذا الحب».. عادت أصوات المزامير وأحسها تسري في داخله مرة أخرى، لكنها هذه المرة كانت أشبه بموسيقى صوفية، غمرته بنشوة أخاذة وذكرته بالحزن المرصوص في داخله، وأسى الليل على رائحة حكايات المواقد وحنينه المحموم للأيام الغابرة.. أقفل النافذة.. فاستسلم المكان لعباءة الليل.

* * *

مع ارتعاشات الفجر الأولى.. كانت شجرة التوت الخضراء الهائلة، تنثر كدمات ظلها في كل الاتجاهات، رابضة في مكانها الأزلي- كما توقعها- وقد أحنّت الرياح ظهرها، مثل نادل عجوز انحنى مرحباً بالزوار الجدد، تلتف حولها ساقية بلون الماس، وقد لاحت في الأفق البعيد حجارة ملساء كبيرة، صدت خيوط الفجر، فتحولت إلى جمرة من ذهب. تقدم نحوها تاركاً لخطواته المتعبة مهمة اكتشاف الطريق الطينى كعادته دوماً، استمر في النظر إلى شجرة التوت وهي تقترب منه، متفحصاً ما حولها من بساتين وتلال، بينما إبر الشمس الحارقة والمنغرزة في سمتِ رأسه، تؤكد له أنه في بداية شهر حزيران.. استمر في المشي نحو رحم ظل التوت، المنسدل على الأرض حتى داست خطواته البطيئة ذيل ظلها. أدار رأسه في جميع الاتجاهات، وجال ببصره في أبعاد الفسحة المترامية أمامه، باحثاً عنه..! مرت اللحظات بطيئة جداً ومثقلة برغبة اللقاء- فجأة- جاءه صوت لم يكن غريباً على مسامعه، كان مثل الصفير - الأغنية وربما الهمهمات.. تابع مصدر الصوت وشاهد من بعيد خضرة ساحرة، تتحرك فيها خيالات ملونة، يبرز منها رجل بكتفين نحيلين ويدين عاريتين، تلوحان بحركات دائرية كأنهما تريدان التحليق في الفضاء.. استمر في متابعة الشعر الأبيض الطويلِ، المنسدل بكذائل عديدة، تخرج منه صرخة ملتاعة وهي تركض خلف الفراشات الملونة المضيئة التي غزّت القرية مثل إعصار ودود، كان يركض يميناً وشمالاً، يقف، فتحيطه الفراشات ثم يركض من جديد، كان لونه وردياً وكانت الفراشات هي التى

وتحول إلى غصن توت أخضر.. بدأت الصورِ تتراءى أمامه مثل شريط سينمائى قديم عافته دور العرض، وهو ينظر إلى سربٍ من الفراشات الراقصة حوله بشكل دائري والمحلقة باتجاه النافذة لتذوب في البريق، وهي تتبع الفراشة الوردية نحو قرص الشمس الهارب إلى حضن المساء.. تذكر كل شيء.. المجنون الوحيد الذي بارك له نجاحه في الغربة، ببطاقة بريدية مرسوماً عليها شجرة توت كبيرة وخضراء.. وفي أسفل الزاوية اليسرى توقيع مرتجف بلون أخضر تبرز من خلاله عبارة (المجنون صائد الفراشات) كيف عرف عنوانه هناك..!؟.. تذكر الشجرة والساقيةِ التي تحتضنها.. تذكر.. تذكر كل شيء وعينه بعين الشمس لا تمرق ولا تحيد.. غصّ حلقه بطعم ذاك المساء البعيد، قرب ساقيه شجرة التوت، والحجارة الملساء الكبيرة وهي تطّل بقامتها القاسية على أبناء القرية مثل أب عجوز لم يخدش الزمن كبرياءه، وهم يلعبون حفاة حولها.. كانت غصة مسكونة بالشوق والدم، كحب كبير يشتاق إلى ضمه ويفنى في جذوره وجذوته، قال في سريرته «لن يذبل هذا الحب».. عادت أصوات المزامير وأحسها تسري في داخله مرة أخرى، لكنها هذه المرة كانت أشبه بموسيقى صوفية، غمرته بنشوة أخاذة وذكرته بالحزن المرصوص في داخله، وأسى الليل على رائحة حكايات المواقد وحنينه المحموم للأيام الغابرة.. أقفل النافذة.. فاستسلم المكان لعباءة الليل.

* * *

مع ارتعاشات الفجر الأولى.. كانت شجرة التوت الخضراء الهائلة، تنثر كدمات ظلها في كل الاتجاهات، رابضة في مكانها الأزلي- كما توقعها- وقد أحنّت الرياح ظهرها، مثل نادل عجوز انحنى مرحباً بالزوار الجدد، تلتف حولها ساقية بلون الماس، وقد لاحت في الأفق البعيد حجارة ملساء كبيرة، صدت خيوط الفجر، فتحولت إلى جمرة من ذهب. تقدم نحوها تاركاً لخطواته المتعبة مهمة اكتشاف الطريق الطينى كعادته دوماً، استمر في النظر إلى شجرة التوت وهي تقترب منه، متفحصاً ما حولها من بساتين وتلال، بينما إبر الشمس الحارقة والمنغرزة في سمتِ رأسه، تؤكد له أنه في بداية شهر حزيران.. استمر في المشي نحو رحم ظل التوت، المنسدل على الأرض حتى داست خطواته البطيئة ذيل ظلها. أدار رأسه في جميع الاتجاهات، وجال ببصره في أبعاد الفسحة المترامية أمامه، باحثاً عنه..! مرت اللحظات بطيئة جداً ومثقلة برغبة اللقاء- فجأة- جاءه صوت لم يكن غريباً على مسامعه، كان مثل الصفير - الأغنية وربما الهمهمات.. تابع مصدر الصوت وشاهد من بعيد خضرة ساحرة، تتحرك فيها خيالات ملونة، يبرز منها رجل بكتفين نحيلين ويدين عاريتين، تلوحان بحركات دائرية كأنهما تريدان التحليق في الفضاء.. استمر في متابعة الشعر الأبيض الطويلِ، المنسدل بكذائل عديدة، تخرج منه صرخة ملتاعة وهي تركض خلف الفراشات الملونة المضيئة التي غزّت القرية مثل إعصار ودود، كان يركض يميناً وشمالاً، يقف، فتحيطه الفراشات ثم يركض من جديد، كان لونه وردياً وكانت الفراشات هي التى

تتبعه..! بل كانت تخرج من صدره ومن كفيه وتحط علي شعره المنساب في أكف الهواء.. كان كمنْ يهش الأحزان بمرح طفولي صاف.. حافياً لا شيء يثنيه عن أبجدية الطين والتراب.. لقد شاهده أخيراً.. إنه هو! الأب الذي لم يعرفه أحد.. الأب صائد الفراشات.. انتابته رغبة عارمة في البكاء.. الكلمات تذوب وتذبل في فمه، تماسك قليلاً، كان المشهد مثل خرافة لم يرويها أحد.. انبهر أمام جلال اللحظة.. وصرخ بصوت يجهش.. أبي.. أبي.. لم يصدق ما يراه.. نظراته الذاهلة، جعلته يرى بأم عينه، حبات العرق المتفصدة من جبين والده، وهي تتحول إلى فراشات ملونة..!. أشبه بعالم سحري لا وجود له إلا في كتب السحر، إلا أنه حقيقي وأمامه الآن.. ودون شعور منه أخذ يركض في البساتين وراءه، يتبع الفرشات.. وتراءى له المشهد هذه المرة ساحراً أخاذاً ورائعاً.

* * *

توقف قُبالته.. نظر إليه.. كان شوقه مثل حزن بريء ينهش الأزمنة، وأحسّ في تلك اللحظة بالزمن يتمطى.. وأن قلبه مسكون بالرياح.. كانت المسافة بين عينيهما مبتلة، شاسعة وعصيّة ومضيئة، تخبىء أعواماً طويلة من الاشتياق والحسرة والألم، تنهدا معاً.. تلعثم أمام رتابة السؤال.. انبثقت حبات عرق ناعمة من جبينه، مصاحبة لرعشة باردة انتابته.. خفق قلبه بحرارة وبشدة.. وهو يشاهد أباه لأول مرة في حياته..!.. رجل غادره خريفه.. زري الملامح.. هزيل الجسم.. خافق القلب.. له وجه شمعي بارد.. ذو عينين نرجسيتين نقيتين.. بارزتين وساكنتين.. أشبه بزجاج يلمع.

وضع الابن يده بندم على رأسه،وتذكر زيف العبارة التي قرأها في إحدى كتب الملاحم والبطولات «.. إنه لا وجود للعمالقة إلا في قصص السندباد البحري..» وها هو يقف أمام عجوز عملاق بوجعه ومحبته، وقد أضناه الصراع الموتور مع الفراشات.. كان شوقه عارماً.. امتلأت عيناهما بدموع شفيفة، حزناً على محبة لاهبة فرقها الزمن.. تقدم الاثنان معاً، وشعرا بالدم ونحيبه المكتوم يثور في داخلهما، تحت وطأة اللحظة المهيمنة بأريجها المخضب بحنين موبوء كانا قد دفناه في القلب معاً.. عينان ملأتا العالم من حوله بالفرح والدموع والفراشات، بزغتا من وراء الشعر الرمادي الكثّ، كشعاعين دافقين من نور سمائي مبهر.. تضرج وجهاهما بحمرة قدسية.. امتدت الأنامل الناعمة، الضعيفة والمرتعشة، مخرجة من راحتيهما الفراشات الملونة.. انسلت كلماته ممزوجة برائحة التوت البرّيْ والأرض... ولدي... ولدي.. احتضنتا الجسد الهزيل وهما تضغطان بقوة على هذه اللحظة في جنون راعش.. امتزجت مرارة الذكرى بعبق وحرارة اللقاء.. وأطلقا العنان للحب المحفور في شرايينهما.. تشنج الجسدان في نوبة من البكاء.. وحلقا معاً برفقة الفراشات.. وأحسّا أن العالم جميل جداً.. وصغير جداً.. وبحجم فراشة.■

تتبعه..! بل كانت تخرج من صدره ومن كفيه وتحط علي شعره المنساب في أكف الهواء.. كان كمنْ يهش الأحزان بمرح طفولي صاف.. حافياً لا شيء يثنيه عن أبجدية الطين والتراب.. لقد شاهده أخيراً.. إنه هو! الأب الذي لم يعرفه أحد.. الأب صائد الفراشات.. انتابته رغبة عارمة في البكاء.. الكلمات تذوب وتذبل في فمه، تماسك قليلاً، كان المشهد مثل خرافة لم يرويها أحد.. انبهر أمام جلال اللحظة.. وصرخ بصوت يجهش.. أبي.. أبي.. لم يصدق ما يراه.. نظراته الذاهلة، جعلته يرى بأم عينه، حبات العرق المتفصدة من جبين والده، وهي تتحول إلى فراشات ملونة..!. أشبه بعالم سحري لا وجود له إلا في كتب السحر، إلا أنه حقيقي وأمامه الآن.. ودون شعور منه أخذ يركض في البساتين وراءه، يتبع الفرشات.. وتراءى له المشهد هذه المرة ساحراً أخاذاً ورائعاً.

* * *

توقف قُبالته.. نظر إليه.. كان شوقه مثل حزن بريء ينهش الأزمنة، وأحسّ في تلك اللحظة بالزمن يتمطى.. وأن قلبه مسكون بالرياح.. كانت المسافة بين عينيهما مبتلة، شاسعة وعصيّة ومضيئة، تخبىء أعواماً طويلة من الاشتياق والحسرة والألم، تنهدا معاً.. تلعثم أمام رتابة السؤال.. انبثقت حبات عرق ناعمة من جبينه، مصاحبة لرعشة باردة انتابته.. خفق قلبه بحرارة وبشدة.. وهو يشاهد أباه لأول مرة في حياته..!.. رجل غادره خريفه.. زري الملامح.. هزيل الجسم.. خافق القلب.. له وجه شمعي بارد.. ذو عينين نرجسيتين نقيتين.. بارزتين وساكنتين.. أشبه بزجاج يلمع.

وضع الابن يده بندم على رأسه،وتذكر زيف العبارة التي قرأها في إحدى كتب الملاحم والبطولات «.. إنه لا وجود للعمالقة إلا في قصص السندباد البحري..» وها هو يقف أمام عجوز عملاق بوجعه ومحبته، وقد أضناه الصراع الموتور مع الفراشات.. كان شوقه عارماً.. امتلأت عيناهما بدموع شفيفة، حزناً على محبة لاهبة فرقها الزمن.. تقدم الاثنان معاً، وشعرا بالدم ونحيبه المكتوم يثور في داخلهما، تحت وطأة اللحظة المهيمنة بأريجها المخضب بحنين موبوء كانا قد دفناه في القلب معاً.. عينان ملأتا العالم من حوله بالفرح والدموع والفراشات، بزغتا من وراء الشعر الرمادي الكثّ، كشعاعين دافقين من نور سمائي مبهر.. تضرج وجهاهما بحمرة قدسية.. امتدت الأنامل الناعمة، الضعيفة والمرتعشة، مخرجة من راحتيهما الفراشات الملونة.. انسلت كلماته ممزوجة برائحة التوت البرّيْ والأرض... ولدي... ولدي.. احتضنتا الجسد الهزيل وهما تضغطان بقوة على هذه اللحظة في جنون راعش.. امتزجت مرارة الذكرى بعبق وحرارة اللقاء.. وأطلقا العنان للحب المحفور في شرايينهما.. تشنج الجسدان في نوبة من البكاء.. وحلقا معاً برفقة الفراشات.. وأحسّا أن العالم جميل جداً.. وصغير جداً.. وبحجم فراشة.■

قصة قصيرة

الولد

مصطفى نصر*

لن أتحدث كثيراً معكم. فابنتى تموت. أجل. هي راقدة فوق سريرها بالداخل. أنجبتها بعد صمت طويل. تاق فيه زوجى إلى الأطفال. وأنا كذلك.

بحثنا فى كل مكان. حتى استجاب الله لدعواتنا، بعد رحلة مريرة مع الأطباء والفحوص.

وأنجبت. جاءت بقلب ضعيف. أجل. أعرف منذ أن كانت طفلة.

سبحان الله. طفلة تأتى بعد طول عذاب. وبقلب ضعيف لن يحتمل مشاق الحياة: لا الحب ولا الزواج ولا الإنجاب.

لكن ابنتى أحبت وأرادت أن تتزوج. جزعت. وعاندتها، وحذرتها من نتيجة ذلك الحب. لكنها كانت متحمسة. ألحت وبكت وأنا لم أحرمها من شيء. كل ما تريده أحضره لها. مهما كان مكلفاً.. لكن هذه المرة هي التي ستدفع الثمن، لا أنا.

قلت لزوجي:

– لا أستطيع أن أحرمها من الذي أحبته.

– يا امرأة الزواج قد يقتلها.

– لهذا. لن أحرمها من شيء تريده.

أسكنتها معي لكي أحرسها؛ وأخدمها. كنت أطهو لها الطعام وأقدمه لها ولزوجها وأسعد عندما أراها تنام فوق السرير. وزوجها بجوارها. وأصر على أن يبقيا مكانهما. أسعد لأنها سعيدة وأود من زوجها ألاّ يخرج من البيت. لا يعمل. أجل. يبقى معها فوق السرير. وسأعطيه ما يريد أريدها أن ترتوي من كل شيء تحبه وتريده.

أصررت بأن تبقى بجواري في شقتي فربما خدماتي لها تنجيها من المصير الذي حذرني الأطباء منه وحبلت ابنتي. منذ شهورها الأولى وهي غير قادرة على الحركة. أحد الأطباء كاد يصفعني عندما حكيت له ما حدث. قال:

– لقد قتلت ابنتك.

– والعمل؟

– العمل عمل الله.

شهور طويلة وهي راقدة فوق السرير تتأوه، وأنا ليس لي مشاغل سواها.

ترك زوجها الشقة. ترك كل شيء وعاد إلى بيت أمه. ويقولون أنه مشغول الآن بفتاة سيتزوجها، ما دام الموت مصير ابنتي.

معذرة. فلن أطيل عليكم. فابنتي تنتظرني فوق فراشها بالداخل.

---

* قاص مصري

قصة قصيرة

الولد

مصطفى نصر*

لن أتحدث كثيراً معكم. فابنتى تموت. أجل. هي راقدة فوق سريرها بالداخل. أنجبتها بعد صمت طويل. تاق فيه زوجى إلى الأطفال. وأنا كذلك.

بحثنا فى كل مكان. حتى استجاب الله لدعواتنا، بعد رحلة مريرة مع الأطباء والفحوص.

وأنجبت. جاءت بقلب ضعيف. أجل. أعرف منذ أن كانت طفلة.

سبحان الله. طفلة تأتى بعد طول عذاب. وبقلب ضعيف لن يحتمل مشاق الحياة: لا الحب ولا الزواج ولا الإنجاب.

لكن ابنتى أحبت وأرادت أن تتزوج. جزعت. وعاندتها، وحذرتها من نتيجة ذلك الحب. لكنها كانت متحمسة. ألحت وبكت وأنا لم أحرمها من شيء. كل ما تريده أحضره لها. مهما كان مكلفاً.. لكن هذه المرة هي التي ستدفع الثمن، لا أنا.

قلت لزوجي:

– لا أستطيع أن أحرمها من الذي أحبته.

– يا امرأة الزواج قد يقتلها.

– لهذا. لن أحرمها من شيء تريده.

أسكنتها معي لكي أحرسها؛ وأخدمها. كنت أطهو لها الطعام وأقدمه لها ولزوجها وأسعد عندما أراها تنام فوق السرير. وزوجها بجوارها. وأصر على أن يبقيا مكانهما. أسعد لأنها سعيدة وأود من زوجها ألاّ يخرج من البيت. لا يعمل. أجل. يبقى معها فوق السرير. وسأعطيه ما يريد أريدها أن ترتوي من كل شيء تحبه وتريده.

أصررت بأن تبقى بجواري في شقتي فربما خدماتي لها تنجيها من المصير الذي حذرني الأطباء منه وحبلت ابنتي. منذ شهورها الأولى وهي غير قادرة على الحركة. أحد الأطباء كاد يصفعني عندما حكيت له ما حدث. قال:

– لقد قتلت ابنتك.

– والعمل؟

– العمل عمل الله.

شهور طويلة وهي راقدة فوق السرير تتأوه، وأنا ليس لي مشاغل سواها.

ترك زوجها الشقة. ترك كل شيء وعاد إلى بيت أمه. ويقولون أنه مشغول الآن بفتاة سيتزوجها، ما دام الموت مصير ابنتي.

معذرة. فلن أطيل عليكم. فابنتي تنتظرني فوق فراشها بالداخل.

* قاص مصري

أنجبت ولداً جميلاً. فازدادت آلام قلبها. لم يعد لها من الحركة سوى عينيها اللتين تحركهما.. وتحدثنا بهما.

زوجي يبكي كثيراً من أجلها. لكن أنا لم أبك. كل طاقتي من أجلها هي. أطعمها وأسقيها بيدي.

ماذا أقول أيضاً. فالطبيب حذرني من الحركة. كل أشيائها تقضيها فوق السرير. وأنا أقف أمامها. أبتسم لها. وأضع يدي فوق وجهها الذي يزداد اصفراراً. كل ما يؤلمني هو هروب زوجها هكذا. أعلم أن ابنتي لم تعد تصلح زوجة له. لكن كان ينتظر حتي تموت. فوجوده معها سيخفف عنها لا شك.

ابنها بعيد عنها. بلا غطاء تركته. فأسرعت إحدى الجارات وكسته من لديها. فأنا مشغولة بابنتي التي يقترب الموت منها. كما أنني لا أريد له أن يعيش. فسيكون بلا أم. ووالده هرب. لم يتحمل زوجته المريضة. فلماذا يبقى الولد أيضاً؟! سأتركه ليلقى مصير أمه.

زوجي مشغول بمرض ابنته. يبكي من أجلها. ويتهمني بالجنون. لو لم يستجب لي لظلت البنت بلا زواج، ولعاشت للآن.

أراه يحنو على الطفل. فأصيح فيه بأن يتركه ليلقى مصير أمه. فهو الذى قتلها بحضوره.

لم أطعمه. وأمه لا تستطيع أن ترضعه. ولن أبحث له عن مرضعة. لن أعطيه ماء مسكر كما أوصوني. لا. لا بد أن يتبع أمه. لن أستطيع احتماله. كفى ما حدث.

بالأمس أوصيت النسوة في البيت بألاّ يطعموه. واتهمتهن بأنهن يقدمن إليه الطعام من ورائي.

لقد ماتت ابنتي اليوم. أجل. هكذا قالت النسوة اللاتي وقفن حول سريرها. ألم أقل لكم أنها ستموت، بكيت وقتها. وأحسست بأن نوراً كان يواجهني حيثما ذهبت قد انطفأ. كنت أرى ذلك النور حتى وهي مريضة تصارع الموت. لكنه ذهب معها الآن.

انشغلت بها وبالمراسم التي لا بد أن تحدث. والطفل فوق سريره. الكل منشغل عنه.

بعد أن دفنا ابنتي. وصرخت النسوة. وبكى زوجي وبعض الرجال. اقتربت النسوة مني. خشين أن يغمى علي أو أن يحدث لي مكروه من هول الصدمة. ودهشن لأنهن رأينني متماسكة. شددت جسدي وصحت فيهن:

– الولد.

تذكرت أنني للآن لم أعرف اسمه. ولا أعرف من الذي ذهب ليستخرج له شهادة ميلاد.

الولد؟! ماذا حدث له؟ هو الباقي لي– الآن– منها. لا بد أن أحافظ عليه.

أسرعت بين صفوف المعزين. وأنا أردد:

– الولد.

ظن البعض أني جننت. لو أستطيع أن أطير إليه، ألحقه. أيكون قد مات من إهمالي له.

لا. إنني كنت أقصد قتله. لو أستطيع لفعلت. أسرعوا خلفي. قلت:

– أريد سيارة. لا بد أن أصل إلى البيت بسرعة.

ألححت على السائق بأن يسرع. الولد؟! أكثر من أسبوع منذ أن ولد وأنا مشغولة بأمه. لم أره جيداً سوى مرة واحدة.

أنجبت ولداً جميلاً. فازدادت آلام قلبها. لم يعد لها من الحركة سوى عينيها اللتين تحركهما.. وتحدثنا بهما.

زوجي يبكي كثيراً من أجلها. لكن أنا لم أبك. كل طاقتي من أجلها هي. أطعمها وأسقيها بيدي.

ماذا أقول أيضاً. فالطبيب حذرني من الحركة. كل أشيائها تقضيها فوق السرير. وأنا أقف أمامها. أبتسم لها. وأضع يدي فوق وجهها الذي يزداد اصفراراً. كل ما يؤلمني هو هروب زوجها هكذا. أعلم أن ابنتي لم تعد تصلح زوجة له. لكن كان ينتظر حتي تموت. فوجوده معها سيخفف عنها لا شك.

ابنها بعيد عنها. بلا غطاء تركته. فأسرعت إحدى الجارات وكسته من لديها. فأنا مشغولة بابنتي التي يقترب الموت منها. كما أنني لا أريد له أن يعيش. فسيكون بلا أم. ووالده هرب. لم يتحمل زوجته المريضة. فلماذا يبقى الولد أيضاً؟! سأتركه ليلقى مصير أمه.

زوجي مشغول بمرض ابنته. يبكي من أجلها. ويتهمني بالجنون. لو لم يستجب لي لظلت البنت بلا زواج، ولعاشت للآن.

أراه يحنو على الطفل. فأصيح فيه بأن يتركه ليلقى مصير أمه. فهو الذى قتلها بحضوره.

لم أطعمه. وأمه لا تستطيع أن ترضعه. ولن أبحث له عن مرضعة. لن أعطيه ماء مسكر كما أوصوني. لا. لا بد أن يتبع أمه. لن أستطيع احتماله. كفى ما حدث.

بالأمس أوصيت النسوة في البيت بألاّ يطعموه. واتهمتهن بأنهن يقدمن إليه الطعام من ورائي.

لقد ماتت ابنتي اليوم. أجل. هكذا قالت النسوة اللاتي وقفن حول سريرها. ألم أقل لكم أنها ستموت، بكيت وقتها. وأحسست بأن نوراً كان يواجهني حيثما ذهبت قد انطفأ. كنت أرى ذلك النور حتى وهي مريضة تصارع الموت. لكنه ذهب معها الآن.

انشغلت بها وبالمراسم التي لا بد أن تحدث. والطفل فوق سريره. الكل منشغل عنه.

بعد أن دفنا ابنتي. وصرخت النسوة. وبكى زوجي وبعض الرجال. اقتربت النسوة مني. خشين أن يغمى علي أو أن يحدث لي مكروه من هول الصدمة. ودهشن لأنهن رأينني متماسكة. شددت جسدي وصحت فيهن:

– الولد.

تذكرت أنني للآن لم أعرف اسمه. ولا أعرف من الذي ذهب ليستخرج له شهادة ميلاد.

الولد؟! ماذا حدث له؟ هو الباقي لي– الآن– منها. لا بد أن أحافظ عليه.

أسرعت بين صفوف المعزين. وأنا أردد:

– الولد.

ظن البعض أني جننت. لو أستطيع أن أطير إليه، ألحقه. أيكون قد مات من إهمالي له.

لا. إنني كنت أقصد قتله. لو أستطيع لفعلت. أسرعوا خلفي. قلت:

– أريد سيارة. لا بد أن أصل إلى البيت بسرعة.

ألححت على السائق بأن يسرع. الولد؟! أكثر من أسبوع منذ أن ولد وأنا مشغولة بأمه. لم أره جيداً سوى مرة واحدة.

هبطت من السيارة. دفعت باب البيت. وأخذت أجري فوق الدرج.

الشقة خالية. كل من فيها ذهب إلى المدافن لوداع ابنتي. وابنها وحيد فوق سريره، ينام على ظهره. ويضع يده في فمه.

رأيته كبيراً. أكبر من عمره الحقيقي. كأنه ابن سنة أو أكثر. شددته من ملابسه الرثة. وضممته لصدري في جزع. قبلته.■

هبطت من السيارة. دفعت باب البيت. وأخذت أجري فوق الدرج.

الشقة خالية. كل من فيها ذهب إلى المدافن لوداع ابنتي. وابنها وحيد فوق سريره، ينام على ظهره. ويضع يده في فمه.

رأيته كبيراً. أكبر من عمره الحقيقي. كأنه ابن سنة أو أكثر. شددته من ملابسه الرثة. وضممته لصدري في جزع. قبلته.■

ثلاث قصص قصيرة جداً

حسين المناصرة *

(١) الدجاجة

الدجاجة لم تعد تبيض بيضاً مسلوقاً.. ولم تعد تبيض كل شهر بيضة ذهبيّة في جيب طفل.. ولم تعد صالحة بوصفها لاحمة بين فكي سيد البيت.. ولم تعد تعجب الديك الذي يكبس كل الدجاجات عداها.. ولم تعد تقاقي مقاقاة الغزل.. ولم تعد قادرة على أن تحضن البيض، فيفقس بعد واحد وعشرين يوماً.. ولم تعد «تتفعفل» في التراب، فتستر عري البذور انتظاراً لموسم هطول المطر.. ولم تعد صالحة للعب مع الأطفال، فتغسل شيئاً من نزقهم وعصبيتهم التي لا تطاق عند الأمهات.. ولم تعد تناجي دجاجة أخرى، فتشتكي لها همومها، وتسمع منها همومها، وتخفف عنها بؤسها بتعاطي بؤسها.. ولم تعد تتعمد أن تتحرش بالديك الذي ينقرها في رقبتها، فتستسلم لجبروته، مستعرضاً عضلاته أمام الأخريات.. ولم تعد تهجم مع بقية الدجاج على «العلف» الذي تعلفه «ربابة ربة البيت»، وهي تتنغم بصوت طروب: تيعا تيعا تيعا.. ولم تعد تقفز إلى خمها المرتفع في جدار السقيفة، بعيداً عن تحرشات القطط، وبقايا المطر.. ولم تعد تتشبه بصوت الديكة، فتحاول التماثل مع صوتها، لعبتها هذه مكشوفة، إذ مهما حاولت فهي دجاجة، وهو الديك، لذلك ينزعج من صوتها فينقرها نقراً فيه القسوة وشيء من الدلال، بل قد يغازل دجاجة أخرى ليفجر غيرتها، ولكن الدجاج ربما لا يغار.. ولم تعد تتحرش بمذود الحمارة باحثة عن بقايا الحبّ المتناثرة هنا أو هناك، وساعية أحياناً إلى القفز داخل المذود مما يثير الحمارة، فتنهق عدة نهقات «هاق هاق هاق».. ولم تعد تصعد إلى كومة التبن، تتفعفل بها، فتمثل ولادة بيضة تبيضها، تشعر أنها تنساب إلى الجوار، تزغرد «قيق قيق قيق»، فتتوهم أن بيضة جارتها الفتية هي بيضتها.. ولم تعد تصفق جناحيها محاولة الطيران عندما ترى عصفوراً بجانبها يسرق الحب، فتهجم عليه، فيطير، فتتخيل نفسها دجاجة برية، تطمح أن تعلو، أن تتحرر من «الدجاج الداجن».. ولم تعد تمارس الركض فاردة جناحيها، تمثل أنها تسخن للطيران.. ولم تعد قادرة على النوم واقفة على رجل واحدة، غامرة رأسها تحت جناحها.. ولم تعد تغسل نفسها في سطل الماء، فتنفش ريشها، وتنقر جلدها بمنقارها، شاعرة بنشوة الماء تتسلل

* استاذ جامعي بجامعة الملك سعود بالرياض

ثلاث قصص قصيرة جداً

حسين المناصرة *

(١) الدجاجة

الدجاجة لم تعد تبيض بيضاً مسلوقاً.. ولم تعد تبيض كل شهر بيضة ذهبيّة في جيب طفل.. ولم تعد صالحة بوصفها لاحمة بين فكي سيد البيت.. ولم تعد تعجب الديك الذي يكبس كل الدجاجات عداها.. ولم تعد تقاقي مقاقاة الغزل.. ولم تعد قادرة على أن تحضن البيض، فيفقس بعد واحد وعشرين يوماً.. ولم تعد «تتفعفل» في التراب، فتستر عري البذور انتظاراً لموسم هطول المطر.. ولم تعد صالحة للعب مع الأطفال، فتغسل شيئاً من نزقهم وعصبيتهم التي لا تطاق عند الأمهات.. ولم تعد تناجي دجاجة أخرى، فتشتكي لها همومها، وتسمع منها همومها، وتخفف عنها بؤسها بتعاطي بؤسها.. ولم تعد تتعمد أن تتحرش بالديك الذي ينقرها في رقبتها، فتستسلم لجبروته، مستعرضاً عضلاته أمام الأخريات.. ولم تعد تهجم مع بقية الدجاج على «العلف» الذي تعلفه «ربابة ربة البيت»، وهي تتنغم بصوت طروب: تيعا تيعا تيعا.. ولم تعد تقفز إلى خمها المرتفع في جدار السقيفة، بعيداً عن تحرشات القطط، وبقايا المطر.. ولم تعد تتشبه بصوت الديكة، فتحاول التماثل مع صوتها، لعبتها هذه مكشوفة، إذ مهما حاولت فهي دجاجة، وهو الديك، لذلك ينزعج من صوتها فينقرها نقراً فيه القسوة وشيء من الدلال، بل قد يغازل دجاجة أخرى ليفجر غيرتها، ولكن الدجاج ربما لا يغار.. ولم تعد تتحرش بمذود الحمارة باحثة عن بقايا الحبّ المتناثرة هنا أو هناك، وساعية أحياناً إلى القفز داخل المذود مما يثير الحمارة، فتنهق عدة نهقات «هاق هاق هاق».. ولم تعد تصعد إلى كومة التبن، تتفعفل بها، فتمثل ولادة بيضة تبيضها، تشعر أنها تنساب إلى الجوار، تزغرد «قيق قيق قيق»، فتتوهم أن بيضة جارتها الفتية هي بيضتها.. ولم تعد تصفق جناحيها محاولة الطيران عندما ترى عصفوراً بجانبها يسرق الحب، فتهجم عليه، فيطير، فتتخيل نفسها دجاجة برية، تطمح أن تعلو، أن تتحرر من «الدجاج الداجن».. ولم تعد تمارس الركض فاردة جناحيها، تمثل أنها تسخن للطيران.. ولم تعد قادرة على النوم واقفة على رجل واحدة، غامرة رأسها تحت جناحها.. ولم تعد تغسل نفسها في سطل الماء، فتنفش ريشها، وتنقر جلدها بمنقارها، شاعرة بنشوة الماء تتسلل

---

* استاد جامعي بجامعة الملك سعود بالرياض

إلى منخريها.. كانت دجاجة متيبسة في التفكير العميق الذي أخذها إلى جهة الموت.. حملتها «ربابة ربة البيت»، وطوحت بها بعيداً لترتطم بين الحجارة، وحينها كأنها لفظت أنفاسها الأخيرة!!.

(٢) كتابة المستقبل

الخوف الأبيض ينسج أعصاب الآنين على أمن شرايين أطفالهم الصغار..

الخوف الأصفر غول شرس يسكن القلوب الآيلة إلى الانهيار..

الخوف الدموي ورقة سوداء نكتب عليها، بالحبر الأسود، كلمات سوداء؛ نلعن فيها، فى الليل الأسود، كل الذين جعلوا عيشتنا سوداء.. وعندما يقبضون علينا متلبسين بالكتابة يضحك الغول الشرس المنشغل بتناول المهدئات الخطرة، فنلعق أحزاننا ساخرين جادين.. ألا ترون هذه الورقة السوداء، والقلم الأسود، والحروف السوداء، الفكرة السوداء.. لا دليل يدين هذا «النحن» العبد المستكين الواقف أمامكم..

قالوا: لا فرق بين الورقة السوداء، والأخرى البيضاء.. المهم أنكم متلبسون بالكتابة التي حرمت عليكم منذ أن قررنا أنها تضر بصحتكم المرهفة..

نشر حروفه الأولى.. فصادروها.. وزع أوراقه البيضاء بعنوان: «ما أريد قوله تعرفونه».. فصادروها.. قرر أن ينشر كتابه الأسود بعنوان «أيام سودة».. .. فصادروه أيضاً، وحكموا عليه بالجنون الذي علاجه أن ينسخ دساتيرهم مئات المرات!!

(٣) التجاوز

قهقه الصباح بكلماته الواعظة: «عليك أن تتجاوز الصغائر».. أكمل بقايا القهوة الباردة، دعك عقب السيجارة على الأرض بحذائه المتسخ.. توجه إلى عمله. همهم: «عليّ أن أتجاوز الصغائر.. أنا لا دخل لي بما يحدث، المدير قال وقع، فوقعت، صحيح أنه سيصرف لي مكافأة ضئيلة، لكن هذا لا يهم، فأنا مجرد موظف صغير يوقع على تجاوزاته الكثيرة.. حتى المسمار حسبه بعشرين دولاراً، ما علي إن كان ثمنه دولاراً واحداً، لكن اللعين حسبه بعشرين، والمؤسسة تحتاج مائة مسمار فقط، والملعون أضاف صفراً على الورق، يعنى أن الصفقة ستكون ألف مسمار، ولانشتري إلا مائة.. الألف مسمار بعشرين يعني عشرين ألف دولار، تدفع المؤسسة عشرين ألف دولار ثمن مائة مسمار بمائة دولار.. اللعين يعرف كيف يصب أموال المؤسسة في حجره.. مؤسسة الطيران المدني العامة بطولها وعرضها تصب في حجره.. ألم ينتفخ؟!! مع كل صفقة مكافأة لي مائة دولار.. ألف دولار في الشهر مكافأة.. ألف دولار مقابل عشر صفقات بآلاف الدولارات أمررها له.. اللعنة.. ما عليّ.. عليّ أن أتجاوز.. أن أوقع.. توقيع المدير هو الأهم.. أنا يا عمي عبد مأمور.. هل أستطيع الوقوف في وجه المدير.. هذا مدير.. بإمكانه أن يستغني عني كما استغنى عن كثيرين.. سأتجاوز.. سأتجاوز.. إذا كان غريمك القاضي.. فلمن تشتكي؟!!» ■

إلى منخريها.. كانت دجاجة متيبسة في التفكير العميق الذي أخذها إلى جهة الموت.. حملتها «ربابة ربة البيت»، وطوحت بها بعيداً لترتطم بين الحجارة، وحينها كأنها لفظت أنفاسها الأخيرة!!.

(٢) كتابة المستقبل

الخوف الأبيض ينسج أعصاب الآنين على أمن شرايين أطفالهم الصغار..

الخوف الأصفر غول شرس يسكن القلوب الآيلة إلى الانهيار..

الخوف الدموي ورقة سوداء نكتب عليها، بالحبر الأسود، كلمات سوداء؛ نلعن فيها، في الليل الأسود، كل الذين جعلوا عيشتنا سوداء.. وعندما يقبضون علينا متلبسين بالكتابة يضحك الغول الشرس المنشغل بتناول المهدئات الخطرة، فنلعق أحزاننا ساخرين جادين.. ألا ترون هذه الورقة السوداء، والقلم الأسود، والحروف السوداء، الفكرة السوداء.. لا دليل يدين هذا «النحن» العبد المستكين الواقف أمامكم..

قالوا: لا فرق بين الورقة السوداء، والأخرى البيضاء.. المهم أنكم متلبسون بالكتابة التي حرمت عليكم منذ أن قررنا أنها تضر بصحتكم المرهفة..

نشر حروفه الأولى.. فصادروها.. وزع أوراقه البيضاء بعنوان: «ما أريد قوله تعرفونه».. فصادروها.. قرر أن ينشر كتابه الأسود بعنوان «أيام سودة».. .. فصادروه أيضاً، وحكموا عليه بالجنون الذي علاجه أن ينسخ دساتيرهم مئات المرات!!

(٣) التجاوز

قهقه الصباح بكلماته الواعظة: «عليك أن تتجاوز الصغائر».. أكمل بقايا القهوة الباردة، دعك عقب السيجارة على الأرض بحذائه المتسخ.. توجه إلى عمله. همهم: «عليّ أن أتجاوز الصغائر.. أنا لا دخل لي بما يحدث، المدير قال وقع، فوقعت، صحيح أنه سيصرف لي مكافأة ضئيلة، لكن هذا لا يهم، فأنا مجرد موظف صغير يوقع على تجاوزاته الكثيرة.. حتى المسمار حسبه بعشرين دولاراً، ما علي إن كان ثمنه دولاراً واحداً، لكن اللعين حسبه بعشرين، والمؤسسة تحتاج مائة مسمار فقط، والملعون أضاف صفراً على الورق، يعنى أن الصفقة ستكون ألف مسمار، ولانشتري إلا مائة.. الألف مسمار بعشرين يعني عشرين ألف دولار، تدفع المؤسسة عشرين ألف دولار ثمن مائة مسمار بمائة دولار.. اللعين يعرف كيف يصب أموال المؤسسة في حجره.. مؤسسة الطيران المدني العامة بطولها وعرضها تصب في حجره.. ألم ينتفخ؟!! مع كل صفقة مكافأة لي مائة دولار.. ألف دولار في الشهر مكافأة.. ألف دولار مقابل عشر صفقات بآلاف الدولارات أمررها له.. اللعنة.. ما عليّ.. عليّ أن أتجاوز.. أن أوقع.. توقيع المدير هو الأهم.. أنا يا عمي عبد مأمور.. هل أستطيع الوقوف في وجه المدير.. هذا مدير.. بإمكانه أن يستغني عني كما استغنى عن كثيرين.. سأتجاوز.. سأتجاوز.. إذا كان غريمك القاضي.. فلمن تشتكي؟!!» ■

الناستالجيا

شارلوت برانس *

ترجمتها عن الفرنسية : ياسمينة صالح **

- ١ -

«ناستالجيا»،يا موسيقى كئيبة من القلب، يا عزف حزين على وتر الذكريات، يا ناستالجيا.. هكذا تفكر «بوابا» وهي تحدق في نقطة مجهولة. لقد حل العيد فجأة. حل دونما استئذان من قلبها المطوّق بالحزن والقتامة، العيد الذي جاء مفعماً بالناستالجيا وهي تدرك تمام الإدراك أنها لا تقدر على الاحتفال به مثلما لا تقدر على تحمل طقوس الفرح المحنى بالحنّاء وغناء العذارى، وعنفوان الأطفال المبتهجين.

ناستالجيا»، يا أغنية تدقني مسماراً صدئاً على جدارن الزمن!

تتأوه وتمشي مشيتها الكئيبة نحو أمها المنشغلة بصنع خبز «الكدمار». لم تنظر أمها إليها، لأنها تعرف جيداً ضخامة ما سوف تراه في عيني ابنتها، همست بكلام مقتضب وغامض، كأنها تواسي شيئاً غامضاً بينهما، وراحت تنكب على خبزها تعدّه بصمت مهول..

«باوبا» تقرأ بوضوح ما يجول في خاطر أمها، تجلس قبالتها وتتأهب للمساعدة. تتأهب لكل شيء يساعدها على الانشغال عن التفكير في أشياء ماتت في قلبها. كانت تقول في نفسها أن العيد لم يأت لأجلها، لهذا فهو لا يعني لها أكثر من أعباء إضافية عليها القيام بها، كالاستعداد لاستقبال أكبر عدد من المهنئين، من داخل القرية ومن خارجها. من الأقارب والأحباب و.....

الأحباب!؟ دقّت الكلمة في رأسها ناقوساً من الوجع، وانفتح الجرح ثانية. جرح التفكير في كل الأشياء التي ماتت أو انتهت. تساءلت: هل يموت القلب حقاً؟ ثم سرعان ما ندمت على هذا السؤال، فهي إن حاولت الرّد عليه فسوف تضطر إلى استعادة ذكرياتها، ذكرياتها التي تشبه الناستالجيا!! الناستالجيا التي جاءت مع العيد، ومع الأغنيات السعيدة! الناستالجيا التي تعني ببساطة: رامون!!

دق قلبها بقوة، وكادت القصعة الطينية التي تحملها بين يديها أن تسقط على الأرض. طأطأت رأسها حزناً واندفعت نحو الدار لتبكي بحرية، بعيداً عن الأعين والتساؤلات.

- ٢ -

انتهت الوصلة الأولى من الغناء، وكانت الفتيات الجميلات تطرقن على الدف بقوة

---

* كاتبة كاميرونية

** كاتبة جزائرية

الناستالجيا

شارلوت برانس *

ترجمتها عن الفرنسية : ياسمينة صالح **

- ١ -

«ناستالجيا»، يا موسيقى كئيبة من القلب، يا عزف حزين على وتر الذكريات، يا ناستالجيا.. هكذا تفكر «بوابا» وهي تحدق في نقطة مجهولة. لقد حل العيد فجأة. حل دونما استئذان من قلبها المطوّق بالحزن والقتامة، العيد الذي جاء مفعماً بالناستالجيا وهي تدرك تمام الإدراك أنها لا تقدر على الاحتفال به مثلما لا تقدر على تحمل طقوس الفرح المحنى بالحنّاء وغناء العذارى، وعنفوان الأطفال المبتهجين.

ناستالجيا»، يا أغنية تدقني مسماراً صدئاً على جدارن الزمن!

تتأوه وتمشي مشيتها الكئيبة نحو أمها المنشغلة بصنع خبز «الكدمار». لم تنظر أمها إليها، لأنها تعرف جيداً ضخامة ما سوف تراه في عيني ابنتها، همست بكلام مقتضب وغامض، كأنها تواسي شيئاً غامضاً بينهما، وراحت تنكب على خبزها تعدّه بصمت مهول..

«باوبا» تقرأ بوضوح ما يجول في خاطر أمها، تجلس قبالتها وتتأهب للمساعدة. تتأهب لكل شيء يساعدها على الانشغال عن التفكير في أشياء ماتت في قلبها. كانت تقول في نفسها أن العيد لم يأت لأجلها، لهذا فهو لا يعني لها أكثر من أعباء إضافية عليها القيام بها، كالاستعداد لاستقبال أكبر عدد من المهنئين، من داخل القرية ومن خارجها. من الأقارب والأحباب و.....

الأحباب!؟ دقّت الكلمة في رأسها ناقوساً من الوجع، وانفتح الجرح ثانية. جرح التفكير في كل الأشياء التي ماتت أو انتهت. تساءلت: هل يموت القلب حقاً؟ ثم سرعان ما ندمت على هذا السؤال، فهي إن حاولت الرّد عليه فسوف تضطر إلى استعادة ذكرياتها، ذكرياتها التي تشبه الناستالجيا!! الناستالجيا التي جاءت مع العيد، ومع الأغنيات السعيدة! الناستالجيا التي تعني ببساطة: رامون!!

دق قلبها بقوة، وكادت القصعة الطينية التي تحملها بين يديها أن تسقط على الأرض. طأطأت رأسها حزناً واندفعت نحو الدار لتبكي بحرية، بعيداً عن الأعين والتساؤلات.

- ٢ -

انتهت الوصلة الأولى من الغناء، وكانت الفتيات الجميلات تطرقن على الدف بقوة

* كاتبة كاميرونية
** كاتبة جزائرية

وانفعال، بينما أصواتهن تتعالى وتتعالى بالغناء والرقص؟ الرقص حالة من حالات العيد، فوحده الرقص كان قادراً على فرض بينهن ما يشبه الانضباط في الحركات والإيماءات، الانضباط لشيء عجيب وحقيقي اسمه التقاليد التى بموجبها تصبح الفتاة امرأة، والمرأة أهلا للزواج! أجل! كان عيد «الندار» عيداً للزواج قبل كل شيء، وحدثاً مهماً في حياة كل فتاة وشاب من داخل القرية، عدا «بوابا»، التي فقدت متعة الغناء والرقص والفرح على وتيرة العيد. فقدت نكهةالعيد منذ أن فقدت «رامون»، فلم يعد بوسعها بعدئذ أن تحلم بشخص آخر، لأنها تعلم أن لا أحد يشبهه.

كانت جالسة وصامتة كواحدة عذراء، تحدق في نقطة مجهولة في الفضاء الشاسع، تحيط بها «ناستالجيا» خاصة بها. بها وحدها. حركت رأسها جهة اليمين فالتقت عينيها بعيني أمها. فجعت «بوابا» أمام ما رأته فيهما من أسى ومن انكسار، وارتأت أن تغض من بصرها حتى لاتقرأ مزيداً من ما قرأته. أمها حزينة لأجلها إذن، ومع ذلك تعرف «بوابا» أنها غير قادرة على الغفر لأمها والحال أن مواساتها هذه لاتكفي للتخفيف من أوجاعها المزمنة، لأنها في الحقيقة لا تستطيع أن تنسى ما صنعته أمها بها منذ أكثر من عشرة أعوام.

- ٣ -

«ناستالجيا»، يا قرية خالية ممن نحب، يا عيداً لا يحمل بين جوانحه قلب محب!

هذه الليلة المقمرة، تتمنى «بوابا» لو كان باستطاعتها أن تقول الحقيقة، كلّ الحقيقة، لكلّ النّاس، فاللّيلة تذكّرها بليلة تشبهها. ليلة كانت فيها «باويا» أجمل فتيات القرية، كانت تقترب من الثامنة عشر ربيعاً تضج عنفواناً وسعادة جعلاها أميرة بحق. وكان لها كامل الحق في ذلك التميّز الذي ملأها، فهي ابنة زعيم القرية، وهذا بحد ذاته سبب ليغمرها ذلك الشيء العجيب من التفرّد على قريناتها، ربّما هذا الذي يشبه الغرور هو الذي جعلها تحرص كل الحرص على الظهور دائماً بمظهر الأميرة، حتى عندما أحبت فعلت ذلك كأميرة، وكان فارسها «رامون»!

كان «رامون» فقيراً، لكنه كان شجاعاً وشهماً ومحبوباً أيضاً، ربّما لهذا نما الحب بينهما كما تنمو زهرة عطشانة للشمس والماء، بيد أن «بوابا» أحبته حباً جماً جعل القرية كلها تحيي لهما أعياداً يومية باسمهما. قال لها «رامون» ذات يوم: قدرنا أن نحب بعضنا لهذا علينا أن نرضى بكل شيء، ولم تفهم سوى ما أراد قلبها أن تفهمه ،تاركة لأحلامها العنان ولقلبها الحب. قال أبوها «رامون» شاب جيد، قوي وشجاع يستطيع حمايتك، زد إلى هذا فهو يحبك..

كل شيء بدا وكأنه يسير إلى النهاية السعيدة في العيد المنتظر، لولا «دارتابى» أمها، زوجة الزعيم التي لا ترد لها كلمة، ولا يرفض لها طلب. قلت «دارتابى» (لا)، وفجأة توقف الحلم وانطفأ الضوء وانتهى الحفل وسقط الستار.. حتى الزعيم- رغم حبه لابنته- عجز عن حماية حبها، فخضع لـ«داراتابى».

وجاء العيد المنتظر، ولم تتزوج «بوابا» .رحل رامون» عن القرية منكسراً وخائباًوخاسراً. تلك

وانفعال، بينما أصواتهن تتعالى وتتعالى بالغناء والرقص؟ الرقص حالة من حالات العيد، فوحده الرقص كان قادراً على فرض بينهن ما يشبه الانضباط في الحركات والإيماءات، الانضباط لشيء عجيب وحقيقي اسمه التقاليد التى بموجبها تصبح الفتاة امرأة، والمرأة أهلا للزواج! أجل! كان عيد «الندار» عيداً للزواج قبل كل شيء، وحدثاً مهماً في حياة كل فتاة وشاب من داخل القرية، عدا «بوابا»، التي فقدت متعة الغناء والرقص والفرح على وتيرة العيد. فقدت نكهةالعيد منذ أن فقدت «رامون»، فلم يعد بوسعها بعدئذ أن تحلم بشخص آخر، لأنها تعلم أن لا أحد يشبهه.

كانت جالسة وصامتة كواحدة عذراء، تحدق في نقطة مجهولة في الفضاء الشاسع، تحيط بها «ناستالجيا» خاصة بها. بها وحدها. حركت رأسها جهة اليمين فالتقت عينيها بعيني أمها. فجعت «بوابا» أمام ما رأته فيهما من أسى ومن انكسار، وارتأت أن تغض من بصرها حتى لاتقرأ مزيداً من ما قرأته. أمها حزينة لأجلها إذن، ومع ذلك تعرف «بوابا» أنها غير قادرة على الغفر لأمها والحال أن مواساتها هذه لاتكفي للتخفيف من أوجاعها المزمنة، لأنها في الحقيقة لا تستطيع أن تنسى ما صنعته أمها بها منذ أكثر من عشرة أعوام.

- ٣ -

«ناستالجيا»، يا قرية خالية ممن نحب، يا عيداً لا يحمل بين جوانحه قلب محب!

هذه الليلة المقمرة، تتمنى «بوابا» لو كان باستطاعتها أن تقول الحقيقة، كلّ الحقيقة، لكلّ النّاس، فاللّيلة تذكّرها بليلة تشبهها. ليلة كانت فيها «باويا» أجمل فتيات القرية، كانت تقترب من الثامنة عشر ربيعاً تضج عنفواناً وسعادة جعلاها أميرة بحق. وكان لها كامل الحق في ذلك التميّز الذي ملأها، فهي ابنة زعيم القرية، وهذا بحد ذاته سبب ليغمرها ذلك الشيء العجيب من التفرّد على قريناتها، ربّما هذا الذي يشبه الغرور هو الذي جعلها تحرص كل الحرص على الظهور دائماً بمظهر الأميرة، حتى عندما أحبت فعلت ذلك كأميرة، وكان فارسها «رامون»!

كان «رامون» فقيراً، لكنه كان شجاعاً وشهماً ومحبوباً أيضاً، ربّما لهذا نما الحب بينهما كما تنمو زهرة عطشانة للشمس والماء، بيد أن «بوابا» أحبته حباً جماً جعل القرية كلها تحيي لهما أعياداً يومية باسمهما. قال لها «رامون» ذات يوم: قدرنا أن نحب بعضنا لهذا علينا أن نرضى بكل شيء، ولم تفهم سوى ما أراد قلبها أن تفهمه،تاركة لأحلامها العنان ولقلبها الحب. قال أبوها «رامون» شاب جيد، قوي وشجاع يستطيع حمايتك، زد إلى هذا فهو يحبك..

كل شيء بدا وكأنه يسير إلى النهاية السعيدة في العيد المنتظر، لولا «دارتابى» أمها، زوجة الزعيم التي لا ترد لها كلمة، ولا يرفض لها طلب. قلت «دارتابى» (لا)، وفجأة توقف الحلم وانطفأ الضوء وانتهى الحفل وسقط الستار.. حتى الزعيم- رغم حبه لابنته- عجز عن حماية حبها، فخضع لـ«داراتابى».

وجاء العيد المنتظر، ولم تتزوج «بوابا» .رحل رامون» عن القرية منكسراً وخائباًوخاسراً. تلك

الليل القمراء، لم تبك «باويا» كما تصور الناس، بل وقفت «يومها» أمامهم، بدت شاحبة ونحيلة كعود جاف، بينما الناس ينظرون إليها كأميرة مطرودة من الحلم، أعلنت «باويا» للناس: «لن أتزوج من أحد»، وتلقى الناس هذه الرسالة على أنها ردة فعل عفوية إزاء ألم عميق وجرح نازف. لكن الأمر كان غير ذلك.. كانت الأعياد العشرة الماضية خارج كوكبها الزمنى المكبل بالخوف والوحدة، عشرة أعوام مضت من عمرها، والعيد يعود كل عام والحياة تواصل حياتها كما لو كان كل شيء على ما يرام!

قبل أن يموت زعيم القبيلة بعامين، قال لها: «سامحيني يا ابنتي، سامحيني» شد يدها بقوة وهو يبكي على ابنته الوحيدة، وقد عرفت بعد ذلك أن الزعيم قد بعث يسأل وراء «رامون» في كل مكان ليطلب منه العودة إلى القرية، ولكن «رامون» اختفى عن الأنظار.

ومات الزعيم العزيز، ثم بقيت «دارتابى» أرملة ونادمة، فسادت حالة من الشفقة حول حياة «باويا»، شفقة كرهتها ثم سرعان ماصارت جزء من طقوسها اليومية الرتيبة.

وها هو العيد يأتي مرة أخرى، و«باويا» تزحف نحو العنوسة. كانت تنظر إلى قريناتها البنات وهن ترافقن أولادهن وبناتهن إلى الحفل، ثم تنظر إلى الفتيات الصغيرات ا لجميلات اللواتي يرقصن رقصة العيد، لتصبح كل خطوة منهن اقتراباً من الشاب الذي تختاره، وإعلاناً عن زواج قريب.

- ٤ -

ناستالجيا ، يا حكاية قديمة يعزفها العيد بأوتار قلب ميت!

كانت «بوابا» جالسة وهادئة كصورة خائفة من الحقيقة. كانت تبدو أجمل امرأة في العيد على الرغم من حزنها المزمن، ولعله هذا الحزن المفهوم الذي يجعل منها امرأة جميلة.. رأت أمها تنهض ثم تبتعد نحو البيت، وأرادت «باويا» أن تفعل مثلها. لقد أنهكها العيد هذه المرة، وها هي تشعر بالوهن يتسلل إلى أطرافها. تشعر برأسها يلف مع سرعة الرقص.. نهضت تترنح في مشيتها، كانت تشعر بالغثيان يعصر قلبها، ولم تتمالك نفسها. تقيأت طويلاً وعندما شعرت بالتحسن واصلت سيرها نحو البيت.

- إلى أين تذهبين يا «باويا»، العيد لم ينته بعد!

قالها صوت جاءها من الخلف. في البدء اعتقدت أن هذا الصوت بالذات صادر من أعماقها هي، من ذكرياتها، وعندما تكررت الجملة التفتت لتجده منتصباً قبالتها كالحلم.

- «رامون» ؟؟

- لم تتبدلي يا «باويا»، ما زلت أجمل النساء كما في خيالي..

ولم تعرف كيف ترد، كانت شاحبة كالموت..

- عدت إليك «باويا»، عدت لأجلك فقط، عدت لأن هذا العيد أرادني أن أعود كي تصيرين لي أجمل عروس أتحدى بوجودها الدنيا.. ولن يردني أحد عن هذا!

أغمضت «باويا» عينيها، كانت تشعر بالدوار يلف رأسها من جديد وفتحتهما لتجد «رامون» أمامها شامخاً وجاداً.

الليل القمراء، لم تبك «باوبا» كما تصور الناس، بل وقفت «يومها» أمامهم، بدت شاحبة ونحيلة كعود جاف، بينما الناس ينظرون إليها كأميرة مطرودة من الحلم، أعلنت «باوبا» للناس: «لن أتزوج من أحد»، وتلقى الناس هذه الرسالة على أنها ردة فعل عفوية إزاء ألم عميق وجرح نازف. لكن الأمر كان غير ذلك.. كانت الأعياد العشرة الماضية خارج كوكبها الزمنى المكبل بالخوف والوحدة، عشرة أعوام مضت من عمرها، والعيد يعود كل عام والحياة تواصل حياتها كما لو كان كل شيء على ما يرام!

قبل أن يموت زعيم القبيلة بعامين، قال لها: «سامحيني يا ابنتي، سامحيني» شد يدها بقوة وهو يبكي على ابنته الوحيدة، وقد عرفت بعد ذلك أن الزعيم قد بعث يسأل وراء «رامون» في كل مكان ليطلب منه العودة إلى القرية، ولكن «رامون» اختفى عن الأنظار.

ومات الزعيم العزيز، ثم بقيت «دارتابى» أرملة ونادمة، فسادت حالة من الشفقة حول حياة «باوبا»، شفقة كرهتها ثم سرعان ماصارت جزء من طقوسها اليومية الرتيبة.

وها هو العيد يأتي مرة أخرى، و«باوبا» تزحف نحو العنوسة. كانت تنظر إلى قريناتها البنات وهن ترافقن أولادهن وبناتهن إلى الحفل، ثم تنظر إلى الفتيات الصغيرات ا لجميلات اللواتي يرقصن رقصة العيد، لتصبح كل خطوة منهن اقتراباً من الشاب الذي تختاره، وإعلاناً عن زواج قريب.

- ٤ -

ناستالجيا ، يا حكاية قديمة يعزفها العيد بأوتار قلب ميت!

كانت «بوابا» جالسة وهادئة كصورة خائفة من الحقيقة. كانت تبدو أجمل امرأة في العيد على الرغم من حزنها المزمن، ولعله هذا الحزن المفهوم الذي يجعل منها امرأة جميلة.. رأت أمها تنهض ثم تبتعد نحو البيت، وأرادت «باوبا» أن تفعل مثلها. لقد أنهكها العيد هذه المرة، وها هي تشعر بالوهن يتسلل إلى أطرافها. تشعر برأسها يلف مع سرعة الرقص.. نهضت تترنح في مشيتها، كانت تشعر بالغثيان يعصر قلبها، ولم تتمالك نفسها. تقيأت طويلاً وعندما شعرت بالتحسن واصلت سيرها نحو البيت.

- إلى أين تذهبين يا «باوبا»، العيد لم ينته بعد!

قالها صوت جاءها من الخلف. في البدء اعتقدت أن هذا الصوت بالذات صادر من أعماقها هي، من ذكرياتها، وعندما تكررت الجملة التفتت لتجده منتصباً قبالتها كالحلم.

- «رامون» ؟؟

- لم تتبدلي يا «باوبا»، ما زلت أجمل النساء كما في خيالي..

ولم تعرف كيف ترد، كانت شاحبة كالموت..

- عدت إليك «باوبا»، عدت لأجلك فقط، عدت لأن هذا العيد أرادني أن أعود كي تصيرين لي أجمل عروس أتحدى بوجودها الدنيا.. ولن يردني أحد عن هذا!

أغمضت «باوبا» عينيها، كانت تشعر بالدوار يلف رأسها من جديد وفتحتهما لتجد «رامون» أمامها شامخاً وجاداً.

– هل تسمعين ما أقوله «يا باويا» ؟ سنتزوج الليلة، في هذا العيد الذي طالما حلمنا به.

كان الغناء يتعالى في صخب الفرح المحاط بأحلام العذارى، في ليلة مقمرة ومدهشة.

ناستالجيا.. يا أغنية في شفاه المحبين، يا عيداً يحمل اسم من نحب!■

- هل تسمعين ما أقوله «يا باويا» ؟ سنتزوج الليلة، في هذا العيد الذي طالما حلمنا به.

كان الغناء يتعالى في صخب الفرح المحاط بأحلام العذارى، في ليلة مقمرة ومدهشة.

ناستالجيا.. يا أغنية في شفاه المحبين، يا عيداً يحمل اسم من نحب!■

عطشُ ذاكرةِ النهر

علي السباعي*

صخورٌ مهشمة... أسماكٌ يابسة... جثثُ حيوانات مائية... نخيلٌ متيبس... أوانٍ صدئةٍ... بقايا هياكل عظميّة لحيوانات نافقةٍ... نفاياتٌ... أحذية عسكرية تقطنها سرطاناتٌ مخيفةٌ... أيادٍ مفجوعةٍ تمسك بعددالحفرِ وزوارقُ خشبية محطمة. ترى كم مرة عبرتْ؟ ومن حملتْ عند غرقها؟ كلها أضرحة تؤكد موت النهر.

المدينة ظمأى تبكي نهرها، تجمهر الناس بعيون قلقةٍ متأرجحين بين عالمين، في كل عالم يضعون قدماً، في برزخٍ بين ارتواءٍ وعطش، نور ظلام، بين حياةٍ وموت، صراخ وصمت، أبيض وأسود.

امرأة متسولة ترتدي سروالاً رجالياً أزرق شعرها ذو تسريحة رجالية بلون الكستناء، تمسكُ بيدها اليسرى سيكارتها، أفعى خضراء موشومة فوق كفها عند الإبهام، كأنها تنفث سحباً زرقاً دخانية، وتارة تمج نفساً طويلاً رصاصياً كالجحيم، عيناها بلون الحبر الصيني تراقب الناس ببلادة بغل، نظرات ثابتة ثقيلة، صرختْ في صوتٍ كوارثيّ:-

- اتركوا جسد النهر يا كفار!

تعانقتْ نقاط الوشم الأَربعةِ الموزعة في زوايافمها الأدرد ذي الشفاه البنفسجية، تردد نداؤها:-

- اتركوا المدينة.

الناس ضاجون كضجيج كورة زنابير، تدافعوا ناحية النهر يبحثون عن بقايا حروبهم الماضية وآخرون يتصورونه مستودعاً يحتفظ بخيباتهم، تنفث المتسولة دخان سيكارتها بمتعة، سروالها يتطاير عابثاً مالئاً الحيّز بين قدميها، عاودتْ زعيقها:-

- توبوا.. اطلبوا التوبة يا خطاة...!

تدافع جيشُ الأَطفالِ مطارداً ضفدعة مرعوبة، النساء الرجالَ يتضرعون بأصواتٍ مستجيرةٍ أو جرّتْ المتسولة كلماتها في صدورٍ لمتضرعين:-

- كفى آن لكم أ ن تموتوا. استطردتْ:انتظروا موتكم.

هتف آخر:-

- لنترك المدينة.

نادى أحدهم بتساؤلٍ خُرافيّ مبتور:-

- من تنتظرون يا مساكين؟

* كاتب عراقي

عطشُ ذاكرةِ النهر

علي السباعي*

صخورٌ مهشمة... أسماكٌ يابسة... جثثُ حيوانات مائية... نخيلٌ متيبس... أوانٍ صدئةٍ... بقايا هياكل عظميّة لحيوانات نافقةٍ... نفاياتٌ... أحذية عسكرية تقطنها سرطاناتٌ مخيفةٌ... أيادٍ مفجوعةٍ تمسك بعددالحفرِ وزوارقُ خشبية محطمة. ترى كم مرة عبرتْ؟ ومن حملتْ عند غرقها؟ كلها أضرحة تؤكد موت النهر.

المدينة ظمأى تبكي نهرها، تجمهر الناس بعيون قلقةٍ متأرجحين بين عالمين، في كل عالم يضعون قدماً، في برزخٍ بين ارتواءٍ وعطش، نور ظلام، بين حياةٍ وموت، صراخ وصمت، أبيض وأسود.

امرأة متسولة ترتدي سروالاً رجالياً أزرقٍ شعرها ذو تسريحة رجالية بلون الكستناء، تمسكُ بيدها اليسرى سيكارتها، أفعى خضراء موشومة فوق كفها عند الإبهام، كأنها تنفث سحباً زرقاً دخانية، وتارة تمج نفساً طويلاً رصاصياً كالجحيم، عيناها بلون الحبر الصيني تراقب الناس ببلادة بغل، نظرات ثابتة ثقيلة، صرختْ في صوتٍ كوارثيّ:-

– اتركوا جسد النهر يا كفار!

تعانقتْ نقاط الوشم الأُربعة الموزعة في زوايافمها الأدرد ذي الشفاه البنفسجية، تردد نداؤها:-

– اتركوا المدينة.

الناس ضاجون كضجيج كورة زنابير، تدافعوا ناحية النهر يبحثون عن بقايا حروبهم الماضية وآخرون يتصورونه مستودعاً يحتفظ بخيباتهم، تنفث المتسولة دخان سيكارتها بمتعة، سروالها يتطاير عابثاً مالئاً الحيّز بين قدميها، عاودتْ زعيقها:-

– توبوا.. اطلبوا التوبة يا خطاة...!

تدافع جيشُ الأطفالِ مطارداً ضفدعة مرعوبة، النساء الرجالَ يتضرعون بأصواتٍ مستجيرةٍ أو جرّتْ المتسولة كلماتها في صدورٍ لمتضرعين:-

– كفى آن لكم أ ن تموتوا. استطردتْ:انتظروا موتكم.

هتف آخر:-

– لنترك المدينة.

نادى أحدهم بتساؤلٍ خُرافيّ مبتور:-

– من تنتظرون يا مساكين؟

---

* كاتب عراقي

صَدَحَ أسمجهم بصوتٍ فيه نبرة انكسارٍ:-

- غادروا المدينة. لنْ يجري النهر أبداً...!

أمواجُ البشر تلد أمواجاً أخرى، تتناسل كالذباب، يتصاعد غبارها لافاً دائراً يندب نفسه كنساءٍ معزياتٍ، ينفذ صوت المرأة المتسولة كالرمح إلى خاصرة المدينة:-

- موتوا. آن لكمْ أن تموتوا.

يهلوسون بكلمات كالمحمومين: - انتظرناك ألف ليلة وليلة، ولم تأتِ..

الشمس تتفتت كالبخار بفعل غيوم عاجية جعلت نفسها فرشاة تغمسها بلهب الشمس صانعة لوحة صارخة تكثر بها ضربات الفرشاة السريالية، المعاول تحفر في جسد النهر آباراً فارغة، كل فرد يحفر لنفسه بئراً، أصبح جسد النهر مجدوراً بملايين الآبار العميقة، رائحة الطين تملأ المكان شوقاً لقطرة ماء، يحركهم لحن تدفق المياه بداخلهم، توجع المجدور من ضربات الفؤوس النابشة، المتسولة تستجدي وتبكي، تبكي وتستجدي بصوت جنائزي:-

- جئت لأموت. امنحوني قبراً.

مجرى النهر خارطة رسمت عليها مقبرة حديثة، وجوه الحفارين زرق مجهدة مثل طين غليظ مزج بمياه آسنة، يدهشهم استجداء المتسولة:-

- لله يا محسنين قبراً لفقيرة...!!!

تدثر القمر بغيمات بيض قطنية، عنفها أحد حفاري الآبار الشبان منزعجاً:-

- عشت حياتك كلها في الشحاذة.. واليوم تستجدين قبراً.. ابتعدي.

خرج صوتها يرافقه دخان سيكارتها ساحباً كلماتها بصرير موجع كمن يسحب سريراً حديدياً على بلاط:-

- يا إلهي لماذا يقف الإنسان ضد الإنسان؟

نهرها ثانية:-

- ابتعدي أيتها المجنونة.

أشعلت سيكارة جديدة من عقب سيكارتها المنتهية، مجت دخانها نفساً طويلاً من غيوم رصاصية مشعثة، قالت وهي تواصل نفث عباراتها الغامضة:-

- مساكين أهل الأوهام يحفرون قبورهم.

رن كلامها مثل ضربات فؤوس تنبش الأرض بسخط:-

- ادفنوا فيها : أحلامكم... ذكرياتكم... حروبكم... خطاياكم... أوهامكم... ابتلعت ضربات المعاول كلماتها، عاودت موال استجدائها الحزين:-

- قبراً لفقيرة!!!

›››

طبول تقرع تضرعاً: ((متى يجري النهر؟)).

الغيوم عناكب خردلية نسجت مكوكاتها شباكاً معتمة اصطادت الشمس والبشر. البشرمطاردون بتدفق أصوات المياه، هرولت كلمات أحدهم:-

- احفروا. استمروا بالحفر.. سنجد الماء حتماً.

تتضاحك معاولهم بأصواتها القاضمة للطين أن: لا جدوى!

قال آخر:-

- واصلوا الحفر.

جهر صوت نسائي من حفرة بعيدة:-

- لقد جرى... جرى... احفروا.

صَدَحَ أسمجهم بصوتٍ فيه نبرة انكسار:-
- غادروا المدينة. لنْ يجري النهر أبداً...!
أمواجُ البشر تلد أمواجاً أخرى، تتناسل كالذباب، يتصاعد غبارها لافاً دائراً يندب نفسه كنساءٍ معزياتٍ، ينفذ صوت المرأة المتسولة كالرمح إلى خاصرةِ المدينة:-
- موتوا. آن لكمْ أن تموتوا.
يهلوسون بكلمات كالمحمومين: - انتظرناك ألف ليلة وليلة، ولم تأْتِ..
الشمس تتفتت كالبخار بفعل غيوم عاجية جعلت نفسها فرشاة تغمسها بلهب الشمس صانعة لوحة صارخة تكثر بها ضربات الفرشاة السريالية، المعاول تحفر في جسد النهر آباراً فارغة، كل فرد يحفر لنفسه بئراً، أصبح جسد النهر مجدوراً بملايين الآبار العميقة، رائحة الطين تملأ المكان شوقاً لقطرة ماء، يحركهم لحن تدفق المياه بداخلهم، توجع المجدور من ضربات الفؤوس النابشة، المتسولة تستجدي وتبكي، تبكي وتستجدي بصوت جنائزي:-
- جئت لأموت. امنحوني قبراً.
مجرى النهر خارطة رسمت عليها مقبرة حديثة، وجوه الحفارين زرق مجهدة مثل طين غليظ مزج بمياه آسنة، يدهشهم استجداء المتسولة:-
- لله يا محسنين قبراً لفقيرة...!!!
تدثر القمر بغيمات بيض قطنية، عنفها أحد حفاري الآبار الشبان منزعجاً:-
- عشت حياتك كلها في الشحاذة.. واليوم تستجدين قبراً.. ابتعدي.
خرج صوتها يرافقه دخان سيكارتها ساحباً كلماتها بصرير موجع كمن يسحب سريراً حديدياً على بلاط:-
- يا إلهي لماذا يقف الإنسان ضد الإنسان؟
نهرها ثانية:-
- ابتعدي أيتها المجنونة.
أشعلت سيكارة جديدة من عقب سيكارتها المنتهية، مجت دخانها نفساً طويلاً من غيوم رصاصية مشعثة، قالت وهي تواصل نفث عباراتها الغامضة:-
- مساكين أهل الأوهام يحفرون قبورهم.
رن كلامها مثل ضربات فؤوس تنبش الأرض بسخط:-
- ادفنوا فيها : أحلامكم... ذكرياتكم... حروبكم... خطاياكم... أوهامكم... ابتلعت ضربات المعاول كلماتها، عاودت موال استجدائها الحزين:-
- قبراً لفقيرة!!!
›››
طبول تقرع تضرعاً: ((متى يجري النهر؟)).
الغيوم عناكب خردلية نسجت مكوكاتها شباكاً معتمة اصطادت الشمس والبشر. البشرمطاردون بتدفق أصوات المياه، هرولت كلمات أحدهم:-
- احفروا. استمروا بالحفر.. سنجد الماء حتماً.
تتضاحك معاولهم بأصواتها القاضمة للطين أن: لا جدوى!
قال آخر:-
- واصلوا الحفر.
جهر صوت نسائي من حفرة بعيدة:-
- لقد جرى... جرى... احفروا.

ابتلع كهل ريقه باصقا بشدة في كفيه، صاح مفجوعاً:-

- نحن متواطئون مع الشيطان...

كفن صوته ووضع في تابوت ضيق صراخ امرأة تحاول إرضاع طفلها من ثديها السائح كعجينة ممطوطة:-

- حلّت نهايتها. رحمتك يا إلهي!

ذهولٌ شاحب ركع في وجوهٍ وحركات الحفارين، عيونهم شاحبة باردة جاحظة في تشوشٍ كأنها عيون ضفادع باردة رخيّة تستفهم ببلادة، حشودهم تنز عرقاً، عيونهم رطبة تجوس خلال الأشياء بترددٍ، نذور النسوة طمرتها أتربة الحفر، طمرتْ شموعهم، زغردتْ المتسولة فرحة:-

- ولّى زمنُ الغربةِ وعاد نهرنا يجري... يجري.

- عيناها السوداوانِ زجا جيتّان لمعتا بنداوةِ مكابرةٍ، قطعتْ الشمس البرتقاليةّ آلاف القطع بسكاكين حملتها الطيور الأبابيل بمناقيرها، كان أهل المدينة منذهلين ينظرون ناحية الطيور الأبابيل، يرفعون رؤوس أصابعهم تتطاول رقابهم شخصت أبصارهم لتشاهد تحت فضة القمر البليلة المتسولة خارجةٍ من قبرها حاملة ما بين راحتيها اليابستين ذاتي الأصابعِ الطويلةِ غرفة دم. دم ساخن وفائر...■

ابتلع كهل ريقه باصقا بشدة في كفيه، صاح مفجوعاً:-

- نحن متواطئون مع الشيطان...

كفن صوته ووضع في تابوت ضيق صراخ امرأة تحاول إرضاع طفلها من ثديها السائح كعجينة ممطوطة:-

- حلتِ نهايتها. رحمتك يا إلهي!

ذهول شاحب ركع في وجوهِ وحركات الحفارين، عيونهم شاحبة باردة جاحظة في تشوشٍ كأنها عيون ضفادع باردة رخيّة تستفهم ببلادة، حشودهم تنز عرقاً، عيونهم رطبة تجوس خلال الأشياء بترددٍ، نذور النسوة طمرتها أتربة الحفر، طمرتْ شموعهم، زغردتْ المتسولة فرحة:-

- ولّى زمنُ الغربةِ وعاد نهرنا يجري... يجري.

- عيناها السوداوانِ زجا جيتّان لمعتا بنداوةِ مكابرةٍ، قطعتْ الشمس البرتقالية آلاف القطع بسكاكين حملتها الطيور الأبابيل بمناقيرها، كان أهل المدينة منذهلين ينظرون ناحية الطيور الأبابيل، يرفعون رؤوس أصابعهم تتطاول رقابهم شخصت أبصارهم لتشاهد تحت فضة القمر البليلة المتسولة خارجةٍ من قبرها حاملة ما بين راحتيها اليابستين ذاتي الأصابعِ الطويلةِ غرفة دم. دم ساخن وفائر...■

قصة قصيرة

حـــالات

عائشة النعيمي *

● **حالة (١) :**

راقصة مجنونة، دارت حول النار، لفّت على إيقاع الروح، جلست وألقمت ثدييها لجراء تعوي.

● **حالة (٢) :**

مالت الشمس للمغيب.. أرادت أن تلهو، رقصت في ساحة السماء.. اندهشت الشمس لأن أحداً لم.. يندهش.

● **حالة (٣) :**

ترجل الفارس.. انصهر في الحشود.. خرج يحمل، علبة دخان وممحاة أقلام وغصون على الجبين تبتسم.

● **حالة (٤) :**

أبوالفراس مات غرقاً.. ولم ينزل بعده القطرُ.

● **حالة (٥) :**

المروحة الصدئة، بحثت عن كلمة هاربة مع صنوبرة باكية إلى مساحة للحلم، المروحة صرخت بهدوء.. ثم نامت.

● **حالة (٦) :**

عند كل صباح أزيح الضباب عن عيني تلالاً، وأحمد الله عن وخزة في ضميري المشلول.

● **حالة (٧) :**

الثور المجنح تاق للطيران، لكنهم أثقلوه بالأحلام، ذرف شوقه والتهم الكلمات وهو يبكي.■

* كاتبة عراقية

قصة قصيرة

حـــالات

عائشة النعيمي *

● **حالة (١) :**

راقصة مجنونة، دارت حول النار، لفّت على إيقاع الروح، جلست وألقمت ثدييها لجراء تعوي.

● **حالة (٢) :**

مالت الشمس للمغيب.. أرادت أن تلهو، رقصت في ساحة السماء.. اندهشت الشمس لأن أحداً لم.. يندهش.

● **حالة (٣) :**

ترجل الفارس.. انصهر في الحشود.. خرج يحمل، علبة دخان وممحاة أقلام وغصون على الجبين تبتسم.

● **حالة (٤) :**

أبوالفراس مات غرقاً.. ولم ينزل بعده القطرُ.

● **حالة (٥) :**

المروحة الصدئة، بحثت عن كلمة هاربة مع صنوبرة باكية إلى مساحة للحلم، المروحة صرخت بهدوء.. ثم نامت.

● **حالة (٦) :**

عند كل صباح أزيح الضباب عن عيني تلالاً، وأحمد الله عن وخزة في ضميري المشلول.

● **حالة (٧) :**

الثور المجنح تاق للطيران، لكنهم أثقلوه بالأحلام، ذرف شوقه والتهم الكلمات وهو يبكي.■

* كاتبة عراقية

حوار مع مكسيم شيفيتشينكو *

د . أشرف الصباغ **

وسائل الإعلام في روسيا .. مشكلة ضخمة وعويصة. أثناء مشاهدة التليفزيون أو قراءة الصحف تشعر أنك في دولة أخرى.. من الممكن أن تكون أية دولة على الكرة الأرضية ما عدا روسيا. بصراحة شديدة، فوسائل الإعلام في روسيا ما بعد السوفيتية اتخذت مساراً عنصرياً واسع النطاق- على مستوى العرق والدين واللون. ففي الوقت الذي نجدها تكرس لمصطلحات عنصرية ضد القوقاز والعرب والملونين بشكل عام، نراها تشن حملات عنيفة إذا مس كاتب أو سياسي أو حتى إنسان عادي اليهود- وبالذات اليهود وليس أي أحد آخر. وفي الوقت الذي تطالب فيه وسائل الإعلام في روسيا بحرية الكلمة، نجدها تطالب بسن القوانين ضد أي إنسان يتجرأ ويفتح فمه بكلمة عن الهولوكوست أو أوهام العهد القديم. ومع ذلك تجد هناك أصواتا تغرد خارج السرب: أصوات مثقفين وكتاب وصحفيين. أولئك الذين يبحثون عن الآخر المقصود بكتاباتهم، والمقموع مثلهم.

مكسيم ليوناردوفيتش شيفيتشينكو- أحد جيل الشباب من الإعلاميين الروس. يرأس الملحق الديني الذي يصدر مرتين شهرياً لأشهر صحيفة روسية «نيزافيسيمايا جازيتا». مكسيم لديه حرية الحركة. وبالتالي عندما ذهب إلى كوسوفو ورأى مستنقعات الدم هناك، عاد ليكتب سلسلة ضخمة من المقالات التي أعلن فيها الحقيقة المؤلمة: كيف كان الصرب يقتلون الألبان بدماء باردة وقلوب من حجر. وعندما هبت انتفاضة الأقصى، سافر مكسيم على الفور إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة ليعود بسلسلة جديدة عن دماء الأطفال والحجارة التي تواجه واحدة من أقسى الآلات العسكرية قمعاً وبشاعة وانحطاطاً.

يبتسم مكسيم شفيتشينكو بين السخرية والتحدي: يتحدثون عن حرية الكلمة، ويتهمون الناس بما يسمى بـ«معاداة السامية». وعندما تكتب الحقيقة مجرد ما رأيته فقط بدون رتوش أو مبالغات، تقوم القيامة، وتجد نفسك معادياً للسامية وإرهابياً، ومهدداً بالقتل على يد اللوبي الصهيوني، ذلك الشيء البشع الذي لا تراه ولكنك تشعر بتأثيره أينما حللت.

هذا هو تعليق شفيتشينكو بعد أن وصلته رسائل التهديد والهجوم عن طريق البريد

---

* رئيس تحرير الملحق الديني لصحيفة «نيزافيسيمايا جازيتا» الروسية

** كاتب وباحث أكاديمي مقيم في موسكو

حوار مع مكسيم شيفيتشينكو *

د . أشرف الصباغ **

وسائل الإعلام في روسيا .. مشكلة ضخمة وعويصة. أثناء مشاهدة التليفزيون أو قراءة الصحف تشعر أنك في دولة أخرى.. من الممكن أن تكون أية دولة على الكرة الأرضية ما عدا روسيا. بصراحة شديدة، فوسائل الإعلام في روسيا ما بعد السوفيتية اتخذت مساراً عنصرياً واسع النطاق- على مستوى العرق والدين واللون. ففي الوقت الذي نجدها تكرس لمصطلحات عنصرية ضد القوقاز والعرب والملونين بشكل عام، نراها تشن حملات عنيفة إذا مس كاتب أو سياسي أو حتى إنسان عادي اليهود- وبالذات اليهود وليس أي أحد آخر. وفي الوقت الذي تطالب فيه وسائل الإعلام في روسيا بحرية الكلمة، نجدها تطالب بسن القوانين ضد أي إنسان يتجرأ ويفتح فمه بكلمة عن الهولوكوست أو أوهام العهد القديم. ومع ذلك تجد هناك أصواتا تغرد خارج السرب: أصوات مثقفين وكتاب وصحفيين. أولئك الذين يبحثون عن الآخر المقصود بكتاباتهم، والمقموع مثلهم.

مكسيم ليوناردوفيتش شيفيتشينكو- أحد جيل الشباب من الإعلاميين الروس. يرأس الملحق الديني الذي يصدر مرتين شهرياً لأشهر صحيفة روسية «نيزافيسيمايا جازيتا». مكسيم لديه حرية الحركة. وبالتالي عندما ذهب إلى كوسوفو ورأى مستنقعات الدم هناك، عاد ليكتب سلسلة ضخمة من المقالات التي أعلن فيها الحقيقة المؤلمة: كيف كان الصرب يقتلون الألبان بدماء باردة وقلوب من حجر. وعندما هبت انتفاضة الأقصى، سافر مكسيم على الفور إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة ليعود بسلسلة جديدة عن دماء الأطفال والحجارة التي تواجه واحدة من أقسى الآلات العسكرية قمعاً وبشاعة وانحطاطاً.

يبتسم مكسيم شفيتشينكو بين السخرية والتحدي: يتحدثون عن حرية الكلمة، ويتهمون الناس بما يسمى بـ«معاداة السامية». وعندما تكتب الحقيقة مجرد ما رأيته فقط بدون رتوش أو مبالغات، تقوم القيامة، وتجد نفسك معادياً للسامية وإرهابياً، ومهدداً بالقتل على يد اللوبي الصهيوني، ذلك الشيء البشع الذي لا تراه ولكنك تشعر بتأثيره أينما حللت.

هذا هو تعليق شفيتشينكو بعد أن وصلته رسائل التهديد والهجوم عن طريق البريد

---

* رئيس تحرير الملحق الديني لصحيفة «نيزافيسيما يا جازيتا» الروسية

** كاتب وباحث أكاديمي مقيم في موسكو

والإنترنت لأنه تجرأ ونشر مجموعة من الموضوعات عن أحداث الإرهاب الإسرائيلي وقتل النساء والأطفال في الأراضي الفلسطينية المحتلة. ناهيك طبعاً عن المقاطعة الشديدة وانفضاض الأصدقاء عنه واتهامهم إياه بالتغريد خارج السرب.. سرب الإعلام في روسيا!

- مكسيم، كيف ترى الحملة الدعائية الموجهة إلى العرب، والتصميم على ربط العرب والإسلام بالإرهاب. ما هو المنشأ الحقيقي لهذه الحملة، والأسباب؟

- إن منشأ أي كذب يكمن بالدرجة الأولى في الجهل. هذا هو أول سبب في أية آراء مزيفة، وفي أي حملات تضليلية. أعتقد أن مواطنينا هنا يعرفون النزر اليسير عن الإسلام والعرب.. يعرفون بالسمع فقط. يعرفون أموراً عامة ولا يلاحظون في ذات الوقت أن الكثيرين من مواطنينا في روسيا يعتنقون الدين الإسلامي. ولا يتذكرون أيضاً أن هناك علاقات تاريخية بين روسيا القيصرية والاتحاد السوفييتى من بعدها بالعالم العربي والإسلامي، ولا تزال هذه العلاقات موجودة، أو على الأقل يجب أن تظل موجودة ووطيدة.

أما السبب الآخر العام، هو السياسة الإسرائيلية ورجال الأعمال الإسرائيليون. أنا لا أقصد هنا الدخول في القضايا القومية، ولكنني أقصد تحديداً أولئك الذين يملكون جنسية إسرائيلية من مواطني روسيا الاتحادية. فهناك العديد من اليهود يعيشون في هدوء كمواطنين صالحين في روسيا، وهناك الكثير من المستشرقين يعتنقون الديانة اليهودية ولعبوا دوراً هاماً في مجال الاستشراق وتطوير العلاقات بين روسيا والعرب. ولكن الضعف ا لذي أصاب روسيا داخلياً وخارجياً جعلها تقع تحت وطأة السياسة الإسرائيلية. كما أن الدعائيين الإسرائيليين يلعبون دوراً ملحوظاً في وسائل الإعلام الروسية، وفي الاقتصاد والأموال والمعلومات أيضاً.

على سبيل المثال، عندما جاء نتنياهو إلى موسكو صدرت جميع وسائل الإعلام مرددة أحاديثه وشعاراته و ادعاءاته، وعندما جاء محمود عباس (أبومازن) بعده بيومين فقط قامت صحيفة أو اثنتان بنشر خبر متواضع جداً فى زاوية مهملة وكفى، بذلك أعتقد أن إسرائيل تفتح جبهة جديدة ومؤثرة ضد العرب هنا في روسيا. وهذه مشكلة فى غاية التعقيد والصعوبة. وطبعاً يدهشنى كثيرا عندما تصرح روسيا عن محاولاتها في تطبيع الوضع في الشرق الأوسط وفي ذات الوقت تطلق من مطاراتها ٧ أقمار صناعية إسرائيلية.

- هناك تناقضات شديدة وتضارب بين تصريحات الحكومة الروسية وبين توجهات وسائل الإعلام في روسيا. هذه المشكلة في الواقع تؤثر ليس فقط على الدول التي تملك علاقات مع روسيا، بل أيضاً على المواطن الروسي البسيط حيث أن طواغيت المال اليهود يسيطرون تقريباً على جميع وسائل الإعلام في روسيا.

- طواغيت المال ليسوا جميعاً من اليهود- فهناك جزء إسرائيلي، وجزء يهودي روسى إسرائيلي، وهناك روس يعملون بأموال إسرائيلية. مثل تلك المشكلة يجب أن تظهر حتماً في ظل الطريقة المتبعة حالياً فى روسيا لبناء ما يسمى

والإنترنت لأنه تجرأ ونشر مجموعة من الموضوعات عن أحداث الإرهاب الإسرائيلي وقتل النساء والأطفال في الأراضي الفلسطينية المحتلة. ناهيك طبعاً عن المقاطعة الشديدة وانفضاض الأصدقاء عنه واتهامهم إياه بالتغريد خارج السرب.. سرب الإعلام في روسيا!

- مكسيم، كيف ترى الحملة الدعائية الموجهة إلى العرب، والتصميم على ربط العرب والإسلام بالإرهاب. ما هو المنشأ الحقيقي لهذه الحملة، والأسباب؟

- إن منشأ أي كذب يكمن بالدرجة الأولى في الجهل. هذا هو أول سبب في أية آراء مزيفة، وفي أي حملات تضليلية. أعتقد أن مواطنينا هنا يعرفون النزر اليسير عن الإسلام والعرب.. يعرفون بالسمع فقط. يعرفون أموراً عامة ولا يلاحظون في ذات الوقت أن الكثيرين من مواطنينا في روسيا يعتنقون الدين الإسلامي. ولا يتذكرون أيضاً أن هناك علاقات تاريخية بين روسيا القيصرية والاتحاد السوفييتى من بعدها بالعالم العربي والإسلامي، ولا تزال هذه العلاقات موجودة، أو على الأقل يجب أن تظل موجودة ووطيدة.

أما السبب الآخر العام، هو السياسة الإسرائيلية ورجال الأعمال الإسرائيليون. أنا لا أقصد هنا الدخول في القضايا القومية، ولكنني أقصد تحديداً أولئك الذين يملكون جنسية إسرائيلية من مواطني روسيا الاتحادية. فهناك العديد من اليهود يعيشون في هدوء كمواطنين صالحين في روسيا، وهناك الكثير من المستشرقين يعتنقون الديانة اليهودية ولعبوا دوراً هاماً في مجال الاستشراق وتطوير العلاقات بين روسيا والعرب. ولكن الضعف ا لذي أصاب روسيا داخلياً وخارجياً جعلها تقع تحت وطأة السياسة الإسرائيلية. كما أن الدعائيين الإسرائيليين يلعبون دوراً ملحوظاً في وسائل الإعلام الروسية، وفي الاقتصاد والأموال والمعلومات أيضاً.

على سبيل المثال، عندما جاء نتنياهو إلى موسكو صدرت جميع وسائل الإعلام مرددة أحاديثه وشعاراته و ادعاءاته، وعندما جاء محمود عباس (أبومازن) بعده بيومين فقط قامت صحيفة أو اثنتان بنشر خبر متواضع جداً في زاوية مهملة وكفى، بذلك أعتقد أن إسرائيل تفتح جبهة جديدة ومؤثرة ضد العرب هنا في روسيا. وهذه مشكلة في غاية التعقيد والصعوبة. وطبعاً يدهشني كثيرا عندما تصرح روسيا عن محاولاتها في تطبيع الوضع في الشرق الأوسط وفي ذات الوقت تطلق من مطاراتها ٧ أقمار صناعية إسرائيلية.

- هناك تناقضات شديدة وتضارب بين تصريحات الحكومة الروسية وبين توجهات وسائل الإعلام في روسيا. هذه المشكلة في الواقع تؤثر ليس فقط على الدول التي تملك علاقات مع روسيا، بل أيضاً على المواطن الروسي البسيط حيث أن طواغيت المال اليهود يسيطرون تقريباً على جميع وسائل الإعلام في روسيا.

- طواغيت المال ليسوا جميعاً من اليهود- فهناك جزء إسرائيلي، وجزء يهودي روسى إسرائيلي، وهناك روس يعملون بأموال إسرائيلية. مثل تلك المشكلة يجب أن تظهر حتماً في ظل الطريقة المتبعة حالياً فى روسيا لبناء ما يسمى

بـ«المجتمع المفتوح». وبالطبع فهذه الطريقة مبنية أساساً- وفقط- على عمليات مالية اقتصادية غير خاضعة لإشراف الحكومة الروسية وليست لها أية رقابة عليها، وخاصة الجزء المرصود للإعلام.

إن الحملة الموجهة ضد العرب والإسلام موجودة وجارية ليس لأن رجال الصحافة لديهم موقف معادي للعرب والمسلمين، ولكن لأن أصحاب المال- ببساطة- يشترون الصحفيين. ونظراً لأن رجال المال والأعمال في هذا المجال في ارتباط مباشر بإسرائيل وسياستها، فمن الطبيعي أن يحدث مثل هذا الأمر، وخاصة إذا كانت هناك رؤوس أموال ضخمة لدولة أجنبية «تلعب» دون رقيب أو حسيب.

هناك سبب آخر هام وجوهري، وهو أن لا يوجد في روسيا ما بعد السوفييتية ميكانيزم سياسي عقائدي يمكنه أن يعمل داخل وسائل الإعلام في روسيا الجديدة.

- يقال أن فلاديمير بوتين يحاول الآن بشكل أو بآخر توجيه وسائل الإعلام لخدمة المجتمع والدولة وإخضاعها بالدرجة الأولى إلى مصالحهما، وإلى الرأي العام ككل، وجعلها غير خاضعة فقط لمصالح رجال الأعمال وطواغيت المال. بل ويقال أيضاً أن بوتين يواجه مصاعب كثيرة في محاولاته لإبعاد وسائل الإعلام فى روسيا عن ممارسة أدوار تخدم مصالح دول أجنبية تعمل على تمويل هذه الوسائل الإعلامية..

- إنني أؤكد هنا أنه لا يوجد أي فرق بين مواطني إسرائيل أو سويسرا، مثلاً، فى روسيا، فلو فعل مواطنو سويسرا الموجودون في روسيا ما يفعله مواطنو إسرائيل لكان من الضروري اتخاذ إجراءات مناسبة ضدهم. وبالتالي يجب أن يخضع المواطنون الإسرائيليون للقانون الروسى ويراعون مصالح الدولة التى يعيشون فيها. ولكن القضية أن المنطقة التي توجد بها دولة مثل سويسرا ليست فيها حروب أو نزاعات حادة. أما منطقة الشرق الأوسط فتمتلك أهمية عالمية وعلى درجة كبيرة من الخصوصية. والنزاع فيها يمتلك تأثيراً خطيراً على جميع دول العالم من حيث أسعار النفط والطاقة والجوانب الأخرى الخاصة بالسياسة الدولية.

هنا يمكنني أن أشير إلى أن وسائل الإعلام الأمريكية والأوروبية تتعامل مع العرب بشكل أفضل وأكثر احتراماً- وطبعاً بشكل نسبي- مما تفعله تلك الوسائل في روسيا. ذلك لأن روسيا ليس بها رأى عام. أما الدول الأوروبية وأميركا فالرأي العام فيها واعٍ، وبها حالة من الاتزان الاجتماعي نحو القضايا الخارجية.

الأمر الآخر، هو أن هذه الحملة تجري نتيجة لأمية رجال السياسة الروس، وعدم مصداقيتهم. فعلى سبيل المثال، عندما بدأت الحرب الشيشانية الثانية توجهت وسائل الإعلام بما فيها «نيزافيسيمايا جازيتا» إلى رجال السياسة الإسرائيليين بشكل عام، وإلى العسكريين الإسرائيليين ورجال الموساد على وجه الخصوص، لتأخذ منهم المقابلات والأحاديث والتصريحات الصحفية، ومن ثم ركزوا على مقترحات العسكريين الإسرائيليين ورجال الاستخبارات بأنهم على استعداد لمساعدة موسكو

بـ«المجتمع المفتوح». وبالطبع فهذه الطريقة مبنية أساساً- وفقط- على عمليات مالية اقتصادية غير خاضعة لإشراف الحكومة الروسية وليست لها أية رقابة عليها، وخاصة الجزء المرصود للإعلام.

إن الحملة الموجهة ضد العرب والإسلام موجودة وجارية ليس لأن رجال الصحافة لديهم موقف معادي للعرب والمسلمين، ولكن لأن أصحاب المال- ببساطة- يشترون الصحفيين. ونظراً لأن رجال المال والأعمال في هذا المجال في ارتباط مباشر بإسرائيل وسياستها، فمن الطبيعي أن يحدث مثل هذا الأمر، وخاصة إذا كانت هناك رؤوس أموال ضخمة لدولة أجنبية «تلعب» دون رقيب أو حسيب.

هناك سبب آخر هام وجوهري، وهو أن لا يوجد في روسيا ما بعد السوفييتية ميكانيزم سياسي عقائدي يمكنه أن يعمل داخل وسائل الإعلام في روسيا الجديدة.

- يقال أن فلاديمير بوتين يحاول الآن بشكل أو بآخر توجيه وسائل الإعلام لخدمة المجتمع والدولة وإخضاعها بالدرجة الأولى إلى مصالحهما، وإلى الرأي العام ككل، وجعلها غير خاضعة فقط لمصالح رجال الأعمال وطواغيت المال. بل ويقال أيضاً أن بوتين يواجه مصاعب كثيرة في محاولاته لإبعاد وسائل الإعلام فى روسيا عن ممارسة أدوار تخدم مصالح دول أجنبية تعمل على تمويل هذه الوسائل الإعلامية..

- إنني أؤكد هنا أنه لا يوجد أي فرق بين مواطني إسرائيل أو سويسرا، مثلاً، فى روسيا، فلو فعل مواطنو سويسرا الموجودون في روسيا ما يفعله مواطنو إسرائيل لكان من الضروري اتخاذ إجراءات مناسبة ضدهم. وبالتالي يجب أن يخضع المواطنون الإسرائيليون للقانون الروسى ويراعون مصالح الدولة التى يعيشون فيها. ولكن القضية أن المنطقة التي توجد بها دولة مثل سويسرا ليست فيها حروب أو نزاعات حادة. أما منطقة الشرق الأوسط فتمتلك أهمية عالمية وعلى درجة كبيرة من الخصوصية. والنزاع فيها يمتلك تأثيراً خطيراً على جميع دول العالم من حيث أسعار النفط والطاقة والجوانب الأخرى الخاصة بالسياسة الدولية.

هنا يمكنني أن أشير إلى أن وسائل الإعلام الأمريكية والأوروبية تتعامل مع العرب بشكل أفضل وأكثر احتراماً- وطبعاً بشكل نسبي- مما تفعله تلك الوسائل في روسيا. ذلك لأن روسيا ليس بها رأى عام. أما الدول الأوروبية وأميركا فالرأي العام فيها واعٍ، وبها حالة من الاتزان الاجتماعي نحو القضايا الخارجية.

الأمر الآخر، هو أن هذه الحملة تجري نتيجة لأمية رجال السياسة الروس، وعدم مصداقيتهم. فعلى سبيل المثال، عندما بدأت الحرب الشيشانية الثانية توجهت وسائل الإعلام بما فيها «نيزافيسيمايا جازيتا» إلى رجال السياسة الإسرائيليين بشكل عام، وإلى العسكريين الإسرائيليين ورجال الموساد على وجه الخصوص، لتأخذ منهم المقابلات والأحاديث والتصريحات الصحفية، ومن ثم ركزوا على مقترحات العسكريين الإسرائيليين ورجال الاستخبارات بأنهم على استعداد لمساعدة موسكو

فى حربها ضد ما يطلقون عليه «التطرف الإسلامي». وهذا الكلام يقوله- طبعاً- أناس يحاربون العرب والإسلام طوال نصف قرن.

إنني لا أريد اتهام العسكريين الروس بالخيانة، أو بأنهم مشترون من قبل اللوبي الإسرائيلي والصهيوني. ولكنهم فعلاً يجهلون الأمور السياسية البديهية.. كما أن غياب القدرة على التحليل السياسي الواسع والعميق للسياسة الدولية يدفعهم الآن للتعاون مع القوى التي توجه الأمور الآن فى العالم. وطبعاً ففي الوقت الحالي تعتبر إسرائيل من الدول المتفوّقة على روسيا في مجالات كثيرة. والتعاون مع دولة أكثر قوة يؤدي بشكل أوبآخر إلى التبعية.

- ظل الاتحاد السوفييتي منذ بداية حكم خروشوف وحتى انهياره في نهاية الثمانينيات يتخذ موقفاً عادلاً من القضايا العربية وأهمية حلها وفقاً للقوانين الدولية وقرارات الأمم المتحدة، خاصة بعد اعتداء إسرائيل على الدول العربية عام ١٩٦٧. في تلك الفترة كانت أوروبا الغربية وأميركا تقف ضد العرب بشكل واضح. وفجأة بدأت المواقف تتناقض حيث أخذت مواقف أميركا وأوروبا تتجه نحو ضرورة حل النزاع العربي الإسرائيلي وفقاً للشرعية الدولية، بينما نلاحظ أن روسيا بدأت تتخذ موقفاً غير واضح، ولكنه أكثر وضوحاً في وسائل الإعلام. فهل هناك قوى ما ترغب فى اصطدام روسيا بالعالم العربي والإسلامي؟ هل هناك قوى من مصلحتها أن تصبح روسيا منطقة عازلة بين الغرب والشرق بأن تصبح على الدوام في خلاف دائم مع العالم العربي؟ وهل هناك أحد في روسيا يرى أن السياسة الروسية بذلك السلوك تضر بالمصالح القومية الروسية؟

- إن سياسة اصطدام روسيا بالعالم العربي والإسلامي سياسة بريطانية قديمة يدرسها الطلاب في معاهد القانون الدولي والسياسة والاقتصاد. وهي سياسة سارية إلى يومنا هذا. تلك السياسة ورثتها الدول التي ا حتلت مواقع الامبراطورية البريطانية بعد تفسخها. وأنا أقصد بالذات الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا الحالية والعديد من دول أوروبا. وعموماً، فنحن نعرف من التاريخ أن بريطانيا هي التى دفعت تركيا للاصطدام بالعالم الإسلامي. والنزاع اليوم بين روسيا والعالم الإسلامي والعربي سوف يفيد بالدرجة الأولى الولايات المتحدة وإسرائيل وبعض دول أوروبا الغربية.

إن السبب الأول والرئيسي هنا هو الاقتصاد. فروسيا كواحدة من أكبر الدول النفطية في العالم من حيث الاستخراج والتصدير والاحتياطي عندما تتعاون مع العالم العربي وخاصة المصدر للنفط، ستظهر بذلك قوة عالمية ضخمة ومؤثرة يمكنها أن تأخذ في يدها أكثر من ٨٠٪ من النفط العالمي.

هنا تكثف أميركا وإسرائيل جهودهما لعدم حدوث مثل هذا الالتقاء، وتسعيان إلى عدم حدوث ولو حتى أي احتمال يهدد مشاريعهما للسيطرة على العالم.

الجزء الآخر، هو أن إسرائيل تحاول أن تحل مشاكلها في الشرق الأوسط بإدخال روسيا كحليف لها على المستوى الاقتصادي والعسكري والإعلامي. وهي تفعل المستحيل من أجل إخراج

فى حربها ضد ما يطلقون عليه «التطرف الإسلامي». وهذا الكلام يقوله- طبعاً- أناس يحاربون العرب والإسلام طوال نصف قرن.

إنني لا أريد اتهام العسكريين الروس بالخيانة، أو بأنهم مشترون من قبل اللوبي الإسرائيلي والصهيوني. ولكنهم فعلاً يجهلون الأمور السياسية البديهية.. كما أن غياب القدرة على التحليل السياسي الواسع والعميق للسياسة الدولية يدفعهم الآن للتعاون مع القوى التي توجه الأمور الآن فى العالم. وطبعاً ففي الوقت الحالي تعتبر إسرائيل من الدول المتفوّقة على روسيا في مجالات كثيرة. والتعاون مع دولة أكثر قوة يؤدي بشكل أوبآخر إلى التبعية.

- ظل الاتحاد السوفييتي منذ بداية حكم خروشوف وحتى انهياره في نهاية الثمانينيات يتخذ موقفاً عادلاً من القضايا العربية وأهمية حلها وفقاً للقوانين الدولية وقرارات الأمم المتحدة، خاصة بعد اعتداء إسرائيل على الدول العربية عام ١٩٦٧. في تلك الفترة كانت أوروبا الغربية وأميركا تقف ضد العرب بشكل واضح. وفجأة بدأت المواقف تتناقض حيث أخذت مواقف أميركا وأوروبا تتجه نحو ضرورة حل النزاع العربي الإسرائيلي وفقاً للشرعية الدولية، بينما نلاحظ أن روسيا بدأت تتخذ موقفاً غير واضح، ولكنه أكثر وضوحاً في وسائل الإعلام. فهل هناك قوى ما ترغب فى اصطدام روسيا بالعالم العربي والإسلامي؟ هل هناك قوى من مصلحتها أن تصبح روسيا منطقة عازلة بين الغرب والشرق بأن تصبح على الدوام في خلاف دائم مع العالم العربي؟ وهل هناك أحد في روسيا يرى أن السياسة الروسية بذلك السلوك تضر بالمصالح القومية الروسية؟

- إن سياسة اصطدام روسيا بالعالم العربي والإسلامي سياسة بريطانية قديمة يدرسها الطلاب في معاهد القانون الدولي والسياسة والاقتصاد. وهي سياسة سارية إلى يومنا هذا. تلك السياسة ورثتها الدول التي ا حتلت مواقع الامبراطورية البريطانية بعد تفسخها. وأنا أقصد بالذات الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا الحالية والعديد من دول أوروبا. وعموماً، فنحن نعرف من التاريخ أن بريطانيا هي التى دفعت تركيا للاصطدام بالعالم الإسلامي. والنزاع اليوم بين روسيا والعالم الإسلامي والعربي سوف يفيد بالدرجة الأولى الولايات المتحدة وإسرائيل وبعض دول أوروبا الغربية.

إن السبب الأول والرئيسي هنا هو الاقتصاد. فروسيا كواحدة من أكبر الدول النفطية في العالم من حيث الاستخراج والتصدير والاحتياطي عندما تتعاون مع العالم العربي وخاصة المصدر للنفط، ستظهر بذلك قوة عالمية ضخمة ومؤثرة يمكنها أن تأخذ في يدها أكثر من ٨٠٪ من النفط العالمي.

هنا تكثف أميركا وإسرائيل جهودهما لعدم حدوث مثل هذا الالتقاء، وتسعيان إلى عدم حدوث ولو حتى أي احتمال يهدد مشاريعهما للسيطرة على العالم.

الجزء الآخر، هو أن إسرائيل تحاول أن تحل مشاكلها في الشرق الأوسط بإدخال روسيا كحليف لها على المستوى الاقتصادي والعسكري والإعلامي. وهي تفعل المستحيل من أجل إخراج

روسيا من تحالفاتها الدولية وخاصة مع العالم العربي والإسلامي.

إنني لا أستطيع إنكاروجود تيارات سياسية في روسيا تدرك جيداً حقيقة السياسات الأميركية الإسرائيلية. فعلى سبيل المثال، كان يفجيني بريماكوف أثناء توليه منصب وزير خارجية روسيا يتحدث يومياً عن أهمية وضرورة التعاون مع العالم العربي والإسلامي كحليف تاريخي، وجدوى هذا التحالف للمصالح القومية الروسية. وكان يؤكد دوماً على أن روسيا يجب أن تدرك جيداً أن العالم العربي والإسلامي ليس ما يصورونه في وسائل الإعلام، وأن هناك فرقا كبيرا بين هذا العالم وبين مجموعات متطرفة يوجد مثلها في كل دول العالم وفي جميع الأديان.

هناك أشياء تبدو متناقضة، ولكن يمكن فهمها في إطار النظرة الواسعة للسياسة الدولية. فهنا في روسيا نعرف أنه يوجد لوبي عسكري- صناعي مرتبط باللوبي النفطي. وعندما يصرح وزير الخارجية الروسي عن إمكانية إقامة علاقات دبلوماسية مع نظام طالبان في أفغانستان، نجد أن وزير الدفاع والعسكريين الروس قد التقوا على الفور مع المعارضة الأفغانية، ثم تظهر حملة إعلامية تتحدث عن احتمال حرب أفغانية ثانية وضرب قواعد طالبان في أفغانستان التي تشكل خطراً على حدود روسيا. إذن من الذي في مصلحته الإبقاء على الوضع المتوتر في هذه المنطقة؟! إن أفغانستان مدمرة تماماً، فأية خطورة يمكن أن تأتي من جانبها على الحدود الروسية؟! لماذا يحدث ويكون من مصلحة اللوبي العسكري- الصناعي الروسي الدخول في مثل تلك المهاترات وهو يعرف جيداً أن أفغانستان التي تدور بها الحروب الأهلية طوال ٢٥ عاماً لا تستطيع تصدير أية ثورة إسلامية أو أيديولوجية إلى دول الاتحاد السوفييتي السابق، وخاصة روسيا؟! إنني لا أريد التحدث هنا عن المشاكل الكثيرة بين أفغانستان وطاجيكستان، مثلاً، من حيث الصراع العرقي والتوجهات السياسية والفكرية، ولا أريد التحدث عن دور الهند في مثل هذا الصراع. ولكن ما يمكن قوله هو أن السياسة الخارجية الروسية غير مستقلة. وهناك من لا يسمح للخارجية الروسية أن تمارس دوراً يهتم بمصالح روسيا القومية.

- في وسائل الإعلام الروسية مساحة واسعة للبرامج الإسرائيلية، أو عن إسرائيل واليهود بشكل عام: الأغاني والموسيقى والرقص والثقافة والتاريخ والسياسة والاقتصاد والتصنيع، في الوقت الذي نرى عدم وجود أية برامج عربية أو عن العرب، وإذا وجدت فهي تافهة أو دعائية سطحية تكرس لمفاهيم متخلفة ورجعية عن العالم العربي والإسلامي.

- اسمح لي أن أقاطعك.. الخارطة الإعلامية الروسية لا تتضمن ليس فقط برامج إعلامية وثقافية وتاريخية عن العرب، ولكن أيضاً عن المسلمين في روسيا الاتحادية. هناك مليون أذربيجاني يعيشون علي الأراضي الروسية وليس لهم، أو عنهم برنامج واحد. وإذا افترضنا أن أذربيجان دولة إسلامية من الدول المستقلة، إذن فأين البرامج الخاصة بالتتار والشيشان والداغستانيين والأنجوشيين؟! عدد المسلمين

روسيا من تحالفاتها الدولية وخاصة مع العالم العربي والإسلامي.

إنني لا أستطيع إنكاروجود تيارات سياسية في روسيا تدرك جيداً حقيقة السياسات الأميركية الإسرائيلية. فعلى سبيل المثال، كان يفجيني بريماكوف أثناء توليه منصب وزير خارجية روسيا يتحدث يومياً عن أهمية وضرورة التعاون مع العالم العربي والإسلامي كحليف تاريخي، وجدوى هذا التحالف للمصالح القومية الروسية. وكان يؤكد دوماً على أن روسيا يجب أن تدرك جيداً أن العالم العربي والإسلامي ليس ما يصورونه في وسائل الإعلام، وأن هناك فرقا كبيرا بين هذا العالم وبين مجموعات متطرفة يوجد مثلها في كل دول العالم وفي جميع الأديان.

هناك أشياء تبدو متناقضة، ولكن يمكن فهمها في إطار النظرة الواسعة للسياسة الدولية. فهنا في روسيا نعرف أنه يوجد لوبي عسكري- صناعي مرتبط باللوبي النفطي. وعندما يصرح وزير الخارجية الروسي عن إمكانية إقامة علاقات دبلوماسية مع نظام طالبان في أفغانستان، نجد أن وزير الدفاع والعسكريين الروس قد التقوا على الفور مع المعارضة الأفغانية، ثم تظهر حملة إعلامية تتحدث عن احتمال حرب أفغانية ثانية وضرب قواعد طالبان في أفغانستان التي تشكل خطراً على حدود روسيا. إذن من الذي في مصلحته الإبقاء على الوضع المتوتر في هذه المنطقة؟! إن أفغانستان مدمرة تماماً، فأية خطورة يمكن أن تأتي من جانبها على الحدود الروسية؟! لماذا يحدث ويكون من مصلحة اللوبي العسكري- الصناعي الروسي الدخول في مثل تلك المهاترات وهو يعرف جيداً أن أفغانستان التي تدور بها الحروب الأهلية طوال ٢٥ عاماً لا تستطيع تصدير أية ثورة إسلامية أو أيديولوجية إلى دول الاتحاد السوفييتي السابق، وخاصة روسيا؟! إنني لا أريد التحدث هنا عن المشاكل الكثيرة بين أفغانستان وطاجيكستان، مثلاً، من حيث الصراع العرقي والتوجهات السياسية والفكرية، ولا أريد التحدث عن دور الهند في مثل هذا الصراع. ولكن ما يمكن قوله هو أن السياسة الخارجية الروسية غير مستقلة. وهناك من لا يسمح للخارجية الروسية أن تمارس دوراً يهتم بمصالح روسيا القومية.

- في وسائل الإعلام الروسية مساحة واسعة للبرامج الإسرائيلية، أو عن إسرائيل واليهود بشكل عام: الأغاني والموسيقى والرقص والثقافة والتاريخ والسياسة والاقتصاد والتصنيع، في الوقت الذي نرى عدم وجود أية برامج عربية أو عن العرب، وإذا وجدت فهي تافهة أو دعائية سطحية تكرس لمفاهيم متخلفة ورجعية عن العالم العربي والإسلامي.

- اسمح لي أن أقاطعك.. الخارطة الإعلامية الروسية لا تتضمن ليس فقط برامج إعلامية وثقافية وتاريخية عن العرب، ولكن أيضاً عن المسلمين في روسيا الاتحادية. هناك مليون أذربيجاني يعيشون علي الأراضي الروسية وليس لهم، أو عنهم برنامج واحد. وإذا افترضنا أن أذربيجان دولة إسلامية من الدول المستقلة، إذن فأين البرامج الخاصة بالتتار والشيشان والداغستانيين والأنجوشيين؟! عدد المسلمين

الروس يصل إلى ٢٥ مليون نسمة، ولكن مساحتهم على الخارطة الإعلامية فى روسيا لا تتعدى جزء من عشرة مما تحتله إسرائيل والإعلام الصهيوني.

ما زلت أكرر.. من له مصلحة، يهمه كثيراً أن تتحقق. واليهود يقومون بنضال مستميت في هذا الاتجاه، ويرصدون أموالاً طائلة لنشر الثقافة اليهودية والصهيونية في كل مكان. وحتى الآن لا أدري لماذا لا يقوم العرب بعمل شبكات إنترنت باللغة الروسية؟ ولماذا لا يؤسسون وكالات أنباء بالروسية؟ أو إنتاج سلاسل من البرامج الثقافية والتاريخية عن ثقافتهم و تاريخهم القديم والحديث والمعاصر. إنني أعرف أن كل ذلك يتطلب أموالاً طائلة، ولكنه جزء هام من الوجود المعاصر على خارطة العالم، خاصة إذا كانت لديك قضية ما.

- عرفت أنك كنت في العديد من مواقع الأحداث التى يوجد بها مسلمون كأطراف في صراعات.. فما رؤيتك لمثل تلك الصراعات، وما رأيك في الحملات الإعلامية التي توجه ضد المسلمين بشكل عام، وضد العرب على وجه الخصوص وبالذات في الصراع العربي الصهيوني وأحداث انتفاضة الأقصى الجارية. وأنت تعرف جيداً أن الإعلام يصف العرب بالإرهاب، وبأن الأمهات الفلسطينيات قاسيات القلوب يدفعن أولادهن إلى الموت؟

- إنني بشكل خاص كنت في مواقع الأحداث- أي في النقاط الساخنة التي تدور فيها صراعات ومعارك. وأنا ما زلت مؤمناً تماماً بأن المسلمين بشكل عام والعرب على وجه الخصوص لا يستغلّون قواهم وإمكانياتهم بشكل كامل وفعال. فهم من ناحية مختلفون مع بعضهم البعض، ومن ناحية أخرى يواجهون عدواً واحداً ومصيراً واحداً. أنا لا أفهم مثل هذا التناقض. ونحن نعرف جيعماً أن إسرائبل لن تسمح بتوحد العرب أو المسلمين لأن وجودها متوقف على هذا الأمر.

أما بخصوص مواقع الأحداث الساخنة، والحملات الإعلامية الكاذبة والمضللة، يمكننى أن أتحدث بإيجاز لأن العالم كله يعرف مدى الزيف والتضليل في هذه الحملات. أنا نفسي كنت صبياً ويمكنني أن أتصور مشاعر أي صبي فلسطيني. وأعتقد أن ليس من الضروري دفع أي صبي فلسطيني إلى مواجهة الآلة العسكرية للاحتلال الإسرائيلي. بالعكس، يجب إيقاف هؤلاء الصبيان لأنهم يحاربون بالحجارة وبأجسادهم واحدة من أقسى الآلات العكسرية وأخسها في التاريخ البشري. وفي ذلك الوقت من الخطأ تماماً إعاقة هؤلاء الصبيان عن الدفاع عن حقوقهم وأرضهم واستقلالهم ومطالبة العدو المحتل بأبسط الحقوق. أولئك الأطفال يحملون ذاكرة وطنهم وينقلونها إلى الآتين من بعدهم. إنهم رجال بمعنى الكلمة. فهم يعيشون في الملاجىء والخيام وأراضي وطنهم تحت أقدام عدو محتل.. كيف يمكن تصور ذلك؟! إن الإعلام الغربي المتصهين، والصهيوني أيضاً لا يرى ذلك ولا يريد أن يراه. أنا نفسي كنت هناك ورأيت كل شيء على أرض الواقع. الفلسطينيون يعانون من الإبادة والتطهير العرقي، وهذا ما يجب أن يعرفه العالم كله.

الروس يصل إلى ٢٥ مليون نسمة، ولكن مساحتهم على الخارطة الإعلامية فى روسيا لا تتعدى جزء من عشرة مما تحتله إسرائيل والإعلام الصهيوني.

ما زلت أكرر.. من له مصلحة، يهمه كثيراً أن تتحقق. واليهود يقومون بنضال مستميت في هذا الاتجاه، ويرصدون أموالاً طائلة لنشر الثقافة اليهودية والصهيونية في كل مكان. وحتى الآن لا أدري لماذا لا يقوم العرب بعمل شبكات إنترنت باللغة الروسية؟ ولماذا لا يؤسسون وكالات أنباء بالروسية؟ أو إنتاج سلاسل من البرامج الثقافية والتاريخية عن ثقافتهم و تاريخهم القديم والحديث والمعاصر. إنني أعرف أن كل ذلك يتطلب أموالاً طائلة، ولكنه جزء هام من الوجود المعاصر على خارطة العالم، خاصة إذا كانت لديك قضية ما.

- عرفت أنك كنت في العديد من مواقع الأحداث التى يوجد بها مسلمون كأطراف في صراعات.. فما رؤيتك لمثل تلك الصراعات، وما رأيك في الحملات الإعلامية التي توجه ضد المسلمين بشكل عام، وضد العرب على وجه الخصوص وبالذات في الصراع العربي الصهيوني وأحداث انتفاضة الأقصى الجارية. وأنت تعرف جيداً أن الإعلام يصف العرب بالإرهاب، وبأن الأمهات الفلسطينيات قاسيات القلوب يدفعن أولادهن إلى الموت؟

- إنني بشكل خاص كنت في مواقع الأحداث- أي في النقاط الساخنة التي تدور فيها صراعات ومعارك. وأنا ما زلت مؤمناً تماماً بأن المسلمين بشكل عام والعرب على وجه الخصوص لا يستغلّون قواهم وإمكانياتهم بشكل كامل وفعال. فهم من ناحية مختلفون مع بعضهم البعض، ومن ناحية أخرى يواجهون عدواً واحداً ومصيراً واحداً. أنا لا أفهم مثل هذا التناقض. ونحن نعرف جيمعاً أن إسرائيل لن تسمح بتوحد العرب أو المسلمين لأن وجودها متوقف على هذا الأمر.

أما بخصوص مواقع الأحداث الساخنة، والحملات الإعلامية الكاذبة والمضللة، يمكننى أن أتحدث بإيجاز لأن العالم كله يعرف مدى الزيف والتضليل في هذه الحملات. أنا نفسي كنت صبياً ويمكنني أن أتصور مشاعر أي صبي فلسطيني. وأعتقد أن ليس من الضروري دفع أي صبي فلسطيني إلى مواجهة الآلة العسكرية للاحتلال الإسرائيلي. بالعكس، يجب إيقاف هؤلاء الصبيان لأنهم يحاربون بالحجارة وبأجسادهم واحدة من أقسى الآلات العسكرية وأخسها في التاريخ البشري. وفي ذلك الوقت من الخطأ تماماً إعاقة هؤلاء الصبيان عن الدفاع عن حقوقهم وأرضهم واستقلالهم ومطالبة العدو المحتل بأبسط الحقوق. أولئك الأطفال يحملون ذاكرة وطنهم وينقلونها إلى الآتين من بعدهم. إنهم رجال بمعنى الكلمة. فهم يعيشون في الملاجىء والخيام وأراضي وطنهم تحت أقدام عدو محتل.. كيف يمكن تصور ذلك؟! إن الإعلام الغربي المتصهين، والصهيوني أيضاً لا يرى ذلك ولا يريد أن يراه. أنا نفسي كنت هناك ورأيت كل شيء على أرض الواقع. الفلسطينيون يعانون من الإبادة والتطهير العرقي، وهذا ما يجب أن يعرفه العالم كله.

أنا نفسي في حالة دهشة.. كيف يمكن أن يحدث ويصبح أطفال شعب بالكامل في حال تشرد، وفى نفس الوقت يرون كل يوم المستوطنين الإسرائيليين المدججين بالسلاح على الشاطىء الغربي لنهر الأردن؟! فحول رام الله على سبيل لمثال توجد أربع مستوطنات مليئة بالدبابات والمدافع الرشاشة. فماذا يمكن أن يحدث عندما تكبر الأجيال الفلسطينية وتعرف أن بيوتها التي كانت في حيفا أو تل أبيب أو عسقلان هدمت في يوم ما وبنيت على أنقاضها، وعلى جثث سكانها الفلسطينيين، بيوت جديدة للأعداء؟! عندما يكبر الطفل الفلسطيني ويرى عدوه يأكل برتقالة.. كيف يمكن أن يتصرّف!! طالما سيظل الإسرائيليون على الأراضي الفلسطينية لن يكون هناك أي سلام، وسيظل العداء إلى أبد الآبدين. ومهما حاول المدرسون في المدارس أن يلقنوا الطفل الفلسطيني من عبارات وجمل عن السلام والحب، فالواقع أقوى بكثير من تلك الشعارات الهشة غير المبنية على الحقيقة. الطفل الفلسطيني يرى كل يوم دماء أهله وأصدقائه، يرى العدو يمشي متعجرفاً على أرضه- فماذا يمكن أن يحدث؟ ولماذا يحاول البعض مجافاة الحقيقة واتهام الضحية بالعدوان والإرهاب والعنف؟!

إن الطفل الفلسطيني يرى السيد المتعجرف، الذي يصف نفسه بشعب الله المختار يمشي متبختراً على أرض ليست له، ويأكل فاكهة ليست له، ويدنس المقدسات التى ليست له- ماذا يمكن أن يفعل هذا الطفل؟ ولماذا يدير الإعلام الغربى والمتصهين وجهه إلى الناحية الأخرى وكأنه لا يرى؟!!

- بهذا الخصوص بالذات، نلاحظ أن وسائل الإعلام الغربية والإسرائيلية تستخدم مجموعة من المصطلحات في حملتها الإعلامية تختلف تماماص عن مثيلتها في وسائل الإعلام في روسيا. فالخطاب القاسي الشرس والأصولي الداعي إلى الحرب الموجهة من قبل وسائل الإعلام الروسية يبدو وكأنه موجه إلي جمهور لا يفهم أي شيء، بينما الإعلام الإسرائيلي لا يمكنه أحياناً التوجه بمثل هذا الخطاب، بل ويحاول الساسة الإسرائيليون ورجال الإعلام وكافة المسؤولين أن يكونوا أكثر رصانة واتزاناً في خطابهم لأنهم يدركون أن الأوضاع قابلة للتفجير في أية لحظة ومن جراء أي خطوة غير محسوبة. وأعتقد أنك تتابع ما ينشره حاخام روسيا الأكبر من مقالات موتورة وأصولية على صفحات جريدتكم «نيزافيسيمايا جزيتا» تدعو إلى الحرب و تساند الاتجاهات العدوانية في إسرائيل.

- عموماً هناك فرق كبير بين الكاتب الذي يرسل موضوعه إلى صحيفة ما وبين الصحفي الذي يعمل كإعلامى في وسيلة إعلام. أي شخص يمكنه أن يرسل موضوعه إلى أية صحيفة، وفي نفس الوقت لا يمثل الموضوع وجهة نظر الصحيفة. يمكنك أن ترسل موضوعاً كرد على هذا الشخص أو ذاك، ويمكنك أن تكتب موضوعاً آخر. واليهود نشطاء في هذا المجال، ولا يأتينا أية ردود من العرب أو حتى موضوعات.

- على الرغم من اختلافي معك، وأن الأمور ليست بهذه الحرية المطلقة والمثالية جداً، إلا أنني

أنا نفسي في حالة دهشة.. كيف يمكن أن يحدث ويصبح أطفال شعب بالكامل في حال تشرد، وفى نفس الوقت يرون كل يوم المستوطنين الإسرائيليين المدججين بالسلاح على الشاطىء الغربي لنهر الأردن؟! فحول رام الله على سبيل لمثال توجد أربع مستوطنات مليئة بالدبابات والمدافع الرشاشة. فماذا يمكن أن يحدث عندما تكبر الأجيال الفلسطينية وتعرف أن بيوتها التي كانت في حيفا أو تل أبيب أو عسقلان هدمت في يوم ما وبنيت على أنقاضها، وعلى جثث سكانها الفلسطينيين، بيوت جديدة للأعداء؟! عندما يكبر الطفل الفلسطيني ويرى عدوه يأكل برتقالة.. كيف يمكن أن يتصرّف!! طالما سيظل الإسرائيليون على الأراضي الفلسطينية لن يكون هناك أي سلام، وسيظل العداء إلى أبد الآبدين. ومهما حاول المدرسون في المدارس أن يلقنوا الطفل الفلسطيني من عبارات وجمل عن السلام والحب، فالواقع أقوى بكثير من تلك الشعارات الهشة غير المبنية على الحقيقة. الطفل الفلسطيني يرى كل يوم دماء أهله وأصدقائه، يرى العدو يمشي متعجرفاً على أرضه- فماذا يمكن أن يحدث؟ ولماذا يحاول البعض مجافاة الحقيقة واتهام الضحية بالعدوان والإرهاب والعنف؟!

إن الطفل الفلسطيني يرى السيد المتعجرف، الذي يصف نفسه بشعب الله المختار يمشي متبختراً على أرض ليست له، ويأكل فاكهة ليست له، ويدنس المقدسات التى ليست له- ماذا يمكن أن يفعل هذا الطفل؟ ولماذا يدير الإعلام الغربى والمتصهين وجهه إلى الناحية الأخرى وكأنه لا يرى؟!!

- بهذا الخصوص بالذات، نلاحظ أن وسائل الإعلام الغربية والإسرائيلية تستخدم مجموعة من المصطلحات في حملتها الإعلامية تختلف تماماص عن مثيلتها في وسائل الإعلام في روسيا. فالخطاب القاسي الشرس والأصولي الداعي إلى الحرب الموجهة من قبل وسائل الإعلام الروسية يبدو وكأنه موجه إلي جمهور لا يفهم أي شيء، بينما الإعلام الإسرائيلي لا يمكنه أحياناً التوجه بمثل هذا الخطاب، بل ويحاول الساسة الإسرائيليون ورجال الإعلام وكافة المسؤولين أن يكونوا أكثر رصانة واتزاناً في خطابهم لأنهم يدركون أن الأوضاع قابلة للتفجير في أية لحظة ومن جراء أي خطوة غير محسوبة. وأعتقد أنك تتابع ما ينشره حاخام روسيا الأكبر من مقالات متوترة وأصولية على صفحات جريدتكم «نيزافيسيمايا جزيتا» تدعو إلى الحرب و تساند الاتجاهات العدوانية في إسرائيل.

- عموماً هناك فرق كبير بين الكاتب الذي يرسل موضوعه إلى صحيفة ما وبين الصحفي الذي يعمل كإعلامى في وسيلة إعلام. أي شخص يمكنه أن يرسل موضوعه إلى أية صحيفة، وفي نفس الوقت لا يمثل الموضوع وجهة نظر الصحيفة. يمكنك أن ترسل موضوعاً كرد على هذا الشخص أو ذاك، ويمكنك أن تكتب موضوعاً آخر. واليهود نشطاء في هذا المجال، ولا يأتينا أية ردود من العرب أو حتى موضوعات.

- على الرغم من اختلافي معك، وأن الأمور ليست بهذه الحرية المطلقة والمثالية جداً، إلا أنني

أتحدث هنا ليس عن حرية الكلمة والرد النشر، وإنما أتحدث تحديداً عن أصولية الخطاب الذي يمثل موجة تزييف وتضليل وإرهاب فكري ونفسي..

- إنني أوافقك في أن الخطاب في إسرائيل يكون أحياناً أكثر اتزاناً من الخطاب في وسائل الإعلام الروسية. بل وأحياناً تستشهد وسائل الإعلام الإسرائيلية بجمل وعبارات لياسر عرفات وتحاول الظهور بمظهر ديمقراطي على عكس ما يحدث في وسائل الإعلام الروسية. ومع ذلك فأنا ما زلت مصراً على أن الأصولية تنبع من إسرائيل. ومن هنا فلن تحل القضية الفلسطينية بدون حل مشكلة المستوطنات وعودة اللاجئين إلى أراضيهم. وحتى إذا تم لقضية القدس شكل أو بآخر، فلن يكون هناك أي سلام وملايين الفلسطينيين يعيشون خارج أراضيهم. إن المستوطنين الإسرائيليين يمثلون أكثر الوجوه اليهودية الصهيونية الأصولية. هؤلاء المستوطنون يناصرون الحرب ويقفون ضد السلام. والإنسان الذي يريد العيش في ظروف الحرب ويرفض السلام هو إنسان أصولي بمعنى الكلمة، ويمثل أشد حالات الإرهاب والتطرف. وبهذا الخصوص يمكنني أن أجمل كلامي في نقاط ثلاث. أولاً: هناك من يمول الحملات الإعلامية الصهيونية. وإسرائيل تفعل ذلك بنشاط كبير. وبالتالي فاللوبي الصهيوني ووسائل إعلامه في روسيا تعمل بلا شك من أجل تحقيق أهدافها ومصالحها. ثانياً: أين الدول العربية، وأين التأثير العربي؟! فعلى قدر معرفتي، الروس يذهبون إلى الدول العربية من أجل التجارة وليس من أجل مشروعات ثقافية أو إعلامية أو صناعية. وبالتالي فليس هناك ذلك الفضاء الذي يمكن أن يؤثر العرب من خلاله. ثالثاً: لقد حاولنا هنا في موسكو إنشاء نادي للصحفيين الروس يشارك فيه الصحفيون العرب المتواجدون هنا. وبالفعل أجرينا عدة تجارب هامة وطرحنا مجموعة من النقاشات أحدها عن القضية الفلسطينية. ولكن للأسف لم نجد أي دعم، بينما اللوبي الصهيوني يعمل بدأب شديد.

- هل أفهم من ذلك أن لديك ملاحظات ما على السياسة الإعلامية العربية في روسيا؟ وهل هناك مواقف ما تعرضت لها من خلال عملك مع الجهات الإعلامية العربية هنا؟

- نعم اصطدمت بمواقف كثيرة. والمسألة ليست في الاتصال بهذا أو ذاك. ولكن بشكل عام فالعلاقات الإعلامية بالسفارات العربية في روسيا ليست على مستوى جيد. فنحن الذين نعمل في مجال القضايا الإسلامية نعرف جيداً أنه لم تتأسس حتى الآن أية وكالة إعلامية باللغة الروسية بشأن القضايا الإسلامية، ونحن ندرس هذه القضايا عن طريق المصادر الإنجليزية والفرنسية. وعندما نتصل بالسفارات، يستقبلوننا بشكل جيد، ويدعوننا إلى الاستقبالات الرسمية حيث يطعموننا جيداً، وحيث كل شيء طيب ولذيذ، ولكن عندما تصل الأمور إلى العلاقة العملية للحصول على تصريحات أو معلومات أو إجابة على استفسارات تصير الأمور أكثر صعوبة وتعقيداً.

حتى الآن لا يوجد ناد أو تجمع للصحفيين العرب في روسيا. وإذا كان الدبلوماسي مقيد

أتحدث هنا ليس عن حرية الكلمة والرد النشر، وإنما أتحدث تحديداً عن أصولية الخطاب الذي يمثل موجة تزييف وتضليل وإرهاب فكري ونفسي..

– إنني أوافقك في أن الخطاب في إسرائيل يكون أحياناً أكثر اتزاناً من الخطاب في وسائل الإعلام الروسية. بل وأحياناً تستشهد وسائل الإعلام الإسرائيلية بجمل وعبارات لياسر عرفات وتحاول الظهور بمظهر ديمقراطي على عكس ما يحدث في وسائل الإعلام الروسية. ومع ذلك فأنا ما زلت مصراً على أن الأصولية تنبع من إسرائيل. ومن هنا فلن تحل القضية الفلسطينية بدون حل مشكلة المستوطنات وعودة اللاجئين إلى أراضيهم. وحتى إذا تم لقضية القدس شكل أو بآخر، فلن يكون هناك أي سلام وملايين الفلسطينيين يعيشون خارج أراضيهم. إن المستوطنين الإسرائيليين يمثلون أكثر الوجوه اليهودية الصهيونية الأصولية. هؤلاء المستوطنون يناصرون الحرب ويقفون ضد السلام. والإنسان الذي يريد العيش في ظروف الحرب ويرفض السلام هو إنسان أصولي بمعنى الكلمة، ويمثل أشد حالات الإرهاب والتطرف. وبهذا الخصوص يمكنني أن أجمل كلامي في نقاط ثلاث. أولاً: هناك من يمول الحملات الإعلامية الصهيونية. وإسرائيل تفعل ذلك بنشاط كبير. وبالتالي فاللوبي الصهيوني ووسائل إعلامه في روسيا تعمل بلا شك من أجل تحقيق أهدافها ومصالحها. ثانياً: أين الدول العربية، وأين التأثير العربي؟! فعلى قدر معرفتي، الروس يذهبون إلى الدول العربية من أجل التجارة وليس من أجل مشروعات ثقافية أو إعلامية أو صناعية. وبالتالي فليس هناك ذلك الفضاء الذي يمكن أن يؤثر العرب من خلاله. ثالثاً: لقد حاولنا هنا في موسكو إنشاء نادي للصحفيين الروس يشارك فيه الصحفيون العرب المتواجدون هنا. وبالفعل أجرينا عدة تجارب هامة وطرحنا مجموعة من النقاشات أحدها عن القضية الفلسطينية. ولكن للأسف لم نجد أي دعم، بينما اللوبي الصهيوني يعمل بدأب شديد.

– هل أفهم من ذلك أن لديك ملاحظات ما على السياسة الإعلامية العربية في روسيا؟ وهل هناك مواقف ما تعرضت لها من خلال عملك مع الجهات الإعلامية العربية هنا؟

– نعم اصطدمت بمواقف كثيرة. والمسألة ليست في الاتصال بهذا أو ذاك. ولكن بشكل عام فالعلاقات الإعلامية بالسفارات العربية في روسيا ليست على مستوى جيد. فنحن الذين نعمل في مجال القضايا الإسلامية نعرف جيداً أنه لم تتأسس حتى الآن أية وكالة إعلامية باللغة الروسية بشأن القضايا الإسلامية، ونحن ندرس هذه القضايا عن طريق المصادر الإنجليزية والفرنسية. وعندما نتصل بالسفارات، يستقبلوننا بشكل جيد، ويدعوننا إلى الاستقبالات الرسمية حيث يطعموننا جيداً، وحيث كل شيء طيب ولذيذ، ولكن عندما تصل الأمور إلى العلاقة العملية للحصول على تصريحات أو معلومات أو إجابة على استفسارات تصير الأمور أكثر صعوبة وتعقيداً.

حتى الآن لا يوجد ناد أو تجمع للصحفيين العرب في روسيا. وإذا كان الدبلوماسي مقيد

الحركة نسبياً ويعمل فقط في مجال اختصاصه، فالصحفي أكثر حرية في الحركة، خاصة وأن الصحفيين العرب هنا يعرفون اللغة الروسية بشكل جيد، وبالتالي من الممكن ا لتعامل معهم وإقامة الفعاليات المشتركة والندوات.

ومن الضروري إقامة الفعاليات والتوجه إلى جميع شرائح المجتمع الروسي بمختلف قومياته ودياناته، وليس فقط إلى المستعربين والمتخصصين الذين يعملون في حجرات التدريس أو يكتبون كتباً لا توزع إلا على طلابهم. لقد لاحظت أن العرب يتوجهون بالدرجة الأولى إلى أسماء محدودة ومعروفة وموجودة في كل استقبال ومناسبة من المستعربين الذين يعرفون اللغة العربية على الرغم من أن هذا عملهم وبدونه لن يحصلوا على أرزاقهم. هنا نجد أن البعض من هؤلاء مجبر على قول ما يعجب الطرف العربي ويرضيه ولا يهمه إذا كان ذلك حقيقة أم لا. ولكن القضية هنا هي الإعلام الروسي والصحافة والعاملين في المجالات الإعلامية لأنهم يملكون حرية أكثر وإمكانية أكبر على الحركة بين جميع شرائح المجتمع الروسي، ومن ثم التأثير عليه.

- هل يمكن أن نتحدث عن كتابك الذى سيصدر قريباً؟

- هو كتاب صغير لا يتجاوز المائة صفحة. جمعت فيه الموضوعات والمقابلات التي أجريتها خلال وجودي في الأراضي الفلسطينية المحتلة أثناء انتفاضة القدس. لقد كنت أول صحفي روسي يدخل إلى الأراضي المحتلة ويصل إلى مواقع الأحداث في بداية أكتوبر ٢٠٠٠.

الكتاب يتكون من ٦ أجزاء بعنوان «فلسطين في النار». وهو على نمط التسميات الكلاسيكية مثل «إسبانيا في النار» عند هيمنجواي، و«المكسيك في النار» عند المخرج الروسي المعروف سيرجي ايزنشتاين. وعندما نشرت بعض موضوعاته في «نيزافيسيمايا جازيتا» أصيب الرأي العام الإسرائيلي بهستيريا، وأرسل إليّ رجال الإعلام والمثقفون والقراء العاديّون رسائل مليئة بالسباب والشتائم والتهديدات عبر الإنترنت والبريد، وأطلقوا علي صفات غريبة مثل فاشي ومعادي للسامية، وتلك الأشياء التي يستخدمونها عندما يتحدث أحد عن الحقيقة. إنني ببساطة لم أكتب إلا ما رأيته بعيني بدون مبالغة أو تجن. لقد وصفت كيف يطلق الجنود الإسرائيليون النار ببرودة على الأطفال الصغار.

في رحلتي هذه لاحظت شيئاً هاماً وخطيراً، ويجب ذكره من أجل التاريخ فقط حتى لا يتم وصف الفلسطينيين بما يسمونه بـ«معاداة السامية». إن الفلسطينيين يكرهون الإسرائيليين ليس كيهود، وإنما تحديداً كإسرائيليين يحتلون أرضهم ويقتلون أطفالهم، وهذا الأمر في غاية الأهمية والخطورة.

لقد رأيت بعيني أنه لا يوجد أي عداء للفلسطينيين تجاه اليهود. فالمراسلون الصحفيون الغربيون كلهم من اليهود، وهم يتحركون بحرية تامة وأمان بين الفلسطينيين- أي أنه لا يوجد أي عداء لليهود كيهود، وإنما كإسرائيليين وصهاينة.. وطبعاً نحن نعرف لماذا يكره الإسرائيليون الفلسطينيين. فهم يكرهونهم باعتبارهم أمة من الدرجة الثانية مثل باقي الأمم، وأنهم هم فقط

الحركة نسبياً ويعمل فقط في مجال اختصاصه، فالصحفي أكثر حرية في الحركة، خاصة وأن الصحفيين العرب هنا يعرفون اللغة الروسية بشكل جيد، وبالتالي من الممكن ا لتعامل معهم وإقامة الفعاليات المشتركة والندوات.

ومن الضروري إقامة الفعاليات والتوجه إلى جميع شرائح المجتمع الروسي بمختلف قومياته ودياناته، وليس فقط إلى المستعربين والمتخصصين الذين يعملون في حجرات التدريس أو يكتبون كتباً لا توزع إلا على طلابهم. لقد لاحظت أن العرب يتوجهون بالدرجة الأولى إلى أسماء محدودة ومعروفة وموجودة في كل استقبال ومناسبة من المستعربين الذين يعرفون اللغة العربية على الرغم من أن هذا عملهم وبدونه لن يحصلوا على أرزاقهم. هنا نجد أن البعض من هؤلاء مجبر على قول ما يعجب الطرف العربي ويرضيه ولا يهمه إذا كان ذلك حقيقة أم لا. ولكن القضية هنا هي الإعلام الروسي والصحافة والعاملين في المجالات الإعلامية لأنهم يملكون حرية أكثر وإمكانية أكبر على الحركة بين جميع شرائح المجتمع الروسي، ومن ثم التأثير عليه.

- هل يمكن أن نتحدث عن كتابك الذى سيصدر قريباً؟

- هو كتاب صغير لا يتجاوز المائة صفحة. جمعت فيه الموضوعات والمقابلات التي أجريتها خلال وجودي في الأراضي الفلسطينية المحتلة أثناء انتفاضة القدس. لقد كنت أول صحفي روسي يدخل إلى الأراضي المحتلة ويصل إلى مواقع الأحداث في بداية أكتوبر ٢٠٠٠.

الكتاب يتكون من ٦ أجزاء بعنوان «فلسطين في النار». وهو على نمط التسميات الكلاسيكية مثل «إسبانيا في النار» عند هيمنجواي، و«المكسيك في النار» عند المخرج الروسي المعروف سيرجي ايزنشتاين. وعندما نشرت بعض موضوعاته في «نيزافيسيمايا جازيتا» أصيب الرأي العام الإسرائيلي بهستيريا، وأرسل إليّ رجال الإعلام والمثقفون والقراء العاديّون رسائل مليئة بالسباب والشتائم والتهديدات عبر الإنترنت والبريد، وأطلقوا علي صفات غريبة مثل فاشي ومعادي للسامية، وتلك الأشياء التي يستخدمونها عندما يتحدث أحد عن الحقيقة. إنني ببساطة لم أكتب إلا ما رأيته بعيني بدون مبالغة أو تجن. لقد وصفت كيف يطلق الجنود الإسرائيليون النار ببرودة على الأطفال الصغار.

في رحلتي هذه لاحظت شيئاً هاماً وخطيراً، ويجب ذكره من أجل التاريخ فقط حتى لا يتم وصف الفلسطينيين بما يسمونه بـ«معاداة السامية». إن الفلسطينيين يكرهون الإسرائيليين ليس كيهود، وإنما تحديداً كإسرائيليين يحتلون أرضهم ويقتلون أطفالهم، وهذا الأمر في غاية الأهمية والخطورة.

لقد رأيت بعيني أنه لا يوجد أي عداء للفلسطينيين تجاه اليهود. فالمراسلون الصحفيون الغربيون كلهم من اليهود، وهم يتحركون بحرية تامة وأمان بين الفلسطينيين- أي أنه لا يوجد أي عداء لليهود كيهود، وإنما كإسرائيليين وصهاينة.. وطبعاً نحن نعرف لماذا يكره الإسرائيليون الفلسطينيين. فهم يكرهونهم باعتبارهم أمة من الدرجة الثانية مثل باقي الأمم، وأنهم هم فقط

شعب الله المختار الذي يحتل المرتبة الأولى، ويحتل أى شيء، وأى مكان، وأية دولة.

- ألا تخشى أن يحدث معك مثلما حدث مع روبير فوريسون وروجيه جارودي؟

- إن فوريسون وجارودي مسا قضية الكذب الصهيوني وأساطير ما يسمى بالهولوكوست. وهذا ما جعل الرأي العام الفرنسي بدافع من اللوبي الصهيوني العالمي يقف ضدهما. إنني لم أمس هذه «الحكاوي» بقدر ما وصفت قسوة الآلة العسكرية الإسرائيلية الموجهة ضد الأطفال والنساء وكبار السن في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

وللعلم فقد نشرنا في حينه مقالاً ضخماً عن قضية جارودي وهو ما أثار اللوبي الصهيوني في روسيا و عرضنا لمشاكل كثيرة. واكتشفنا طبعاً أن روسيا حتى الآن غير جاهزة لإثارة قضايا مشابهة لما أثاره فوريسون وجارودي.■

شعب الله المختار الذي يحتل المرتبة الأولى، ويحتل أى شيء، وأى مكان، وأية دولة.

- ألا تخشى أن يحدث معك مثلما حدث مع روبير فوريسون وروجيه جارودي؟

- إن فوريسون وجارودي مسا قضية الكذب الصهيوني وأساطير ما يسمى بالهولوكوست. وهذا ما جعل الرأي العام الفرنسي بدافع من اللوبي الصهيوني العالمي يقف ضدهما. إنني لم أمس هذه «الحكاوي» بقدر ما وصفت قسوة الآلة العسكرية الإسرائيلية الموجهة ضد الأطفال والنساء وكبار السن في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

وللعلم فقد نشرنا في حينه مقالاً ضخماً عن قضية جارودي وهو ما أثار اللوبي الصهيوني في روسيا و عرضنا لمشاكل كثيرة. واكتشفنا طبعاً أن روسيا حتى الآن غير جاهزة لإثارة قضايا مشابهة لما أثاره فوريسون وجارودي.■

الحاسوب وانتهاء عصر هوليود

د . نبيل سليم *

انتهى زمن النجوم وتنفس منتجو السينما الصعداء بعد أن حل لهم الحاسوب قضية مغالاة النجوم في أجورهم.. لكن لم تكن الأجور هي المشكلة الوحيدة بل كان هناك العديد من المشاكل الإنتاجية التي تكلف استوديوهات هوليوود ملايين الدولارات سنوياً.. فقط استطاع الحاسوب توفير شخصيات ونجوم أفضل وأرخص.

عندما نفكر في المشاهدين الأوائل للسينما ترد إلى الذهن فوراً صورة خاصة حول استجابات الفزع أو الفرح التي كان يعبر عنها هؤلاء المشاهدون، فعندما عرض فيلم «وصول القطار إلى المحطة» الذي قدمه الأخوان لوميير في فرنسا، تراجع العديد منهم إلى الخلف، أو صرخوا، أو نهضوا، وجروا خارجين من (الجراند كافيه)، وهي ذلك المكان الذي كان يتم عرض هذا الفيلم فيه، وقد استخدمت مثل هذه الاستجابات في وصف مدى استجابات الجمهور للسينما. لكن استجابات الجمهور الحقيقية للسينما ليست هي مجرد الصراخ، أو الفزع، أو الهروب، أو الفرح، فالمسألة تشتمل على العديد من الاستجابات المعرفية و الوجدانية، والسلوكية، التي حاول عديد من العلماء- كل حسب إطاره المعرفي وتوجهاته النظرية- أن يفسرها.

فإن عمليات تقديم الفيلم والتمهيد له- من خلال الإعلان عنه وكذلك الموسيقى المصاحبة له، وغير ذلك من المؤثرات البصرية والسمعية- تعمل على خلق جو خاص من التوقع والترقب وحب الاستطلاع لدى المشاهد، ذلك الذي يسعى دائماً لمعرفة الأحداث التالية، ونحو الاستمتاع بالمشاهد الحالية أيضاً، وكما تكون هناك حاجة غلابة للجدّة لإدراك غير المألوف، خاصة مع زيادة خصائص الدهشة، وكسر التوقعات، والإثارة الدائمة للانفعالات، ثم العمل على حلها، أو تصريفها، أو إحداث التوازن في التوترات المستثارة.

ومع إدخال المونتاج، وأساليب السرد المركبة، تغيّرت أساليب الاستجابة للأفلام، وتعارضت جماليات سابقة عليها تقوم على أساس التأمل المبتعد أو البعيد Detached Contemplation، كما يحدث مثلاً عند التأمل للوحة أو تمثال موجود «هناك» على الجدران، أو فوق قاعدة، في حالةانعزال واكتفاء بذاته، لقد اعترفت الأفلام الأولى صراحة بوجود المشاهد واعترف المشاهد

* كاتب مصري

الحاسوب وانتهاء عصر هوليود

د . نبيل سليم *

انتهى زمن النجوم وتنفس منتجو السينما الصعداء بعد أن حل لهم الحاسوب قضية مغالاة النجوم في أجورهم.. لكن لم تكن الأجور هي المشكلة الوحيدة بل كان هناك العديد من المشاكل الإنتاجية التي تكلف استوديوهات هوليوود ملايين الدولارات سنوياً.. فقط استطاع الحاسوب توفير شخصيات ونجوم أفضل وأرخص.

عندما نفكر في المشاهدين الأوائل للسينما ترد إلى الذهن فوراً صورة خاصة حول استجابات الفزع أو الفرح التي كان يعبر عنها هؤلاء المشاهدون، فعندما عرض فيلم «وصول القطار إلى المحطة» الذي قدمه الأخوان لوميير في فرنسا، تراجع العديد منهم إلى الخلف، أو صرخوا، أو نهضوا، وجروا خارجين من (الجراند كافيه)، وهي ذلك المكان الذي كان يتم عرض هذا الفيلم فيه، وقد استخدمت مثل هذه الاستجابات في وصف مدى استجابات الجمهور للسينما. لكن استجابات الجمهور الحقيقية للسينما ليست هي مجرد الصراخ، أو الفزع، أو الهروب، أو الفرح، فالمسألة تشتمل على العديد من الاستجابات المعرفية و الوجدانية، والسلوكية، التي حاول عديد من العلماء- كل حسب إطاره المعرفي وتوجهاته النظرية- أن يفسرها.

فإن عمليات تقديم الفيلم والتمهيد له- من خلال الإعلان عنه وكذلك الموسيقى المصاحبة له، وغير ذلك من المؤثرات البصرية والسمعية- تعمل على خلق جو خاص من التوقع والترقب وحب الاستطلاع لدى المشاهد، ذلك الذي يسعى دائماً لمعرفة الأحداث التالية، ونحو الاستمتاع بالمشاهد الحالية أيضاً، وكما تكون هناك حاجة غلابة للجدّة لإدراك غير المألوف، خاصة مع زيادة خصائص الدهشة، وكسر التوقعات، والإثارة الدائمة للانفعالات، ثم العمل على حلها، أو تصريفها، أو إحداث التوازن في التوترات المستثارة.

ومع إدخال المونتاج، وأساليب السرد المركبة، تغيّرت أساليب الاستجابة للأفلام، وتعارضت جماليات سابقة عليها تقوم على أساس التأمل المبتعد أو البعيد Detached Contemplation، كما يحدث مثلاً عند التأمل للوحة أو تمثال موجود «هناك» على الجدران، أو فوق قاعدة، في حالةانعزال واكتفاء بذاته، لقد اعترفت الأفلام الأولى صراحة بوجود المشاهد واعترف المشاهد

* كاتب مصري

بوجودها، وتم العمل مع تقدم فن السينما وتقنياتها على الاهتمام الدائم بإثارة خيال المشاهد، وكذلك حب استطلاعه وانفعالاته، وعلى إكمال هذه الحالات من خلال زيادة جاذبية الأفلام والتلاعب بعناصر الصوت والصورة والقصة وغير ذلك من المكونات.

إن عمليات استثارة حب الاستطلاع والرغبة في الجدة والجديد، وكل ما هو جذاب وممتع، ومثير للوجدان والخيال، تقوم على أساس مفهوم قريب مما أسماه القديس أوجسطين في أوائل القرن الخامس عشر باسم الفضول أو حب الاستطلاع Curisitas وذلك خلال تصنيفه لما أسماه «شهود الأعين، The Lust of Eyes»، ففي مقابل تلك المتعة البصرية المرتبطة أو التي تتعلق بالجمال فإن الفضول في رأيه يتحاشى الجمال، ويذهب خلف نقيضه تماما، من أجل لذة الاكتشاف والمعرفة، فيجتذب الفضول المشاهد نحو المناظر غير المألوفة، وغير الجميلة أيضاً، إنه قد يتجه- هذا المشاهد مثلاً- نحو جثة مشوهة، أو مبتورة الأطراف في مقابل ذلك السعي الآخر نحو الجميل والمكتمل، ولا يؤدي حب الاستطلاع أو الفضول فقط- كما أشار أوجسطين- إلى الافتتان أو الإعجاب الشديد، بما نرى فقط وتدركه الحواس، على نحو مباشر، بل تصاحبه أيضاً رغبة متزايدة في المعرفة ذاتها، وهي رغبة تؤدي بصاحبها إلى الاهتمام بتلك التحولات والحالات الخاصة المصاحبة للعلم أو السحر، فهذا الانجذاب نحو الكريه، والمنفر، والمثير للخوف، والاشمئزاز كان هوما يقف- في رأي أجسطين- وراءه هذا الدافع المثير للشك، وغير المرغوب- لأسباب دينية طبعاً- والمسمى حب الاستطلاع العقلي، الذي ربطه فرويد وأتباعه بعد ذلك بحالات التلصص والفضول الجنسي، وربط برلين بينه وبين عمليات التفضيل الجمالي، وربط «توم جيننجز» بينه وبين الجاذبية المتعلقة بالسينما، خاصة في جوانبها غير المثيرة للاسترخاء أو الراحة.

لقد تطور الانجذاب الجمالي بالنسبة إلى العديد من الأفلام على نحو مناقض تماماً لفكرة التوحد الخاصة بمتعة النظر من خلال التأمل للجميل، ذلك الجالس أو المقيم أو الموجود هناك بعيداً، وكل عروض العجائب، والسخرية، والغرائب، في القرون الماضية كانت تصاحبها معلومات شارحة لهذه الكائنات العجيبة من البشر أو الحيوانات أو النباتات.

السينما الحديثة وإشباع الانفعالات

وعلى نفس الشاكلة، تهتم السينما بالعقارب المفترسة، والنمل الكبير، والفيضانات، والزلازل، والجرائم، وأفلام العصابات، والقصص البوليسية، والخيال العلمي، والكائنات الغريبة، والحيوانات الضارية، وكل ما من شأنه أن يستثير حب الاستطلاع، والخوف، والترقب، والتوتر، والتوجس أولاً، ثم التخفف، الراحة، والتوازن بعد ذلك.

وتستعين السينما بعمليات تجسيم الصوت الحديثة والموسيقى وكذلك البعد الثالث المرتبط بتجسيم الصورة وغير ذلك من المؤثرات، ومن أجل وضع المشاهد- هنا- في قلب الأحداث، لقد أصبح الفيلم كما سماه «كراكوير -KRA

بوجودها، وتم العمل مع تقدم فن السينما وتقنياتها على الاهتمام الدائم بإثارة خيال المشاهد، وكذلك حب استطلاعه وانفعالاته، وعلى إكمال هذه الحالات من خلال زيادة جاذبية الأفلام والتلاعب بعناصر الصوت والصورة والقصة وغير ذلك من المكونات.

إن عمليات استثارة حب الاستطلاع والرغبة في الجدة والجديد، وكل ما هو جذاب وممتع، ومثير للوجدان والخيال، تقوم على أساس مفهوم قريب مما أسماه القديس أوجسطين في أوائل القرن الخامس عشر باسم الفضول أو حب الاستطلاع Curisitas وذلك خلال تصنيفه لما أسماه «شهود الأعين، The Lust of Eyes»، ففي مقابل تلك المتعة البصرية المرتبطة أو التي تتعلق بالجمال فإن الفضول في رأيه يتحاشى الجمال، ويذهب خلف نقيضه تماما، من أجل لذة الاكتشاف والمعرفة، فيجتذب الفضول المشاهد نحو المناظر غير المألوفة، وغير الجميلة أيضاً، إنه قد يتجه- هذا المشاهد مثلاً- نحو جثة مشوهة، أو مبتورة الأطراف في مقابل ذلك السعي الآخر نحو الجميل والمكتمل، ولا يؤدي حب الاستطلاع أو الفضول فقط- كما أشار أوجسطين- إلى الافتتان أو الإعجاب الشديد، بما نرى فقط وتدركه الحواس، على نحو مباشر، بل تصاحبه أيضاً رغبة متزايدة في المعرفة ذاتها، وهي رغبة تؤدي بصاحبها إلى الاهتمام بتلك التحولات والحالات الخاصة المصاحبة للعلم أو السحر، فهذا الانجذاب نحو الكريه، والمنفر، والمثير للخوف، والاشمئزاز كان هوما يقف- في رأي أجسطين- وراءه هذا الدافع المثير للشك، وغير المرغوب- لأسباب دينية طبعاً- والمسمى حب الاستطلاع العقلي، الذي ربطه فرويد وأتباعه بعد ذلك بحالات التلصص والفضول الجنسي، وربط برلين بينه وبين عمليات التفضيل الجمالي، وربط «توم جيننجز» بينه وبين الجاذبية المتعلقة بالسينما، خاصة في جوانبها غير المثيرة للاسترخاء أو الراحة.

لقد تطور الانجذاب الجمالي بالنسبة إلى العديد من الأفلام على نحو مناقض تماماً لفكرة التوحد الخاصة بمتعة النظر من خلال التأمل للجميل، ذلك الجالس أو المقيم أو الموجود هناك بعيداً، وكل عروض العجائب، والسخرية، والغرائب، في القرون الماضية كانت تصاحبها معلومات شارحة لهذه الكائنات العجيبة من البشر أو الحيوانات أو النباتات.

السينما الحديثة وإشباع الانفعالات

وعلى نفس الشاكلة، تهتم السينما بالعقارب المفترسة، والنمل الكبير، والفيضانات، والزلازل، والجرائم، وأفلام العصابات، والقصص البوليسية، والخيال العلمي، والكائنات الغريبة، والحيوانات الضارية، وكل ما من شأنه أن يستثير حب الاستطلاع، والخوف، والترقب، والتوتر، والتوجس أولاً، ثم التخفف، الراحة، والتوازن بعد ذلك.

وتستعين السينما بعمليات تجسيم الصوت الحديثة والموسيقى وكذلك البعد الثالث المرتبط بتجسيم الصورة وغير ذلك من المؤثرات، ومن أجل وضع المشاهد- هنا- في قلب الأحداث، لقد أصبح الفيلم كما سماه «كراكوير -KRA

COUER»: «عملاً فنياً كلياً من المؤثرات، عملا يحاول أن يهاجم كل حاسة من حواسنا باستخدام كل الوسائل الممكنة».. إن الإشباع المفاجىء للانفعالات والأفكار الذي يتحقق في السينما الحديثة، إنما يكشف عن تفكك، أو تشظي خبرة الإنسان الحديث، فالحاجة الغلابة للإثارة وكذلك «المشهدية الكاملة» لكل أنواع المثيرات البصرية والسمعية والشمية.. إلخ. هي الشكل الحديث لحب الاستطلاع القديم الذي سعى وراء الغامض والغريب والخفي في عالم يشعر فيه الإنسان بأنه فقد أو يفتقد أشياء كثيرة كانت ترتبط بالجماليات القديمة، جماليات التأمل والاسترخاء، ان قيمة السينما إنما تكمن الآن- كما يشير العديد من النقاد والمنظرين لهذا الفن- في عرضها لهذا الافتقاد الجوهري للتماسك الذي يعاني منه الإنسان الآن.

ويكمن جمال السينما كذلك في أنها تعرض هذا الفقدان وتعرض معه أيضاً حالة من الاستعادة له، ولذلك نلاحظ أن العديد من الأفلام الحديثة التي تعرضها السينما الأميركية مثلاً تقدم هذه المشاهد الهائلة الخاصة بالبراكين كما في فيلم (البركان)، أو أحداث العنف الهائلة مثل فيلم (CON-AIR) الذي ترجم تجارياً باسم «هروب الأشرار»، لكنها تقدم معها لمسة إنسانية بسيطة مرهفة شديدة الرقة والحساسية، تتمثل في قصة حب تكتمل مع نهاية الفيلم أو حكاية طفل ينقذ أو أسرة مفككة تستعيد تكاملها.. وهكذا.

إذن هذه الحداثة في التكنيك تصاحبها أيضاً عملية استعادة ضمنية للثقافة التقليدية والفن التقليدي، ولعمليات التأمل الجمالي ولحالات الاكتمال التي هي نقيض التفكك الذي يستثير حب الاستطلاع.. كما إن مظاهر الرعب التي نواجهها على شاشة السينما تفوق ردود الأفعال الجسيمة البسيطة التي توجد لدينا خلال خبرة المشاهدة الفعلية لها، لكنها تماثل كذلك العديد من مظاهر الرعب التي قد تواجهنا في شوارع المدن الحديثة، حيث السيارات المندفعة والموت الذي يكاد يطال كل إنسان، وهذه الخبرة الخاصة بالمشاهدة ذات الطبيعة المزدوجة، من حيث أنها تشبه الحياة- لكنها ليست الحياة- تحول الصور الساكنة إلى إيهام متحرك. إيهام تلعب فيه الدهشة، والفضول، والمعرفة الحقيقية أدواراً مهمة، ويستمد، من خلال ذلك كله- ومعه- نوع خاص من المتعة الناتجة عن ذلك التخفف من التوتر الناشيء، وكذلك التراوح بين الصدمة وإثارتها، نتيجة الإيهام بالخطر، والبهجة وحدوثها، نتيجة التخفف من هذه الإثارة، ثم نتيجة للتعرف على أن الأمر كله مجرد إيهام ممتع، وخيال يوشك أن يكون كاملاً.

وقد وصف لوتون LOWTEN عام ١٩٩٢ الأسلوب الجديد بأنه يعطي انطباعاً خاصاً بأن الأفلام التي تقدم الآن أفلام متحرّرة من الأسلوب، أي طبيعية، وإن ذلك يتم من خلال الكاميرا (أو الصورة) والميكروفون (الصوت) في المكان المناسب وفي اللحظة المناسبة، بحيث يلتقط ما هو جوهري ومناسب بالنسبة لحبكة الفيلم ومن أفضل الزوايا الممكنة.

وتسمح الكاميرا أو التقنيات السينمائية الخيالية بالتعاطف أو التقمص مع ما يحدث أمامنا على الشاشة ويكون هذا ممكنا من خلال ذلك الشعور

COUER»: «عملاً فنياً كلياً من المؤثرات، عملا يحاول أن يهاجم كل حاسة من حواسنا باستخدام كل الوسائل الممكنة».. إن الإشباع المفاجىء للانفعالات والأفكار الذي يتحقق في السينما الحديثة، إنما يكشف عن تفكك، أو تشظي خبرة الإنسان الحديث، فالحاجة الغلابة للإثارة وكذلك «المشهدية الكاملة» لكل أنواع المثيرات البصرية والسمعية والشمية.. إلخ. هي الشكل الحديث لحب الاستطلاع القديم الذي سعى وراء الغامض والغريب والخفي في عالم يشعر فيه الإنسان بأنه فقد أو يفتقد أشياء كثيرة كانت ترتبط بالجماليات القديمة، جماليات التأمل والاسترخاء، ان قيمة السينما إنما تكمن الآن- كما يشير العديد من النقاد والمنظرين لهذا الفن- في عرضها لهذا الافتقاد الجوهري للتماسك الذي يعاني منه الإنسان الآن.

ويكمن جمال السينما كذلك في أنها تعرض هذا الفقدان وتعرض معه أيضاً حالة من الاستعادة له، ولذلك نلاحظ أن العديد من الأفلام الحديثة التي تعرضها السينما الأميركية مثلاً تقدم هذه المشاهد الهائلة الخاصة بالبراكين كما في فيلم (البركان)، أو أحداث العنف الهائلة مثل فيلم (CON-AIR) الذي ترجم تجارياً باسم «هروب الأشرار»، لكنها تقدم معها لمسة إنسانية بسيطة مرهفة شديدة الرقة والحساسية، تتمثل في قصة حب تكتمل مع نهاية الفيلم أو حكاية طفل ينقذ أو أسرة مفككة تستعيد تكاملها.. وهكذا.

إذن هذه الحداثة في التكنيك تصاحبها أيضاً عملية استعادة ضمنية للثقافة التقليدية والفن التقليدي، ولعمليات التأمل الجمالي ولحالات الاكتمال التي هي نقيض التفكك الذي يستثير حب الاستطلاع.. كما إن مظاهر الرعب التي نواجهها على شاشة السينما تفوق ردود الأفعال الجسيمة البسيطة التي توجد لدينا خلال خبرة المشاهدة الفعلية لها، لكنها تماثل كذلك العديد من مظاهر الرعب التي قد تواجهنا في شوارع المدن الحديثة، حيث السيارات المندفعة والموت الذي يكاد يطال كل إنسان، وهذه الخبرة الخاصة بالمشاهدة ذات الطبيعة المزدوجة، من حيث أنها تشبه الحياة- لكنها ليست الحياة- تحول الصور الساكنة إلى إيهام متحرك. إيهام تلعب فيه الدهشة، والفضول، والمعرفة الحقيقية أدواراً مهمة، ويستمد، من خلال ذلك كله- ومعه- نوع خاص من المتعة الناتجة عن ذلك التخفف من التوتر الناشىء، وكذلك التراوح بين الصدمة وإثارتها، نتيجة الإيهام بالخطر، والبهجة وحدوثها، نتيجة التخفف من هذه الإثارة، ثم نتيجة للتعرف على أن الأمر كله مجرد إيهام ممتع، وخيال يوشك أن يكون كاملاً.

وقد وصف لوتون LOWTEN عام ١٩٩٢ الأسلوب الجديد بأنه يعطي انطباعاً خاصاً بأن الأفلام التي تقدم الآن أفلام متحرّرة من الأسلوب، أي طبيعية، وإن ذلك يتم من خلال الكاميرا (أو الصورة) والميكروفون (الصوت) في المكان المناسب وفي اللحظة المناسبة، بحيث يلتقط ما هو جوهري ومناسب بالنسبة لحبكة الفيلم ومن أفضل الزوايا الممكنة.

وتسمح الكاميرا أو التقنيات السينمائية الخيالية بالتعاطف أو التقمص مع ما يحدث أمامنا على الشاشة ويكون هذا ممكنا من خلال ذلك الشعور

الخاص بأننا نرى دون أن نرى، ونلاحظ دون أن يقوم أحد بملاحظتنا، ويسمح هذا بظهور أو حدوث درجة عالية من الحرية الخاصة في الفهم والانفعال. فإن ما يفعله المبدعون في السينما هنا هو أنهم يختارون جدياً تلك الخبرات المكثفة، وتلك الفترات أو المراحل غير العادية وغير المألوفة من الانفعال وبشكل، نادراً ما نجده في الحياة.

ولعل ذلك يتجلى أوضح ما يكون التجلي في العديد من أفلام الإثارة، والعنف، والرعب، والمغامرات التي يفضلها العديد من الناس عبر العالم، فلماذا يفضل هؤلاء الناس مثل هذه النوعيات من الأفلام؟

إن «نماذج معالجة المعلومات» وهي السمة السائدة الآن في مجال علم النفس المعرفي عامة وسيكولوجية الفنون خاصة قد اهتمت بدراسة ردود الأفعال والاستجابات التي يصدرها الأفراد عندما يشاهدون أحداثا مشحونة بالطاقة الانفعالية، وأنها حاولت تفسير هذه الاستجابات من خلال مفاهيم جديدة، لكنها تقوم فى جوهرها على أساس فكرة التطهر والتقمص، أو التعاطف كما طرحها (أرسطو) أو (ليبس)، فأصحابها يقولون إنّ هذه العملية عملية معرفية أكثر منها عملية انفعالية، وهنا نلاحظ انقساماً كبيرا بين هؤلاء العلماء ما بين التأكيد على الانفعال أو التأكيد على المعرفة، فى حين أننا نرى أن هذه القسمة للاستجابات الجمالية قسمة مفتعلة، ذلك لأن استجاباتنا للأعمال الجمالية عامة، والفنية خاصة استجابة تتراوح دوماً وبدرجات متفاوتة بين الإدرك والفهم والذاكرة والخيال والتوقع، وهي عمليات معرفية.. وبين الفرح أو الحزن أو الغضب.. إلخ وهي استجابات انفعالية.

السينما الحديثة مصدر للمعلومات

يتجلى هذا الأمر على نحو خاص في تلك الدراسات الحديثة التي اهتمت بتفسير استجابات الناس لأفلام السينما، وهي الدراسات التي وصلت الآن إلى نوع من الاتفاق النسبي على أن ظاهرة التقمص هذه ظاهرة متعددة الأبعاد، وليست ظاهرة بسيطة، أ وأحادية الأبعاد، فهي تشتمل على جوانب انفعالية، وجوانب معرفية، وجوانب دافعية وبدرجات متفاوتة.

فقد نظر لازاروس LAZARUS إلى عملية التقمص على أنها تتعلق بقدرة المرء على أن يشارك الآخرين انفعالاتهم. ووفقاً له فإن دور التقمص، فيما يتعلق بالاستجابة لأفلام الرعب، هو دور متعدد الأبعاد ويشتمل على عمليات سابقة، أى عملية المشاهدة خاصة بالشخص والبيئة، وعلى عمليات وسيطة تنشط خلال عملية المشاهدة هذه ثم على عمليات لاحقة لها، وتتفاعل كل هذه العمليات معاً كى تكون خبرة التقمص الفعلية.

فالعوامل الخاصة بشخصية المرء (عمره أو نوعه أو ثقافته أو سماته... إلخ) تتفاعل مع عوامل موقفيه (مضمون الفيلم) وتؤدي إلى تقييم خاص على أساس المعرفة، والانفعال، وينتج عنه في النهاية محصلة أو شعور أو حالة معينة، كالشعور بالخوف، أو التهديد، أو الإهانة، أو الخطر، أو غير ذلك من المشاعر المصاحبة لعملية المشاهدة لهذه الأفلام.

الخاص بأننا نرى دون أن نرى، ونلاحظ دون أن يقوم أحد بملاحظتنا، ويسمح هذا بظهور أو حدوث درجة عالية من الحرية الخاصة في الفهم والانفعال. فإن ما يفعله المبدعون في السينما هنا هو أنهم يختارون جدياً تلك الخبرات المكثفة، وتلك الفترات أو المراحل غير العادية وغير المألوفة من الانفعال وبشكل، نادراً ما نجده في الحياة.

ولعل ذلك يتجلى أوضح ما يكون التجلي في العديد من أفلام الإثارة، والعنف، والرعب، والمغامرات التي يفضلها العديد من الناس عبر العالم، فلماذا يفضل هؤلاء الناس مثل هذه النوعيات من الأفلام؟

إن «نماذج معالجة المعلومات» وهي السمة السائدة الآن في مجال علم النفس المعرفي عامة وسيكولوجية الفنون خاصة قد اهتمت بدراسة ردود الأفعال والاستجابات التي يصدرها الأفراد عندما يشاهدون أحداثا مشحونة بالطاقة الانفعالية، وأنها حاولت تفسير هذه الاستجابات من خلال مفاهيم جديدة، لكنها تقوم فى جوهرها على أساس فكرة التطهر والتقمص، أو التعاطف كما طرحها (أرسطو) أو (ليبس)، فأصحابها يقولون إنّ هذه العملية عملية معرفية أكثر منها عملية انفعالية، وهنا نلاحظ انقساماً كبيرا بين هؤلاء العلماء ما بين التأكيد على الانفعال أو التأكيد على المعرفة، فى حين أننا نرى أن هذه القسمة للاستجابات الجمالية قسمة مفتعلة، ذلك لأن استجاباتنا للأعمال الجمالية عامة، والفنية خاصة استجابة تتراوح دوماً وبدرجات متفاوتة بين الإدرك والفهم والذاكرة والخيال والتوقع، وهي عمليات معرفية.. وبين الفرح أو الحزن أو الغضب.. إلخ وهي استجابات انفعالية.

السينما الحديثة مصدر للمعلومات

يتجلى هذا الأمر على نحو خاص في تلك الدراسات الحديثة التي اهتمت بتفسير استجابات الناس لأفلام السينما، وهي الدراسات التي وصلت الآن إلى نوع من الاتفاق النسبي على أن ظاهرة التقمص هذه ظاهرة متعددة الأبعاد، وليست ظاهرة بسيطة، أ وأحادية الأبعاد، فهي تشتمل على جوانب انفعالية، وجوانب معرفية، وجوانب دافعية وبدرجات متفاوتة.

فقد نظر لازاروس LAZARUS إلى عملية التقمص على أنها تتعلق بقدرة المرء على أن يشارك الآخرين انفعالاتهم. ووفقاً له فإن دور التقمص، فيما يتعلق بالاستجابة لأفلام الرعب، هو دور متعدد الأبعاد ويشتمل على عمليات سابقة، أى عملية المشاهدة خاصة بالشخص والبيئة، وعلى عمليات وسيطة تنشط خلال عملية المشاهدة هذه ثم على عمليات لاحقة لها، وتتفاعل كل هذه العمليات معاً كى تكون خبرة التقمص الفعلية.

فالعوامل الخاصة بشخصية المرء (عمره أو نوعه أو ثقافته أو سماته... إلخ) تتفاعل مع عوامل موقفيه (مضمون الفيلم) وتؤدي إلى تقييم خاص على أساس المعرفة، والانفعال، وينتج عنه في النهاية محصلة أو شعور أو حالة معينة، كالشعور بالخوف، أو التهديد، أو الإهانة، أو الخطر، أو غير ذلك من المشاعر المصاحبة لعملية المشاهدة لهذه الأفلام.

وهذه النتيجة الخاصة التي تقوم بتقييم معين لما يحدث أمامنا على الشاشة هي عملية معرفية وسيطة تحدد كل الاستجابات، التي تحدث في أثناء هذه المشاهدة أو بعدها، والتي قد تشمل أساليب مواجهة مثل: الإنكار أو الابتعاد أو التحاشي أو عدم مواصلة المشاهدة، أو التهكم والشعور بالاستعلاء على ما يحدث أمامنا، والاستنكار له. كذلك تلك الاستجابات الانفعالية، التي قد تشتمل على القلق أو الضحك الممزوج بالخوف أو الشعور بالمتعة وحب الاستطلاع والرغبة في المواصلة.

إن تذوق المثيرات المخيفة والمثيرة للرعب والكئيبة على نحو غير سوي- أي تفضيلها- ليس شيئاً جديداً، الوسائط فقط هي التي تغيّرت. فالمشاهدون لحلبات المصارعة، أو لعمليات تنفيذ أحكام الإعدام في الساحات العامة لدى الرومان أو غيرهم لم يكونوا يعتبرون ما يشعرون به من إثارة ومتعة أمراً مرضياً أو غير عادي. ولم يكتب أي مفكر روماني بارز أي مقالة يتساءل خلالها عن السبب الذي كان يجعل الناس يستمتعون وهم يشاهدون الحيوانات الضارية تفترس أخوتهم من البشر. وقد عادت أساطير الوحوش والكائنات المخيفة المنظورة أو غير المنظورة التي سادت التفكير الإنساني في مراحله البدائية،على نحو خاص تتجول الآن وتتجسد على نحو حر وممتع من خلال وسائل تكنولوجية حديثة كالسينما والتليفزيون.

لقد قالت بعض الدراسات أن الدافع السابق الخاص بالميل نحو مشاهدة أفلام الرعب والعنف يتعلق بتكوين أساليب مواجهة COPING STYLES مناسبة تجعل الإنسان يسيطر ولو من خلال التخييل على مظاهر الخوف التي لا يستطيع أن يسيطر عليها في الواقع، ثم إنه، كما يقولون، يستطيع أن يمتد بأساليب المواجهة التخيلية هذه إلى عالم الواقع، فيواجه مخاوفه الخاصة المرتبطة بهذا الواقع، ويحاول جاهداً أن يسيطر عليها.

لكن عمليات المشاهدة لهذه الأفلام لا ترتبط فقط بتكوين أساليب مواجهة للخوف، إنها ترتبط كذلك بالحصول على متعة خاصة بها موجودة بداخلها أو متأصلة فيها. وهذه المتعة قد ترتبط بعمليات تنشيط الخيال وكذلك إثارة التوقعات ومتابعة الأحداث، والوصول إلى نوع معين من الفهم، ومن ثم تكون هناك متعة معرفية مرتبطة بهذه الأفلام، فأفلام الخيال العلمي، أو الأفلام البوليسية قد تزود المرء بعدد كبير من المعلومات، وأساليب التفكير (أفلام شرلوك هولمز مثلاً) كما أن عمليات استبعاد المشاعر العنيفة والانفعالات المخيفة قد تؤدي إلى عكسها، ألا وهو الشعور بالمتعة والارتياح أيضاً، وكلما كان الشحن الانفعالي، أو الإثارة الانفعالية أكبر وأقوى كان الشعور بالمتعة أو الارتياح الذي يعقبها أكبر وأقوى، إن كان الفيلم مقنعاً- كما أشار فريدجا FRIDGA- سواء أكان من أفلام الإثارة أم لا، سينظر إليه المتلقي على أنّه يتعلق بأحداث حقيقية تحدث في عالم خيالي. إن المتلقي هنا سيميل إلى استبعاد العناصر غير الخيالية، أو غير المقنعة في الفيلم ويميل إلى الاندماج في حالة خاصة من التعليق لعدم تصديقه لها -SUS PENDING DISBELIEF، وكلما كان الفيلم

وهذه النتيجة الخاصة التي تقوم بتقييم معين لما يحدث أمامنا على الشاشة هي عملية معرفية وسيطة تحدد كل الاستجابات، التي تحدث في أثناء هذه المشاهدة أو بعدها، والتي قد تشمل أساليب مواجهة مثل: الإنكار أو الابتعاد أو التحاشي أو عدم مواصلة المشاهدة، أو التهكم والشعور بالاستعلاء على ما يحدث أمامنا، والاستنكار له. كذلك تلك الاستجابات الانفعالية، التي قد تشتمل على القلق أو الضحك الممزوج بالخوف أو الشعور بالمتعة وحب الاستطلاع والرغبة في المواصلة.

إن تذوق المثيرات المخيفة والمثيرة للرعب والكئيبة على نحو غير سوي- أي تفضيلها- ليس شيئاً جديداً، الوسائط فقط هي التي تغيّرت. فالمشاهدون لحلبات المصارعة، أو لعمليات تنفيذ أحكام الإعدام في الساحات العامة لدى الرومان أو غيرهم لم يكونوا يعتبرون ما يشعرون به من إثارة ومتعة أمراً مرضياً أو غير عادي. ولم يكتب أي مفكر روماني بارز أي مقالة يتساءل خلالها عن السبب الذي كان يجعل الناس يستمتعون وهم يشاهدون الحيوانات الضارية تفترس أخوتهم من البشر. وقد عادت أساطير الوحوش والكائنات المخيفة المنظورة أو غير المنظورة التي سادت التفكير الإنساني في مراحله البدائية،على نحو خاص تتجول الآن وتتجسد على نحو حر وممتع من خلال وسائل تكنولوجية حديثة كالسينما والتليفزيون.

لقد قالت بعض الدراسات أن الدافع السابق الخاص بالميل نحو مشاهدة أفلام الرعب والعنف يتعلق بتكوين أساليب مواجهة COPING STYLES مناسبة تجعل الإنسان يسيطر ولو من خلال التخييل على مظاهر الخوف التي لا يستطيع أن يسيطر عليها في الواقع، ثم إنه، كما يقولون، يستطيع أن يمتد بأساليب المواجهة التخيلية هذه إلى عالم الواقع، فيواجه مخاوفه الخاصة المرتبطة بهذا الواقع، ويحاول جاهداً أن يسيطر عليها.

لكن عمليات المشاهدة لهذه الأفلام لا ترتبط فقط بتكوين أساليب مواجهة للخوف، إنها ترتبط كذلك بالحصول على متعة خاصة بها موجودة بداخلها أو متأصلة فيها. وهذه المتعة قد ترتبط بعمليات تنشيط الخيال وكذلك إثارة التوقعات ومتابعة الأحداث، والوصول إلى نوع معين من الفهم، ومن ثم تكون هناك متعة معرفية مرتبطة بهذه الأفلام، فأفلام الخيال العلمي، أو الأفلام البوليسية قد تزود المرء بعدد كبير من المعلومات، وأساليب التفكير (أفلام شرلوك هولمز مثلاً) كما أن عمليات استبعاد المشاعر العنيفة والانفعالات المخيفة قد تؤدي إلى عكسها، ألا وهو الشعور بالمتعة والارتياح أيضاً، وكلما كان الشحن الانفعالي، أو الإثارة الانفعالية أكبر وأقوى كان الشعور بالمتعة أو الارتياح الذي يعقبها أكبر وأقوى، إن كان الفيلم مقنعاً- كما أشار فريدجا FRIDGA- سواء أكان من أفلام الإثارة أم لا، سينظر إليه المتلقي على أنّه يتعلق بأحداث حقيقية تحدث في عالم خيالي. إن المتلقي هنا سيميل إلى استبعاد العناصر غير الخيالية، أو غير المقنعة في الفيلم ويميل إلى الاندماج في حالة خاصة من التعليق لعدم تصديقه لها SUS-PENDING DISBELIEF، وكلما كان الفيلم

مقنعاً، كان قد تم إنتاجه جيداً وتم الاهتمام بكل تفاصيله ومال المتلقي إلى عدم التفكير في الجوانب غير الواقعية أو الخيالية منه، وكان الاستمتاع به أكبر، سواء أكان المضمون الذي يحمله الفيلم مخيفاً أم لا.

أما تسو كرمان M. ZUCKERMAN فقد ربط بين هذا الميل نحو التفضيل لأفلام الرعب- وأفلام الإثارة الجنسية كذلك- وبين سمة البحث عن التنبيه الحسي أو الإثارة الحسية SENSA-TION SEEKING والتي عرفها على أنها «سمة تتجلى في البحث عن المتنوع، والجديد، والمركب، وعن الإحساسات والخبرات القوية والمكثفة، وكذلك الرغبة في القيام بمخاطرات جسيمة واجتماعية وقانونية ومالية من أجل الوصول إلى مثل هذه الخبرات والإحساسات».

الرعب والتشويق من سمات التفضيل

وتشتمل الحياة على عديد من السلوكيات الدالة على وجود مثل هذه السمة، ومن ذلك مثلاً: تسلق الجبال والغطس تحت الماء، والمشاركة في ألعاب رياضية عنيفة، والمضاربة في البورصة،والمقامرة، والحفلات الصاخبة، ومشاهدة مصارعة الثيران، وغير ذلك من سلوكيات البحث عن الإثارة الحسية، التي تعد عمليات مشاهدة أفلام العنف والرعب والإثارة من بينها، وهناك أمثلة عديدة على هذه السمة في عديد من مظاهر السلوك الفنية أو غير الفنية. ولنضرب مثلاً على ذلك، وهو (WHOTLIAS PANAETH بمعنى الحقيقة الخفية) الذي تدور أحداثه حول د. نورمان سبنسر الذي يقوم بدوره الممثل (هارسون فورد) وزوجته (كلير سبنسر) التي تقوم بدورها الممثلة (ميشيل فايفر).. وقد مضى عام على خيانة د. نورمان لزوجته الجميلة كلير ومع ذلك تبدو حياتهما طبيعية.. فكلير عازفة في فرقة موسيقية ولها ابنة تدعى كاترين تعتني بها عناية فائقة.. وذات يوم عندما تركت المنزل لتلتحق بالجامعة شعرت وكأن السجادة تنسحب من تحت قدميها، ثم بدأت تسمع أصواتاً غامضة وترى شبح امرأة في المنزل وتحاول إقناع نفسها بأن ما يحدث ليس إلا تخيلات. ولكن عندما زادت هذه الأحداث أخبرت زوجها، الذي أخبرها بأن هذا مجرد وهم وتخيلات. ولأنه عالم فهو لا يؤمن بالأشباح.. فبدأت هي تشك في قدرتها العقلية إلا أنها تحاول اكتشاف الحقيقة وأن تقنع نفسها بأن هذه الأشياء حقيقية وليست خيالاً وأنها موجودة فعلاً داخل المنزل.. وتستمر الأحداث في مشاهد الفيلم من الرعب إلى التشويق.

لقد تم تصوير هذا الفيلم في نيو إنجلاند، وتم بناء المنزل الذي تقع فيه الأحداث على ضفاف بحيرة «شامبلان» وكذلك المنزل المجاور له والمرسى الخشبي الذي يصل بين المنزل والماء.. كما تم بناء منزل مطابق له من الداخل وتم إخراجه في استوديوهات لوس أنجلوس.. ويقول المخرج: «لقد تخيلت ما يمكن أن يفعله المخرج الراحل- هيتشكوك- لو كان ما زال حياً بيننا ولديه كل تلك الأجهزة العصرية من حواسيب وأجهزة رقمية وجرافيك».

ومن الأفلام التي أنتجت أيضاً هذا العام فيلم (X-MEN) أو الرجال- إكس، وهو من أفلام

مقنعاً، كان قد تم إنتاجه جيداً وتم الاهتمام بكل تفاصيله ومال المتلقي إلى عدم التفكير في الجوانب غير الواقعية أو الخيالية منه، وكان الاستمتاع به أكبر، سواء أكان المضمون الذي يحمله الفيلم مخيفاً أم لا.

أما تسوكرمان M. ZUCKERMAN فقد ربط بين هذا الميل نحو التفضيل لأفلام الرعب- وأفلام الإثارة الجنسية كذلك- وبين سمة البحث عن التنبيه الحسي أو الإثارة الحسية SENSA-TION SEEKING والتي عرفها على أنها «سمة تتجلى في البحث عن المتنوع، والجديد، والمركب، وعن الإحساسات والخبرات القوية والمكثفة، وكذلك الرغبة في القيام بمخاطرات جسيمة واجتماعية وقانونية ومالية من أجل الوصول إلى مثل هذه الخبرات والإحساسات».

الرعب والتشويق من سمات التفضيل

وتشتمل الحياة على عديد من السلوكيات الدالة على وجود مثل هذه السمة، ومن ذلك مثلاً: تسلق الجبال والغطس تحت الماء، والمشاركة في ألعاب رياضية عنيفة، والمضاربة في البورصة،والمقامرة، والحفلات الصاخبة، ومشاهدة مصارعة الثيران، وغير ذلك من سلوكيات البحث عن الإثارة الحسية، التي تعد عمليات مشاهدة أفلام العنف والرعب والإثارة من بينها، وهناك أمثلة عديدة على هذه السمة في عديد من مظاهر السلوك الفنية أو غير الفنية. ولنضرب مثلاً على ذلك، وهو (WHOTLIAS PANAETH بمعنى الحقيقة الخفية) الذي تدور أحداثه حول د. نورمان سبنسر الذي يقوم بدوره الممثل (هارسون فورد) وزوجته (كلير سبنسر) التي تقوم بدورها الممثلة (ميشيل فايفر).. وقد مضى عام على خيانة د. نورمان لزوجته الجميلة كلير ومع ذلك تبدو حياتهما طبيعية.. فكلير عازفة في فرقة موسيقية ولها ابنة تدعى كاترين تعتني بها عناية فائقة.. وذات يوم عندما تركت المنزل لتلتحق بالجامعة شعرت وكأن السجادة تنسحب من تحت قدميها، ثم بدأت تسمع أصواتاً غامضة وترى شبح امرأة في المنزل وتحاول إقناع نفسها بأن ما يحدث ليس إلا تخيلات. ولكن عندما زادت هذه الأحداث أخبرت زوجها، الذي أخبرها بأن هذا مجرد وهم وتخيلات. ولأنه عالم فهو لا يؤمن بالأشباح.. فبدأت هي تشك في قدرتها العقلية إلا أنها تحاول اكتشاف الحقيقة وأن تقنع نفسها بأن هذه الأشياء حقيقية وليست خيالاً وأنها موجودة فعلاً داخل المنزل.. وتستمر الأحداث في مشاهد الفيلم من الرعب إلى التشويق.

لقد تم تصوير هذا الفيلم في نيو إنجلاند، وتم بناء المنزل الذي تقع فيه الأحداث على ضفاف بحيرة «شامبلان» وكذلك المنزل المجاور له والمرسى الخشبي الذي يصل بين المنزل والماء.. كما تم بناء منزل مطابق له من الداخل وتم إخراجه في استوديوهات لوس أنجلوس.. ويقول المخرج: «لقد تخيلت ما يمكن أن يفعله المخرج الراحل- هيتشكوك- لو كان ما زال حياً بيننا ولديه كل تلك الأجهزة العصرية من حواسيب وأجهزة رقمية وجرافيك».

ومن الأفلام التي أنتجت أيضاً هذا العام فيلم (X-MEN) أو الرجال- إكس، وهو من أفلام

الخيال العلمي حيث يستعرض العنصرية والاضطهاد في إطار سياسي كوميدي من خلال المغامرات مع كائنات متفوقة على القدرات البشرية والبيئة السياسية والاجتماعية في عالم مستقبله غريب، وهذا الصراع بين الخير والشر ومحاولة إيجاد وضع وسط مفيد لكل الأطراف، وهو مفهوم فلسفي يثير الشقاق بين كل الأطراف في نفس الوقت.

وتدور أحداث الفيلم حول مجموعة من الأشخاص كل منهم له قدرة خاصّة تميزه، منهم «سابكلوبس» جيمس مارسون الذي تصدر عيناه أشعة لها طاقة قوية تستطيع صنع فجوات في الجبال.. و«جين جراي» أو «فامك جانسن» تتركز قدرته في التخاطر الذهني.. أما «ستورم هال بري» فيمكنه أن يتحكم في الجو بكل الأشكال.

وبالرغم من أنهم مكروهون من المجتمع لشدة خوف الناس منهم ومعرضون للأخطار من قبل السيناتور «روبرت بروس دافيسون» وهو سياسي مكلف بمحاربة الأخطار إلا أنهم استطاعوا أن يظلوا أحياء، فقد تعلموا من الأستاذ «شارلز زافيير باتريك سيتوارت» الذي يمتلك أعلى قوة في العالم أن يتحكموا في قواتهم ويوجهونها لصالح الإنسان والخير ويستضيف الأستاذ شارلز اثنين هما «ولفرين» و«هو حاكمان» وله قدرات علاجية عالية، ومخالب قاتلة ويكسو جسده فراء مثل الحيوانات. و«روج أنا باكين» وهي فتاة تستطيع أن تستوعب قوة وذاكرة أي إنسان تلمسه، يطلق عليهم «الرجال اكس» وتبدأ معركتهم مع «ماجنتو ايان مكلين» وهو أحد أقوياء العالم ومن نفس نوعيتهم إلا أنهم يعملون لخير البشرية وهو لا يتوانى عن فناء البشر كلهم في سبيل مصالحه الشخصية وتحقيق ما يريد من أهداف خاصة.

أيضاً هناك فيلم «كيوتي القبيحة: Coyote Ugly» وهو من أحدث الأفلام الأميركية التي تنتقد بعنف الواقع الأميركي بولاية نيويورك، حيث العنف والجريمة والصخب الشديد، وكيوتي القبيحة، فيلم يعرض تفاصيل حياة فتاة متوحشة الطباع في مدينة أكثر توحشاً، فالفتاة «فيوليت سانفورد» ذات العشرين عاماً؟ التى أصرت على التوجه إلى نيويوك لتحقق حلمها في كتابة الأغاني كما وعدها البعض.

في سبيل ذلك تقبل فيوليت العمل في إحدى الحانات.. وهناك تتعرف على فريق غنائى نسائي.. تحاول أن تنضم إليهن لتؤلف لهن الأغنيات.. لكنها تجد صعوبة في ذلك الأمر فهي في نظرهن مجرد خادمة في ذلك البار.

لكن فيوليت تقرر أن تصل إلى هدفها مستخدمة كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة حتى تسقط أخلاقياً.. وتفقد ا حترام كل من حولها حتى والدها الذي كان يعقد عليها أملاً كبيراً.. الفيلم بطولة بيبر بو، وماريا وإيزابيلا ميكو، وتيبرا بانكس، ومن إخراج ديفيد ماكنلي.

ومن الأفلام العربية التي استطاعت استخدام تقنية الحاسوب وتقديم لغة سينمائية جديدة، فيلم المخرج أحمد عاطف «عمر ٢٠٠٠» الذي تم عرضه أول مرة في مهرجان الإسكندرية السينمائى الدولي الأخير. فهو فيلم جديد في جديد.. مخرجه جديد على السينما العربية الروائية، وإن كان قد سبق له أن أخرج عدداً من

الخيال العلمي حيث يستعرض العنصرية والاضطهاد في إطار سياسي كوميدي من خلال المغامرات مع كائنات متفوقة على القدرات البشرية والبيئة السياسية والاجتماعية في عالم مستقبله غريب، وهذا الصراع بين الخير والشر ومحاولة إيجاد وضع وسط مفيد لكل الأطراف، وهو مفهوم فلسفي يثير الشقاق بين كل الأطراف في نفس الوقت.

وتدور أحداث الفيلم حول مجموعة من الأشخاص كل منهم له قدرة خاصّة تميزه، منهم «سابكلوبس» جيمس مارسون الذي تصدر عيناه أشعة لها طاقة قوية تستطيع صنع فجوات في الجبال.. و«جين جراي» أو «فامك جانسن» تتركز قدرته في التخاطر الذهني.. أما «ستورم هال بري» فيمكنه أن يتحكم في الجو بكل الأشكال.

وبالرغم من أنهم مكروهون من المجتمع لشدة خوف الناس منهم ومعرضون للأخطار من قبل السيناتور «روبرت بروس دافيسون» وهو سياسي مكلف بمحاربة الأخطار إلا أنهم استطاعوا أن يظلوا أحياء، فقد تعلموا من الأستاذ «شارلز زافيير باتريك سيتوارت» الذي يمتلك أعلى قوة في العالم أن يتحكموا في قواتهم ويوجهونها لصالح الإنسان والخير ويستضيف الأستاذ شارلز اثنين هما «ولفرين» و«هو حاكمان» وله قدرات علاجية عالية، ومخالب قاتلة ويكسو جسده فراء مثل الحيوانات. و«روج أنا باكين» وهي فتاة تستطيع أن تستوعب قوة وذاكرة أي إنسان تلمسه، يطلق عليهم «الرجال اكس» وتبدأ معركتهم مع «ماجنتو ايان مكلين» وهو أحد أقوياء العالم ومن نفس نوعيتهم إلا أنهم يعملون لخير البشرية وهو لا يتوانى عن فناء البشر كلهم في سبيل مصالحه الشخصية وتحقيق ما يريد من أهداف خاصة.

أيضاً هناك فيلم «كيوتي القبيحة: Coyote Ugly» وهو من أحدث الأفلام الأميركية التي تنتقد بعنف الواقع الأميركى بولاية نيويورك، حيث العنف والجريمة والصخب الشديد، وكيوتي القبيحة، فيلم يعرض تفاصيل حياة فتاة متوحشة الطباع في مدينة أكثر توحشاً، فالفتاة «فيوليت سانفورد» ذات العشرين عاماً؟ التى أصرت على التوجه إلى نيويوك لتحقق حلمها في كتابة الأغاني كما وعدها البعض.

في سبيل ذلك تقبل فيوليت العمل في إحدى الحانات.. وهناك تتعرف على فريق غنائى نسائي.. تحاول أن تنضم إليهن لتؤلف لهن الأغنيات.. لكنها تجد صعوبة في ذلك الأمر فهي في نظرهن مجرد خادمة في ذلك البار.

لكن فيوليت تقرر أن تصل إلى هدفها مستخدمة كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة حتى تسقط أخلاقياً.. وتفقد ا حترام كل من حولها حتى والدها الذي كان يعقد عليها أملاً كبيراً.. الفيلم بطولة بيبر بو، وماريا وإيزابيلا ميكو، وتيبرا بانكس، ومن إخراج ديفيد ماكنلي.

ومن الأفلام العربية التي استطاعت استخدام تقنية الحاسوب وتقديم لغة سينمائية جديدة، فيلم المخرج أحمد عاطف «عمر ٢٠٠٠» الذي تم عرضه أول مرة في مهرجان الإسكندرية السينمائى الدولي الأخير. فهو فيلم جديد في جديد.. مخرجه جديد على السينما العربية الروائية، وإن كان قد سبق له أن أخرج عدداً من

الأفلام القصيرة.. كما أن موضوع الفيلم أيضاً جديد، أما لغة السينما والسيناريو، فهي أكثر من جديدة، والطريف أن مخرج الفيلم هو نفسه مؤلف القصة والسيناريو والحوار.. إنه عاطف ألفين.

التكنولوجيا الجديدة.. مبهرة ورخيصة

كان أحمد عاطف قد نشر في الصحف بياناً بمناسبة عرض فيلم «عمر ٢٠٠٠» لأول مرة في مهرجان الإسكندرية.. قال فيه «إنني أسعى إلى سينما تهتم بروح الإنسان وعقله أكثر مما تهتم بغرائزه، سينما تضحك معه لا تضحك عليه.. تناقش إحباطاته وتساعده على الخروج منها ولا تمارس الخداع بتصوير الحياة بسيطة والواقع وردياً.. باستخدام أحدث ما في العصر من تقنيات علمية لخدمة العمل السينمائي، فلم يكن الواقع في أى مرحلة من مراحل التاريخ وردياً، ولكن كما أن هناك دائماً من يكذبون.. فإن هناك دائماً من يقولون الحقيقة أو يحاولون قولها.. وأملي أن أكون، ومعي فريق فيلم عمر ٢٠٠٠، من هؤلاء».

وفي مكان آخر من بيان المخرج قال «لقد اعتاد الجمهور أن يتناول الوجبات الفاسدة وأدمنها، وهو في عمر ٢٠٠٠ يحاول أن يقدم لوجبة طازجة مفيدة، مدركا تماماً أنه من أجل تحقيق ذلك، يحتاج إلى أساليب جديدة ورؤى متطورة للتعبير عن عالمنا المعقد، فمن غير المعقول أن يستخدم كاتب مفكر لغة تلميذ السنة الأولى الابتدائية للتعبير عن أفكاره، فالحاجة إلى سينما جديدة في مصر والوطن العربي ضرورة حتمية لا بد منها.. من أجل هدف محدد هو الوصول إلى المتلقّى وليس الإبحار عنه.

وعمر، هو النجم الشاب «خالد النبوي» الذي يفاجأ بظهور شعيرات بيضاء في رأسه وهو على شفا الثلاثين من عمره، فيصاب بالذعر ويسمع صوت ضميره يدق له ناقوس الخطر: «إنك لم تحقق شيئاً.. نصف حب ونصف نجاح، كل شيء لم تعبر نصفه، وليس هناك ما يؤكد أنك ستنال النصف ا لآخر.. وماذا بعد؟.. هل ستترك أحلامك وطموحاتك تحبط في هذا البلد؟».. هكذا يأخذ القرار.. إن الحلم الأميركى يناديه.. وعليه أن يلبي.

يروي الفيلم هذه المقدمة القصيرة.. لكن كيف قرر أن يعيش عمر الثلاثين يوماً الباقية على السفر؟.. لقد ا نطلق ليرى الحياة بأسلوب آخر.. ويمنح نفسه فرصة التعبير وبأسلوب تقني مبتكر وسريع الإيقاع... جديد الرؤية.. ساخر الفكر.

تتوالى الأحداث والشخصيات التي يلتقي بها عمر.. شخصيات من بيئات وثقافات مختلفة.. نبتت وسط مجتمعات متباينة.. أحياناً هم أحياء يعيشون في المقابر، وأحياناً هن مثقفات درسن بالجامعة الأميركية، وفي أحيان ثالثة ممن يقسطون حياتهم ليعيشوا حتى يبيعوا ملابسهم.. ويترك هؤلاء رغم الاختلاف النمطي.. ردود أفعال متباينة ومتوالية على عمر.

لقد نجح خالد النبوي في التعبير بقدراته في الأداء التمثيلي، فهو الشخصية المحورية التي تقدم الفعال وتعكس ردود الفعال وتؤثر في الآخرين وتتأثر بهم حتي يشعر بتأثره الأعظم.. وهو حبه

الأفلام القصيرة.. كما أن موضوع الفيلم أيضاً جديد، أما لغة السينما والسيناريو، فهي أكثر من جديدة، والطريف أن مخرج الفيلم هو نفسه مؤلف القصة والسيناريو والحوار.. إنه عاطف ألفين.

التكنولوجيا الجديدة.. مبهرة ورخيصة

كان أحمد عاطف قد نشر في الصحف بياناً بمناسبة عرض فيلم «عمر ٢٠٠٠» لأول مرة في مهرجان الإسكندرية.. قال فيه «إنني أسعى إلى سينما تهتم بروح الإنسان وعقله أكثر مما تهتم بغرائزه، سينما تضحك معه لا تضحك عليه.. تناقش إحباطاته وتساعده على الخروج منها ولا تمارس الخداع بتصوير الحياة بسيطة والواقع وردياً.. باستخدام أحدث ما في العصر من تقنيات علمية لخدمة العمل السينمائي، فلم يكن الواقع في أى مرحلة من مراحل التاريخ وردياً، ولكن كما أن هناك دائماً من يكذبون.. فإن هناك دائماً من يقولون الحقيقة أو يحاولون قولها.. وأملي أن أكون، ومعي فريق فيلم عمر ٢٠٠٠، من هؤلاء».

وفي مكان آخر من بيان المخرج قال «لقد اعتاد الجمهور أن يتناول الوجبات الفاسدة وأدمنها، وهو في عمر ٢٠٠٠ يحاول أن يقدم لوجبة طازجة مفيدة، مدركا تماماً أنه من أجل تحقيق ذلك، يحتاج إلى أساليب جديدة ورؤى متطورة للتعبير عن عالمنا المعقد، فمن غير المعقول أن يستخدم كاتب مفكر لغة تلميذ السنة الأولى الابتدائية للتعبير عن أفكاره، فالحاجة إلى سينما جديدة في مصر والوطن العربي ضرورة حتمية لا بد منها.. من أجل هدف محدد هو الوصول إلى المتلقّى وليس الإبحار عنه.

وعمر، هو النجم الشاب «خالد النبوي» الذي يفاجأ بظهور شعيرات بيضاء في رأسه وهو على شفا الثلاثين من عمره، فيصاب بالذعر ويسمع صوت ضميره يدق له ناقوس الخطر: «إنك لم تحقق شيئاً.. نصف حب ونصف نجاح، كل شيء لم تعبر نصفه، وليس هناك ما يؤكد أنك ستنال النصف ا لآخر.. وماذا بعد؟.. هل ستترك أحلامك وطموحاتك تحبط في هذا البلد؟».. هكذا يأخذ القرار.. إن الحلم الأميركى يناديه.. وعليه أن يلبي.

يروي الفيلم هذه المقدمة القصيرة.. لكن كيف قرر أن يعيش عمر الثلاثين يوماً الباقية على السفر؟.. لقد ا نطلق ليرى الحياة بأسلوب آخر.. ويمنح نفسه فرصة التعبير وبأسلوب تقني مبتكر وسريع الإيقاع... جديد الرؤية.. ساخر الفكر.

تتوالى الأحداث والشخصيات التي يلتقي بها عمر.. شخصيات من بيئات وثقافات مختلفة.. نبتت وسط مجتمعات متباينة.. أحياناً هم أحياء يعيشون في المقابر، وأحياناً هن مثقفات درسن بالجامعة الأميركية، وفي أحيان ثالثة ممن يقسطون حياتهم ليعيشوا حتى يبيعوا ملابسهم.. ويترك هؤلاء رغم الاختلاف النمطي.. ردود أفعال متباينة ومتوالية على عمر.

لقد نجح خالد النبوي في التعبير بقدراته في الأداء التمثيلي، فهو الشخصية المحورية التي تقدم الفعال وتعكس ردود الفعال وتؤثر في الآخرين وتتأثر بهم حتي يشعر بتأثره الأعظم.. وهو حبه

الأكيد الذي يربطه بأرضه وناسه وبلاده.. إلى أن يلتقي بخبر رفض سفره إلى أرض الحلم الأميركى من سفارة الأحلام.. ليعكس سعادته من الداخل.. وكأنه يقول: الحمد لله.. وقد نجح أيضاً في التعبير عن انطلاقته وعن اختلاف أحاسيسه كلما اقترب من موعد سفره لتحقيق أحلامه في أرض الأحلام ونجح كذلك في تقمص شخصيته الجديدة التي أنهى بها الفيلم، وقد أصبح كهلاً حليق الرأس يعكس صوته المتهدج المضطرب ضعفاً لا يخلو من بقايا تمرد.

كما لمعت الممثلة منى زكي في شخصية جديدة تماماً ليس عليها فقط ولكن على السينما المصرية.. إنها «بيبو» الفتاة التي داسوها تحت عجلات سياراتهم خطأ، ثم دفنوها قبل أن يتأكدوا من موتها تأكيداً لعبثهم وعبث الحياة.. لكن حياتها تستمر بين القبور بمرح وانطلاق من تحيا حياة وردية.. وقد جسدت منى الشخصية بأسلوب يمتلىء بالسخرية والبهجة في نفس الوقت.. وبساطة وعفوية تؤكد قدراتها ومواهبها في الأداء التمثيلي.

وقد شارك تصوير سعيد الشيمي المبتكر دائماً وموسيقى هشام نزيه ومونتاج منى ربيع في صنع تلك اللغة السينمائية الجديدة التي قدم بها المخرج أحمد عاطف فيلمه هذا.. ولا شك أن الشركة ا لمنتجة التي أقدمت على إنتاج هذا الفيلم بتقنيات جديدة، وبلغة عصرية جديدة، وبمخرج جديد وبعيداً عن الأساليب المعروفة لشباك التذاكر تستحق أن نرفع لها القبّعة على هذه الجرأة المدروسة الواعية.

ورغم كل هذا النجاح للممثلين والنجوم إلا أن مشاكل النجوم لم تنته وهي تسبب كثيراً من العوائق أمام إنجاز الأعمال السينمائية والفنية الكبيرة والعملاقة، ومن هذه المشاكل مثلاً تأخر النجوم عن الوصول إلى مواقع التصوير و تأجيل العمل عدة أيام بسبب مزاج النجوم والنجمات «غير الرايق» أحياناً.. بالإضافة إلى مشاكل النجوم العاطفية والصحية التي تؤثر على العمل بطريقة أو بأخرى.

الحاسوب أنهى هذه المشاكل، حيث نجح في خلق نجوم من صنعه أطلق عليها اسم «سايبر CYBERSTARS»، فهذه الشخصيات.. نجحت برامج الحاسوب في تكوينها وتحريكها وتصويرها وإنتاج أفلام أقل تكلفة بواسطتها، والتخلص من النجوم الآدميين ومشاكلهم وأهمها كما تقول مصادر هوليوود «تعاطي المخدرات... والنجم سايبر» لا يتأخر عن عمله أو موعد التصوير، ولا يغضب عندما لا يجد نوع المياه المعدنية التي يفضلها ولا يفرض شروطه على إدارة الإنتاج، ولا يفرض النجم مثلاً على المخرج نجمة معينة تمثل أمامه.

وقد حذرت استوديوهات هوليوود النجوم بأنها قد تتحول إلى تلك التكنولوجيا الجديدة المبهرة و الرخيصة التي أنتجت بالفعل فيلماً سينمائياً جيداً يثير الخيال ويمتع العين ويخاطب أحاسيس الجمال، وهو فيلم «الفانتازيا الأخيرة».. كما نجح اليابانيون في إنتاج فيلم كامل بهذه الطريقة الجديدة دون الاستعانة بالنجوم البشريين وتسمى هذه الطريقة باسم الصور المخلقة عن طريق الحاسوب «Computer Generated Images».

لقد أوضح أحد العاملين في هوليوود أن

الأكيد الذي يربطه بأرضه وناسه وبلاده.. إلى أن يلتقي بخبر رفض سفره إلى أرض الحلم الأميركى من سفارة الأحلام.، ليعكس سعادته من الداخل.. وكأنه يقول: الحمد لله.. وقد نجح أيضاً في التعبير عن انطلاقته وعن اختلاف أحاسيسه كلما اقترب من موعد سفره لتحقيق أحلامه في أرض الأحلام ونجح كذلك في تقمص شخصيته الجديدة التي أنهى بها الفيلم، وقد أصبح كهلاً حليق الرأس يعكس صوته المتهدج المضطرب ضعفاً لا يخلو من بقايا تمرد.

كما لمعت الممثلة منى زكي في شخصية جديدة تماماً ليس عليها فقط ولكن على السينما المصرية.. إنها «بيبو» الفتاة التي داسوها تحت عجلات سياراتهم خطأ، ثم دفنوها قبل أن يتأكدوا من موتها تأكيداً لعبثهم وعبث الحياة.. لكن حياتها تستمر بين القبور بمرح وانطلاق من تحيا حياة وردية.. وقد جسدت منى الشخصية بأسلوب يمتلىء بالسخرية والبهجة في نفس الوقت.. وبساطة وعفوية تؤكد قدراتها ومواهبها في الأداء التمثيلي.

وقد شارك تصوير سعيد الشيمي المبتكر دائماً وموسيقى هشام نزيه ومونتاج منى ربيع في صنع تلك اللغة السينمائية الجديدة التي قدم بها المخرج أحمد عاطف فيلمه هذا.. ولا شك أن الشركة ا لمنتجة التي أقدمت على إنتاج هذا الفيلم بتقنيات جديدة، وبلغة عصرية جديدة، وبمخرج جديد وبعيداً عن الأساليب المعروفة لشباك التذاكر تستحق أن نرفع لها القبّعة على هذه الجرأة المدروسة الواعية.

ورغم كل هذا النجاح للممثلين والنجوم إلا أن مشاكل النجوم لم تنته وهي تسبب كثيراً من العوائق أمام إنجاز الأعمال السينمائية والفنية الكبيرة والعملاقة، ومن هذه المشاكل مثلاً تأخر النجوم عن الوصول إلى مواقع التصوير و تأجيل العمل عدة أيام بسبب مزاج النجوم والنجمات «غير الرايق» أحياناً.. بالإضافة إلى مشاكل النجوم العاطفية والصحية التي تؤثر على العمل بطريقة أو بأخرى.

الحاسوب أنهى هذه المشاكل، حيث نجح في خلق نجوم من صنعه أطلق عليها اسم «سايبر CYBERSTARS»، فهذه الشخصيات.. نجحت برامج الحاسوب في تكوينها وتحريكها وتصويرها وإنتاج أفلام أقل تكلفة بواسطتها، والتخلص من النجوم الآدميين ومشاكلهم وأهمها كما تقول مصادر هوليوود «تعاطي المخدرات... والنجم سايبر» لا يتأخر عن عمله أو موعد التصوير، ولا يغضب عندما لا يجد نوع المياه المعدنية التي يفضلها ولا يفرض شروطه على إدارة الإنتاج، ولا يفرض النجم مثلاً على المخرج نجمة معينة تمثل أمامه.

وقد حذرت استوديوهات هوليوود النجوم بأنها قد تتحول إلى تلك التكنولوجيا الجديدة المبهرة و الرخيصة التي أنتجت بالفعل فيلماً سينمائياً جيداً يثير الخيال ويمتع العين ويخاطب أحاسيس الجمال، وهو فيلم «الفانتازيا الأخيرة».. كما نجح اليابانيون في إنتاج فيلم كامل بهذه الطريقة الجديدة دون الاستعانة بالنجوم البشريين وتسمى هذه الطريقة باسم الصور المخلقة عن طريق الحاسوب «Computer Generated Images».

لقد أوضح أحد العاملين في هوليوود أن

التقنية الجديدة لا تهدد نجوم الدرجة الأولى وحدهم بل تمتد إلى نجوم الدرجة الثانية الذين يحاولون تقليد الكبار في طلباتهم والتي لا تنتهي أبداً، وأضاف أن المخرجين قد يعشقون الطريقة الجديدة.. ويذكر أن فيلم «الفانتازيا الأخيرة» قد أنتجته شركة سدني وتكلف خمسة وأربعين مليوناً من الجنهيات الإسترلينية، وفي حالة اعتمادهم على النجوم البشر كان من الممكن أن تصل تكلفة الإنتاج إلى مائة مليون جنيه استرلنيى أو تزيد.

ويذكر أن الأسماء الكبيرة مثل توم كروزن وتوم هانكر، وهاريسون فورد، يتقاضى الواحد منهم خمسة عشر مليون جنيه استرلينياً على الأقل مقابل قيامه بدور البطولة في فيلم واحد، بينما تصل أجور نجوم الدرجة الثانية إلى عشرة ملايين جنيه استرليني.

ويقوم برنامج الحاسوب برسم الإطار الخارجي للشخصية ثم تملأ الفراغات، ويقال أن أصعب شيء في شخصيات أو نجوم الحاسوب هو تحريك أو إشعال الانفعالات الإنسانية إلا أن الحاسوب نجح أيضاً في ذلك بدرجة مذهلة، كما أن الصورة القريبة لنجوم الحاسوب، بإجماع المصورين والمخرجين أكثر من مدهشة.

ورغم الاستغناء عن تمثيل النجوم البشر إلا أن برنامج الحاسوب ما زال في حاجة إلى أصواتهم وربّما تكتفي هوليوود في المستقبل المنظور بتسجيل أصوات الممثلين بأجور زهيدة، حيث لن تحتاج إلى ظهورهم على الإطلاق.■

المراجع :

١- د. شاكر عبدالحميد- التفضيل الجمالي- سلسلة «عالم المعرفة»- العدد ٢٦٧- الكويت

٢- د. نبيل سليم- السينما والكمبيوتر- دار المعرفة الجامعية- ط١- الإسكندرية- ٢٠٠٠م

٣- Krietler, H & Krietler, S{1972}, Psychology of the arts: durham, N,C: Duke univ. press, 75

٤- PORTENUS, J.p {1999} ENVIROSNEBN-TICS: Aerthetics: ideas: Polities and Plannoing. London: Routledge.

٥- EYSENCK. H. J. {1998} Aerthetic Prethetic prefesences. and individual Differences. in : D.O.Hare {ed} psychology and the arts. N.N. the Haruester press, 76-101.

التقنية الجديدة لا تهدد نجوم الدرجة الأولى وحدهم بل تمتد إلى نجوم الدرجة الثانية الذين يحاولون تقليد الكبار في طلباتهم والتي لا تنتهي أبداً، وأضاف أن المخرجين قد يعشقون الطريقة الجديدة.. ويذكر أن فيلم «الفانتازيا الأخيرة» قد أنتجته شركة سدني وتكلف خمسة وأربعين مليوناً من الجنهيات الإسترلينية، وفي حالة اعتمادهم على النجوم البشر كان من الممكن أن تصل تكلفة الإنتاج إلى مائة مليون جنيه استرلنيى أو تزيد.

ويذكر أن الأسماء الكبيرة مثل توم كروزن وتوم هانكر، وهاريسون فورد، يتقاضى الواحد منهم خمسة عشر مليون جنيه استرلينياً على الأقل مقابل قيامه بدور البطولة في فيلم واحد، بينما تصل أجور نجوم الدرجة الثانية إلى عشرة ملايين جنيه استرليني.

ويقوم برنامج الحاسوب برسم الإطار الخارجي للشخصية ثم تملأ الفراغات، ويقال أن أصعب شيء في شخصيات أو نجوم الحاسوب هو تحريك أو إشعال الانفعالات الإنسانية إلا أن الحاسوب نجح أيضاً في ذلك بدرجة مذهلة، كما أن الصورة القريبة لنجوم الحاسوب، بإجماع المصورين والمخرجين أكثر من مدهشة.

ورغم الاستغناء عن تمثيل النجوم البشر إلا أن برنامج الحاسوب ما زال في حاجة إلى أصواتهم وربّما تكتفي هوليوود في المستقبل المنظور بتسجيل أصوات الممثلين بأجور زهيدة، حيث لن تحتاج إلى ظهورهم على الإطلاق.■

المراجع :

١- د. شاكر عبدالحميد- التفضيل الجمالي- سلسلة «عالم المعرفة»- العدد ٢٦٧- الكويت

٢- د. نبيل سليم- السينما والكمبيوتر- دار المعرفة الجامعية- ط١- الإسكندرية- ٢٠٠٠م

٣- Krietler, H & Krietler, S{1972}, Psychology of the arts: durham, N,C: Duke univ. press, 75

٤- PORTENUS, J.p {1999} ENVIROSNEBN-TICS: Aerthetics: ideas: Polities and Plannoing. London: Routledge.

٥- EYSENCK. H. J. {1998} Aerthetic Prethetic prefesences. and individual Differences. in : D.O.Hare {ed} psychology and the arts. N.N. the Haruester press, 76-101.

أزمة الثقافة العربية

د . يوسف إدريس

إعداد : محمد عصفور*

دكتور يوسف إدريس شخصية طريفة جمعت بين العلم والأدب فهو عالم أديب وأديب عالم وهو فنان ملتزم وظف أدبه في خدمة المجتمع ليجعل الواقع أجمل وأفضل وقد استضافه نادي الجسرة في موسم ٨٥/٨٦ لإلقاء محاضرة حول أزمة الثقافة العربية ورغم مرور حوالي ١٥ سنة على المحاضرة فإن الثقافة العربية ما زالت أزمتها قائمة ولا يزال الحال هو الحال وفي العرض الآتي نعرض لأهم ما طرحه الدكتور يوسف إدريس في هذه المحاضرة وكانت من الإضاءات الفكرية التي تعود النادي أن ينير بها درب الثقافة وقد استهل يوسف إدريس المحاضرة بتفسير توجهه من الطب إلى الأدب قائلاً: لقد تركت مهنة الطب وهي وإن كانت على المستوى العلمي صعبة وإنما هي أسهل بكثير من مهنة الكتابة والأدب.

الطب يعالج الجسم وتظهر نتائجه فوراً ولكن أن يتصدى إنسان لعلاج مجتمع فهو إما مجنون أحمق وإما إنسان يملك قدرة على الطموح.

سأفتح لكم قلبي وتفتحون لي قلوبكم.

هل توجد فعلاً أزمة للثقافة العربية؟ كل صحافتنا العربية دائمماً تطرح الأزمات. لدينا حوالي ١٥٠ جريدة عربية يومية. صحافتنا الأدبية هي التي خلقت أزمة الثقافة العربية بل هي التي ابتدعت كلمة الأزمة فلا يوجد أزمة في الثقافة العربية بل هي التي ابتدعت كلمة الأزمة. في عصر المأمون كانت حاشية الخليفة كلها من المثقفين وكذلك في عهد الرشيد وفيما تلا ذلك من عصور أما في هذا العصر فإن الحاكم العربي خاف من الثقافة واعتبر أن الثقافة ممكن أن توجه ضده وأنه لا يستطيع أن يحكم شعباً مثقفاً ونتج عن ذلك إما إلجام الثقافة أو سوء إدارته وبلادنا العربية نوعان : دول قامت فيها ثورات استقلالية مثل مصر والجزائر وغيرهما ونوع ثاني قامت فيه ثورات جيولوجية مثل السعودية وقطر والكويت حيث أن الطبيعة أفرزت البترول والثروة أحدثت الثورة مثلما أحدثت الثورات الوطنية وغيرها ثروة. هذه الثورة رفعت أنماطاً كثيرة من البشر كانت تعيش على هامش الحياة كالفلاح البسيط وراعي الغنم والطبقة المتوسطة طبقة تكره الثقافة ولذلك كان ترحيبها شديداً جداً بالتليفزيون والفيديو. الأزمة إذاً بالنسبة للثقافة العربية هي أزمة الطبقة المتوسطة في العالم

* مدير عام نادي الجسرة

أزمة الثقافة العربية

د . يوسف إدريس

إعداد : محمد عصفور*

دكتور يوسف إدريس شخصية طريفة جمعت بين العلم والأدب فهو عالم أديب وأديب عالم وهو فنان ملتزم وظف أدبه في خدمة المجتمع ليجعل الواقع أجمل وأفضل وقد استضافه نادي الجسرة في موسم ٨٥/٨٦ لإلقاء محاضرة حول أزمة الثقافة العربية ورغم مرور حوالي ١٥ سنة على المحاضرة فإن الثقافة العربية ما زالت أزمتها قائمة ولا يزال الحال هو الحال وفي العرض الآتي نعرض لأهم ما طرحه الدكتور يوسف إدريس في هذه المحاضرة وكانت من الإضاءات الفكرية التي تعود النادي أن ينير بها درب الثقافة وقد استهل يوسف إدريس المحاضرة بتفسير توجهه من الطب إلى الأدب قائلاً: لقد تركت مهنة الطب وهي وإن كانت على المستوى العلمي صعبة وإنما هي أسهل بكثير من مهنة الكتابة والأدب.

الطب يعالج الجسم وتظهر نتائجه فوراً ولكن أن يتصدى إنسان لعلاج مجتمع فهو إما مجنون أحمق وإما إنسان يملك قدرة على الطموح.

سأفتح لكم قلبي وتفتحون لي قلوبكم.

هل توجد فعلاً أزمة للثقافة العربية؟ كل صحافتنا العربية دائماً تطرح الأزمات. لدينا حوالي ١٥٠ جريدة عربية يومية. صحافتنا الأدبية هي التي خلقت أزمة الثقافة العربية بل هي التي ابتدعت كلمة الأزمة فلا يوجد أزمة في الثقافة العربية بل هي التي ابتدعت كلمة الأزمة. في عصر المأمون كانت حاشية الخليفة كلها من المثقفين وكذلك في عهد الرشيد وفيما تلا ذلك من عصور أما في هذا العصر فإن الحاكم العربي خاف من الثقافة واعتبر أن الثقافة ممكن أن توجه ضده وأنه لا يستطيع أن يحكم شعباً مثقفاً ونتج عن ذلك إما إلجام الثقافة أو سوء إدارته وبلادنا العربية نوعان : دول قامت فيها ثورات استقلالية مثل مصر والجزائر وغيرهما ونوع ثاني قامت فيه ثورات جيولوجية مثل السعودية وقطر والكويت حيث أن الطبيعة أفرزت البترول والثروة أحدثت الثورة مثلما أحدثت الثورات الوطنية وغيرها ثروة. هذه الثورة رفعت أنماطاً كثيرة من البشر كانت تعيش على هامش الحياة كالفلاح البسيط وراعي الغنم والطبقة المتوسطة طبقة تكره الثقافة ولذلك كان ترحيبها شديداً جداً بالتليفزيون والفيديو. الأزمة إذاً بالنسبة للثقافة العربية هي أزمة الطبقة المتوسطة في العالم

* مدير عام نادي الجسرة

العربي التي نمت وتضخمت إلى حد بشع وجميع الكتاب الذين يكتبون في الصحف العربية جميعاً من أبناء الطبقة المتوسطة ويؤمنون بقيم وأهداف عليا وهي للأسف ليست مثلاً عليا عظيمة إنما مثل عليا محدودة المبادىء لأنهم ينطلقون من مبدأ واحد مفهوم الطبقة المتوسطة الآن في كل العالم العربي للثقافة هو مفهوم غريب وهي التي أطلقت شعار أزمة الثقافة العربية. في العصر الجاهلي كان هناك شعراء كبار جداً ولا نزال نحفظ لهم القصائد والمعلقات لأن شعرهم عظيم وسهل وجميل ولا أحد تحدث عن أزمة الثقافة العربية ولا أزمة الوجود العربي لأن المجتمع كان تلقائياً لأنهم كانوا يعتبرون الشاعر هو المعبر عن إحساسهم والناطق بلسانهم وهو تاريخهم وطموحهم وقد كان هذا قبل الإسلام.

وجاء الإسلام وهناك من ادعى أنه كان ضد الشعر ولكن ذلك غير حقيقي لأن الشاعر الكبير حسان بن ثابت ظل يقول الشعر في عهد الرسول «عليه الصلاة والسلام» وكان الرسول يستعذب شعره ويستدعيه لقول الشعر ولم يكن الرسول ضد الشعر وإنما كان ضد الشعر الذي يمجد مجالس الخمر ويتناول موضوعات لا يريدها الإسلام.. وقد تكون غلطة المأمون أنه انحاز إلى رأي دون الآخر واستعمل السلطة لنصرة الرأي الذي انحاز إليه وهذا خطأ لأن واجب لسلطة أن تلازم الحياد الثقافي ولهذا كان عصر المأمون عصر ازدهار الثقافة ونهاية عصر ازدهار الثقافة في نفس الوقت، أدخل السلطان كطرف في النزاع بين المثقفين وأغلق باب الاجتهاد وأنا أتعجب من بعض الناس الذين يدعون إلى رفض الحضارة الغربية فهؤلاء على خطأ لأننا إذا أخذنا بتلك الحضارة الغربية فإنما هى بضاعتنا ردت إلينا نحن الذين صنعنا علم الجبر الذي قامت عليه الرياضة الحديثة ونحن الذين صنعنا أسس علم الهندسة و أسس الكيمياء والطبيعة وفى حكومات ما بعد الاستقلال في بلادنا العربية عامة ومصر خاصة بعد ثورة يوليو تولى السلطة أولئك الذين قاموا بالثورات وهؤلاء غير مثقفين وإنما هم عسكريون ذو بطش بأيديهم السلاح وهم وطنيون ولكن على طريقتهم التي تعتمد على الطاعة والتنفيذ بينما المثقفون لا حول لهم ولا قوة ولا سلاح لهم سوى القلم وقد حدث صدام بين ثورة يوليو والمثقفين وكان صداماً لا معنى له وكنا مع الثورة قلباً وقالباً وكنا في السجون نهتف بحياة عبدالناصر والثورة لم تقدر هذا الموقف بل فسرته على أنه نوع من النفاق لها.

مأساة الثقافة العربية أن نظم الحكم العربية اعتبرت المثقفين أعداء للثورة ووقعت معاداتهم ونتج عن ذلك انحراف الحكومات الوطنية والابتعاد عن الثقافة والمثقفين ولعل الاستثناء الوحيد كان في دول الخليج وعلى رأسها قطر.. يوجد تشجيع كبير للثقافة والثقافة تحتاج إلى قليل من تشجيع الدولة وكثير من الاجتهاد الفردي فالدولة هنا مدركة لأهمية الثقافة في حين أن الدول الأخرى التي حدثت فيها الثورة كانت الدولة غير منتبهة للثقافة مما أدى إلى ظاهرتين ازدهار دولي للثقافة وضمور تشجيع الثقافة أو انعدام التشجيع إطلاقا وهناك في ثقافتنا العربية غير كل ما سبق أزمة من نوع آخر وهي أزمة التواصل حيث لا يوجد تواصل ثقافي عربي رغم

العربي التي نمت وتضخمت إلى حد بشع وجميع الكتاب الذين يكتبون في الصحف العربية جميعاً من أبناء الطبقة المتوسطة ويؤمنون بقيم وأهداف عليا وهي للأسف ليست مثلاً عليا عظيمة إنما مثل عليا محدودة المبادىء لأنهم ينطلقون من مبدأ واحد مفهوم الطبقة المتوسطة الآن في كل العالم العربي للثقافة هو مفهوم غريب وهي التي أطلقت شعار أزمة الثقافة العربية. في العصر الجاهلي كان هناك شعراء كبار جداً ولا نزال نحفظ لهم القصائد والمعلقات لأن شعرهم عظيم وسهل وجميل ولا أحد تحدث عن أزمة الثقافة العربية ولا أزمة الوجود العربي لأن المجتمع كان تلقائياً لأنهم كانوا يعتبرون الشاعر هو المعبر عن إحساسهم والناطق بلسانهم وهو تاريخهم وطموحهم وقد كان هذا قبل الإسلام.

وجاء الإسلام وهناك من ادعى أنه كان ضد الشعر ولكن ذلك غير حقيقي لأن الشاعر الكبير حسان بن ثابت ظل يقول الشعر في عهد الرسول «عليه الصلاة والسلام» وكان الرسول يستعذب شعره ويستدعيه لقول الشعر ولم يكن الرسول ضد الشعر وإنما كان ضد الشعر الذي يمجد مجالس الخمر ويتناول موضوعات لا يريدها الإسلام.. وقد تكون غلطة المأمون أنه انحاز إلى رأي دون الآخر واستعمل السلطة لنصرة الرأي الذي انحاز إليه وهذا خطأ لأن واجب لسلطة أن تلازم الحياد الثقافي ولهذا كان عصر المأمون عصر ازدهار الثقافة ونهاية عصر ازدهار الثقافة في نفس الوقت، أدخل السلطان كطرف في النزاع بين المثقفين وأغلق باب الاجتهاد وأنا أتعجب من بعض الناس الذين يدعون إلى رفض الحضارة الغربية فهؤلاء على خطأ لأننا إذا أخذنا بتلك الحضارة الغربية فإنما هى بضاعتنا ردت إلينا نحن الذين صنعنا علم الجبر الذي قامت عليه الرياضة الحديثة ونحن الذين صنعنا أسس علم الهندسة و أسس الكيمياء والطبيعة وفى حكومات ما بعد الاستقلال في بلادنا العربية عامة ومصر خاصة بعد ثورة يوليو تولى السلطة أولئك الذين قاموا بالثورات وهؤلاء غير مثقفين وإنما هم عسكريون ذو بطش بأيديهم السلاح وهم وطنيون ولكن على طريقتهم التي تعتمد على الطاعة والتنفيذ بينما المثقفون لا حول لهم ولا قوة ولا سلاح لهم سوى القلم وقد حدث صدام بين ثورة يوليو والمثقفين وكان صداماً لا معنى له وكنا مع الثورة قلباً وقالباً وكنا في السجون نهتف بحياة عبدالناصر والثورة لم تقدر هذا الموقف بل فسرته على أنه نوع من النفاق لها.

مأساة الثقافة العربية أن نظم الحكم العربية اعتبرت المثقفين أعداء للثورة ووقعت معاداتهم ونتج عن ذلك انحراف الحكومات الوطنية والابتعاد عن الثقافة والمثقفين ولعل الاستثناء الوحيد كان في دول الخليج وعلى رأسها قطر.. يوجد تشجيع كبير للثقافة والثقافة تحتاج إلى قليل من تشجيع الدولة وكثير من الاجتهاد الفردي فالدولة هنا مدركة لأهمية الثقافة في حين أن الدول الأخرى التي حدثت فيها الثورة كانت الدولة غير منتبهة للثقافة مما أدى إلى ظاهرتين ازدهار دولي للثقافة وضمور تشجيع الثقافة أو انعدام التشجيع إطلاقا وهناك في ثقافتنا العربية غير كل ما سبق أزمة من نوع آخر وهي أزمة التواصل حيث لا يوجد تواصل ثقافي عربي رغم

أننا أبناء ثقافة عربية واحدة فإن هناك تنافساً قطرياً وهو أمر غريب، كل دولة تريد لنفسها ثقافة أهم من غيرها وتريد أن تكون لها عاصمة ثقافية نحن لا نريد هذا إنما هدفنا أن يكون لنا كتاب تكون له عاصمة ثقافية ويكون لنا شعراء مبدعون في مستوى المتنبي أو المعري حتى في المسرح هناك نوع من التنافس وانتحال لأشياء لا مبرر لها.

سنة ١٩٦٢م كتبت حول المسرح سلسلة من المقالات تحت عنوان «نحو مسرح عربي» بينت فيها أنه يجب أن نستوحي الأشكال المسرحية من الطبقات الشعبية ونستمد من التراث مادة لمسرحنا العربي وكتبت مسرحية «الفرافير» ونجحت وأثبت هذا الشكل وجوده واستيعابه لكل مكونات المسرح رغم ذلك ظهر في بلاد المغرب من نسب هذا الاتجاه إليه وادعى أسبقية التوجه إلى التراث ولا يهمني أن أنسب شيئاً لنفسي وإنما المشكلة في انعدام أخلاقية ثقافية وذلك من نواتج انعدام التواصل الثقافي الأدب العربي أدب له قيمة كبيرة ومكانة عالية ويتربع على قمة الآداب العالمية وليس من الصدفة أن يكون نصف الشعب العربي أدباء وشعراء وقصاصين لأن أهم بضاعة لدينا ونملكها هي الثقافة فالإنسان العربي فصيح والفصاحة العربية شيء خالد ونادر ومهم جداً والعرب فصحاء بالسليقة فقد وهبنا الله تعالى طبيعة سمحاء ساعدتنا على ذلك والتعبير الإنسانى عن الموقف هو المهم عندنا حتى في المعارك لا ننظر إلى النتائج بقدر ما ننظر إلى مقالة القائد ماذا قال عند النصر وماذا قال عند الهزيمة نحن بالسليقة أدباء ونحن شعب فنان مرهف الحس خلقنا لنكتب فنا جميلاً راقياً ونبدع فناً فإذا كان هناك أزمة في الثقافة العربية فهي أزمة بعض الفئات من الفن. بشكل عام الكلمة هي السلاح العربي العام الذي لو ترجم لغزا العالم كله وسيطر عليه ولبنى حضارة عربية تغزو الدنيا كلها ولكننا نحتاج فقط إلى بعض الدعم من السلطة في بلادنا لدفع الكلمة وترجمة هذا السلاح المشار إليه فمن المؤسف أن بعض الحكومات العربية لا تنفق على الترجمة حتى تساعد على تعريف العالم بنا وتقديم صورة مشرفة عن العربى الفصيح الفنان المفكر المبدع نحن مقدمون في صورة مشوهة للعالم بعيدة كل البعد عن واقعنا وقد أفلح أعداؤنا في تشويه صورتنا بينما نحن شعب فنان راق ويحب الإبداع ولكن يجب أن تتغيرالصورة ويعرف العالم أننا رواد حضارة وشعب عميق الصلة بالأرض شاعري الروح مرهف الحس. إن الحديث عن أزمة الثقافة العربية ذو شجون لا آخر له فاسمحوا لي بالاكتفاء بما قلت، ولكم جزيل الشكر ■

أننا أبناء ثقافة عربية واحدة فإن هناك تنافساً قطرياً وهو أمر غريب، كل دولة تريد لنفسها ثقافة أهم من غيرها وتريد أن تكون لها عاصمة ثقافية نحن لا نريد هذا إنما هدفنا أن يكون لنا كتاب تكون له عاصمة ثقافية ويكون لنا شعراء مبدعون في مستوى المتنبي أو المعري حتى في المسرح هناك نوع من التنافس وانتحال لأشياء لا مبرر لها.

سنة ١٩٦٢م كتبت حول المسرح سلسلة من المقالات تحت عنوان «نحو مسرح عربي» بينت فيها أنه يجب أن نستوحي الأشكال المسرحية من الطبقات الشعبية ونستمد من التراث مادة لمسرحنا العربي وكتبت مسرحية «الفرافير» ونجحت وأثبت هذا الشكل وجوده واستيعابه لكل مكونات المسرح رغم ذلك ظهر في بلاد المغرب من نسب هذا الاتجاه إليه وادعى أسبقية التوجه إلى التراث ولا يهمني أن أنسب شيئاً لنفسي وإنما المشكلة في انعدام أخلاقية ثقافية وذلك من نواتج انعدام التواصل الثقافي الأدب العربي أدب له قيمة كبيرة ومكانة عالية ويتربع على قمة الآداب العالمية وليس من الصدفة أن يكون نصف الشعب العربي أدباء وشعراء وقصاصين لأن أهم بضاعة لدينا ونملكها هي الثقافة فالإنسان العربي فصيح والفصاحة العربية شيء خالد ونادر ومهم جداً والعرب فصحاء بالسليقة فقد وهبنا الله تعالى طبيعة سمحاء ساعدتنا على ذلك والتعبير الإنسانى عن الموقف هو المهم عندنا حتى في المعارك لا ننظر إلى النتائج بقدر ما ننظر إلى مقالة القائد ماذا قال عند النصر وماذا قال عند الهزيمة نحن بالسليقة أدباء ونحن شعب فنان مرهف الحس خلقنا لنكتب فنا جميلاً راقياً ونبدع فناً فإذا كان هناك أزمة في الثقافة العربية فهي أزمة بعض الفئات من الفن. بشكل عام الكلمة هي السلاح العربي العام الذي لو ترجم لغزا العالم كله وسيطر عليه ولبنى حضارة عربية تغزو الدنيا كلها ولكننا نحتاج فقط إلى بعض الدعم من السلطة في بلادنا لدفع الكلمة وترجمة هذا السلاح المشار إليه فمن المؤسف أن بعض الحكومات العربية لا تنفق على الترجمة حتى تساعد على تعريف العالم بنا وتقديم صورة مشرفة عن العربى الفصيح الفنان المفكر المبدع نحن مقدمون في صورة مشوهة للعالم بعيدة كل البعد عن واقعنا وقد أفلح أعداؤنا في تشويه صورتنا بينما نحن شعب فنان راق ويحب الإبداع ولكن يجب أن تتغيرالصورة ويعرف العالم أننا رواد حضارة وشعب عميق الصلة بالأرض شاعري الروح مرهف الحس. إن الحديث عن أزمة الثقافة العربية ذو شجون لا آخر له فاسمحوا لي بالاكتفاء بما قلت، ولكم جزيل الشكر ■

متابعات

عوالم بورخيس الخيالية

د . مصطفى رجب*

الأديب الأمريكي اللاتيني خورخه لويس بورخيس كاتب عظيم لم يؤلف سوى القليل من المقالات و القصص القصيرة. لكنها تكفي مع ذلك لأن تجعلنا نصفه بأنه كان عظيماً بفضل ذكائه المذهل، وثروته من الابتكار، وأسلوبه المحكم، الرياضي تقريباً.

ولد خورخه لويس بورخيس في ٢٤ أغسطس ١٨٩٩ في بيونس آيرس، من أصل أسباني، وإنجليزي. وكان والداه من الطبقة الوسطى المثقفة وقد انحدرا من شخصيات عسكرية وسياسية بارزة في النضال من أجل الاستقلال الوطني الأرجنتيني والوحدة الأرجنتينية. وبعد أن أكمل تعليمه ا لثانوي في جنيف قضى حوالي ثلاث سنوات في أسبانيا متصلاً بجماعة «ألترايستا Ultraismo» الأرجنتينية، التي تتميز عن نظيرتها الأسبانية بمزج خاص للشكل التعبيري الحديث والحنين النوستالجي الذي ينطوي على مفارقة تاريخية إزاء بعض القيم الوطنية- وهي قيم تتجسد أوضح ما تكون لدى أولئك الكتاب الذين في الأحياء الكريولية القديمة في بيونس آيرس وفي ذلك الحين كانت تلك القيم تتلاشى وسط رواج ما بعد الحرب وتدفق الهجرة الأجنبية.

ولم يكن موقف بورخيس ورفاقه مختلفاً عن ذلك الذي اتخذه بعض الكتاب الأمريكيين الشماليين من نفس الجيل الذين عانوا تأثير الحرب، التصنيع، والفن الأوروبى الحديث على ميراث هادىء في الغرب الأوسط أو الجنوب. غير أنه، انطلاقاً من هذه الشروط العامة، التي يشترك فيها الكثيرون في زمننا، خلق بورخيس عملاً ليس كأي عمل آخر، وربما كانت السمة المميزة اللافتة للنظر أكثر في كتاباته هي رد فعلها العقلي الصارم ضد كل فوضى ومصادفات الواقع المباشر، وإصرارها الجذري على القطيعة مع العالم المعطى وعلى المطالبة بعالم مختلف .وكان بورخيس الذي ولد وسط تدفق وتقلب يصيبان بالدوار بمنطقة حدودية نائية للثقافة الغربية، استخدم عقله الغريب الموهبة، عقل «ميتافيزيقي» من القرن السابع عشر، عقل منظر للأدب الخالص أقرب ما يكون إلى بو، وليس لبورخيس أي وطن روحي، فهو يخلق، خارج الزمان والمكان، عوالم خيالية ورمزية، وتتمثل واحدة من أمارات أهميته في واقع أنه لا

* باحث مصري

عوالم بورخيس الخيالية

د . مصطفى رجب*

الأديب الأمريكي اللاتيني خورخه لويس بورخيس كاتب عظيم لم يؤلف سوى القليل من المقالات و القصص القصيرة. لكنها تكفي مع ذلك لأن تجعلنا نصفه بأنه كان عظيماً بفضل ذكائه المذهل، وثروته من الابتكار، وأسلوبه المحكم، الرياضي تقريباً.

ولد خورخه لويس بورخيس في ٢٤ أغسطس ١٨٩٩ في بيونس آيرس، من أصل أسباني، وإنجليزي. وكان والداه من الطبقة الوسطى المثقفة وقد انحدرا من شخصيات عسكرية وسياسية بارزة في النضال من أجل الاستقلال الوطني الأرجنتيني والوحدة الأرجنتينية. وبعد أن أكمل تعليمه ا لثانوي في جنيف قضى حوالي ثلاث سنوات في أسبانيا متصلاً بجماعة «ألترايسيتا Ultraismo» الأرجنتينية، التي تتميز عن نظيرتها الأسبانية بمزج خاص للشكل التعبيري الحديث والحنين النوستالجي الذي ينطوي على مفارقة تاريخية إزاء بعض القيم الوطنية- وهي قيم تتجسد أوضح ما تكون لدى أولئك الكتاب الذين في الأحياء الكريولية القديمة في بيونس آيرس وفي ذلك الحين كانت تلك القيم تتلاشى وسط رواج ما بعد الحرب وتدفق الهجرة الأجنبية.

ولم يكن موقف بورخيس ورفاقه مختلفاً عن ذلك الذي اتخذه بعض الكتاب الأمريكيين الشماليين من نفس الجيل الذين عانوا تأثير الحرب، التصنيع، والفن الأوروبى الحديث على ميراث هادىء في الغرب الأوسط أو الجنوب. غير أنه، انطلاقاً من هذه الشروط العامة، التي يشترك فيها الكثيرون في زمننا، خلق بورخيس عملاً ليس كأي عمل آخر، وربما كانت السمة المميزة اللافتة للنظر أكثر في كتاباته هي رد فعلها العقلي الصارم ضد كل فوضى ومصادفات الواقع المباشر، وإصرارها الجذري على القطيعة مع العالم المعطى وعلى المطالبة بعالم مختلف .وكان بورخيس الذي ولد وسط تدفق وتقلب يصيبان بالدوار بمنطقة حدودية نائية للثقافة الغربية، استخدم عقله الغريب الموهبة، عقل «ميتافيزيقي» من القرن السابع عشر، عقل منظر للأدب الخالص أقرب ما يكون إلى بو، وليس لبورخيس أي وطن روحي، فهو يخلق، خارج الزمان والمكان، عوالم خيالية ورمزية، وتتمثل واحدة من أمارات أهميته في واقع أنه لا

* باحث مصري

يمكننا أن نتذكر- عندما نحاول تصنيفه- سوى أعمال غريبة وبالغة الإحكام، إنه صنو لكافكا، وبو، وأحياناً لهنري جيمس، وويلز، ودائماً لفاليري، بالإطلاق المفاجيء لمفارقاته فيما صار يعرف «بالميتافيزيقا الخاصة به».

وعن هذا الأديب الفذ أصدرت يوليو ١٩٩٩ سلسلة آفاق الترجمة التي تصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة كتاباً عنوانه «عوالم بورخيس الخيالية» وهو مجموعة من المقالات الهامة بأقلام لامعة منهم أندريه موروا، جون كنج، جيمس إي. آيربي، وإيرين بيسيير، ويتكون الكتاب من مائة وأربعين صفحة من القطع المتوسط.

ويبدأ الكتاب بمقال بقلم الكاتب الفرنسي الأشهر أندريه موروا (١٨٨٥-١٩٦٧) وهو مقال بورخيسي بامتياز كما يقولون، ففي صفحات قليلة جداً استطاع الكاتب أن يقدم، بحس مرهف، لوحة شاملة تعرض مصادر بورخيس وهمومه الجمالية والميتافيزيقية، وخياله وتقنياته، فنجده يقول «مصادر بورخيس لا تعدّ ولا تحصى كما أنها غير متوقعة، فقد قرأ بورخيس كل شيء، وخاصة ما لم يعد أحد يقرؤه: القبلانيين، الإغريق السكندريين، فلاسفة القرون الوسطى. واطلاعه ليس عميقاً لكنه هائل الاتساع. وعلى سبيل المثال: كتب باسكال «الطبيعة كرة لا نهائية مركزها في كل مكان، ومحيطها ليس في أي مكان، ويشرع بورخيس في تعقب هذه الاستعارة عبر القرون، ويعثر عند جيوردانو برونو على ما يلي «يمكننا أن نؤكد بيقين على أن الكون كله مركز، أو أن «مركز الكون في كل مكان، ومحيطه ليس في أي مكان غير أنه كان «بوسع جيوردانو برونو أن يقرأ عند عالم لاهوت فرنسي في القرن الثاني عشر، آلان دو ليل، صياغة مقتبسة من Corpus Hermeticum (مجموعة السيمياء «السحر الطبيعي») (القرن الثالث): «الموجود كرة مدركة بالعقل مركزها في كل مكان ومحيطها ليس في أي مكان، ومثل هذه الاستقصاءات، التي نعهد إجرائها بين الصينيين وكذلك بين العرب أو المصريين، تبهج بورخيس، وتقوده إلى موضوعات قصصه.

وكثير من أساتذة بورخيس إنجليز. وهو يكنّ لويلز إعجاباً لا حدّ له وهو ساخط لأن أوسكار وايلد أمكنه أن يصنّفه على أنه «جول فيرن علمي» ويبدي بورخيس ملاحظة فحواها أن قصص جول فيرن تتأمل الاحتمال المستقبلي (الغواصة، السفر إلى القمر)، فيما تتأمل قصص ويلز الإمكانية الخالصة (شخص غير مرئي، زهرة تفترس رجلاً، آلة لاستكشاف الزمن)، أو حتى تتأمل الاستحالة (رجل يعود من العالم الآخر حاملاً زهرة مستقبلية). وفيما وراء ذلك، تصور روايات ويلز تصويراً رمزياً ملامح جوهرية في كافة المصائر البشرية، ويرى بورخيس أن أيّ كتاب عظيم وباقٍ لا بدّ من أن يبدو المؤلف غير مدرك لأهمية إنتاجه- وهذا وصف ممتاز لفن بورخيس ذاته. «الرب لا ينبغي أن ينشغل باللاهوت، الكاتب لا ينبغي أن يحطم بالاستنتاجات البشريّة الإيمان الذي يتطلبه الفن منّا».

وبعد ذلك نقرأ مقال جون كنج، الأستاذ البريطاني للتاريخ الثقافي لأمريكا اللاتينية،

يمكننا أن نتذكر- عندما نحاول تصنيفه- سوى أعمال غريبة وبالغة الإحكام، إنه صنو لكافكا، وبو، وأحياناً لهنري جيمس، وويلز، ودائماً لفاليري، بالإطلاق المفاجىء لمفارقاته فيما صار يعرف «بالميتافيزيقا الخاصة به».

وعن هذا الأديب الفذ أصدرت يوليو ١٩٩٩ سلسلة آفاق الترجمة التي تصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة كتاباً عنوانه «عوالم بورخيس الخيالية»، وهو مجموعة من المقالات الهامة بأقلام لامعة منهم أندريه موروا، جون كنج، جيمس إي. آيربي، وإيرين بيسيير، ويتكون الكتاب من مائة وأربعين صفحة من القطع المتوسط.

ويبدأ الكتاب بمقال بقلم الكاتب الفرنسي الأشهر أندريه موروا (١٨٨٥-١٩٦٧) وهو مقال بورخيسي بامتياز كما يقولون، ففي صفحات قليلة جداً استطاع الكاتب أن يقدم، بحس مرهف، لوحة شاملة تعرض مصادر بورخيس وهمومه الجمالية والميتافيزيقية، وخياله وتقنياته، فنجده يقول «مصادر بورخيس لا تعدّ ولا تحصى كما أنها غير متوقعة، فقد قرأ بورخيس كل شيء، وخاصة ما لم يعد أحد يقرؤه: القبلانيين، الإغريق السكندريين، فلاسفة القرون الوسطى. واطلاعه ليس عميقاً لكنه هائل الاتساع. وعلى سبيل المثال: كتب باسكال «الطبيعة كرة لا نهائية مركزها في كل مكان، ومحيطها ليس في أي مكان، ويشرع بورخيس في تعقب هذه الاستعارة عبر القرون، ويعثر عند جيوردانو برونو على ما يلي «يمكننا أن نؤكد بيقين على أن الكون كله مركز، أو أن «مركز الكون في كل مكان، ومحيطه ليس في أي مكان غير أنه كان «بوسع جيوردانو برونو أن يقرأ عند عالم لاهوت فرنسي في القرن الثاني عشر، آلان دو ليل، صياغة مقتبسة من Corpus Hermeticum (مجموعة السيمياء «السحر الطبيعي») (القرن الثالث): «الموجود كرة مدركة بالعقل مركزها في كل مكان ومحيطها ليس في أي مكان، ومثل هذه الاستقصاءات، التي نعهد إجرائها بين الصينيين وكذلك بين العرب أو المصريين، تبهج بورخيس، وتقوده إلى موضوعات قصصه.

وكثير من أساتذة بورخيس إنجليز. وهو يكنّ لويلز إعجاباً لا حدّ له وهو ساخط لأن أوسكار وايلد أمكنه أن يصنّفه على أنه «جول فيرن علمي»، ويبدي بورخيس ملاحظة فحواها أن قصص جول فيرن تتأمل الاحتمال المستقبلي (الغواصة، السفر إلى القمر)، فيما تتأمل قصص ويلز الإمكانية الخالصة (شخص غير مرئي، زهرة تفترس رجلاً، آلة لاستكشاف الزمن)، أو حتى تتأمل الاستحالة (رجل يعود من العالم الآخر حاملاً زهرة مستقبلية). وفيما وراء ذلك، تصور روايات ويلز تصويراً رمزياً ملامح جوهرية في كافة المصائر البشرية، ويرى بورخيس أن أيّ كتاب عظيم وباقٍ لا بدّ من أن يبدو المؤلف غير مدرك لأهمية إنتاجه- وهذا وصف ممتاز لفن بورخيس ذاته. «الرب لا ينبغي أن ينشغل باللاهوت، الكاتب لا ينبغي أن يحطم بالاستنتاجات البشريّة الإيمان الذي يتطلبه الفن منّا».

وبعد ذلك نقرأ مقال جون كنج، الأستاذ البريطاني للتاريخ الثقافي لأمريكا اللاتينية،

وصاحب كتب ودراسات عديدة عن ثقافتها وأدبها، وصاحب كتابات عديدة عن بورخيس. ويقدم المقال عرضاً عاماً هاماً يلقي أضواءً قوية ليس فقط على الخلفية التاريخية والسياسية والشخصية لإنتاج بورخيس بل كذلك على مراحل وخصائص وإشكاليات هذا الإنتاج.

لقد كان لبورخيس أسلاف بريطانيون، وكان يتكلم الإنجليزية بمسحة من لكنة نورثهمبرلاند وكان يتكلم الإنجليزية القديمة بطلاقة، وفي سنواته الأخيرة، تمثل أحد اختباراته المفضلة لزائر أو (زائرة) ناطق بالإنجليزية بطلب إجراء حديث معه في أن يرى ما إذا كان يتعرف على الصلاة الربانية* بالإنجليزية القديمة وقد نشأ ثنائي اللغة وهناك توتر دائم في إنتاجه بين أسلافه الهسبان والإنجليز- التوتر بين البربرية والحضارة.

وإنتاج بورخيس استفزاز متواصل، وفي مقالاته وقصصه القصيرة، وقصائده، نلقاه جدلياً- بهدوء- مقوّضاً أسس النزعة القومية، والرواية الواقعية والصرامة الفلسفية، والأكاديمية، والأنظمة والأيديولوجيات التي تدعي تفسير العالم ككلّ واحد؛ وطارحاً للمناقشة، بجدية ساخرة، تعاريف مسلماً بصحتها ومبادىء ثقافية. وهو يستكشف أوسع الموضوعات، لكن دائماً داخل الحدود الصارمة لصفحات قليلة.

والحقيقة أن صرامة براعته، ونقاء كتابته، واتساع نطاق قراءته- وقد أعلن دائماً أنه قارىء أكثر منه كاتب- أدت إلى الاعتراف به على أوسع نطاق باعتباره أهم كاتب أميركي لاتيني في القرن العشرين. وقد عبر الكتاب الآخرون جميعاً عن اعترافهم بأنهم مدينون له، وفي عام ١٩٦٩ أكد الكاتب المكسيكي كارلوس فوينتوس ما يلي: الأثر النهائي لنثر بورخيس، والذي لولاه لما كانت هناك أصلاً رواية أمريكية أسبانية، هو أنه يثبت، قبل كل شيء، أن أمريكا اللاتينية تفتقر إلى لغة وأنها بالتالي ينبغي أن تخلق لغة. وليفعل هذا، يخلط بورخيس الأنواع الأدبية، وينقد كافة التقاليد، ويستأصل العادات الرديئة، ويخلق نسقاً جديداً للدقة الصارمة. ولهذا فإن تتبع تطور وتأثير كتابة بورخيس يعني تتبع الاتجاهات الرئيسية في القصة الأمريكية اللاتينية في القرن العشرين.

ثم نلتقي بمقال ماريو بارجاس يوسا، الروائي البيروفي (من بيرو بأمريكا اللاتينية) الشهير. ولأمرٍ ما أراد يوسا أن يكون هذا الحديث المعنْون «دعوة إلى قصص بورخيس» الفصل الأول من كتابه A Writer's Reality (واقع كاتب)، قبل أن ينتقل، في الفصول التالية، إلى الحديث عن رواياته، رواية رواية، من حيث «الواقع» الذي تتصل به كل واحدة منها. ونحن هنا إزاء شهادة ونفاذ روائي أمريكي لاتيني كبير، وهو كاتب واقعي وليس كاتباً ميتافيزيقياً أو فانتازياً، وببراعة واقتداريصوّر «يوسا» الثورة التي أحدثها بورخيس في أدب أمريكا اللاتينية وفي النثر الأسباني بوجه عام، كما يروي لنا جانباً من تجربته الشخصية في فترة سابقة من حياته مع قصص سارتر والأدب الملتزم بينما كان مسحوراً بها «سراً» في الوقت ذاته.

يقول في مقاله «وبالنسبة للكاتب الأمريكي اللاتيني، بشّر بورخيس بنهاية عقدة نقص من

وصاحب كتب ودراسات عديدة عن ثقافتها وأدبها، وصاحب كتابات عديدة عن بورخيس. ويقدم المقال عرضاً عاماً هاماً يلقي أضواءً قوية ليس فقط على الخلفية التاريخية والسياسية والشخصية لإنتاج بورخيس بل كذلك على مراحل وخصائص وإشكاليات هذا الإنتاج.

لقد كان لبورخيس أسلاف بريطانيون، وكان يتكلم الإنجليزية بمسحة من لكنة نورثهمبرلاند وكان يتكلم الإنجليزية القديمة بطلاقة، وفي سنواته الأخيرة، تمثل أحد اختباراته المفضلة لزائر أو (زائرة) ناطق بالإنجليزية بطلب إجراء حديث معه في أن يرى ما إذا كان يتعرف على الصلاة الربانية* بالإنجليزية القديمة وقد نشأ ثنائي اللغة وهناك توتر دائم في إنتاجه بين أسلافه الهسبان والإنجليز– التوتر بين البربرية والحضارة.

وإنتاج بورخيس استفزاز متواصل، وفي مقالاته وقصصه القصيرة، وقصائده، نلقاه جدلياً– بهدوء– مقوّضاً أسس النزعة القومية، والرواية الواقعية والصرامة الفلسفية، والأكاديمية، والأنظمة والأيديولوجيات التي تدعي تفسير العالم ككلّ واحد؛ وطارحاً للمناقشة، بجدية ساخرة، تعاريف مسلماً بصحتها ومبادىء ثقافية. وهو يستكشف أوسع الموضوعات، لكن دائماً داخل الحدود الصارمة لصفحات قليلة.

والحقيقة أن صرامة براعته، ونقاء كتابته، واتساع نطاق قراءته– وقد أعلن دائماً أنه قارىء أكثر منه كاتب– أدت إلى الاعتراف به على أوسع نطاق باعتباره أهم كاتب أميركي لاتيني في القرن العشرين. وقد عبر الكتاب الآخرون جميعاً عن اعترافهم بأنهم مدينون له، وفي عام ١٩٦٩ أكد الكاتب المكسيكي كارلوس فوينتوس ما يلي: الأثر النهائي لنثر بورخيس، والذي لولاه لما كانت هناك أصلاً رواية أمريكية أسبانية، هو أنه يثبت، قبل كل شيء، أن أمريكا اللاتينية تفتقر إلى لغة وأنها بالتالي ينبغي أن تخلق لغة. وليفعل هذا، يخلط بورخيس الأنواع الأدبية، وينقد كافة التقاليد، ويستأصل العادات الرديئة، ويخلق نسقاً جديداً للدقة الصارمة. ولهذا فإن تتبع تطور وتأثير كتابة بورخيس يعني تتبع الاتجاهات الرئيسية في القصة الأمريكية اللاتينية في القرن العشرين.

ثم نلتقي بمقال ماريو بارجاس يوسا، الروائي البيروفي (من بيرو بأمريكا اللاتينية) الشهير. ولأمرٍ ما أراد يوسا أن يكون هذا الحديث المعنْون «دعوة إلى قصص بورخيس» الفصل الأول من كتابه A Writer's Reality (واقع كاتب)، قبل أن ينتقل، في الفصول التالية، إلى الحديث عن رواياته، رواية رواية، من حيث «الواقع» الذي تتصل به كل واحدة منها. ونحن هنا إزاء شهادة ونفاذ روائي أمريكي لاتيني كبير، وهو كاتب واقعي وليس كاتباً ميتافيزيقياً أو فانتازياً، وببراعة واقتداريصوّر «يوسا» الثورة التي أحدثها بورخيس في أدب أمريكا اللاتينية وفي النثر الأسباني بوجه عام، كما يروي لنا جانباً من تجربته الشخصية في فترة سابقة من حياته مع قصص سارتر والأدب الملتزم بينما كان مسحوراً بها «سراً» في الوقت ذاته.

يقول في مقاله «وبالنسبة للكاتب الأمريكي اللاتيني، بشّر بورخيس بنهاية عقدة نقص من

نوع ما منعتنا جميعاً دون أن ندري من طرْق بعض الموضوعات واحتفظت بنا أسرى نظرة محلية. وقبل بورخيس بدا نوع من الحمق أو خداع النفس أن يتابع أحدنا الثقافة العالمية كما يمكن لأوروبي أو أمريكي شمالي أن يفعل. وبطبيعة الحال فعل ذلك من قبل حفنة من شعراء أمريكا اللاتينية الحداثيين، غير أن محاولاتهم، حتى في حالة الأكثر شهرة بينهم، روبين داريو، اتسمت بالمحاكاة البارودية، أو غرابةالأطوار، بشيء أشبه ما يكون برحلة سطحية، عابثة بعض الشيء، عبر أرض أجنبية.

والواقع أن الكاتب الأمريكي اللاتيني كان قد نسي ما لم يضعه الكتاب الكلاسيكيون، مثل الإنكا جارثيلارنو أو الأخت خوانا إينيس دي لاكروث، موضع الشك مطلقاً، ألا وهو واقع أنه بحق اللغة التاريخ جزء لا يتجزأ من الثقافة الغربية، وليس مجرد مقلّد متوسط الموهبة أو مواطن كولونيالي، بل هو جزء شرعي من ذلك التراث منذ أن قام الإسبان والبرتغاليون، منذ أربعة قرون ونصف، بمدّ حدود الثقافة الغربية إلى النصف الجنوبي للكرة الأرضية.

وقد كان بورخيس دائماً مسحوراً بالميثولوجيا وبنمط قاطع الطريق في العشش المحيطة ببوينوس آيرس والمقاتل بالمدية في ريف الأرجنتين. وهؤلاء الرجال القساة، بما لهم من جسدية بحتة، وبراءة حيوانية، غرائز مطلقة العنان، كانوا نقيضه المباشر. ومع ذلك جعل عدداً من قصصه مأهولة بهم، مانحاً إياهم كرامة بورخيسية بعينها، أيْ طابعاً جمالياً وفكرياً، ومن الجلي أن هؤلاء السفاحين، والمقاتلين بالخناجر، والقتلة القساة والذين هم من ابتكاره، إنما هم شخصيات أدبية وواقعية شأنها في ذلك شأن شخصياته الفانتازية الخالصة.

والحقيقة أن كل قصة من قصص بورخيس جوهرة فنية، ويمثل بعضها مثل «تيلون، أو كبْار، أوربيس ثيرتيوس» و«الخرائب الدائرية» و«علماء اللاهوت» و«الألف» بروائع في جنسها الأدبي.

أما مقال جيمس آيربي- وهو مترجم رئيسي لإنتاج بورخيس إلى اللغة الإنجليزية وصاحب عدة كتب عن أدبه- والذي يحمل هنا في هذا الكتاب عنوان «عالم قصص بورخيس» والذي كان في الأصل مقدمة لمجموعة كبيرة هامة من كتابات بورخيس، فإنه يلم إلماماً سريعاً بحياته ومراحل وأجناس إنتاجه لينتقل إلى بحث عميق لإشكاليات واستراتيجيات قصص بورخيس.

فيقول إن «قصص بورخيس الميتافيزقية» أروع إبداعاته وهي مجمعة في مجلدين: قصص Ficciones (١٩٤٤)، الألف AlAleph (١٩٤٩)، تقوم جميعاً بتطوير الإمكانات المثالية المتنوعة الموجزة في «مقال» عن تيلون. وفي هذه السرود فإن الوظيفتين التحليلية والسردية اللتين جرى الاحتفاظ بهما من قبل منفصلين في مقالاته وقصائده تندمجان بصورة لافتة للنظر بغرابتها، الأمر الذي يؤدي إلى ا بتداع شكل معبر عن كل توتر وتعقيد الفكر الناضج عند بورخيس.

وربما بدت قصص بورخيس مجرد ألعاب شكلية، أو تجارب رياضية خالية من أي حس بالمسؤولية البشرية وغير مرتبطة حتى بحياة المؤلف نفسه، غير أن نقيض هذا تماماً هو

نوع ما منعتنا جميعاً دون أن ندري من طرْق بعض الموضوعات واحتفظت بنا أسرى نظرة محلية. وقبل بورخيس بدا نوع من الحمق أو خداع النفس أن يتابع أحدنا الثقافة العالمية كما يمكن لأوروبي أو أمريكي شمالي أن يفعل. وبطبيعة الحال فعل ذلك من قبل حفنة من شعراء أمريكا اللاتينية الحداثيين، غير أن محاولاتهم، حتى في حالة الأكثر شهرة بينهم، روبين داريو، اتسمت بالمحاكاة البارودية، أو غرابةالأطوار، بشيء أشبه ما يكون برحلة سطحية، عابثة بعض الشيء، عبر أرض أجنبية.

والواقع أن الكاتب الأمريكي اللاتيني كان قد نسي ما لم يضعه الكتاب الكلاسيكيون، مثل الإنكا جارثيلارنو أو الأخت خوانا إينيس دي لاكروث، موضع الشك مطلقاً، ألا وهو واقع أنه بحق اللغة التاريخ جزء لا يتجزأ من الثقافة الغربية، وليس مجرد مقلّد متوسط الموهبة أو مواطن كولونيالي، بل هو جزء شرعي من ذلك التراث منذ أن قام الإسبان والبرتغاليون، منذ أربعة قرون ونصف، بمدّ حدود الثقافة الغربية إلى النصف الجنوبي للكرة الأرضية.

وقد كان بورخيس دائماً مسحوراً بالميثولوجيا وبنمط قاطع الطريق في العشش المحيطة ببوينوس آيرس والمقاتل بالمدية في ريف الأرجنتين. وهؤلاء الرجال القساة، بما لهم من جسدية بحتة، وبراءة حيوانية، غرائز مطلقة العنان، كانوا نقيضه المباشر. ومع ذلك جعل عدداً من قصصه مأهولة بهم، مانحاً إياهم كرامة بورخيسية بعينها، أيْ طابعاً جمالياً وفكرياً، ومن الجلي أن هؤلاء السفاحين، والمقاتلين بالخناجر، والقتلة القساة والذين هم من ابتكاره، إنما هم شخصيات أدبية وواقعية شأنها في ذلك شأن شخصياته الفانتازية الخالصة.

والحقيقة أن كل قصة من قصص بورخيس جوهرة فنية، ويمثل بعضها مثل «تيلون، أو كبْار، أوربيس ثيرتيوس» و«الخرائب الدائرية» و«علماء اللاهوت» و«الألف» بروائع في جنسها الأدبي.

أما مقال جيمس آيربي- وهو مترجم رئيسي لإنتاج بورخيس إلى اللغة الإنجليزية وصاحب عدة كتب عن أدبه- والذي يحمل هنا في هذا الكتاب عنوان «عالم قصص بورخيس» والذي كان في الأصل مقدمة لمجموعة كبيرة هامة من كتابات بورخيس، فإنه يلم إلماماً سريعاً بحياته ومراحل وأجناس إنتاجه لينتقل إلى بحث عميق لإشكاليات واستراتيجيات قصص بورخيس.

فيقول إن «قصص بورخيس الميتافيزقية» أروع إبداعاته وهي مجمعة في مجلدين: قصص Ficciones (١٩٤٤)، الألف AlAleph (١٩٤٩)، تقوم جميعاً بتطوير الإمكانات المثالية المتنوعة الموجزة في «مقال» عن تيلون. وفي هذه السرود فإن الوظيفتين التحليلية والسردية اللتين جرى الاحتفاظ بهما من قبل منفصلين في مقالاته وقصائده تندمجان بصورة لافتة للنظر بغرابتها، الأمر الذي يؤدي إلى ا بتداع شكل معبر عن كل توتر وتعقيد الفكر الناضج عند بورخيس.

وربما بدت قصص بورخيس مجرد ألعاب شكلية، أو تجارب رياضية خالية من أي حس بالمسؤولية البشرية وغير مرتبطة حتى بحياة المؤلف نفسه، غير أن نقيض هذا تماماً هو

الصحيح، ذلك أن إصراره المثالي على المعرفة ونفاذ البصيرة وهو ما يعني أن نبحث عن نظام وأن نصير جزءاً منه، ينطوي على دلالة أخلاقية محددة، رغم أن هذه الدلالة لديه مزدوجة بحيث لا يمكن فصمها.

ثم تأتي صفحات من كتاب «السرد الفانتازي» بقلم إيرين بيسيير وهي مخصصة لإنتاج بورخيس، وهي تحاول وضعه في مكانه المتميز من السرد الفانتازي من خلال التركيز على مناقشة عدد من قصصه مثل: الخرائب الدائرية، اليانصيب في بابل، مكتبة بابل، الجنود.

فيقول «تبيّن الخرائب الدائرية هذه القصة ذات العنوان المليء بالدلالة أن كل كائن، كل شيء، موضوع تحت نفس التأثير. يأوي شيخ ناسك وساحر وعالم في السحر والتنجيم إلى الخرائب الدائرية لمعبد النار، التي جرى إحراقها عدة مرات، في سبيل تحقيق هدف غريب «كان يريد أن يحلم برجل بكمال تفصيلي وأن يفرضه على الواقع». ولقاء عمل طويل، وممارسات غريبة، وبقوة إرادته، ينجح في خلق رجل ينفخ فيه الحياة وهذا الرجل، رغم المظاهر، يأخذ مكانه في الواقع، وعندما يغادر هذا المخلوق الخرائب الدائرية إلى خرائب أخرى مشابهة لكن بعيدة، يشب حريق جديد ويفكر الشيخ في أنه يستحق أن ينعم بسلام الموت ما دام قد أنجز مهمته، وسار داخلاً قطع اللهب، غير أن هذه لم تلسع لحمه، بل كانت تداعبه وتبتلعه دون حرارة أو إحراق وبارتياح، وبمذلة، وبفزع، أدرك أنه هو أيضاً كان مجرد مظهر، كان يحلم به شخص آخر «وتأثير المفاجأة يقلب منطق السرد الفانتازي الذي يحتكم إلى الواقع الموضوعي كمرجع رئيسي هنا رجل يكتشف صفته الحقيقية فوق الطبيعيّة وكان يعتقد أن اليوميّ وحده خلو من وهم المظهر.

إن العالم العادي طبيعي، وعدم التحقق هذا إنما يوحي به التطبيق الصارم لمبدأ الهويةوكذلك الارتداد المنطقي (الانتقال من النتائج إلي المقدمات) الرجل الذي يحلم برجل هو ذاته محلوم به، كل ما فعله في آن معاً سبب ونتيجة، وفي حالة عدم قبول كافة مقتضيات السببية (إذا كانت السببية موجودة فإنها واحدة بالضرورة) يحكم السبب على نفسه بغير متوقع الحدوث وبتجربة شخص غريب لم يستطع أن يرى فيها الحتمي.

وحتى يكتمل هذا البحث- كما يقول المترجم- بأقلام متعددة، كان لا مناص من استعارة الفصل الخامس من كتاب بياتريس سارلو «خ.ل. بورخيس: كاتب على الحافة» بعنوان: «عوالم بورخيس الخيالية» وبياتريس سارلو- الكاتبة الأرجنتينية اللامعة- وهي أستاذة الأدب الأرجنتيني في جامعة بيونس آيرس وفي جامعات عديدة بالولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا. ومنذ ١٩٧٨ تدير «بياتريس سارلو» المجلة الثقافية Punto de Vista (وجهة نظر) وهي اليوم أهم مجلة للنظرية الاشتراكية في الأرجنتين، ولها كتب عديدة عن الثقافة الأرجنتينية والأدب الأرجنتيني وفي سياق بحثها عن أبعاد إشكالية صلة قصص بورخيس بالواقع، تركز بياتريس سارلو في هذا الفصل على ثلاث قصص ميتافيزيقية وفانتازية لبورخيس.

وكانت هذه الصفحات الرائعة لسارلو، التي

الصحيح، ذلك أن إصراره المثالي على المعرفة ونفاذ البصيرة وهو ما يعني أن نبحث عن نظام وأن نصير جزءاً منه، ينطوي على دلالة أخلاقية محددة، رغم أن هذه الدلالة لديه مزدوجة بحيث لا يمكن فصمها.

ثم تأتي صفحات من كتاب «السرد الفانتازي» بقلم إيرين بيسيير وهي مخصصة لإنتاج بورخيس، وهي تحاول وضعه في مكانه المتميز من السرد الفانتازي من خلال التركيز على مناقشة عدد من قصصه مثل: الخرائب الدائرية، اليانصيب في بابل، مكتبة بابل، الجنود.

فيقول «تبيّن الخرائب الدائرية هذه القصة ذات العنوان المليء بالدلالة أن كل كائن، كل شيء، موضوع تحت نفس التأثير. يأوي شيخ ناسك وساحر وعالم في السحر والتنجيم إلى الخرائب الدائرية لمعبد النار، التي جرى إحراقها عدة مرات، في سبيل تحقيق هدف غريب «كان يريد أن يحلم برجل بكمال تفصيلي وأن يفرضه على الواقع». ولقاء عمل طويل، وممارسات غريبة، وبقوة إرادته، ينجح في خلق رجل ينفخ فيه الحياة وهذا الرجل، رغم المظاهر، يأخذ مكانه في الواقع، وعندما يغادر هذا المخلوق الخرائب الدائرية إلى خرائب أخرى مشابهة لكن بعيدة، يشب حريق جديد ويفكر الشيخ في أنه يستحق أن ينعم بسلام الموت ما دام قد أنجز مهمته، وسار داخلاً قطع اللهب، غير أن هذه لم تلسع لحمه، بل كانت تداعبه وتبتلعه دون حرارة أو إحراق وبارتياح، وبمذلة، وبفزع، أدرك أنه هو أيضاً كان مجرد مظهر، كان يحلم به شخص آخر «وتأثير المفاجأة يقلب منطق السرد الفانتازي الذي يحتكم إلى الواقع الموضوعي كمرجع رئيسي هنا رجل يكتشف صفته الحقيقية فوق الطبيعيّة وكان يعتقد أن اليوميّ وحده خلو من وهم المظهر.

إن العالم العادي طبيعي، وعدم التحقق هذا إنما يوحي به التطبيق الصارم لمبدأ الهويةوكذلك الارتداد المنطقي (الانتقال من النتائج إلي المقدمات) الرجل الذي يحلم برجل هو ذاته محلوم به، كل ما فعله في آن معاً سبب ونتيجة، وفي حالة عدم قبول كافة مقتضيات السببية (إذا كانت السببية موجودة فإنها واحدة بالضرورة) يحكم السبب على نفسه بغير متوقع الحدوث وبتجربة شخص غريب لم يستطع أن يرى فيها الحتمي.

وحتى يكتمل هذا البحث- كما يقول المترجم- بأقلام متعددة، كان لا مناص من استعارة الفصل الخامس من كتاب بياتريس سارلو «خ.ل. بورخيس: كاتب على الحافة» بعنوان: «عوالم بورخيس الخيالية» وبياتريس سارلو- الكاتبة الأرجنتينية اللامعة- وهي أستاذة الأدب الأرجنتيني في جامعة بيونس آيرس وفي جامعات عديدة بالولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا. ومنذ ١٩٧٨ تدير «بياتريس سارلو» المجلة الثقافية Punto de Vista (وجهة نظر) وهي اليوم أهم مجلة للنظرية الاشتراكية في الأرجنتين، ولها كتب عديدة عن الثقافة الأرجنتينية والأدب الأرجنتيني وفي سياق بحثها عن أبعاد إشكالية صلة قصص بورخيس بالواقع، تركز بياتريس سارلو في هذا الفصل على ثلاث قصص ميتافيزيقية وفانتازية لبورخيس.

وكانت هذه الصفحات الرائعة لسارلو، التي

يتضافر فيها الجمالي مع الفكري مع الفلسفي مع السياسي، لإلقاء أضواء ساطعة على أفكار بورخيس وتقنياته وجمالياته من خلال العرض التفصيلي المعمق لقصصه بذاتها. ■

يتضافر فيها الجمالي مع الفكري مع الفلسفي مع السياسي، لإلقاء أضواء ساطعة على أفكار بورخيس وتقنياته وجمالياته من خلال العرض التفصيلي المعمق لقصصه بذاتها.■

متابعات

المدينة في الشعر المغربي القديم

د . سعيد بوفلاقة *

موضوع هذا البحث «المدينة في الشعر المغربي القديم». وأودُّ قبل أن أدخل في صميم الموضوع أن أُمهِّد بالتعريف لأدبنا المغربيِّ العربيِّ القديم، أي: ما هي الفتْرةُ التي نحدّدُ بها هذا الأدب؟ وماذا نعني بكلمة «مغربيّ»؟ إنَّ هذه الفترة تبدأ من الفتح الإسلامي للمغرب، وتنتهي ببداية الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة ثلاثين وثمانمائة وألف (١٨٣٠م) (١). أي: من القرن السابع إلى القرن التاسع عشر الميلاديين. لأن هذا الاحتلال هزّ كيان المغرب العربي هزاً عنيفاً، كان له أثر كبير في تأخر النهضة في المغرب العربي إلى بداية الرّبع الثاني من القرن العشرين، وقد حاول بعض الدّارسين تقسيم هذه الفترة إلى عصور أدبية لتساعد على دراسة كل عصر على حدة، ومنهم الأستاذ رابح بونار، والدكتور حسين مؤنس، وغيرهما (٢). وأمّا مصطلح /«مغرب» عند المؤرخين والجغرافيين العرب القدماء، فيطلق على كلّ ما يلي مصر غرْباً من بلاد الشمال الأفريقي حتى المحيط الأطلسي (٣) وهو ما نعنيه في بحثنا هذا.

وأمّا مصطلح «مغاربي» الذي يستعمله بعض المعاصرين، فيقولون: الأدب المغاربي والاتحاد المغاربي، وما إلى ذلك. فقد بحثت عنه في معاجم اللغة العربية، ولم أجدْ جواباً، وفي رأينا أنّ مصطلح «مغربي» نسبة إلى مغرب أفضل وأفصح لأنّ كلمة «مغاربي» منسوبة إلى الجمع «مغاربة» والنسبة إلى الجمع لا تجوز في العربية.

وإذا كنّا في دراسة سابقة (٤) قد تناولنا العلاقة القائمة بين الشاعر المغربيّ والمدينة المغربية في نطاق خاص، فإننا في هذه السطور نودُّ أنْ نتناول هذه العلاقة في نطاقٍ أوسع، سواء في بعْدِها المكانيِّ الذي لا يتقيّد بمدينة معينةٍ دون غيرها من مدنِ المغرب العربي، أو في بعْدِها الزّماني الذي ينظر إلى النصوص المجسِّدةِ لهذه العلاقة في مراحل زمانية متعددةٍ، محاولين تقديم بعض النماذج من شعر المدينة في الأدب المغربي القديم، تحت رؤيةٍ توزع هذه النماذج بحسبِ المواقف والمجالات التي سبحت فيها وطرح بعض الملاحظات التي يسوقُ إليها تأمُّلُ هذه النماذج واستنطاقها (٥).

وهذا الموضوع هام، وواسع، ويصلح أن يكون رسالة ماجستير أو دكتوراه دولةٍ إنْ وجد فارساً من فرسان البيان يتولّى أمره ويسبر غوْره،

* باحث جزائري

متابعات

المدينة في الشعر المغربي القديم

د . سعيد بوفلاقة *

موضوع هذا البحث «المدينة في الشعر المغربي القديم». وأودُّ قبل أن أدخل في صميم الموضوع أن أُمهِّد بالتعريف لأدبنا المغربيّ العربيّ القديم، أي: ما هي الفترة التي نحدّد بها هذا الأدب؟ وماذا نعني بكلمة «مغربيّ»؟ إنّ هذه الفترة تبدأ من الفتح الإسلامي للمغرب، وتنتهي ببداية الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة ثلاثين وثمانمائة وألف (١٨٣٠م) (١). أي: من القرن السابع إلى القرن التاسع عشر الميلاديين. لأن هذا الاحتلال هزّ كيان المغرب العربي هزاً عنيفاً، كان له أثر كبير في تأخر النهضة في المغرب العربي إلى بداية الرّبع الثاني من القرن العشرين، وقد حاول بعض الدّارسين تقسيم هذه الفترة إلى عصور أدبية لتساعد على دراسة كل عصر على حدة، ومنهم الأستاذ رابح بونار، والدكتور حسين مؤنس، وغيرهما (٢). وأمّا مصطلح / «مغرب» عند المؤرخين والجغرافيين العرب القدماء، فيطلق على كلّ ما يلي مصر غرباً من بلاد الشمال الأفريقي حتى المحيط الأطلسي (٣) وهو ما نعنيه في بحثنا هذا.

وأمّا مصطلح «مغاربي» الذي يستعمله بعض المعاصرين، فيقولون: الأدب المغاربي والاتحاد المغاربي، وما إلى ذلك. فقد بحثت عنه في معاجم اللغة العربية، ولم أجدْ جواباً، وفي رأينا أنّ مصطلح «مغربي» نسبة إلى مغرب أفضل وأفصح لأنّ كلمة «مغاربي» منسوبة إلى الجمع «مغاربة» والنسبة إلى الجمع لا تجوز في العربية.

وإذا كنّا في دراسة سابقة (٤) قد تناولنا العلاقة القائمة بين الشاعر المغربيّ والمدينة المغربية في نطاق خاص، فإننا في هذه السطور نودُّ أنْ نتناول هذه العلاقة في نطاقٍ أوسع، سواء في بعْدها المكانيّ الذي لا يتقيّد بمدينة معينةٍ دون غيرها من مدن المغرب العربي، أو في بعْدها الزّماني الذي ينظر إلى النصوص المجسّدة لهذه العلاقة في مراحل زمانية متعددةٍ، محاولين تقديم بعض النماذج من شعر المدينة في الأدب المغربي القديم، تحت رؤيةٍ توزع هذه النماذج بحسب المواقف والمجالات التي سبجت فيها وطرح بعض الملاحظات التي يسوق إليها تأمُّل هذه النماذج واستنطاقها (٥).

وهذا الموضوع هام، وواسع، ويصلح أن يكون رسالة ماجستير أو دكتوراه دولة إن وجد فارساً من فرسان البيان يتولّى أمره ويسبر غوره،

* باحث جزائري

فيبحث عن النصوص في مصادرها الأولى المخطوطة والمطبوعة، فيجمعها ويدرسها، وبالتالي يبرز ما يمكن أن تكون مصطبغة به من سمات وخصائص، وما يمكن أن تكون مطبوعة به من خصوصيات تعكس قيمة هذا اللّون من الشعر القديم بالمغرب العربي، وتبلور اتجاهاته على امتداد العصور، وتلاحق الأجيال. وهو، على كلّ حال، مشروع بحث أو أمنية من أمانيّ الغوالي التي عشت بها زمناً طويلاً، كنت حريصاً على أنْ أحققها بنفسي أو أنْ تحققها لي نفس أعزُّ عليّ من نفسي. وها هو ذا بعض الأمل يتحقّق اليوم بهذه البداية المتواضعة التي قد تكون اللبنة الأولى لهذا المشروع الكبير.

ولعلّ ما يبْعث على التساؤل في بداية الأمر البحث عن المفهوم الذي يمكن إعطاؤه للمدينة كفضاء بالنسبة إلى شعراء المغرب العربي القدامى، إذ الذي يميل إليه الاعتقاد لديهم- وهم يتحدثون عن هذه المدينة أو تلك- أنّهم إنّما يقصدون المدينة باعتبارها مقراً لمجموعة بشرية ما، ترتبط بين عناصرها علاقات شتى، منها العائليّ والعلميّ والدّينيّ والاجتماعيّ والاقتصادي، كما تربط هؤلاء بهذا المقر السّكني علاقة الانتماء أو الإعجاب أو الشوق أو الكره أحياناً أو غير هذا وذاك من الأحاسيس والمشاعر المختلفة التي تنتاب الإنْسان إيجاباً أوْ سلباً(٦).

هذا عن مفهوم فضاء المدينة كمصطلح، أمّا المدينة لغة فهي مجْتمع بيوت يزيد عددها عن بيوت القرية، أو هي المصر الجامع وتجمع على مدائن أو مدن أو مدْن.

وانطلاقاً من هذا المفهوم لفضاء المدينة بالنسبة إلى شعراء المغرب العربي القدماء، نجد معظم ما أبدعوه في هذا المضمار يعتمد المسلك الوصفيّ المباشر، ويتوسّل بإبداء عواطف الحبّ والإعجاب، أو الكره والتذمّر، فكلُّ واحد منّا أحبّ مدينة أو مدينتين أو ثلاثاً أو أربعاً، كما علق امرأة أو امرأتين أو ثلاثاً أو أكثر من ذلك. وكذلك الشعراء الذين طالما مزجوا بين حبّ المدينة وحبّ المرأة، فالمدينة امرأة أيضاً، وهي في اللغة «مؤنثة»، وقد تكون هذه المرأة أماً أو أختاً أو حبيبة، أو غير ذلك. وقد تعامل الشاعر مع المدينة، سواء أكانت مسقط رأسه أمْ لم تكن، وسواء أكانت كورةً استوطنها- مؤقتاً- للتعليم أو العمل، أو زارها أو سمع عنها، ولكن مسقط الرأس يبقى أجمل مكان في الدنيا عند معْظم الناس.

وقد صدق الشاعر حين قال:

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحبّ إلاّ للحبيب الأوّل
كمْ منزل في الأرْض يألفه الفتى
وحنينه أبداً لأوّل منْزل

ولا أودُّ أنْ أسترسل في هذا المنحى، إذ لست أقصد إلى دراسة المدينة كفضاء أو كمصطلح، وإنما الذي يهمُّني هنا هو كيف تنعكس صورة المدينة لدى الشاعر المغربي القديم وما يكْتسيه شعر المدينة عنده من قيم بارزة ومتعددة من أهمها تلك القيمة التاريخية التي تجعل من هذا الشعر وثيقةً هامةً تعكس واقع المغرب على مستويات شتّى، وتسعف باستخلاص مجموعة من التصورات حول مجالات منه مختلفة سواء أتعلّق الأمر بالجانب الجغرافي أم التاريخي أم الاجتماعي أمْ غير ذلك(٧).

فيبحث عن النصوص في مصادرها الأولى المخطوطة والمطبوعة، فيجمعها ويدرسها، وبالتالي يبرز ما يمكن أن تكون مصطبغة به من سمات وخصائص، وما يمكن أن تكون مطبوعة به من خصوصيات تعكس قيمة هذا اللّون من الشعر القديم بالمغرب العربي، وتبلور اتجاهاته على امتداد العصور، وتلاحق الأجيال. وهو، على كلّ حال، مشروع بحث أو أمنية من أمانيّ الغوالي التي عشت بها زمناً طويلاً، كنت حريصاً على أن أحققها بنفسي أو أنْ تحققها لي نفس أعزّ عليّ من نفسي. وها هو ذا بعض الأمل يتحقّق اليوم بهذه البداية المتواضعة التي قد تكون اللبنة الأولى لهذا المشروع الكبير.

ولعلّ ما يبعث على التساؤل في بداية الأمر البحث عن المفهوم الذي يمكن إعطاؤه للمدينة كفضاء بالنسبة إلى شعراء المغرب العربي القدامى، إذ الذي يميل إليه الاعتقاد لديهم- وهم يتحدثون عن هذه المدينة أو تلك- أنّهم إنّما يقصدون المدينة باعتبارها مقراً لمجموعة بشرية ما، ترتبط بين عناصرها علاقات شتى، منها العائليّ والعلميّ والدّينيّ والاجتماعيّ والاقتصادي، كما تربط هؤلاء بهذا المقر السّكني علاقة الانتماء أو الإعجاب أو الشوق أو الكره أحياناً أو غير هذا وذاك من الأحاسيس والمشاعر المختلفة التي تنتاب الإنسان إيجاباً أوْ سلباً (٦).

هذا عن مفهوم فضاء المدينة كمصطلح، أمّا المدينة لغة فهي مجتمع بيوت يزيد عددها عن بيوت القرية، أو هي المصر الجامع وتجمع على مدائن أو مدن أو مدْن.

وانطلاقاً من هذا المفهوم لفضاء المدينة بالنسبة إلى شعراء المغرب العربي القدماء، نجد معظم ما أبدعوه في هذا المضمار يعتمد المسلك الوصفيّ المباشر، ويتوسّل بإبداء عواطف الحبّ والإعجاب، أو الكره والتذمُّر، فكلٌّ واحد منّا أحبّ مدينة أو مدينتين أو ثلاثاً أو أربعاً، كما علق امرأة أو امرأتين أو ثلاثاً أو أكثر من ذلك. وكذلك الشعراء الذين طالما مزجوا بين حبّ المدينة وحبّ المرأة، فالمدينة امرأة أيضاً، وهي في اللغة «مؤنثة»، وقد تكون هذه المرأة أماً أو أختاً أو حبيبة، أو غير ذلك. وقد تعامل الشاعر مع المدينة، سواء أكانت مسقط رأسه أمْ لم تكن، وسواء أكانت كورةً استوطنها- مؤقتاً- للتعليم أو العمل، أو زارها أو سمع عنها، ولكن مسقط الرأس يبقى أجمل مكان في الدنيا عند معظم الناس.

وقد صدق الشاعر حين قال:

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحبّ إلاّ للحبيب الأوّل
كمْ منزل في الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبداً لأوّل منْزل

ولا أودّ أنْ أسترسل في هذا المنحى، إذ لست أقصد إلى دراسة المدينة كفضاء أو كمصطلح، وإنما الذي يهمُّني هنا هو كيف تنعكس صورة المدينة لدى الشاعر المغربي القديم وما يكتسيه شعر المدينة عنده من قيم بارزة ومتعددة من أهمها تلك القيمة التاريخية التي تجعل من هذا الشعر وثيقةً هامةً تعكس واقع المغرب على مستويات شتّى، وتسعف باستخلاص مجموعة من التصورات حول مجالات منه مختلفة سواء أتعلّق الأمر بالجانب الجغرافي أم التاريخي أم الاجتماعي أمْ غير ذلك (٧).

ولعلّ أولَ ما يَلفتُ الانتباه- حين نعود إلى النُّصوص- أنَّ شعر المدينة في الأدب المغربي القَديم يكتسي قيمة تاريخية تجعل منه وثيقة هامة تعكس واقع ا لمغرب العربي في مرحلة ما. من ذلك ما نجده في منظومة الشاعر أحمد بن ساسي البوني [٨] الموسومة بـ«الدّرة المصفونة في علماء وصلحاء بونة [٩]، [١٠]، وهي في ألف بيت، وقد اختصرها من منظومته الكبرى المحتوية على ثلاثة آلاف بيت، ثم شرحها، وكان شرحها متداولاً إلى عهد قريب ولكنَّ مصيره الآن مجهول كمصير كثير من كتب التراث التي ضاعت «بين جامد وجاحد» [١١].

ذكر أحمد بن ساسي البوني في درّته هذه، تراجم علماء بونة، فبدأ بأساتذته وأقاربه، من سكان المدينة، ثم علماء القرى المجاورة، والعلماء الواردين على بونة، سواء أكانوا عابري سبيل، أم مقيمين من مختلف جهات القطر، وقد استفاد من تأليف علي فضلون البوني، وهو من علماء القرن التاسع الهجري، وقد ضاع تأليف علي فضلون الذي استوعبه تأليف أحمد بن ساسي المذكور (الدرة المصونة....) وقد انتهى أحمد بن ساسي من تأليفه أواخر القرن الحادي عشر، وفي ذلك يقول: «في عامِ تسعين وألف نظمت، وآن أن أدعو لمَّا تممْت» [١٢] وقد اشترط في مترجميه العلم مع الاستقامة والصلاح، يقول:

بشـرطِ إنْ كـانوا للعلمِ درسـوا
أ و لصـلاحٍ نسـبـوا مـا انْدرسُـوا

ويبدو أنّ أحدَ طلاّبه هو الذي طلب منه ذلك، كما ذكر وكانَ على أهبةِ السفر، فاستعجله، فقال:

طالبـهـا مسـافـرٌ وذو عـجل
زوّدْتُه بِهـا وإنّي في خَـجَل

وفيها يقول:

لذاك رام منّي بعضُ الأذكـيـاء
توسُّلاً بذكـرِ بعضِ الأزكـيـاء
فنجـئـتـه «بدرةٍ مـصـونه»
ذكـرتِ فـيـهـا أوْليـاء بُونَهْ
لـكـن بـلا طـولٍ ولا تـاريـخِ
لضيـقِ نظْمي بهِم صـريخِي

وبعد ذلك يشير إلى أنّ مترجميه، الذين عاشوا قبل القرن التاسع، مذكورون في تأليف علي فضلون، يقول:

حـواهم جـمْع «علي فـضلوني»
لآخـرِ التّـاسعِ مِنْ قُـرون
ثـم أتيـت بـالّذيـن بـعْـده
أرْجُـو بهم تفْـريج كلِّ كُـرْبَه
من عـاشرِ القرونِ والحـادي عِشر
وفي البـلاد ذكْـرهم قـد انتَشـرْ

وبعد نهاية الشاعر من ذكرِ مترجميه من علماء بونة، يختم القصيدة بالموازنة بينهم وبين معاصريه، فيقول:

والآن يلْحنون فـوقَ المنْبَـر
لا يقـبلون النُّصْح حـتّى مِنْ بَري
وكُـتبَ الجـهلِ على جـبـاهِهم
اليـومِ يخْـتِم على أفْـواهِهمْ
ليْتَ الجُـدود نظرِوا إليْـهـم
ولَو رأوْهم لبكَوْا علَيْـهمْ [١٣]

من خلال هذه الموازنة نستشف أنَّ بونة في القرن الحادي عشر الهجري عرفت انحطاطاً لا نظير له. ولكنّها في الوقت نفسه كانت مقراً لمحمد «بكداش» [١٤] وهو أحد الأتراك الذين

ولعلّ أولَ ما يَلفتُ الانتباه- حين نعود إلى النُّصوص- أنَّ شعر المدينة في الأدب المغربى القديم يكتسي قيمة تاريخية تجعل منه وثيقة هامة تعكس واقع ا لمغرب العربي في مرحلة ما. من ذلك ما نجده في منظومة الشاعر أحمد بن ساسي البوني (٨) الموسومة بـ«الدّرة المصفونة في علماء وصلحاء بونة (٩)، (١٠)، وهي في ألف بيت، وقد اختصرها من منظومته الكبرى المحتوية على ثلاثة آلاف بيت، ثم شرحها، وكان شرحها متداولاً إلى عهد قريب ولكنَّ مصيره الآن مجهول كمصير كثير من كتب التراث التي ضاعت «بين جامد وجاحد» (١١).

ذكر أحمد بن ساسي البوني في درّته هذه، تراجم علماء بونة، فبدأ بأساتذته وأقاربه، من سكان المدينة، ثم علماء القرى المجاورة، والعلماء الواردين على بونة، سواء أكانوا عابري سبيل، أم مقيمين من مختلف جهات القطر، وقد استفاد من تأليف علي فضلون البوني، وهو من علماء القرن التاسع الهجري، وقد ضاع تأليف علي فضلون الذي استوعبه تأليف أحمد بن ساسي المذكور (الدرة المصونة....) وقد انتهى أحمد بن ساسي من تأليفه أواخر القرن الحادي عشر، وفي ذلك يقول: «في عامِ تسعين وألف نظمت، وآن أن أدعو لمَّا تممْت» (١٢) وقد اشترط في مترجميه العلم مع الاستقامة والصلاح، يقول:

بشرط إنْ كانوا للعلمِ درسوا
أو لصلاحٍ نسبوا ما اندرسوا

ويبدو أنّ أحدَ طلاَّبه هو الذي طلب منه ذلك، كما ذكر وكانَ على أهبةِ السفر، فاستعجله، فقال:

طالبها مسافر وذو عجل
زوّدْتُه بها وإنّي في خَجَل

وفيها يقول:

لذاك رام منّي بعضُ الأذكياء
توسُّلاً بذكّر بعضِ الأزكياء
فَنجئتُه «بدرةٍ مصونه»
ذكرتِ فيها أولياء بُونَهْ
لكن بلا طولٍ ولا تاريخ
لضيق نظْمي بهم صريخي

وبعد ذلك يشير إلى أنّ مترجميه، الذين عاشوا قبل القرن التاسع، مذكورون في تأليف علي فضلون، يقول:

حواهم جمْعُ «علي فضلوني»
لآخرِ التّاسعِ مِنْ قُرون
ثم أتيت بالّذين بعده
أرْجو بهم تفْريج كلَّ كُرْبَهْ
من عاشر القرون والحادي عِشر
وفي البلاد ذكْرهم قد انتَشرْ

وبعد نهاية الشاعر من ذكر مترجميه من علماء بونة، يختم القصيدة بالموازنة بينهم وبين معاصريه، فيقول:

والآن يلْحنون فوقَ المنْبَر
لا يقبلون النُّصْح حتّى مِنْ بَري
وكُتب الجهل على جِباهِهِم
اليومِ يخْتم على أفْواهِهِمْ
لَيْتَ الجدود نظروا إليْهِم
ولو رأوْهم لبكَوْا عليْهمْ (١٣)

من خلال هذه الموازنة نستشف أنَّ بونة في القرن الحادي عشر الهجري عرفت انحطاطاً لا نظير له. ولكنّها في الوقت نفسه كانت مقراً لمحمد «بكداش» (١٤) وهو أحد الأتراك الذين

أقاموا بها وتزوجوا فيها وأخذوا عن أساتذتها، منهم أحمد بن ساسي، ووالده، فارتقى ذلك التركي، وعين باشا الجزائر، فكان وفياً لبونة ولأساتذته بها. وهو الذي فتح وهران سنة ١١٢٠هـ، بعد احتلالها من قبل الأسبان مدة ست ومائتي سنة [١٥] وقد ذكر ذلك أحمد بن ساسي في منظومته حين قال:

وفتحت على يديه وهران
فكمل المجد له والبرهان

ثم كاتبه بهذه الأرجوزة مهنئاً إياه بفتح وهران، ولافتاً نظره إلى حال مدينة بونة، فقال:

يا حاكم الجزائر
يا أنس نفس الزائر
أريد أن أخبركم
أدام ربي نصركم
بحال هذي القرية [١٦]
بالصدق لا بالفرية
قد صال فيها الظالم
وهان فيها العالم
خربت المساجد
وقل فيها الساجد
حبسها قد أسرفا
ناظره فأشرفا
وأهملت أسعارها
وبدلت شعارها
والشرع فيها باطل
والظلم فيها هاطل
والخوف في سبلها
والقحط في سنبلها
وكم من القبائح
وكم من الفضائح
يضيق عنها النظم
وخار منها العظم
تبكي عليها بالدم
قد قربت من عدم
والله قد ولاكم
حكماً وقد علاكم
فداركوا الإسلاما
ونوروا الظلاما [١٧]

كانت هذه لمحات من تاريخ مدينة بونة من خلال منظومة «الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة»، لصاحبها أحمد البوني وكذلك الأرجوزة التي أبدع فيها وأوجز.

أما المنظومة الشعرية فهي مما يذكر لقيمتها التاريخية الهامة فقد عكست واقع بونة على مستويات شتى، ولكنها ركيكة الأسلوب، ولغتها قلقة مضطربة وقد اعتورتها العلة من جوانب مختلفة كشعر العلماء وبعض الفقهاء الذين يتعاطون النظم، وليس لهم من الأدب حظ ولا نصيب، فيتكلفون ما ليس من سجيتهم فيأتي نظمهم بارداً سخيفاً. أما الأرجوزة فقيلت بأسلوب سهل سلسل، وبلغة رقيقة عذبة في مجملها.

أما الشاعر أبوالعباس أحمد السجستاني [١٨]، فينظر إلى مدينة وهران وهي مغتصبة، تتطلع إلى الخلاص والانعتاق من قبضة الاحتلال الأسباني فينطلق لسانه بهذه القصيدة متوجهاً بها إلى الولاة والرؤساء وزعماء القبائل يلتمس منهم تحرير مدينة وهران من هذا الاحتلال الغاشم، ويلقي باللائمة والخزي على بعض الخونة من بني عامر وغيرهم من الذين ساندوا الأسبان،

أقاموا بها وتزوجوا فيها وأخذوا عن أساتذتها، منهم أحمد بن ساسي، ووالده، فارتقى ذلك التركي، وعين باشا الجزائر، فكان وفياً لبونة ولأساتذته بها. وهو الذي فتح وهران سنة ١١٢٠هـ، بعد احتلالها من قبل الأسبان مدة ست ومائتي سنة (١٥) وقد ذكر ذلك أحمد بن ساسي في منظومته حين قال:

وفتحت على يديه وهران
فكمل المجد له والبرهان

ثم كاتبه بهذه الأرجوزة مهنئاً إياه بفتح وهران، ولافتاً نظره إلى حال مدينة بونة، فقال:

يا حاكم الجزائر
يا أنس نفس الزائر
أريد أن أخبركم
أدام ربي نصركم
بحال هذي القرية (١٦)
بالصدق لا بالفرية
قد صال فيها الظالم
وهان فيها العالم
خربت المساجد
وقل فيها الساجد
حبسها قد أسرفا
ناظره فأشرفا
وأهملت أسعارها
وبدلت شعارها
والشرع فيها باطل
والظلم فيها هاطل
والخوف في سبلها
والقحط في سنبلها
وكم من القبائح
وكم من الفضائح
يضيق عنها النظم
وخار منها العظم
تبكي عليها بالدم
قد قربت من عدم
والله قد ولاكم
حكماً وقد علاكم
فداركوا الإسلاما
ونوروا الظلاما (١٧)

كانت هذه لمحات من تاريخ مدينة بونة من خلال منظومة «الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة»، لصاحبها أحمد البوني وكذلك الأرجوزة التي أبدع فيها وأوجز.

أما المنظومة الشعرية فهي مما يذكر لقيمتها التاريخية الهامة فقد عكست واقع بونة على مستويات شتى، ولكنها ركيكة الأسلوب، ولغتها قلقة مضطربة وقد اعتورتها العلة من جوانب مختلفة كشعر العلماء وبعض الفقهاء الذين يتعاطون النظم، وليس لهم من الأدب حظ ولا نصيب، فيتكلفون ما ليس من سجيتهم فيأتي نظمهم بارداً سخيفاً. أما الأرجوزة فقيلت بأسلوب سهل سلسل، وبلغة رقيقة عذبة في مجملها.

أما الشاعر أبوالعباس أحمد السجستاني (١٨)، فينظر إلى مدينة وهران وهي مغتصبة، تتطلع إلى الخلاص والانعتاق من قبضة الاحتلال الأسباني فينطلق لسانه بهذه القصيدة متوجهاً بها إلى الولاة والرؤساء وزعماء القبائل يلتمس منهم تحرير مدينة وهران من هذا الاحتلال الغاشم، ويلقي باللائمة والخزي على بعض الخونة من بني عامر وغيرهم من الذين ساندوا الأسبان،

فيقول:

فمنْ مُبْلغٍ عنّي قبائلَ عامرٍ
ولا سيّما منْ قدْ ثوى تحت كافرِ

وجيرانُهم في الغربِ منْ كلّ ماجدٍ
طويلِ القنا أهلِ الوفا والمغافرِ

ويا معْشرَ الإسْلامِ في كلِّ موْطنٍ
وفي كلِّ نادٍ سالفٍ ومعاصرِ

ويا سادةَ العربانِ من آلِ هاشمٍ
وغيرِهم باللّه ما صبرُ صابرِ؟!

يا معشرَ الأتراكِ يا كلَّ عالمٍ
وكلَّ وليٍّ حافظٍ للأوامرِ

أناشِدْكُم باللّه ما عذْرُ جمعِكمْ
لدى اللّهِ في وهرانَ أمْرَ الخنازرِ (١٩)

وتتكرر هذه الصرخة أيضاً عند الشاعر أبي عبدالله محمد بن عبدالمؤمن (٢٠)، في قصيدته التي يحرّض فيها الداي حسن (٢١) على تحرير مدينة وهران وتخليصها من براثن الاستعمار الأسباني، فيقول:

نادتك وهرانُ فلبِّ نداءَها
وانْزلْ بها لا تقْصدنَّ سواهَا

واحْلُلْ بها تيكَ الأباطِحِ والرُّبا
واسْتصْرخنَّ دفينَها الأوّاهَا (٢٢)

واسْتدْعِ طائفةَ العساكرِ نحْوها
يغزونها ولْينْزلوا بفنائها

صرخَتْ بدعْوتِك العليّة فاسْتجبْ
لندائها ولْتُكْملنَّ مُناها

وادْعُ الغُزاةَ لغزْوِها مسْتنْجداً
وانْهضْ إليْها وانزلنْ مرْساها

فالآنَ آنَ الفتْحِ إذْ ظهرتْ بها
آثارُ تنْبي أنّه وافَاها

ويختم القصيدة بقوله:

لا زلْتَ منصورَ اللّواءِ مُؤيّداً
تحْمي بعونِ اللّهِ سنّةَ طاهَا (٢٣)

صلّى عليْه وسلّمِ اللّه الذي
أحْيى القلوبَ ببعْثِه وشفاهَا (٢٤)

ويكاد يسير في هذا الاتجاه شاعر آخر من شعراء العصر العلوي (٢٥) بالمغرب الأقصى، وهو عبدالسلام جسوس الذي كتب قصيدة شعرية يناشد فيها المولى إسماعيل ملك المغرب (١٠٨٤-١١٣٩هـ) تحرير مدينة سبتة وبادس والبريجة من الاحتلال البرتغالي، فيقول:

رفعتْ منازلُ سبتةَ أصواتَها
تشْكو إليكم بالذي قدْ هالَها

مع بادسٍ وبريجةٍ فتعطّفوا
وتنبّهوا كيْ تسْمعوا تسْآلها

يا ابنَ النّبيّ الهاشميّ محمّدٍ
قلْ يا أميرَ المؤمنين أنا لها (٢٧)

وتارة نجد هذه المدينة، وقد أجيب نداؤها وسمع استصراخها، فهبّ الشعب لتحريرها، وقد بدأ الفتح الأوّل لجوانبها، على غرار ما وصلنا من شعر عبدالرحمن بن موسى (٢٨) مهنّئاً ومنوّهاً باسترجاع الباشا حسين لحصن المرسى الأعلى(٢٩) بوهران من قبضة الاحتلال الأسباني، وهروب النصارى إلى الحصن الأسفل، فقال:

هنيئاً لكمْ باشا الجزائرِ والغرْبِ
بفتْحِ أساسِ الكفْرِ مرْسى قرى الكلْبِ

ستفْتحُ وهراناً ومرْساتَها التي
أضرّتْ بذا الإقْليمِ طراً بلا ريْبِ

فأبْقاك ربّي فاتحاً لحصونِهم
وكهْفاً منيعاً ذا علومٍ وذا صوْبِ

فيقول:

فمنْ مُبْلغٍ عنّي قبائلَ عامرٍ
ولا سيّما منْ قد ثوى تحت كافرِ
وجيرانُهم في الغربِ منْ كل ماجدٍ
طويلِ القنا أهلِ الوفا والمغافرِ
ويا معْشرَ الإسْلامِ في كلِّ موطنٍ
وفي كلِّ نادٍ سالفٍ ومعاصرِ
ويا سادةَ العربانِ من آلِ هاشمٍ
وغيرهم باللّه ما صبرُ صابرٍ؟!
يا معشرَ الأتراكِ يا كلَّ عالمٍ
وكلَّ وليٍّ حافظٍ للأوامرِ
أناشدُكم باللّه ما عذْرُ جمعِكمْ
لدى اللّه في وهرانَ أمْرَ الخنازرِ (١٩)

وتتكرر هذه الصرخة أيضاً عند الشاعر أبي عبدالله محمد بن عبدالمؤمن (٢٠)، في قصيدته التي يحرّض فيها الداي حسن (٢١) على تحرير مدينة وهران وتخليصها من براثن الاستعمار الأسباني، فيقول:

نادتكَ وهرانُ فلبِّ نداءَها
وانْزلْ بها لا تقْصدنَّ سواها
واحْلُلْ بها تيكَ الأباطحِ والرُّبا
واسْتصْرخنَّ دفينَها الأوّاها (٢٢)
واسْتدْعِ طائفةَ العساكرِ نحْوها
يغزونها ولْينْزلوا بفنائها
صرختْ بدعْوتِك العليّة فاسْتجبْ
لندائها ولْتكْملنْ مُناها
وادْعُ الغُزاةَ لغزْوها مُستنْجداً
وانْهضْ إليْها وانزلنْ مرساها
فالآن آن الفتحِ إذْ ظهرتْ بها
آثارُ تنبي أنّه وافاها

ويختم القصيدة بقوله:

لا زلْتَ منصورَ اللّواءِ مُؤيَّداً
تحْمي بعونِ اللّه سنّةَ طاها (٢٣)
صلّى عليْه وسلّمَ اللّه الذي
أحْيى القلوبَ ببعْثه وشفاها (٢٤)

ويكاد يسير في هذا الاتجاه شاعر آخر من شعراء العصر العلوي (٢٥) بالمغرب الأقصى، وهو عبدالسلام جسوس الذي كتب قصيدة شعرية يناشد فيها المولى إسماعيل ملك المغرب (١٠٨٤-١١٣٩هـ) تحرير مدينة سبتة وبادس والبريجة من الاحتلال البرتغالي، فيقول:

رفعتْ منازلُ سبتةَ أصواتَها
تشْكو إليكم بالذي قدْ هالَها
معْ بادس وبريجةٍ فتعطّفوا
وتنبّهوا كيْ تسْمعوا تسآلَها
يا ابن النّبيِّ الهاشميّ محمّدٍ
قلْ يا أميرَ المؤمنين أنا لها (٢٧)

وتارة نجد هذه المدينة، وقد أُجيب نداؤها وسُمع استصراخها، فهبّ الشعب لتحريرها، وقد بدأ الفتح الأوّل لجوانبها، على غرار ما وصلنا من شعر عبدالرحمن بن موسى (٢٨) مهنّئاً ومنوّهاً باسترجاع الباشا حسين لحصن المرسى الأعلى(٢٩) بوهران من قبضة الاحتلال الأسباني، وهروب النصارى إلى الحصن الأسفل، فقال:

هنيئاً لكمْ باشا الجزائرِ والغربِ
بفتحِ أساسِ الكفرِ مرسى قرى الكلْبِ
ستفْتحُ وهراناً ومرْساتُها التي
أضرّتْ بذا الإقليمِ طراً بلا ريْبِ
فأبْقاك ربّي فاتحاً لحصونِهم
وكهفاً منيعاً ذا علومٍ وذا صوبِ

ونَوِّرَ قَلْبـاً منْكَ بالْعلمِ والتُّـقَى
وأعْطاك مَا تهْوى من النَّصْرِ والحبِّ (٣٠)

ويبدو من خلال النُّصوص التي أبدعها شعراء المغرب العربي القدامى في هذا المجال، أنَّ المدينة كانت كياناً داخل الشاعر، ولا سيما مسْقَطُ رأسه، فهو يمدحها، ويمعن في تصويرها ليبرز محاسنها وفضائلها، ويتشوق إليها ويحنُّ إلى رؤياها إن كان يعيش خارجها، وقد تغنى ابن خميس التلمساني (٣١) بتلمسان (٣٢) البهية وهو في دار غربته بالأندلس، فتذكر تلك الربوع الجميلة التي قضى فيها طفولته، فتشوق إليها، وتحسر على فراقها، فقال:

سَلِ الرِّيح إنْ لم تسْعدِ السُّفنَ أنْواءُ
فَعند صَبَاها من تلمسانَ أنْبَاءُ
وَفي خَفَقانِ البَرْقِ منْها إشارةٌ
إليْكَ بِمَا تنمي إليك وإيماءُ
وإنِّي لأصْبو للصَّبَا كلَّمَا سرتْ
وللنَّجْم مهْمَا كَانَ للنَّجْمِ إصْبَاءُ
وأُهْدِي إلَيْهَا كلَّ يومٍ تحيَّةً
وفي ردِّ إهداءِ التحيةِ إهْدَاءُ
لَعَلَّ خَيالاً منْ لدُنْهَا يمُرُّ بي
فَفِي مرِّه بي من جوى الشَّوق إبْرَاءُ
وإنِّي لَمُشْتَاقٌ إليْهَا ومنْبِيءٌ
ببعْضِ اشْتياقي لوْ تمكَّنَ إنْبَاءُ (٣٣)

ففي هذه الأبيات تمثل تلمسان المرأة الجميلة الفاتنة المحبوبة التي تمكن حبُّها من الشاعر، فحنَّ إليها وتشوَّق إلى رؤياها، ولو لا ذكر اسم المدينة في مطلع القصيدة لاعتقدنا أنَّ الشاعر يناجي حبيبة لا مدينة.

وابن خميس الشاعر الصوفي التلمساني دائم الحنين إلى مدينته تلمسان يصفها وصفاً جميلاً، وينوّه بمفاتن الطبيعة، مبْدياً حسرته على فراقها، فيقول:

تلمسانُ، جادتْكَ السَّحابُ الروائحُ
وأرْسَتْ بواديكَ الرِّياحُ اللواقحُ
وسَحَّ على ساحاتِ بابِ جيادِها
ملثٌّ يصافي تربَهَا ويُصافحُ (٣٤)
يَطيرُ فُؤادي كلَّمَا لاحَ لامعٌ
وينهل دمْعي كلَّمَا نَاحَ صادحُ
لساقيةِ الرّوميِّ عندي مزيَّةٌ
وإنْ رغِمتْ تلْكَ الرَّواسي الرَّواشحُ
فَكَمْ لي عليْهَا مِن غُدوٍّ وروْحةٍ
تساعدني فيها المنى والمنائحُ (٣٥)
فطرفٌ على تلْكَ البساتينِ سارحٌ
وطرفٌ إلى تلْكَ الميادينِ جامحُ
ظِباءُ مغانيها عواطٍ عواطفُ
وطيرُ مجانيها شَوادٍ صوادحُ
على قَرْيةِ العُبَّادِ منِّي تحيةٌ
كما فاح منْ مسْكِ اللَّطيمَةِ فائحُ (٣٦)

ولعلَّ في هذا الوصف للطبيعة الحية والطبيعة الصامتة دليلاً على ما تحتوي تلمسان من أماكن جميلة تلْهب قرائح الشعراء وتجعلهم يتغنون بجمال هذه الطبيعة الساحرة في عفويّةٍ وصدقٍ، كما فعل ابن خميس الذي انتقل بعد هذا الوصف الشيق إلى وصف شلال الوريط (٣٧) الشهير بغدرانه التي ينصبُّ بعضها في بعض وبحدائقه الزاهية بعناصرها المختلفة، مياهاً وخضرة، ومناخاً، وما إلى ذلك من الروافد التي يستعذبها الشاعر، يقول:

نسيت وما أنسى الوَرِيطَ ووقْفةً

ونَوِّرَ قَلْبـاً منْكَ بِالْعلمِ والتُّـقَى
وأعْطاكَ مـا تَهْوى من النَّصرِ والحبِّ (٣٠)

ويبدو من خلال النُّصوص التي أبدعها شعراء المغرب العربي القدامى في هذا المجال، أنَّ المدينة كانت كياناً داخِل الشاعر، ولا سيما مَسْقَطُ رأسه، فهو يمدحها، ويمعن في تصويرها ليبرز محاسنها وفضائلها، ويتشوق إليها ويحنُّ إلى رؤياها إن كان يعيش خارجها، وقد تغنى ابن خميس التلمساني (٣١) بتلمسان (٣٢) البهية وهو في دار غربته بالأندلس، فتذكر تلك الربوع الجميلة التي قضى فيها طفولته، فتشوق إليها، وتحسر على فراقها، فقال:

سَلِ الرِّيح إنْ لم تسْعدِ السُّفن أنْواءُ
فـعند صَبـاها من تلمسـان أنْبـاءُ
وفي خَـفـقـانِ البَـرقِ منْـها إشارةٌ
إلَيْك بمـا تنمي إلَيك وإيماءُ
وإنّي لأصْبو للصَّبا كلّما سرت
وللنَّجْم مـهْـمـا كـان للنَّجْمِ إصْبـاءُ
وأُهْدِي إلَيْـهـا كلَّ يومٍ تَحِـيَّـةً
وفي رد إهداءِ التَـحِـيـةِ إهْداءُ
لَعَلَّ خـيـالاً منْ لدُنْهَـا يمـرُّ بي
فـفي مرِّه بي من جوى الشّوق إبْراءُ
وإنِّي لَمُشـتـاقٌ إلَيْـهـا ومنْبِـئٌ
ببعْضِ اشْتِياقي لوْ تمكَّن إنْبـاءُ (٣٣)

ففي هذه الأبيات تمثل تلمسان المرأة الجميلة الفاتنة المحبوبة التي تمكن حبُّها من الشاعِر، فحنَّ إليها وتشوَّق إلى رؤياها، ولو لا ذكر اسم المدينة في مطلع القصيدة لاعتقدنا أنَّ الشاعر يناجي حبيبة لا مدينة.

وابن خميس الشاعر الصوفي التلمساني دائم الحنين إلى مدينته تلمسان يصفها وصفاً جميلاً، وينوّه بمفاتن الطبيعة، مبْدياً حسرته على فراقها، فيقول:

تلمسـانُ، جـادتْكَ السّحابُ الروائحُ
وأرْسَتْ بـواديـك الـرِّيـاحُ اللـواقحُ
وسحّ على سـاحـاتِ باب جِـيـادِها
ملثٌّ يصـافـي تربَـهـا ويُصـافحُ (٣٤)
يَطِـيـرُ فُـؤادي كلّمـا لاحَ لامعٌ
وينهل دمْـعي كلّمـا ناح صـادحُ
لسـاقـيـةِ الرّومِيِّ عندي مـزِيّةٌ
وإنْ رغِـمـتْ تلْك الرّواسي الرّواشحُ
فَكَمْ لي علَيْـهـا مِنْ غـدوٍّ وروْحـةٍ
تُساعدني فِـيـها المنى والمنائحُ (٣٥)
فطرفٌ على تِلْك البـسـاتينِ سارِحٌ
وطرفٌ إلى تِلْك المـيـادِينِ جـامِحُ
ظِبـاءُ مـغـانيـهـا عـواطٍ عـواطفُ
وطيرُ مـجـانيـهـا شوادٍ صوادِحُ
على قـرْيةِ العـبَّـاد منّي تحـيـةٌ
كما فاح منْ مسْك اللّطيمةِ فائحُ (٣٦)

ولعلَّ في هذا الوصف للطبيعة الحية والطبيعة الصامتة دليلاً على ما تحتوي تلمسان من أماكن جميلة تلْهب قرائح الشعراء وتجعلهم يتغنون بجمال هذه الطبيعة الساحرة في عفويّةٍ وصدقٍ، كما فعل ابن خميس الذي انتقل بعد هذا الوصف الشيق إلى وصف شلال الوريط (٣٧) الشهير بغدرانه التي ينصبُّ بعضها في بعض وبحدائقه الزاهية بعناصرها المختلفة، مياهاً وخضرة، ومناخاً، وما إلى ذلك من الروافد التي يستعذبها الشاعر، يقول:

نسِـيت ومـا أنسى الوَرِيطَ ووقْـفَـةً

أنَافحُ فيهَا روْضَهُ وأفَاوِحُ
مُطلاً علَى ذاكَ الغَدير وقَدْ بدتْ
لإنْسانِ عيْنِي من صفَاه صفَائحُ
أمَاؤكَ أمْ دمْعِي عشيَةَ صدّقتْ
عليّةَ فينا مَا يقُولُ المكاشحُ؟
لئِنْ كُنْتَ ملاناً بدمْعِي طافِحاً
فَإنّي سكْرانُ بحُبّكَ طافحُ
وإنْ كانَ مهْرِي فِي تلاعكَ سَائحاً
فذاكَ غزالِي فِي عبَابكَ سابحُ
قُراحٌ أتَى ينْصبُّ منْ رأسِ شاهقٍ
بمثْلِ حلاه تسْتحِثُ القَرائحُ
أرقَّ منَ الشّوقِ الذِي أنَا كاتمٌ
وأصْفى منَ الدّمْعِ الذي أنَا سافِحُ [٣٨]

أمّا في عصر أبي حمو الثاني فقد اشتهر من الشعراء، في تلمسان، أبوعبدالله بن يوسف القيسي الثغري [٣٩] وأبو عبد الله بن جمعة التلاليسى [٤٠] وأبو زكريا يحيي بن خلدون [٤١]، وكلُّهم نوهوا بمدينة تلمسان، معْجبين بمفاتن الطبيعة فيها على غرار ابن خميس.

فهذا الشاعر أبوعبدالله القيسي يعرب عن افتتانه بمدينة تلمسان، فيقول:

تاهتْ تلمسانٌ بحسْنِ شبابِها
وبدا طرازُ الحسْنِ في جلبابِها
قَدْ قابلتْ زهْرَ النُّجومِ بزهْرِها
وبروجها ببروجِها وقبابِها [٤٢]

وكان القيسي الثغري من شعراء الأمير أبي حمّو الثاني، وقد تغنّى بجمال تلمسان في قصائده، التي مدح بها أميره أباحمّو، يقول في إحداها:

سلْطانُها المولى أبو حمُّو الرّضيُّ
ذو المنْصبِ السّامي الرّفيعِ المعْتلي
تاهتْ تلمسانُ بدوْلتِه علَى
كلِّ البلادِ بحسْنِ منْظرِها الجلي
راقتْ محاسنِها ورقَّ نسيمها
فحلا بها شعْري وطابَ تغزُّلي
عرِّجْ بمنعرجاتِ بابِ جيادِها
وافتحْ به بابَ الرجاءِ المقْفلِ [٤٣].

لقد جمعت تلمسان بين سحر الطبيعة والتاريخ والمعمار، فكانت بمثابة المصباح الذي تتحلّق حوله فراشات الشعر والإبداع. ولكنّنا نجد أنفسنا مرغمين على توديع تلمسان وشعرائها لأنّ لنا شأناً مع مدائن أخرى وشعراء آخرين كان لهم مثل أصحابهم ولوع بمدنهم.

ومن هؤلاء الشعراء مالك بن المرحل [٤٤] الذي تغنى بجمال مدينة سبتة فقال:

اخْطرْ إلى سبْتة وانظرْ إلى
جمالها تصْبُ إلى حسْنه
كأنّها عودُ غناءٍ وقدْ
ألْقي في البحْرِ على بطْنه [٤٥]

أما أبوعلي الحسين بن الفكون القسنطيني [٤٦] فيناجي مدينة الناصرية [٤٧] (بجاية)، ويعلي مكانتها فوق بغداد والشام مستعْذباً فتنة الطبيعة فيها، ومضفياً عليها صبغة الفردوس، لما يجمع بينهما من عناصر التشابه، فيقول:

دعِ العراقَ وبغْدادَ وشامَهما
فالنّاصريّةُ ما إنْ مثْلُها بلَدُ
برٌّ وبحْرٌ وموْجٌ للْعيونِ به
مسارحٌ بانَ عنْها الهمُّ والنّكدُ
حيثُ الهوى والهواءُ الطّلْقُ مجتمعٌ
حيْثُ الغنى والمنى والعيشةُ الرّغدُ
والنّهْرُ كالصّلّ والجنّاتُ مشْرفةٌ
والنّهْرُ والبحْرُ كالمرآةِ وهْو يدُ

أنافحُ فيها روضَه وأفاوحُ
مُطلاً على ذاك الغديرِ وقدْ بدتْ
لإنسانِ عيْني من صفاه صفائحُ
أماؤكَ أمْ دمعي عشيةَ صدَّقتْ
عليَّةَ فينا ما يقولُ المكاشحُ؟
لئنْ كُنْتَ ملاناً بدمعي طافحاً
فإنّي سكرانُ بحبّكَ طافحُ
وإنْ كانَ مهري في تلاعك سائحاً
فذاك غزالي في عبابك سابحُ
قُراحٌ أتى ينْصبُّ من رأسِ شاهقٍ
بمثْل حلاه تستحثُ القرائحُ
أرقَّ منَ الشَّوقِ الذي أنا كاتمٌ
وأصفى من الدَّمْع الذي أنا سافحُ (٣٨)

أمَّا في عصر أبي حمو الثاني فقد اشتهر من الشعراء، في تلمسان، أبوعبدالله بن يوسف القيسي الثغري (٣٩) وأبو عبد الله بن جمعة التلاليسى (٤٠) وأبو زكريا يحيي بن خلدون (٤١)، وكلُهم نوهوا بمدينة تلمسان، معْجبين بمفاتن الطبيعة فيها على غرار ابن خميس.

فهذا الشاعر أبوعبدالله القيسي يعرب عن افتتانه بمدينة تلمسان، فيقول:

تاهتْ تلمسانُ بحسنِ شبابها
وبدا طرازُ الحسْنِ في جلبابها
قدْ قابلتْ زهْرَ النُّجومِ بزهْرها
وبروجها ببروجها وقبابها (٤٢)

وكان القيسي الثغري من شعراء الأمير أبي حمّو الثاني، وقد تغنّى بجمال تلمسان في قصائده، التي مدح بها أميره أباحمّو، يقول في إحداها:

سلْطانها المولى أبو حمّو الرّضيُّ
ذو المنْصبِ السّامي الرّفيع المعْتلي
تاهتْ تلمسانُ بدوْلته على
كلِّ البلادِ بحسْنِ منْظرها الجلي
راقتْ محاسنها ورقَّ نسيمها
فحلا بها شعري وطابَ تغزُّلي
عرِّجْ بمنعرجاتِ بابِ جيادها
وافتحْ به بابَ الرجاءِ المقْفل (٤٣).

لقد جمعت تلمسان بين سحر الطبيعة والتاريخ والمعمار، فكانت بمثابة المصباح الذي تتحلّق حوله فراشات الشعر والإبداع. ولكنّنا نجد أنفسنا مرغمين على توديع تلمسان وشعرائها لأنّ لنا شأناً مع مدائن أخرى وشعراء آخرين كان لهم مثل أصحابهم ولوع بمدنهم.

ومن هؤلاء الشعراء مالك بن المرحل (٤٤) الذي تغنى بجمال مدينة سبتة فقال:

اخْطرْ إلى سبْتة وانظرْ إلى
جمالها تصبْ إلى حسْنه
كأنها عودُ غناءٍ وقدْ
ألْقي في البحْرِ على بطْنه (٤٥)

أما أبوعلي الحسين بن الفكون القسنطيني (٤٦) فيناجي مدينة الناصرية (٤٧) (بجاية)، ويعلي مكانتها فوق بغداد والشام مستعذباً فتنة الطبيعة فيها، ومضفياً عليها صبغة الفردوس، لما يجمع بينهما من عناصر التشابه، فيقول:

دعِ العراقَ وبغْدادَ وشامهما
فالناصريّةُ ما إنْ مثْلها بلدُ
برٌّ وبحْرٌ وموْجٌ للعيونِ به
مسارحٌ بانَ عنْها الهمُّ والنكدُ
حيثُ الهوى والهواءُ الطلْقُ مجتمعٌ
حيثُ الغنى والمنى والعيشةُ الرغْدُ
والنهْرُ كالصلّ والجنّاتُ مشْرفةٌ
والنهْرُ والبحْرُ كالمرآةِ وهْو يدُ

فَحَيْثُمَا نَظَرْتَ راقَتْ وكلُّ نوا
حي الدَّار للْفِكْرِ للأَبْصارِ تَتَّقِدُ
يا طالباً وصْفاً إنْ كُنْتَ ذَا نصف
قلْ جنَّة الخلْد فيها الأهْلُ والْوَلَدُ (٤٨)

ولشاعرنا (الحسين بن الفكون) قصيدة مشهورة نظمها في رحلته من قسنطينة إلى مراكش ضمنها وصف المدائن التي رآها في طريقه، وهي: ميلة، وبجاية، والجزائر.

ومليانة، وتنس، ومازونة، ووهران، وتلمسان، ووجدة، والرباط، وفاس، ومكناس، وسلا، ومراكش. وهي قصيدة طولية نجتزىء منها قوله:

فلمَّا جئتُ «ميلَةَ» خَيْرَ دارِ
أمالتْني بكلِّ رشا أبِي (٤٩)
وفي أرضِ الجزائرِ هامَ قلبي
بمعسولِ المراشفِ كوثري (٥٠)
وأطْلَعَ قُطْرُ «فاسٍ» لي شُموساً
مغاربهنَّ في قلْبِ الشَّجيِّ
وفي «مَرَّاكُشٍ» يا ويحَ قلْبي
أتى الوادي فطمَّ على القريِّ (٥١)
بدورٌ بلْ شموسٌ بلْ صباحٌ
بهيٌّ في بهيٍّ في بهيٍّ (٥٢)

وشعره، في مجمله، جميل الصياغة، عذب الألفاظ سلس الأسلوب، حسن الديباجة.

ويبدو من خلال النصوص التي بين أيدينا أنّ شعر المدينة في الأدب المغربي القديم «يعكس بين الحين والحين ما كان يخامر بعض الشعراء من مفاضلة بين مدينة وأخرى، وإن كانت مفاضلة ترتبط في الغالب بعنصرا لانتماء للمدينة المفضّلة، وكونها موطن أسرة الشاعر وعشيرته»(٥٣). كما هو الحال عند الشاعر الجزائري آبن الفكون القسنطيني السالف الذكر الذي فضل مدينة الناصرية (بجاية) على مدينة بغداد. كما نقرأ من شعر أبي الربيع سليمان الموحدي (٥٤)، وهو يفضّل مدينة مرّاكش على غيرها من سائر المدن ويخاطب داراً له قائلاً:

رعاك اللّه يا دار الكرام
وجادك بالحيا صوبُ الغمامِ
ومتَّعَ فيك أعْواماً طِوالاً
على نعمٍ وخيرٍ مستدامِ
أرى مرّاكشَ الحسناء تزْهى
وحقَّ لها على دارِ السّلامِ
كأنَّ الأرْض شخْصٌ وهي وجهٌ
وأنتِ بوجْهها وضحُ ابتسامِ (٥٥)

وعلى غراره ينوه الشاعر أبوعبدالله المغيسي بمفاتن الطبيعة في مدينة فاس، متشوقاً إليها ومفضّلاً إياها على مدينة حمص، ومبْدياً حسرته على فراقها حين ولّي القضاء بمدينة «أزمور»، فقال:

يا فاسُ حيَّا اللّهُ أرضَك منْ ثرى
وسقاك من صوْبِ الغمامِ المسْبلِ
يا جنَّةَ الدُّنيا التي أرْبتْ على
حمصٍ لمنْظرها البهيِّ الأجْملِ
غرفٌ على غرفٍ ويجْري تحْتها
ماءٌ ألذُّ من الرَّحيقِ السّلسلِ
وحدائقٌ منْ سنْدسٍ قدْ زخْرفتْ
بجداولٍ كالأيْمِ أوْ كالفيْصلِ (٥٧)

لقد عرف شعراء المغرب العربي المدينة، وألفوها وعاشوا حياتها خيراً أو شراً، فكتبوا فيها وعنها مدحا أو هجاء، إلاّ أنّ هجاءهم نادر جداً،

فَحَيْثُمَا نَظَرْتَ راقتْ وكلُّ نوا
حي الدَّار للْفِكْرِ للأبْصارِ تتّقدُ
يا طالباً وصْفاً إنْ كُنْتَ ذاً نصف
قلْ جنَّة الخلْد فيها الأهلُ والْولَدُ (٤٨)

ولشاعرنا (الحسين بن الفكون) قصيدة مشهورة نظمها في رحلته من قسنطينة إلى مراكش ضمنها وصف المدائن التي رآها في طريقه، وهي: ميلة، وبجاية، والجزائر.

ومليانة، وتنس، ومازونة، ووهران، وتلمسان، ووجدة، والرباط، وفاس، ومكناس، وسلا، ومراكش. وهي قصيدة طولية نجتزىء منها قوله:

فلمّا جئتُ «ميلةَ» خَيْرَ دارٍ
أُمالتْني بكلِّ رشاً أبِي (٤٩)
وفي أرضِ الجزائرِ هامَ قلبي
بمعسولِ المراشفِ كوثري. (٥٠)
وأَطْلَعَ قُطرُ «فاسٍ» لي شُموساً
مغاربهنَّ في قَلْبِ الشَّجيِّ
وفي «مرَّاكشٍ» يا ويحَ قلْبي
أتى الواديَ فطمَّ على القَريِّ (٥١)
بدُورٌ بلْ شُموس بلْ صباحٌ
بهيٌّ في بهيٍّ في بهيٍّ (٥٢)

وشعره، في مجمله، جميل الصياغة، عذب الألفاظ سلس الأسلوب، حسن الديباجة.

ويبدو من خلال النصوص التي بين أيدينا أنَّ شعر المدينة في الأدب المغربي القديم «يعكس بين الحين والحين ما كان يخامر بعض الشعراء من مفاضلة بين مدينة وأخرى، وإن كانت مفاضلة ترتبط في الغالب بعنصرا لانتماء للمدينة المفضّلة، وكونها موطن أسرة الشاعر وعشيرته»(٥٣). كما هو الحال عند الشاعر الجزائري آبن الفكون القسنطيني السالف الذكر الذي فضل مدينة الناصرية (بجاية) على مدينة بغداد. كما نقرأ من شعر أبي الربيع سليمان الموحدي (٥٤)، وهو يفضّل مدينة مرّاكش على غيرها من سائر المدن ويخاطب داراً له قائلاً:

رعاكَ اللّه يا دار الكرام
وجادك بالْحيا صوْبُ الغَمامِ
ومَتَّعَ فيك أعْواماً طِوالاً
على نعمٍ وخيرٍ مستدامِ
أرى مرّاكشِ الحسْناء تزْهى
وحقٍّ لها على دارِ السّلامِ
كأنَّ الأرْض شخْص وهْي وجْه
وأنْت بوجْهها وضحُ ابتسامِ (٥٥)

وعلى غراره ينوه الشاعر أبوعبدالله المغيسي بمفاتن الطبيعة في مدينة فاس، متشوقاً إليها ومفضلاً إياها على مدينة حمص، ومبدياً حسرته على فراقها حين ولّي القضاء بمدينة «أزمور»، فقال:

يا فاسُ حَيّا اللّهُ أرْضكِ منْ ثرَى
وسقاك من صَوْبِ الْغمامِ الْمُسْبلِ
يا جنَّةَ الدُّنيا الّتي أرْبتْ على
حمْصٍ لمنْظرِها البهيِّ الأجْملِ
غُرُفٌ على غُرفٍ ويجْري تحْتها
ماءٌ ألذُّ من الرَّحيقِ السَّلسلِ
وحدائقٌ منْ سنْدسٍ قدْ زخْرفتْ
بجداولٍ كالأيْمِ أوْ كالفيْصلِ (٥٧)

لقد عرف شعراء المغرب العربي المدينة، وألفوها وعاشوا حياتها خيراً أو شراً، فكتبوا فيها وعنها مدحا أو هجاء، إلاَّ أنَّ هجاءهُمْ نادر جداً،

وغالباً ما يكون لجو مدينة ما، أو لحال طبيعتها ومناخها إنْ كان خبيثاً، من ذلك هذه الأبيات التي قالها بكر بن حماد (٥٨) في وصف جو تيهرت (٥٩) شتاء:

مـا أخْشَنَ البَرْدَ وريعانَهُ
وأطْرَفَ الشّمْسَ بتاهرت (٦٠)
تَبْدو مِن الغَيْمِ إذا ما بدتْ
كأنّها تنْشَر مِنْ تختِ (٦١)
نحْنُ في بَحْرٍ بلا لُجّةٍ
تجْري بنا الرّيح على السَّمْتِ (٦٢)
نَفْرَحُ بالشَّمْسِ إذا ما بدتْ
كفرْحَة الذّمي بالسّبْتِ (٦٣)

ويحذو الشاعر عبدالرحمن بن الخطيب الشفشاوني (٦٤) حذوه، فيهجو مدينة مراكش، ويعرض بما يشوب طقسها من عجاج بين الحين والحين، وهو يخاطب جماعة من أصدقائه بها، فيقول:

ما كان ظنّي وحقَّ اللّه فُرقَتَكُمْ
لوْ أنَّ مرّاكشاً كانت تُواتيني
أظلُّ في نَصَبٍ ممّا أكابدُ مِنْ
نفْضِ الغُبارِ ومِنْ طرْدِ الذّبابينِ
وطُولُ ليْلي في كدٍّ وفي تعبٍ
ما بيْن بقٍّ وناموسٍ يناغيني

إلى أنْ يقول:

مُنّوا عليّ بإطْلاقي بفَضْلكُمْ
هذا العجاجُ بها قدْ كاد يُعْميني
لمْ يبْقَ في الكيسِ فلْس أستعينُ به
أفْنيتُ مالي في غسْلٍ وتصْبينِ (٦٥)

وقد يمزج الشاعر في مقطعة واحدة بين المدح والهجاء، أو بين الإعجاب والتذمر، فيفاضل بين مدينتين فيمدح إحداهما ويهجو الأخرى، وغالباً ما تكون المدينة المفضلة مسقط رأسه أو موطن أسرته وعشيرته، أمّا الوجه المشين في المدينة المهجوة، فكثيراً ما يكون بسبب الطقس والمناخ، أو بسبب علّةٍ أصابت الشاعر فيها، أو غير ذلك. ويتضح ذلك من خلال قصيدة أبدعها الشاعر سعيد بن واشكل التيهرتي (٦٦) في علّته التي مات منها بتنس، وفيها يحنُّ إلى مدينة تيهرت ويهجو مدينة تنس دار النحوس كما يقول:

نأى النّوم عنّي واضمحلّتْ عُرى الصّبرِ
وأصبحْتُ عنْ دارِ الأحبّةِ في أسْرْ
وأصْبحْتُ عنْ تيهرتَ في دارِ معْزلٍ
وأسْلمني مدُّ القضاءِ منْ القدرْ
إلى تنس دارِ النّحوسِ فإنّها
يُساقُ إليْها كلُّ منْتقصِ العُمُرْ
بلادٌ بها البرْغوثُ يحْمل راجلاً
ويأْوي إليْها الذّيب في زمنِ الحشْرْ (٦٧)

ولم يقف شعر المدينة في الأدب المغربي القديم عند هذا الحدّ، وإنّما تناول جوانب أخرى- لا يتسع المجال هنا لذكرها جميعاً- كالجانب العمراني والحضاري وما إلى ذلك (٦٨)، كما تناول بكاء المدن عند حدوث الفتن والحروب (٦٩).

هذه، إذن، جملةٌ من النّصوص والنماذج- غير المستقصاة- في موقف شعراء المغرب العربي القدامى من المدينة، جمعناها من مصادر مختلفة. وإذا تأملنا هذه النماذج وجدناها تدل على القيم والمواقف والخصائص الآتية:

١- القيمة التاريخية التي تجعل من هذا الشعر

وغالباً ما يكون لجو مدينة ما، أو لحال طبيعتها ومناخها إنْ كان خبيثاً، من ذلك هذه الأبيات التي قالها بكر بن حماد [٥٨] في وصف جو تيهرت [٥٩] شتاء:

ما أخْشَنَ البَرْدَ ورَيعانَهُ
وأطْرَفَ الشَّمْسَ بتاهرت [٦٠]
تَبْدو مِن الغَيْمِ إذا ما بَدتْ
كأنَّها تَنْشُرُ مِنْ تَخْتِ [٦١]
نَحْنُ في بَحْرٍ بلا لُجَّةٍ
تجْري بنا الرِّيح علَى السَّمْتِ [٦٢]
نَفْرَحُ بالشَّمْسِ إذا ما بَدتْ
كفَرْحَةِ الذِّمي بالسَّبْتِ [٦٣]

ويحذو الشاعر عبدالرحمن بن الخطيب الشفشاوني [٦٤] حذوه، فيهجو مدينة مراكش، ويعرض بما يشوب طقسها من عجاج بين الحين والحين، وهو يخاطب جماعة من أصدقائه بها، فيقول:

ما كانَ ظَنِّي وحَقَّ اللّه فُرقَتَكُمْ
لَوْ أنَّ مرّاكَشاً كانت تُواتيني
أظَلُّ في نَصبٍ مِمَّا أكابدُ مِنْ
نَفْضِ الغُبارِ ومِنْ طَردِ الذَّبابينِ
وطُولُ لَيْلي في كَدٍّ وفي تَعبِ
ما بيْنَ بقٍّ وناموسٍ يناغيني

إلى أنْ يقول:

مُنُّوا عليَّ بإطْلاقي بفَضْلكُمْ
هذا العَجاجُ بها قَدْ كاد يُعْميني
لمْ يَبْقَ في الكيسِ فَلْسٌ أسْتَعينُ به
أفْنيتُ مالي في غسْلٍ وتَصْبينِ [٦٥]

وقد يمزج الشاعر في مقطعة واحدة بين المدح والهجاء، أو بين الإعجاب والتذمر، فيفاضل بين مدينتين فيمدح إحداهما ويهجو الأخرى، وغالباً ما تكون المدينة المفضلة مسقط رأسه أو موطن أسرته وعشيرته، أمَّا الوجه المشين في المدينة المهجوة، فكثيراً ما يكون بسبب الطقس والمناخ، أو بسبب علّةٍ أصابت الشاعر فيها، أو غير ذلك. ويتّضح ذلك من خلال قصيدة أبدعها الشاعر سعيد بن واشكل التيهرتي [٦٦] في علّته التي مات منها بتنس، وفيها يحنُّ إلى مدينة تيهرت ويهجو مدينة تنس دار النحوس كما يقول:

نأى النَّومُ عنِّي واضمَحلَّتْ عُرى الصَّبرِ
وأصبحْتُ عنْ دارِ الأحبَّةِ في أسْرْ
وأصْبَحْتُ عنْ تيهرتَ في دارِ مَعْزلٍ
وأسْلَمني مَدُّ القَضاءِ مِنَ القَدرْ
إلى تنس دارِ النُّحوسِ فإنَّها
يُساقُ إليْها كلُّ منْتقِصِ العُمُرْ
بلادٌ بها البرغوثُ يحْملُ راجِلاً
ويأوي إليْها الذِّيب في زمنِ الحَشْرْ [٦٧]

ولم يقف شعر المدينة في الأدب المغربي القديم عند هذا الحدّ، وإنَّما تناول جوانب أخرى- لا يتسع المجال هنا لذكرها جميعاً- كالجانب العمراني والحضاري وما إلى ذلك [٦٨]، كما تناول بكاء المدن عند حدوث الفتن والحروب [٦٩].

هذه، إذن، جملةٌ من النّصوص والنماذج- غير المستقصاة- في موقف شعراء المغرب العربي القدامى من المدينة، جمعناها من مصادر مختلفة. وإذا تأملنا هذه النماذج وجدناها تدل على القيم والمواقف والخصائص الآتية:

١- القيمة التاريخية التي تجعل من هذا الشعر

وثيقة هامة تعكس واقع المغرب العربي على مستويات شتّى في مختلف المراحل، من ذلك ما نجده في «الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة» لأحمد البوني، من حقائق تاريخية هامة، ولذلك يمكن أن يستفيد المُؤرّخ من الشعر، ولكن بعد التمحيص والتدقيق.

٢- ما وصلنا من شعر في هذا الباب، قصائد ومقطّعات، ولم يختص أيُّ شاعر بهذا اللّون من الشعر...

٣- بالنسبة إلى طول النّفَس وقصره، لقد طالت بعض قصائد الشعراء كقصيدة ابن الفكون القسنطيني في رحلته إلى مراكش، ولامية ابن خميس في الشوق والحنين إلى تلمسان، أمّا بقية الأشعار التي وصلت إلينا، فأغلبها مقطعات وأبيات.

٤- إنّ المدينة كانت كياناً داخل الشاعر، فهو يمدحها ويتشوق إليها، ويحنُّ إلى رؤياها إن كان يعيش خارجها.

٥- وقد برعوا في وصف الطبيعة، فإذا هي ظل لروح الشاعر، فمزجوا حبّهم للمدينة بحبّهم للطبيعة.

٦- كما تُمثّل المدينة المرأة الجميلة الفاتنة المحبوبة التي تمكّن حبُّها من الشاعر فحنّ إليها وتشوق إلى رؤياها، مثلما هو الحال عند ابن خميس التلمساني في بعض أشعاره.

٧- وقد يفاضل الشاعر المغربي القديم بين مدينتين، فيمدح إحداهما، ويهجو الأخرى، لأسباب ذكرناها.

٨- وتميّز شعر المدينة بصدق العاطفة، وحرارة الشعور، لأنه يصدر في الغالب، إمّا عن عاطفة مكلومة كتلك التي يصدر عنها شعر بكاء المدن عند حدوث الفتن والحروب، أو عن عاطفة تتشوق إلى مواطن أهلها ومسقط رأسها.■

هوامش ومراجع :

١- يرى الدكتور عباس الجراري أن فترة الحداثة بالنسبة للمغرب العربي تاريخاً وأدباً تبدأ منذ احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠. (أنظر مقاله: الجزائر في الأدب المغربي، في مجلة الأصالة الجزائرية، العدد: ١١، سنة ١٩٧٢م، ص: ٩٥). ويرى الرأي نفسه الدكتور حسين مؤنس في كتابه: تاريخ المغرب العربي وحضارته، من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، مج١، ص:٩، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٢م.

٢- قسم الأستاذ رابح بونار عصور الأدب المغربي إلى خمسة عصور، هي:
أ- عصر النشوء الثقافي، ويبتدىء من الفتح الإسلامي، وينتهي بقيام الدولة الأغلبية (٥٠-١٨٤هـ)
ب- عصر النهضة الثقافية، ويبتدىء بقيام الدولة الأغلبية، وينتهي بسقوطها أواخر القرن الثالث الهجري (١٨٤-٢٩٦هـ).
جـ- عصر الازدهار الثقافي، ويبدأ بقيام الدولة الفاطمية، وينتهي بسقوط دولة بني زيري (٢٩٦-٥٤٧هـ).
د- عصر النضج الثقافي، ويبدأ بقيام دولة الموحدين، وينتهي بسقوط دولة بني زيان بالجزائر (٥٤٧-٩٥٨هـ).
هـ- عصر الانحطاط الثقافي، ويبتدىء بقيام دولة الأتراك بالجزائر وتونس، وينتهي بالانبعاث الثقافي في مطلع القرن العشرين (٩١٥-١٣٢٠هـ). (أنظر كتابه: المغرب العربي، تاريخه وثقافته، ص: ٨-٩، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١م). وانظر أيضاً تقسيم الدكتور حسين مؤنس في كتابه: تاريخ المغرب وحضارته، مج١، ص: ١٢ وما بعدها. وتقسيم محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي في كتابهما: الأدب المغربي، ص: ٣٠ وما بعدها...)

٣- أنظر حسين مؤنس: المرجع السابق،مج١، ص:١٧.

٤- الدراسة بعنوان «بكاء القيروان في الشعر المغربي القديم» محاضرة شارك بها الباحث في الملتقى الدولي «بنو هلال- سيرتهم وتاريخهم-» المقام بالمركز الوطني للبحث في عصور ما قبل التاريخ بالجزائر من ٢٠ إلى ٢٣ مايو ١٩٩٠م.

٥- الدكتور عبدالجواد الساقط: نماذج من شعر المدينة في الأدب المغربي، مجلة دعوة الحق المغربية، عدد: ٣٠٧، رجب ١٤١٥هـ، ديسمبر ١٩٩٤م، ص:١١٣.

٦- الدكتور عبدالجواد السقاط: المرجع نفسه، ص: ١١٤.

٧- المرجع نفسه، والصفحة نفسها، وقد استعنا به في التقديم

وثيقة هامة تعكس واقع المغرب العربي على مستويات شتّى في مختلف المراحل، من ذلك ما نجده في «الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة» لأحمد البوني، من حقائق تاريخية هامة، ولذلك يمكن أن يستفيد الْمُؤرّخ من الشعر، ولكن بعد التمحيص والتدقيق.

٢– ما وصلنا من شعر في هذا الباب، قصائد ومقطّعات، ولم يختص أيُّ شاعر بهذا اللّون من الشعر...

٣– بالنسبة إلى طول النّفَس وقصره، لقد طالت بعض قصائد الشعراء كقصيدة ابن الفكون القسنطيني في رحلته إلى مراكش، ولامية ابن خميس في الشوق والحنين إلى تلمسان، أمّا بقية الأشعار التي وصلت إلينا، فأغلبها مقطعات وأبيات.

٤– إنَّ المدينة كانت كياناً داخل الشاعر، فهو يمدحها ويتشوق إليها، ويحنُّ إلى رؤياها إن كان يعيش خارجها.

٥– وقد برعوا في وصف الطبيعة، فإذا هي ظل لروح الشاعر، فمزجوا حبّهم للمدينة بحبِّهم للطبيعة.

٦– كما تُمثّلُ المدينة المرأة الجميلة الفاتنة المحبوبة التي تَمكّنَ حبُّها من الشاعر فحنّ إليها وتشوق إلى رؤياها، مثلما هو الحال عند ابن خميس التلمساني في بعض أشعاره.

٧– وقد يفاضل الشاعر المغربي القديم بين مدينتين، فيمدح إحداهما، ويهجو الأخرى، لأسباب ذكرناها.

٨– وتميّز شعر المدينة بصدق العاطفة، وحرارة الشعور، لأنه يصدر في الغالب، إمّا عن عاطفة مكلومة كتلك التي يصدر عنها شعر بكاء المدن عند حدوث الفتن والحروب، أو عن عاطفة تتشوق إلى مواطن أهلها ومسقط رأسها.■

هوامش ومراجع :

١– يرى الدكتور عباس الجراري أن فترة الحداثة بالنسبة للمغرب العربي تاريخاً وأدباً تبدأ منذ احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠. (أنظر مقاله: الجزائر في الأدب المغربي، في مجلة الأصالة الجزائرية، العدد: ١١، سنة ١٩٧٢م، ص: ٩٥). ويرى الرأي نفسه الدكتور حسين مؤنس في كتابه: تاريخ المغرب العربي وحضارته، من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، مج١، ص:٩، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٢م.

٢– قسم الأستاذ رابح بونار عصور الأدب المغربي إلى خمسة عصور، هي:

أ– عصر النشوء الثقافي، ويبتدىء من الفتح الإسلامي، وينتهي بقيام الدولة الأغلبية (٥٠–١٨٤هـ)

ب– عصر النهضة الثقافية، ويبتدىء بقيام الدولة الأغلبية، وينتهي بسقوطها أواخر القرن الثالث الهجري (١٨٤–٢٩٦هـ).

جـ– عصر الازدهار الثقافي، ويبدأ بقيام الدولة الفاطمية، وينتهي بسقوط دولة بني زيري (٢٩٦–٥٤٧هـ).

د– عصر النضج الثقافي، ويبدأ بقيام دولة الموحدين، وينتهي بسقوط دولة بني زيان بالجزائر (٥٤٧–٩٥٨هـ).

هـ– عصر الانحطاط الثقافي، ويبتدىء بقيام دولة الأتراك بالجزائر وتونس، وينتهي بالانبعاث الثقافي في مطلع القرن العشرين (٩١٥–١٣٢٠هـ). (أنظر كتابه: المغرب العربي، تاريخه وثقافته، ص: ٨–٩، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١م). وانظر أيضاً تقسيم الدكتور حسين مؤنس في كتابه: تاريخ المغرب وحضارته، مج١، ص: ١٢ ووما بعدها. وتقسيم محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي في كتابهما: الأدب المغربي، ص: ٣٠ وما بعدها...)

٣– أنظر حسين مؤنس: المرجع السابق،مج١، ص:١٧.

٤– الدراسة بعنوان «بكاء القيروان في الشعر المغربي القديم» محاضرة شارك بها الباحث في الملتقى الدولي «بنو هلال– سيرتهم وتاريخهم–» المقام بالمركز الوطني للبحث في عصور ما قبل التاريخ بالجزائر من ٢٠ إلى ٢٣ مايو ١٩٩٠م.

٥– الدكتور عبدالجواد الساقط: نماذج من شعر المدينة في الأدب المغربي، مجلة دعوة الحق المغربية، عدد: ٣٠٧، رجب ١٤١٥هـ، ديسمبر ١٩٩٤م، ص:١١٣.

٦– الدكتور عبدالجواد السقاط: المرجع نفسه، ص: ١١٤.

٧– المرجع نفسه، والصفحة نفسها، وقد استعنا به في التقديم

لبعض المقطعات المتعلقة بمدائن المغرب الأقصى.
٨- هو أحمد بن قاسم بن محمد المعروف بابن ساسي البوني، المتوفى «سنة ١١٣٩هـ»، وهو صاحب الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، وله غيرها من التآليف ما ينيف عن المائة ما بين مختصر ومسهب حسب ما ذكره الرحالة عبدالرحمن الجامعي في رحلته «التاج المشرق الجامع ليواقيت المغرب والمشرق» نقلاً عن الأستاذ المهدي البوعبدلي في بحثه الموسوم بـ«لمحات من تاريخ بونة الثقافي والسياسي ودور بعض علمائها عبر التاريخ» «مداخلة منشورة في أعمال ملتقى الفكر الإسلامي بعنّابة، منشورات وزارة الشؤون الدينية، مج١، ص: ٥٣. وانظر أيضاً الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج٢، ص: ٣٧٦ وما بعدها، موفم للنشر، الجزائر ١٩٩١م.
٩- بونة: هي مدينة (عنابة) الحالية، تقع في الشرق الجزائري على الساحل، أسسها الفينيقيون، ثم استولى عليها ملوك البربر، أي: ملوك نوميديا، وكانت تسمى هيبو ثمّ استحال اسمها إلى هيبون. فتحها المسلمون حوالي ٧٨هـ. (أنظر عبدالحق البغدادي: مراصد الاطلاع، ج١، ص:٢٣٢، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٥٤م، الحموي: معجم البلدان، مج١، ص:٥١٢، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٤م، والمهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص: ٤٦، ٤٧).
١٠- نشرت بتمامها في الجزائر سنة ١٣٣١هـ/١٩١٣م. (أنظر البوعبدلي: المرجع السابق، ص:٥٣).
١١- المهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص: ٥٤.
١٢- البوعبدلي: المرجع السابق، ص:٥٤.
١٣- البوعبدلي: المرجع السابق، ص٥٤ وما بعدها.
١٤- بكداش: كلمة تركية معناها الحجر الصلب (أنظر محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية، ص:١١٢، «هامش ٤»).
١٥- البوعبدلي: المرجع السابق، ص:٥٥.
١٦- يريد بـ«القرية» مدينة بونة التي ينسب إليها.
١٧- محمد بن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص: ١٢٩-١٣٠.
١٨- من شعراء الجزائر في القرنين التاسع والعاشر الهجريّين، كان حياً سة ٩١٥هـ.
١٩- أنظر بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبان كبني عامر لعبدالقادر المشرقي، ط. الجزائر، ١٩٢٤م، اقتبسه الأستاذ عبدالرحمن الجيلالي في كتابه: تاريخ الجزائر العام، ج٢، ص:١٩٩، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
٢٠- من شعراء عصر الأتراك بالجزائر، توفي سنة ١١٠١هـ.
٢١- الدّاي بابا حِسن، حكم بين سنتي: ١٠٩٢-١٠٩٤هـ.
٢٢- الأواه: كثير التأوّه- خوفاً من الله- والمراد بالأواه هنا سيدي محمد الهواري دفين وهران، والمتوفى سنة ٨٣٤هـ.
٢٣- طه: مرخم من طاهر، وهو الرسول «صلى الله عليه وسلم».
٢٤- محمد بن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص:٣٠١ وما بعدها وانظر القصيدة كاملة هناك.
٢٥- العصر العلوي بالمغرب الأقصى يبدأ سنة ١٠٥٠هـ. ويستمر إلى يومنا هذا. ويقسم بعض الدارسين عصور الأدب بالمغرب الأقصى إلى ما يأتي:
١- عصر الفتوح وما بعده (٦٢-٤٦٣هـ).
٢- عصر المرابطين (٤٦٣-٥٤٣هـ).
٣- عصر الموحدين (٥٢٤-٦٦٧هـ).
٤- عصر المرينيين (٦٦٨-٨٦٩هـ).
٥- عصر السعديين (٩١٥-١٠٦٩هـ).
٦- عصر العلويين (١٠٥٠هـ-.........).
(أنظر تاريخ الأدب والنصوص لمحمد الطيب وآخرين، ص:٤٩٠).
٢٦- توفي سنة ١١٢١هـ.
٢٧- المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي إسماعيل بن الشريف، لعبدالرحمن بن زيدان العلوي، ص: ٤٩٣ (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ج:٥٩٥).
٢٨- من شعراء عصر الأتراك بالجزائر، ولد في حدود ٩٢٩هـ، وتوفي سنة ١٠١١هـ.
٢٩- دخل المسلمون هذا الحصن ليلة السبت خمسة عشر من رمضان عام سبعة وألف للهجرة (١٠٠٧هـ) (محمد بن ميمون الجزائر: المصدر السابق، ص: ٢٧٩).
٣٠- محمد بن ميمون: المصدر السابق، ص:٢٧٨-٢٧٩، وانظر القصيدة كاملة هناك.
٣١- من شعراء الدولة الزيانية بالجزائر، وُلد بتلمسان سنة ٦٥٠هـ، وتوفي بغرناطة سنة ٧٠٨هـ.
٣٢- تلمسان: بلغة البربر كلمة مركبة من (تلم) ومعناها: تجمع، و(سان) ومعناها: اثنان، أي: الصحراء والتل. وصفها الإدريسي، فقال هي مدينة أزلية ولها سور حصين الوثاق، وهي مدينتان في واحدة، يفصل بينهما سور، وإحدى المدينتين بناها المرابطون، وهي: تاقرارت. (انظر يحيى بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبدالواد، ج١، ص:٨٥، المكتبة الوطنية، الجزائر، ١٩٨٠م. والإدريسي: وصف تلمسان عن نزهة المشتاق، ص: ٥٤. نقلاً عن عنوان الدراية للغبريني (تحقيق رابح بونار). ص: ٦٠).
٣٣- محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ص: ١٨٤، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١م.
٣٤- باب الجياد: أحد أبواب تلمسان وهو باقٍ إلى يوم الناس هذا.
٣٥- لعله يريد هنا الإبل.
٣٦- يحيى بن خلدون: المصدر السابق، ج١، ص: ٨٦-٨٧،

لبعض المقطعات المتعلقة بمدائن المغرب الأقصى.
٨- هو أحمد بن قاسم بن محمد المعروف بابن ساسي البوني، المتوفى «سنة ١١٣٩هـ»، وهو صاحب الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، وله غيرها من التآليف ما ينيف عن المائة ما بين مختصر ومسهب حسب ما ذكره الرحالة عبدالرحمن الجامعي في رحلته «التاج المشرق الجامع ليواقيت المغرب والمشرق» نقلاً عن الأستاذ المهدي ا لبوعبدلي في بحثه الموسوم بـ«لمحات من تاريخ بونة الثقافي والسياسي ودور بعض علمائها عبر التاريخ»، «مداخلة منشورة في أعمال ملتقى الفكر الإسلامي بعنّابة، منشورات وزارة الشؤون الدينية، مج١، ص: ٥٣. وانظر أيضاً الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج٢، ص: ٣٧٦ وما بعدها، موفم للنشر، الجزائر ١٩٩١م.
٩- بونة: هي مدينة (عنابة) الحالية، تقع في الشرق الجزائري على ا لساحل، أسسها الفينيقيون، ثم استولى عليها ملوك البربر، أي: ملوك نوميديا، وكانت تسمى هيبو ثمّ استحال اسمها إلى هيبون. فتحها المسلمون حوالي ٧٨هـ. (أنظر عبدالحق البغدادي: مراصد الاطلاع، ج١، ص:٢٣٢، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٥٤م، الحموي: معجم البلدان، مج١، ص:٥١٢، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٤م، والمهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص: ٤٦، ٤٧).
١٠- نشرت بتمامها في الجزائر سنة ١٣٣١هـ/١٩١٣م. (أنظر البوعبدلي: المرجع السابق، ص:٥٣).
١١- المهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص: ٥٤.
١٢- البوعبدلي: المرجع السابق، ص:٥٤.
١٣- البوعبدلي: المرجع السابق، ص٥٤ وما بعدها.
١٤- بكداش: كلمة تركية معناها الحجر الصلب (أنظر محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية، ص:١١٢، «هامش ٤»).
١٥- البوعبدلي: المرجع السابق، ص:٥٥.
١٦- يريد بـ«القرية» مدينة بونة التي ينسب إليها.
١٧- محمد بن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص: ١٢٩-١٣٠.
١٨- من شعراء الجزائر في القرنين التاسع والعاشر الهجريّين، كان حياً سة ٩١٥هـ.
١٩- أنظر بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبان كبني عامر لعبدالقادر المشرقي، ط. الجزائر، ١٩٢٤م، اقتبسه الأستاذ عبدالرحمن الجيلالي في كتابه: تاريخ الجزائر العام، ج٢، ص:١٩٩، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
٢٠- من شعراء عصر الأتراك بالجزائر، توفي سنة ١١٠١هـ.
٢١- الدّاي بابا حِسن، حكم بين سنتي: ١٠٩٢-١٠٩٤هـ.
٢٢- الأواه: كثير التأوّه- خوفاً من الله- والمراد بالأواه هنا سيدي محمد الهواري دفين وهران، والمتوفى سنة ٨٣٤هـ.
٢٣- طه: مرخم من طاهر، وهو الرسول «صلى الله عليه وسلم».
٢٤- محمد بن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص:٣٠١ وما بعدها وانظر القصيدة كاملة هناك.
٢٥- العصر العلوي بالمغرب الأقصى يبدأ سنة ١٠٥٠هـ. ويستمر إلى يومنا هذا. ويقسم بعض الدارسين عصور الأدب بالمغرب الأقصى إلى ما يأتي:
١- عصر الفتوح وما بعده (٦٢-٤٦٣هـ).
٢- عصر المرابطين (٤٦٣-٥٤٣هـ).
٣- عصر الموحدين (٥٢٤-٦٦٧هـ).
٤- عصر المرينيين (٦٦٨-٨٦٩هـ).
٥- عصر السعديين (٩١٥-١٠٦٩هـ).
٦- عصر العلويين (١٠٥٠هـ-........).
(أنظر تاريخ الأدب والنصوص لمحمد الطيب وآخرين، ص:٤٩٠).
٢٦- توفي سنة ١١٢١هـ.
٢٧- المنزع ا للطيف في التلميح لمفاخر مولاي إسماعيل بن الشريف، لعبدالرحمن بن زيدان العلوي، ص: ٤٩٣ (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ج:٥٩٥).
٢٨- من شعراء عصر الأتراك بالجزائر، ولد في حدود ٩٢٩هـ، وتوفي سنة ١٠١١هـ.
٢٩- دخل المسلمون هذا الحصن ليلة السبت خمسة عشر من رمضان عام سبعة وألف للهجرة (١٠٠٧هـ) (محمد بن ميمون الجزائر: المصدر السابق، ص: ٢٧٩).
٣٠- محمد بن ميمون: المصدر السابق، ص:٢٧٨-٢٧٩، وانظر القصيدة كاملة هناك.
٣١- من شعراء الدولة الزيانية بالجزائر، ولِد بتلمسان سنة ٦٥٠هـ، وتوفي بغرناطة سنة ٧٠٨هـ.
٣٢- تلمسان: بلغة البربر كلمة مركبة من (تلم) ومعناها: تجمع، و(سان) ومعناها: اثنان، أي: الصحراء والتل. وصفها الإدريسي، فقال هي مدينة أزلية ولها سور حصين الوثاق، وهي مدينتان في واحدة، يفصل بينهما سور، وإحدى المدينتين بناها المرابطون، وهي: تاقرارت. (انظر يحيى بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبدالواد، ج١، ص:٨٥، المكتبة الوطنية، الجزائر، ١٩٨٠م. والإدريسي: وصف تلمسان عن نزهة المشتاق، ص: ٥٤. نقلاً عن عنوان الدراية للغبريني (تحقيق رابح بونار). ص: ٦٠).
٣٣- محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ص: ١٨٤، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١م.
٣٤- باب ا لجياد: أحد أبواب تلمسان وهو باقٍ إلى يوم الناس هذا.
٣٥- لعله يريد هنا الإبل.
٣٦- يحيى بن خلدون: المصدر السابق، ج١، ص: ٨٦-٨٧،

ومحمد الطمار: المرجع السابق، ص: ١٨٨-١٨٩ .

٣٧- الوريط: شلال أو شلالات، وهو منتزه أهل تلمسان، والكلمة قديمة لعلها من الدخيل.

٣٨- يحيى بن خلدون: المصدر السابق، ج١، ص: ٨٦-٨٧.

٣٩- من شعراء الدولة الزيانية في الجزائر، عاش في القرن الثامن الهجري.

٤٠- أحدأطباء تلمسان وشعرائها في القرن الثامن الهجري، كان حياً سنة ٧٦٧هـ.

٤١- من شعراء العصر الزياني في الجزائر، كان شاعراً وكاتباً، تولى الكتابة للأمير أبي حمو الثاني بتلمسان، ومن أجله ألف كتابه (بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبدالواد)، قتل في رمضان سنة ٧٨٠هـ.

٤٢- يحيى بن خلدون: المصدر السابق، ج١، ص: ٨٨.

٤٣- المقري: نفح الطيب، ج١، ص: ٣٣٢. وانظر القصيدة كاملة هناك.

٤٤- من شعراء العصر المريني بالمغرب الأقصى، توفي عام ٦٩٩هـ.

٤٥- أحمد القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، القسم الأول، ص: ٣٢٩، دار المنصور للطباعة، الرباط، ٧٣-١٩٧٤م.

٤٦- من شعراء الجزائر في عصر الدولة الموحدية (٥٢٤-٦٦٨هـ) . لم تذكر المصادر التي بين أيدينا تاريخ مولده ولا وفاته، ولعل وفاته كانت في القرن السابع الهجري، لأن الغبريني ذكره مع شعراء المائة السابعة في كتابه: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١.

٤٧- الناصرية: اسم بجاية، وقد نسبت إلى بانيها الناصر بن علناس سنة ٤٦٠هـ، بعد أن كانت قرية صغيرة، قبل ذلك.

٤٨- الغبريني: المصدر السابق، ص: ٢٨٠-٢٨١.

٤٩- رشا: خففت همزته، وهو الغزال.

٥٠- كوثري: منسوب إلى الكوثر، وهو واد في الجنة.

٥١- طمّ الماء: غمر وكثر. الطّم: الماء. والقريُّ: مسيل الماء من الربوة إلى الروضة.

٥٢- العبدري: الرحلة المغربية، ص: ٣٠ وما بعدها، الرباط، ١٩٦٨م، وانظر القصيدة كاملة هناك.

٥٣- الدكتو عبدالجواد السقاط: المرجع السابق، ص: ١١٧.

٥٤- من شعراء الدولة الموحدية، توفي سنة ٦٠٤هـ.

٥٥- ممد بن تاويت: الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصي، ج١، ص: ٢٣٧، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٢م.

٥٦- لم أقف له على ترجمة في المصادر التي بين يدي، ولعله من شعراء عصر الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصي، لأن الشيخ محمد السنوسي، ذكره في كتابه: الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية، ص: ٩٧، دار القلم، بيروت، ١٩٨٦.

٥٧- الشيخ محمد السنوسي: المصدر نفسه، ص:٩٩. وفيه أشعار كثيرة قيلت في السيف الذي بصومعة القرويين بمدينة فاس. وخصص ابن الأحمر كذلك باباً في كتابه «نثير الجمان» لما قيل من الشعر في السيف الذي بصومعة القرويين من مدينة فاس.

٥٨- هو بكر بن حماد (أبوعبدالرحمن). ولد بمدينة تبهرت حوالي سنة ٢٠٠هـ. وتوفى بها عام ٢٩٦هـ وهو شاعر المغرب العربي في عصره.

٥٩- عاصمة الدولة الرستمية بالجزائر. وقد كان تأسيسها بين عامي: ١٤٤-١٤٨هـ.

٦٠- وأطرف الشمس أي: حر شعاعها ضعيفٌ، يقال: تطرفت الشمس، إذ أبدت للغروب.

٦١- التخت: لفظة فارسية، معناها: السرير وهي هنا بمعنى الفراش.

٦٢- اللجة: السفينة، والسمت: الطريق والمعنى: نحن في بحرٍ هادىء ساكن ليس فيه صخب الأمواج المتلاطمة، أي: أنه يشبه الثلج الكثير ا لمتراكم بالبحر حال هدوئه. وأن الريح تدفعنا نحو الثلج وجهته.

٦٣- الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد (جمع وشرح) (محمد بن رمضان شاوش)، ص: ٦١، المطبعة العلوية، مستغانم، الجزائر، ١٩٦٦م. والذمي: هو كل كتابي أعطى الذمة، أي: الأمان في مقابل الجزية التي يدفعها للمسلمين. والمراد هنا اليهودي، لأن الهيود هم الذين يفرحون بيوم السبت.

٦٤- من شعراء العصر السعدي بالمغرب الأقصى توفي سنة ٩٩٣هـ.

٦٥- أحمد القاضي: المصدر السابق، القسم الثاني، ص: ٤١٣.

٦٦- من شعراء عصر الدولة الرستمية بالجزائر، عاش في القرن الثالث الهجري.

٦٧- موسى لقبال وآخرون: الجزائر في التاريخ، العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، ص: ١١٩، الموسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤م.

٦٨- أنظر الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات، ج٧، ص: ١٤ وج٨، ص: ١١٣. وانظر أيضاً الدكتور عبدالجواد السقاط: المرجع السابق، ص: ١٢٢، وما بعدها، والشيخ السنوسي: المصدر السابق، ص: ٩٩ وما بعدها.

٦٩- أنظر بحثنا «بكاء القيروان في الشعر المغربي القديم مداخلة شارك بها الباحث في الملتقى الدولي» (بنو هلال- سيرتهم وتاريخهم) المقام بالمركز الوطنى للبحث في عصور ما قبل التاريخ بالجزائر من ٢٠ إلي ٢٣ مايو ١٩٩٠م. والمنشور في كتابنا: النرجسية في شعر نزار قباني ودراسات أخرى، ص: ٢٩ وما بعدها. مطبعة ابن بوالعيد، الجزائر، ١٩٩٤م.

ومحمد الطمار: المرجع السابق، ص: ١٨٨-١٨٩.
٣٧- الوريط: شلال أو شلالات، وهو منتزه أهل تلمسان، والكلمة قديمة لعلها من الدخيل.
٣٨- يحيى بن خلدون: المصدر السابق، ج١، ص: ٨٦-٨٧.
٣٩- من شعراء الدولة الزيانية في الجزائر، عاش في القرن الثامن الهجري.
٤٠- أحدأطباء تلمسان وشعرائها في القرن الثامن الهجري، كان حياً سنة ٧٦٧هـ.
٤١- من شعراء العصر الزياني في الجزائر، كان شاعراً وكاتباً، تولى الكتابة للأمير أبي حمو الثاني بتلمسان، ومن أجله ألف كتابه (بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبدالواد)، قتل في رمضان سنة ٧٨٠هـ.
٤٢- يحيى بن خلدون: المصدر السابق، ج١، ص: ٨٨.
٤٣- المقرى: نفح الطيب، ج١، ص: ٣٣٢. وانظر القصيدة كاملة هناك.
٤٤- من شعراء العصر المريني بالمغرب الأقصى، توفي عام ٦٩٩هـ.
٤٥- أحمد القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، القسم الأول، ص: ٣٢٩، دار المنصور للطباعة، الرباط، ٧٣-١٩٧٤م.
٤٦- من شعراء الجزائر في عصر الدولة الموحدية (٥٢٤-٦٦٨هـ). لم تذكر المصادر التي بين أيدينا تاريخ مولده ولا وفاته، ولعل وفاته كانت في القرن السابع الهجري، لأن الغبريني ذكره مع شعراء المائة السابعة في كتابه: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١.
٤٧- الناصرية: اسم بجاية، وقد نسبت إلى بانيها الناصر بن علناس سنة ٤٦٠هـ، بعد أنْ كانت قرية صغيرة، قبل ذلك.
٤٨- الغبريني: المصدر السابق، ص: ٢٨٠-٢٨١.
٤٩- رشا: خففت همزته، وهو الغزال.
٥٠- كوثري: منسوب إلى الكوثر، وهو اد في الجنة.
٥١- طمّ الماء: غمر وكثر. الطّم: الماء. والقريُ: مسيل الماء من الربوة إلى الروضة.
٥٢- العبدري: الرحلة المغربية، ص: ٣٠ وما بعدها، الرباط، ١٩٦٨م، وانظر القصيدة كاملة هناك.
٥٣- الدكتو عبدالجواد السقاط: المرجع السابق، ص: ١١٧.
٥٤- من شعراء الدولة الموحدية، توفي سنة ٦٠٤هـ.
٥٥- ممد بن تاويت: الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصي، ج١، ص: ٢٣٧، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٢م.
٥٦- لم أقف له على ترجمة في المصادر التي بين يدي، ولعله من شعراء عصر الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصي، لأن الشيخ محمد السنوسي، ذكره في كتابه: الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية، ص: ٩٧، دار القلم، بيروت، ١٩٨٦.
٥٧- الشيخ محمد السنوسي: المصدر نفسه، ص:٩٩. وفيه أشعار كثيرة قيلت في السيف الذي بصومعة القرويين بمدينة فاس. وخصص ابن الأحمر كذلك باباً في كتابه «نثير الجمان» لما قيل من الشعر في السيف الذي بصومعة القرويين من مدينة فاس.
٥٨- هو بكر بن حماد (أبوعبدالرحمن). ولد بمدينة تبهرت حوالي سنة ٢٠٠هـ. وتوفى بها عام ٢٩٦هـ وهو شاعر المغرب العربي في عصره.
٥٩- عاصمة الدولة الرستمية بالجزائر. وقد كان تأسيسها بين عامي: ١٤٤-١٤٨هـ.
٦٠- وأطرف الشمس أي: حر شعاعها ضعيفٌ، يقال: تطرفتِ الشمس، إذ أبدت للغروب.
٦١- التخت: لفظة فارسية، معناها: السرير وهي هنا بمعنى الفراش.
٦٢- اللجة: السفينة، والسمت: الطريق والمعنى: نحن في بحرٍ هادىء ساكن ليس فيه صخب الأمواج المتلاطمة، أي: أنه يشّبه الثلج الكُثير ا لمتراكم بالبحر حال هدوئه. وأن الريح تدفعنا نحو الثلج وجهته.
٦٣- الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد (جمع وشرح) (محمد بن رمضان شاوش)، ص: ٦١، المطبعة العلوية، مستغانم، الجزائر، ١٩٦٦م. والذمي: هو كل كتابي أعطى الذمة، أي: الأمان في مقابل الجزية التي يدفعها للمسلمين. والمراد هنا اليهودي، لأن الهيود هم الذين يفرحون بيوم السبت.
٦٤- من شعراء العصر السعدي بالمغرب الأقصى توفي سنة ٩٩٣هـ.
٦٥- أحمد القاضي: المصدر السابق، القسم الثاني، ص: ٤١٣.
٦٦- من شعراء عصر الدولة الرستمية بالجزائر، عاش في القرن الثالث الهجري.
٦٧- موسى لقبال وآخرون: الجزائر في التاريخ، العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، ص: ١١٩، الموسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤م.
٦٨- أنظر الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات، ج٧، ص: ١٤ وج٨، ص: ١١٣. وانظر أيضاً الدكتور عبدالجواد السقاط: المرجع السابق، ص: ١٢٢، وما بعدها، والشيخ السنوسي: المصدر السابق، ص: ٩٩ وما بعدها.
٦٩- أنظر بحثنا «بكاء القيروان في الشعر المغربي القديم مداخلة شارك بها الباحث في الملتقى الدولي» (بنو هلال- سيرتهم وتاريخهم) المقام بالمركز الوطنى للبحث في عصور ما قبل التاريخ بالجزائر من ٢٠ إلي ٢٣ مايو ١٩٩٠م. والمنشور في كتابنا: النرجسية في شعر نزار قباني ودراسات أخرى، ص: ٢٩ وما بعدها. مطبعة أبن بوالعيد، الجزائر، ١٩٩٤م.

متابعات

التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ
دراسة في تجليات الموروث

حسب الله يحيى*

تبدو الكتابة عن نجيب محفوظ للوهلة الأولى، كتابة غير مجدية، فليس للباحث من شيء يقوله بعد أن قيل كل شيء عنه وعن أدبه، حتى عدت الكتابة عنه، كتابة مكررة.. وأنّها تقول ما قيل من قبل، وتستعيد أفكاراً و رؤى سبق وأن ذكرت عن هذا الروائي العربي الكبير الفائز بجائزة نوبل للآداب.

وتبدو محاولة د. محمد أحمد القضاة في الكتابة عن نجيب محفوظ ضرب من المغامرة.. بسبب الطروحات النقدية الهائلة التي كتبت ونشرت وترجمت.

إلا أننا عندما ننتهي من قراءة كتاب: «التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ- دراسة في تجليات الموروث» للدكتور محمد أحمد القضاة نتبين:

١- انه أحاط بالكثير مما كتب عن نجيب محفوظ.. إحاطة تبدو إلى حد كبير كاملة بسبب اتساع رقعة اهتمامها وانتباهتها ورصدها ومتابعتها.

٢- إنه تناول جانباً مهما في أدب نجيب محفوظ لم يدرس بدقة وبسعة كما تناوله د. القضاة.. مع أنّه مهم وجلي، ذلك أن الموروث وتجلياته دائم الحضور في معظم أعمال محفوظ.

٣- إنّ الغوص في أعماق أدب محفوظ، غوص في أعماق البيئة العربية والمصرية تحديداً، ودراسة البيئة، عالم فاعل في معرفة سوسيولوجية المجتمع وهو أمر نحتاج أن ندرس ونعمق صلتنا به، كونه جزءاً منا، وتماسه بنا قائم ومستمر.. وهو الذي يشكل توجهاتنا في الماضي والحاضر والمستقبل.

هذه الجوانب الثلاثة التي شُغل بها د. القضاة تجعلنا ندرك جيداً، عمق ومدى الجهود المتميزة التي بذلها حتى يتم له تقديم دراسته المتميزة هذه.

صحيح.. أنه اعتمد إلى حد كبير على مصادر مختلفة وتبنّى هذا الرأي أو ذاك.. مما جعل رأيه النقدي لا يبرز على نحو واضح ومؤثر وفعّال، إلا أنّنا عندما ندرك الدراية والنباهة التي يمتلكها المؤلف في انتقاء هذه الآراء، نتبين دقة الاختيار التي لا تقل في أهميتها عن تقديم الآراء النقدية ذاتها..

ذلك أنه لا يريد أن يعيد ما قيل وينسبه إلى نفسه وفق صياغات جديدة، بل هو أمين على

* باحث عراقي

متابعات

التشكيل الروائى عند نجيب محفوظ
دراسة في تجليات الموروث

حسب الله يحيى*

تبدو الكتابة عن نجيب محفوظ للوهلة الأولى، كتابة غير مجدية، فليس للباحث من شيء يقوله بعد أن قيل كل شيء عنه وعن أدبه، حتى عدت الكتابة عنه، كتابة مكررة.. وأنّها تقول ما قيل من قبل، وتستعيد أفكاراً و رؤى سبق وأن ذكرت عن هذا الروائي العربي الكبير الفائز بجائزة نوبل للآداب.

وتبدو محاولة د. محمد أحمد القضاة في الكتابة عن نجيب محفوظ ضرب من المغامرة.. بسبب الطروحات النقدية الهائلة التي كتبت ونشرت وترجمت.

إلا أننا عندما ننتهي من قراءة كتاب: «التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ- دراسة في تجليات الموروث» للدكتور محمد أحمد القضاة نتبين:

١- انه أحاط بالكثير مما كتب عن نجيب محفوظ.. إحاطة تبدو إلى حد كبير كاملة بسبب اتساع رقعة اهتمامها وانتباهتها ورصدها ومتابعتها.

٢- إنه تناول جانباً مهما في أدب نجيب محفوظ لم يدرس بدقة وبسعة كما تناوله د. القضاة.. مع أنّه مهم وجلي، ذلك أن الموروث وتجلياته دائم الحضور في معظم أعمال محفوظ.

٣- إنّ الغوص في أعماق أدب محفوظ، غوص في أعماق البيئة العربية والمصرية تحديداً، ودراسة البيئة، عالم فاعل في معرفة سوسيولوجية المجتمع وهو أمر نحتاج أن ندرس ونعمق صلتنا به، كونه جزءاً منا، وتماسه بنا قائم ومستمر.. وهو الذي يشكل توجهاتنا في الماضي والحاضر والمستقبل.

هذه الجوانب الثلاثة التي شُغل بها د. القضاة تجعلنا ندرك جيداً، عمق ومدى الجهود المتميزة التي بذلها حتى يتم له تقديم دراسته المتميزة هذه.

صحيح.. أنه اعتمد إلى حد كبير على مصادر مختلفة وتبنّى هذا الرأي أو ذاك.. مما جعل رأيه النقدي لا يبرز على نحو واضح ومؤثر وفعّال، إلا أنّنا عندما ندرك الدراية والنباهة التي يمتلكها المؤلف في انتقاء هذه الآراء، نتبين دقة الاختيار التي لا تقل في أهميتها عن تقديم الآراء النقدية ذاتها..

ذلك أنه لا يريد أن يعيد ما قيل وينسبه إلى نفسه وفق صياغات جديدة، بل هو أمين على

* باحث عراقي

حقوق سواه، وآراء سبقته، ووجد قناعة في سلامتها فتبناها دون أن ينسبها لنفسه، أو يغيب صاحبها.

إنه باحث أمين ومثالي في الاحتفاظ بحقوق سواه، والاعتراف بالمعطى الذي يحمله غيره.. ولا يقلل من شأن الباحث أن يذكر ماله.. وما لمن سبقه.

يقول د. القضاة في (المقدمة): «لقد انتحيت منهجاً يجمع بين البعد التاريخي والتحليل النصي للروايات».

إذن.. كان يبحث عن الجذر التاريخي في النص، أو تماس التاريخ في جسد النص، أو فعل التاريخ في قلب النص.

والتاريخ عنده.. الناس، والناس هم.. التشكيل المجتمعي وما حمله من مكونات الموروث الذي يحدد ملامح وهوية كل مجتمع من المجتمعات البشرية.

ومنذ البداية، منذ السطور الأولى التي يعرفنا فيها المؤلف بنشأة نجيب محفوظ كونه ولد في حي الجمالية بالقاهرة عام ١٩١١، وأنه ينتمي إلى أسرة «مكتفية ومتدينة، تسكن بالقرب من مقام الحسين والتكية»، نعلم أن عملية الاكتفاء، جعلته ينصرف إلى دراسة الفلسفة ويعمق صلته بالفكر والإبداع، دون أن تشكل الحاجات اليومية شاغلاً يصرفه عن المعرفة.

كذلك.. كان الانتماء للبيئة، لمجتمع مسكون بقيم وأعراف وانتماءات دينية.. هي الأساس التي جعلته لا يركن إلى ما هو قائم، ولا أن يستسلم إلى الأبد وفق ما هو موجود، بل أخذ يسعى لأن يجتهد، لأن يعرف ما لا يعرفه سواه عن هذا العالم المتوارث الذي يحيط به.

نجيب محفوظ أفاد من (الاكتفاء) بالانصراف كلياً إلى المعرفة.. وكان جذر المعرفة مستمدا من معطى (الأسرة المتدينة) التي عاشها وعرفها وتفاعل معها، لكنه لم يستسلم كلياً إلى معطياتها، بل راح يفتح نوافذ يرى من خلالها ما لا يراه غيره.. ممن مشى على خطى سبقته، فلقد بحث عن التفرد، عن البعد الآخر، والمعطى الآخر، والرأي المختلف.

الاختلاف الإيجابي، قاده إلى حقائق جديدة، إلى حريات.. أبعدها سواه، فقربها هو ولم يتردد في الكتابة عنها وفق رؤيته- وإن جاءت متأخرة- عبرروايته المتميزة: «أولاد حارتنا» العمل الذي كان مثار جدل واسع والمختلف عن سائر أعمال محفوظ.. الأمر الذي يجعلنا ندرك أن نجيب محفوظ كان يختزن أفكاره ورؤاه على مدى أعوام طويلة.. حتى يظهر إلينا «أولاد حارتنا».

وعندما يناقش المؤلف الموروث في أعمال نجيب محفوظ، فإنها تبدو واضحة أمامه عبر: «خان الخليلي، زقاق المدق، والثلاثية: بين القصرين، قصر الشوق، السكرية».. حتى ليصبح (حي الجمالية) هو العالم الأكثر ثراءً في حياة وأدب محفوظ، شأنه شأن ماركيز في (ماكانرو) والسياب في (جيكور) وكولن ولسون في (سوهو) وما دام يعنى بالحي الشعبي، فإنه لا بد أن يفرد جوانب مهمة وأثيرة لشخصيات هذا الحي، ذلك أنه يعرفها، يعرف تفاصيل حياتها، سايكولوجيتها.. ما يكمن فيها وما يحيط بها وما يثير الجوانب الخفية منها.. فيجعلها تتنفس وترى

حقوق سواه، وآراء سبقته، ووجد قناعة في سلامتها فتبناها دون أن ينسبها لنفسه، أو يغيب صاحبها.

إنه باحث أمين ومثالي في الاحتفاظ بحقوق سواه، والاعتراف بالمعطى الذي يحمله غيره.. ولا يقلل من شأن الباحث أن يذكر ماله.. وما لمن سبقه.

يقول د. القضاة في (المقدمة): «لقد انتحيت منهجاً يجمع بين البعد التاريخي والتحليل النصي للروايات».

إذن.. كان يبحث عن الجذر التاريخي في النص، أو تماس التاريخ في جسد النص، أو فعل التاريخ في قلب النص.

والتاريخ عنده.. الناس، والناس هم.. التشكيل المجتمعي وما حمله من مكونات الموروث الذي يحدد ملامح وهوية كل مجتمع من المجتمعات البشرية.

ومنذ البداية، منذ السطور الأولى التي يعرفنا فيها المؤلف بنشأة نجيب محفوظ كونه ولد في حي الجمالية بالقاهرة عام ١٩١١، وأنه ينتمي إلى أسرة «مكتفية ومتدينة، تسكن بالقرب من مقام الحسين والتكية»، نعلم أن عملية الاكتفاء، جعلته ينصرف إلى دراسة الفلسفة ويعمق صلته بالفكر والإبداع، دون أن تشكل الحاجات اليومية شاغلاً يصرفه عن المعرفة.

كذلك.. كان الانتماء للبيئة، لمجتمع مسكون بقيم وأعراف وانتماءات دينية.. هي الأساس التي جعلته لا يركن إلى ما هو قائم، ولا أن يستسلم إلى الأبد وفق ما هو موجود، بل أخذ يسعى لأن يجتهد، لأن يعرف ما لا يعرفه سواء عن هذا العالم المتوارث الذي يحيط به.

نجيب محفوظ أفاد من (الاكتفاء) بالانصراف كلياً إلى المعرفة.. وكان جذر المعرفة مستمدا من معطى (الأسرة المتدينة) التي عاشها وعرفها وتفاعل معها، لكنه لم يستسلم كلياً إلى معطياتها، بل راح يفتح نوافذ يرى من خلالها ما لا يراه غيره.. ممن مشى على خطى سبقته، فلقد بحث عن التفرد، عن البعد الآخر، والمعطى الآخر، والرأي المختلف.

الاختلاف الإيجابي، قاده إلى حقائق جديدة، إلى حريات.. أبعدها سواه، فقربها هو ولم يتردد في الكتابة عنها وفق رؤيته- وإن جاءت متأخرة- عبرروايته المتميزة: «أولاد حارتنا» العمل الذي كان مثار جدل واسع والمختلف عن سائر أعمال محفوظ.. الأمر الذي يجعلنا ندرك أن نجيب محفوظ كان يختزن أفكاره ورؤاه على مدى أعوام طويلة.. حتى يظهر إلينا «أولاد حارتنا».

وعندما يناقش المؤلف الموروث في أعمال نجيب محفوظ، فإنها تبدو واضحة أمامه عبر: «خان الخليلي، زقاق المدق، والثلاثية: بين القصرين، قصر الشوق، السكرية».. حتى ليصبح (حي الجمالية) هو العالم الأكثر ثراءً في حياة وأدب محفوظ، شأنه شأن ماركيز في (ماكانرو) والسياب في (جيكور) وكولن ولسون في (سوهو) وما دام يعنى بالحي الشعبي، فإنه لا بد أن يفرد جوانب مهمة وأثيرة لشخصيات هذا الحي، ذلك أنه يعرفها، يعرف تفاصيل حياتها، سايكولوجيتها.. ما يكمن فيها وما يحيط بها وما يثير الجوانب الخفية منها.. فيجعلها تتنفس وترى

وتحس وتدرك وتواجه. من هنا كانت «الثلاثية وأولاد حارتنا والحرافيش هي أحب أعمالي إلى نفسي» كما يقول نجيب محفوظ عنها.

وإذا ما عرفنا أن «الخيط الثقافي الوحيد في أسرته هو الدين» تبينا الجذر الذي انطلق منه نجيب محفوظ وهما (الثقافة) و(الدين) وبهما تجسدت أعماله.. إضافة إلى أنه «لم يكن ثمة حاجز بين قضايا البيت وقضية الوطن» الأمر الذي «انطبعت في حياة محفوظ وطفولته علاقة وثيقة بين البيت والعالم منذ سن مبكرة».

ولم يكن بوسع محفوظ، الانتقال إلى (الفلسفة الروحية) كونها «تعد عالماً زاخراً بعيد الغور نحس فيه بحريتنا، ونعرف بداهة هذه الحرية غير المتناهية» لو لم يكن قد عرف (الفلسفة المادية).. ذلك أن المرء لا يمكن أن يعرف قيمة ا لشيء إلا بعد معرفته لنقيضه.. إضافة إلى أن الفن والأدب يجيء نتيجة لتطور السياسة والاقتصاد ثم المجتمع والدين والكشوف العلمية» – كما يقول د. علي شلش وهو يتحدث عن (نجيب محفوظ في مجهوله المعلوم).

كذلك فقد كان حرص نجيب محفوظ على الزمن وعدم هدره، ودقة التعامل معه، وخبرته الطويلة لمدة (٥٤) سنة في الوظيفة.. ساعدته على أمور كثيرة في الكتابة.. منها: الخبرة، الدقة، التجربة، التفاعل مع الناس والأزمنة والأمكنة.. ولذلك نراه «لا يلجأ إلى شكل مستعار، حتى الشكل المستعار فإنه لا يقبل الثبات، بل يتطور» هذا التوجه جعل نجيب محفوظ يغير نمط كتاباته وفق المضامين والطروحات التي يريد التعبير عنها..

وهذا التغيير لم يجعله يتخلى عن الحارة التي انتمى إليها. يقول:

«حنيني إلى الحارة جزء من حنيني إلى الأصالة.. وبتقدم العمر تجد أن نظرتك تتغير وأنك تريد أن تتحرر من كل ما فرض عليك، ولكن بطريقة تلقائية وطبيعية، وليس لمجرد الخروج أو كسر الشكل عمداً، تجد نفسك تبحث عن النغمة التي تستخرجها من أعماقك».

هذه المؤشرات مجتمعة.. هي التي جعلت النقاد يقسمون تراث نجيب محفوظ إلى ثلاث مراحل هي: (تاريخية رومانسية، واقعية نقدية، فلسفية رمزية).

غير أننا قد نجد تداخلاً بين هذه المرحلة أو تلك.. إضافة إلى تفاعل في التوجهات ففي (الثلاثية) قد تجتمع: التاريخية والنقدية، وفي (أولاد حارتنا) هناك تفاعل بين الفلسفة والنقد.. وفي (ثرثرة فوق النيل) قد نواجه الوعي النقدي والرمزي بشكل واضح..

– وإذا ما عرفنا أن: «الرواية التاريخية عمل فني لا ينقل التاريخ بحرفيته، وإنما ينقل تصور الفنان له..» أدركنا المدى العميق الذي يتوجه إليه نجيب محفوظ وهو يكتب عن لحظة أو مرحلة تاريخية معينة؛ ذلك أن الحقيقة التاريخية لا تشغله، بقدر ما تشغله معطيات هذه الحقيقة من مؤشرات درامية يمكن تحدد مسارها في العمل الإبداعي الذي يشغل عالم أو ذهنية المبدع.

وهكذا يلاحظ د. القضاة: «أن نجيب محفوظ حاول أن يخرج بالشخصية التراثية من إطارها الفردي إلى إطارها الجماعي» وعمد إلى «أن

وتحس وتدرك وتواجه. من هنا كانت «الثلاثية وأولاد حارتنا والحرافيش هي أحب أعمالي إلى نفسي» كما يقول نجيب محفوظ عنها.

وإذا ما عرفنا أن «الخيط الثقافي الوحيد في أسرته هو الدين» تبينا الجذر الذي انطلق منه نجيب محفوظ وهما (الثقافة) و(الدين) وبهما تجسدت أعماله.. إضافة إلى أنه «لم يكن ثمة حاجز بين قضايا البيت وقضية الوطن» الأمر الذي «انطبعت في حياة محفوظ وطفولته علاقة وثيقة بين البيت والعالم منذ سن مبكرة».

ولم يكن بوسع محفوظ، الانتقال إلى (الفلسفة الروحية) كونها «تعد عالماً زاخراً بعيد الغور نحس فيه بحريتنا، ونعرف بداهة هذه الحرية غير المتناهية» لو لم يكن قد عرف (الفلسفة المادية).. ذلك أن المرء لا يمكن أن يعرف قيمة ا لشيء إلا بعد معرفته لنقيضه.. إضافة إلى أن الفن والأدب يجيء نتيجة لتطور السياسة والاقتصاد ثم المجتمع والدين والكشوف العلمية»- كما يقول د. علي شلش وهو يتحدث عن (نجيب محفوظ في مجهوله المعلوم).

كذلك فقد كان حرص نجيب محفوظ على الزمن وعدم هدره، ودقة التعامل معه، وخبرته الطويلة لمدة (٥٤) سنة في الوظيفة.. ساعدته على أمور كثيرة في الكتابة.. منها: الخبرة، الدقة، التجربة، التفاعل مع الناس والأزمنة والأمكنة.. ولذلك نراه «لا يلجأ إلى شكل مستعار، حتى الشكل المستعار فإنه لا يقبل الثبات، بل يتطور» هذا التوجه جعل نجيب محفوظ يغير نمط كتاباته وفق المضامين والطروحات التي يريد التعبير عنها..

وهذا التغيير لم يجعله يتخلى عن الحارة التي انتمى إليها. يقول:

«حنيني إلى الحارة جزء من حنيني إلى الأصالة.. وبتقدم العمر تجد أن نظرتك تتغير وأنك تريد أن تتحرر من كل ما فرض عليك، ولكن بطريقة تلقائية وطبيعية، وليس لمجرد الخروج أو كسر الشكل عمداً، تجد نفسك تبحث عن النغمة التي تستخرجها من أعماقك».

هذه المؤشرات مجتمعة.. هي التي جعلت النقاد يقسمون تراث نجيب محفوظ إلى ثلاث مراحل هي: (تاريخية رومانسية، واقعية نقدية، فلسفية رمزية).

غير أننا قد نجد تداخلاً بين هذه المرحلة أو تلك.. إضافة إلى تفاعل في التوجهات ففي (الثلاثية) قد تجتمع: التاريخية والنقدية، وفي (أولاد حارتنا) هناك تفاعل بين الفلسفة والنقد.. وفي (ثرثرة فوق النيل) قد نواجه الوعي النقدي والرمزي بشكل واضح..

- وإذا ما عرفنا أن: «الرواية التاريخية عمل فني لا ينقل التاريخ بحرفيته، وإنما ينقل تصور الفنان له..» أدركنا المدى العميق الذي يتوجه إليه نجيب محفوظ وهو يكتب عن لحظة أو مرحلة تاريخية معينة؛ ذلك أن الحقيقة التاريخية لا تشغله، بقدر ما تشغله معطيات هذه الحقيقة من مؤشرات درامية يمكن تحدد مسارها في العمل الإبداعي الذي يشغل عالم أو ذهنية المبدع.

وهكذا يلاحظ د. القضاة: «أن نجيب محفوظ حاول أن يخرج بالشخصية التراثية من إطارها الفردي إلى إطارها الجماعي» وعمد إلى «أن

يحقق الإسقاط التاريخي على الحاضر من خلال إخفاء الشخصية..».

ذلك أن محفوظ ليس مؤرخاً ولا موثقاً ولا باحثاً في التراث، إنه هو روائي.. فنان يعطي من خزين ذهنه وألق روحه وأحلام يقظته.. مضفياً الكثير من الخيال والقليل من التاريخ والواقع على عمله الإبداعي... «إنه تعامل مع التفاصيل التاريخية من موقع وظيفتها الفنية».

وفي حديثه عن (أشكال القص التراثي) يقول د. القضاة:

«تمثل مرحلة (أولاد حارتنا) مرحلة خروج نجيب محفوظ على الشكل الروائي التقليدي» وذلك من خلال «اختيار شكل غربي مناسب وتحويره حتى يتلاءم مع الموضوع المحلي» حتى عدت هذه الرواية «من أكثر الروايات إيغالاً بالرمز الميتافيزيقي» وتوجهت نحو الميثولوجيا.. وظهرت في الرواية وهي: «تلبس الميثولوجيا ثوباً واقعياً».

ولا يناقش الباحث الأسباب التي تكمن وراء توجه محفوظ نحو هذا الاتجاه الذي يختلف تماماً عن مجمل مسيرته.

ونحن نعتقد أن (الاكتفاء المادي) الذي يضفي على صاحبه التوازن والثقة والتوجه نحو اكتساب الثقافة واحترام القيم و(العائلة المتدينة) التي نشأ فيها، لا تسمح بالتمرد على توجهاتها ومسيرتها.. إضافة إلى حساسية المضامين التي يطرحها وما يمكن أن يؤول الحديث عنها ومناقشتها من قبل المجتمع الذي اعتاد الاتباع بدلاً عن الإبداع، حتى إذا جاء نجيب محفوظ مبدعاً اضطر إلى اتخاذ الرمز متكأ وخروجاً عن المألوف أو المتعارف عليه.. إضافة إلى كونه يقدم عملاً فنياًوليس بحثاً أكاديمياً- كما نظر البعض عندما ناقشوا (أولاد حارتنا) ونددوا بما ذهب إليه من رؤى-ذلك أنه ليس من الموضوعية مناقشة عمل إبداعي بأدوات خارجة عنه، وسياقات بعيدة عن دائرته. وهذا هو الخطأ الفادح الذي وقع فيه كثرة ممن أدان الرواية وأفلح في إقناع الرقابة التي تكفلت بحجبها عن القراء منذ عام ١٩٥٩، مع أنها ظهرت منشورة بشكل مسلسل في جريدة (الأهرام) وفي العام ذاته.. ومتداولة في أنحاء العالم وبعدة لغات فيما حرم من قراءتها.. النبع الأول الذي خرجت منه../ مصر!!

إن قيمة (أولاد حارتنا) تكمن في اتخاذ «الحارة التي ينطلق منها يمكن أن تكون البشرية بأسرها، ويمكن أن تكون مصر وحدها، ويمكن أن تكون رمزاً مزدوجاً، فهي تجمع بين خصائص التطور الإنساني العام وبين ملامح الأزمنة الحضارية التي تعيشها مصر، واتخذ نجيب محفوظ من الحياة اليومية، ومن البيئة التي عايشها ومن قيمها أساساً لطرح فكرته الخاصة».

هذه الأبعاد المختلفة، لا بد أن تحمل بالتالي تأويلات مختلفة، وهذا هو الإبداع الحقيقي الذي يحمل عدةوجوه، لا وجهاً أحادياً منفرداً يتفق بشأنه الجميع، وليس بوسعهم الاختلاف على شيء واضح يمكن تلمس معطياته بسهولة. إن الأدب ومضة، يمكن للمتلقي أن ينظر من خلالها إلى ومضات لاحقة وموحية، إنها اللاحدود التي تخرج عن السياقات التقليدية والمعاني الجاهزة والمؤسرة.

يحقق الإسقاط التاريخي على الحاضر من خلال إخفاء الشخصية..».

ذلك أن محفوظ ليس مؤرخاً ولا موثقاً ولا باحثاً في التراث، إنه هو روائي.. فنان يعطي من خزين ذهنه وألق روحه وأحلام يقظته.. مضفياً الكثير من الخيال والقليل من التاريخ والواقع على عمله الإبداعي... «إنه تعامل مع التفاصيل التاريخية من موقع وظيفتها الفنية».

وفي حديثه عن (أشكال القص التراثي) يقول د. القضاة:

«تمثل مرحلة (أولاد حارتنا) مرحلة خروج نجيب محفوظ على الشكل الروائي التقليدي» وذلك من خلال «اختيار شكل غربي مناسب وتحويره حتى يتلاءم مع الموضوع المحلي» حتى عدت هذه الرواية «من أكثر الروايات إيغالاً بالرمز الميتافيزيقي» وتوجهت نحو الميثولوجيا.. وظهرت في الرواية وهي: «تلبس الميثولوجيا ثوباً واقعياً».

ولا يناقش الباحث الأسباب التي تكمن وراء توجه محفوظ نحو هذا الاتجاه الذي يختلف تماماً عن مجمل مسيرته.

ونحن نعتقد أن (الاكتفاء المادي) الذي يضفي على صاحبه التوازن والثقة والتوجه نحو اكتساب الثقافة واحترام القيم و(العائلة المتدينة) التي نشأ فيها، لا تسمح بالتمرد على توجهاتها ومسيرتها.. إضافة إلى حساسية المضامين التي يطرحها وما يمكن أن يؤول الحديث عنها ومناقشتها من قبل المجتمع الذي اعتاد الاتباع بدلاً عن الإبداع، حتى إذا جاء نجيب محفوظ مبدعاً اضطر إلى اتخاذ الرمز متكأ وخروجاً عن المألوف أو المتعارف عليه.. إضافة إلى كونه يقدم عملاً فنياًوليس بحثاً أكاديمياً- كما نظر البعض عندما ناقشوا (أولاد حارتنا) وندددوا بما ذهب إليه من رؤى-ذلك أنه ليس من الموضوعية مناقشة عمل إبداعي بأدوات خارجة عنه، وسياقات بعيدة عن دائرته. وهذا هو الخطأ الفادح الذي وقع فيه كثرة ممن أدان الرواية وأفلح في إقناع الرقابة التي تكفلت بحجبها عن القراء منذ عام ١٩٥٩، مع أنها ظهرت منشورة بشكل مسلسل في جريدة (الأهرام) وفي العام ذاته.. ومتداولة في أنحاء العالم وبعدة لغات فيما حرم من قراءتها.. النبع الأول الذي خرجت منه../ مصر!!

إن قيمة (أولاد حارتنا) تكمن في اتخاذ «الحارة التي ينطلق منها يمكن أن تكون البشرية بأسرها، ويمكن أن تكون مصر وحدها، ويمكن أن تكون رمزاً مزدوجاً، فهي تجمع بين خصائص التطور الإنساني العام وبين ملامح الأزمنة الحضارية التي تعيشها مصر، واتخذ نجيب محفوظ من الحياة اليومية، ومن البيئة التي عايشها ومن قيمها أساساً لطرح فكرته الخاصة».

هذه الأبعاد المختلفة، لا بد أن تحمل بالتالي تأويلات مختلفة، وهذا هو الإبداع الحقيقي الذي يحمل عدةوجوه، لا وجهاً أحادياً منفرداً يتفق بشأنه الجميع، وليس بوسعهم الاختلاف على شيء واضح يمكن تلمس معطياته بسهولة. إن الأدب ومضة، يمكن للمتلقي أن ينظر من خلالها إلى ومضات لاحقة وموحية، إنها اللاحدود التي تخرج عن السياقات التقليدية والمعاني الجاهزة والمؤسرة.

نجيب محفوظ في (أولاد حارتنا) يأخذ مرجعيته من العالم الذي يعرفه ويعيشه وله تماس مباشر معه، إلا أنه لا ينقل هذه المعارف والهواجس كما هي.. وإنما كيف يراها هو نفسه دون سواه، كيف يمتحن ذاته في داخلها، كيف ينطلق من الجاهز.. لإنجاز مشروعات ينظر إليها على نحو مختلف، وهذا هو السر الذي يجعل منها حقيقة إبداعية تختلف عن سواها.. وتتفرد برؤيتها وسموها وفعلها النيّر..

وعندما يتحدث د. القضاة عن (الحرافيش) يشير إلى أنه:

«لم تكن هذه الروايات على بعض ملامح السير والحكايات الشعبية والتراجم يعني استلهام الشكل الشعبي وتوظيفه فنياً؛ إذ كانت الرواية العربية في مطلع القرن الماضي غير مستقرة على شكل معين وكان اقترابها من الشكل الشعبي تجريباً وليس توظيفاً».

ونحن نعتقد أن (التجريب) لا يلغي (التوظيف) ولا يبتعد عنه أو يتقاطع معه. للتجريب أن يوظف أو يلغي التوظيف.. باتجاه البحث عن أفق جديد، مختلف عن غيره، بانٍ لمعمار آخر.. يوازي، أو يكون على تضاد مع ما قبله وما بعده.

نجيب محفوظ، كان مجرباً من طراز رفيع المستوى. بدأ تقليدياً، وعندما اكتملت تجربته واغتنى عالمه، راح يفكر بمضامين ورؤى غير سالكة، اختط لنفسه أكثر من مسار حتى يحقق حضوراً وينجز مشروعاً، ويبني وجوداً..

وإذا كنا عرفنا نجيب محفوظ متخفياً وراء قناع فرعوني في أعماله المبكرة (عبث الأقدار، رادوبيس، كفاح طيبة) فإنه لم يكن ليلجأ إلى هذا التخفي إلا لكي يناقش مسائل ساخنة تتعلق بالزمان والمكان الذي يعيشه.

وما كان ليلجأ إلى: ألف ليلة، والتصوف، والتاريخ والموروث الشعبي.. إلا لكي يناقش ظاهرة معاصرة له ولمجتمعه تماس مباشر معها.

إن هذه الرحلة الطويلة التي خاض غمارها الباحث د. محمد القضاة عبر مسيرة مكثفة لأعمال نجيب محفوظ الغزيرة، والكتب والدراسات التي تفردت في قراءته عدة قراءات.. وهي الأكثر غزارة مما كتب نجيب محفوظ تعدّ بحق عطاء استثنائيا ويشكل إضافة متميزة مقارنة بما قرأناه عن أعمال محفوظ.

لقد خرج د. القضاة من رحلته الممتدة لمسافات طال أمدها في الغوص عميقاً في أدب محفوظ، ومحاولة استخلاص الموروث في منجزه الروائي والقصصي.. خرج بنتائج مثمرة، وباجتهادات لم يسبقه إليها إلا ندرة من الدارسين.. لكن ما فاتهم، لم يكن ليختفي عند د. القضاة، بل لقد قرأ ودرس وحلل وناقش.. والأهم من ذلك كله اجتهد في تقديم مؤشرات واضحة لمرجعيات نجيب محفوظ وكيف تعامل معها روائياً، وكيف أفلح في تحقيق منجز إبداعي كبير.. كشف أسراره باحث دؤوب وأكاديمي جليل وقف عند بئر الإبداع واصطفى منه ماءً زلالاً.. تتقطر منه المعرفة والزاد الأصيل والتفرد العميق.■

نجيب محفوظ في (أولاد حارتنا) يأخذ مرجعيته من العالم الذي يعرفه ويعيشه وله تماس مباشر معه، إلا أنه لا ينقل هذه المعارف والهواجس كما هي.. وإنما كيف يراها هو نفسه دون سواه، كيف يمتحن ذاته في داخلها، كيف ينطلق من الجاهز.. لإنجاز مشروعات ينظر إليها على نحو مختلف، وهذا هو السر الذي يجعل منها حقيقة إبداعية تختلف عن سواها.. وتتفرد برؤيتها وسموها وفعلها النيّر..

وعندما يتحدث د. القضاة عن (الحرافيش) يشير إلى أنه:

«لم تكن هذه الروايات على بعض ملامح السير والحكايات الشعبية والتراجم يعني استلهام الشكل الشعبي وتوظيفه فنياً؛ إذ كانت الرواية العربية في مطلع القرن الماضي غير مستقرة على شكل معين وكان اقترابها من الشكل الشعبي تجريباً وليس توظيفاً».

ونحن نعتقد أن (التجريب) لا يلغي (التوظيف) ولا يبتعد عنه أو يتقاطع معه. للتجريب أن يوظف أو يلغي التوظيف.. باتجاه البحث عن أفق جديد، مختلف عن غيره، بانٍ لمعمار آخر.. يوازي، أو يكون على تضاد مع ما قبله وما بعده.

نجيب محفوظ، كان مجرباً من طراز رفيع المستوى. بدأ تقليدياً، وعندما اكتملت تجربته واغتنى عالمه، راح يفكر بمضامين ورؤى غير سالكة، اختط لنفسه أكثر من مسار حتى يحقق حضوراً وينجز مشروعاً، ويبني وجوداً..

وإذا كنا عرفنا نجيب محفوظ متخفياً وراء قناع فرعوني في أعماله المبكرة (عبث الأقدار، رادوبيس، كفاح طيبة) فإنه لم يكن ليلجأ إلى هذا التخفي إلا لكي يناقش مسائل ساخنة تتعلق بالزمان والمكان الذي يعيشه.

وما كان ليلجأ إلى: ألف ليلة، والتصوف، والتاريخ والموروث الشعبي.. إلا لكي يناقش ظاهرة معاصرة له ولمجتمعه تماس مباشر معها.

إن هذه الرحلة الطويلة التي خاض غمارها الباحث د. محمد القضاة عبر مسيرة مكثفة لأعمال نجيب محفوظ الغزيرة، والكتب والدراسات التي تفردت في قراءته عدة قراءات.. وهي الأكثر غزارة مما كتب نجيب محفوظ تعدّ بحق عطاء استثنائيا ويشكل إضافة متميزة مقارنة بما قرأناه عن أعمال محفوظ.

لقد خرج د. القضاة من رحلته الممتدة لمسافات طال أمدها في الغوص عميقاً في أدب محفوظ، ومحاولة استخلاص الموروث في منجزه الروائي والقصصي.. خرج بنتائج مثمرة، وباجتهادات لم يسبقه إليها إلا ندرة من الدارسين.. لكن ما فاتهم، لم يكن ليختفي عند د. القضاة، بل لقد قرأ ودرس وحلل وناقش.. والأهم من ذلك كله اجتهد في تقديم مؤشرات واضحة لمرجعيات نجيب محفوظ وكيف تعامل معها روائياً، وكيف أفلح في تحقيق منجز إبداعي كبير.. كشف أسراره باحث دؤوب وأكاديمي جليل وقف عند بئر الإبداع واصطفى منه ماءً زلالاً.. تتقطر منه المعرفة والزاد الأصيل والتفرد العميق.■

بين الثقافة والصحافة
دراسات في التطوير الثقافي

عبدالعزيز إسماعيل أحمد*

ياسر الفهد، مترجم، وصحفي، وباحث تربوي معروف في سوريا والعالم العربي، له العديد من المقالات المنشورة فى عدة دوريات عربية ومحلية، وتتسم كتاباته بالجدة، والموضوعية، وغالباً ما تتناول في مضامينها مفاهيم عصرية، وتتمحور حول موضوعات حداثية بعيدة عن القولبة التقليدية والأسلوب الكلاسيكي في الكتابة.

وله عدة مؤلفات جادة ورصينة تتناول الصحافة العربية المعاصرة في بلاد الشام والخليج العربي، وله عدة مؤلفات تربوية أيضاً، وآخر مؤلفاته الكتاب الذي بين أيدينا- بين الثقافة والصحافة... دراسات في التطوير الثقافي- الذي صدرت طبعته الأولى عام «٢٠٠٠» عن دار البشائر بدمشق، وقد جاء الكتاب في مائة وستة وسبعين صفحة من القطع الكبير والكتاب بمجمله محاولة جادة لكسر الطوق الفكري وطرح وجهات نظرغير معهودة، ورؤى جديدة مبتكرة في ثلاثة محاور مترابطة ومتكاملة هي: «الثقافة، والصحافة، والتربية» والتي تشترك جميعها في مهمة التعليم، والتثقيف، والتوعية.

جاء في مقدمة الكتاب أننا: «لكي نلحق بموكب الحضارة الإنسانية ونساير ركب التطور المتسارع يجب أن نفكر ونعمل بطرق جديدة غير معهودة، وأن نتغير كما يتغير الآخرون، وقد اخترنا في هذا الكتاب الحقل الثقافي ليكون هدفاً..».

اعتمد المؤلف في كتابه أسلوب المقالة العلمية الثقافية الرصينة التي تحمل أفكاراً قصيرة ومفيدة بطريقة مبتكرة وجميلة بعيدة عن أسلوب المقالة التقليدية، والتكرار الممل.

وقد أجاب الكتاب على مجموعة من التساؤلات الهامة في الصحافة والثقافة، والتربية، وكرس مجموعة من الأفكار الهامة في تلك المجالات نجملها بالنقاط التالية:

يتناول الكتاب مفهوم «المجتمع المدني» والعناصر الأساسية التي تدخل في تركيبته، كما يتناول الثقافة بنوعيها «الثقافة الرفيعة، والثقافة الشعبية أو الجماهيرية» ثم يقارن بين دور الكلمة المكتوبة والكلمة المرئية في عملية التثقيف مبيناً أن المفكر أو العالم، أو المثقف الرفيع يعرف مصلحته ولا يمكن للقنوات الفضائية أن تصرفه عن الارتشاف من معين المادة الكتابية القيمة، ويخلص إلى أن تطوير صحافة شعبية ناجحة

* كاتب سوري

بين الثقافة والصحافة
دراسات في التطوير الثقافي

عبدالعزيز إسماعيل أحمد*

ياسر الفهد، مترجم، وصحفي، وباحث تربوي معروف في سوريا والعالم العربي، له العديد من المقالات المنشورة فى عدة دوريات عربية ومحلية، وتتسم كتاباته بالجدة، والموضوعية، وغالباً ما تتناول في مضامينها مفاهيم عصرية، وتتمحور حول موضوعات حداثية بعيدة عن القولبة التقليدية والأسلوب الكلاسيكي في الكتابة.

وله عدة مؤلفات جادة ورصينة تتناول الصحافة العربية المعاصرة في بلاد الشام والخليج العربي، وله عدة مؤلفات تربوية أيضاً، وآخر مؤلفاته الكتاب الذي بين أيدينا- بين الثقافة والصحافة... دراسات في التطوير الثقافي- الذي صدرت طبعته الأولى عام «٢٠٠٠» عن دار البشائر بدمشق، وقد جاء الكتاب في مائة وستة وسبعين صفحة من القطع الكبير والكتاب بمجمله محاولة جادة لكسر الطوق الفكري وطرح وجهات نظرغير معهودة، ورؤى جديدة مبتكرة في ثلاثة محاور مترابطة ومتكاملة هي: «الثقافة، والصحافة، والتربية» والتي تشترك جميعها في مهمة التعليم، والتثقيف، والتوعية.

جاء في مقدمة الكتاب أننا: «لكي نلحق بموكب الحضارة الإنسانية ونساير ركب التطور المتسارع يجب أن نفكر ونعمل بطرق جديدة غير معهودة، وأن نتغير كما يتغير الآخرون، وقد اخترنا في هذا الكتاب الحقل الثقافي ليكون هدفاً..».

اعتمد المؤلف في كتابه أسلوب المقالة العلمية الثقافية الرصينة التي تحمل أفكاراً قصيرة ومفيدة بطريقة مبتكرة وجميلة بعيدة عن أسلوب المقالة التقليدية، والتكرار الممل.

وقد أجاب الكتاب على مجموعة من التساؤلات الهامة في الصحافة والثقافة، والتربية، وكرس مجموعة من الأفكار الهامة في تلك المجالات نجملها بالنقاط التالية:

يتناول الكتاب مفهوم «المجتمع المدني» والعناصر الأساسية التي تدخل في تركيبته، كما يتناول الثقافة بنوعيها «الثقافة الرفيعة، والثقافة الشعبية أو الجماهيرية» ثم يقارن بين دور الكلمة المكتوبة والكلمة المرئية في عملية التثقيف مبيناً أن المفكر أو العالم، أو المثقف الرفيع يعرف مصلحته ولا يمكن للقنوات الفضائية أن تصرفه عن الارتشاف من معين المادة الكتابية القيمة، ويخلص إلى أن تطوير صحافة شعبية ناجحة

* كاتب سوري

قادرة على تزويد ملايين الناس بثقافة أساسية تشمل جميع فروع المعرفة بطريقة شيقة وفي ظل توافر حرية الكلمة سوف يساعد على نشوء طبقة واسعة من المثقفين العاديين الذين يستطيعون مساعدة الطبقة الضيقة من صفوة المثقفين، ونخبة المفكرين على شد أزر المجتمع المدنى القادم، وتدعيم مواقعه، وتزويده بالأفكار والأسس والمفاهيم العلمية، والمعرفية السليمة.

ويربط المؤلف قيام المجتمع المدني بضرورة توفر الديمقراطية التي تعد الركيزة الأساسية لتقدم الأمم ورقي الشعوب، كما يركز على أهم عناصر الديمقراطية وهي «الحرية» بأنواعها وخاصة حرية الفكر والعقيدة، وحريةالكلمة ولا سيما حرية الصحافة التي هى أهم فروع حرية التعبير، حيث أن السماح بها في الصحافة وأجهزة الإعلام وفي الكتب يفتح الطريق أمام النقد، وهذا بدوره يقود إلى التغيير الإيجابي، ثم يتطرق المؤلف لأهم معوقات حرية الكلمة ويصل إلى نتيجة مفادها: أن حرمان الأمة من حرية الصحافة يعني تراكم الأخطاء والانحرافات وتشجيع أصحاب الضمائر المريضة على ممارسة الفساد، ولا بد من إصدار قوانين جديدة لتوسيع إطار حرية الصحافة في البلدان العربية، والسماح للكتاب بأن يقولوا كلمتهم ويدلوا بدلائهم دون خوف أو تحسب من أجل مصلحة البلاد.

وتحت عنوان «صحافتنا والمسؤوليات الجديدة» يتناول المؤلف عملية التثقيف الذاتي بعد انقضاء الحياة المدرسية ثم الجامعية وانتهاء دور التربية والأستاذ، ثم يعدد السبل التي تحقق التثقيف الذاتي وحول أهمية «الصحافة الأدبية» يقول المؤلف نحن الآن بحاجة إلى أدب جديد متطور يعالج صميم المشكلات الأخلاقية التي تجثم على كواهلنا وتعوق تقدمنا في شتى الميادين، كما أن الأدب ضروري للقضاء على النزعة الفردية، والتناقض بين الأقوال والأفعال، والمطلوب من الصحافة العربية أن تعي مسؤولياتها الجسيمة في هذا المجال وتعمد إلى نشر أدبيات جديدة فعالة، قادرة على ترميم قصورنا الأخلاقي.

وحول تساؤل مفاده: هل يتحقق التقدم بالتطور العلمي أم بالازدهار الثقافي؟ يقارن المؤلف بين المتعلّم، ورجل العلم، والعالم ويعرّف الثقافة بمفهومها الشامل، ثم يقارن بين المثقّف ورجل العلم ويصل إلى رؤية مفادها أنّ: «المثقفين الحقيقيين بالمعنى النبيل والشامل للثقافة هم الذين يستطيعون انتشال الأمة من هوة التقهقر، والسمو بها إلى قمة التقدم لأنهم يشبهون الأحجار التي تحرك الدوائر في البحيرات الرّاكدة».

وفي جوابه على تساؤل هام: أي نوع من الثقافة نحتاج اليوم؟ يقول المؤلف: أن العرب يحتاجون اليوم إلى الثقافة الحديثة ولا سيما ثقافة الديمقراطية، وحقوق الإنسان أكثر من الثقافة التقليدية وإلى الثقافة العلمية أكثر من الثقافة النظرية، وإلى الثقافة الأخلاقية القيميّة أكثر من الثقافة المعلوماتيّة، كما أنهم يحتاجون إلى الثقافة المترجمة في المجالات التى تسبقنا فيها الأمم المتقدمة، وإلى الثقافة الأصيلة في الميادين المرتبطة بصميم بيئتنا المحلية مثل الأدب، والتراث، والتاريخ العربي والإسلامي».

وتحت عنوان «الكلمة المكتوبة في مواجهة

قادرة على تزويد ملايين الناس بثقافة أساسية تشمل جميع فروع المعرفة بطريقة شيقة وفي ظل توافر حرية الكلمة سوف يساعد على نشوء طبقة واسعة من المثقفين العاديين الذين يستطيعون مساعدة الطبقة الضيقة من صفوة المثقفين، ونخبة المفكرين على شد أزر المجتمع المدنى القادم، وتدعيم مواقعه، وتزويده بالأفكار والأسس والمفاهيم العلمية، والمعرفية السليمة.

ويربط المؤلف قيام المجتمع المدني بضرورة توفر الديمقراطية التي تعد الركيزة الأساسية لتقدم الأمم ورقي الشعوب، كما يركز على أهم عناصر الديمقراطية وهي «الحرية» بأنواعها وخاصة حرية الفكر والعقيدة، وحرية الكلمة ولا سيما حرية الصحافة التي هى أهم فروع حرية التعبير، حيث أن السماح بها في الصحافة وأجهزة الإعلام وفي الكتب يفتح الطريق أمام النقد، وهذا بدوره يقود إلى التغيير الإيجابي، ثم يتطرق المؤلف لأهم معوقات حرية الكلمة ويصل إلى نتيجة مفادها: أن حرمان الأمة من حرية الصحافة يعني تراكم الأخطاء والانحرافات وتشجيع أصحاب الضمائر المريضة على ممارسة الفساد، ولا بد من إصدار قوانين جديدة لتوسيع إطار حرية الصحافة في البلدان العربية، والسماح للكتاب بأن يقولوا كلمتهم ويدلوا بدلائهم دون خوف أو تحسب من أجل مصلحة البلاد.

وتحت عنوان «صحافتنا والمسؤوليات الجديدة» يتناول المؤلف عملية التثقيف الذاتي بعد انقضاء الحياة المدرسية ثم الجامعية وانتهاء دور التربية والأستاذ، ثم يعدد السبل التي تحقق التثقيف الذاتي وحول أهمية «الصحافة الأدبية» يقول المؤلف نحن الآن بحاجة إلى أدب جديد متطور يعالج صميم المشكلات الأخلاقية التي تجثم على كواهلنا وتعوق تقدمنا في شتى الميادين، كما أن الأدب ضروري للقضاء على النزعة الفردية، والتناقض بين الأقوال والأفعال، والمطلوب من الصحافة العربية أن تعي مسؤولياتها الجسيمة في هذا المجال وتعمد إلى نشر أدبيات جديدة فعالة، قادرة على ترميم قصورنا الأخلاقي.

وحول تساؤل مفاده: هل يتحقق التقدم بالتطور العلمي أم بالازدهار الثقافي؟ يقارن المؤلف بين المتعلّم، ورجل العلم، والعالم ويعرّف الثقافة بمفهومها الشامل، ثم يقارن بين المثقّف ورجل العلم ويصل إلى رؤية مفادها أنّ: «المثقفين الحقيقيين بالمعنى النبيل والشامل للثقافة هم الذين يستطيعون انتشال الأمة من هوة التقهقر، والسمو بها إلى قمة التقدم لأنهم يشبهون الأحجار التي تحرك الدوائر في البحيرات الرّاكدة».

وفي جوابه على تساؤل هام: أي نوع من الثقافة نحتاج اليوم؟ يقول المؤلف: أن العرب يحتاجون اليوم إلى الثقافة الحديثة ولا سيما ثقافة الديمقراطية، وحقوق الإنسان أكثر من الثقافة التقليدية وإلى الثقافة العلمية أكثر من الثقافة النظرية، وإلى الثقافة الأخلاقية القيميّة أكثر من الثقافة المعلوماتيّة، كما أنهم يحتاجون إلى الثقافة المترجمة في المجالات التى تسبقنا فيها الأمم المتقدمة، وإلى الثقافة الأصيلة في الميادين المرتبطة بصميم بيئتنا المحلية مثل الأدب، والتراث، والتاريخ العربي والإسلامي».

وتحت عنوان «الكلمة المكتوبة في مواجهة

التحديات الفضائية» يتناول المؤلف ما تتعرّض له الكلمة المكتوبة من منافسة قوية من جانب التلفاز، والقنوات الفضائية، مبيناً أنه رغم تلك المنافسة تبقى للصحافة مزاياها، ويبقى لها ألقها الخاص، ثم يعدد مزايا الصحافة ويبين ضرورة قيامنا بالارتقاء بصحافتنا العربيّة كي تستطيع مواجهة ما تتعرض له من منافسة، ثم يتطرّق لأهم معيقات مسيرة الصحافة العربية التي تجعلها جامدة وغير منطلقة ، ثم يعدّد أهم الإجراءات والخطوات التي يمكن اللجوء إليها لتحسين صورة الدوريات العربية، والارتقاء بأدائها، وجعلها أكثر قدرة على استقطاب القرّاء وحثهم على ارتياد حديقة الكلمة المكتوبة، وأهم تلك الإجراءات: «التجديد، والجدّية والرصانة، وصحّة المعلومات ودقتها، والوضوح، والاعتماد على الأعمال الإبداعية، والإكثار من المادة العلمية والطبية المترجمة، وتحسين الشكل، والإكثار من الصور، ومواكبة الأحداث، ورصد المناسبات المحليّة والعالميّة» ثم يصل المؤلف إلى نتيجة مفادها: أن أقصر طريق لتطوير الصحافة العربية فضلا عن تحسين السياسات التحريرية، أن تنفق الدولة بسخاء على المشروعات الصحفية، وأن تزيد الاعتمادات الماليّة المخصصة لها ليتمكّن المسؤولون الصّحفيون من الوصول إلى إعادة الكلمة المكتوبة إلى مكانتها التقليدية العظيمة والتي تحصنّها في وجه الإثارات الإعلامية للقنوات الفضائية التلفازية التي تأسر القلوب، وتصرف المشاهدين إلى حد ما عن الاهتمام بوسائل الثقافة الجادة.

ويتناول المؤلف موضوعاً هاماً هو «الصحافة العربية ومواكبة العصر» موضحاً أنه يجب على الصحافة العربية أن تعمل على تحديث مضموناتها مسايرة للعصر، ومواكبة لتطوراته المتلاحقة، وعليها أن تتناول ضمن سلّم اهتماماتها جملة من الموضوعات الحديثة مثل: المعلوماتية، الحاسوب والإنترنت، الأخطار البيئية التى تهدد الأرض، ومسألة السلام وتحديداً السلام العادل، وبعض التطورّات في مجال الطب والجراحة والأمراض الجديدة، وموضوعات الاستنساخ والعلوم الوراثية، ومسألة العولمة التي تستحوذ على اهتمام المفكرين المعاصرين، وكذلك مشكلة نقص المياه الذي يعاني منها العرب أشد معاناة.

يركّز المؤلف في كتابه على أهمية «الترجمة» كونها تفتح النوافذ والكوى الوميضة على أحدث التطورات العالميّة الحديثة في شتّى المجالات ثم يجيب عن تساؤل: أيهما أنسب أن نترجم حرفياً أم بتصرّف؟

ثم يتناول صحافة الترجمة ويضرب مثالاً عليها مجلة «العلوم» الصادرة في الكويت، ومجلة «الآداب الأجنبية» الصادرة في سوريا ومجلة «الثقافة العالمية» التي تصدر عن المجلس الوطنى للثقافة والآداب والفنون بدولة الكويت.

ويلقي المؤلف نظرة على بعض الدوريات العربية الهامة مثل: «جريدة البيان الإماراتية»، ومجلة «العالِمْ» السعودية التي تصدر عن المركز الطبي الوطني للدراسات الاستراتيجيّة، ومجلة «الثقافية» ومجلة «المجلة» السعوديتين اللتين تصدران في لندن، ومجلة «البحرين الثقافية» التي تصدر في البحرين.

التحديات الفضائية» يتناول المؤلف ما تتعرّض له الكلمة المكتوبة من منافسة قوية من جانب التلفاز، والقنوات الفضائية، مبيناً أنه رغم تلك المنافسة تبقى للصحافة مزاياها، ويبقى لها ألقها الخاص، ثم يعدد مزايا الصحافة ويبين ضرورة قيامنا بالارتقاء بصحافتنا العربيّة كي تستطيع مواجهة ما تتعرض له من منافسة، ثم يتطرّق لأهم معيقات مسيرة الصحافة العربية التي تجعلها جامدة وغير منطلقة ، ثم يعدّد أهم الإجراءات والخطوات التي يمكن اللجوء إليها لتحسين صورة الدوريات العربية، والارتقاء بأدائها، وجعلها أكثر قدرة على استقطاب القرّاء وحثهم على ارتياد حديقة الكلمة المكتوبة، وأهم تلك الإجراءات: «التجديد، والجدّية والرصانة، وصحّة المعلومات ودقتها، والوضوح، والاعتماد على الأعمال الإبداعية، والإكثار من المادة العلمية والطبية المترجمة، وتحسين الشكل، والإكثار من الصور، ومواكبة الأحداث، ورصد المناسبات المحليّة والعالميّة» ثم يصل المؤلف إلى نتيجة مفادها: أن أقصر طريق لتطوير الصحافة العربية فضلا عن تحسين السياسات التحريرية، أن تنفق الدولة بسخاء على المشروعات الصحفية، وأن تزيد الاعتمادات الماليّة المخصصة لها ليتمكّن المسؤولون الصّحفيون من الوصول إلى إعادة الكلمة المكتوبة إلى مكانتها التقليدية العظيمة والتي تحصنّها في وجه الإثارات الإعلامية للقنوات الفضائية التلفازية التي تأسر القلوب، وتصرف المشاهدين إلى حد ما عن الاهتمام بوسائل الثقافة الجادة.

ويتناول المؤلف موضوعاً هاماً هو «الصحافة العربية ومواكبة العصر» موضحاً أنه يجب على الصحافة العربية أن تعمل على تحديث مضموناتها مسايرة للعصر، ومواكبة لتطوراته المتلاحقة، وعليها أن تتناول ضمن سلّم اهتماماتها جملة من الموضوعات الحديثة مثل: المعلوماتية، الحاسوب والإنترنت، الأخطار البيئية التى تهدد الأرض، ومسألة السلام وتحديداً السلام العادل، وبعض التطورّات في مجال الطب والجراحة والأمراض الجديدة، وموضوعات الاستنساخ والعلوم الوراثية، ومسألة العولمة التي تستحوذ على اهتمام المفكرين المعاصرين، وكذلك مشكلة نقص المياه الذي يعاني منها العرب أشد معاناة.

يركّز المؤلف في كتابه على أهمية «الترجمة» كونها تفتح النوافذ والكوى الوميضة على أحدث التطورات العالميّة الحديثة في شتّى المجالات ثم يجيب عن تساؤل: أيهما أنسب أن نترجم حرفياً أم بتصرّف؟

ثم يتناول صحافة الترجمة ويضرب مثالاً عليها مجلة «العلوم» الصادرة في الكويت، ومجلة «الآداب الأجنبية» الصادرة في سوريا ومجلة «الثقافة العالمية» التي تصدر عن المجلس الوطنى للثقافة والآداب والفنون بدولة الكويت.

ويلقي المؤلف نظرة على بعض الدوريات العربية الهامة مثل: «جريدة البيان الإماراتية»، ومجلة «العالِمْ» السعودية التي تصدر عن المركز الطبي الوطني للدراسات الاستراتيجيّة، ومجلة «الثقافية» ومجلة «المجلة» السعوديتين اللتين تصدران في لندن، ومجلة «البحرين الثقافية» التي تصدر في البحرين.

وتحت عنوان «التقليد والابتكار في الصحافة العربية» يقول المؤلف: يجب على المسؤولين الصحفيين عند انتقاء المادة الصحفية أن يختاروا للنشر المقالات المبتكرة التي تعكس واقعنا الحالي وتساير حياتنا الرّاهنة وتتلاءم مع مستجدّات عصرنا، وعلى الصحافة العربية إذا أرادت أن ترتقي وتؤدي دوراً أفضل في خدمة الثقافة أن تعتمد أكثر فأكثر على نشر المقالات الأصليّة التي تحمل نظرات ورؤى وطروحات غير معهودة من قبل ،فهذه المقالات وحدها قادرة على تصحيح المسارات الخاطئة التي لم تفلح الطروحات القديمة في إصلاحها. كما يركّز المؤلف في عنوان آخر على طريقة هامة للتغلب على مشكلة «العزوف عن القراءة» تتجلى في «الأدبيّات القصيرة جداً» سواء كانت مقالة أم قصّة والتي تعد من أنجح الأدوات لجلب الكثيرين إلى مائدة القراءة.

ويتناول المؤلف «مشكلة العلاقة بين الكاتب والدوريّة» وحالات ظلم كل واحد منها للآخر ثم يعدّد الحالات التي يظلم بها الكاتب الدورية والحالات التي تظلم بها الدوريّة الكاتب، ويعزي السبب الأساسي لاضطراب العلاقة بين الكاتب والمجلة إلى غياب التشريعات الصحفية و الثقافيّة التي تحدّد حقوق وواجبات كل طرف من الأطراف التي تشارك في عملية النشر.

وتحت عنوان: «التربية والصحافة وأخلاقيات المجتمع المدني» يبيّن المؤلّف أن التربية بمدارسها وجامعاتها، والإعلام بصحافته، وإذاعته، وتلفازه كانا وما زالا يتجهان على الأغلب نحو تزويد الطلاب والقراء والمستمعين والمشاهدين بالمعلومات والمعارف والأخبار بطريقة روتينيّة وتلقينيّة ثم يقول: ونعتقد أنّ هذا الدور على أهميّته يجب أن يتبدّل ويتكيف مع مستلزمات الأوضاع الراهنة للأمة العربية بحيث يصبح التركيز منصباً على تحسين أخلاقيات الإنسان العربي، فإذا أفلح الإعلام والتعليم في تطوير السلوك اليومي للناس تطويراً إيجابياً والارتقاء بقيمهم ومبادئهم نكون قد أرسينا أساساً متيناً من أسس المجتمع المدني العربي المرتقب.

وتحت عنوان «مهام جديدة للتربية» يرى المؤلف أنه من الضروري اليوم توسيع دائرة مهام المدرسة العربية لتشمل حقولاً جديدة من بينها الاهتمام بالقضايا الأخلاقية والقيميّة، وببناء شخصية الإنسان ومثله ومبادئه.

وأن ا لمدرسة العربيَة يجب ألا تبقى مكاناً لتلقين المعلومات وتزويد الطلاب بالمعارف وتمكينهم من نيل الشهادات والمؤهلات، بل إن عليها أن تعد نفسها لمهامّ وأدوار أعظم وأكثر تأثيراً في مستقبل المجتمعات العربية، ومن بين هذه الأدوار بناء شخصية الطالب وتنمية مثله الأخلاقية وإثارة وعيه، وتحويله من متعلم جامد إلى مثقّف حقيقي، وكذلك معالجة انحرافاته السلوكيّة، واضطراباته النفسيّة، فإذا استطاعت مدرستنا العربيّة أن تضطلع فعلاً بهذه الأدوار فإنّها تكون قد خطت أشواطاً بعيدة باتجاه الإصلاح التعليمي الفعّال، والتجديد التربوي الحقيقي.

ويتناول الكتاب الكثير من العناوين الهامة والبارزة مثل «مكافحة الأمية، والتربية الديمقراطية، والتعليم بين الاختيار والالتزام،

وتحت عنوان «التقليد والابتكار في الصحافة العربية» يقول المؤلف: يجب على المسؤولين الصحفيين عند انتقاء المادة الصحفية أن يختاروا للنشر المقالات المبتكرة التي تعكس واقعنا الحالي وتساير حياتنا الرّاهنة وتتلاءم مع مستجدّات عصرنا، وعلى الصحافة العربية إذا أرادت أن ترتقي وتؤدي دوراً أفضل في خدمة الثقافة أن تعتمد أكثر فأكثر على نشر المقالات الأصليّة التي تحمل نظرات ورؤى وطروحات غير معهودة من قبل ،فهذه المقالات وحدها قادرة على تصحيح المسارات الخاطئة التي لم تفلح الطروحات القديمة في إصلاحها. كما يركّز المؤلف في عنوان آخر على طريقة هامة للتغلب على مشكلة «العزوف عن القراءة» تتجلى في «الأدبيّات القصيرة جداً» سواء كانت مقالة أم قصّة والتي تعد من أنجح الأدوات لجلب الكثيرين إلى مائدة القراءة.

ويتناول المؤلف «مشكلة العلاقة بين الكاتب والدوريّة» وحالات ظلم كل واحد منها للآخر ثم يعدّد الحالات التي يظلم بها الكاتب الدورية والحالات التي تظلم بها الدوريّة الكاتب، ويعزي السبب الأساسي لاضطراب العلاقة بين الكاتب والمجلة إلى غياب التشريعات الصحفية و الثقافيّة التي تحدّد حقوق وواجبات كل طرف من الأطراف التي تشارك في عملية النشر.

وتحت عنوان: «التربية والصحافة وأخلاقيات المجتمع المدني» يبيّن المؤلّف أن التربية بمدارسها وجامعاتها، والإعلام بصحافته، وإذاعته، وتلفازه كانا وما زالا يتجهان على الأغلب نحو تزويد الطلاب والقراء والمستمعين والمشاهدين بالمعلومات والمعارف والأخبار بطريقة روتينيّة وتلقينيّة ثم يقول: ونعتقد أنّ هذا الدور على أهميّته يجب أن يتبدّل ويتكيف مع مستلزمات الأوضاع الراهنة للأمة العربية بحيث يصبح التركيز منصباً على تحسين أخلاقيات الإنسان العربي، فإذا أفلح الإعلام والتعليم في تطوير السلوك اليومي للناس تطويراً إيجابياً والارتقاء بقيمهم ومبادئهم نكون قد أرسينا أساساً متيناً من أسس المجتمع المدني العربي المرتقب.

وتحت عنوان «مهام جديدة للتربية» يرى المؤلف أنه من الضروري اليوم توسيع دائرة مهام المدرسة العربية لتشمل حقولاً جديدة من بينها الاهتمام بالقضايا الأخلاقية والقيميّة، وببناء شخصية الإنسان ومثله ومبادئه.

وأن ا لمدرسة العربيَة يجب ألا تبقى مكاناً لتلقين المعلومات وتزويد الطلاب بالمعارف وتمكينهم من نيل الشهادات والمؤهلات، بل إن عليها أن تعد نفسها لمهامّ وأدوار أعظم وأكثر تأثيراً في مستقبل المجتمعات العربية، ومن بين هذه الأدوار بناء شخصية الطالب وتنمية مثله الأخلاقية وإثارة وعيه، وتحويله من متعلم جامد إلى مثقّف حقيقي، وكذلك معالجة انحرافاته السلوكيّة، واضطراباته النفسيّة، فإذا استطاعت مدرستنا العربيّة أن تضطلع فعلاً بهذه الأدوار فإنّها تكون قد خطت أشواطاً بعيدة باتجاه الإصلاح التعليمي الفعّال، والتجديد التربوي الحقيقي.

ويتناول الكتاب الكثير من العناوين الهامة والبارزة مثل «مكافحة الأمية، والتربية الديمقراطية، والتعليم بين الاختيار والالتزام،

وتصوّرات مستقبلية للمدرسة العربية، والكتابةُ القصصيّة بين الأسطورة والخيال العلمي، وفن الكتاب عن الأعلام، وهموم الكاتب في المجتمعات المغلقة.... إخ ».

وبعد: فإن هذا الكتاب جدير بالاهتمام، والقراءة المتأنية للوقوف على بعض الحقائق الملموسة، وتشخيص المشكلات التي تمس الحياة العربّية وسبل مواجهتها وإزالتها ومعالجتها للانتقال إلى مجتمع أفضل.

ويشكل الكتاب إضافة جديدة وهامة للمكتبة العربية ومرجعاً هاماً يلائم معطيات العصر، يمكن للدارسين والباحثين أن يستفيدوا منه ويضعوه على مائدتهم القرائية في معرض دراستهم للقضايا المعاصرة على الصعد التربوية، والثقافية، والإعلامية .■

وتصوّرات مستقبلية للمدرسة العربية، والكتابةُ القصصيّة بين الأسطورة والخيال العلمي، وفن الكتاب عن الأعلام، وهموم الكاتب في المجتمعات المغلقة.... إخ ».

وبعد: فإن هذا الكتاب جدير بالاهتمام، والقراءة المتأنية للوقوف على بعض الحقائق الملموسة، وتشخيص المشكلات التي تمس الحياة العربّية وسبل مواجهتها وإزالتها ومعالجتها للانتقال إلى مجتمع أفضل.

ويشكل الكتاب إضافة جديدة وهامة للمكتبة العربية ومرجعاً هاماً يلائم معطيات العصر، يمكن للدارسين والباحثين أن يستفيدوا منه ويضعوه على مائدتهم القرائية في معرض دراستهم للقضايا المعاصرة على الصعد التربوية، والثقافية، والإعلامية.■

متابعات

تبرئة العقل العربي من خرافة تحويل المعادن

مصطفى يعقوب عبدالنبي*

مقدمة:

من المعروف أنه من أبرز سمات العصر العباسي ازدهار حركة الترجمة والنقل لتراث اليونان والفرس والهنود، وهو التراث الذي اصطلح على تسميته بـ«علوم الأوائل»، حيث حظيت هذه الحركة بأكبر قدر من التشجيع الأدبي و المادي ولا سيما في عصر الخليفة المأمون كما هو معروف.

ولا شك في أن ترجمات علوم الأوائل ولا سيما علوم اليونان، قد أثرت في مسيرة الفكر العربي، إذْ عبر العرب- من خلالها- طوْر البداوة والأشتات المختلفة من المعارف العلمية الموروثة إلى طوْر الحضارة والعلم المنظّم.

ولقد حوى التراث اليوناني المنقول إلى العربيّة الغثّ والسمين من الآراء والنظريات والأفكارغير أن فكرةً واحدةً من تلك الأفكار قُدِّر لها أَنْ تشغل بال العلماء العرب وتخلب ألبابهم وعلى الرغم من أن هذه الفكرة أقرب ما تكون إلى الأوهام والخرافات، كانت من أبرز علامات مسيرة تارِيخ العلم في العصر الوسيط ثم امتد تأثيرها بعيْد عصر النهضة الأوروبية.

وتتلخّص هذه الفكرة في إمكانيّة تحويل المعادن الخسيسة كالحديد والنحاس إلى معادن نفيسة كالذهب بواسطة ما يعرف بالإكسير أو حجر الفلاسفة. والإكسير «هو الوسيلة السحريّة التي اعتقد أرباب الكيمياء أنهم يستطيعون بها تحويل المعادن الخسيسة إلى فضة وذهب وهو مرادفٌ لحجر الفلاسفة» (١).

ويعرّف الخوارزمي (٣٨٧هـ) ملح الإكسير بأنه: «هو الدواء الذي إذا طبِخَ به الجسد المذاب جعله ذهباً أو فضة أو غيّره إلى البياض أو الصّفْرة» (٢).

ولقد آمن أرسطو بهذه الفكرة وضمّنها بعض مؤلفّاته التي نُقلتْ إلى العربية، بل وضع لها الإطار المنطقيّ الذي يبعث على تصديقها «فقد بيّن أرسطو في كتابه في المعادن أنّ صناعة الكيمياء داخلة تحت الإمكان، ثم أثبتها بقياسٍ ألفّه من مقدّمتين بينّهما في أوّل الكتاب وهما؛ أنّ الفلزات واحدةٌ بالنوع، والاختلاف الذي بينهما ليس في ماهيّاتها وإنما هو في أعراضها؛ فبعضه في أعراضها الذاتية وبعضه في أعراضها العرضية.

والثانية: ان كلّ شيئين تحت نوعٍ واحدٍ اختلفا

* باحث مصري

متابعات

تبرئة العقل العربي من خرافة تحويل المعادن

مصطفى يعقوب عبدالنبي*

مقدمة:

من المعروف أنه من أبرز سمات العصر العباسي ازدهار حركة الترجمة والنقل لتراث اليونان والفرس والهنود، وهو التراث الذي اصطلح على تسميته بـ«علوم الأوائل»، حيث حظيت هذه الحركة بأكبر قدر من التشجيع الأدبي و المادي ولا سيما في عصر الخليفة المأمون كما هو معروف.

ولا شك في أن ترجمات علوم الأوائل ولا سيما علوم اليونان، قد أثرت في مسيرة الفكر العربي، إذْ عبر العرب- من خلالها- طوْر البداوة والأشتات المختلفة من المعارف العلمية الموروثة إلى طوْر الحضارة والعلم المنظّم.

ولقد حوى التراث اليوناني المنقول إلى العربيّة الغثّ والسمين من الآراء والنظريات والأفكارغير أن فكرةً واحدةً من تلك الأفكار قُدِّر لها أَنْ تشغل بال العلماء العرب وتخلب ألبابهم وعلى الرغم من أن هذه الفكرة أقرب ما تكون إلى الأوهام والخرافات، كانت من أبرز علامات مسيرة تاريخ العلم في العصر الوسيط ثم امتد تأثيرها بعيْد عصر النهضة الأوروبية.

وتتلخّص هذه الفكرة في إمكانيّة تحويل المعادن الخسيسة كالحديد والنحاس إلى معادن نفيسة كالذهب بواسطة ما يعرف بالإكسير أو حجر الفلاسفة. والإكسير «هو الوسيلة السحريّة التي اعتقد أرباب الكيمياء أنهم يستطيعون بها تحويل المعادن الخسيسة إلى فضة وذهب وهو مرادف لحجر الفلاسفة» (١).

ويعرّف الخوارزمي (٣٨٧هـ) ملح الإكسير بأنه: «هو الدواء الذي إذا طبخ به الجسد المذاب جعله ذهباً أو فضة أو غيّره إلى البياض أو الصّفْرة» (٢).

ولقد آمن أرسطو بهذه الفكرة وضمّنها بعض مؤلفّاته التي نُقلتْ إلى العربية، بل وضع لها الإطار المنطقيَّ الذي يبعث على تصديقها «فقد بيّن أرسطو في كتابه في المعادن أنّ صناعة الكيمياء داخلة تحت الإمكان، ثم أثبتها بقياسٍ ألفّه من مقدّمتين بينّهما في أوّل الكتاب وهما؛ أنّ الفلزات واحدةٌ بالنوع، والاختلاف الذي بينهما ليس في ماهيّاتها وإنما هو فى أعراضها؛ فبعضه في أعراضها الذاتية وبعضه في أعراضها العرضية.

والثانية: ان كلّ شيئين تحت نوعٍ واحدٍ اختلفا

* باحث مصري

بعَرضٍ، فإنّه يمكن انتقال كل واحد منهما إلى الآخر... إلخ» [٣].

وأغلب الظن أنّ شهرة أرسطو ومدى ما يتمتّع به من احترامٍ وتأثير بالغين في الفكر العربي كانا وراء شيوع هذه الفكرة بين العلماء العرب في أوّل الأمر على الأقل. ولكن يبقى جانب هام لم يفطن إليه هؤلاء العلماء، وهو أن الكيمياء كعلم؛ أقلّ العلوم مكانةً في التراث اليوناني.

يقول بنيامين فارنتون B. Farrangton في كتابه «العلم الإغريقي»: لقد نجح الإغريق ممثّلين في شخص أرخميدس في استخلاص علم الإستاتيكا، لكن أرسطو لم يسجّل نجاحاً مماثلاً في استخلاص مجموعة من النظريات الكيميائية المقبولة. والنجاح في وضع علم الإستاتيكا والفشل في وضع علم الكيمياء مرشدان إلى مواضع القوة والضعف في جهود الإغريق العلمية [٤].

موقف العلماء العرب من تحويل المعادن:

لم يلق تراث حضارةٍ من الحضارات من عُسف وجورٍ في الحكم عليه مثلما لقيه التراث العلمي العربي فقدحلا لجمهرةٍ كبيرةٍ من المستشرقين ومؤرّخي العلم من الغربيِّين أنْ يتناولوا التراث العلمي العربي بالتهوين من شأنه أحياناً وتجاهله في أحيان أخرى، وإنكار دوره في تاريخ العلم الإنساني في أغلب الأحيان.

وأغلب الظن أنّ مثل هذه الآراء التي تسيء إلى العلم العربي ترجع إلى وجود بعض الخرافات التي تضمنها التراث العلمي العربي، والتي من أبرزها فكرة تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة، وهي الفكرة التي ارتبطت- في أذهان مؤرّخي العلم بالعرب وكأنها من ابتداعهم حتى أن العالم الكيميائي إسحاق أسيموف I. Asimov يقول في كتابه «البحث عن العناصر» تحت عنوان لا يخفى مغزاه على أحد وهو «الإسلام والأكاسير: «وكان السيميائيّون- يقصد الكيميائيين العرب- يواصلون البحث في كيفية تحويل الفلزات بتحمّسٍ شديدٍ. وكان كلّ واحدٍ يريد اكتشاف ذلك السرّ الذي يمكّنه من الثراء العاجل... إلخ» [٥].

ولا شك أنّ تعميما من هذا القبيل سوف يخلّ بالمبادىء الأساسية لمعطيات تاريخ العلم، تلك المبادىء التي تُفْسح المجال لصاحب الريادة في العلم، أن يكون جنبا إلى جنبٍ مع منْ ينفي الخرافة.

نقول هذا لأن مثل هؤلاء المستشرقين قد تناسوا أنّ الكثيرين من العلماء العرب قد نفوا الفكرة من أساسها، وبيّنوا فساد منْطقها ممّا يجعلهم في موضع الريادة حيال نفي الخرافات وهو أمر ليس بالقليل.

وعلى هذا الأساس فإنّنا سوف نعرض موقف طائفةٍ من أشهر علماء االعرب حيال هذه الفكرة؛ من آمن بها، ومن فرضها ضمن سياق تاريخيٍّ في محاولةٍ للتعرّف على آراء الفريقين:

أولاً . خالد بن يزيد (٨٥هـ) [٦]

هو أحد أمراء البيت الأموي الذي كان من المفروض أن يكون خليفةً للمسلمين بعد وفاة أخيه معاوية بن يزيد غير أن البيعة قد عقدت

بعَرضٍ، فإنّه يمكن انتقال كل واحد منهما إلى الآخر... إلخ» (٣).

وأغلب الظن أنّ شهرة أرسطو ومدى ما يتمتّع به من احترامٍ وتأثير بالغين في الفكر العربي كانا وراء شيوع هذه الفكرة بين العلماء العرب في أوّل الأمر على الأقل. ولكن يبقى جانب هام لم يفطن إليه هؤلاء العلماء، وهو أن الكيمياء كعلم؛ أقلّ العلوم مكانةً في التراث اليوناني.

يقول بنيامين فارنتون B. Farrangton في كتابه «العلم الإغريقي»: لقد نجح الإغريق ممثّلين في شخص أرخميدس في استخلاص علم الإستاتيكا، لكن أرسطو لم يسجّل نجاحاً مماثلاً في استخلاص مجموعة من النظريات الكيميائية المقبولة. والنجاح في وضع علم الإستاتيكا والفشل في وضع علم الكيمياء مرشدان إلى مواضع القوة والضعف في جهود الإغريق العلمية (٤).

موقف العلماء العرب من تحويل المعادن:

لم يلق تراث حضارةٍ من الحضارات من عُسف وجورٍ في الحكم عليه مثلما لقيه التراث العلمي العربي فقدحلا لجمهرةٍ كبيرةٍ من المستشرقين ومؤرّخي العلم من الغربيّين أَنْ يتناولوا التراث العلمي العربي بالتهوين من شأنه أحياناً وتجاهله في أحيان أخرى، وإنكار دوره في تاريخ العلم الإنساني في أغلب الأحيان.

وأغلب الظن أنّ مثل هذه الآراء التي تسيء إلى العلم العربي ترجع إلى وجود بعض الخرافات التي تضمنها التراث العلمي العربي، والتي من أبرزها فكرة تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة، وهي الفكرة التي ارتبطت- في أذهان مؤرّخي العلم بالعرب وكأنها من ابتداعهم حتى أن العالم الكيميائي إسحاق أسيموف I. Asimov يقول في كتابه «البحث عن العناصر» تحت عنوان لا يخفى مغزاه على أحد وهو «الإسلام والأكاسير: «وكان السيميائيّون- يقصد الكيميائيين العرب- يواصلون البحث في كيفية تحويل الفلزات بتحمّسٍ شديدٍ. وكان كلّ واحدٍ يريد اكتشاف ذلك السرّ الذي يمكّنه من الثراء العاجل... إلخ» (٥).

ولا شك أنّ تعميما من هذا القبيل سوف يخلّ بالمبادىء الأساسية لمعطيات تاريخ العلم، تلك المبادىء التي تُفْسح المجال لصاحب الريادة في العلم، أن يكون جنبا إلى جنبٍ مع مَنْ ينفي الخرافة.

نقول هذا لأن مثل هؤلاء المستشرقين قد تناسوا أنّ الكثيرين من العلماء العرب قد نفوا الفكرة من أساسها، وبيّنوا فساد منْطقها ممّا يجعلهم في موضع الريادة حيال نفي الخرافات وهو أمر ليس بالقليل.

وعلى هذا الأساس فإنّنا سوف نعرض موقف طائفةٍ من أشهر علماء االعرب حيال هذه الفكرة؛ من آمن بها، ومن فرضها ضمن سياق تاريخيٍّ في محاولةٍ للتعرّف على آراء الفريقين:

أولاً ٠ خالد بن يزيد (٨٥هـ) (٦)

هو أحد أمراء البيت الأموي الذي كان من المفروض أن يكون خليفةً للمسلمين بعد وفاة أخيه معاوية بن يزيد غير أن البيعة قد عقِدت

لمروان بن الحكم [٧].

ويتّضح من سيرة خالد بن يزيد أنه لم يكن ميّالاً إلى منازعة مروان الحكْم فاتّجه إلى تحصيل العلم واكتسابه، فقد كا ن خالد بن يزيد كما يقول ابن خلكان «منْ أعلْم قريش بفنون العلم وله كلام في صناعة الكيمياء والطب، وكان بصيراً بهذين العلمينْ متْقناً لهما» [٨].

ويبيّن لنا ابن النديم السبب الذي حدا بخالد أَنْ يتّجه إلى الاشتغال بالكيمياء بقوله: «إنّه قيل له- أي خالد- لقد فعلْت أكثر شغلك في طلب الصنعة (الكيمياء) فقال: ما أطلب بذاك إلاّ أَنْ أُغنْي أصحابي وإخواني؛ إنّي طمعْت في الخلافة فاختزلت دوني، فلم أجد منها عوضاً إلاّ أَنْ أبلغ آخر هذه الصناعة فلا أحوج أحداً عرفني يوماً»[٩].

إذن فقد آمن خالد بالكيمياء طلباً للذهب، وربما كان الدافع إلى ذلك، شراء الأعوان بالمال لعله يستردّ عرش الخلافة التي اختزلتْ دونه على حد قوله. وعلى كل حال؛ فإن أهمية شخصية كخالد لا تكمن في كونها شخصيّة علميّة يعتد بها، ولكن تكمن أهميّة خالد في أنه لفت الانتباه بشدّة إلى الكيمياء كعلم قد يرجى من ورائه المال الوفير، كما تكمن أهميته أيضاً في أنّ أوّل من نقلتْ إليه كتب الكيمياء، وهو أوّل نقل في الإسلام من لغة إلى لغة [١٠].

ثانياً - جابر بن حيان (٢٠٠هـ) [١١]

هو أشهر علماء العرب في الكيمياء والغنيّ عن التعريف، وله في الكيمياء والمنطق والفلسفة تآليف كثيرة ومصنفات مشهورة ضاع معظمها ولم يبْق منها غير ثمانين كتاباً ورسالة. وقد ترْجم بعض منها إلى اللاتينية، وكانت نبعا لعلماء أوروبا، كان لهذا النبع أثر كبير في تكوين مدرسة كيميائية ذات أثر فعّال في الغرب.

وكان جابر ممّن يعتقدون في إمكانية تحويل العناصر بعضها إلى بعض، إذْ جاء في كتابه «إخراج ما في القوّة إلى الفعل» قوله: «..... كما نمثّل لك أنّ الفضة التي لا فرق بينها وبين الذهب إلا الزانة والصفرة يمكن أن تصير ذهباً.

فللفضّة بالقوة أدنى قبولٍ للرزانة حتى تصير في قوام الذهب، ولها أدنى قبولٍ للصفرة حتى تكون بلون الذهب» [١٢].

كما جاءت نظريته التي وضعها في تكوين المعادن التي ترْجع أصْل المعادن جميعها إلى الزئبق والكبريت متفقةً مع اعتقاده بإمكانية التحويل. وتتلخّص نظرية جابر في «أنّ المعادن تتكوّن من عنصرين؛ أحدهما دخان أرضيّ، والثاني بخار مائي ويتكاثف هذان العنصران في جوف الأرض فينتج الكبريت والزئبق. ومن اتحادهما تتكوّن المعادن. والفرق بين معدنٍ وأخيه راجع إلى الفرق في النسبة التى يحتويها من الكبريت والزئبق. ففي الذهب يكون بينهما اتزان تام وفي الفضة يكونان متساويين في الوزن... إلخ» [١٣].

ومهما كان من أمر اعتقاد جابر بهذه الفكرة الخاطئة نظريّاً، المستحيلة عملياً، فإنها لم تخْل من فائدة، وربّ ضارة نافعة، ففي سبيل الحصول على الذهب عبْر ألوف التجارب تمكّن جابر من اكتشاف وتحضير الكثير من المركبات الكيميائية التي جعلت اسمه ضمن الصفوة من

لمروان بن الحكم (٧).

ويتّضح من سيرة خالد بن يزيد أنه لم يكن ميّالاً إلى منازعة مروان الحكم فاتّجه إلى تحصيل العلم واكتسابه، فقد كا ن خالد بن يزيد كما يقول ابن خلكان «من أعلم قريش بفنون العلم وله كلام في صناعة الكيمياء والطب، وكان بصيراً بهذين العلمين متْقناً لهما» (٨).

ويبيّن لنا ابن النديم السبب الذي حدا بخالد أن يتّجه إلى الاشتغال بالكيمياء بقوله: «إنّه قيل له- أي خالد- لقد فعلت أكثر شغلك في طلب الصنعة (الكيمياء) فقال: ما أطلب بذاك إلاّ أن أغني أصحابي وإخواني؛ إنّي طمعت في الخلافة فاختزلت دوني، فلم أجد منها عوضاً إلاّ أن أبلغ آخر هذه الصناعة فلا أحوج أحداً عرفني يوماً»(٩).

إذن فقد آمن خالد بالكيمياء طلباً للذهب، وربما كان الدافع إلى ذلك، شراء الأعوان بالمال لعله يستردّ عرش الخلافة التي اختزلت دونه على حد قوله. وعلى كل حال؛ فإن أهمية شخصية كخالد لا تكمن في كونها شخصيّة علميّة يعتد بها، ولكن تكمن أهميّة خالد في أنه لفت الانتباه بشدّة إلى الكيمياء كعلم قد يرجى من ورائه المال الوفير، كما تكمن أهميته أيضاً في أنّ أوّل من نقلت إليه كتب الكيمياء، وهو أوّل نقل في الإسلام من لغة إلى لغة (١٠).

ثانياً - جابر بن حيان (٢٠٠هـ) (١١)

هو أشهر علماء العرب في الكيمياء والغنيّ عن التعريف، وله في الكيمياء والمنطق والفلسفة تآليف كثيرة ومصنفات مشهورة ضاع معظمها ولم يبق منها غير ثمانين كتاباً ورسالة. وقد ترجم بعض منها إلى اللاتينية، وكانت نبعا لعلماء أوروبا، كان لهذا النبع أثر كبير في تكوين مدرسة كيميائية ذات أثر فعّال في الغرب.

وكان جابر ممّن يعتقدون في إمكانية تحويل العناصر بعضها إلى بعض، إذ جاء في كتابه «إخراج ما في القوّة إلى الفعل» قوله: «..... كما نمثّل لك أنّ الفضة التي لا فرق بينها وبين الذهب إلا الزانة والصفرة يمكن أن تصير ذهباً. فللفضّة بالقوة أدنى قبول للرزانة حتى تصير في قوام الذهب، ولها أدنى قبول للصفرة حتى تكون بلون الذهب» (١٢).

كما جاءت نظريته التي وضعها في تكوين المعادن التي ترجع أصل المعادن جميعها إلى الزئبق والكبريت متفقةً مع اعتقاده بإمكانية التحويل. وتتلخّص نظرية جابر في «أنّ المعادن تتكوّن من عنصرين؛ أحدهما دخان أرضيّ، والثاني بخار مائي ويتكاثف هذان العنصران في جوف الأرض فينتج الكبريت والزئبق. ومن اتحادهما تتكوّن المعادن. والفرق بين معدن وأخيه راجع إلى الفرق في النسبة التى يحتويها من الكبريت والزئبق. ففي الذهب يكون بينهما اتزان تام وفي الفضة يكونان متساويين في الوزن... إلخ» (١٣).

ومهما كان من أمر اعتقاد جابر بهذه الفكرة الخاطئة نظريّاً، المستحيلة عملياً، فإنها لم تخل من فائدة، وربّ ضارة نافعة، ففي سبيل الحصول على الذهب عبر ألوف التجارب تمكّن جابر من اكتشاف وتحضير الكثير من المركبات الكيميائية التي جعلت اسمه ضمن الصفوة من

الرواد الأوائل في تاريخ علم الكيمياء.

ثالثاً: الكندى (٢٥٢هـ)

هو أبويوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي، أورد له ابن النديم قائمةً طويلة من مؤلفاته زادت على مائة وأربعين مؤلفاً. وكان كما يتضح من عناوين بعض مؤلفاته من أشدّ المعارضين لفكرة تحويل المعادن فقد جاء ضِمْن مؤلفاته التي أوردها ابن النديم، كتابان هما؛ كتاب «التنبيه على خدع الكيميائيين» وكتاب في «إبطال دعوى من يدعي صنعة الذهب والفضة». وللأسف الشديد أنّ هذين الكتابين مفقودان، لذا فإننا لا نستطيع أن نتعرف على الأسباب التي دعته إلى اتخاذ هذا الموقف.

غير أن المسعودي الذي يتضح كذلك أنه من أشد المعارضين لهذه الفكرة قد أورد فقرةً على درجةٍ كبيرة من الأهميّة في مؤلفّه الشهير «مروج الذهب» مبيّناً رأيه ورأي الكندي من هذه الفكرة، إذْ يقول: «ولطلاب صنعة الكيمياء من الذهب والفضة وأنواع الجوهر من اللؤلؤ وغيره وصنعة أنواع الإكسيرات وإقامة الزئبق وصنعته فضة وغير ذلك من خدعهم وحيلهم.

وقد صنف يعقوب بن إسحاق الكندي رسالةً في ذلك وجعلها مقالتين يذكر فيها تعذّر فعل الناس لما انفردت الطبيعة بفعله وخدعِ أهل هذه الصناعة وحيلهم، وترجم هذه الرسالة بإبطال دعوى الدّاعين صنعة الذهب والفضة من غير معادنها، وهذا بابٌ قد تنازع الناس فيه، ونحن نعوذ بالله من هذا التهوّس فيما يَخْسف الدماغ ويذهب بنور الأبصار.. إلخ» (١٣).

رابعاً - الجاحظ (٢٥٥هـ)

هو أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ، أديب العربية الأشهر، وبرغم أنه لم يكن عالماً بالمعنى المعروف لكلمة عالم، إلاّ أنّ مؤلّفاته لم تخل من معارف علميّة شتّى.

فكتاب «الحيوان» يصنّف عادة ضِمْن التراث العلمي العربي، مع أنّه أقرب ما يكونَ في بعض فصوله إلى الأدب وفنونه.

ففى هذا الكتاب يوردِ الجاحظ نصّاً هاماً يدلّ على أنّه لم يحدث أَنْ صنِع ذهب عن طريق التجربة، وحتّى بغرض حدوثه فإنّه لا يحدث إلاّ بعد آلاف السنين عن طريق المصادفة التي من الصّعب تكرارها.

يقول الجاحظ: «وقد زَعم ناسٌ أنّ الفرق بينهما- يقصد الذهب وغيره من المواد- إنما هو أنّ كل شيءٍ له في العالم أصل وخميرة، لم يكن كالشيء الذي يكتسب ويجتلب ويلفّق، وأن الذهب لا يخلو من أَنْ يكون ركناً من الأركان قائماً منذ كان الهواء والماء والنارِ والأرض. فإنْ كان كذلك فهو أبعد شيءٍ من أَنْ يولّد الناس مثله. وإِنْ كان الذهب إنما حدث في عمق الأرض، بأن يصادف من الأرض جوهراً، ومن الهواء الذي في خلالها جوهراً، ومن الماء الملابِسِ لها جوهراً، ومن النار المحصورة فيها جوهراً، مع مقدار من طول مرور الزمان. فإن كان الذهب إنما هو نتيجة هذه الجواهر على هذه الأسباب، فواجب ألاّ يكون الذهب أبداً إلاّ كذلك. فلو كان هذا الأمر- يقصد صناعة الذهب- يجيء من وجه الجمْع والتوليد والتركيب والتجريب أو من

الرواد الأوائل في تاريخ علم الكيمياء.

ثالثاً: الكندي (٢٥٢هـ)

هو أبويوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي، أورد له ابن النديم قائمةً طويلة من مؤلفاته زادت على مائة وأربعين مؤلفاً. وكان كما يتضح من عناوين بعض مؤلفاته من أشدّ المعارضين لفكرة تحويل المعادن فقد جاء ضِمْن مؤلفاته التي أوردها ابن النديم، كتابان هما؛ كتاب «التنبيه على خدع الكيميائيين» وكتاب في «إبطال دعوى من يدعي صنعة الذهب والفضة». وللأسف الشديد أنّ هذين الكتابين مفقودان، لذا فإننا لا نستطيع أن نتعرف على الأسباب التي دعته إلى اتخاذ هذا الموقف.

غير أن المسعودي الذي يتضح كذلك أنه من أشد المعارضين لهذه الفكرة قد أورد فقرةً على درجةٍ كبيرة من الأهميّة في مؤلفّه الشهير «مروج الذهب» مبيّناً رأيه ورأي الكندي من هذه الفكرة، إذْ يقول: «ولطلاب صنعة الكيمياء من الذهب والفضة وأنواع الجوهر من اللؤلؤ وغيره وصنعة أنواع الإكسيرات وإقامة الزئبق وصنعته فضة وغير ذلك من خدعهم وحيلهم.

وقد صنف يعقوب بن إسحاق الكندي رسالةً في ذلك وجعلها مقالتين يذكر فيها تعذِّر فعل الناس لما انفردت الطبيعة بفعله وخُدعِ أهل هذه الصناعة وحيلهم، وترجم هذه الرسالة بإبطال دعوى الدّاعين صنعة الذهب والفضة من غير معادنها، وهذا بابٌ قد تنازع الناس فيه، ونحن نعوذ بالله من هذا التهوّس فيما يَخْسف الدماغ ويذهب بنور الأبصار.. إلخ» (١٣).

رابعاً - الجاحظ (٢٥٥هـ)

هو أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ، أديب العربية الأشهر، وبرغم أنه لم يكن عالماً بالمعنى المعروف لكلمة عالم، إلاّ أنّ مؤلّفاته لم تخل من معارف علميّة شتّى.

فكتاب «الحيوان» يصنّف عادة ضِمْن التراث العلمي العربي، مع أنّه أقرب ما يكون في بعض فصوله إلى الأدب وفنونه.

ففي هذا الكتاب يوردِ الجاحظ نصّاً هاماً يدلّ على أنّه لم يحدث أَنْ صنِع ذهب عن طريق التجربة، وحتّى بغرض حدوثه فإنّه لا يحدث إلاّ بعد آلاف السنين عن طريق المصادفة التي من الصّعب تكرارها.

يقول الجاحظ: «وقد زَعم ناسٌ أنّ الفرق بينهما- يقصد الذهب وغيره مِن المواد- إنما هو أنّ كل شيءٍ له في العالم أصلٌ وخميرة، لم يكن كالشيء الذي يكتسب ويجتلب ويلفّق، وأن الذهب لا يخلو من أَنْ يكون ركناً من الأركان قائماً منذ كان الهواء والماء والنارِ والأرض. فإنْ كان كذلك فهو أبعد شيءٍ من أَنْ يولّد الناس مثله. وإِنْ كان الذهب إنما حدث في عمق الأرض، بأن يصادف من الأرض جوهراً، ومن الهواء الذي في خلالها جوهراً، ومن الماء الملابِسِ لها جوهراً، ومن النار المحصورة فيها جوهراً، مع مقدار من طول مرور الزمان. فإن كان الذهب إنما هو نتيجة هذه الجواهر على هذه الأسباب، فواجب ألاّ يكون الذهب أبداً إلاّ كذلك. فلو كان هذا الأمر- يقصد صناعة الذهب- يجيء من وجه الجمْع والتوليد والتركيب والتجريب أو من

وجه الإتفاق، لقد كان ينبغي أَنْ يكون ذلك قد ظهر من ألوف سنين وألوف، إِذْ كان هذا المقدار أقلّ ما تؤرّخ به الأمم، ولكان هذا مقبولاً غير مردود.

وعلى أنه لم يتبين لنا منه أنه يستحيل أن يكون الذهب إلاّ من حيث وجِدْ. ولو أنّ قائلاً قال: إن هذا الأمر قد يحتاج إلى أن تتهيأ له طباع الأرض، وطباع الماء وطباع الهواء وطباع النار، ومقدارٍ من طول الزمان. فمتى لم تجتمع هذه الخصال وتكمل هذه الأمور لم يتمّ خلق الذهب. وكذلك قد يستقيم أَنْ يكون قد تهيأ لواحدٍ أَنْ يجمع بين مائتي شكلٍ من الجواهر، فمزجها على مقادير، وطبخها على مقادير، وأغبّها مقداراً من الزمان، وكان بعض ما جرى على يده اتفاقاً، وبعضه قصداً، فلمّا اجتمعت جاء منها ذهب، فوقع ذلك في خمسة آلاف سنة مرة، ثم أراد صاحبه المعاودة فلم يقْدِر على أمثال مقادير طبائع تلك الجواهر، ولم يضبط مقادير ما كان قصد إليه في تلك المرة، وأخطأ ما كان وقع له اتفاقاً، فلم يعد له ذلك. فإذا وجدنا هذه الأمور كلها نافية له كان ذلك عندنا هو المقْنِع» (١٥).

خامساً - الرازي (٣١١هـ)

هو أبوبكر محمد بن زكريا الرازي، أحد أفذاذ العلماء المسملين. ويتضح من سيرته وتأليفه أنه كان ممّن يعتقدون بإمكانية تحويل المعادن إلى ذهب، وينْسب إليه أنه قد تمكّن من تحضير الذهب لمرّةٍ واحدة. ويبدو أنّه ادعى ذلك ثم ثبت عجزه عن تحقيقه (١٦).

غير أنّ معرفة حقيقة موقف الرازي من عملية تحويل المعادن إلى ذهب، يمكن إيضاحها من خلال التأمّل والبحث في حياة الرازي نفسه. صحيح أن الرازي قد عالج الكيمياء وقت أَنْ كانت لا تعني سوى شيءٍ واحدٍ هو؛ الحصول على الذهب من خلال ما يسمّى بالإكسير، إلاّ أنه قد رجع- فيما بعد- عمّا قرّ في ذهنه من عملية التحويل هذه .

ولتفصيل ذلك نقول: ان الرازي قد مرّ بمرحلتين في حياته العلمية؛ الأولى هي اشتغاله بالكيمياء، أما الثانية فهي اشتغاله بالطب الذي اشتهر به.

وعن المرحلة الأولى يحدثنا ابن أبي أصيبعة بقوله: «وكان في أوّل أمره- أي الرازي- قد عني بعلم السيمياء والكيمياء وما يتعلق بهذا الفن، وله تصانيف أيضاً في ذلك وكان يقول: أنا لا أسمّي فيلسوفاً إلا من كان قد علم صنعة الكيمياء لأنه قد استغنى عن التكسّبِ من أوساخ الناس، وتنزّه عمّا في أيديهم ولم يحْتج إليهم.

وحدثني بعض الأطباء أن الرازي كان قد باع لقومٍ من الروم سبائك ذهب وساروا بها إلي بلادهم، ثم أنّهم بعد ذلك بسنين عدّة وجدوها وقد تغيّر لونها بعضِ التغييروتبين لهم زيفها فجاؤوا بها إليه وأُلْزِم بردّها» (١٧).

إِذنْ فقد تبيّن للرازي أنّ كل ما صنعه ذهباً بغرض التكسب لم يكن إلاّ وهماً، ويبدو أن فشله في صناعة الذهب قد أوحى له بأن يتّجه وجهةً مغايرة، وكانت هذه الوجهة المغايرة هي الطبّ الذي تعلّمه بعد أن تقدّم به السنّ. ويروي البيهقي خبرا طريفاً حول عدول الرازي عن فكرة صناعة الذهب حيث يقول: «كان الرازي قد بدأ

وجه الإتفاق، لقد كان ينبغي أَنْ يكون ذلك قد ظهر من ألوف سنين وألوف، إذْ كان هذا المقدار أقلّ ما تؤرّخ به الأمم، ولكان هذا مقبولاً غير مردود.

وعلى أنه لم يتبين لنا منه أنه يستحيل أن يكون الذهب إلاّ من حيث وجدْ. ولو أنّ قائلاً قال: إن هذا الأمر قد يحتاج إلى أن تتهيأ له طباع الأرض، وطباع الماء وطباع الهواء وطباع النار، ومقدارٍ من طول الزمان. فمتى لم تجتمع هذه الخصال وتكمل هذه الأمور لم يتمّ خلق الذهب. وكذلك قد يستقيم أَنْ يكون قد تهيأ لواحدٍ أَنْ يجمع بين مائتي شكلٍ من الجواهر، فمزجها على مقادير، وطبخها على مقادير، وأغبّها مقداراً من الزمان، وكان بعض ما جرى على يده اتفاقاً، وبعضه قصداً، فلمّا اجتمعت جاء منها ذهب، فوقع ذلك في خمسة آلاف سنة مرة، ثم أراد صاحبه المعاودة فلم يقْدِر على أمثال مقادير طبائع تلك الجواهر، ولم يضبط مقادير ما كان قصد إليه في تلك المرة، وأخطأ ما كان وقع له اتفاقاً، فلم يعد له ذلك. فإذا وجدنا هذه الأمور كلها نافية له كان ذلك عندنا هو المقْنِع» (١٥).

خامساً - الرازي (٣١١هـ)

هو أبوبكر محمد بن زكريا الرازي، أحد أفذاذ العلماء المسلمين. ويتضح من سيرته وتأليفه أنه كان ممّن يعتقدون بإمكانية تحويل المعادن إلى ذهب، وينْسب إليه أنه قد تمكّن من تحضير الذهب لمرّةٍ واحدة. ويبدو أنّه ادعى ذلك ثم ثبت عجزه عن تحقيقه (١٦).

غير أنّ معرفة حقيقة موقف الرازي من عملية تحويل المعادن إلى ذهب، يمكن إيضاحها من خلال التأمّل والبحث في حياة الرازي نفسه. صحيح أن الرازي قد عالج الكيمياء وقت أَنْ كانت لا تعني سوى شيءٍ واحدٍ هو؛ الحصول على الذهب من خلال ما يسمّى بالإكسير، إلاّ أنه قد رجع- فيما بعد- عمّا قرّ في ذهنه من عملية التحويل هذه .

ولتفصيل ذلك نقول: ان الرازي قد مرّ بمرحلتين في حياته العلمية؛ الأولى هي اشتغاله بالكيمياء، أما الثانية فهي اشتغاله بالطب الذي اشتهر به.

وعن المرحلة الأولى يحدثنا ابن أبي أصيبعة بقوله: «وكان في أوّل أمره- أي الرازي- قد عني بعلم السيمياء والكيمياء وما يتعلق بهذا الفن، وله تصانيف أيضاً في ذلك وكان يقول: أنا لا أسمّي فيلسوفاً إلا من كان قد علم صنعة الكيمياء لأنه قد استغنى عن التكسّبِ من أوساخ الناس، وتنزّه عمّا في أيديهم ولم يحْتج إليهم.

وحدثني بعض الأطباء أن الرازي كان قد باع لقومٍ من الروم سبائك ذهب وساروا بها إلي بلادهم، ثم أنّهم بعد ذلك بسنين عدّة وجدوها وقد تغيّر لونها بعضِ التغييروتبين لهم زيفها فجاؤوا بها إليه وأُلْزِم بردّها» (١٧).

إذنْ فقد تبيّن للرازي أنّ كل ما صنعه ذهباً بغرض التكسب لم يكن إلاّ وهماً، ويبدو أن فشله في صناعة الذهب قد أوحى له بأن يتّجه وجهةً مغايرة، وكانت هذه الوجهة المغايرة هي الطبّ الذي تعلّمه بعد أن تقدّم به السنّ. ويروي البيهقي خبرا طريفاً حول عدول الرازي عن فكرة صناعة الذهب حيث يقول: «كان الرازي قد بدأ

أمره صائغاً، ثم اشتغل بعلم الإكسير، فرمدت عيناه بسبب أبخرة العقاقير المستعملة في الإكسير، فذهب إلى طبيبٍ ليعالجه، فقال له الطبيب: لا أعالجك حتّى آخذ منك خمسمائة دينار. فدفع إليه الرازي وقال: هذا هو الكيمياء لا ما اشْتَغَلْت به. فترك صناعة الإكسير، واشتغل بعلم الطبّ، حتى نسخت تصانيفه تصانيف من قبله من الأطباء» [١٨].

سادساً - ابن سينا (٤٢٨هـ)

هو أبوعلي الحسين بن عبدالله بن علي بن سينا، أحد أفذاذ علماء المسلمين الذين برزوا في أكثر من مجالٍ من مجالات العلوم، غير أنّه قد اشتهر بالطبّ وقد أصبح على حدّ تعبير أحد المستشرقين وكأنّه «أنجيل الطبّ في العصور الوسطى» [١٩]. ولابن سينا رأي سديد للغاية، يعدّ فصلْ المقال في عملية تحويل المعادن إذ يقول في كتابه «الشفاء»: «وأمّا ما يدّعيه أصحاب الكيمياء فيجب أنْ يُعلم أنّه ليس في أيديهم أنْ يقلبوا الأنواع قلباً حقيقياً، ولكن في أيديهم تشبيهاتٍ حسيّة حتى يصبْغوا الأحمر صبغاً شديد الشّبه بالفضة، ويصبغوا الفضة صبغاً أحمر شديد الشبه بالذهب... إلخ» [٢٠].

ويلخص ابن خلدون رأيْ ابن سينا بقوله: «والذي ذهب إليه ابن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق أنّها- أي المعادن- مختلفةٌ بالفصول- أي الخواص- وأنها أنواع متباينة؛ كلّ واحد منها قائم بنفسه متحقّق بحقيقته شأن سائر الأنواع.

وبنى ابن سيناعلى مذهبه في اختلافها بالنّوع إنكار هذه الصنعة واستحالة وجودها بناءً على أن الفصلْ لا سبيل بالصنعة إليه، وإنما يخلقه خالق الأشياء ومقدّرها، وهو اللّه عزّ وجل» [٢١].

سابعاً - الطغرائي (٥١٥هـ)

هو أبوإسماعيل الحسين بن علي المعروف بالطغرائي يقول ياقوت الحموي عنه: «كان آيةً في الكتابة والشعر، خبيراً بصناعة الكيمياء، له فيها تصانيف أضاع ا لناس بمزاولتها أموالاً لا تُحصى» [٢٢].

والطغرائي هو واحدُ من القلّة التي اعتقدت بأنه في الإمكان تحويل المعادن إلى ذهب، فقد ألّف في الكيمياء مؤلّفات عديدةٍ منها «حقائق الاستشهاد» وهي رسالة وضعها للرد علي ابن سينا الذي كان ينادي بعدم إمكانية التحويل.

ولعلّ القارىء لهذه الرسالة سوف يتضح له أنّ غالبية آراء الطغرائي في هذا الشأن يغْلب عليها الطابع النظريّ، كما يتّضح له أيضاً أنّ الطغرائي قد أجرى بعضٍ التجارب ولمس من خلالها التغيّر الذي يحدْثه التفاعل الكيميائي في المواد بحيث لا تعود هذه المواد إلى حالتها الأصلية التي كانت عليها قبل التفاعل. غير أن الطغرائي قد أخْطأ في القياس والاستنتاج، فظن أنّه عن طريق مثل هذه التفاعلات يمكن تغيير المواد إلى ذهب مثلاً. ولذا نجده في معرض الردّ على ابن سينا يقول: «ونحكم على رسالة صاحبك- يقصد ابن سينا بالاضطراب وفساد المأخذ، ونقول أن أعماله تخالف القوانين الحكَميّة. وممّا ينبهك على فساد مأخذ صاحبك أنّكَ معترف إنّه لا عمَلَ إلاّ بمزاج، ولا مزاج إلا

أمره صائغاً، ثم اشتغل بعلم الإكسير، فرمدت عيناه بسبب أبخرة العقاقير المستعملة في الإكسير، فذهب إلى طبيبٍ ليعالجه، فقال له الطبيب: لا أعالجك حتّى آخذ منك خمسمائة دينار. فدفع إليه الرازي وقال: هذا هو الكيمياء لا ما اشْتَغَلْت به. فترك صناعة الإكسير، واشتغل بعلم الطبّ، حتى نسخت تصانيفه تصانيف من قبله من الأطباء» (١٨).

سادساً - إبن سينا (٤٢٨هـ)

هو أبوعلي الحسين بن عبدالله بن علي بن سينا، أحد أفذاذ علماء المسلمين الذين برزوا في أكثر من مجالٍ من مجالات العلوم، غير أنّه قد اشتهر بالطبّ وقد أصبح على حدّ تعبير أحد المستشرقين وكأنّه «أنجيل الطبّ في العصور الوسطى» (١٩). ولابن سينا رأي سديد للغاية، يعدّ فصْلَ المقال في عملية تحويل المعادن إذ يقول في كتابه «الشفاء»: «وأمّا ما يدّعيه أصحاب الكيمياء فيجب أَنْ يُعلم أنّه ليس في أيديهم أَنْ يقْلبوا الأنواع قلباً حقيقياً، ولكن في أيديهم تشبيهاتٍ حسيّة حتى يصْبغوا الأحمر صبغاً شديد الشّبه بالفضة، ويصبغوا الفضة صبغاً أحمر شديد الشبه بالذهب... إلخ» (٢٠).

ويلخص ابن خلدون رأيْ ابن سينا بقوله: «والذي ذَهب إليه ابن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق أنّها- أي المعادن- مختلفةٌ بالفصول- أي الخواص- وأنها أنواع متباينة؛ كلّ واحد منها قائم بنفسه متحقّق بحقيقته شأن سائر الأنواع.

وبنى ابن سيناعلى مذهبه في اختلافها بالنّوع إنكار هذه الصنعة واستحالة وجودها بناءً على أن الفصْل لا سبيل بالصنعة إليه، وإنما يخلقه خالق الأشياء ومقدّرها، وهو اللّه عزّ وجل» (٢١).

سابعاً - الطغرائى (٥١٥هـ)

هو أبوإسماعيل الحسين بن علي المعروف بالطغرائى يقول ياقوت الحموي عنه: «كان آيةً في الكتابة والشعر، خبيراً بصناعة الكيمياء، له فيها تصانيف أضاع ا لناس بمزاولتها أموالاً لا تُحْصى» (٢٢).

والطغرائي هو واحدُ من القلّة التي اعتقدت بأنه في الإمكان تحويل المعادن إلى ذهب، فقد ألّف في الكيمياء مؤلّفات عديدةٍ منها «حقائق الاستشهاد» وهي رسالة وضعها للرد علي ابن سينا الذي كان ينادي بعدم إمكانية التحويل.

ولعلّ القارىء لهذه الرسالة سوف يتضح له أنّ غالبية آراء الطغرائي في هذا الشأن يغْلب عليها الطابع النظريّ، كما يتّضح له أيضاً أنّ الطغرائي قد أجرى بعضِ التجارب ولمس من خلالها التغيّر الذي يحْدثه التفاعل الكيميائي في المواد بحيث لا تعود هذه المواد إلى حالتها الأصلية التي كانت عليها قبل التفاعل. غير أن الطغرائي قد أخْطأ في القياس والاستنتاج، فظن أنّه عن طريق مثل هذه التفاعلات يمكن تغيير المواد إلى ذهب مثلاً. ولذا نجده في معرض الردّ على ابن سينا يقول: «ونحكم على رسالة صاحبك- يقصد ابن سينا بالاضطراب وفساد المأخذ، ونقول أن أعماله تخالف القوانين الحكَميّة. وممّا ينبهك على فساد مأخذ صاحبك أنّكَ معترف إنّه لا عمَل إلاّ بمزاج، ولا مزاج إلا

بحلٍّ كاملٍ، ولا حلّ إلا بالمياه الحادّة- يقصد الأحماض- فإذا طُرحت تلك المياه الحادّة على جسدٍ وكلْس وروح متصاعدة فتهرّى ذلك الشيء فيها وانتقص تركيبه وتحلّل بتصاغر الأجزاء والتّهبّي- أَيْ صار كالهباء- واختلطت بأجزائه الأجزاء التي كانت منحلّة من العقاقير بالمياه، واختلاطها بما لا يغاير طبعها... إلخ» (٢٣).

وفي رأينا أنّ الطغرائي لم يكن مؤهّلاً لأن يكون عالماً كجابر بن حيان الذي لم يكف عن التجارب واكتشاف المركبات الكيميائية، وربّما يرجع ذلك إلى سببين:

الأول: أنّ الطغرائي قد شغلته المناصب وأمور السياسة فقد «خدم السلطان ملك شاه، وكان منْشِيء السلطان محمد مدّة ملكه، متولّي ديوان الطغراء، وصاحب ديوان الإنشاء، وتنقل في المناصب والمراتب وترشح للوزارة.... إلخ» (٢٤).

ويعترف الطغرائي بنفسه في مقدّمة كتابه «مفاتيح الرحمة» فيقول: «إني مذ حصلت لي مبادىء التمييز، ولاحت لي معالم المعارف، لم أزل حريصاً على اقتباس الفوائد، والإكباب على مطالعة الكتب، وكان زماني يضيق عن الجمْع بين خدمة الملوك، وفك الرموز، إلى أَنْ أتاح الله عزّ وجل لي عطلةً كان ظاهرها نكبةً عظيمة، وباطنها نعمة جسيمة، فتفرّغت للمطالعة وأكببتُ عليها ليلاً ونهاراً، من غير سأمٍ ولا ضجر، وهجرت سائر العلوم أصلاً، ليتوفّر الفكْر على هذا الفن،فلم أزل أطلع على الكلمة بعد الكلمة حتى برح الخفاء وكشف الغطاء...... إلخ» (٢٥).

الثاني: أن الطغرائي لم يؤْثَر عنه اشتهاره بالتجارب والصبر عليها، بل إنه- كما يتّضح من قوله السّابق- قد أعْمل فكره من خلال مطالعاته في كتب الكيمياء قياساً واستنتاجاً.

إذن فالطغرائي كان قارئاً ومفسّراً لكتب الأقدمين في علم أميز ما يتّصف به إجراء التجارب.

ثامناً - شيخ الربوة (٧٢٧هـ)

هو شمس الدين الدمشقي الذي اشتهر باسم «شيخ الربوة» جاء في «الأعلام» للزركلي: «شيخ الربوة (٦٥٤-٧٢٧هـ)، هو محمد بن أبي طالب الأنصاري، شمس الدين، صاحبُ كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» ولِد في دمشق ووُلّي مشيخة الربوة وتوفي في صَفد (٢٦).

وهذا العالم الذي لم يسمع باسمه الكثيرون كان رفْضه لفكرة تحويل المعادن قاطعاً مع شيءٍ من العنف والحدّة في القول. فقد أفرد فصلاً خاصاً في كتابه «نخبة الدهر» بعنوان «في الردّ علي أهل الكيمياء، وبيان أنّ الذين يصنْعونه زغل وغشّ والبرهان العقلي شاهد به» أدَار فيه حواراً بين من أسماهم بالمحققين والذي يقصد به أهل الحقيقة وأصحاب الرأي الصائب وبين الكيماويين.

ويتلخّص هذا الحوار في اتهام «المحقّقين» للكيماويين الذين يدّعون بإمكانهم تحويل النحاس إلى ذهب بأنهم «صبّاغون لا خلاّقون، وأن استحلال ذلك باطل لأنه غشّ أخاه المسلم وأخفى عنه ما لو ظَهر له لم يشتره منه، ولأن المشتري له إنما يشتري نفْع المعدن لا الصباغة» (٢٧).

تاسعاً - علماء الأندلس والمغرب :

وإذا كانت آراء علماء المشرق ترجح عدم

بحلٍّ كاملٍ، ولا حلّ إلا بالمياه الحادّة- يقصد الأحماض- فإذا طُرحت تلك المياه الحادّة على جسدٍ وكلْس وروح متصاعدة فتهرّى ذلك الشيء فيها وانتقص تركيبه وتحلّل بتصاغر الأجزاء والتّهبّي- أيْ صار كالهباء- واختلطت بأجزائه الأجزاء التي كانت منحلّة من العقاقير بالمياه، واختلاطها بما لا يغاير طبعها... إلخ» (٢٣).

وفي رأينا أنّ الطغرائي لم يكن مؤهّلاً لأن يكون عالماً كجابر بن حيان الذي لم يكف عن التجارب واكتشاف المركبات الكيميائية، وربّما يرجع ذلك إلى سببين:

الأول: أنّ الطغرائي قد شغلته المناصب وأمور السياسة فقد «خدم السلطان ملك شاه، وكان منْشِىء السلطان محمد مدّة ملكه، متولّي ديوان الطغراء، وصاحب ديوان الإنشاء، وتنقل في المناصب والمراتب وترشح للوزارة.... إلخ» (٢٤).

ويعترف الطغرائي بنفسه في مقدّمة كتابه «مفاتيح الرحمة» فيقول: «إني مذ حصلت لي مبادىء التمييز، ولاحت لي معالم المعارف، لم أزل حريصاً على اقتباس الفوائد، والإكباب على مطالعة الكتب، وكان زماني يضيق عن الجمْع بين خدمة الملوك، وفك الرموز، إلى أنْ أتاح الله عزّ وجل لي عطلةً كان ظاهرها نكبةً عظيمة، وباطنها نعمة جسيمة، فتفرّغت للمطالعة وأكببتُ عليها ليلاً ونهاراً، من غير سأمٍ ولا ضجر، وهجرت سائر العلوم أصلاً، ليتوفّر الفكْر على هذا الفن،فلم أزل أطلع على الكلمة بعد الكلمة حتى برح الخفاء وكشف الغطاء...... إلخ» (٢٥).

الثاني: أن الطغرائي لم يؤْثَر عنه اشتهاره بالتجارب والصبر عليها، بل إنه- كما يتّضح من قوله السّابق- قد أعْمل فكره من خلال مطالعاته في كتب الكيمياء قياساً واستنتاجاً.

إذن فالطغرائي كان قارئاً ومفسّراً لكتب الأقدمين في علم أميز ما يتّصف به إجراء التجارب.

ثامناً - شيخ الربوة (٧٢٧هـ)

هو شمس الدين الدمشقي الذي اشتهر باسم «شيخ الربوة» جاء في «الأعلام» للزركلي: «شيخ الربوة (٦٥٤-٧٢٧هـ)، هو محمد بن أبي طالب الأنصاري، شمس الدين، صاحبِ كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» ولِدَ في دمشق ووُلّي مشيخة الربوة وتوفي في صفد (٢٦).

وهذا العالم الذي لم يسمع باسمه الكثيرون كان رفْضه لفكرة تحويل المعادن قاطعاً مع شيءٍ من العنف والحدّة في القول. فقد أفرد فصلاً خاصاً في كتابه «نخبة الدهر» بعنوان «في الردّ على أهل الكيمياء، وبيان أنّ الذين يصنْعونه زغلٌ وغشٌ والبرهان العقلي شاهد به» أدار فيه حواراً بين من أسماهم بالمحققين والذي يقصد به أهل الحقيقة وأصحاب الرأي الصائب وبين الكيماويين.

ويتلخّص هذا الحوار في اتهام «المحقّقين» للكيماويين الذين يدّعون بإمكانهم تحويل النحاس إلى ذهب بأنهم «صبّاغون لا خلاّقون، وأن استحلال ذلك باطلٌ لأنه غشّ أخاه المسلم وأخفى عنه ما لو ظهر له لم يشتره منه، ولأن المشتري له إنما يشتري نفْع المعدن لا الصباغة» (٢٧).

تاسعاً - علماء الأندلس والمغرب :

وإذا كانت آراء علماء المشرق ترجح عدم

قبول فكرة التحويل باستثناء جابر بن حيان والطغرائي، فإن علماء المغرب والأندلس باستثناء مسلمة المجريطي (٣٩٨هـ)- الذي تبنّى رأي جابر في إمكانية التحويل [٢٨] قد نفوا الفكرة من أصلها نفياً قاطعاً. جاء في «العقد الفريد» لابنِ عبدربه قوله: «قال أبويوسف القاضي من طلب المال بالكيمياء لم يسلم من الفقرة» [٢٩]. كما ردّد أبوحيان التوحيدي هذا القول بالمعنى واللفظ في كتابه «الإمتاع والمؤانسة» [٣٠].

ولعل تكرار هذا القول لدى قطبين من أقطاب الأدب والفكر في الأندلس، يبيّن لنا بجلاء لا شكّ فيه أن هذا القول لم يصدر- عن رأيٍ شخصيٍ لهما، بل كان تعبيراً عن واقع الحياة العقلية في الأندلس الرافض لهذه الفكرة.

أما ابن خلدون (٧٣٢-٧٥١هـ) فكان له رأيٌ يتّسم بالعقلانية حيال هذه الخرافة، إذ شن حملة شعواء على القائلين بها مهْمَا علا قدرهم كجابر بن حيان، حيث خصص فصلاً كاملاً من فصول مقدمته الشهيرة بعنوان «فصل في إنكار ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد عن انتحالها» جاء فيه «إعلم أنّ كثيراً من العاجزين، عن معاشهم تحملهم المطامع على انتحال هذه الصنائع ويرون أنها أَحد مذاهب المعاش ووجوهه، وأن اقتناء المال منها أيْسر وأسْهل على مبتغيه فيرتكبون فيها من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب وخسارةِ الأموال في النفقات، وإنما أطْمَعهم في ذلك رؤْية أنّ المعادن تستحيل وينقلب بعضها إلى بعض للمادة المشتركة، فيحاولون بالعلاج صيرورة الفضة ذهباً والنحاس والقصدير فضة.

فاوضت يوماً شيخنا كبير مشيخة الأندلس في مثل ذلك ووقْفته على بعض التآليف فيها- يقصد الكيمياء- فتصفّحه طويلاً ثم ردّه إليّ وقال لي: «وأنا الضامن له أَنْ لا يعود إلى بيته إلاّ بالخيبة». ثم منهم من يقتصر في ذلك على الدُلسة- أي الخديعة- فقط، أما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب أو النحاس بالفضة أو خلطهما، أو الخفيّة كإلقاء الشبّة بين المعادن بالصناعة مثل تبييض النحاس وتليينه بالزّوَق المصعّد- يقصد الزئبق- فيجيء جسماً معدنياً شبيهاً بالفضة ويخفي إلاّ على النقّاد المهرة، وهؤلاء أخسّ الناس حرْفةً وأسوأهم عاقبة لتلبسّهم بسرقة أموال الناس. فإنّ صاحب هذه الدّلسة إنّما هو يدْفع نحاساً في الفضة وفضة في الذهب ليستخلصها لنفسه فهو سارق وأشرّ من السارق. وهذا الصنْف لا كَلام معهم لأنهم بلغوا الغاية في الجهل والرداءة والاحتراف بالسرقة ولا حاسم لعلتهم إلا اشتداد الحكّام عليهم وقَطعْ أيديهم.

وأما من انتحل هذه الصناعة، إنما يطلب إحالة الفضة للذهب والرصاص والنحاس إلى الفضة، فإنا لا نعلم أن أحداً من أهل العلْم تم له هذا الغرض، أو حصل منه على بغية، إنما تذهب أعمارهم في التدبير والتصعيد والتكليس، ويتناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم، فإذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعاينة أنكروه، وقالوا إنما سمعنا ولم نر. هكذا شأنهم في كل عصر وجيل» [٣١].

خاتمة:

نخلص من هذا الرأي القائل بأنه في الإمكان

قبول فكرة التحويل باستثناء جابر بن حيان والطغرائي، فإن علماء المغرب والأندلس باستثناء مسلمة المجريطي (٣٩٨هـ)- الذي تبنّى رأي جابر في إمكانية التحويل [٢٨] قد نفوا الفكرة من أصلها نفياً قاطعاً. جاء في «العقد الفريد» لابنِ عبدربه قوله: «قال أبويوسف القاضي من طلب المال بالكيمياء لم يسلم من الفقرة» [٢٩]. كما ردّد أبوحيان التوحيدي هذا القول بالمعنى واللفظ في كتابه «الإمتاع والمؤانسة» [٣٠].

ولعل تكرار هذا القول لدى قطبين من أقطاب الأدب والفكر في الأندلس، يبيّن لنا بجلاء لا شكّ فيه أن هذا القول لم يصدر- عن رأيٍ شخصيٍ لهما، بل كان تعبيراً عن واقع الحياة العقلية في الأندلس الرافض لهذه الفكرة.

أما ابن خلدون (٧٣٢-٧٥١هـ) فكان له رأي يتّسم بالعقلانية حيال هذه الخرافة، إذ شن حملة شعواء على القائلين بها مهما علا قدرهم كجابر بن حيان، حيث خصص فصلاً كاملاً من فصول مقدمته الشهيرة بعنوان «فصل في إنكار ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد عن انتحالها» جاء فيه «إعلم أنّ كثيراً من العاجزين، عن معاشهم تحملهم المطامع على انتحال هذه الصنائع ويرون أنها أحد مذاهب المعاش ووجوهه، وأن اقتناء المال منها أيْسر وأسْهل على مبتغيه فيرتكبون فيها من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب وخسارة الأموال في النفقات، وإنما أطْمعهم في ذلك رؤْية أنّ المعادن تستحيل وينقلب بعضها إلى بعض للمادة المشتركة، فيحاولون بالعلاج صيرورة الفضة ذهباً والنحاس والقصدير فضة.

فاوضت يوماً شيخنا كبير مشيخة الأندلس في مثل ذلك ووقْفته على بعض التآليف فيها- يقصد الكيمياء- فتصفّحه طويلاً ثم ردّه إليّ وقال لي: «وأنا الضامن له أنْ لا يعود إلى بيته إلاّ بالخيبة». ثم منهم من يقتصر في ذلك على الدُلسة- أي الخديعة- فقط، أما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب أو النحاس بالفضة أو خلطهما، أو الخفيّة كإلقاء الشبّة بين المعادن بالصناعة مثل تبييض النحاس وتليينه بالزّوَق المصعّد- يقصد الزئبق- فيجيء جسماً معدنياً شبيهاً بالفضة ويخفي إلاّ على النقّاد المهرة، وهؤلاء أخسّ الناس حرْفةً وأسوأهم عاقبة لتلبسّهم بسرقة أموال الناس. فإنّ صاحب هذه الدّلسة إنّما هو يدْفع نحاساً في الفضة وفضة في الذهب ليستخلصها لنفسه فهو سارقٌ وأشرّ من السارق. وهذا الصنْف لا كَلام معهم لأنهم بلغوا الغاية في الجهل والرداءة والاحتراف بالسرقة ولا حاسم لعلتهم إلا اشتداد الحكّام عليهم وقطعْ أيديهم.

وأما من انتحل هذه الصناعة، إنما يطلب إحالة الفضة للذهب والرصاص والنحاس إلى الفضة، فإنا لا نعلم أن أحداً من أهل العلْم تم له هذا الغرض، أو حصل منه على بغية، إنما تذهب أعمارهم في التدبير والتصعيد والتكليس، ويتناقلون في ذلك حكاياتٍ وقعت لغيرهم، فإذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعاينة أنكروه، وقالوا إنما سمعنا ولم نر. هكذا شأنهم في كل عصر وجيل» [٣١].

خاتمة:

نخلص من هذا الرأي القائل بأنه في الإمكان

تحويل المعادن الخسيسة كالحديد والنحاس إلى معادن نفيسة كالذهب والفضة الذي نادى به أرسطو ووضع له الإطار المنطقي، ثم عرف طريقه إلى العرب عبْر ترجمة مؤلّفات أرسطو وغيره من أساطين الفكر اليوناني؛ هو من الآراء التي تميل إليها أفئدة الطامحين إلى العلم، وتلهث وراءها نفوس الطامعين إلى المال، دون أن يسْترعي انتباههم صعوبة أو ا ستحالة تحقيق مثل هذا الرأي.غير أن الطامحين إلى العلم سرعان ما اكتشفوا استحالته، وأن الرّأي مغلوطٌ من أساسه لأنّه ضد طبائع الأشياء وأمّا الطامعون في المال فقد ضيعوا أموالهم وأعمارهم جرياً وراء سرابٍ يحسبونه ماء.

والذي نودّ أَنْ نقوله أنّه لا يضير العقل العربيّ أَنْ يكون من بيْن أصحابه قلّة تدين بمثل هذا الرأي، وتعتقد في إمكانية تحقيقه، فلا شكّ أن الدوافع النفسيّة والظروف الاجتماعية والسياسيّة كانت صاحبة الدور المؤثر في اعتقاد البعض بهذا الرأي.

غير أنّ غالبية العلماء العرب قد رفضت فكرة التحويل في حدّ ذاتها من البداية كدليلٍ لا يقبل الشكّ على أنّ العقلية العلمية لهذه الغالبية كانت أقوى من أيّ مؤثرات نفسية أو اجتماعية أو سياسية.

ولعل التتابع الزمنيّ لآراء العلماء العرب كفيلٌ بتبرئة العقل العربي من هذه الخرافة. فقد سادت في البداية فترة الاعتقاد بها ممثّلة في خالد بن يزيد وجابر بن حيان كصدىً مباشرٍ لآراء أرسطو في هذا الشأن، ثم تلتها فترة تراوحت بين القبول والرفض ويمثلها الرازي، وأخيراً فترة سادها الرفض التام ويمثلها غالبية العلماء العرب باستثناء الطغرائي من علماء المشرق والمجريطي من علماء الأندلس.

وإذا كانت لنا كلمة تقال في هذا الشأن، فإننا نقول أنّ جمهرة المستشرقين ومؤرّخي العلم الذين قد يرون في التراث العلمي العربي- في الكيمياء خاصة- أنه تراث ضعيف الأثر في مضمار العلم الإنساني لشيوع مثل هذه الخرافات فيه وأن العلماء العرب الذين وصفهم البعض بالبربريّة والجهالة باعتبار أنّ بعضهم قد آمن بفكرة تحويل المعادن إلى ذهب؛ إنّ هؤلاء المستشرقين والمؤرخين كان الأجدر بهم- لو كانوا منصفين حقّاً- أَنْ يصفوا العلْم الأوروبيّ وعلماء أوروبا بهذه النقائص كلها التي رموا بها العلم العربي. إذْ أنّ عدداً غير قليلٍ من علماء أوروبا- حتى بعد عصر النهضة- قد آمن بنفس الفكرة وذهبوا في الاعتقاد بها إلى أبعد ممّا ذهب إليه العلماء العرب، برغم البعد الزمني الكبير نسبياً بين آخر عالم عربى آمن بها وأول عالم أوروبي ، ذلك البعد الزمني الذي تقدّم فيه العلم تقدّماً كبيراً، بحيث كان من المفروض أن تكون فكرة تحويل المعادن في ذمة التاريخ.

ومع ذلك نجد أنّ عدداً من مشاهير علماء أوروبا ومنهم من يوضع في الطّبقة العليا من أفذاذ العلماء، قد رسخ في اعتقادهم تحقيق هذه الفكرة فأوسعهوها بحثاً وتجريباً وتأليفاً.

وعلى سبيل المثال فإن الكيميائي الإيطالي تريفزان Trevisan (١٤٠٦-١٤٩٠م) كان من أشد الناس استمساكاً بفكرة تحويل المعادن إلى ذهب إلى آخر لحظة في عمره (٣٢) أمّا الكيميائي

تحويل المعادن الخسيسة كالحديد والنحاس إلى معادن نفيسة كالذهب والفضة الذي نادى به أرسطو ووضع له الإطار المنطقي، ثم عرف طريقه إلى العرب عبْر ترجمة مؤلّفات أرسطو وغيره من أساطين الفكر اليوناني؛ هو من الآراء التي تميل إليها أفئدة الطامحين إلى العلم، وتلهث وراءها نفوس الطامعين إلى المال، دون أن يسْترعي انتباههم صعوبة أو ا ستحالة تحقيق مثل هذا الرأي. غير أن الطامحين إلى العلم سرعان ما اكتشفوا استحالته، وأن الرّأي مغلوطٌ من أساسه لأنّه ضد طبائع الأشياء وأمّا الطامعون في المال فقد ضيعوا أموالهم وأعمارهم جرياً وراء سرابٍ يحسبونه ماء.

والذي نودّ أَنْ نقوله أنّه لا يضير العقل العربيّ أَنْ يكون من بيْن أصحابه قلّة تدين بمثل هذا الرأي، وتعتقد في إمكانية تحقيقه، فلا شكّ أن الدوافع النفسيّة والظروف الاجتماعية والسياسيّة كانت صاحبة الدور المؤثر في اعتقاد البعض بهذا الرأي.

غير أنّ غالبية العلماء العرب قد رفضت فكرة التحويل في حدّ ذاتها من البداية كدليلٍ لا يقبل الشكّ على أنّ العقلية العلمية لهذه الغالبية كانت أقوى من أيّ مؤثرات نفسية أو اجتماعية أو سياسية.

ولعل التتابع الزمنيّ لآراء العلماء العرب كفيلٌ بتبرئة العقل العربي من هذه الخرافة. فقد سادت في البداية فترة الاعتقاد بها ممثّلة في خالد بن يزيد وجابر بن حيان كصدىً مباشرٍ لآراء أرسطو في هذا الشأن، ثم تلتها فترة تراوحت بين القبول والرفض ويمثلها الرازي، وأخيراً فترة سادها الرفض التام ويمثلها غالبية العلماء العرب باستثناء الطغرائي من علماء المشرق والمجريطي من علماء الأندلس.

وإذا كانت لنا كلمة تقال في هذا الشأن، فإننا نقول أنّ جمهرة المستشرقين ومؤرّخي العلم الذين قد يرون في التراث العلمي العربي- في الكيمياء خاصة- أنه تراث ضعيف الأثر في مضمار العلم الإنساني لشيوع مثل هذه الخرافات فيه وأن العلماء العرب الذين وصفهم البعض بالبربريّة والجهالة باعتبار أنّ بعضهم قد آمن بفكرة تحويل المعادن إلى ذهب؛ إنّ هؤلاء المستشرقين والمؤرخين كان الأجدر بهم- لو كانوا منصفين حقّاً- أَنْ يصفوا العلْم الأوروبيّ وعلماء أوروبا بهذه النقائص كلها التي رموا بها العلم العربي. إذْ أنّ عدداً غير قليلٍ من علماء أوروبا- حتى بعد عصر النهضة- قد آمن بنفس الفكرة وذهبوا في الاعتقاد بها إلى أبعد ممّا ذهب إليه العلماء العرب، برغم البعد الزمني الكبير نسبياً بين آخر عالم عربى آمن بها وأول عالم أوروبي ، ذلك البعد الزمني الذي تقدّم فيه العلم تقدّماً كبيراً، بحيث كان من المفروض أن تكون فكرة تحويل المعادن في ذمة التاريخ.

ومع ذلك نجد أنّ عدداً من مشاهير علماء أوروبا ومنهم من يوضع في الطّبقة العليا من أفذاذ العلماء، قد رسخ في اعتقادهم تحقيق هذه الفكرة فأوسعهوها بحثاً وتجريباً وتأليفاً.

وعلى سبيل المثال فإن الكيميائي الإيطالي تريفزان Trevisan (١٤٠٦-١٤٩٠م) كان من أشد الناس استمساكاً بفكرة تحويل المعادن إلى ذهب إلى آخر لحظة في عمره (٣٢) أمّا الكيميائي

السويسري باراسلسوس Paracelsus (١٤٩٣-١٥٤١م) فقد كان يعتقد بأن المعادن يتحول بعضها إلى بعض وأنه يمكن إنتاج أيّ معدن من الزئبق بواسطة النار، وأن الذهب ما هو إلا زئبق فقد صفاته الزئبقية.(٣٣).

وربما تعترينا الدهشة عندما نعلم أنّ عدداً من صفوة علماء أوروبا لم يَخْل علمهم من الاعتقاد بهذه الفكرة. يقول برناردجافي B. Jaffe في مؤلفه الشهير «بواتق وأنابيب: إن الذي ينظر في التاريخ يجد أن هذه الخدعة- يقصد تحويل المعادن إلى ذهب- قد حلّت أكبر مكانٍ من عقول ذوي الكفر من الناس ومضت هذه الكيمياء المجنونة تفعل في الناس فعلتها قرابة سبعة عشر قرناً من تاريخ البشر، فملكت على الناس لا أفكارهم وحدها، بل أفعالهم كذلك حتى إنك لتجد رجلاً مثل روجر باكون R. Bacon (١٢١٤-١٢٩٤م) وهو أعلم أهل زمانه، وهو الرجل الذي مضى يتنبأ منذ سبعة قرون، بما كشف عنه الزمن الحديث من سفن البحار تمخر الماء، ومن طائرات تشق الهواء؛ هذا الرجل آمن بذلك العلم العتيق؛ علم الكيمياء القديم. وإسحق نيوتن I. Newton (١٦٤٢-١٧٢٧م) وهو أصفى العلماء ذهناً في كل الأزمان. بلغ من تأثير هذه الكيمياء العجيبة فيه أنه بنى لنفسه معملاً صغيراً وأجرى فيه تجارب يحاول بها تحويل عنصر إلى عنصر، وترك الجامعة وظل يعني بهذا الأمر.

روبرت بويل R. Boyle رئيس الجمعية الملكية البريطانية اهتمّ بها أيضاً، وبلغ من اهتمامه أنه سعى لإلغاء قرارٍ من قرارات البرلمان يمنع الإكثار من الذهب، وقد كان للكيماويّين في تلك الأزمنة سلطانٌ كبير، فلم يكد يَخْلو بلاطٌ لملكٍ من ملوك أوروبا إلا وبه كيماوي عمله تحويل المعادن بعضها إلى بعض، فيحوّل الرصاص والحديد إلى ذهب كيْ تزداد ثروة البلاد»(٣٤).

وعلى هذا الأساس، فإننا لا نجاوز الصواب إنْ قلنا أنّ العلماء العرب كانوا أكثر عقلانيّةً وفهماً لقوانين الطبيعة من علماء أوروبا الذين أتوا من بعدهم بعدة قرون.■

الهوامش

(١) دائرة المعارف الإسلامية، لفيف من المستشرقين، ترجمة إبراهيم زكي خرشيد وآخرين، ج٤ ص ١٥٤.
(٢) مفاتيح العلوم للخوارزمي، تحقيق إبراهيم الإبياري، ص ٢٨٤.
(٣) كشف الظنون لحاجي خليفة، ج٢ ص ١٥٧٧.
(٤) العلم الإغريقي، بنيامين فارنتون، ترجمة شكري سالم، ج١ ص ٢٩.
(٥) البحث عن العناصر، إسحاق أسيموف، ترجمة إسماعيل حقي، ص ١٦.
(٦) تاريخ اليعقوبي، ج٢ ص ٢٥٥.
(٧) المصدر السابق، ص ٢٥٦.
(٨) وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، ج٢، ص ٢٢٤.
(٩) الفهرست لابن النديم، ص ٤٩٧.
(١٠) المصدر السابق، ص ٤٩٩.
(١١) الأعلام للزركلي، ج٢ ص ١٠٣.
(١٢) مختار رسائل جابر بن حيان، تحقيق بول كراوس، ص ٣.
(١٣) جابر بن حيان وخلفاؤه، محمد محمد فياض، ص ٤٧.
١٤٠) مروج الذهب للمسعودي، تهحقيق محيي الدين عبدالحميد، ج٤ ص ٢٥٧.
(١٥) الحيوان للجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، ج٣ ص ٣٥٧.
(١٦) العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، الدوميلي، ترجمة د. عبدالحليم النجار ود. محمد يوسف موسى، ص ٢٦٤.
(١٧) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، تحقيق د. نزار رضا، ص ٤١٩.
(١٨) تاريخ حكماء الإسلام لظهر الدين البيهقي، تحقيق محمد كرد علي، ص ٢١.

السويسري باراسلسوس Paracelsus (١٤٩٣-١٥٤١م) فقد كان يعتقد بأن المعادن يتحول بعضها إلى بعض وأنه يمكن إنتاج أيّ معدن من الزئبق بواسطة النار، وأن الذهب ما هو إلا زئبق فقد صفاته الزئبقية.[٣٣].

وربما تعترينا الدهشة عندما نعلم أنّ عدداً من صفوة علماء أوروبا لم يَخْلُ علمهم من الاعتقاد بهذه الفكرة. يقول برناردجافي B. Jaffe في مؤلفه الشهير «بواتق وأنابيب: إن الذي ينظر في التاريخ يجد أن هذه الخدعة- يقصد تحويل المعادن إلى ذهب- قد حلّت أكبر مكانٍ من عقول ذوي الكفر من الناس ومضت هذه الكيمياء المجنونة تفعل في الناس فعلتها قرابة سبعة عشر قرناً من تاريخ البشر، فملكت على الناس لا أفكارهم وحدها، بل أفعالهم كذلك حتى إنك لتجد رجلاً مثل روجر باكون R. Bacon (١٢١٤-١٢٩٤م) وهو أعلم أهل زمانه، وهو الرجل الذي مضى يتنبأ منذ سبعة قرون، بما كشف عنه الزمن الحديث من سفن البحار تمخر الماء، ومن طائرات تشق الهواء؛ هذا الرجل آمن بذلك العلم العتيق؛ علم الكيمياء القديم. وإسحق نيوتن I. Newton (١٦٤٢-١٧٢٧م) وهو أصفى العلماء ذهناً في كل الأزمان. بلغ من تأثير هذه الكيمياء العجيبة فيه أنه بنى لنفسه معملاً صغيراً وأجرى فيه تجارب يحاول بها تحويل عنصر إلى عنصر، وترك الجامعة وظل يعني بهذا الأمر.

روبرت بويل R. Boyle رئيس الجمعية الملكية البريطانية اهتمّ بها أيضاً، وبلغ من اهتمامه أنه سعى لإلغاء قرارٍ من قرارات البرلمان يمنع الإكثار من الذهب، وقد كان للكيماويّين في تلك الأزمنة سلطانٌ كبير، فلم يكد يَخْلو بلاطٌ لملكٍ من ملوك أوروبا إلا وبه كيماوي عمله تحويل المعادن بعضها إلى بعض، فيحوّل الرصاص والحديد إلى ذهب كيْ تزداد ثروة البلاد»[٣٤].

وعلى هذا الأساس، فإننا لا نجاوز الصواب إنْ قلنا أنّ العلماء العرب كانوا أكثر عقلانيّةً وفهماً لقوانين الطبيعة من علماء أوروبا الذين أتوا من بعدهم بعدة قرون. ■

الهوامش

(١) دائرة المعارف الإسلامية، لفيف من المستشرقين، ترجمة إبراهيم زكي خرشيد وآخرين، ج٤ ص ١٥٤.
(٢) مفاتيح العلوم للخوارزمي، تحقيق إبراهيم الإبياري، ص ٢٨٤.
(٣) كشف الظنون لحاجي خليفة، ج٢ ص ١٥٧٧.
(٤) العلم الإغريقي، بنيامين فارنتون، ترجمة شكري سالم، ج١ ص ٢٩.
(٥) البحث عن العناصر، إسحاق أسيموف، ترجمة إسماعيل حقي، ص ١٦.
(٦) تاريخ اليعقوبي، ج٢ ص ٢٥٥.
(٧) المصدر السابق، ص ٢٥٦.
(٨) وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، ج٢، ص ٢٢٤.
(٩) الفهرست لابن النديم، ص ٤٩٧.
(١٠) المصدر السابق، ص ٤٩٩.
(١١) الأعلام للزركلي، ج٢ ص ١٠٣.
(١٢) مختار رسائل جابر بن حيان، تحقيق بول كراوس، ص ٣.
(١٣) جابر بن حيان وخلفاؤه، محمد محمد فياض، ص ٤٧.
١٤٠) مروج الذهب للمسعودي، تهحقيق محيي الدين عبدالحميد، ج٤ ص ٢٥٧.
(١٥) الحيوان للجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، ج٣ ص ٣٥٧.
(١٦) العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، الدوميلي، ترجمة د. عبدالحليم النجار ود. محمد يوسف موسى، ص ٢٦٤.
(١٧) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، تحقيق د. نزار رضا، ص ٤١٩.
(١٨) تاريخ حكماء الإسلام لظهر الدين البيهقي، تحقيق محمد كرد علي، ص ٢١.

(١٩) تراث الإسلام، شاخت وبوزورث، ترجمة د. حسين مؤنس وإحسان صدقي العمد، ج٢ ص ٢٥٨.
(٢٠) حقائق الاستشهاد للطغرائي، تحقيق رزوق فرج رزوق، نقلاً عن «الشفاء» لابن سينا، ص ٥٠.
(٢١) مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. علي عبدالواحد وافي، ص ١٢٢٩.
(٢٢) معجم الأدباء لياقوت الحموي، تحقيق د. أحمد فريد رفاعي، ج١٠، ص ٥٧.
(٢٣) حقائق الاستشهاد، مصدر سابق، ص ٦٦.
(٣٤) معجم الأدباء، مصدر سابق، ج١٠، ص ٥٧.
(٢٥) حقائق الاستشهاد، مصدر سابق، ص ١٩.
(٢٦) الأعلام للزركلي، ج٦ ص ١٧٠.
(٢٧) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشيخ الربوة، ص ٧٩-٨٢.
(٢٨) إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء، د. علي عبدالله الدفاع، ص ٢٠٣.
(٢٩) العقد الفريد لابن عبدربه، تحقيق د. أحمد يسري العزباوي، ج٢ ص ١٨١.
(٣٠) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، تحقيق د. أحمد أمين، ج١ ص ١٤٢.
(٣١) مقدمة ابن خلدون، مصدر سابق، ص ١٢٣.
(٣٢) بواتق وأنابيب، برنارد جافي، ترجمة د. أحمد زكي، ص ٤.
(٣٣) المصدر السابق، ص ٤٠.
(٣٤) المصدر السابق، ص ١٠.

(١٩) تراث الإسلام، شاخت وبوزورث، ترجمة د. حسين مؤنس وإحسان صدقي العمد، ج٢ ص ٢٥٨.
(٢٠) حقائق الاستشهاد للطغرائي، تحقيق رزوق فرج رزوق، نقلاً عن «الشفاء» لابن سينا، ص ٥٠.
(٢١) مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. علي عبدالواحد وافي، ص ١٢٢٩.
(٢٢) معجم الأدباء لياقوت الحموي، تحقيق د. أحمد فريد رفاعي، ج١٠، ص ٥٧.
(٢٣) حقائق الاستشهاد، مصدر سابق، ص ٦٦.
(٣٤) معجم الأدباء، مصدر سابق، ج١٠، ص ٥٧.
(٢٥) حقائق الاستشهاد، مصدر سابق، ص ١٩.
(٢٦) الأعلام للزركلي، ج٦ ص ١٧٠.
(٢٧) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشيخ الربوة، ص ٧٩-٨٢.
(٢٨) إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء، د. علي عبدالله الدفاع، ص ٢٠٣.
(٢٩) العقد الفريد لابن عبدربه، تحقيق د. أحمد يسري العزباوي، ج٢ ص ١٨١.
(٣٠) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، تحقيق د. أحمد أمين، ج١ ص ١٤٢.
(٣١) مقدمة ابن خلدون، مصدر سابق، ص ١٢٣.
(٣٢) بواتق وأنابيب، برنارد جافي، ترجمة د. أحمد زكي، ص ٤.
(٣٣) المصدر السابق، ص ٤٠.
(٣٤) المصدر السابق، ص ١٠.

المأساة بين الواقع والخيال
قراءة نصية سوسيولوجية لرواية ظلال على النافذة

أسامة غانم*

ظلال على النافذة

ليس من الممكن أبداً أن نستبعد قيام قراءات نقدية متعددة- قراءة جدلية- قراءة بنيوية- قراءة رمزية- قراءة شكلية- قراءة وجودية- قراءة سوسيولوجية- إلخ في قراءتنا لرواية (ظلال على النافذة) لغائب طعمة فرمان، والبعض من هذه القراءات ستظهر في أثناء تحليلنا للنص الروائي، والبعض الآخر نشير إليه مجرد إشارة، وأحياناً قراءتين في ذات اللحظة، رغم التزامنا بالمنهج النصي- السوسيولوجي، فعصرنا هذا يخضع (للرجعيين والثوريين، عصر الخروج الجذري على المعتقدات السابقة عن المعنى والقراءة والنقد الأدبي، ولا بد للمرء أن يعتنق الثورة، أو أن يدافع عن التقليد السائد ضدها) (١)، وعليه يبقى النص- الروائي مغلقاً لحين مجيء الناقد ليفض أسراره، وليفضح المعنى الذي يتولد من القراءات النقدية المتعددة.

لم يحد فرمان في روايته (ظلال على النافذة) عن تناوله للمجتمع البغدادي، كما في رواياته السابقة جميعها، ففي هذه الرواية يتناول فرمان حياة عائلة بغدادية، وما يجري لها من خلال الواقعة التي تصبح (مأساة العائلة) ص٤٠، مع تشخيص ردود الأفعال الإنسانية المختلفة لكل واحد منهم تجاه هذه الواقعة الاجتماعية التي زلزلت بنية تكوينهم، ومدى عمق الرد، وما تتركه في الذات الإنسانية من ألم وتمزق، مع تبلور موقف واضح ينشأ من الصراع المتفجر مع بدء الأزمة للكشف عن حدة التناقضات الباطنية المغلفة باللامبالاة، وحين تعرضها لأول صدمة حقيقية تظهر وتبرز بشكل حاد وعار، وتطفو على السطح للعيان تاركة عوائقها وراءها.

تبدأ الرواية بفصل تدميري (٢)، وذلك بهروب زوجة الابن الأوسط من الدار الجديدة التي انتقلوا إليها في حي الوشاش، وتكون الزوجة- حسيبة قطب الجذب والشد في الرواية، مع كونها مرآة عاكسة بانورامية لما يعتمل في دواخلهم من انفعالات وأفكار وسلوكيات مختلفة متباينة إزاء الموقف الحاصل، وسيكون هذا الانعكاس متبادلا معها بطريقة جدلية متشعبة مفتوحة على كافة الاتجاهات، ولكن جميعها تدخل نقطة واحدة.

والغياب هو الوحدة الوظيفية الأولى (٣)، في

* باحث عراقي

المأساة بين الواقع والخيال
قراءة نصية سوسيولوجية لرواية ظلال على النافذة

أسامة غانم*

ظلال على النافذة

ليس من الممكن أبداً أن نستبعد قيام قراءات نقدية متعددة- قراءة جدلية- قراءة بنيوية- قراءة رمزية- قراءة شكلية- قراءة وجودية- قراءة سوسيولوجية- إلخ في قراءتنا لرواية (ظلال على النافذة) لغائب طعمة فرمان، والبعض من هذه القراءات ستظهر في أثناء تحليلنا للنص الروائي، والبعض الآخر نشير إليه مجرد إشارة، وأحياناً قراءتين في ذات اللحظة، رغم التزامنا بالمنهج النصي- السوسيولوجي، فعصرنا هذا يخضع (للرجعيين والثوريين، عصر الخروج الجذري على المعتقدات السابقة عن المعنى والقراءة والنقد الأدبي، ولا بد للمرء أن يعتنق الثورة، أو أن يدافع عن التقليد السائد ضدها) [1]، وعليه يبقى النص- الروائي مغلقاً لحين مجيء الناقد ليفض أسراره، وليفضح المعنى الذي يتولد من القراءات النقدية المتعددة.

لم يحد فرمان في روايته (ظلال على النافذة) عن تناوله للمجتمع البغدادي، كما في رواياته السابقة جميعها، ففي هذه الرواية يتناول فرمان حياة عائلة بغدادية، وما يجري لها من خلال الواقعة التي تصبح (مأساة العائلة) ص٤٠، مع تشخيص ردود الأفعال الإنسانية المختلفة لكل واحد منهم تجاه هذه الواقعة الاجتماعية التي زلزلت بنية تكوينهم، ومدى عمق الرد، وما تتركه في الذات الإنسانية من ألم وتمزق، مع تبلور موقف واضح ينشأ من الصراع المتفجر مع بدء الأزمة للكشف عن حدة التناقضات الباطنية المغلفة باللامبالاة، وحين تعرضها لأول صدمة حقيقية تظهر وتبرز بشكل حاد وعار، وتطفو على السطح للعيان تاركة عوائقها وراءها.

تبدأ الرواية بفصل تدميري [2]، وذلك بهروب زوجة الابن الأوسط من الدار الجديدة التي انتقلوا إليها في حي الوشاش، وتكون الزوجة- حسيبة قطب الجذب والشد في الرواية، مع كونها مرآة عاكسة بانورامية لما يعتمل في دواخلهم من انفعالات وأفكار وسلوكيات مختلفة متباينة إزاء الموقف الحاصل، وسيكون هذا الانعكاس متبادلا معها بطريقة جدلية متشعبة مفتوحة على كافة الاتجاهات، ولكن جميعها تدخل نقطة واحدة.

والغياب هو الوحدة الوظيفية الأولى [3]، في

* باحث عراقي

بداية الرواية حيث (تغيب فجأة إحدى الشخصيات الأساسية غيابا مفاجئاً وقد يترك هذا الغياب ضرراً [٤] بالغاً للآخرين، وستلحق بها وحدة وظيفية ثانية هي البحث عن الغائب- حسيبة، وتكون بموازاة الوحدة الوظيفية الأولى- الغياب [٥].

وهذا الغياب كان نتيجة هروب حسيبة من الدار لأسباب كما يعزوها الأب عبدالواحد الحاج حسين إلى:

(١- زعل واختفاء عن الأنظار.

٢- تمرد وعصيان.

٣- أم خفة وتصرف أرعن؟) ص ١٠.

الفقرة الثانية تقترب كثيراً من التحليل الموضوعي الجدلي، فالمنهجية الجدلية بكونها (معرفة الواقع ليست ممكنة التطبيق إلا من وجهة النظر الطبقية) [٦] فلقد حوصرت حسيبة مع مقاطعة علائقية ضمنية داخل الدار رغم أنها تعيش وسطهم بسبب النظرة المتعالية والشعور الشوفيني تجاهها، وانها دخيلة على العائلة لأن زواجها تم بطريقة غير مألوفة، وهي ريفية تركمانية (أنا من قزرباط) ص ١٠٦ والبعض يعتبرها لقيطة من (أحشاء المجتمع) ص ٢١٥، فهذه النظرة الطبقية خلقت صراعاً اجتماعيا أيديولوجياً محتدماً منذ دخولها للدار، ولا يزال الصراع مستمرا حتى حين غادرته بصمت، بل ازداد ليكون صراعاً ضارياً بين أفراد العائلة الذين كانوا يبدون بنية واحدة متماسكة ظاهرياً فقط، ولكنهم في داخلها متناقضين، كصورة ورق اللعب: (ان طرفي التناقض يجتمعان مع بعضهما وينظر احدهما في وجه الآخر وينعكس احدهما في الآخر، ويعرفان ويفهمان بعضهما البعض) [٧]، ولكن حسيبة لم تستطع اختراق وضعها بمغادرة الفسحة التي وضعوها فيها، ولم تستطع أيضاً التفاعل مع الآخرين لأن الآخرين عاملوها كـ«نكرة» وكـ«طارئة» مفروضة عليهم وكـ«بنية» لا تنسجم معهم، لذا لم يفسحوا لها موضعاً لائقاً بينهم، إلا بحدود متوترة تتغذى على الوهم والشهوة من جانب الأخ الأكبر، فكانت المعادلة كالتالي بينهما: هى المشجعة على التغزل بها، وهو تجتاحه الرغبة في قضمها، ولم تبين لنا الرواية مدى عمق العلاقة بينهما ولا إلى أين وصلت!.

إن حسيبة دخلت الدار وغادرتها كـ«جسد» فقط، أي عن طريق المهبل، اللذة- الوجود، فالمهبل في هذه الحالة يقوم بأداء وظيفتين مهمتين، منح الذكر المتعة الجنسية القصوى ومنحه البدائل من الذكور، ولكنها أخفقت في إنجاب البدائل، وماتت كـ«جسد» من وجهة (نظرهم) وأصبح وضعها لا يطاق لذا (قامت بعمل احتجاجي صارخ) [٨] على ظروف معينة موجودة فانسلت هاربة متوارية ولتعاقب (جسدها) بتعهيره.

كانت حسيبة الشخصية الإيجابية الوحيدة في الرواية باتخاذها موقفاً تجاه الأحداث، فهي لم تتكلم، لم تصرخ، لم تعاتب، بل تمت المخاطبة بلغة قوية مؤثرة هي لغة الصمت، وكانت تدري ما يدور حولها وتقابل بالمثل فالأوسط تزوجته والأصغر احتقرته والأكبر احترمته، وهذا يثبت بأن لها تجربة حياتية ولها وعيها ووجهة نظرها في الآخرين، ورد فعل متحفز مع علاقة بالعالم

بداية الرواية حيث (تغيب فجأة إحدى الشخصيات الأساسية غيابا مفاجئاً وقد يترك هذا الغياب ضرراً [٤] بالغاً للآخرين، وستلحق بها وحدة وظيفية ثانية هي البحث عن الغائب- حسيبة، وتكون بموازاة الوحدة الوظيفية الأولى- الغياب [٥].

وهذا الغياب كان نتيجة هروب حسيبة من الدار لأسباب كما يعزوها الأب عبدالواحد الحاج حسين إلى:

(١- زعل واختفاء عن الأنظار.

٢- تمرد وعصيان.

٣- أم خفة وتصرف أرعن؟) ص ١٠.

الفقرة الثانية تقترب كثيراً من التحليل الموضوعي الجدلي، فالمنهجية الجدلية بكونها (معرفة الواقع ليست ممكنة التطبيق إلا من وجهة النظر الطبقية) [٦] فلقد حوصرت حسيبة مع مقاطعة علائقية ضمنية داخل الدار رغم أنها تعيش وسطهم بسبب النظرة المتعالية والشعور الشوفيني تجاهها، وانها دخيلة على العائلة لأن زواجها تم بطريقة غير مألوفة، وهي ريفية تركمانية (أنا من قزرباط) ص ١٠٦ والبعض يعتبرها لقيطة من (أحشاء المجتمع) ص ٢١٥، فهذه النظرة الطبقية خلقت صراعاً اجتماعيا أيديولوجياً محتدماً منذ دخولها للدار، ولا يزال الصراع مستمرا حتى حين غادرته بصمت، بل ازداد ليكون صراعاً ضارياً بين أفراد العائلة الذين كانوا يبدون بنية واحدة متماسكة ظاهرياً فقط، ولكنهم في داخلها متناقضين، كصورة ورق اللعب: (ان طرفي التناقض يجتمعان مع بعضهما وينظر احدهما في وجه الآخر وينعكس احدهما في الآخر، ويعرفان ويفهمان بعضهما البعض) [٧]، ولكن حسيبة لم تستطع اختراق وضعها بمغادرة الفسحة التي وضعوها فيها، ولم تستطع أيضاً التفاعل مع الآخرين لأن الآخرين عاملوها كـ«نكرة»، وكـ«طارئة» مفروضة عليهم وكـ«بنية» لا تنسجم معهم، لذا لم يفسحوا لها موضعاً لائقاً بينهم، إلا بحدود متوترة تتغذى على الوهم والشهوة من جانب الأخ الأكبر، فكانت المعادلة كالتالي بينهما: هي المشجعة على التغزل بها، وهو تجتاحه الرغبة في قضمها، ولم تبين لنا الرواية مدى عمق العلاقة بينهما ولا إلى أين وصلت!.

إن حسيبة دخلت الدار وغادرتها كـ«جسد» فقط، أي عن طريق المهبل، اللذة- الوجود، فالمهبل في هذه الحالة يقوم بأداء وظيفتين مهمتين، منح الذكر المتعة الجنسية القصوى ومنحه البدائل من الذكور، ولكنها أخفقت في إنجاب البدائل، وماتت كـ«جسد» من وجهة (نظرهم) وأصبح وضعها لا يطاق لذا (قامت بعمل احتجاجي صارخ) [٨] على ظروف معينة موجودة فانسلت هاربة متوارية ولتعاقب (جسدها) بتعهيره.

كانت حسيبة الشخصية الإيجابية الوحيدة في الرواية باتخاذها موقفاً تجاه الأحداث، فهي لم تتكلم، لم تصرخ، لم تعاتب، بل تمت المخاطبة بلغة قوية مؤثرة هي لغة الصمت، وكانت تدري ما يدور حولها وتقابل بالمثل فالأوسط تزوجته والأصغر احتقرته والأكبر احترمته، وهذا يثبت بأن لها تجربة حياتية ولها وعيها ووجهة نظرها في الآخرين، ورد فعل متحفز مع علاقة بالعالم

غير مقطوعة ولا مفصولة ولا محصورة نهائياً و(وحدهم المجانين الذين يجهلون كل شيء عن العالم) [٩]، ورغبتها في البديل الأفضل وفي الحرية من وضعها المأزوم تترك الدار هاربة طلباً للخلاص، ولكن خلاصها يكون في بيت للعاهرات تنبعث منه صدى الضحكات الفاجرة ورائحة الشهوة، فقد داست حسيبة على البلاطة- اللغم الذي فجرها وفجر العائلة تاركة الجميع ينزفون باستثناء شامل فإن (حب الحياة يجاور التعطش لتحطيم الذات، الطهر والعفة يفهمان الإثم والشهوانية) [١٠].

الملفت للنظر أن حسيبة هي المهيمنة والمسيطرة على الحدث بل هي الحدث للرواية، وهي البؤرة، وكما قلت هي مركز الشد والجذب ويبقى الصوت الإشاري لها هو المتحدث، رغم عدم وجود الصوت الحسي لها، فالصوت الإشاري (السيميولوجي) يكتسب سمة إنسانية قوية ويكون موجوداً في كل الحوارات للرواية، ويكون كطابع البريد ملصقا على طرف كل ظل من ظلال الرواية. هنا نتساءل بقصدية، ماذا أراد فرمان من حسيبة كرمز؟ أو نعيد السؤال بصيغة أخرى، ما هو الرمز الذي تقترن به حسيبة كما أراد فرمان من ذلك؟ عندما نوزع الشخصيات والمواقف والأحداث على رقعة لعبة الشطرنج، تظهر لناالمفارقة الحادة بكون أن حسيبة صممت أصلاً كرمز، وهذا ما يقوله فرمان في إحدى مقابلاته:

(أنا كنت أرمز بشخصية (حسيبة) لشيء معين) [١١].

فما هو هذا الشيء المعين الذي يقصده فرمان؟.. لنحرك ببطء بعض قطع الشطرنج لا بد أن تتغير الرؤية وتتضح الصورة أكثر من ذي قبل، مما تسمح لنا هذه الرؤية بأن ندلف إلى المعانى- الرمزية على اعتبار أنها ليس الرمز صورة، انه تعددية المعاني نفسها) [١٢].

على هذا النحو تبرز لنا حسيبة وهي تحتوي على المعاني الرمزية المتعددة منها- وهذا ما أتصوره الشيء المعين- إن ترمز إلى مرحلة تاريخية- سوسيولوجية- سياسية مر بها العراق أواسط الستينات، وهناك وجهات نظر رمزية عند بعض النقاد، كالناقد العراقي ياسين النصير الذي يرمز إليها- ربما- على أنها ثورة ١٤ تموز: (يعطي غائب لحسيبة رمزية واضحة، فيرمز لها بقضية عراقية أوسع- ربما كانت ثورة ١٩٥٨ أو شيء من هذا القبيل) [١٣].

ولكنه يذكر فيما بعد بأن حسيبة يمكن التعامل معها على عدة مستويات رمزية مع النص، وإن النص- الروائي يمتلك مجالات كثيرة للتعامل معه على أساس هذا التوجه، وقابلية هائلة على احتوائه على إشارات تدل على الرمز، وهذا يفسح المجال لنشوء معاني رمزية متعددة أو تأويلات لا تحصى لإشارات موضوعية والتعدد في التصور الرمزي يمنح حسيبة والرواية قيمة جمالية عالية شفافة.

ويمكن أن تكون المرحلة التي تلت هزيمة حزيران والتي جاءت لتكشف عن مدى عمق المأساة التي يعيشها الوطن آنذاك الزمن وعن عمق الأخطاء والسلبيات قبل الهزيمة التي كانت تمارس من قبل الأنظمة الرجعية اليمينية في المنطقة والفوضى التي سادت وسيطرة الفكر

غير مقطوعة ولا مفصولة ولا محصورة نهائياً و(وحدهم المجانين الذين يجهلون كل شيء عن العالم) (٩)، ورغبتها في البديل الأفضل وفي الحرية من وضعها المأزوم تترك الدار هاربة طلباً للخلاص، ولكن خلاصها يكون في بيت للعاهرات تنبعث منه صدى الضحكات الفاجرة ورائحة الشهوة، فقد داست حسيبة على البلاطة- اللغم الذي فجرها وفجر العائلة تاركة الجميع ينزفون باستثناء شامل فإن (حب الحياة يجاور التعطش لتحطيم الذات، الطهر والعفة يفهمان الإثم والشهوانية) (١٠).

الملفت للنظر أن حسيبة هي المهيمنة والمسيطرة على الحدث بل هي الحدث للرواية، وهي البؤرة، وكما قلت هي مركز الشد والجذب ويبقى الصوت الإشاري لها هو المتحدث، رغم عدم وجود الصوت الحسي لها، فالصوت الإشاري (السيميولوجي) يكتسب سمة إنسانية قوية ويكون موجوداً في كل الحوارات للرواية، ويكون كطابع البريد ملصقا على طرف كل ظل من ظلال الرواية. هنا نتساءل بقصدية، ماذا أراد فرمان من حسيبة كرمز؟ أو نعيد السؤال بصيغة أخرى، ما هو الرمز الذي تقترن به حسيبة كما أراد فرمان من ذلك؟ عندما نوزع الشخصيات والمواقف والأحداث على رقعة لعبة الشطرنج، تظهر لناالمفارقة الحادة بكون أن حسيبة صممت أصلاً كرمز، وهذا ما يقوله فرمان في إحدى مقابلاته:

(أنا كنت أرمز بشخصية (حسيبة) لشيء معين) (١١).

فما هو هذا الشيء المعين الذي يقصده فرمان؟.. لنحرك ببطء بعض قطع الشطرنج لا بد أن تتغير الرؤية وتتضح الصورة أكثر من ذي قبل، مما تسمح لنا هذه الرؤية بأن ندلف إلى المعانى- الرمزية على اعتبار أنها ليس الرمز صورة، انه تعددية المعاني نفسها) (١٢).

على هذا النحو تبرز لنا حسيبة وهي تحتوي على المعاني الرمزية المتعددة منها- وهذا ما أتصوره الشيء المعين- إن ترمز إلى مرحلة تاريخية- سوسيولوجية- سياسية مر بها العراق أواسط الستينات، وهناك وجهات نظر رمزية عند بعض النقاد، كالناقد العراقي ياسين النصير الذي يرمز إليها- ربما- على أنها ثورة ١٤ تموز: (يعطي غائب لحسيبة رمزية واضحة، فيرمز لها بقضية عراقية أوسع- ربما كانت ثورة ١٩٥٨ أو شيء من هذا القبيل) (١٣).

ولكنه يذكر فيما بعد بأن حسيبة يمكن التعامل معها على عدة مستويات رمزية مع النص، وإن النص- الروائي يمتلك مجالات كثيرة للتعامل معه على أساس هذا التوجه، وقابلية هائلة على احتوائه على إشارات تدل على الرمز، وهذا يفسح المجال لنشوء معاني رمزية متعددة أو تأويلات لا تحصى لإشارات موضوعية والتعدد في التصور الرمزي يمنح حسيبة والرواية قيمة جمالية عالية شفافة.

ويمكن أن تكون المرحلة التي تلت هزيمة حزيران والتي جاءت لتكشف عن مدى عمق المأساة التي يعيشها الوطن آنذاك الزمن وعن عمق الأخطاء والسلبيات قبل الهزيمة التي كانت تمارس من قبل الأنظمة الرجعية اليمينية في المنطقة والفوضى التي سادت وسيطرة الفكر

اللاعقلاني والغيبي على الساحة الثقافية وتكريس هذا الفكر بين المثقفين والعمل على نشره وتكريسه من قبلهم بين الجماهير، ومن الأمثلة على ذلك ان بعض المثقفين العراقيين كانوا يعتقدون بأنهم (يستشرفون صفاء العالم من خلال ثقب في جورب مومس) [١٤].

لقد جعل فرمان من كل شخصية في الرواية تمثل فئة اجتماعية فأفكار وأحلام وتداعيات وتصورات الشخصية تكون أفكار ومنطلقات وأيديولوجية تلك الفئة، أي أن هذه الشخصية تكون الممثل الرسمي لتلك (الفئة) على المستوى الدلالي.

الأب يراعي العائلة كلها ويعمل على تحسين مستواها الاقتصادي- الاجتماعي دائماً وعلى الحفاظ على التقاليد والشعائر التي نشأ عليها، وحين تختفي حسيبة يستفز ذاته للبحث والاستقصاء عنها لوحده ويدع الأسرة مغلقة، والبحث يتم بمساعدة امرأة اسمها نعيمة كان لها سابقة مع الأب عبدالواحد أيام شبابه، ولم يرغب بمساعدة أحد غيرها، وتعثر عليها عند عطية العمية ولكن لا تخبر الأب عبدالواحد عن مكان مبيتها إنما تخبره عن مكان اشتغالها لأجل الانتقام والتشفي منه، لأجل الملامسات التي لم تكتمل في الخرابة. وهذه المرأة (نعيمة) هي من الخارج والأب عبدالواحد من الداخل يربطهما حب قديم، حب محنط، لم يبق منه إلا لفافات متيبسة هو من أعطاها كلمة السر رغم أنه يعتبر أن الهروب (فضيحة للعائلة كلها) ص ١٠ وهي من حلت لغز هذا السر، فالعائلة كلها لم تفعل شيئاً إزاء الهروب، ولم يستطع أحد منهم العثور على الهاربة، ولكن هذا البحث يتم بواسطة شخص من خارج دائرتهم، وتسلِّم حسيبة على طبق من زجاج ملون، وحال ملامسته يتكسر، يتفتت، ساحقاً معه فترة زمنية عاشتها حسيبة عندهم، و(البيت يتحول إلى سجن حقيقي) ص ١٠٥، فالأب ينهار والابن يتيه في عوالمه البائسة ويبدأ بمقاطعة ومعاقبة نفسه والآخرين من خلال انغماسه بمعاقرة الخمرة التي تصبح طقساً يومياً له، مع عدم مواجهة أحد، وإذا تواجه يكون نائحاً مستشرفاً اللاعودة لزوجته (فهريت ولن تعود) ص ٤٩، وانسحب هذا الوضع على زمنه المتوقف عند نقطة الاختفاء نقطة الذكرى المجمدة ويبقى فاضل يعاني، يتألم، كالجواد المجروح دون أن يسقط.

نحن عرفنا أن رواية (خمسة أصوات) وهي رواية أصوات خمسة مثقفين، بعدها رأينا صوتا مثقفاً واحداً في رواية (المخاض)، ثم يظهر لنا صوتان مثقفان في رواية (ظلال على النافذة)، وهما مختلفان عن الأصوات السابقة مع تباين وتناقض، لأن فرمان جعل من كل رواية لها صوتها الخاص بها، أي أن كل صوتاً في الرواية له ظروفه التاريخية والسياسية والاجتماعية ومواقفه، من هنا يكون الصوت صوتاً لشريحة المثقفين في تلك الفترة، فـ(خمسة أصوات) فترة ما قبل ثورة ١٤ تموز، و(ظلال على النافذة) فترة بعد الثورة والعراق على مفترق طرق، فترة أواسط الستينيات، عندئذ قام فرمان برسم شخصيتين مثقفتين تتناسبان وتلك المرحلة الصعبة فكراً وسلوكاً، فماجد الأخ الأكبر وشامل الأخ الأصغر يتوسطهما فاضل العامل الأجير،

اللاعقلاني والغيبي على الساحة الثقافية وتكريس هذا الفكر بين المثقفين والعمل على نشره وتكريسه من قبلهم بين الجماهير، ومن الأمثلة على ذلك ان بعض المثقفين العراقيين كانوا يعتقدون بأنهم (يستشرفون صفاء العالم من خلال ثقب في جورب مومس) [١٤].

لقد جعل فرمان من كل شخصية في الرواية تمثل فئة اجتماعية فأفكار وأحلام وتداعيات وتصورات الشخصية تكون أفكار ومنطلقات وأيديولوجية تلك الفئة، أي أن هذه الشخصية تكون الممثل الرسمي لتلك (الفئة) على المستوى الدلالي.

الأب يراعي العائلة كلها ويعمل على تحسين مستواها الاقتصادي- الاجتماعي دائماً وعلى الحفاظ على التقاليد والشعائر التي نشأ عليها، وحين تختفي حسيبة يستفز ذاته للبحث والاستقصاء عنها لوحده ويدع الأسرة مغلقة، والبحث يتم بمساعدة امرأة اسمها نعيمة كان لها سابقة مع الأب عبدالواحد أيام شبابه، ولم يرغب بمساعدة أحد غيرها، وتعثر عليها عند عطية العمية ولكن لا تخبر الأب عبدالواحد عن مكان مبيتها إنما تخبره عن مكان اشتغالها لأجل الانتقام والتشفي منه، لأجل الملامسات التي لم تكتمل في الخرابة. وهذه المرأة (نعيمة) هي من الخارج والأب عبدالواحد من الداخل يربطهما حب قديم، حب محنط، لم يبقى منه إلا لفافات متيبسة هو من أعطاها كلمة السر رغم أنه يعتبر أن الهروب (فضيحة للعائلة كلها) ص ١٠ وهي من حلت لغز هذا السر، فالعائلة كلها لم تفعل شيئاً إزاء الهروب، ولم يستطع أحد منهم العثور على الهاربة، ولكن هذا البحث يتم بواسطة شخص من خارج دائرتهم، وتسلِّم حسيبة على طبق من زجاج ملون، وحال ملامسته يتكسر، يتفتت، ساحقاً معه فترة زمنية عاشتها حسيبة عندهم، و(البيت يتحول إلى سجن حقيقي) ص ١٠٥، فالأب ينهار والابن يتيه في عوالمه البائسة ويبدأ بمقاطعة ومعاقبة نفسه والآخرين من خلال انغماسه بمعاقرة الخمرة التي تصبح طقساً يومياً له، مع عدم مواجهة أحد، وإذا تواجه يكون نائحاً مستشرفاً اللاعودة لزوجته (فهربت ولن تعود) ص ٤٩، وانسحب هذا الوضع على زمنه المتوقف عند نقطة الاختفاء نقطة الذكرى المجمدة ويبقى فاضل يعاني، يتألم، كالجواد المجروح دون أن يسقط.

نحن عرفنا أن رواية (خمسة أصوات) وهي رواية أصوات خمسة مثقفين، بعدها رأينا صوتا مثقفاً واحداً في رواية (المخاض)، ثم يظهر لنا صوتان مثقفان في رواية (ظلال على النافذة)، وهما مختلفان عن الأصوات السابقة مع تباين وتناقض، لأن فرمان جعل من كل رواية لها صوتها الخاص بها، أي أن كل صوتاً في الرواية له ظروفه التاريخية والسياسية والاجتماعية ومواقفه، من هنا يكون الصوت صوتاً لشريحة المثقفين في تلك الفترة، فـ(خمسة أصوات) فترة ما قبل ثورة ١٤ تموز، و(ظلال على النافذة) فترة بعد الثورة والعراق على مفترق طرق، فترة أواسط الستينيات، عندئذ قام فرمان برسم شخصيتين مثقفتين تتناسبان وتلك المرحلة الصعبة فكراً وسلوكاً، فماجد الأخ الأكبر وشامل الأخ الأصغر يتوسطهما فاضل العامل الأجير،

ماجد درس الهندسة في أوروبا وعاد، خروجه من العراق كان شبه نفي إجباري لآرائه السياسية ولاشتراكه في المظاهرات، وماجد قريب الشبه والملامح لـ(سعيد) فهما لا يعرفان ماذا يريدان أو عن ماذا يبحثان وما هو هذا الشيء؟ ويسافران لكن الأزمة تظل ملاصقة لهما وهذا انعكاس للظرف السياسي- الثقافي- الاجتماعي في فترة الخمسينيات والستينيات وتبقى أصواتهم (أصوات مزدوجة) [١٥] ما بين الخلاص من الظرف المأساوي لهم، وبين أن يسود السلام والطمأنينة حياتهم هذا على المستوى العام وبين الانفتاح على المنحنى الشخصي ومغادرة نقاط الضعف على المستوى الخاص، وبين العام الموضوعي والخاص الذاتي علاقة جدلية تبين لنا أن (ما يتسم به المثقفون من تذبذب أيديولوجي ومن انجذاب إلى فئات اجتماعية أخرى) [١٦]، ولكشف (الخرافة الفكرية) [١٧] التي يعيشها هؤلاء المثقفون البرجوازيون، لتركهم المنهجية الجدلية الحية في دراسة الظواهر والتطورات في كل مناحي الحياة.

إن ماجد كانت له علاقة جنسية مع خادمة، عندما كان يختفي في دار مخدومها لمدة خمسة أشهر، وعندما يرى (حسيبة) يتذكر فوراً (زهرة) التي تحسسه بالذنب وتكون تداعياته متداخلة متشابكة يحتاج القارىء إلى تركيز إضافي لمعرفة عن من يتكلم وأحياناً ليس في الاستطاعة التفريق بين الاثنتين (حسيبة) و(زهرة)، ولتوضيح الصورة بشكل أعمق ولبيان التداخل بينهما اقتبس هذا النص:

(من أين أنت؟ ومن عندك في قزرباط؟ يعني العائلة كلها

هاجرت؟ بقيت خالتك وجدتك؟ طابت لكم بغداد؟

بغداد تبتلع كل شيء. وكانت تنظر إلي بعينين رائعتين عطوفتين،

كأنها تنظر إلى عجل ولد لتوه. وكنت أحس بفوران الدم في شراييني، وهي ترمقني رمقاتها القصيرة الساجية. وكانت تأتيني بالمجلات التي يشتريها أهل البيت، وأغلبها مصورة صادرة من أرض الكنانة. وتشير زهرة إلى بعض الصور المترفة) ص ٢٠١.

بعدئذ نكتشف من خلال قراءتنا لفصول ماجد، أن علاقته هذه ليست علاقة جنسية فقط، بل علاقة حب عارم ينخر في ذاته إلى النهاية، وحسيبة تذكره بهذا الحب الضائع، وعند بحثه عن وظيفة في دوائر الدولة وعدم عثوره على وظيفة يحول ماجد حسيبة من (قضية للأسرة إلى قضية للبلد، وثورة ورمز) [١٨] وتبقى زهرة وشمه المحفور في قلبه، رغم سفره وعودته الطويلة وتكون حسيبة بديلة لزهرة في الطيبة والنقاء والعفوية وليس بديلة في مكان آخر كما يوهمنا به فرمان، ويوحيه إلينا، وشغفه بزهرة وما تركته من فراغ وإحساسه بهذا الفراغ الذي يمزقه يحاول أن تمليه حسيبة ولو بالأنوثة النقية فقط لا أكثر ولحساسية تلك الفترة التاريخية جعلت فرمان يعكس ذلك على الرواية وعلى مثقفي الرواية، فماجد مفرط الحساسية تجاه الأحداث التي تمر بها العائلة والأحداث التي يمر بها البلد وعطالته، وكذلك شامل لديه حساسية مثقف مغايرة تماماً لحساسية ماجد ويمثل فترة

ماجد درس الهندسة في أوروبا وعاد، خروجه من العراق كان شبه نفي إجباري لآرائه السياسية ولاشتراكه في المظاهرات، وماجد قريب الشبه والملامح لـ(سعيد) فهما لا يعرفان ماذا يريدان أو عن ماذا يبحثان وما هو هذا الشيء؟ ويسافران لكن الأزمة تظل ملاصقة لهما وهذا انعكاس للظرف السياسي- الثقافي- الاجتماعي في فترة الخمسينيات والستينيات وتبقى أصواتهم (أصوات مزدوجة) (١٥) ما بين الخلاص من الظرف المأساوي لهم، وبين أن يسود السلام والطمأنينة حياتهم هذا على المستوى العام وبين الانفتاح على المنحنى الشخصي ومغادرة نقاط الضعف على المستوى الخاص، وبين العام الموضوعي والخاص الذاتي علاقة جدلية تبين لنا أن (ما يتسم به المثقفون من تذبذب أيديولوجي ومن انجذاب إلى فئات اجتماعية أخرى) (١٦)، ولكشف (الخرافة الفكرية) (١٧) التي يعيشها هؤلاء المثقفون البرجوازيون، لتركهم المنهجية الجدلية الحية في دراسة الظواهر والتطورات في كل مناحي الحياة.

إن ماجد كانت له علاقة جنسية مع خادمة، عندما كان يختفي في دار مخدومها لمدة خمسة أشهر، وعندما يرى (حسيبة) يتذكر فوراً (زهرة) التي تحسسه بالذنب وتكون تداعياته متداخلة متشابكة يحتاج القارىء إلى تركيز إضافي لمعرفة عن من يتكلم وأحياناً ليس في الاستطاعة التفريق بين الاثنتين (حسيبة) و(زهرة)، ولتوضيح الصورة بشكل أعمق ولبيان التداخل بينهما اقتبس هذا النص:

(من أين أنت؟ ومن عندك في قزرباط؟

يعني العائلة كلها

هاجرت؟ بقيت خالتك وجدتك؟ طابت لكم بغداد؟

بغداد تبتلع كل شيء. وكانت تنظر إلي بعينين رائعتين عطوفتين،

كأنها تنظر إلى عجل ولد لتوه. وكنت أحس بفوران الدم في شراييني، وهي ترمقني رمقاتها القصيرة الساجية. وكانت تأتيني بالمجلات التي يشتريها أهل البيت، وأغلبها مصورة صادرة من أرض الكنانة. وتشير زهرة إلى بعض الصور المترفة) ص ٢٠١.

بعدئذ نكتشف من خلال قراءتنا لفصول ماجد، أن علاقته هذه ليست علاقة جنسية فقط، بل علاقة حب عارم ينخر في ذاته إلى النهاية، وحسيبة تذكره بهذا الحب الضائع، وعند بحثه عن وظيفة في دوائر الدولة وعدم عثوره على وظيفة يحول ماجد حسيبة من (قضية للأسرة إلى قضية للبلد، وثورة ورمز) (١٨) وتبقى زهرة وشمه المحفور في قلبه، رغم سفره وعودته الطويلة وتكون حسيبة بديلة لزهرة في الطيبة والنقاء والعفوية وليس بديلة في مكان آخر كما يوهمنا به فرمان، ويوحيه إلينا، وشغفه بزهرة وما تركته من فراغ وإحساسه بهذا الفراغ الذي يمزقه يحاول أن تمليه حسيبة ولو بالأنوثة النقية فقط لا أكثر ولحساسية تلك الفترة التاريخية جعلت فرمان يعكس ذلك على الرواية وعلى مثقفي الرواية، فماجد مفرط الحساسية تجاه الأحداث التي تمر بها العائلة والأحداث التي يمر بها البلد وعطالته، وكذلك شامل لديه حساسية مثقف مغايرة تماماً لحساسية ماجد ويمثل فترة

ما قبل الهزيمة ويمثل واقع مستوعب من قبله، مغرور، أناني يؤمن بالطريقة الميكافيلية في الحياة، و(يسبغ على الحياة جدية مزيفة) (١٩) لا يهمه أي شيء يجري حوله، فقط كل ما يهمه نفسه، أما عائلته والآخرون فلا تهمه، لا يتعاطف مع أحد ولا أحد يتعاطف معه، برغماتي (زمن لا تحلق فيه غير الخفافيش، ولا ينعم فيه بالعيش غير المقاولين) ص ٢٨٩، يحوّل مأساة عائلته إلى مسرحية ولكنه لم يستطع أن يضع لها نهاية، وتبقى انطباعيته تتقدم على عقلانيته انطباعية ممسوخة بوعي ممسوخ وعقلانية مدغومة بالإحباط (عش كلمة «إحباط» بقدر ما تستطيع وعندئذ ستفهمني) ص ٢٩١، هذا ما يقوله لأخيه ماجد في نهاية الرواية، طموحاته بلا حدود طموحات تولد في ذهنه ميتة طموحات غير متواصلة مع الناس مع المجتمع، لكنه يصدم بالواقع الذي يعيشه.

ومن أجل الكشف لغطاء بطل فرمان المثقف، علينا أن ننطلق من المعالم الاجتماعية والثقافية له، لأن بطل فرمان المنفصل عن التقاليد السوسيولوجية الثقافية وعن المكونات الحقيقية للإنسان المثقف المنحدر من روح الشعب المنحدر من صفوفه هو ممثل لجيل زائل وهذا الإنسان المثقف يؤمن بفكرة، وهذه الفكرة قد استولت عليه ودمرته، ذلك لأنه لم يتحد ولم يوثق صلاته بالحياة اليومية، لم يوثق صلاته بالمجتمع الحقيقي ولم يؤمن بالتقاليد الثقافية الثورية فكل هذا خلق روحا لا منتمية، روحا انهزامية لا تستطيع أن تتعايش مع الواقع وضياع الدلالة الثورية.

يتسم سلوك وتصرف أغلب الشخصيات بالخنوع واللامبالاة والانكماش والنكوص، ومن ضمنها الشخصيات الثانوية النسائية، فالأم لا يتعدى دورها إلا مضايقة حسيبة وحالما تغادر ينتهي هذا الدور، أما الأخت فضيلة فهي خلقت في هذا البيت للخدمة وتوفير الراحة لأفراد العائلة، ووقوفها طوال اليوم في المطبخ فإنها كالإنسان الآلي (الروبوت) لا أحاسيس لا شعور لا عواطف فقط عليها القيام بالأعمال المنزلية، هكذا ينظر إليها الآخرون، لكن في الحقيقة هي أخت محبة وطيبة تعمل على إرضاء الجميع وتحزن على مصير العائلة الذي آلت إليه.

قسم فرمان الرواية إلى أربعة أقسام (ظلال) وكل ظل يتألف من ثلاثة فصول، الفصل الأول من كل ظل أفرد لـ«الأب» بضمير الغائب والفصل الثاني من كل ظل أفرد لـ«ماجد» بضمير المتكلم والفصل الثالث من كل ظل أفراد لـ«شامل» بشكل حوار مسرحي، وهذا الأسلوب في الروايات العربية لم يستخدم، فمن تقنية روائية بحتة من سرد ضمائر، تداعى، فلاش باك، أحلام يقظة منولوجات، أصوات متعددة متداخلة إلخ.. ان يلحق فصل كامل في نهاية كل قسم على شكل حوار مسرحي، فهذا شيء جديد لم يسبق أن استخدمه أي روائي عراقي أو عربي- على ما أظن- حوار على شكل مناقشات بين الطلبة وإبداء الرأي وتفاعل الآراء للوصول إلى الأصوب مع تعليقات موضوعية صميمية، ويقول فرمان عن سبب ا ستخدامه لهذا الأسلوب:

(وكان «شامل» في ذهني يلعب دوراً كبيراً وكنت أريده أن يكون شخصية بارزة في الرواية

ما قبل الهزيمة ويمثل واقع مستوعب من قبله، مغرور، أناني يؤمن بالطريقة الميكافيلية في الحياة، و(يسبغ على الحياة جدية مزيفة) [١٩] لا يهمه أي شيء يجري حوله، فقط كل ما يهمه نفسه، أما عائلته والآخرون فلا تهمه، لا يتعاطف مع أحد ولا أحد يتعاطف معه، برغماتي (زمن لا تحلق فيه غير الخفافيش، ولا ينعم فيه بالعيش غير المقاولين) ص ٢٨٩، يحوّل مأساة عائلته إلى مسرحية ولكنه لم يستطع أن يضع لها نهاية، وتبقى انطباعيته تتقدم على عقلانيته انطباعية ممسوخة بوعي ممسوخ وعقلانية مدغومة بالإحباط (عش كلمة «إحباط» بقدر ما تستطيع وعندئذ ستفهمني) ص ٢٩١، هذا ما يقوله لأخيه ماجد في نهاية الرواية، طموحاته بلا حدود طموحات تولد في ذهنه ميتة طموحات غير متواصلة مع الناس مع المجتمع، لكنه يصدم بالواقع الذي يعيشه.

ومن أجل الكشف لغطاء بطل فرمان المثقف، علينا أن ننطلق من المعالم الاجتماعية والثقافية له، لأن بطل فرمان المنفصل عن التقاليد السوسيولوجية الثقافية وعن المكونات الحقيقية للإنسان المثقف المنحدر من روح الشعب المنحدر من صفوفه هو ممثل لجيل زائل وهذا الإنسان المثقف يؤمن بفكرة، وهذه الفكرة قد استولت عليه ودمرته، ذلك لأنه لم يتحد ولم يوثق صلاته بالحياة اليومية، لم يوثق صلاته بالمجتمع الحقيقي ولم يؤمن بالتقاليد الثقافية الثورية فكل هذا خلق روحا لا منتمية، روحا انهزامية لا تستطيع أن تتعايش مع الواقع وضياع الدلالة الثورية.

يتسم سلوك وتصرف أغلب الشخصيات بالخنوع واللامبالاة والانكماش والنكوص، ومن ضمنها الشخصيات الثانوية النسائية، فالأم لا يتعدى دورها إلا مضايقة حسيية وحالما تغادر ينتهي هذا الدور، أما الأخت فضيلة فهي خلقت في هذا البيت للخدمة وتوفير الراحة لأفراد العائلة، ووقوفها طوال اليوم في المطبخ فإنها كالإنسان الآلي (الروبوت) لا أحاسيس لا شعور لا عواطف فقط عليها القيام بالأعمال المنزلية، هكذا ينظر إليها الآخرون، لكن في الحقيقة هي أخت محبة وطيبة تعمل على إرضاء الجميع وتحزن على مصير العائلة الذي آلت إليه.

قسم فرمان الرواية إلى أربعة أقسام (ظلال) وكل ظل يتألف من ثلاثة فصول، الفصل الأول من كل ظل أفرد لـ«الأب» بضمير الغائب والفصل الثاني من كل ظل أفرد لـ«ماجد» بضمير المتكلم والفصل الثالث من كل ظل أفراد لـ«شامل» بشكل حوار مسرحي، وهذا الأسلوب في الروايات العربية لم يستخدم، فمن تقنية روائية بحتة من سرد ضمائر، تداعى، فلاش باك، أحلام يقظة منولوجات، أصوات متعددة متداخلة إلخ.. ان يلحق فصل كامل في نهاية كل قسم على شكل حوار مسرحي، فهذا شيء جديد لم يسبق أن استخدمه أي روائي عراقي أو عربي- على ما أظن- حوار على شكل مناقشات بين الطلبة وإبداء الرأي وتفاعل الآراء للوصول إلى الأصوب مع تعليقات موضوعية صميمية، ويقول فرمان عن سبب ا ستخدامه لهذا الأسلوب:

(وكان «شامل» في ذهني يلعب دوراً كبيراً وكنت أريده أن يكون شخصية بارزة في الرواية

عند سير الأحداث في مجرى كتابة الرواية لم أجد «شامل» يبرز فيها بالصورة الواضحة والقوية المؤثرة التي كنت أنا أريد أن أظهره بها، بعد تفكير طويل لجأت إلى أن أكتب قسمه، خصوصاً وهو طالب في معهد الفنون الجميلة، بهذا الأسلوب) (٢٠).

رغم أن الحوار هو التقنية الوحيدة في المسرح تقريباً- البعض يستخدم الملصقات- الصحف- الأفلام- الصور- ولكن بالمقارنة مع رواياته، أشعر أن هذا الأسلوب المسرحي لم يأت متلائما مع الرواية رغم أنه لم يضعفها أو أصبح جزءاً غير منسجم مع بقية الأجزاء المنسجمة، أما فصول ماجد فجاءت قمة في الروعة، عالية التقنية من أساليب مختلفة- تيار الوعي- المنولوج الداخلي، تداخل الماضي بالحاضر بالماضي- الحوار الدقيق، لذا أتى النص مزدحما بالجمالية داخل بنية الرواية مع رؤيا فنية للناحية التاريخية السياسية.

ومن خلال هذه الأساليب الثلاثة تبرز لنا جدلية الأصوات، الأصوات التي تعيش العصر الاجتماعية، السياسية، الأيديولوجية ولتكون الرواية بصمة المستقبل لامتلاكها حضوراً داخل صراع القوى المتعايشة حاضراً ومستقبلاً. كان فرمان يمتلك حرية واسعة في داخل فضاء النص- الروائي لأنه كان على اطلاع عميق بالمراحل التي يكتب عنها لأنه (كلما كانت معرفة الكاتب بفترة ما أعمق وأكثر تاريخية على نحو أصيل كان أكثر حرية في التحرك داخل موضوعه) (٢١). ■

الهوامش والإحالات :

١- وليم راي- المعنى الأدبي: من الظاهراتية إلى التفكيكية- ت/د يوئيل يوسف عزيز ص ٩ دار المأمون بغداد ١٩٨٧.

٢- ياسين النصير- الصيانية والتدمير- ص ٥١ مجلة الأفلام العدد ٧-٨ تموز/ آب ١٩٩٢.

٣- فلاديمير بروب- مورفولوجية الخرافة- ت/ دابراهيم الخطيب المغرب ١٩٨٦.

٤- فاضل ثامر- الصوت الآخر: الجوهر الحواري للخطاب الأدبي- ص ١١٥ دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٩٢.

٥- يقول فاضل ثامر بأنه يمكن اختزال الوحدات الوظيفية الإحدى والثلاثين كما (أقره بروب وأقرته الدراسات الحديثة التي أشارت إلى إمكانية اختزال الوظائف إلى وظيفتين فقط) ص ١٢٠ المصدر السابق.

٦- جورج لوكاش- التاريخ والوعي الطبقي- ت الدكتور حنا الشاعر ص ٢٩ دار الأندلس ط٢ بيروت ١٩٨٢.

٧- م. باختين- قضايا الفن الإبداعي عند دوستويفسكي- ت/ الدكتور جميل نصيف مراجعة الدكتورة حياة شرارة ص ٢٦٠- دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٨٦.

٨- د. نجم عبدالله كاظم- الرواية في العراق: ١٩٦٥-١٩٨٠ ص ٢٣٧ دار الشؤون الثقافية ط١ بغداد ١٩٨٦.

٩- جورج لوكاش- التاريخ والوعي الطبقي ص ٢١٢.

١٠- م. باختين- قضايا الفن الإبداعي عند دوستويفسكي ص ٢٦٠.

١١- د. نجم عبدالله كاظم- الرواية في العراق ص ٢٣٧.

١٢- رولان بارت- نقد وحقيقة- ت. د. منذر عياشي ص ٨٢ مركز الإنماء الحضاري- بيروت.

١٣- ياسين النصير- الصيانية والتدمير ص ٥٣.

١٤- شوكت الربيعي وآخرون- بيان إلى المثقفين العراقيين- ص ١٥٧ مجلة الثقافة الجديدة العدد الأول حزيران ١٩٦٩. نشر هذا البيان الموقع من قبل (٤) مثقفين عراقيين هم: شوكت الربيعي (رسام وناقد) وعبدالرزاق المطلبي (قاص)، سليم عبدالقادر السامرائي (ناقد أدبي) محمد حسين المطلبي (شاعر)، رداً على البيان الشعري الذي أصدره: فاضل العزاوي (قاص وروائي- يقيم منذ سنوات خارج العراق). فوزي كريم (شاعر- غادر العراق صيف ١٩٧٨ إلى لندن وقد أصدر في لندن مجلة اللحظة الشعرية) وسامي مهدي (شاعر) وخالد علي مصطفى (شاعر)/ في مجلة الشعر ٦٩ العدد الأول مارس ١٩٦٩، ونحن نعلم بأن فاضل العزاوي وفوزي كريم يمتلكان رؤية وفكر وأيديولوجية غير التي يمتلكها الشاعران الآخران بل هما على طرفي نقيض منهما.

عند سير الأحداث في مجرى كتابة الرواية لم أجد «شامل» يبرز فيها بالصورة الواضحة والقوية المؤثرة التي كنت أنا أريد أن أظهره بها، بعد تفكير طويل لجأت إلى أن أكتب قسمه، خصوصاً وهو طالب في معهد الفنون الجميلة، بهذا الأسلوب) (٢٠).

رغم أن الحوار هو التقنية الوحيدة في المسرح تقريباً- البعض يستخدم الملصقات- الصحف- الأفلام- الصور- ولكن بالمقارنة مع رواياته، أشعر أن هذا الأسلوب المسرحي لم يأت متلائما مع الرواية رغم أنه لم يضعفها أو أصبح جزءاً غير منسجم مع بقية الأجزاء المنسجمة، أما فصول ماجد فجاءت قمة في الروعة، عالية التقنية من أساليب مختلفة- تيار الوعي- المنولوج الداخلي، تداخل الماضي بالحاضر بالماضي- الحوار الدقيق، لذا أتى النص مزدحما بالجمالية داخل بنية الرواية مع رؤيا فنية للناحية التاريخية السياسية.

ومن خلال هذه الأساليب الثلاثة تبرز لنا جدلية الأصوات، الأصوات التي تعيش العصر الاجتماعية، السياسية، الأيديولوجية ولتكون الرواية بصمة المستقبل لامتلاكها حضوراً داخل صراع القوى المتعايشة حاضراً ومستقبلاً. كان فرمان يمتلك حرية واسعة في داخل فضاء النص- الروائي لأنه كان على اطلاع عميق بالمراحل التي يكتب عنها لأنه (كلما كانت معرفة الكاتب بفترة ما أعمق وأكثر تاريخية على نحو أصيل كان أكثر حرية في التحرك داخل موضوعه) (٢١). ■

الهوامش والإحالات :

١- وليم راي- المعنى الأدبي: من الظاهراتية إلى التفكيكية- ت/د يوئيل يوسف عزيز ص ٩ دار المأمون بغداد ١٩٨٧.

٢- ياسين النصير- الصيانية والتدمير- ص ٥١ مجلة الأفلام العدد ٧-٨ تموز/ آب ١٩٩٢.

٣- فلاديمير بروب- مورفولوجية الخرافة- ت/ دابراهيم الخطيب المغرب ١٩٨٦.

٤- فاضل ثامر- الصوت الآخر: الجوهر الحواري للخطاب الأدبي- ص ١١٥ دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٩٢.

٥- يقول فاضل ثامر بأنه يمكن اختزال الوحدات الوظيفية الإحدى والثلاثين كما (أقره بروب وأقرته الدراسات الحديثة التي أشارت إلى إمكانية اختزال الوظائف إلى وظيفتين فقط) ص ١٢٠ المصدر السابق.

٦- جورج لوكاش- التاريخ والوعي الطبقي- ت الدكتور حنا الشاعر ص ٢٩ دار الأندلس ط٢ بيروت ١٩٨٢.

٧- م. باختين- قضايا الفن الإبداعي عند دوستويفسكي- ت/ الدكتور جميل نصيف مراجعة الدكتورة حياة شرارة ص ٢٦٠- دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٨٦.

٨- د. نجم عبدالله كاظم- الرواية في العراق: ١٩٦٥-١٩٨٠ ص ٢٣٧ دار الشؤون الثقافية ط١ بغداد ١٩٨٦.

٩- جورج لوكاش- التاريخ والوعي الطبقي ص ٢١٢.

١٠- م. باختين- قضايا الفن الإبداعي عند دوستويفسكي ص ٢٦٠.

١١- د. نجم عبدالله كاظم- الرواية في العراق ص ٢٣٧.

١٢- رولان بارت- نقد وحقيقة- ت. د. منذر عياشي ص ٨٢ مركز الإنماء الحضاري- بيروت.

١٣- ياسين النصير- الصيانية والتدمير ص ٥٣.

١٤- شوكت الربيعي وآخرون- بيان إلى المثقفين العراقيين- ص ١٥٧ مجلة الثقافة الجديدة العدد الأول حزيران ١٩٦٩. نشر هذا البيان الموقع من قبل (٤) مثقفين عراقيين هم: شوكت الربيعي (رسام وناقد) وعبدالرزاق المطلبي (قاص)، سليم عبدالقادر السامرائي (ناقد أدبي) محمد حسين المطلبي (شاعر)، رداً على البيان الشعري الذي أصدره: فاضل العزاوي (قاص وروائي- يقيم منذ سنوات خارج العراق). فوزي كريم (شاعر- غادر العراق صيف ١٩٧٨ إلى لندن وقد أصدر في لندن مجلة اللحظة الشعرية) وسامي مهدي (شاعر) وخالد علي مصطفى (شاعر)/ في مجلة الشعر ٦٩ العدد الأول مارس ١٩٦٩، ونحن نعلم بأن فاضل العزاوي وفوزي كريم يمتلكان رؤية وفكر وأيديولوجية غير التي يمتلكها الشاعران الآخران بل هما على طرفي نقيض منهما.

١٥- م. باختين- قضايا الفن الإبداعي عند دوستويفسكي- ص ٢٣٨.
١٦- جانفيف موريبو- ت رشيد بنحدو ص ١١١- (البنيوية التكوينية والنقد الأدبي) مؤسسة الأبحاث العربية بيروت ١٩٨٤.
١٧- جورج لوكاش- التاريخ والوعي الطبقي- ص ٢٧.
١٨- ياسين النصير- الصيانية والتدمير ص ٥٢.
١٩- م. باختين- قضايا الفن الإبداعي عند دوستويفسكي ص ٢٥٦.
٢٠- د. نجم عبدالله كاظم- الرواية في العراق- ص ٢٣٦.
٢١- جورج لوكاش- الرواية التاريخية- ت/ د. صالح جواد كاظم ص ٢٣٩. وزارة الثقافة والفنون العراقية- دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٧.

١٥- م. باختين- قضايا الفن الإبداعي عند دوستويفسكي- ص ٢٣٨.
١٦- جانفيف موريبو- ت رشيد بنحدو ص ١١١- (البنيوية التكوينية والنقد الأدبي) مؤسسة الأبحاث العربية بيروت ١٩٨٤.
١٧- جورج لوكاش- التاريخ والوعي الطبقي- ص ٢٧.
١٨- ياسين النصير- الصيانية والتدمير ص ٥٢.
١٩- م. باختين- قضايا الفن الإبداعي عند دوستويفسكي ص ٢٥٦.
٢٠- د. نجم عبدالله كاظم- الرواية في العراق- ص ٢٣٦.
٢١- جورج لوكاش- الرواية التاريخية- ت/ د. صالح جواد كاظم ص ٢٣٩. وزارة الثقافة والفنون العراقية- دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٧.

هل يحق للفنان ممارسة الكتابة النقدية ؟

د . أسعد عرابي*

كلفتني وزارة الثقافة السورية منذ فترة قريبة بكتابة النص النقدي المرافق لكاتالوك (كراس) المعرض الذي سيقام في معهد العالم العربي في باريس، ورغم اعتزازي بهذه الثقة فقد أربكني الموضوع لسببين:

يتمثل الأول في عظم مسؤولية البحث عن خصائص محترف يكاد يكون مجهولاً، وذلك لما يملك من أعداء أقرباء بما فيهم بعض الجاحدين في الخارج والأعداء التقليديين لكل ما هو عربي، خاصة سورية، أما السبب الثاني وهو الذي يمثل لبّ موضوعنا لملف هذا العدد: عدم موافقتي على غياب بعض الأسماء دون أي ناظم أو مبرّر فني، وبما أني أعتبر نفسي محاوراً، كان عليّ أن أقبل غيابي عن المعرض لأنه يرسّخ حيادي في الكتابة، ولكن دون أن أفرّط بذكر من يملكون قناعتي بعدم مبرر تغييبهم، وسمحت لنفسي أن أرسم خارطة المحترف بمعزل عن التناغم مع اختيارات المعرض أو عدمه. تاركاً للقارىء الحيادي وضع العارضين في سلّم مواقعهم الطبيعيّة. وبما أنه من مألوف عادتي تجاهل اسمي، دفعاً لأيّ التباس حول حياد النقد، فقد وجدت مع بعض الذين قرؤوه أن دوري الغائب يمثل ثغرةً واضحة في الشهادة، وكان لا بد لي من الاعتراف لأول مرة أن تعسّف التواضع والخشية من الانتقاد المنافق (أو الديماغوجي) لا يقل خطورة عن تعسّف نرجسيّة بعض الفنانين والنقاد الذين تتحكم ذاتيتهم في صولجان القلم وسلطة النقد.

ولعلّه من الجدير بالذكر أنّي أسعى جهدي أن أغفل ما استطعت ذكري في التظاهرات الفنية التي أشارك بها والتي أكتب عنها عادة في الصفحة الثقافيّة في جريدة «الحياة»، وغالباً ما تغطّي معارضي الشخصيّة أغلب الصحف المعروفة ما عدا الحياة، فغالباً ما تخجلنا تهمة المحاباة واستغلال مواقعنا في صحيفة تملك مصداقية وانتشارا إعلاميًا مثل الحياة، أقول ذلك رغم أني لم أتحرج يوماً في الكتابة عن تلامذة تلامذتي وأترابهم ممن يستحقون الذكر، فقد نذرت خبرتي لمن أهمله النقد التواطؤي واحتلال النجوم للساحة الإعلامية عن حق أو عن غير حق.

فإذا ما عدنا إلى موضوع «كاتالوك» المعرض المذكور أقول: راجع الكتابة الأولى للنص أحد

* ناقد وفنان تشكيلي عربي مقيم في باريس

هل يحق للفنان ممارسة الكتابة النقدية ؟

د . أسعد عرابي*

كلفتني وزارة الثقافة السورية منذ فترة قريبة بكتابة النص النقدي المرافق لكاتالوك (كراس) المعرض الذي سيقام في معهد العالم العربي في باريس، ورغم اعتزازي بهذه الثقة فقد أربكني الموضوع لسببين:

يتثمل الأول في عظم مسؤولية البحث عن خصائص محترف يكاد يكون مجهولاً، وذلك لما يملك من أعداء أقرباء بما فيهم بعض الجاحدين في الخارج والأعداء التقليديين لكل ما هو عربي، خاصة سورية، أما السبب الثاني وهو الذي يمثل لبّ موضوعنا لملف هذا العدد: عدم موافقتي على غياب بعض الأسماء دون أي ناظم أو مبرّر فني، وبما أني أعتبر نفسي محاوراً، كان عليّ أن أقبل غيابي عن المعرض لأنه يرسّخ حيادي في الكتابة، ولكن دون أن أفرّط بذكر من يملكون قناعتي بعدم مبرر تغيبيبهم، وسمحت لنفسي أن أرسم خارطة المحترف بمعزل عن التناغم مع اختيارات المعرض أو عدمه. تاركاً للقارىء الحيادي وضع العارضين في سلّم مواقعهم الطبيعيّة. وبما أنه من مألوف عادتي تجاهل اسمي، دفعاً لأيّ التباس حول حياد النقد، فقد وجدت مع بعض الذين قرؤوه أن دوري الغائب يمثل ثغرةً واضحة في الشهادة، وكان لا بد لي من الاعتراف لأول مرة أن تعسّف التواضع والخشية من الانتقاد المنافق (أو الديماغوجي) لا يقل خطورة عن تعسّف نرجسيّة بعض الفنانين والنقاد الذين تتحكم ذاتيتهم في صولجان القلم وسلطة النقد.

ولعلّه من الجدير بالذكر أنّي أسعى جهدي أن أغفل ما استطعت ذكري في التظاهرات الفنية التي أشارك بها والتي أكتب عنها عادة في الصفحة الثقافيّة في جريدة «الحياة»، وغالباً ما تغطّي معارضي الشخصيّة أغلب الصحف المعروفة ما عدا الحياة، فغالباً ما تخجلنا تهمة المحاباة واستغلال مواقعنا في صحيفة تملك مصداقية وانتشارا إعلاميًا مثل الحياة، أقول ذلك رغم أني لم أتحرج يوماً في الكتابة عن تلامذة تلامذتي وأترابهم ممن يستحقون الذكر، فقد نذرت خبرتي لمن أهمله النقد التواطؤي واحتلال النجوم للساحة الإعلامية عن حق أو عن غير حق.

فإذا ما عدنا إلى موضوع «كاتالوك» المعرض المذكور أقول: راجع الكتابة الأولى للنص أحد

* ناقد وفنان تشكيلي عربي مقيم في باريس

رموز المحترف الذي يملك مصداقية فنية وأخلاقية ومشارك في المعرض، أبدى ليس عجبه وإنما استنكاره لإخفاء اسمي ودوري في تاريخ المحترف، مؤكداً بتعنيف لبق أن جنسيتي اللبنانية لا تعني شيئاًعلى أرض واقع الفن السوري، وعندما أعدت صياغة النص أضفت بعض الإشارات الخجولة إلى شراكتي في ازدهار كلية الفنون في نهاية الستينيات والسبعينيات علماً بأني علّمت فيها أكثر من عشر سنوات، وألمحت إلى مساهمتي في نشاط «جماعة العشرة» التي شكلت منعطفاً أساسياً في تثبيت خصائص التعبيرية السورية إلى جانب الفنانين مدرس وحمّاد.

وكان ذكر هذين الموقعين كاف لإخفاء عورة التغييب الذاتي، والذي لا يقل ظلماً عن تغييب بعض الأسماء عن المعرض. راجعت لأول مرة بداهة تلك الالية التي أخفي بها الاسم الذي أحمل مسؤوليته! ولأطرح السؤال من جديد:

هل يحق للتشكيلي الممارس لفن اللوحة أو المنحوتة أو المحفورة أن يكتب عن تجربته؟ أن يحللها موضوعياً ويعرض مفاصلها وخصائص سياقاتها ومصادر استلهاماتها وتراكيب توليفاتها وتمثلاتها المركبة؟ لم لا؟ خاصة إذا كان مالكاً لعدة الكتابة المنهجية؟ وبما أنّى ممارس لإنتاج اللوحة والكتابة التشكيلية بنفس درجة الاحتراف، وهي حالة نادرة لا نعثر على مثالها إلا في سيرة الفنان العراقى المعلم شاكر حسن آل سعيد، وهو ما يسمح لي بعرض «بيان» جمالي معمّق يرافق كل معرض، لعله من الطريف أني معررف كناقد وباحث جمالي في بلاد المغرب العربي، ومعروف كفنان تشكيلي في المشرق العربي، والبعض يتصور أن الاسم مشترك يحمله شخصان: واحد ناقد والآخر مصور!

أنا أقول بأن صاحب التجربة أشد عمقاً في تحليلها من أي ناقد متفرج، فالشهادة في الزمان والمكان تخرج من نبض اللوحة ومعاناتها وعصبها وشهيقها وزفيرها، لنتصور حجم الخطأ الذي سيرتكبه شاكر حسن آل سعيد عندما يلغي اسمه ودوره من تاريخ الفن العراقي وجماعة البعد الواحد الذين أرّخ لهم؟. لنتخيل حجم مثل هذه الخطيئة الذاتية لو بدرت مثلاً عن ضياء العزاوي، لا يمكن تخيل ذلك، وإن كان النقاد مهما سمت وتعمقت دراساتهم يقترفون أخطاءً لا ترحم، هل نتصور أن ناقداً بحجم جبرا إبراهيم جبرا المختص بالفن العراقي يسهو عن ذكر علي طالب، ثم يعود فيصحح بعد سنوات؟ لا أظن أن أحداً من الثلاثة شاكر حسن أو ضياء أو طالب بإمكانه أن يسهو عن ذكر زميليه، إن أخطاء النقاد غير الممارسين قاتلة، لنتصور ناقدا بأهمية هربرت ريد ينسى حضارة الصين التشكيلية ثم يراجع نفسه في الطبعة الثانية، ولكن الفنانين أيضاً يقعون في نفس المصائد عندما يطلقون لنرجسيتهم العنان فى الكتابة، من يتابع تهويمات الفنان عدلي رزق الله يظن أن فن الألوان المائية ابتدأ وانتهى بتجربته، مع إخصاء وتجاهل ذاكرته الصينية، تزداد هذه الذاتية أنوية عندما يغذيها أديب نجم مثل إدوار الخراط فتبدو العلاقة وأمثالها عصبيات تواطؤ أكثر منها تواصلاً بين المبدعين.

لعله ولهذا السبب أتجنب نشر صور وجوه

رموز المحترف الذي يملك مصداقية فنية وأخلاقية ومشارك في المعرض، أبدى ليس عجبه وإنما استنكاره لإخفاء اسمي ودوري في تاريخ المحترف، مؤكداً بتعنيف لبق أن جنسيتي اللبنانية لا تعني شيئاًعلى أرض واقع الفن السوري، وعندما أعدت صياغة النص أضفت بعض الإشارات الخجولة إلى شراكتي في ازدهار كلية الفنون في نهاية الستينيات والسبعينيات علماً بأني علّمت فيها أكثر من عشر سنوات، وألمحت إلى مساهمتي في نشاط «جماعة العشرة» التي شكلت منعطفاً أساسياً في تثبيت خصائص التعبيرية السورية إلى جانب الفنانين مدرس وحمّاد.

وكان ذكر هذين الموقعين كاف لإخفاء عورة التغييب الذاتي، والذي لا يقل ظلماً عن تغييب بعض الأسماء عن المعرض. راجعت لأول مرة بداهة تلك الالية التي أخفي بها الاسم الذي أحمل مسؤوليته! ولأطرح السؤال من جديد:

هل يحق للتشكيلي الممارس لفن اللوحة أو المنحوتة أو المحفورة أن يكتب عن تجربته؟ أن يحللها موضوعياً ويعرض مفاصلها وخصائص سياقاتها ومصادر استلهاماتها وتراكيب توليفاتها وتمثلاتها المركبة؟ لم لا؟ خاصة إذا كان مالكاً لعدة الكتابة المنهجية؟ وبما أنّي ممارس لإنتاج اللوحة والكتابة التشكيلية بنفس درجة الاحتراف، وهي حالة نادرة لا نعثر على مثالها إلا في سيرة الفنان العراقى المعلم شاكر حسن آل سعيد، وهو ما يسمح لي بعرض «بيان» جمالي معمّق يرافق كل معرض، لعله من الطريف أني معررف كناقد وباحث جمالي في بلاد المغرب العربي، ومعروف كفنان تشكيلي في المشرق العربي، والبعض يتصور أن الاسم مشترك يحمله شخصان: واحد ناقد والآخر مصور!

أنا أقول بأن صاحب التجربة أشد عمقاً في تحليلها من أي ناقد متفرج، فالشهادة في الزمان والمكان تخرج من نبض اللوحة ومعاناتها وعصبها وشهيقها وزفيرها، لنتصور حجم الخطأ الذي سيرتكبه شاكر حسن آل سعيد عندما يلغي اسمه ودوره من تاريخ الفن العراقي وجماعة البعد الواحد الذين أرّخ لهم؟. لنتخيل حجم مثل هذه الخطيئة الذاتية لو بدرت مثلاً عن ضياء العزاوي، لا يمكن تخيل ذلك، وإن كان النقاد مهما سمت وتعمقت دراساتهم يقترفون أخطاءً لا ترحم، هل نتصور أن ناقداً بحجم جبرا إبراهيم جبرا المختص بالفن العراقي يسهو عن ذكر علي طالب، ثم يعود فيصحح بعد سنوات؟ لا أظن أن أحداً من الثلاثة شاكر حسن أو ضياء أو طالب بإمكانه أن يسهو عن ذكر زميليه، إن أخطاء النقاد غير الممارسين قاتلة، لنتصور ناقدا بأهمية هربرت ريد ينسى حضارة الصين التشكيلية ثم يراجع نفسه في الطبعة الثانية، ولكن الفنانين أيضاً يقعون في نفس المصائد عندما يطلقون لنرجسيتهم العنان فى الكتابة، من يتابع تهويمات الفنان عدلي رزق الله يظن أن فن الألوان المائية ابتدأ وانتهى بتجربته، مع إخصاء وتجاهل ذاكرته الصينية، تزداد هذه الذاتية أنوية عندما يغذيها أديب نجم مثل إدوار الخراط فتبدو العلاقة وأمثالها عصبيات تواطؤ أكثر منها تواصلاً بين المبدعين.

لعله ولهذا السبب أتجنب نشر صور وجوه

الفنانين مؤثراً صور أعمالهم الفنية، وذلك تهدئة لإحساس البعض منهم بنجوميته وإعادة اعتبار للعمل الفني باعتباره الإحالة والمصداقية الأولى، ما أبلغ الروائي والناقد المتنور الفرنسي أندريه مالرو حينما أكد بأنه:

«لا توجد سيرة ذاتية للفنان خارج عمله التشكيلي».

ولكن ما سقته من خواطر يقودنا بالضرورة إلى سؤال جوهري من جديد: هل يحق للفنان الممارس الكتابة سواء عن تجربته أو تجارب أترابه؟

* * *

يبدو الأمر مألوفاً في تاريخ الفن الغربي، فالفنانون هم الذين أسسوا للنقد والكتابة التشكيلية، وكانوا المنظّرين للتيارات والمدارس التي أبدعوها.

حتى لنكاد لا نجد فناناً لا يملك كتاباً على الأقل في المكتبة النقدية، يملك مثلاً الفنان الهنغاري فكتور فازاريللي مكتبة عن «الفن البصري» لا تقل أهمية عن خصوبة إنتاجه التصويري، هذا هو شأن بول كلي وكاندينسكي، أما بيكاسو وبراك فقد وضعا أسس «التكعيبية»، والفنان بول سينياك وضع أسس «التجزيئية» وشرح مبادىء «الانطباعية»، وكذلك فرناند ليجيه وهنري ماتيس، يختلف العرف بالنسبة إلى الفنانين العرب، تعاف أنفسهم الكتابة، يترفعون عنها بدعوى أن هناك حدوداً بين النشاط العملي والنشاط النظري، بدعوى أيضاً أنها لا تخلو من النرجسية ومغازلة الأنا والذات المبدعة!.

إذا واجهنا حقيقة الأمر وجدنا أن تقاعس فنانينا عن الكتابة واستقالتهم من عنائها ومجاهداتها أعطى فرصة ومساحة أكبرمما يجب إلى النقد غير المختص، في التقويم وأحياناً في سلطة القرار التشكيلي، وهو ما يفسّر مزاجية الاقتناء والاختيار والتحكيم، وتأخر اكتشاف التجارب الواعدة ومعاودة سهولة تكريس تجارب النجوم دون مراجعة أسباب شهرتها، يتحمل فنانونا بالتالي جزءاً كبيراً من مسؤولية الفوضى الفكرية واستباحة الكتابة التشكيلية من قبل الاختصاصات الأخرى كالأدب والصحافة والفلسفة وغيرها، وكأنّ الفنان بحاجة إلى وصاية على لسانه وقلمه، ومنهجه الفكري والتربوي.

كثيرون مثلي، لا تعنيهم المفاخرة بشهادتهم وبحوثهم النظرية بقدر ما يعنيهم وصول صوتهم التشكيلي، بل ويعتبرون أنّ أية صفة أو رتبة نظرية (من دكتوراه وسواها) لا تعني شيئاً أمام صفة تشكيلي، لعله مما يثير الشفقة تمسك بعض الإداريين من الفنانين بهذه الألقاب، هي غالباً ما تكون مفرغة من معناها لأنهم لا يكتبون، ويقتصرون على اللعثمة التشكيلية في أوقات متباعدة. تحول هذا اللقب مع الأيام إلى ترقية عسكرية تشبه عدد نجوم الرتب وعدد نجوم فنادق الدرجة الثالثة.

ولكن ورغم كلاحة وسخرية هذه الظواهر فقد بدأت الأمور تنجلي وتتظاهر إضاءات كتابية صحيّة غير مدعية، يمارسها عدد من الفنانين المحترفين، جمعت هذه الحالة المثابرة فناني الداخل مع فناني المهجر، والأمثلة تتضاعف كل يوم، أما كتاباتهم فتتوجه إلى النخبة المتخصصة مما يخدم دور النقد الصحفي الذي يتوجه إلى

الفنانين مؤثراً صور أعمالهم الفنية، وذلك تهدئة لإحساس البعض منهم بنجوميته وإعادة اعتبار للعمل الفني باعتباره الإحالة والمصداقية الأولى، ما أبلغ الروائي والناقد المتنور الفرنسي أندريه مالرو حينما أكد بأنه:

«لا توجد سيرة ذاتية للفنان خارج عمله التشكيلي».

ولكن ما سقته من خواطر يقودنا بالضرورة إلى سؤال جوهري من جديد: هل يحق للفنان الممارس الكتابة سواء عن تجربته أو تجارب أترابه؟

* * *

يبدو الأمر مألوفاً في تاريخ الفن الغربي، فالفنانون هم الذين أسسوا للنقد والكتابة التشكيلية، وكانوا المنظّرين للتيارات والمدارس التي أبدعوها.

حتى لنكاد لا نجد فناناً لا يملك كتاباً على الأقل في المكتبة النقدية، يملك مثلاً الفنان الهنغاري فكتور فازاريللي مكتبة عن «الفن البصري» لا تقل أهمية عن خصوبة إنتاجه التصويري، هذا هو شأن بول كلي وكاندينسكي، أما بيكاسو وبراك فقد وضعا أسس «التكعيبية»، والفنان بول سينياك وضع أسس «التجزيئية» وشرح مبادىء «الانطباعية»، وكذلك فرناند ليجيه وهنري ماتيس، يختلف العرف بالنسبة إلى الفنانين العرب، تعاف أنفسهم الكتابة، يترفعون عنها بدعوى أن هناك حدوداً بين النشاط العملي والنشاط النظري، بدعوى أيضاً أنها لا تخلو من النرجسية ومغازلة الأنا والذات المبدعة!.

إذا واجهنا حقيقة الأمر وجدنا أن تقاعس فنانينا عن الكتابة واستقالتهم من عنائها ومجاهداتها أعطى فرصة ومساحة أكبرمما يجب إلى النقد غير المختص، في التقويم وأحياناً في سلطة القرار التشكيلي، وهو ما يفسّر مزاجية الاقتناء والاختيار والتحكيم، وتأخر اكتشاف التجارب الواعدة ومعاودة سهولة تكريس تجارب النجوم دون مراجعة أسباب شهرتها، يتحمل فنانونا بالتالي جزءاً كبيراً من مسؤولية الفوضى الفكرية واستباحة الكتابة التشكيلية من قبل الاختصاصات الأخرى كالأدب والصحافة والفلسفة وغيرها، وكأنّ الفنان بحاجة إلى وصاية على لسانه وقلمه، ومنهجه الفكري والتربوي.

كثيرون مثلي، لا تعنيهم المفاخرة بشهادتهم وبحوثهم النظرية بقدر ما يعنيهم وصول صوتهم التشكيلي، بل ويعتبرون أنّ أية صفة أو رتبة نظرية (من دكتوراه وسواها) لا تعني شيئاً أمام صفة تشكيلي، لعله مما يثير الشفقة تمسك بعض الإداريين من الفنانين بهذه الألقاب، هي غالباً ما تكون مفرغة من معناها لأنهم لا يكتبون، ويقتصرون على اللعثمة التشكيلية في أوقات متباعدة. تحول هذا اللقب مع الأيام إلى ترقية عسكرية تشبه عدد نجوم الرتب وعدد نجوم فنادق الدرجة الثالثة.

ولكن ورغم كلاحة وسخرية هذه الظواهر فقد بدأت الأمور تنجلي وتتظاهر إضاءات كتابية صحيّة غير مدعية، يمارسها عدد من الفنانين المحترفين، جمعت هذه الحالة المثابرة فناني الداخل مع فناني المهجر، والأمثلة تتضاعف كل يوم، أما كتاباتهم فتتوجه إلى النخبة المتخصصة مما يخدم دور النقد الصحفي الذي يتوجه إلى

شريحة أكبر وأقل تخصصاً، إن الوضع الجديد قوّى دور النقاد غير الممارسين فقد دفعهم في حومة هذا التنافس إلى الاجتهاد والإنصات إلى شهادات المحترفين الممارسين للون والخط وعذاباتهما. وليس إلى تهويمات نجوم الأدباء الذين لا يتحملون حتى اليوم رفع وصايتهم الطفيلية على النقد والتشكيل في آن، وذلك لقناعتهم المغرورة بأن «الأدباء قوامون على الفنانين»، يزرعون فوضى التقويم أينما حلوا، وبذل مصداقيتهم إلى المقربين من الهواة دون أدنى ناظم أو قياسٍ (بارمتر جمالي)، كل ما يهمهم هو إسباغ نعم نجوميتهم على من لا يستحقها.. لعل أبلَغ أمثلة هذه العلاقات التواطؤية التي تغذي نرجسية الفنان هو التحالف المذكور بين رزق الله والخراط.

هناك اختلاط في مثل هذه الحالات بين الاعتداد بالنفس وإلغاء الآخر وبالعكس نجد في مصر اليوم فنانين آخرين محترفين يكتبون عن مخاض تجربتهم دون الاستعانة بنجومية ومصداقية الأدباء، دون تحرج أو نرجسية أو محاباة للذات على غرار كتابات الفنان عادل السيوي الذي أسس مجلة «عين»، وأذكر عندما كنت أعمل في مجلة «فنون عربية»، ما حرره الفنان مصطفى الرزاز عن «جماعة المحور» في الثمانينيات، فقد ظل نصه متفوقاً على كل ما تلاه، سنعثر على نفس التفوق في دراسة الفنان خليل مرابط عن المحترف المغربي، ويزداد هذا التفوق حدة في المحترف التونسي حتى لنجد منظرين استثنائيين تجمعوا لفترة تحت قبة «معهد الفنون التكنولوجية والعمارة» على مثال الفنانين: الهاني والفخفاخ وسمير تريكي وقد تغير اسم المعهد الآن. لن نعثر على كتابات في المغرب العربي أهم مما كتبه الفنّانان: من أمثال محمد المليجي ومحمد القاسمي، يحضرني ذكر العديد من الفنانين الموهوبين في الكتابة من أمثال ضياء العزاوي وأحمد معلا وإلياس زيات وثروت البحر وأحمد نوار إلخ.

لا يقع في ظن القارىء أننا تهنا عن موضوعنا الرئيسي وهو حق الفنان في تقديم والكتابة عن تجربته، وذلك باعتبارها مشروعاً ثقافياً وليس تسويقياً أو نجومياً أو دعائياً أو تبشيرياً.

تخيلت في كتابي «المصور في مرآة الناقد» صادر عام ١٩٩٧ علاقة مرآتية، يلعب فيها المصور على رقعة شطرنج مع ذاته الناقدة، في هذه الصورة الرمزية أقمت حواراً في ستين صفحة، يعيد للفرشاة قلمها وحقها في التفكير والتعبير عن فكرها، فاللغة أداة تواصل وليست حكراً على الشعر والرواية.

أمّا الملف الذي أعرض فيه نماذج عن آخر أعمالي في الرسم والتصوير فقد قدمت في عام واحد من خلال معرض كبير في «صالة العالمية» في جدة بمساعدة مؤسسة المنصورية للثقافة والإبداع، ومعرض «مونت روزا» الذي كرم فيه ستة فنّانين عرب كان لي الشرف أن أكون أحدهم وهم: أسعد عرابي، إلياس زيات، حسن جويني، أحمد نوار، أحمد باقر، عبدالكريم الوزاني.

وشاركت بها في معرضين: «الهلال الأحمر» ومعرض «الأسود والأبيض» في صالة بيت جبري العريق في دمشق، ومعرض «ورقيات بال ڤيل» في باريس، كلها في بحر العام ٢٠٠١، لذا تستحق عرضها بحياد ودون تحرج. ■

شريحة أكبر وأقل تخصصاً، إن الوضع الجديد قوّى دور النقاد غير الممارسين فقد دفعهم فى حومة هذا التنافس إلى الاجتهاد والإنصات إلى شهادات المحترفين الممارسين للون والخط وعذاباتهما. وليس إلى تهويمات نجوم الأدباء الذين لا يتحملون حتى اليوم رفع وصايتهم الطفيلية على النقد والتشكيل في آن، وذلك لقناعتهم المغرورة بأن «الأدباء قوامون على الفنانين»، يزرعون فوضى التقويم أينما حلوا، وبذل مصداقيتهم إلى المقربين من الهواة دون أدنى ناظم أو قياسٍ (بارمتر جمالي)، كل ما يهمهم هو إسباغ نعم نجوميتهم على من لا يستحقها.. لعل أبلَغ أمثلة هذه العلاقات التواطوئية التي تغذي نرجسية الفنان هو التحالف المذكور بين رزق الله والخراط.

هناك اختلاط في مثل هذه الحالات بين الاعتداد بالنفس وإلغاء الآخر وبالعكس نجد في مصر اليوم فنانين آخرين محترفين يكتبون عن مخاض تجربتهم دون الاستعانة بنجومية ومصداقية الأدباء، دون تحرج أو نرجسية أو محاباة للذات على غرار كتابات الفنان عادل السيوي الذي أسس مجلة «عين»، وأذكر عندما كنت أعمل في مجلة «فنون عربية»، ما حرره الفنان مصطفى الرزاز عن «جماعة المحور» في الثمانينيات، فقد ظل نصه متفوقاً على كل ما تلاه، سنعثر على نفس التفوق في دراسة الفنان خليل مرابط عن المحترف المغربي، ويزداد هذا التفوق حدة في المحترف التونسي حتى لنجد منظرين استثنائيين تجمعوا لفترة تحت قبة «معهد الفنون التكنولوجية والعمارة» على مثال الفنانين: الهاني والفخفاخ وسمير تريكي وقد تغير اسم المعهد الآن. لن نعثر على كتابات في المغرب العربي أهم مما كتبه الفنّانان: من أمثال محمد المليجي ومحمد القاسمي، يحضرني ذكر العديد من الفنانين الموهوبين في الكتابة من أمثال ضياء العزاوي وأحمد معلا وإلياس زيات وثروت البحر وأحمد نوار إلخ.

لا يقع في ظن القارىء أننا تهنا عن موضوعنا الرئيسي وهو حق الفنان في تقديم والكتابة عن تجربته، وذلك باعتبارها مشروعاً ثقافياً وليس تسويقياً أو نجومياً أو دعائياً أو تبشيرياً.

تخيلت في كتابي «المصور في مرآة الناقد» صادر عام ١٩٩٧ علاقة مرآتية، يلعب فيها المصور على رقعة شطرنج مع ذاته الناقدة، في هذه الصورة الرمزية أقمت حواراً في ستين صفحة، يعيد للفرشاة قلمها وحقها في التفكير والتعبير عن فكرها، فاللغة أداة تواصل وليست حكراً على الشعر والرواية.

أمّا الملف الذي أعرض فيه نماذج عن آخر أعمالي في الرسم والتصوير فقد قدمت في عام واحد من خلال معرض كبير في «صالة العالمية» في جدة بمساعدة مؤسسة المنصورية للثقافة والإبداع، ومعرض «مونت روزا» الذي كرم فيه ستة فنّانين عرب كان لي الشرف أن أكون أحدهم وهم: أسعد عرابي، إلياس زيات، حسن جويني، أحمد نوار، أحمد باقر، عبدالكريم الوزاني.

وشاركت بها في معرضين: «الهلال الأحمر» ومعرض «الأسود والأبيض» في صالة بيت جبري العريق في دمشق، ومعرض «ورقيات بال ڤيل» في باريس، كلها في بحر العام ٢٠٠١، لذا تستحق عرضها بحياد ودون تحرج.■